

# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلاقية تاريخية  
تصدرها شبكة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	الحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
-------------	----------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفعة

الاشتراكات عبر	الإدارة
داخل القطر ... .. ٢٠٠	ميدان الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠	تليفون : ٨٤٣٣٣
خارج القطر ... .. ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

تتم الجزء الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )

## فهرس

### الجزء الاول — المجلد الحادى عشر

صفحة	
٣ ... ..	السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر ... بقلم حضرة الأستاذ مدير المجلة
٤ ... ..	تفسير سورة الحجرات ... ..
١٥ ... ..	هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ... ..
٢٣ ... ..	الوصية بالمال وغيره ... ..
٢٨ ... ..	مكان الزكاة من الشؤون الاجتماعية ... ..
٣٦ ... ..	أنبل الأخلاق الإسلامية ... ..
٣٩ ... ..	نظرات في المذاهب المتطرفة — الشيوعية
٤٣ ... ..	عبد الله بن عباس ... ..
٤٩ ... ..	الضمان في المعاملة الربوية ... ..
٤٩ ... ..	الصلوة في مسجد بناء مسيحي ... ..
٤٩ ... ..	بيع السمك في البحر ... ..
٤٩ ... ..	رضا الأب بتسميد ابنه ... ..
٥٠ ... ..	صداق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول
٥٠ ... ..	اليانصيب ... ..
٥٠ ... ..	في الرضاع ... ..
٥٠ ... ..	في الميراث ... ..
٥١ ... ..	تعليم طرق الوقاية في المساجد ... ..
٥١ ... ..	في الطلاق ... ..
٥٢ ... ..	الكلام والمتكلمون ... ..
٥٧ ... ..	نظرات في الأدب العربي ... ..
٦٣ ... ..	نظام الوقف في الاسلام ... ..



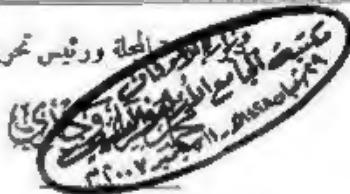
# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية  
تصدرها شبكة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	الحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
-------------	----------------	-------------------

المجلة ورئيس تحريرها



الاشتراكات معه

الادارة

داخل القطر ..... ٢٠٠  
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ..... ١٠٠  
خارج القطر ..... ٣٠٠

ميدان الأزهر

تيلون : ٤٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

من الجزء الواحد ٢٠ ملها داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذي جعل للحق أعلاماً تدل عليه ، وسخر له ألسنة من خلقه تهدي إليه .  
والصلاة والسلام على المثل الأكل للقطرة الإلهية ، والمظهر الأجل لجميع الكالات الخلقية ،  
محمد خاتم رساله الأكرمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فاننا تفتتح بهذا العدد المجلد الحادى عشر لمجلة الأزهر ، راجين الحق جل وعز  
أن يمدنا من عونه بمثل ما أمدنا به فى المجلدات السابقة . فلئن كنا قد أحسنّا فى القيام بما أسند  
إلينا ، فانما يرجع ذلك الى إمداده وتوفيقه ؛ ولئن كنا نَحِد قراءنا بالمثابرة على عملنا ، وبالدؤوب  
على زيادة تحصيله بمستأنف البحوث ، ومستطرف الموضوعات ، فانما نعمل ذلك استنادا الى  
فضله ، واعتمادا على إحسانه .

وإننا وجميع من يماوننا من أجلاء العلماء ، وكرام الكتّابين ، نحمد عهدنا لحضرات  
القارئین ببذل الوسع فى الاضطلاع بما تُدبنا له من إبلاغ رسالة الأزهر الى العالم الاسلامى  
كافة ، وخدمة أصول هذا الدين بما يصل اليه جهد العلم من التدليل والتدعيم ، ودحض  
الشبهات التى يثيرها خصومه أينما كانوا ، ونحت أى مظهر ظهروا .

ونحن إذا ذكرنا الأزهر ، وجب علينا أن نتوه بما لقيه ويلقاه هذا المعهد التاريخى  
الفخم من رعاية الاسرة العلوية وحمايتها ، وخاصة من فرعى دوحها الجليلين : المفقور له الملك  
فؤاد ، ونجله حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، الذى أحيا سيرة الصلف الأولين بما جرى عليه  
من التقاليد الصالحة ، والسنن القيّمة . حفظ الله وجوده عزرا للدنيا والدين ، وأمنع بفضائله  
وكالاته المسلمين .

ولا بد من الإشارة فى هذا الموطن بما يبذلّه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ  
محمد مصطفى المراغى شيخه الأكبر ، فإنه بما يقوم به فيه من إصلاح وطيد ، وما يستنبته  
فى بيئته من غراس طيب ، يمدّه لدور انتقال يصبح معه أفخم فى الاعين مظهرا ، وأهم  
فى تمثيل رسالة الاسلام أثرًا .

وإنه ليمرنا أن تفتتح عدد هذه المنة بدرس دينى لفضيلته ألقاه فى رمضان فى حضرة  
صاحب الجلالة الملك المعظم ، وفى حشد من رجال دولته ، وهو كجميع دروس فضيلته غداء  
للأرواح والعقول . أمد الله فضيلته بروح من عنده ، وأيده بمدد من جنده .

محمد فريد وهجرى

# نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

الدرس الأول الذي ألقاه فضيلته في رمضان سنة ١٣٥٨

بمسجد الأستاذ البوصيري بالإسكندرية

وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

عَلِيمٌ) :

تقدموا : يصح أن يكون من قدم المتعدي ، أو من قدم بمعنى تقدم . وعلى الثاني يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه - كما قال الراغب - لا يسبقوه بالقول والحكم ، بل افعلوا ما يرضيه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذي يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق إبداء الرأي والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدي إمامه ، على معنى يجعل بالأمر والنهي دونه . وعلى الأول إما أن يلاحظ تعديته إلى مفعول محذوف لقصد التعميم ، ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئاً ما بين يدي الله ورسوله ، قولاً أو فعلاً ؛ وإما أن ينزل مثله اللازم ، ومعناه : لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور إلى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحبي ويحب » .

وما ل المعنى على الوجه كلها : النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ومعنى « بين يدى الله » : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هو الامام .  
وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى  
ينظر اليه من غير تقليب حذقة . وذكر الرسول ، باعتبار أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشرعة ،  
والمدافع عنها .

« واتقوا الله » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره  
 واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بيّنها .

والسميع : إذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريه الجازاة بها .  
وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نواه عن الكافرين ، أو حث عليه ، فالقصد به  
الى تصور المعنى والتفكير فيه والاعتبار به ، نحو « الذين يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ  
أَحْسَنَهُ (١) » ، « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (٢) » ،  
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٣) » « وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (٤) » . والله يعلم  
المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى  
عليه خافية .

وهذه الآية تقرر أصلاً عظيماً من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لا معقب  
لحكمه ، وهو أحكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصل ثم تقرره بقوله تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ  
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مَّا قَضَيْتَ وَيَسَلُّوا  
تَسْلِيماً (٥) » وقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا  
حَرَامٌ لِنُتَفَتِّهُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ  
قَلِيلٌ » ، ولهم عذاب أليم (٦) » ، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٧) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما  
فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة الله ، وذكر  
باعتبار أنه مبلغ ومبين . أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستنبطونه فى الحوادث ،  
وفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ، فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسرار الله ،  
وفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب  
والسنة تطبيقاً صحيحاً ، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام الحقيقية لمصلحة الأمة ، فى دائرة  
الكتاب والسنة ، وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستنير

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاحراف : ١٧٩ (٥) النساء : ٦٥

(٦) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٧) النساء : ٥٩

العلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة في الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ؛ لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور ، وحسب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ؛ وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال إنهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتمسف الناس في التأويل ، وجدت مذاهب وآراء تبرا منها اللغة ، ويتجاف عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ؛ تعصب لها أصحابها على علم بضالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية ، فتفرق المصلون فرقا وأحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتحيز قتالها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا في صدر الاسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة .

جرت الأمور على هذا النحو ، فضمف شأن المسلمين ، وقا تل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، وأحبوا الحياة ، ونحلوا من الأوامر والنواهي الإلهية ، إما بالخروج عليها ظاهرا جهارا ، وإما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا لوازم الأخوة الإسلامية التى عقدها الله فى كتابه بين المسلمين .

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ؛ ولا نجاة لهم إلا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنه رسول الله . ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فإن فى دينهم من الأخلاق الكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى نحث على البذل والصدقة ، والتضحية فى سبيل الحق — ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق أنهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما فى العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها فى الآخرة الى النار . لعل هذه العبر توقظ النائم ، وتنبه الغافل ، وتحرك الجامد ؛ ولعل نقعة من قبلى الله تهيب فتستجيب لتلقى النور الإلهى ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وجملة « بين يدى الله » : تدل بمد ما تقدم على الحضور ؛ والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « ما يكون من تحوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبتهم بما هموا يوم القيامة » ، إن الله بكل شئ عليم (١) .

وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الاسلام عظيم ، وبيان ما يجب من الادب مع الله سبحانه ، فلا يعيننا بمد ذلك أن نبين سبب النزول ، وأن نذكر أنها نزلت في ممارسة الشيخين أبي بكر وصهر رضى الله عنهما فيمن يكون أمير وقد تميم ، أو في ذبيحة الاضحية ، أو في النهى عن صوم يوم الشك ، أو في غير ذلك .

وبضم التاء في « تقدموا » قرأ قراء الامصار . وقال ابن جريو : لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها . وقرأ بعضهم « لا تَقْدَمُوا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا .



(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

ظهور الشيء بإفراط لحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فمن الاول : « سواه منكم من أسر القول ومن جهر به (١) » ؛ ومن الثاني : رأيت جهاراً ، و « أرى الله جهرة » .  
والجَبْط : مأخوذ من الجَبْط ، وهو أن تكثر الدابة من الاكل حتى ينفخ بطنها .  
وفي الحديث « إن مما يُبْتِ الرِّبْعُ ما يقتل جَبْطاً أو يُلم » .

وجبوت الاعمال على ضرب :

أحدها : أن تكون الاعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغنى في الآخرة شيئاً ، كما في قوله تعالى : « وَقَدْ مَنَّآ اِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ حَمَلٍ بَعْمَلْنَاهُ هِبَاءً مَسْثُوراً (٢) » .

والثاني : أن تكون أعمالاً أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى أنه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ » ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به الى النار .

والثالث : أن تكون أعمالاً صالحة ولكن توجد لإزائها سيئات تطغى عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الادب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الادب مع النبي صلى الله عليه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الاكرم

مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضاً في الجهر وعلو الصوت . وقد قيل إن الأول يخص حال المسكلة ، والثاني حال صمته عليه السلام ؛ وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا تجهروا له عند دماثة إذا سكث وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن يراعوا في دماثة ومخاطبته اللين في القول ، أدباً مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه أن النهي عن رفع صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتماً ألا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضاً ، فلو لم يحمل أحد النهي على حالة ، والآخر على حالة أخرى ، ثم التكرار ، وأن يكون الثاني تأكيداً . والظاهر أنه لا داعي إلى هذا ، لأن الأول أفاد النهي عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وإن تضمن ما تضمنه الثاني ، لكن الثاني يفيد دلالة أن مقامه ليس كقوامهم ، وأن ما يليق بهم في التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والرفقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن .

أنهوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مشوية ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهي جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الإنسان غافلاً عما في النهي عنه من سوء ، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة ؛ وقد كان القوم جفاة غلاظاً قريبين عهد بالتبدي ، ومن عادة التبدي الجفاء في الخطاب ، والإغلاظ في القول .

أدبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي جباراً ولا متكبراً ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تقفه الأمة في الطريق لتحذته فلا يتركها حتى تتركه ، وقال : « إنما أولد امرأة كانت تأكل القديد » ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفكر والهم ، كثير الشواغل ، ينلق الوحي من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر في عزهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر في حرب من يحاربه ، وسلم من يسلمه ، ويفكر في توفير الخير للمسلمين ؛ وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومن كان هذا حاله ، وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شيء مشوش للخاطر . أدبهم الله بهذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ؛ ومن شأن النهي أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب في القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ؛ فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا نجد رجلاً لين القول سهلاً عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة ، مقلته الأيام ، وفاض عليه طيب منصره وكرم أرومته مما جعله محبوباً عند الناس .

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه ، ويداوم على التنبيه إليها ؛ وقد يكون ارتكاب

محرم ماداعيا الى استمراره والاستمرار فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الاعمال من حيث لا يشعر ، فالذيلة تكون أولأحالا ، ثم نصير ملكة ؛ وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فان طمعك يسرق وأنت لا تدري . وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يا رسول الله : والله لا أكلمك إلا السُّرَّار أو أبا السُّرَّار حتى ألقى الله ! وكان إذا قدم على رسول الله الوفود ، أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى أيضا أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس في بيته يبكي ، وقال : إني رجل جهير الصوت ، وأخاف أن يكون قد حبط عملي ! فبعث اليه صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيدا ، رضى الله عنه .



( إِنَّ الَّذِينَ يَفْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) :

الغرض : الامتحان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يُخَفِّضُوا مِنْ أَصْوَاتِهِمْ (١) » « وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ (٢) » .

والامتحان في الأصل : إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه . ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلانا لأمرك كذا فوجده قويا عليه ، أى جريته ؛ ويلزم من هذا معرفته .

تضمنت الآية السابقة التعذيب من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيب في القول اللين ، فقد جعل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفاهم وأعداهم للتقوى ؛ أو حرف الله قلوبهم معلة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح مما اقترفوه من السيئات ، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات .



( إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) :

الحجرة : القطعة من الأرض تحجر ، أى يمنع من الدخول فيها بمحاط أو نحوه . ووراء : فيه معنى المواراة والاستتار ، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، إذا لم تره ؛ فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها .

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد الأنخل مغطاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول مقفها بيدي ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس لذلك . وقد قال سميد بن المسيب إذ ذاك : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا إلى ترك التفاخر والتكاثر .

وعن زيد بن أرقم : جاء أناس من العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا فنحن أحسن الناس به ، وإن يكن ملكا عشنا فى جناحه ، ثم جاءوا إلى حجر النبي ينادونه : يا محمد ، فأرسل الله هذه الآية : وقد تأدى الرسول صلى الله عليه وسلم من نذائهم على هذه الصفة .

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل ، إما لأن فيهم من لم يكن موافقا ، أو لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من تاجية الجهل تقانون الأدب فى النداء ، والجهل بما ينبغي أن يكون عليه الطالب ، من تخيير الوقت ، وتخيير المكان ، وتخيير المباداة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس إلا حيث تقتضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام .

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور ، يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجاففة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق السوء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دقت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت حروجه . وكان ابن عباس يذهب إلى أبيه فى بيته لآخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يذق الباب حتى يخرج .

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بأدبه الكريم ؛ وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه .



(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصَحِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِرِينَ) :

فسق فلان : خرج من حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن معروف فيما كان كثيراً ، وهو أهم من الكفر ، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه كلها أو بعضها . وقوله تعالى : « أَفَسَوْا كَانُوا مُؤْمِنًا كَمَا كَانُوا فَاسِقًا (١) » يدل على أن الفسق أهم من الكفر ، لأنه قابل به الإيمان .

والبیان : الكشف عن الشيء . ويئنته وأبنته ، إذا جعلت له بيانا يكشفه . والتبيين : التعرف وطلب البيان . والدم : التحسر من خطأ الرأي في أمر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المتداومة والمداومة . فالندم : تحسر يلزم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتبينوا . وهما قراء تان معروفان متقاربتا المعنى ، قبايهما قرأ القارى فهو مصيب .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة في صدقات بني المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه ، تعظيماً لمن بعثه رسول الله ، فحدثه الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : إن بني المصطلق منموا صدقاتهم ، فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه ، وهم ينفزوم ، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعث إلينا مصداً فصررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق نخشياً أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية .

وأياً ما كان سبب النزول ، فالآية تقرر أصلاً عظيماً له خطره في الحياة . وكما فرق الكذب بين الأصداق ، وكما سمك من الدماء ، وكما شن من غارات ، وأثار إحاً وتوات ، وكما فرق العشائر ، وذهب بالأنس والأموال ، لذلك كان للصدق من المسكاة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطية ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار » ، ألا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجي من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجي من نواح أخرى ، فقد يكون الرجل عدلاً لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ،

فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ، وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فتدس اليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على غن الصدق .

والثنت في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار .

وكثيرا ما يقع عدم التثبت من المظاه التي يملكون النفع والضرر ، بحجبتهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب لظاتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم .

والذين هم في أشد الحاجة الى العمل بهذه الآفة ، هم الذين يبدون مقاليد الأمور ، ويبدون الضر والنفع ، أما الذين لا يملكون صرا ولا نفعا حاجتهم اليها أقل من حاجة هؤلاء . والآفة على المموم أدب عظيم لا بد منه لتكامل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قومًا مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، وأخذ منهم أموالا بغير حق .

قاله تعالى يرشد عباده الى هذا الأدب الكامل ، ويحذروهم أن يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها ، وقبل التثبت ، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الكاذبة التي لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصيحوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلازمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الكشف عن الأخبار ، ويروض نفسه عليها . وقد قال الحسن : فوائده لئن كانت الآية زلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شيء .

والبيان - هو الخبر العظيم . أما الأخبار النافعة التي لا يترتب شيء عليها ، فهي في غير حاجة الى التبين والتثبت .



( وَأَعْلَمُوا أَن فَيْحَكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْيِشْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) :

**العنت :** الجهد والمشقة والهلاك . **والزينة** ثلاثة أنواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجية عنهما كالجاه والمال .

**كفر النعمة وكفرائها :** سترها بترك أداء شكرها ، والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجهل الوجدانية ، أو الشريعة ، أو النبوة ، أو ثلاثها . وقد يقال : كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما أمره من شكر الله ، نحو « من كفر فعليه كفره » ، إذ هو مقابل لقوله : « ومن عمل صالحاً فلنا فليسهم » **يَمُهِدُونَ (١)** . والذي تنطوي عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليه « إن الإنسان لَكَفُورٌ مُبِينٌ (٢) » ، لكنه قد يخرج بالتعليم والتهديب وتقويم الدين الى حالة أخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « وكره اليكم الكفرَ والفُسوقَ والمعصيان » . فهؤلاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغرهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، غلب إليهم الإيمان ، وصار زينة صندم ، وكرهوا الكفر والفسوق والمعصيان .

**والمعصيان :** خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . وأصله أن يعتنق الرجل بعضاء .

**والرشد :** خلاف الغي ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرشد في الأمور الدينية والآخروية ، والرشد في الأمور الآخروية لا غير . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا . **والحكمة :** إصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله : علم الأشياء ، وإيجادها على غاية الأحكام ، وبالنسبة للإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخير .

تذكر الروايات التي رويت في قصة ابن عقبة وبنو المصطلق ، أن النبي عليه السلام ، حدثه نفسه بغزوم ، وأنه غضب على بني المصطلق بمد أن جمع خبر ابن عقبة ، وأنه لم يصدق وفدهم عند حضوره إلا بعد زول الآية ، وأنه بث خالد وأمره باستطلاع حالهم ، وعدم المجلة في حربهم ، وأن من المسلمين من حشن غزوم ، ومنهم من كان مع الرسول في القريث والتثبت . وقد دعا هذا بعض المفسرين الى توزيع الخطاب ، جعل قوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » لمن كان هم غزوم ومطالبة الرسول به ، وقوله : « ولكن الله حبب اليكم الإيمان » للفريق الذي لم يطالبه بالغزو وكان معه في التريث وطلب التثبت ؛ ورأوا أنه لا يصح أن يكون مخاطبون واحدا في الطرفين ، لأنه ذكر أولاً أن طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانياً أنه حبب إليهم الإيمان ، وكره الفسوق والمعصيان ، والأمران متناقضان لا يجتمعان في فريق واحد . غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق بلاغة القرآن وإيجازه ، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ؛ وصحلم ذلك مما يأتي :

بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين ، نههم إلى أن الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالميان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وثوقه ، لأن المؤمنين ورؤسهم الأعظم بينهم ، يجب أن يسكروا بعيدين عن الدنيا ، وعن الكذب الذي يؤدي إلى الفاسد ، ويحذر إلى ويلات قد يشترك فيها النبي الأكرم ، ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويمنعه ، أن يوقعه في مثل هذا الخطر الذي يؤدي إليه الكذب ، وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو إلى الاحتراز من وقوع المحبوب فيها لا يليق أن يقع فيه . والإعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذي يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك عاد الحديث إلى الطاعة ، وإلى عدم سبق بالرأي ، والتعجل في الحكم ، وهو موضوع أول آية في السورة .

والمر في ذلك الوجوب : هو أن الرسول مباح أمر الله ، ومبين له ، وأنه أدري بالأغراض الإلهية ، وأدري بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحي ، ويمدده النور الإلهي ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ، فيجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ، ولو أن الأمر انعكس وأطاعهم لألهم من طاعته إياهم عنت وجهه ، ومشقة وهلاك ، ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع إلا ما يوحى إليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يجر حديث عنه في الآية ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم إيمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حجب اليهم الإيمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعي طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وحسنه في قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوب ما نهى الله عنه ، وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذي فعل الفعل البعض ، تنبيه على أن المسلمين يعدون وحدة وإن كثرت الأعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع .

ومن المفسرين من حمل القسوق على الكبائر ، والمعيان على الصغائر . وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق في كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل القسوق على الكذب ، والمعيان على الإخلال بالأركان .

ثم وصف الله سبحانه من حجب اليهم الإيمان وكره اليهم الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون إليه ، وبين أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : إن الفعل إذا نظر إلى صدوره من جانب الحق سمى مفعلا ، وإذا نظر إلى وصوله إلى العبد سمى نعمة .

والله عليم : بأحوال الخلق ، والمحسن منهم والمسيء ، ومن هو أهل لفضله ، ومن ليس أهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعا .

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم  
وأصحابه إلى المدينة

بدء تألف الأنصار للدعوة الإسلامية :

كانت يثرب ، وهي التي اشتهرت باسم المدينة ، يسكنها قبيلتان - بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادها وأحفادها من التنافس ما لا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يحاور هاتين القبيلتين يثرب قبائل الجاليات يهودية هاجرت من موطنها ببلاد الدولة الرومانية هرباً بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم ثعات على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قادتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالوا قريشا على أولاد صهمم الخزرج ، فأرسلوا وفدًا منهم تحت قيادة إياس بن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا في عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، وقد أرساني الله إلى الشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فمارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه ديناً لهم ، وقالوا الرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فاذ يروا رأينا في الإسلام فلا يكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدهم باللقاء في الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم الى مكة اثنا عشر رجلا لتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عشرة من الخزرج واثنا من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ، واتفقوا معه على الاسلام ، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ولا يزناوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بهتان ولا يعصوه في معروف . وقد سمي هذا الاتفاق ببيعة العقبة الاولى .

ولما أزمعوا العود الى يثرب أمحبهم النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير المديني ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليدعيا الاسلام في القبيلتين ، ويدعوا اليه ، ويملأ من يدخل فيه .

فنزّل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارّة ، وأخذ يدعو الناس للإسلام . فلما نفي الخبر الى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم الى هذين الرجلين الذين يفتنان ضعفاءنا لترحرهما ؟

فهمّ أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارّة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومك قد جاءك فاصدق الله فيه .

فلما حاذاهما قال لهما : ما جاء بكما تفهنا ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كان لكما بنفسكما حاجة . فقال له داعية الاسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فإن رضيت أسرا قبلته ، وإن كرهته كففتنا عنك ما تكره ؟ جلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يبق من مجلسه إلا مسلما .

لما عاد أسيد بن حضير الى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابل مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فانه لما عاد لقي رجلا من بني عبد الأشهل وم من الأوس وقال لهم : ما تحدثوني فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه ، ومرتبان ما عم الاسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

#### بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالي لعام البيعة الاولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبي صلى الله عليه وسلم مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع لبلا عند العقبة ، فأصرهم أن يتلفعوا في الجبى ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لكن لا يقتبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما

مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا الى مكان الاجتماع ، وما زالوا يجتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهما امرأتان ، ووافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه معه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما ألتفتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخي عدا في منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا في ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما وعدوه به من الحماية ، وما نعوذ من ينقصه بسوء ، فأتهم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل إليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان في أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذلك أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشرت لربي أن تسبوه ولا تتركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن النخعيان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهدا ، وإننا ظموها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الهم الدم ، والهدر الهدر . أى إن طالبتكم بدم طالبت به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المنايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثني عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والثنت اليهم قائلا : أتم كفلاء على قومكم ككفالة الخواريين ليسى بن حريم ، وأنا كفيل على قومي .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهاهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم يا معشر الخزرج بلغنا أنكم حثتم لصاحدا تخرجوه من أرضنا ، وتبايعونه على حرماننا فأسكر مشركوكم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شيء في ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أبي : ما كان قومي ليقتاتوا على بشيء من مثل هذا .

يثرب معقل الاسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج إلى مدينتهم شاع فيها الاسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان ملغيا من مملأة أهلها للنبي صلى الله عليه وسلم صحيح ، وأدركت ما يبتغى على أغصانها عنه من الأحداث والكوارث ، فشدت الرقابة على رسول الله ، وزادت في النصيب على أصحابه لتحملهم على الانقضاء من حوله . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفرار بدينهم إلى المدينة ، فأخذوا

يتسللون إليها خفية ، حتى لم يبق في مكة غير أبي بكر وعلي وصهيب الرومي وزيد بن حارة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي ، فقال الصديق - وهل ترحو ذلك ؟ قال نعم ، فكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ في إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق التسمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش الى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكن قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالفت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تفضي لا محالة الى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالها الى الاجتماع للمشاورة في دار نذوتهم ، على عاداتهم في الشؤون الهامة ، وكانت هذه الندوة دار قصي بن كلاب .

فلما التأم جميعهم أخذوا يتأمررون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه . فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجوع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عنا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نحبسه حتى يأتيه الموت .

فعارضه بعض المؤمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجيء أنصاره يثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأي عندي أن تشترك جميع بطون قريش وأنفاذها وعشارها في قتله ، بأن ندب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيصروه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديتة . فقبل جميع المؤمرين هذا الرأي ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله الى رسوله بما يبتغى له قومه ، وأمره أن يهاجر الى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية في هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احتوشتها من محاولات القرشيين في منعها وتمقبها ، رأينا أن نقف في هذا الموطن ههنا لنسظر في التعليقات التي أبدت لتفسير الاسلام النعجائي لقبيلتين لا تختان بسبب الى أية دعوة دينية ، ولا يعنينا من أمر النهوض الاجتماعي للأمة العربية ما لا معنى غيرها . فاننا نرى أن تلك التعليقات ، حتى الاسلامية منها ، لا تنفع الغيبرين بموامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الامر الحلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة في هذا العصر الذي لا ينخدع أهله بالغلطات الكلامية .



إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يجعل تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية له مشها، فان كان كل ما لا يمكن تحليله بعلة طبيعية يعتبر آية، فهو آية يزيدنا من الأيام جلالة وعظما، ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل الى عناصرها الأولية. وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السريان فى الديانة الاسلامية، وفى سرعة تلقف النفوس لها، والتأثر بها الى أقصى حدود التضحية، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى، وهو الاسلام، ومن صحة رسالة الداهى إليه، وهو محمد، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى.

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتعدونهم بقولهم لهم: إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب، فإذا ما ظهر اتبعناه وانقمنا معه عليكم وقهرناكم. فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للإسلام، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم، وقال بعضهم: لبعض هلم بنا إليه، لا يسبقنا الامرياليون الى اتساعه. ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا الى تلبية نداءه، واضطلموا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه.

هذا التحليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة، ويقترح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الاسلامية إلا أمورا عادية يمكن تحليلها بعلة طبيعية، لا يسلم من النقد، بل لا يقوى على احتماله، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الاسلام، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالقطاع عنه، إلا بعد أن مضى على إعلان النبي صلى الله عليه وسلم له نحو ثلاث عشرة سنة، فأين كانوا من الاسلام طوال هذه المدة، وكيف لم يتحشوا أن يسبقهم اليه اليهود الذين توعدهم به، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة الى قبول دعوته، وقد بلغتهم بحكمة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج سنين كثيرة؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبي الجديد على مناهضهم؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يمتقدون يوشك ظهور نبي فى بلاد العرب، وأنهم يمولون على الانضمام اليه، والاستجداء به، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم الى الدخول فى دينه، ولم يمسد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود، ويبادرون الى الدخول فى دين جديد، وخاصة إذا كان الداهى اليه مضطهدا، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا؟

كان ميلهم الى الدخول فى طاعته، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقوا بهم على

أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والبي نفسه كان يطلب إليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا اعتماد يمكن الاعتماد عليهما ، فما يستحيل تمقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه يوقعهم في حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء في الوقت الذي كانوا هم فيه يريدون الاستكثار من الأنصار بطلبهم محالقة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قابلهم ودعاهم للإسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج يادروا إلى الإسلام للاستئجار بالبي صلى الله عليه وسلم على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء البثرين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول في طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا بما لا يسيفه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ما حريات الحوادث على خلافه .

فأنتى لتسليتين جاهليتين أن تعتقدا رسالة لم يقد دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطربة ، مغلويا على أمرها ، ولم يظهر بعد ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود في بلادها ؟ وأنتى لأحادهما أن يحصلوا إيمانا واسعا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويذلوا أموالهم ، في سبيل نصرته ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعمد في طبيعة البشر ، فاعظمك به كله طرفة وعلى غير انتظار ؟

لننظر في تعليقات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال هدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأي ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الإسلامية رآه أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلوا في الدين الجديد ، ويمودا إلى سالف صفائهما بسببه ، فأقدهما على ما أقدهما عليه .

تقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الفن يستجلبان عداوة قريش وحلفائهما ، ومن يهجم ملاشاة الدعوة الإسلامية من سائر العرب ، فتقع في شر مما هربت منه ، وتصبعا هدفا لخطط العرب واليهود معا ؟

أما عوم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعهما فستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسبى حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهي القيمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب أهلهما ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعددها بالبشر ، ويستهيى الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أمنامها ، وأباد خضراءها ؟

الهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل الى حلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم في سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُنتج يوسائل كثيرة ؟

الجيل في هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج في الاسلام لحجة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام الى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الفارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق في الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكرهوا أن يقيموا على وثنية منعطة كالتي كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا الى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القوي فكرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبيلية إزاء أم العالم ، واتفقوا لأن ينتقل مواطنهم درجة أو درجات في سلم الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعوة دينية ، أو فكرة جنسية ، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الى التآلف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا في حالة يرجسون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه .

ولم يعرف منهم تهذب نفسي ، وتطور عقلي ، يدفعانهم الى تطلب غذاء وروحى أرقى مما لغيرهم من سائر العرب . فإذا كانت قريش على كثرة رسلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها الى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن ينصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لها حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير في الشؤون الدينية والاجتماعية . وهذه الآثم المتمدنة أمامنا متى وقعت في حرب تجردت للنضال ، وتركزت هذه الشؤون جانباً ، حتى يجبى عهد السلام ، وتنفرد للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتفرع بها تلمس التعليلات الطبيعية ، وهي أن قبيلتي الأوس والخزرج برمتا باليهود الى حد تلمس التخلص منهم من أى وجه كان ، فقامتا على الاسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لا سارأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحي كانوا يرجون التخلص بالدخول في الاسلام وهو يحملهم أعباء حرية جديدة ، ويدفعهم الى التورط في منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن في تعليل مثل هذه الانتقالات المفاجئية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث في العالم الانسائي انتقالا جديدا ، بأوسال خاتم المرسلين اصطفاء من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليسكون أمره كله إعجازا في إعجاز ، فبث في رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول في عالم التطورات العقلية ، فقبلنا أن تضطعا لعبء حماية الدعوة الإسلامية ضد الأبيض والأسود ، أي ضد العالم كله ، وهي مهمة تعذر عن قبولها أمة عظيمة ، فأظلك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهاهما خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى في ساحة الوعي أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لها من المال ما تنفقاه على مثل هذا المسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة يرمتها لخروجها عليها ، لا تعدت قرائن أشجع أنطاها ؟ بل ما هذه التضحية التي لا يقبلها إلا من وصل الإيمان إلى أحماق قلبه ، حتى فثبت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا لحظات مختلطة في الليالي المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرحون العز والسودد ، ولكنتهم حيل رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع في خيره ، فإلى الذي جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم في سبيل دعوته ؟

اللهم إني عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكَم في الأرض والسموات من آيات يتخيّلها الحاهلون أمورا عادية ؟ محمد فريير وميرى

## التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأنصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أتم » .

وقال علي رضي الله عنه : « كل ما يتصور في الأوهام فاقه بخلافه » .

وقال الشافعي رضي الله عنه : « من اتهم لطلب مدره فإن اطمأن إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبه ، وإن اطمأن إلى نفي محض ، فهو معطل ، وإن اطمأن إلى موجود واعترف بالمعجز عن إدراكه فهو موحد » .

# الْوَصِيَّةُ

## حكم الوصية بالمال وغيره

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « جاء النبي صلى الله عليه وسلم يَمُودُنِي وأنا بمكة - وهو يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا - قال : يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ ، قلت : يا رسول الله : أَوْصِي بِمَا لِي كُلُّهُ ؟ قال : لا ، قلت : فَالضَّرَّ ؟ قال : لا ، قلت : فَالثَلْثُ ؟ قال : فَالثَلْثُ وَالثَلْثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَّهَمَ مَالَهُ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَإِلَيْكَ مِمَّا أَنْفَقْتَ مِنْ ثِقَّةٍ فَانْهَ صِلَقَةَ حَتَّى الْقِمَّةِ تَرْفَعَهَا إِلَى فِي أَمْرَاتِكَ ؛ وَصِي اللَّهِ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ » . رواه البخاري في الوصايا .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الوصية وحكمها . (٢) بيان معنى الحديث إجمالاً . (٣) بيان ما تضمنه الحديث من الحث على الاقتصاد في المال حتى في عمل الخير مراعاة لحقوق الورثة .

(١) تطلق الوصية في اللغة على معان ، يقال : أوصيت إلى فلان بمال : جعلته له وخصصته به . ويقال : أوصيته بولده : استمطقته عليه . ويقال : أوصيته بالصلاة : أمرته بها . وتطلق لغة أيضاً على وصل الشيء بالشيء ، فيقال : وصيت الجبل بالجبل إذا وصلته به . ومناسبة هذا المعنى للمعنى الشرعي الآتي بيانه ، أن الموصي لما أوصى بالمال بعد موته كأنه وصل ما بعد المرات بما قبله في نفوذ تصرفه . وتجمع الوصية على وصايا ، على زنة هدية وهدايا .

وأما معناها في اصطلاح الفقهاء . فقد عرفها الحنفية بأنها « تحليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع » . فقولهم : « تحليك » يشمل العقود التي تنقل الملكية ، كالبيع والهبة وغيرها . وقولهم : « مضاف لما بعد الموت » معناه أن الملك في الوصية لا يتقرر إلا بعد الموت ، بحيث لا يكون العقد نافذاً إلا بعد الموت . وهذا القيد يخرج جميع العقود ما عدا الوصية . أما قولهم : « بطريق التبرع » فانه زيادة الإيضاح . وبعضهم أخرج به الإقرار بالدين

لأجنبي ، فلو أقر في حياته بدين لآخر ثم مات ، كان ذلك الإقرار تملكاً للدين بعد الموت . ولكن الواقع أن الإقرار ليس هو تملكاً للدين ، وإنما هو إظهار لما في الذمة من حق مملوك للدائن من أول الأمر ، فهو خارج بلفظ التملك . ولا فرق في الموصى به بين أن يكون عينا أو منفعة . فإذا أوصى بستان أو نفود أو غيرها فانه يصح ، كما إذا أوصى بمنفعة ذلك البستان من ثمر وغيره . ولا يشترط أن يصرح بلفظ الوصية ، كما لا يشترط أن يصفها إلى الموت لفظاً ، إنما الشرط أن يذكر لفظ الوصية أو ما يدل عليها . فإذا قال : لفلان ألف قرش مثلاً من ثلث مالي ، فإن ذلك يكون وصية ؛ أما إذا قال : من نصف مالي أو ربعه ، فإن ذلك لا يصح ، لأن الوصية لا تكون إلا من ثلث المال ، فلا دلالة في مثل هذه العبارة على الوصية .

وهذا التعريف قد وافق عليه بعض محققى المالكية بنصه ، ولكن المشهور في نص تعريف الوصية عندهم هو أنها « عقد يوجب حقاً في ثلث مال العاقد يلزم بموته ، أو يوجب نيابة عنه » . ومعنى الجزء الأول من هذا التعريف متفق عليه بينهما ، لأنه عبارة عن تملك مثرى على عقد التبرع حال بعد الموت ، ولا يكون ذلك المقيد لازماً إلا بعد الموت . ومعنى الجزء الثانى وهو قولهم : « أو يوجب نيابة عنه » أن عقد الوصية كما يوجب حقاً في ثلث المال بعد الموت كذلك يوجب نيابة عنه في التصرف في بعض الأمور بعد الموت ، كأن يوصى بأن يقوم شخص على أولاده الصغار بعد الموت ، أو يزوج بناته ، أو يفرق ثلث ماله ، أو يقوم بتجهيزه ودفنه بصفة خاصة ، أو نحو ذلك . والوصية بهذا المعنى تكون إيصاء بمعنى إقامة الوصى . فالوصية عندهم عقد يوجب حقاً في مال المتوفى ، أو يوجب النيابة عنه في بعض الشؤون . والمالكية يشترطون في صيغة الوصية أن تكون مشتملة على ما يدل على الوصية من لفظ صريح : كأوصيت ، أو غير صريح ولكن تفهم منه الوصية بالقرينة : كأعطوا لفلان كذا بعد موتى .

أما الشافعية فقد عرفوا الوصية بأنها « عقد تبرع بحق مضاف إلى ما بعد الموت » سواء أضاف ذلك التبرع إلى الموت لفظاً أولاً . ويشترط عندهم أن تكون لفظ يدل على الوصية صريحاً أو كناية ، مثال الصريح : أوصيت بكذا لفلان ، أو أعطوه كذا ، أو هذا المال لفلان بعد موتى ، أو هو له هبة بعد موتى ؛ فشكل ذلك ونحوه وصية صريحة . وأما الكناية فكان يقول : لفلان كذا من مالي ، ولم يذكر بعد الموت .

ومما لا يخفاء فيه أن الوصية تطلق في اللغة على الإيصاء بمعنى إقامة الوصى ، كما تطلق على ما يوصى به من مال أو غيره . وهذا المعنى لم يختلف مع المعنى الشرعى في الواقع ، لأن الشارع يعتبر إقامة الوصى وصية ، كما يعتبر المقيد الذى يدل على تملك الموصى به شيئاً من مال أو غيره وصية . فإذا لوحظ هذا المعنى كان متفقاً عليه عند الجميع . والحنفية يقولون :

إن لفظ التملك الذي ذكر في التعريف يتناول تملك المال وغيره ، ولا فرق في هذا بين تملك وصى أو غيره .

أما حكم الوصية - فقد اتفقت الأئمة الأربعة على أن الوصية ليست بواجبة ، ولكن قد تكون واجبة لأم خارج عنها ، وذلك كما إذا كان عليه دين أو عنده وديعة بمقتضى ألف تضع على صاحبها فانه يجب عليه أن يوصى بردها الى صاحبها ، كما يجب عليه أن يوصى بسداد دينه ولو كان مؤجلا . فالوصية إنما تجب إذا أريد منها أداء حقوق الغير الواجبة . وإنما تجب في هذه الحالة إذا حصر عن تجيز ما عليه ، ولم يكن لصاحب الحق مستند يمكنه أن يشت به حقه . وقد تكون الوصية مندوبة ، وذلك فيما إذا رجا منها كثرة الأجر . وتكون مكروهة إذا لم يرج منها كثرة الأجر ، وذلك كأن يكون انتفاع الورثة بها أكثر . وتكون مباحة إذا استوى عنده الأمران . وتكون محرمة إذا ترتب عليها إضرار بالورثة ، فقد روى عن ابن عباس أن الإضرار في الوصية من الكبائر . على أن بعض المجتهدين يقول إن الوصية واجبة على أي حال ، بحيث إذا كان لدى الشخص مال فانه يجب عليه أن يوصى . ومن هؤلاء داود وإسحاق . واختار هذا القول أبو عوانة الأسفرايين وابن جرير وغيرهم . ولكن جمهور المجتهدين يرى أنها ليست بواجبة ، حتى قال بعضهم : إن الإجماع قد انمقد على أنها ليست بواجبة سوى من شد . وبذلك تعلم أن الوصية الواجبة هي ما قررناه لك من أنها تارة تكون واجبة ، وتارة تكون محرمة ، وتارة تكون مندوبة .

ولندكر هاهنا أمثلة مما تصح الوصية فيه من الأموال التي لا تصح عند الأئمة الأربعة : فتصح الوصية بالحج باتفاقهم جميعا ، فإذا أوصى شخص بأن يحج عنه بعد موته ، فإن وصيته تصح ، ويجب تنفيذه من ثلث ماله . وبعض أئمة الحنفية يرى أن من لم يحج حجة الفريضة فانه يجب عليه أن يوصى بها .

ولا تصح الوصية بقراءة القرآن على القبور أو في المنازل ، وتقع باطلا عند الحنفية . هذا إذا لم يمين شخصا يقرأ على قبره أو في منزله ، كأن يقول : أوصيت لمحمد أو لعل أن يقرأ على القبر الذي أدفن فيه ، ونحو ذلك ، فإذا عين شخصا يقرأ فإن في ذلك خلافا ، فمعض الحنفية يقول : لا تصح الوصية أيضا مع هذا التمييز ، وبعضهم يقول : إنها تصح بشرط أن يأخذ المال الموصى به بطريق البر والعلة ، لا بطريق الأجرة على القراءة .

ومثل الوصية بالقراءة ، الوصية بالتهايل ( العتاقة ) المعروفة عند الناس ، فإن الوصية بها باطلة إذا لم يعين شخصا ، فإذا عين شخصا ، جرى فيها الخلاف المتقدم . وقد خالفهم في ذلك المالكية والشافعية ، فقالوا : إن الوصية لمن يقرأ على القبر أو في المنزل تصح ، ويجب تنفيذها ، كالوصية بالحج ، لا فرق في ذلك بين أن يمين الشخص الموصى له أو لم يمينه .

ولا تصح الوصية بالبناء على القبور ، فإذا أوصى بأن يشيد على قبره بناء تقع الوصية باطلة بلا خلاف . نعم تصح برم القبر الذي يوضع فيه الجسم إذا تهدم بشرط أن لا يبنى عليه بناء مرتفع كالمنازل مما يعمله الناس في زماننا . نعم تصح الوصية ببناء ما يميز القبر ؛ وحدته بعض الأئمة بمقدار شبر ، وبعضهم بمقدار ذراع ، ونحو ذلك .

ولا تصح الوصية بأن ينقل من الموضع الذي مات فيه الى موضع آخر ؛ وإذا نقله الوصى وأنفق عليه يكون ما أنفق من ماله لا من التركة ، إلا إذا أجاز الوارث . وإذا أوصى بأن يدفن في داره نطقت وصيته ، إلا أن تجعل داره مقبرة للمسلمين .

وإذا أوصى بمبلغ كبير يشتري به كفنه فإنه لا يعمل به ، ويكفن بكفن المثل .

وإذا أوصى بمصاحف توصع في المسجد ، فإن وصيته تكون باطلة عند أبي حنيفة .

وبالجملة : فالوصية لا تصح إلا إذا كانت متعلقة بأمر من الأمور التي يحجزها الشارع .

(٢) هذا معنى الوصية وحكمها . أما شرح ألفاظ الحديث فظاهرة ، لأن سعد بن أبي وقاص سافر من المدينة الى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فرض سعد بمكة مرضاً شديداً حتى ظن أنه سيموت بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها ، ويود أن يموت بالمدينة التي هاجر إليها ، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ابن عفرأ ! يريد به سعد بن خولة ، وعفرأ اسم أمه على التحقيق ، وخولة اسم أبيه ؛ وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم ، لأن سعد بن خولة توفي بمكة بعد أن هاجر الى المدينة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرثي له ، وقد ذكره لمناسبة كراهية سعد بن أبي وقاص الدفن بمكة .

وقوله : « إنك إن تدع » بكسر إن على الشرطية ، وجواب الشرط قوله « خير من أن ندعهم » ، ولا يضر حذف الفاء من الجواب ، لأن ذلك قد ورد عن العرب ، بل ورد في كلام رسول الله حيث قال : « البينة والإحد في ظهرك » . وقوله : « حالة » جمع عال ، ومعناه الفقير ، تقول : حال فلان يميل ، إذا افتقر . وقوله : « يتكففون الناس في أيديهم » : يسألون الناس بأكفهم ؛ يقال : تكفف الناس : إذا بسط كفهم للسؤال ، أو سأل وصع الصدقة في كفهم ، أو سأل كفاً من طعام . وقوله : « في أيديهم » معناه بأيديهم . وقوله : « وعسى الله أن يرفعك » معناه : يطيل عمرك . وبذلك تعلم أن قوله في الحديث « وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها » المراد به سعد بن أبي وقاص راوى الحديث ، وكان الظاهر أن يقول : وأنا أكره أن أموت بالأرض التي هاجرت منها ، ولكنه عبر بهذه العبارة بطريق الالتفات . والدليل على ذلك ما صرح به في حديث آخر رواه البخاري ، وإن كان يحتمل هنا أن الضمير مائد الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها كما يكره سعد . وقد تحقق إخبار الرسول



صلوات الله عليه بذلك ، فإن سمعنا قد عاش بعد ذلك طويلا ، حتى إنه قاد الجيش الذي فتح مدائن كبرى في عهد سيدنا عمر ، وورق أولادا كثيرين نحو عشرة من ذكور وإناث .

( ٣ ) أما بيان ما نصمه الحديث من مراعاة حقوق الوارث فأمره ظاهر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان دائما يحث الناس على أداء حقوق من يمولون . وقد ورد حديث صريح في ذلك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يمول » . وهذا الحديث الذي معنا صريح في ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أنفقت من نفقة فأبها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك » . فهذا صريح في مراعاة حال الورثة الذين يتركمهم بعده . وإذا كان الشارع قد أمر بمراعاة حال الورثة في أعمال الخير والبر ، فمن باب أولى مراعاة حالهم في الإتيان ، فليس من الحسن أن تستهوي الشهوات المره ففسوقه إلى تدمير المال وإتلافه ذات اليمين ودات الشمال حتى ينفد ويترك ورثته في ضنك وبؤس وشقاء ؛ ومن يفعل ذلك كان آثما لا محالة ؛ ولا بد أن يسأل عن ذلك يوم لا تنفعه الشهوات التي قد انقضت كاهل لم تكن ، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز ابن آدم الصراط حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » ؛ وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . فالخير كل الخير أن يعمل الإنسان بقوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

عبد الرحمن الجزيري

## قيمة العلم عند المسلمين

قال الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ومداد الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ؛ ولغدوة في طلب العلم أجدر إلى الله من مائة غدوة ؛ ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا ومالك موكل به يبشره بالجنة ؛ ومن مات وميراثه الخاير والأقلام دخل الجنة » . وقال على رضى الله عنه : « أقل الناس قيمة أقلهم علما » . وقال سهل بن عبد الله التستري : « ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل » . فقيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل مطية من ركبها رل ، ومن صحبها ذل .

وقال على رضى الله عنه « الحكمة ضالة المؤمن فالتقها ولو من أفواه المشركين » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتي في شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » .

## مكان الزكاة في الاسلام

### من الشؤون الاجتماعية

إن للمجتمعات شئونها بإصلاحها تصلح المجتمعات ، وبفسادها تفسد المجتمعات ؛ ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية ، فأصلحتها وركزتها على نظم قوية مشددة ، إلا تناسكت حياتها ، واضطربت عزتها ؛ وكذلك لا تعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح الفوضى ، وتأخرت في مضمار التسابق الاجتماعي ، ثم عاجلها الله بالنساء أو الذل والاستعداد : « فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

هذا عبداً شهده التاريخ ، وأرشدت إليه السننات ، ولقت إليه القرآن ، ونوته به في غير آية : « ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ، « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .

بهذا المبدأ آمن حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر ، الذي تغذى بلبان الإصلاح النقية ، فرأى ، حفظه الله ، أن صلاح أمته لا يكون إلا عن طريق إصلاح شئونها الاجتماعية ، فأنشأ لأول مرة في تاريخ مصر حديثه وقديمه ، وزارة حملتها تنظيم هذه الشؤون ، على وجه تنمذ به الأمة حبيبتها الى الحياة الطيبة والعيش الرغيد .

ويسرى ، كما يسر المصريين جميعاً ، أن هذه الوزارة تؤمن بأن لكل مجتمع طائفاً خاصاً ، ترسمه له قوميته الخاصة التي يكوها دين المجتمع ، ولفته ، وتقاليده الطيبة ، فتقدر أن إصلاح الشؤون الاجتماعية لكل مجتمع لا بد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع ، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعي ، لا يمكن أن يكون واحداً في جميع المجتمعات ، فإصلاح اجتماع غربي لا يكون طريقه طريقاً لإصلاح اجتماع شرقي ، وإصلاح اجتماع غير متدين لا يكون طريقه طريقاً لإصلاح اجتماع متدين .

على هذا الأساس يجب أن تستقبل وزارة الشؤون الجديدة عملها ، فتنتجه الى الإيحاء القومي فيما يختص بالدين الى أهل الدين ، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد الى أهل الأخلاق والتقاليد ، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدني الى أهل الصحة والنشاط البدني ، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير الى أهل الاقتصاد والتدبير .

وبهذا تتنوع لجان العمل ، وتمثل فيها طوائف الاحصائيين في الشئون الاجتماعية ،  
بمناصر تبدي إيماء قوميتنا الخاصة ، كل فيما يختص بدائرته .

ويجب أن يكون هذا عهدا بين الوزارة وهذه المناصر ، يوجب أولاً على هذه المناصر  
أن تعمل جهدها مخلصة في تحرى إيماء القومية الخاصة ، ويوجب ثانياً على الوزارة ، إذا  
ما تحققت من صلاح المقترح ، أن تعمل بكل ما مسحت من إمداد مليكها المصلح ، على  
تنفيذ ذلك المقترح ، وإسداء قعده وخيره البلاد .

وليجعل الجميع نصب عينيه قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقوله  
تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لئى حسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ،  
وتواصوا بالصبر » .

وعلى هذا الأساس أتحدث عن مكان الزكاة الاسلامية من الشئون الاجتماعية ، ونسارة  
أخرى : عن الصلة التى وضعها الاسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، والمصالح العامة  
التي تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها . ويجب أن نعلم هنا أن الاسلام ليس ديناً روحياً  
فردياً ، تنحصر مهمته فى صرف الانسان عن دنياه الى أخراه ، وإنما هو دين اجتماعى قبل  
كل شئ . . . دين له فى كل شأن من شئون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحكماء  
والفلاسفة ، دين مهمته أن يأخذ بالانسان الى السعادة فى الحياتين ، وأن يوجهه الى العمل للدنيا  
كأنه يعيش أبداً ، وإلى العمل للآخرة كأنه يموت غداً : « من كان يريد ثواب الدنيا ،  
فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » . دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا ، وأن سعادة  
الآخرة تتطلب قوة فى الحق ، ونهضة فى العمل الصالح ، ورغبة فى عمل الخير ، وأن من كان  
فى هذه الدنيا أحمى مما تتطلبه الآخرة فهو فى الآخرة أحمى وأصل سبيلاً . . .

وسيقط المسلمون فى جميع نقاع الأرض حيارى مضطربين ، الى أن يفهموا علاقة دينهم  
بالحياة الاجتماعية ، ويستقبلوا تعاليمه ، ويتخذوها عدة فى حياتهم ، وطريقاً لسعادتهم .

وهذه الزكاة ، التى جعلها الاسلام عبادة من العبادات ، وركناً من أركان الدين ، سبرى  
فيها حضرات القراء أن الاسلام حتى فى عباداته لم يكن إلا تهذيباً للقطرة الانسانية ، وتنظيماً  
لشئون الجماعة .

بنى الاسلام فى العقيدة والعبادة على أركان خمسة . التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،  
والحج . ويطول بنا القول إذا بيننا علاقة كل هذه الأركان بالشئون الاجتماعية . ونختزى الآن  
بأن التوحيد هو الركن القابض الذى يشاد عليه صرح الخير كله . والصلاة والصوم ركان  
بذنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير ، والدعوة اليه . والزكاة ركن مالى قصد به تنظيم

شأن اجتماعي عظيم له خطره في حياة الأمم ، وأخلاق الأفراد ، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء ، وبمصالح المجتمع .

قصت الحكمة الإلهية ، أن يكون الناس متقدمين في الدرجات ، متفاوتين في الغنى والفقير ، وقصت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض ، يعمل له ، ويستمد رزقه من رزقه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ... »

وعلى هذا النظام الاجتماعي ، قامت الأعمال ، ودارت الحركات ، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش ، والارتقاء ، ولكن الشح الذي طبع عليه الإنسان جعل من اختلاف الناس في المواهب والاستعداد ، وتفاوتهم بالعلم والفقير ، سببا في مرض اجتماعي خطير : ذلك أنه شغل الأغنياء بأمورهم حتى أهملوا حق الفقير والمسكين ، والعامل والضعيف ، ونمت فيهم فكرة الأثرة والاستغلال ، وأحس الفقير لصيق في صدره أخذ يتلمس له طريقا للخروج فلم يجد سبيلا ، فتولد عنده حسد على الغنى لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء نارا حامية يضطربها أرباب الأموال ، وقاموا ينادون في بعض الأمم المتحضرة ، بالغاء نظام الملكية الفردية ، واضطرب جبل الجماعة ، واختل توازنها ، وانتهى الأمر بهم إلى إكثار الأديان والقوانين ، وأريق في ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية . وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغنى لحق الفقير ، واستغلاله لمنفعته الشخصية ... ١

أما الاسلام فقد قدر ، وهو في أول مرحلة من مراحل الدعوة ، قبل تهيئة النفوس لتنظيم والقوانين — خطر إهمال حق الفقير ، كما قدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملكية الفردية ، فافقر الملكية الفردية ، وأجرى سنة السكون في مجراها الطبيعي ، ثم وضع الطرق الواقية من شر الطغيان المالي ، القاصي بتحكم أرباب الأموال ، واستغلال الفقراء . وهذا احتفظ بسنة القوانين ، وأصول الجماعات والحقوق الفردية ، وأمن في الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية ، فوقف وسطا بين الإفراط والتعريط ، شأنه في كل تشريع . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .

وإني أحدثكم عن مجمل المبادئ التي اتخذها القرآن في التمهيد : عهد الدعوة بمكة ، وعهد التنقيح بالمدينة ، اتخذها علاجا لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة :

أعلن القرآن أن المال في يد الأغنياء ليس لا وديعة الله ، استخلفهم في حفظه وإدارته ، وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ، « وآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » .

أشعرهم بالوحدة القومية الموحدة للتكافل والتعاون والإيثار ، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله : « وَلَا تَتَوَلَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » .

حارب فيهم خلق الشح الذي يمنع من التراحم والبذل ، ومساعدة الضعيف : « وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ حَبْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَغُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، ولله ميراث السموات والارض ، « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ ، فَأَعْمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشَّحِّ : أَمَرَهُمُ بِالْقِطْعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْبُخْلِ فَبُخِلُوا ، وَأَمَرَهُمُ بِالْمَجْجُورِ فَجَجَرُوا » ، « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ عَلَمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، واتقوا الشحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . جاهدوا على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا بحارمهم . ولعلنا لا نجد أصرح ولا أقوى من هذا التنبير في تصوير الخطر الاجتماعي الذي ينبت من الشح بحق الفقير والمحتاج . والشح بلا ريب من أكبر الآفات التي تضر بالاجتمع الانساني ، وتقضى على حياة الامم وصالح العمران ؛ فهو يمنع التعاون والتراحم ، ويفرّس الحق ، ويولد ثورة النفوس ، ويرى بالمجتمعات في الهزات السحيقة .

هدد الأغنياء إذا هم قصروا في حق الفقير ، واستغلوا حاجته لمفغتهم الشخصية : « يَحْقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ » ، « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . « وَيَلِ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ » ، « إِنْ الصَّدَقَةُ تُدْفَعُ بِالْبَلَاءِ » ، « صَنَائِعُ الْمُرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ » . وإنا لننزع تفسير هذه الحرب التي أذن الله بها للمستغلين ، وتفسير ذلك الويل الذي يصيب الأغنياء من الفقراء ، وتفسير ذلك البلاء الذي تدفعه الصدقة ، وتفسير مصارع السوء التي تقى الانسان منها صنائع المعروف ، ندع تفسير كل ذلك الى ما هو الواقع الآن في أمم الحصار من حرب الطبقات ، والى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فانه أعظم مفسر يتلأى أمام روعته البيانية ، كل مقال وبيان .

حركت العواطف ، ونبه الوجدان الى العطف الانساني ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة . وحسبك في عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطلاعهما ، والقيام بكفائتهما ، أنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين ، أو ذكر لأحدهما .

جعل لها حقا في الصدقات المعروضة (١) ، جعل لها حقا في الفدية (٢) ، جعل لها حقا في النوى التي يملكها الله منه جماعة المسلمين من غير قتال (٣) ، جعل لها حقا في المال إذا اقتضاه أربابه بمحضر منهما (٤) ، جعل لها كفارة الجبن (٥) ، جعل لها كفارة اعتداء الحرم على الصيد (٦) ، جعل لها كفارة الظهار (٧) ، جعل لها فدية الإفطار في نهار رمضان (٨) .

(١) ارجع الى الآية ٦٠ من التوبة (٢) ارجع الى الآية ٤١ من الاحال (٣) ارجع الى الآية ٧ من الحشر (٤) ارجع الى الآية ٨ من النساء (٥) ارجع الى الآية ٨٩ من المائدة (٦) ارجع الى الآية ٩٥ من المائدة (٧) ارجع الى الآية ٢ من المجادلة (٨) ارجع الى الآية ١٨٤ من البقرة .

وقد بين الحكمة الاجتماعية السامية ، في إعطائهم هذا العطاء ، وهي الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة الأغنياء يتداولونها في أيديهم خاصة ، فيثير الفقراء عليهم حرباً طاحنة ، وذلك قوله في آية النى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ثم يحمل العطف عليهما بعد ذلك ، والقيام بحقهما ، من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » .

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام ، ويبين أنها خير للجماعة غير محدود ، أعلنت ثم خفيت : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .

ثم يبالغ في الوصية باليتامى والمساكين ، فيقرنها بتوحيد الله والإحسان إلى الوالدين ، في غير آية ؛ اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ، وبالوالدين إحساناً . ثم يقول : « وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل » .

ثم يذم الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حق الفقير والمساكين ، فيذكر البخلاء ، والأمين بالبخل ، ويذكر العذاب المهين ، الذى أعد للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة : « إن الله لا يحب من كان غفلاً غفورا . الذين يغفلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، واعتدنا لكافرين عذاباً مهيناً » .

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير ، شدّد التنكير على المبذرين ، وبين سوء ماقتهم ، فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً » . وخافة أن يحمل ذلك البيان على التفتير فيمنع حق الفقير ، أرشد سبحانه إلى الطريق المعتدل فقال : « ولا تحمل يدك مغولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

ثم تمالوا واستمعوا بعد ذلك إلى القرآن ، وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمساكين هو العقبة الوحيدة ، التى إذا اقتحمها الإنسان وصل إلى السعادة الحقة ، التى لا يشوبها تنقيص ولا ألم : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ : فَكْرٌ رَقِبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فى يَوْمٍ مَسْفُوحَةٍ ، يَتِيَا ذَا مَقَرَّةٍ ، أَوْ مَسْكِيماً ذَا مَرْتَبَةٍ . ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصبر ، وعواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » .

حسب الفقير أن الله لم يذكر في كتابه شائناً من الشئون باسم العقبة إلا فى هذا الموضع ،

موضع تنظيم علاقته بالفقير ، فافقرهوا القرآن وتبموا لتعلموا مقدار حجب القرآن على الفقير والمحتاج والضعيف .

اسمعوا قول الله فيمن لا يحض على طعام المسكين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين ، الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . قَوْلٌ لِلْمَصْلِينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

اسمعوا قول الله في الجرم الذي يصيبه خزي الله ونكاله : « إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حِجْمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْغَاطِلُونَ » .

اسمعوا قول الله فيمن يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله : « وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبُشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

اسمعوا قوله في أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين : « كَلَّا أَتَى عَلَى الْكَارِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُؤْتَى وَثَاقَهُ أَحَدٌ » .

ثم تعالوا واسمعوا جواب المحرمين حين يسألون يوم القيامة : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين » . . .

وأخيرا تعالوا واسمعوا قول الله في أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين : « أَلَمْ أَكُ التَّكَاثُرِ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » . . . هذا نزر قليل من علاج القرآن لمشكلة الفقير مع النسي .



حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق ، وأرهف وجدانهم ، واستدر عطفهم على الفقير والمسكين ، إصلاحا لهم وللمجموعة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب . وبصد أن استتب الأمر لجاعة المسلمين ، وتهيات النفوس للقوانين والنظم ، وضع للفقراء حقوقا كوردها دائما .

وضمه في لكتفارات ، والاجزية على الأخطاء التي يرتكبها الانسان في حياته الشخصية أو عباداته ، وضمه في الزكاة فرضا من الفروض الدينية ، يتفذه بالقوة ويقاقل من امتنع من أدائه ، وضمه في الذهب والفضة ، وفي البضائع التجارية ، وفي المواشي ، وفي الزرع ، بنسب لا تهرق الدمى ، وتسعف المسكين والعقير ، وتصلح شأنه ، بنسب يفوق مجموعها مجموع ما يصرفه أغنياؤنا في ترفهم وينحهم في البلاد الأجنبية كل عام من غير قائمة تعود عليهم وعلى أمنهم .

وقد كان للزكاة في صدر الاسلام نظام خاص ، وكان الأحكام بها عناية خاصة في جمعها وصرفها . كانوا يحجزون الجيوش ، ويدفعون المغارم ، ويتأمنون قلوب الصغفاء ، ويعينون المحتاجين . أما اليوم فقد خف عن كاهل الزكاة كثير تصرفه الدولة من مواردها الخاصة على المصالح العامة ، كالجيش والتعليم ، ولم يبق ما يحشى شره ، ويهدد العالم بثورته سوى الفقير وحاجته .

فهل للأغنياء أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم ، ويصرفوها في مصالح الفقير ، فيسئلوا بها حقه عليهم ، ويصير عوالمهم ، يحرس أموالهم ، ويعمل على تنميتها ، حتى يرفرف على الجميع علم الطمأنينة والسلام ؟

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ، وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التي لا تأتي موارد الدولة بإنشائها ، فتطهر الأمة من جراثيم المرض ، ويخفف عنها ضغط هذا الحيش العاقل الذي تبدو كثائته في المتسولين الذين يملأون الشوارع والأزقة ، وفي المتشردين الذين يهددون الأمن ، ويقلقون راحة الجميع ، وفي المتملمين وأنصاف المتعلمين وشباههم ، مما تطالعنا بأحصائهم في كل عام نتائج الامتحانات ، وكشوف المقطعين عن طلب العلم ؟

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فيصلحوا من شأن هؤلاء ، ويوجدوا منهم رجالا حاملين في الحياة ، يشمرون بالمرزة والكرامة ، ويشمرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون ، وعنها يسألون ؟

هل لهم أن يضعوا أيديهم في يد وزارة الشؤون الاجتماعية وينصاموا معها على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات ، به ينتشلون البلاد من خطر الفقر والعامل ، فتطمئن الجماعة على حياتها ، وتلتفت بأموالها وببنينا ؟

إن الدين الاسلامي لم يترك فرصة لإحياء قلب الفقير إلا أمر باتهازها . ولا يغيب عكم أيها الأغنياء موقفه من الفقير عقب صيام رمضان ، في الوقت الذي تعدون فيه العدة لاستقبال العيد ، الذي جعله الله مظهر فرح شامل ، لم يقته أن أوجب صدقة الفطر توزع على الفقراء والمساكين ، فيكون لهم منها سلة مما أصابهم من فقر ومسكنة .



فإذا قامت وزارة الشؤون الاجتماعية ، تدعو الناس الى المبادرة باخراج زكاة الفطر إصلاحا  
 لفان له خطره في المجتمع ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها الاجتماع  
 الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وإذا قامت تدعو الناس الى ايداع صدقاتهم في مسابيق  
 تشرف عليها جهات زينة ، وتصرفه على الاسر التي تُخفي عليها الدهر ، وبنمها الحياء من  
 الظهور بمظهر السائل والمحروم ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها  
 المجتمع الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وقد ذكر الله الفقراء الذين لا يستطيعون ضربا  
 في الأرض وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف . « لا يسألون الناس إلحافاً » . وقد جاء  
 في الاخبار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل على صدقة الفطر ذلك الصحابي الجليل  
 أبا هريرة ، على الأسرة السكرعة التي يمنحها حياؤها عن أن تسأل . فلم تفعل وزارة الاجتماع  
 إلا ترسيما لخطئة الصدر الاول في إمارة الفقير ، والمحافظة على كرامته .



هذه مكانة الزكاة والصدقات من الشؤون الاجتماعية ، وهي مكانة القلب من الرحي . وهذا  
 هو موقف الاسلام من الزكاة والصدقات ، وهو موقف يتخفف من وطأة الأغنياء على الفقراء ،  
 وييسر في الفقراء روحا طيبة للأغنياء ، ويمضي للجماعة أن تتنفع بهؤلاء وهؤلاء .  
 وبعد : فليسمح لي حضرات الامراء ، والأغنياء ، والمفكرين ، أن أبارحهم بكلمة صريحة  
 حاسمة :

إن التطور الفكري المتنافس ، قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرتنا به على ملتقى  
 السبل ، إما أن نسير في سبيل الرأسمالية ، كما يلوح في أفق الأغنياء ، فنصطبها نارا حامية  
 من العاطلين والفقراء ، وإما أن نسير في سبيل الشيوعية ، كما يلوح من أمات العاطلين والفقراء ،  
 فنصطبها نحريرا وتدميرا !! ولقد جاءنا من الأنبياء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا ، وكتابه  
 قائم بين أيدينا ، الى السبيل السوي الذي يقينا شر هذه ، وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة  
 متكافلة في البر والتقوى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم  
 عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

محمود شلتوت

## أنبل الاخلاق الاسلامية

لعل مما يستلعت النظر ، ويهر العقول ، من غيث الرحمة الاسلامية ، الذي أدرك العالم ، وقد مزقه الفساد ، وقوصنه القوضى في كل شيء : في الآفئ ، والأعراض ، والأموال ، ولوث النفوس فيه داء الآثرة ، والطمع ، وردية الغدر والخيانة ، الى غير ذلك من عوامل القناء والفساء ، نقول : إن أنبل ما يهر العقول مما جاء به الاسلام من الاحلاق ، المحافظة على العهد ، والصدق في احترام الموائيق ، والتحذير من نكثها ، والوعيد الشديد على الخيس بها ، والحث فيها ، لتصفو العلاقات بين الافراد والجماعات ، وتطمئ النفوس ، وتحسن الصلات بين الأمم ، وتسير في جو كله هدى ونور ، لا غدر فيه ولا خيانة ، فيتسع بذلك طريق الحق ، يصبح كيف يشاء ، وأنى شاء ، يعتمر البلاد ، ويصلح المباد .

مرت على الإنساف دهور طويلة ، وتقلب عليه أطوار وأحوال ، وغشيتة غواش ، وأحاطته أحداث ، وحال إنفاذه مصلحون كثيرون ، وأرسل الله رسلا مبشرين ومنذرين . . . فأى دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، عنيت عناية الاسلام بالمحافظة على اليهود والموائيق ؟ فهذا كناه الكرم ، يجعل حفظ العهد من دعام الفلاح والسعادة ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون » الى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وها هو ذا رسول الاسلام ، يرفع من شأن المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق ، فيوجب على جميع من يدينون به أن يحترموا عهدها أعطاه للأعداء أقل رجل مسلم ، وتوعد بالشقاء في الدنيا ، والمذاب الشديد في الآخرة ، من فرط في ذلك ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى (١) بها أذنانهم ، فمن أخفر (٢) مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف (٣) ولا عدل » .

وقال أيضا : « ثلاثة المسلم والكافر فيهم سواء : من عاهدته فوف بمهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فيصلها ، مسلما كان أو كافرا ، ومن أتمنك على أمانة فأدها اليه ، مسلما كان أو كافرا »

فهل سمع العالم قديمه وحديثه ، بدين أو شريعة ساوت بين جميع أتباعها في احترام عهودهم ،

(١) أى يصرف فيها . (٢) أى تنقض عهده الذى أعطاه لغيره . (٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية . وقيل الصرف : الشفاعة ، والعدل : الفدية .

ووجوب تنفيذها ، ولم تفرق في ذلك بين عهد القائد والحندى ، والصغير والكبير ، والحُر والعبد ، والرجل والمرأة ؟ فكل أولئك محترم عهده ، نافذ على جميع من عده من المسلمين . هذا فصلا مما تضمنه هذا المبدأ السامى من تربية ملكة الإحساس بالكرامة فى نفس كل مسلم ، وإيقاظ الشعور بدزة النفس ، والاعتداد بالرأى ، وتحمل المسئوليات ، فيقوى تفكيره ، ويتضح رأيه ، وتسمو عن الصفات رثية .

فهل يصبر المنصفون بهذا النيل فى الاسلام ، بعد ما ملأ أسيماهم ، وشخص أمام أعينهم ، ما يخرجه محيط العالم المادى اليوم ، من تهالك عتاد المادة ، وعشاق السيطرة العاشقة ، على تمزيق اليهود بعد توكيدها ، وانتهاك حرمة المواثيق التى أغلظوا الأيمان على احترامها ، وسعلتها هيأتهم النيابية ، وأقرها وزراؤهم ؟ يرتكبون كل ذلك ، ويفخرون به إن رأوا وراءه مغنا ولو حقيرا ، وأحسوا بضعف صاحب المهد ، وفقدته القدرة على صد طغيانهم !! أما الكرامة ... أما الشرف ... أما العظمة الصحيحة .. فكل أولئك لا يقام له وزن ، ولا يقدر له حساب !! ألم نشهد فى عصرنا هذا بعض من تقهقر القوة يقف على رجوة الاستنثار ، ويؤذن فى الناس بأن المعاهدات لا تمدو قصاصات أوراق لا يتمسك بها على غير ما تقع إلا الضعفاء ؟ ألم نر هؤلاء يمدون القدر والحياة من الكياسة ، والنظائر بالود وإصدار السكيد والإيذاء من السياسة ، حتى صار معروفا لديهم أن هناك معاهدات علنية ، ومن وراءها معاهدات سرية ، تنقصها عروة عروة ، وتهدمها لينة لينة ، وأصبح مقررا أن ليس للأقوياء أمان ، ولا لليهودم حفاظ ، ولا لمواثيقهم حرمة ؟

كل هذا والاسلام واقف فى هذا الجو المظلم ، أبيض ناصعا ، يتلو على السكافة :  
« وإما تخافن من قوم خيانة » فانيد إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .  
حرم على أتباعه أن يفتاحوا معاهديهم ، إذا أحسوا منهم خيانة ، أو يأخذوهم على غرة ، وأوجب عليهم إعلانهم بقطع الميثاق ، وانقضاء حكم الميثاق ، حتى لا تكون هناك لمثوم ظنة ، ولا لمثقول عذر . ثم يتلو :

« وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد حاتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تعملون . ولا تكونوا كالتى قضت غمرها من بعد قوة أنكاثا (١) ، تتخذون إيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما ييلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

(١) الا نكاث : جمع نكث كعب وأحال . والنكث : ما نكس ليزل ثاية ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان على تصنيف نفس معنى جبل . كما تقول . فرق الشىء أجزاء أى جله أجزاء .  
(٢) الدخيل بفتح الدال والحاء : الدغل والش والحياة .

فهل هناك نبل ومحو وراء هذا النبل وهذا السمو؟ كتاب يحفز أهله على الوفاء بالعهد، ويشعرهم مراقبة الله وحسابه، ويحظر عليهم الدخول، والغش، والخيانة في الإيمان، ويحذرهم من أن يكونوا عبيد القوة، فيعاهدوا هذا إذا كان قويا، وينذوا إليه عهده إذا رآوا من هو أقوى منه، أو يخدعوا خصومهم باليهود والإيمان حتى تحين لهم الفرص، فيقبلوا عليهم أعداء.

كل أولئك خلال شروعة، حرمتها الإسلام على أتباعه، تنزيها لهم، وتشريفا لأفئدتهم، ورفعاً لمزنتهم في نظر الكمال الخلق، والحق والمضيئة، التي لا تقوى عوامل الهدم على السيل منها، مهما تقلبت الأحوال، أو تغيرت العادات.

وهل يتصور عقل، أو يخطر على قلب بشر، أن يبلغ تقديس العهد عند شرع من الشرائع حداً يتحتم فيه على المؤمن به أن يترك أحاه في الدين، وهو يستغث به ويستنصره، يلتهمه ظلم الكافرين، وتداول منه قسوتهم تقتيلاً وتشريداً، مع قدرته على نصرته، وصدد عدوانهم عنه، وليس لكل ذلك من سبب سوى المحافظة على العهد الذي قطعه مع هؤلاء العادين، فلم يستطع منه فكاكاً، ولا عنه تحويلاً؟

«وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير».

ذلك لأن الإسلام شرعة لا تعرف الغدر والخيانة، ولا تقرر إلا السياسة العادلة التي يستوى فيها الاتباع والأعداء.

وإنما عني الإسلام هذه العناية بالمواثيق والإيمان، لأنها غالباً تكون وليدة تفكير مهيمن يوزن فيه الأمور بدقة، وتقدر بحساب، وينظر فيه إلى المواقب القريبة والبعيدة، ويضحي فيه بنزوات النفوس وشهواتها.

وبالجمل، فالحكم فيه - قالبا - يسعى وراء المصلحة الحقة، والعدالة المطلقة، بقدر الإمكان. فإذا لم يحصنها الشارع بما يحفظها، انطلق الشر من عقاله لأي بادرة ولو صغيرة، وجحت سورة الغضب والطيش، وجلب الشيطان خيله ورجله، فزق الصلات، وقطع العلائق، وحات في الأرض قسادا.

لكل ذلك يقول كتاب الإسلام، بعد أن أوصى وشدد بالمحافظة على العهد:

«إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير».

من كل هذا، ومن بعضه، تقف على قطرة من فيض فضل الله على الإنسانية كافة، بهذا الشرع الحكيم، الذي انتفع به من آمن به ومن كفر، ومن أطاعه ومن عصاه، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

عبد الجليل هيسى

شيخ معهد شبين الكوم



## نظرات في المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء آثارها في الهيئات الاجتماعية

بعد وصول الانسانية من المستوى العقلي الى درجة تسمح لها بالتفكير في وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، عني أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم طموا أن الجاعات لو قامت عليها ، وأخذت بأسولها ، تنأدى الى حالة أرفع مما هي عليها في حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجي ، فلا يستطيع نقلها من حال الى حال بنظام يُبتكر أو برنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابي ، وكل ما حدث في القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يقوله إطلاق العنان للخيال في هذا المجال ، فليستظر في الأصول التي تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأشور يأنف الضمير البشري أن يعيرها التفاتا ، كرى بعض الفرق الاشتراكية بإبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كي لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكسُمح لمعضها أن يُحذف الزواج ويُجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المحالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيته على تفقتها ، ثم تقذف به الى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكنهتيم لمعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم يظلمون شئونهم هرقيا ، زاعمين أن النوااميس الطبيعية في تديرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التي تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن لأم جرت على سميتها ، مكتنفة بالعوامل الهيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيلات رأسا .

الأمر الذي تقوم عليه غنة خلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد مُهدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية الى نظم لو اتبعت لعاش الناس جيما في مجبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب عدسا وتريدا الشيوعية ، وقد وقعت في حائلها جماعات غزردت تغلغلا في العُدم والجاهلية .

ونحن إن اقتصصناها بالكلام في هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومي لامة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت لدعوة ودعاة يروجونه ما وجدوا آذانا نصني اليهم .

الأصول التي تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعي يقوم على أصول ثلاثة رئيسية : ( أولاها ) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وحمل أرض الامة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(ثانيها) حذف رهوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قتيمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبث فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضي في زعمهم .

ونحن نناقض هذا المذهب الحساب في كل هذه الأصول ، لثبت للناس أنه لا يخالف العلم لحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التي تعمل على حفظ الانسانية وتزقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محور الملكية الفردية ، فنناقض للوضع الطبيعي ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانحصار الصاية في أسر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم في القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجمعون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هددوا الى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الانسان بالزراعة ، وتميزت الاسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، ووجدت الملكية ، فالملكية ترقى عن حالة الشيوعية التي سبقتها ، وكما وجدت الملكية ووجد الزواج ، ووجدت الحقوق والواجبات ، ووجدت وشائج الاجتماع ومتموماته وحواظفه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تركبه نشأت قوة تماسكه ، ومناة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتقى على هذا التركب كل ما للانسانية من حظ في البقاء والاستمرار والترقى الى أبعد الغايات . ويجرد النظر الى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعي ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التي ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيدا من المدنية . فالملكية ترقى عن الحالة الشيوعية ، فإن طادت أمة إليها زایلها جميع ما ابتقى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناماته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تمسك أوصاله . لذلك يضطر القائلون عليه أن يمسكوه في دائرة الاستقرار الاجتماعي بالقهر والإرهاب ، ويكون هو في أثناء ذلك سريع التقلب يقرص أن يجد فرصة للتمسك ليتنزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التي لن يكون لها أثر يذكر في تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون في نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية في الفاقة

والْعُدْم ، ويحرم المجتمع من المشروبات العظيمة التي يتوق إليها ذوو الكفايات العالية طلبا للكسب .

ولا يمترض علينا بأن وجود الحكومة قُبِيحة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فاننا رد هذا الاعتراض بقولنا : إن في قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات حقا لمصلحة الإقدام في نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع إلى حالة القصر الذي ارتقى عنه أمثاله من الجماعات ، فيصبحون في حاحة ماسة إلى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضي بث العيون والأرصاء ، فيضحي بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخرة ، فإذا سر على الأمة في هذه الحالة ربح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعي صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة لتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وَم الشيوعية في تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستوى الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم في رغد من العيش بمحذف طبقة « غنياء ، ومصادرة أموالهم ، وهو وم كبير لا يطوف إلا برءوس الدين لا حظ لهم من العلم الاقتصادي . كتب العلامة الاجتماعي الروسي ( توفيكو ) في كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر في العالم رأي كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشأ أظفاره في الدهاء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس ويقول أشياخ هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدي المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الانساني في أرغد عيش أيد الأبدن .

« فإ أجدنا بأن يهـى بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا . . . !

« ولكن الحال وأسفا ليست على ما يصفون ، فان الدهاء ليسوا بفقراء لأن بصعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التي تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجحرانه في العالم ، لأن النوع البشري لم يعد الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين .

« أولهما أن المال الذي يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو سودرت الأرباح الفردية التي تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ، وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٣ من المائة من دخله الحالي . وبما أن الناس لا يصلون إلى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف

دخله الخالي ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء . . . . فان العامل الذي يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو من الشكوى من الغافة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر في المائة التي تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فإذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

و أما السبب البسيط الثاني فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليوناً من الفرنكات في السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكى ؟

و ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكاسب في السنة التالية ٨٣ مليوناً أخرى لأن الأمانة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلي تشكر هذه الإفادة ، فمن يسد حلة الفقراء وحاجاتهم يجدد في كل حين ؟ .

ثم عمد الأستاذ الرومى الى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جداً ، وأما فقراء لأن منحصلات الأرض السنوية لا تتيح المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاة بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابياً وجب علينا أن نرضى عما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمراً لا مغيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن في قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يورى ١٠٠٠٠ فرنك سنوياً لكل منا بحسب ، ولكن في قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن يابيع الثروة فيها — كما قال الخفراى المشهور ( البريه ركلوز ) — لا حد لها على الإطلاق . » انتهى

نقول : إذا كان هذا هو الرأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف النعاس في الصدور ، وشمل ملكات الإقدام في نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة في إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على السكافة بحالة من السُدم لتصل بالأمة الى مكان سحيق ، وتجعلها تترنص الخنافس منه عند كل بادرة من فتنة فتاتى نشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند الى أساس علمى ، من الداحية الاقتصادية ، وأنها تفككت أواخي النظام الاجتماعى ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحواظله ، فإننا نرجو أن تثبت لك خطأها في مناوأة الدين واعتباره سبباً في إثارة العداوات بين الأمم ؟ محمد فريد وهجرى



# حياة حبيبنا سيده

## عبد الله بن العباس

نحدثنا في مقالاتنا السابقة عن حياة عبقرين من أساتيد مدرسة الاسلام الأولى الذين تخرجوا في مدارج الوحي ، فكاتبوا آية من آيات السورة المطامعة ، وشرعة من شرائع الهداية السامية ، ومعرفة من معجزات معلم الانسانية ورسولها الاعظم ، تحمل في مطاوعها التحدي بها لفلاسفة العالم وحكامه وعلمائه وساسته ، وقادة الفكر في شرقه وغربه ، أن يأتوا بمثلهما تكييفهما لروح الايمان بالعقيدة حتى تكون صيغة الجليل وأمل الحياة في زمنها عن طريق الفطرة الصادقة والعقل المستقيم ، ذلك هما : هرين الخطاب فاروق الاسلام ، وعلى بن أبي طالب بطل الاسلام .

والآن نحاول أن مجلو صورة جديدة لشخصية من طرز جديد في أساتيد تلك المدرسة المحمدية الخالدة ، هذه الشخصية عبئت من بحر المبقرية الاسلامية ، وعلى أساتذتها من رجيل الانصار الأبرار وسادة المهاجرين الأولين تخرجت ، ومن منيع السورة وفيض الوحي استقت ، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر ، فانصرفت الى العلم ترويه وتحفظه ، وتبثه وتنشره ، جائلة في كنوز الاسلام وشرائعه ، وآدابه ونعالجه ، غائصة في بحاره للنقاط درره ، ذلكم هو عبد الله بن العباس ، حبر الأمة ، وعلم الاسلام ، وعلم العلماء ، وترجمان القرآن ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله ولد ونشأ في شعب أبي طالب ، أيام الحقبة العظمى لل دعوة الاسلامية ، بما تصافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية ، حتى كانوا إلجأ على رسول الله وقومه ، لا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ، وكانت هذه الحادثة أشد مآلتي الهاشميون من أذى قريش في سبيل ديارهم عن النبي صلى الله عليه وسلم عصبية له ، وكانت أيضا أول مده للنضال القوي الصارم في سبيل توطيد أركان الايمان بالعقيدة العتيدة ، ومناهضة موروثات الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتخليصه من رقة الامر في أغلال التقليد البليد ، فانها كشفت عن روح التحكم الاستبدادي والعسف الآثم في مسلك قريش مع إخوتها وأساء همومتها ، حتى نهضت بعض الأداة من أصراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير بن أبي أمية وأبي النخري بن هشام والمطعم بن عدي ، يشكرون

على قريش شتمتها ، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون ، ويحجون حياتهم الأولى في غير حرج ولا إعتات ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون الى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونيلها أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، والقائم دونه بحميه وبذود عن دعوته ، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وتقوس الهاشميين عامة ، لمكاة أبي طالب فيهم وفي عامة العرب .

كان طبيعياً بعد موت أبي طالب وانحياز أبي لهب الى جانب قريش ، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبي طالب في زعامة الهاشميين ، وكان مظهر الزعامة وقتئذ الوقوف في وجه قريش دافعاً عن محمد بن عبد الله ودعوته ، فمصد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعصدها أبو طالب . وكتب السيرة بحجة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبي صلى الله عليه وسلم مستوثقا له من اليربيين ، وكان العباس أول متكلم فقال : « يا معشر المخرج إن مجلأ منا حيث قد علمتم ، وقد منعاه من قومنا عن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتكموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأتهم وما نمحلتهم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه » . وتمت البيعة بمحض من العباس ، وفتح بها باب الهجرة الذي نفذ منه المسلمون الى جهاد عدوم ونشر دعوتهم ، وعبد الله بن العباس لما يشب من الطوق ، ولكنه يرى ويسمع ، والحوادث تتوالى في شدة وسرعة ، والآيات تترى ، والوحي يقتاع ، وشوكة الاسلام تقوى ، وكلته تملو ، وساعده يشند ، وأنصاره يكثررون ، ومكة المعصية تفتح ، وقريش الجامعة تؤمن ، وسادتها تطيع وتسلم ، والعباس يؤمن ويهاجر ، والحجاج العقلي يتعاطف ، والعرب قاصبها ودانها تقبل في وفود ره وسها مسلة لله مبايعة لرسوله عليه السلام .

هذه هي العناصر الحيوية ، والمقومات الطبيعية ، والمبادئ الاجتماعية ، التي كونت حياة عبد الله بن العباس حبر الامة وبجرها ، وقد كان لكل ناحية منها أثرها في حياته ، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأسمى نواحيه ، يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاة عكرمة : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك ! أتري الناس يفترقون إليك ؟ ! ففكرت ذلك ، وأقبلت أسأل ، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل عاقي بابيه وهو قائل ، ولو شئت أن يؤذن لي لأذن ، لكن أبغى بذلك طيب نفسه ، فأنوسد ردائي على بابيه يسئ على الريح من التراب ، فيخرج فيرائني ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ هلا أرسلت الي ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد

اجتمع الناس حولي يسألوني ، فقال : هذا الفتى كان أعقل مني . وفي هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب ما يرفعه إلى أنف يكون دستوراً لحياة طالب العلم الذي رزق همة نبيلة ، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم ، وفيه تصوير لأدب تلقي العلم ، وفيه تصوير لما يحتاج إليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة ، وفيه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة ، فإن ابن عباس لم يكن حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره ، فيما يجزمه الواقدي ، ومع ذلك فقد أدت همته أن يستصغر نفسه ، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذي لقب من أجله بالبحر ، فيما يقوله مجاهد ، ويرويه البخاري عن جابر بن زيد « سألت البحر من لحوم الجر — وكان ابن عباس يسمى البحر » .

وقد حقق الله بما آتاه من العلم والحكمة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له ، وقد روى عنه أنه قال صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي حتى جعلني حذاءه ، فلما أقبل على صلاته حبست ، فلما انصرف قال : ما شألك ؟ فقلت : يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا لي أن يزيدني الله فهما وعلماً . وروى أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخلاء فسكب له وضوءاً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من وضع هذا ؟ فقالت السيدة ميمونة : ابن عباس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وكان عبد الله بن عمر يقول له : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك فصاح رأسك وتفل في فيك وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقد عرف له أحلاء الصعابة وعلمائهم هذا الفصل ، فكان من مر من الخطاب يحبه ويقدمه على الأكابر من المهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعونا كما تدعو ابن عباس ؟ فقال عمر : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول . ويقول عبد الله بن عتبة : كان عمر يأخذ بقول ابن عباس في العزل ، وعمر عمر 11 ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول : قدم على عمر رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن أي القرآن ، قال : فزيرني عمر ، فانطلقت إلى منزلي ، فقلت : ما أراني إلا قد سقطت من نفسي ، فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال : أحب ، فأخذ بيدي ثم خلاني ، فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله ! قال : لتعذبنني ، قلت : إيهام حتى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضلوا . قال : لله أبوك لقد كنت أكنتمها الناس !

وكان على كرم الله وجهه يقول فيه : إنه لغواص . ويثبتنا ابن عبد ربه في كتاب المقد أن ابن عباس قال لعلي يوم التحكيم : اجعلني أحد الحكمين ، فوالله لأقتل لك جبلاً لا ينقطع وسطه

ولا ينتشر طرقاته ! فقال له علي . لست من كيدك ولا من كيد معاوية في شيء ، لا أعطيه إلا السيف حتى يفلبه الحق ، قال : وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يفلبك الباطل ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لا نك تطاع اليوم وتعمى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصى ! فلما انتشر عن علي أصحابه قال : لله بلاد ابن عباس ! إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق . وسأل رجل عبد الله بن صهر عن آية ، فقال : انطلق إلى ابن عباس فساله فانه أعلم من بقي بما أنزل الله تعالى على محمد . وفيه يقول عبد الله بن مسعود : أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس ! ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفا . وكان ابن عباس شديد الإجلال لزيد بن ثابت ، فقد روى الشعبي قال : ركب زيد ابن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلينا ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه ما لم يكن لاحد من معاصريه ، لا يستثنى غير أمير المؤمنين عن كرم الله وجهه ، حتى إن ابن سعد في الطبقات يروى أنهم كانوا يميلون بينهما فيقولون : « إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ، وكان علي أعلمهما بالمهمات » . وما نظن هذا إلا لأن عليا شغلته السياسة عن الكلام في تفسير القرآن ، وابن عباس تفرغ له فأكثر ، ومهما يكن فإن ابن عباس تلميذ على أخذته كثيرا . والشعبة يروون أن ابن عباس سئل : أين علمك من علم ابن عمر ؟ فقال : كنسبة فطرة من المطر إلى البحر المحيط . ويروى عن عطاء بن أبي رباح أنه قال : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقهًا ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع . وقال مروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس . وروى أنه قرأ سورة البور وحمل يفسرها ، فقال رجل : لو سمعت هذا الدليم لأسلست ! وكان سعيد بن جبيرة يقول : كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لي لقبيلت رأسه .

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها ، روى أبو العباس في الكامل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال : رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق - أحد رموس الخوارج - وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه : « والليل وما وسق » فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال نافع : أعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وسأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سريا » فقال ابن عباس : هو الجدول ، وأنشده :

سَلْمًا تَرَى الدَّالِجَ مَهْ أُرُورًا    إِذَا تَعَبَ فِي السَّرَى مَهْرًا  
وسأله عن قوله تعالى : « عَتَلْ بِمَدَّ ذَاكَ زَنْبِيرٌ » ما الزنيم ؟ قال ابن عباس : هو الدعي الملقب ، أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زَنْبِيرٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً    كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الْكَارِعُ  
وسأله عن قوله جل اسمه : « وَالسَّعْتُ السَّاقُ بِالسَّاقِ » فقال ابن عباس : الشدة بالشدة ، وأنشده :

أَحْوِ الْحَرْبِ إِنْ عَصَتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَهَا    وَإِنْ شَعَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شِمْرًا  
وسأله عن قوله عز وجل : « لَمْ أَجِرْ غَيْرَ مَمْنُونٍ » فقال له ابن عباس : غير مقطوع ، فقال نافع : وهل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني يشكر حيث يقول :

وَتَرَى خَلْقَهُنَّ مِنْ سُرْعَةِ الرَّجْدِ    مَعَ مَنِينَا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ  
ولم يزل به يسأله حتى أمسه ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر . وطلع صهر بن عبد الله ابن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تلتشدنا شيئاً من شعرك ، فأشده فصبحت يقول في مطلعها :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ مَهْمٌ لِي فِيكَ الْكَرْمُ    نَفْدَاءُ غَدِ أَمْ رَائِحُ فَمَهْجَرٍ  
بِحَاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تَقُلْ    عَذْرَا وَالْمَقَالَةُ تَشْدُرُ  
حتى أكلها وهي غائون بينا ، فقال له ابن عباس : يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الابل نسألك عن الدين فتمرض ، ويأتيك غلام من قريش فيشدك سنفها فتسمعه ؟ فقال : نأفه ما سمعت سنفها ! فقال ابن الأزرق : أما أنشدك .

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ مَارَصَتْ    فَيُخْرِى وَأَمَّا بِالْعَثَى فَيُخْصِرُ  
فقال : ما هكذا قال ، إنما قال :

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ مَارَصَتْ    فَيُضْحِي وَأَمَّا بِالْعَثَى فَيُخْصِرُ

قال نافع : أو تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فإني أشاء ، فأشده إياها ، فقال له نافع : ما رأيت أروى منك قط ، فقال ابن عباس : ما رأيت أروى من صهر ولا أعلم من علي .

وذكر المبرد في الكامل أن علياً وجّه ابن عباس إلى الخوارج لينأظروهم ، فقال لهم : ما الذي نقيم على أمير المؤمنين ، قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان

فليتب بعد إقراره بالكفر نَعْدُ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل سيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكام لما خالفوا نبذت أقاويلهما ، فقالوا : إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا لما ياله حيث ظفر لم يسب ؟ فقال ابن عباس : قد سمعتم الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في النبأ ، أمكنتم سائين أمكم عائشة ؟ فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا : أمسك هنا غرب لسانك يا ابن عباس فإنه طلق ذُلُق ، غوامض على موضع الحجة . وقد صدق الخوارج في وصفهم له ، فإنه أوتي من البراعة في البيان وقوة الحجة ما حده عليهم مسائل الجدل مع قوتهم في الاحتجاج .

روى أن الخطيئة الطاهر نظر إلى ابن عباس في مجلس مهر بن الخطاب وقد قرع بكلامه ، فقال : من هذا الذي نزل على القوم بسبه وعلام في قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إني وجدت بيان المرء نافلة يهدي له ووجدت العي كالصمم  
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتي يوما ولم يلم

وحدثت شاعر الاحلام حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها إليه بجامعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه إلى أن غدوه ، وقاموا إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعهم بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم يردا من أن يقضى حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، فررنا على أولئك الذين كانوا غدروا وضعفوا ، فقلت : كان عبد الله أولاكم بها ، قالوا : أجل ، فقلت أمدحه :

كنى وشفى ما في الصدور ولم يدع لذي إربة في القول جدا ولا هزلا  
صموت إلى العليا بغير شبيهة فنلت ذراها لا ديبا ولا وعلا

وكان ابن عباس من علماء العرب ، فقد روى أن رجلا شتمه فقال له ابن عباس : إنك لتشتني وفي ثلاث : إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعل لا أقاضي إليه أبدا ؛ وإني لأسمع بالغيت يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها ساعة ولا راعية ؛ وإني لأتق على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . والحديث عنه طويل الذبول غسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقريته لتحدث عن إخوان

له جروا في شوطه ؟

صاحب إبراهيم عرموه

## بَابُ الْأَسْبِغَةِ وَالْفَتَاوَى

### الفتاوى في المعاملات الربوية :

هل يجوز شرعاً أن يضمن الإنسان صديقاً له عند أحد البنوك ؟

### الجواب :

إذا كان هذا السلف بفائدة فهو معاملة ربوا ، وقد حرم الربا على آخذه ، ومعطيه ، وكاتبه ، وشاهده ، كما أشار الى ذلك الحديث الشريف ؛ فأولى أن يحرم على الضامن لأنه شريك في التعاقد .

### الصلاة في مسجد بناءه مسيحي - بيع السمك في البحر :

( ١ ) هل يجوز صلاة الجمعة في مسجد بناءه مسيحي ؟

( ٢ ) هل يجوز بيع السمك في البحر وهو مجهول ؟

### الجواب :

( ١ ) مذهب الحنابلة والشافعية والحنفية لا يرى مانعاً من صلاة الجمعة وغيرها من سائر الصلوات في المسجد الذي يئنيه مسيحي .

( ٢ ) لا يجوز في المذاهب الأربعة بيع السمك في البحر وهو مجهول .

### رضا الأب بتعميد ابنه :

مسلم تزوج مسيحية وقد سمح بتعميد ابنه منها ، وتم بحضوره هذا التعميد ، ثم هو يريه تربية مسيحية ، هل هذا الأب يظل مع هذا العمل مسلماً ؟

### الجواب :

التعميد والتنصير منافيان للإسلام ، فرضا الأب بذلك يعد خروجاً عن الإسلام ، ويكون الأب بعمله هذا كافراً غير مسلم .

صداق المتوفى عنها زوجها قبل الدفون بها، وميراثها:

توفى رجل صبيحة عقده على زوجة ولم يدخل بها ، فإذا تستحق من الصداق والميراث ؟

الجواب :

تستحق هذه الزوجة جميع صداقها الممحل والمؤجل ، ولها نصيبها المتقدر شرعاً في تركة الميت : الربع إن لم يكن للزوج ولد ، والثلث إن كان له ولد .

اليانصيب :

هل اليانصيب حلال شرعاً ؟

الجواب :

ليست عملية اليانصيب مشروعة في الاسلام ، والربع منها سحت ، لأنه من الميسر المحرم شرعاً .

في الرضاع :

أختان من الرضاعة ، هل يصح الجمع بينهما في عصمة واحدة ؟

الجواب :

الجمع بين الأختين من الرضاع في عصمة واحدة محرم ، كالجمع بين الأختين من النسب .

في الميراث :

(١) توفيت امرأة وتركته ابناً وثلاث بنات هن أخوات هذا الابن منها فقط ، فما نصيب

كل شخص ؟

(٢) وهل يحسب من التركة صداقها ومنفها وما ورثته من غيرها ؟

الجواب :

(١) تقسم التركة على الأشخاص الأربعة للذكر مثل حظ الأنثيين .

(٢) وتركته هذه المرأة هي كل ما تركته من صداقها ، وجميع ما ورثته من غيرها ، وما آل إليها حال حياتها .



### في الميراث :

توفي رجل عن زوجة وثلاث بنات وأخ وأخت شقيقين ، فما نصيب كل ؟

### الجواب :

جميع من ذكر في السؤال يورث ، أما نصيب كل منهم من التركة فكما يأتي :  
للزوجة الثمن ، وللثلاث البنات الثلثان ، يقسم بينهما على سواء ، والباقي للأخ والأخت  
العقيقين ، على أن للأخ ثلثي هذا الباقي ، وللأخت ثلثه .

### تعليم طرق الوقاية في المسامر :

هل يجوز إلقاء دروس طرق الوقاية من الغازات السامة في المساجد ؟

### الجواب :

الوقاية من التهلكة مقصد سام من المقاصد التي أحلها الإسلام المنزلة الجديرة بها  
من الرعاية ، وهو أصل نبذ عليه أحكام كثيرة في الدين ، وتعليم الناس طرق الوقاية سبب  
من أسبابها ، فلا بأس به مع المحافظة على ألا يشوش على المصلين .

### في الطهوى :

ملخص السؤال : طلاق ثلاثا معلق على شيء حصل . طلاق بلفظ ( خالصة ) معلق على  
شيء حصل . طلاق بالثلاث معلق على أن تكون خالصة إذا فعلت شيئاً معيناً .

### الجواب :

حيث إن مذهب المستفتي مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، فتنفيذه أن مذهبه يرى  
وقوع الطلاق ثلاثاً بمجرد حصول المحلوف عليه أول مرة ، وعلى ذلك تعتبر زوجته من ذلك  
النارخ أجنبية بالنسبة له ، ولا تحمل له حتى تنكح زوجاً غيره فكأما صحيحاً مستوفياً شروط  
الحلل للأول .

أما المذهب الذي جرت عليه المحاكم الشرعية المصرية أخيراً ، فيتلخص في أن العين  
المعلقة إذا كان القصد بها الحث على فعل أو المنع منه ثم حصل المعلق عليه ، فإنه لا يلزم بها  
شيء ، وإيمان المستفتي كلها من هذا القليل . وعلى ذلك فلا يلزمه شيء ، وزوجته لا تزال له  
لم يخرج عن عصمته .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النحام

## الكلام والمتكلمون

تعريف علم الكلام ، وموضوعه ، وغايته ، وظروف نشأته

أثبتنا في فصول مضت أنه كان للمسلمين فلسفة قبل عصر الترجمة ، وأن هذه الفلسفة قد عالجت موضوعات هامة قبل أن يعرف العرب فلسفة الإغريق ، وذلك مثل وجود الله ووحدانيته ، وأزليته وأبديته ، وكماله وقدرته وعلمه ، واستحالة رؤيته بالحواس أو إمكان ذلك ، ومثل خلود الروح والحياة الأخرى والجزاء فيها ، وغير ذلك من المشاكل العويصة التي دوخت الفلاسفة منذ عهد المدرسة الأليائية إلى ذلك الحين ، وأثبتنا أيضا أن الجدل الذي احتدم حول هذه المشاكل قد سمي في تاريخ الفكر الاسلامي باسم « علم الكلام » . وقد رأى الأستاذان : « مارك » و « كارادى فو » هذا الرأي ، فقرأوا أن العرب كان لهم فلسفة ولدت ودرجت في حوض الاسلام تحت اسم « علم الكلام » كما سمي المشتغلون بها بالمتكلمين (١)

فلسطر الآن ماهو حدى علم الكلام ، وموضوعه ، والغاية المقصودة منه ، وما منشأ تسميته ، ومن هم وضاعه ، وما هي التطورات التي مر بها ؟

حده صاحب « المواقف » بقوله : « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية . والمراد بالعقائد : ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية : المسبوبة إلى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن الخضم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما موضوعه فنده فهو : « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا » (٢) . وحده ابن خلدون بأنه : « هو علم يتصمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣)

لا ريب أن من يتأمل هذين التعريفين يبين له أن بينهما قرابة عظيمة ، إذ يرى الأيمى يعرف علم الكلام بما كان يعرف به قبل تطل المدرسة الأشعرية على خصومها : أى حين كان يشمل آراء جميع الفرق ، من : صفاتية ، وقدرية ، وجبرية ، وغير ذلك . وهو لهذا يعلق على تعريفه إياه بقوله : « فإن الخضم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما ابن خلدون فإنه خضع في تعريفه للأثر الذي أصدرته الأشعرية باقصاء جميع آراء خصومها عن علم الكلام ،

(١) انظر صفتح ٣٠٩ و ٣١٠ من كتاب « مزيج من الفلسفتين : اليهودية والعربية » ، للأستاذ « مارك » ، وصلة ١٥ من كتاب « ابن سباء البارون كارادى مو . (٢) انظر صفحة ٧ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ٤٠٠ من مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة .

وباختصاصها أهل السنة وحدهم باسم المتكلمين . وهو لهذا يقول : « والرد على المستعدة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » .

أما قايته : فهي الوصول من طريق الرهائز الى دفع الشبه التي انجبت الى العقيدة المنلقاة عن الوحي . وقد أجل الأيجي فوائده والغاية المثل من الاشتغال به ، فقال : « وهي أمور : الأول : الترقى من حضيض التقليد الى ذروة الايقان . ويرفع الله الدين آمنوا منكم والدين أوتوا العلم درجات . الثاني : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحججة . الثالث : حفظ قواعد الدين من أن تزولها شبه المبطلين . الرابع : أن تلبس عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها . الخامس : صحة النية والاعتقاد ، إذ بهما يرجى قبول العمل . وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين » (١)

ويرى الأيجي أيضا أنه إنما سمي علم الكلام « لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنوت أولاً بالكلام في كذا ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم » (٢)

غير أن هذا التحديد الذي وضعه الأيجي للتعريف والموضوع والغاية والتسمية ، إنما هو ناجم عن نظريته الى علم الكلام بعد عصر الترجمة ، لا في نشأته الأولى إبان خلافة عبد الملك ابن مروان ، كما سنبينه في موضعه . وآية ذلك أنه يقول : إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثرت فيه التناحر والفسك ، فغلب عليه . إذ من المعلوم أن المنطق لم يعرف عند العرب إلا في العصر العباسي ، وكذلك التناحر والفسك لم يحدنا حول مسألة الكلام إلا بعد نشأة علم الكلام وتسميته كلاما بأكثر من ستين سنة . وإذا ، فذكره إياها يدل على أن نظرة المؤلف إلى علم الكلام متأخرة عن تاريخ نشأته بزمان بعيد ، وهذا يحيل أن تكون إحداها علة في التسمية .

وقد ذهب الأستاذ « اشمولدريس » الى « أن المتكلمين هم من اشتغلوا بكلام الإله » . وهذه عبارة متموجة يمكن أن تفهم منها مشايعة هذا المفسر في رأي الأيجي الذي ذكرناه آنفا ، وأن يفهم منها كذلك أن كلمة المتكلمين تطلق على من اشتغلوا بالقرآن شرحا وتأويلا واستنباطا . وقد فهم « البارون كارادي فو » هذا المعنى الأخير فقدمه بقوله - « لو كان هذا الرأي صحيحا ، لكان المفسرون والفقهاء والمحررون والآباء جميعا متكلمين . وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ، ولا من الباحثين الحديثين » (٣) .

(١ و ٢) انظر صفحة ٨ و ٩ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ١٢ من كتاب « نزاع » تأليف « البارون كارادي فو » .

والحق بمد كل الذى تقدم هو أن كلمة « كلام » كان معناها فى أول الأمر : كل حوار حول مسألة من المسائل ، ثم تطورت فأصبح معناها النظر العقلى فى مشكلة من مشاكل الغيبيات . أما واضعه فيقرر المستشرقون أنه غير معروف ، ويميلون إلى أنه لم يوجد له واضع بعينه ، وإنما تكون من مجموعة المحاورات الأولى التى دارت حول ما ورد فى القرآن من مشاكل فلسفية نص عليها فى آيات متشابهات ، ثم من شبه نتجت بعد ذلك من الأحسن والرد اللذين اتسع مجالهما على توالى الزمن ، ولكنهم يرون أيضا أن كبار الفقهاء كآبى حنيفة وآبى يوسف قد ساهموا فى تأسيس علم الكلام بقسط وافر ، أما الشافعى فقد هاجمه وحمل عليه فى شيء من العنف وإن كان لم يستطع أن يتخلص منه بحكم عقليته المتقنة ، ومهنته كفقهاء عظيم .

أما ظروف نشأته وتطوره : فهى تتلخص فى أنه لما وقعت الاضطرابات السياسية ، وعظمت الفتنة بين المسلمين ، جرف تيارها جميع نواحي الحياة ، لجرؤ الخلاء والمافقون على مث شهبهم بين المسلمين مستترين خلف حجب الآيات المتشابهة ، محتمين بأمر القرآن الصريح فى إياحة النظر . فألجأت هذه الحركة مفكرى المسلمين إلى المساهمة مع محاورهم فى مزاولة الجدل واستخدام التأويل .

ومنذ ذلك العهد أخذ المتأدبون يجتمعون حول مشاهير الاساتذة ، يتلقون عنهم المعرفة ، ويحاورونهم فى البراهين والشبه ، ومن هذه المحاورات تكون علم الكلام .

قال التفثازانى فى شرح العقائد النسفية ما نصه :

« وقد كان الأوائل من الصعابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم بركة صحبة النبى عليه السلام وقرب العهد بزمانه ولقاة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة إلى النقائ ، مستفيين عن تدوين العلمين وترتيبهما أبوابا وفصولا ، وتقرير مباحثهما فروعا وأصولا ، إلى أن حدثت الفتى بين المسلمين ، وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل إلى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ، والرجوع إلى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول ، وترتيب الأبواب والفصول ، وتكثير المسائل بأدلتها ، وإيراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، وصموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا فى إعادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام ... ثم لما نقلت الفلسفة إلى العربية وخلص فيها الاسلاميون ، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة ، فخلطوا بالكلام كثيرا من الطعفة ، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها ، وعلم جرا ، إلى أن درجوا فيه معظم الطيعيات والإلهيات ، وغاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتغاله على السمعيات ، وهذا هو كلام

المتأخرين (١) . وقال ابن خلدون بعد أن ذكر بيانا لأهميات المعتقدات الإسلامية التي ورد بها القرآن وآمن بها المصدر الأول كما جاءت دون بحث عما عسى أن يكون في ثناياها من شبه : « هذه أهميات العقائد الإيمانية مسئلة بأدلتها العقلية . وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة » .

عن تلك الأدلة أخذها السلف ، وأرشد إليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد ، أكثر مثارها من الآي المتشابهة ، فدعا ذلك إلى التخصيص والتساطر والاستدلال بالمقل زيادة إلى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام (٢) .

هذا هو مجمل الآراء في تعريف علم الكلام وموضوعه وغايته ، وعلته تسميته ، وظروف نشأته وتطوره . فلننظر الآن نشأة أهم مدارس المتكلمين ، وأبرز آرائها ، سالكين في ذلك نهج الترتيب الزمني لنشوء تلك المدارس .

#### القدرية أو أهل العدل :

كانت المشكلة الأولى التي دار حولها الجدل هي مشكلة : القضاء والقدر وما نتج منها من الآراء المختلفة بإزاء الجبر والاختيار ، وتحديد ما لدى الفرد من هذا الأخير ، وهل هو محدود محصور في دائرة معينة ، أو لا حدة له في جميع الأفعال التي من شأن الفرد أن يقوم بها . وأول من قال بالرأى الثاني هو معبد الجهني ، ثم عطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقي .

جاء أولئك العلماء بحرية الفرد المطلقة ، وعززوا ما ذهبوا إليه بالأدلة العقلية ، فأعلنوا أنه لا معنى للتكليف ولا للثواب والعقاب إلا إذا كانت الحرية مكفولة ، وإلا لكان التكليف عبثا أو تعجزا ، وكان الثواب منعة من غير استحقاق ، والعقاب ظلما على غير إثم . وقد أبدوا حججهم كذلك لطائفة من الآيات القرآنية تنص على أن الفرد مختار فيما يسلك في حياته من صيل ، مستول عما يبرز من أفعال ، وذلك مثل قول القرآن : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « اعملوا ما شئتم » ، « بل سئلت لكم أنفسكم أمرا » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « من عمل سوءا يجر به » ، « كل امرئ بما كسب رهين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، « إني كنت من الظالمين » ، « رب إني ظلمت نفسي » .

ولما كان خلفاء بني أمية يدينون بأن كل شيء قد أثبت في سجل القدر قبل وقوعه ، وأن فريق الساجدين والهالكين قد عينا في أم الكتاب التي لا محو فيها ولا إثبات ، وبالتالي : ليس في وسع الفرد إلا أن يخضع لهذا القدر المحتوم ، فقد سخطوا على القائمين بهذا الرأي

(١) النظر صفحة ٤٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية لفتننازي طيبة محمود شاكر بالقاهرة .

(٢) النظر صفحة ٤٠٤ من مقدمة ابن خلدون .

وتمقبوم . فأمر عبد الملك بتعذيب معبد ثم بقتله في سنة ٨٠ هـ بحجة أن مذهبه أحدث اضطراباً في الأمة الإسلامية . وقد تبع هذا الرأي — رغم معارضة الخلفاء إياه — عدد من خاصة المفكرين ، منهم أبو مروان الدمشقي الذي أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق . أما عطاء بن يسار ، فقد فر ، وتوفى وفاة طبيعية عند نهاية القرن الأول الهجري .

ولما كان الحديث الشريف صريحاً في أن القدرية هم خصماء الله في القدر ، وأنهم مجوس هذه الأمة ، فقد أطلق أنصار القضاء المحتوم على أنصار حرية الفرد اسم « القدرية » ليكونوا هم المقصودين بالحديث ، لأنهم خاصموا الله في قدره ، وأسندوا إلى أنفسهم القدرة على الاستقلال بالأفعال . غير أن هؤلاء المحصوم لم يرتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأعلنوا أن القائلين بالقدر : خيرة وشرة هم أولى منهم بهذه التسمية . وبالتالي : هم أولى بأن يكونوا مجوس هذه الأمة . أما هم فجديرون بأن يطلق عليهم اسم : « أصحاب العدل » لأنهم وحدثهم أنصاره الحقيقيون ، إذ أن العدل الحقيقي لا يكون إلا حيث تتحقق الحرية الكاملة في الأعمال ، وإلا فهل من العدالة أن تعاقب فرداً على ما أجبرته على فعله ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## الشهرة ومبغضوها

الشهرة وبعد الصيت أحب الأشياء إلى قلوب الناس وقد يؤثرونها على الثروة ، وقد رأينا من أنفق ماله كله وأصبح معدماً في سبيلها ، ولكن من الناس من تنلّب عليهم ثم أعلى وأرفع من هم أنفسهم ، فكانوا يهربون منها هربهم من الموائق الجائحة خشية أن يصرفهم العرض الزائل عن الجوهر الخالد . وهذا من غريب أمر الأفاذاذ ، وهو يدل على عراقة النفس البشرية في السمو ، وإعما تحجبها عنهم الشهوات الجسدية ، والاهواء الوقتية .

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه . والأحنف هو ابن قيس سيد بني حنيفة ومن أخص أنصار علي رضي الله عنه ، الذي قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب لنفسه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب .

وقال الحسن البصري : لقد محبت أقواماً إن الرجل لتمرّض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه فما يمنعه إلا مخافة الشهرة .

وقال ابن سيرين : لم يمنعي من مجالستكم إلا مخافة الشهرة ، فلم يزل في البلاء حتى أخذ بلحيتي فأقت على المصطبة ، فقيل : هذا ابن سيرين .

وقال القليل بن عياض : كان أحدهم إذا جلس إليه أربعة أو أكثر ، قام مخافة الشهرة .

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الأدب العربي

جاهليت وإسلاميته

كان يقعد في عن الاندماج في الحياة الأدبية العامة ، والانضواء تحت لوائها ، والسير في ركابها ، والمصوع لناموسها العام ، بمواصلة الكتابة ، ومواظبة الصحف والمجلات ، بالمساحلات والبعوث ، والآراء في الشعر والأدب ، وما إلى ذلك ، وبالحرص على الاتصال بالأدباء ، وشهود مجتمعاتهم ، وصحابة منتدياتهم - أقول : كان يقعد في عن هذا المذهب ، أو بصارة أدق ، عن معالجة ما لا ينبغي موضي عن معالجته منها ، أنه امنهنت التدريس من عهد مبكر ، وفيما جرى من نفسى مجرى النفس ، من آداب أساتذتي الرحلة - أحسن الله إليهم أحياء وأمواتا - أن الكرامة الشخصية رأس مال المدرس ، وسر الانتفاع بعلمه وبخلفه ، ولا ريب أن في معالجته لما يخرج عن واحة الدراسي ، إشراكا ، يضعف منته في الداخل وفي الخارج ، ويعرضه لخطأ ، وشذوذ الرأي ، ثم للتخطئة والنقاش والجدل ، الذي لا سبيل إلى تحريره مما يتعاقب به عن مناهج أدب الخطاب ، على حين أنه لم يمتد في درسه إلا نقوذ الكلمة وقوة السلطان ، وقلج الحجة ، بتوفره على عمله ، والانقطاع له ، والإخلاص في الحرص على عرضه في أقرب الصور إلى الكمال .

فلما تقدمت بنا السن ، واتصلت حجر دراستنا لشوارع الحياة العامة ، فسلكتها بعض طلبتنا ، ووقف على أبوابها آخرون ، ومن دونهم طبقات آخر من الشادين ، كان يميزنا الاتصال غير المباشر بوساطة أئمتنا ، عن الاتصال المباشر بأنفسنا ، على أنه - مع ذلك - كان لنا فضل المرشد الناصح الأمين ، الذي يضع الهناء موضع النقب ، ويرى من صميم واجبه أن يوجه أبناءه إلى أفضل مناهج الحياة وغاياتها ، كما يوجههم - على قدر جهده - إلى أنفع مناهج التعليم وغاياتها . ولعل أغنى أيامي بالسعادة ، ذلك اليوم الذي أقرأ فيه لأحد أبنائي بحثا علميا أو أدبيا ، أو قصيدة شعرية ، في صحيفة راقية ، أو مجلة محترمة ، أو أطالع له مؤلفا مفيدا مطبوعا ، أو ديوانا من الشعر . وكنت في التشجيع والحث على الإقدام والشجاعة وتطلب الإجابة بشئ وسائلها في هذا السبيل ، من مواقف كان لها شيء من القوة والآثر المحمود :

فكأنى وما أرتين منها قَمَدِي بَزِين التحكما  
كَلَّ عن جملة السراح الى الحر ب ، فأوصى المطيق ألا يقبلا



يبد أن الزمان قد تقدم تقدما يشبه النورة الجامعة ، وطلعت موجة النشاط الجسمي والعقلي طغيانا اجتراف أو كاد كل واقف على الحياء ، بفضل ما نصحت به السرعة وقوة المواصلات ، من احتكاك الأفكار ، وانتشار المعرفة ، وتقدم العلم والفن ، حتى أصبح التخلف عن مجارة الحياة الحاضرة خورا في الطبيعة ، وشذوذا في الفطرة ، ودليلا على عدم الصلاحية للحياة .

لذلك ، ولوجوه من الآراء والمذاهب الادبية يعالجها الصف الآخر من صفى الحياة العلمية في هذا البلد ، أكتب في هذا الموضوع ، شارحا وجهة النظر الأزهرية في الأدب ، ومدافعا عنها ، ومبيناً ما يقبل عندنا — معشر الأزهرين — وما لا يقبل ، من روائع النقد الحديث ، وسأوالى البحث ، وأتابع الحديث ، إن شاء الله .

#### ١ — الأدب الجاهلي :

حدث في الأدب ، في القرن الحاضر ، بحوث ومذاهب ، منها الإجمالى العام ، ومنها التفصيلي الخاص ، ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن النقد التفصيلي الخاص في هذا العصر ، كان فتحا جديدا ، جرى الأدب من غرواته طرائف ، فيها جسد ، وفيها جمال ، وفيها حياة ، وقد صادف التوفيق كثيرا منها ؛ وما لم يوفق منها الى تمام الغرض ، لم يخطئه التوفيق في الطريق . على أنى لست بسبيل أن أتسكلم على النقد الخاص الآن ، فقد جعلت منزلته بعد الحديث عن النقد العام جملة .

أهم ما جدت في النقد العام للأدب الجاهلي في القرن الحاضر رأيان ، أحدهما : أن الأدب الجاهلي كثره مشكوك فيه ؛ والثاني : أن الأدب الجاهلي حتى على ما جاء بعده من أدب المصور الإسلامية الى اليوم . وكلا الرأيين جدير بالعناية ، جدير بالدرس ، جدير ببيان ما فيه من صواب ، وما خالطه مما يجافى الصواب ، إذ الرأيان كلاهما ، صدرا عن دراسة طويلة ، وعن بحث عميق ، واستندا الى دلائل وشواهد ، لا مناص من مناقشتها ، ومعرفة مبلغ ما تحمل من قوة ومحة ، قبل الحكم بصدق الرأي أو فساد ، نزولا على طبيعة البحث ، وعلى حكم النظر .

وملأ الرأي الأول : أن العرب — كما هو معروف — ينقسمون الى قسمين : قحطانيين ، ومنازلهم اليمن ؛ وعدنانيين ، وهؤلاء : رميمون وهضرون ، ومنزلهم شمال الجزيرة العربية . فأما شعر اليمنيين ، فهو موضوع منحول في الاسلام لليمنيين لاغراض دينية أو سياسية أو عصبية أو أدبية أو اجتماعية ، لأن أشعار اليمن قد رويت بلغة قريش ، مع أن ليس لغة



تخالف لغة الشمال؛ قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير لساننا، ولا لغتهم بلغتنا. وأثبت البحث الحديث اختلاف اللغتين إثباتاً لا يحتمل الشك. فنحن بين أمرين: إما أن نبطل هذا التقسيم الوطني والقبلي بين المدانين والقحطانيين، وإما أن نقض نسبة ما روى من شعر الجين إلى اليمنيين. والرأي الأخير أرحح، لأسباب فصلها صاحب هذا الرأي تمهيداً لا يغني إلا جمال من الرجوع إليه، منها أن الحال السياسية والاجتماعية، كانت تقتضي غلبة الجيرية اليمنية على المدانية، لا العكس؛ ومنها أن بين بعض شعراء الجين وشعراء ربيعة، رجلاً واضحاً، ونسباً قريباً، كاسمى القيس ومبهل، ومع ذلك لم نجد في شعر أولهما أقل تعرضاً لمقتضيات هذه القرابة... إلى غير ذلك.

أما شعر ربيعة من المدانين، فشكوك فيه، لأسباب، منها اختلاف اللغتين: الربيعة، والقرشية، احتلالاً أيسر من الاختلاف بين هذه وبين الجيرية، وقد رويت أشعار الربيعين في بيان قرشي مبين؛ ومنها ذلك الضعف الذي يمس لمسا في أكثر ما روى للربيعين من الأشعار؛ ومنها غير ذلك.

بقى شعر مضر، وهو مقبول في الجملة قطعاً، بيد أن الرواة لم يعفوه من التزبد والحل، فقد نحلوا شعراء مضر كثيراً من الشعر الذي لم يقولوه، ولم تنضح به قرائنهم؛ وأقوى الأسباب التي تحمل الضرر المضري مقبولا، أن كثيراً من الشعراء المعربين أدركوا الإسلام، واستمرت سلسلة مدرسة أوس بن حنجر أستاذ شعراء مضر حتى كثير وجبل من شعراء الدولة الأموية؛ وأن للشعر المضري خصائص فنية يدركها الناقد الأديب واضحة جلية في كل ما أثر من الشعر الصحيح من المضريين؛ فالأمر لم يظهر فيه مما نسب إليهم، فهو مظلم النسبة، منحول مدخول.



والناقد الأديب المبرأ من الغرض، لا يرى في هذا المذهب شيئاً يزيد على ما روى عن قدامى النقاد من العرب، إلا فرق ما بين الإجمال والتفصيل، فكبار النقاد يجمعون على أن زعيم الكوفة في الرواية والحفظ هو حماد الراوية، وأن زعيم البصرة في الرواية والحفظ حلف الأحمر؛ وأهل الكوفة والبصرة يجمعون على تخرج الرجلين في دينهما وخلقهما وسمواتهما، ويجمعون على أنها لم يكونا يحفظان الشعر، ويحسنان روايته ليس غير، وإنما كانا شاعرين محبدين، يصلان من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان. فأما حماد فيقول عنه المفضل الصبي: إنه قد أفسد الشعر إفساداً لا يصلح بعده أبداً؛ ولما سئل عن سبب ذلك: ألحن أم خطأ؟ قال: ليته كان كذلك! فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجس عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومما بينهم، فلا يزال يقول الشعر يشبهه مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل عنه ذلك في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها، إلا عند عالم ناقد؛ وأين ذلك؟

ويروي ابن سلام : أن حمادا دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، فقال له بلال : ما أطرقتني شيئا ، فغدا عليه حماد ، فأنشده قصيدة للحطينة في مدح أبي موسى عدة أبياتها أربعة عشر بيتا ، يقول في مطلعها :

هل تعرف الدار مذ عامين أو عام دار لهند بمجرع الخرج فالدام

قال بلال : ويحك ! بمدح الحطينة أبا موسى ، ولا أعرف ذلك ، وأنا أروي شعر الحطينة ١٢ ولكن دعها تذهب في الناس .

وقد تركها حماد فذهبت في الناس ، وهي في ديوان الحطينة . قال العلامة الرافعي رحمه الله : والبصير بالشعر ومذاهبه ، إذا قرأ شعر الحطينة ، أخرج هذه القصيدة منه ، لأنها تقليد ومقاربة ، وإن كان المدائني قد صحح أنها للحطينة في أبي موسى ، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطينة تقربا إلى بلال ، فإن نفس الشاعر أصدق في نسبة كلامه من ألسنة الرواة .

وأما خلف الأحمر ، فيقول ابن سلام : إنه كان نفرس الناس بيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع ، ثم نزل في آخر أيامه ، فأنبا أهل الكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر ، فقالوا له . أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة أفبقيت أشعاره على حالها . ويقال إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ، ولامية الحماصة التي مطلعها :

إذ بالشعب إلى جنب سَلْعٍ لِقَتِيلًا دمه ما يَطْلُـ

على ابن أخت تأبط شرا في رثاء خاله . قالوا : ومن علام وضعها هذه الدقة التي لم تكن من خصائص العصر بمد ، في قوله منها :

حادثَ تما نابني مُصْصَمِيلُ جِلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُ

وقال الأصمعي سمعت خلفا يقول أنا وضعت على النابغة القصيدة التي يقول فيها :

خيل صيام ، وخيل غـير صائحة تحت العجاج ، وأخرى تملك الحما

وقد ذكر غير واحد من العلماء : أنه لما جاء الإسلام ، واندفع به العرب إلى الفتح ، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينئذ من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك ، وقد أخذ منهم السيف والخيل ، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب روايته ، صنعت القبائل الأشعار ، ونسبتها إلى غير أهلها ، تنكث بها ، وتمتاض مما فقدته . وكان في العرب قوم آخرون قلَّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك ، وإنما العزة للكثرة ، فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه ، وأخذ عنهم الرواة . وأول القبائل التي وضعت الشعر في الإسلام قريش ، وكانت أقل العرب شعرا وشعراء ، فلما تعدت ضمت واستبقت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالإسلام ، حين كان منها المسلمون ، ومنها

الفاستولون ، ومنها دون ذلك ، وضموها على حساب بن ثابت رضي الله عنه أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما ترى العرب إلا أخذت إخذها في ذلك من بعد .



إذا علمنا هذا — وهو متعالم معروف — تحقق لدينا أن هذا الرأي ليس جديدا في جوهره ، ولا بدعة في الأدب لم يسبق إليها ، وإنما الجديد فيه ، هو هذا التفصيل والإيضاح والشرح ، وضرب المثل ، مما نوع توافي البحث فيه ، وفتح للباحث أبوابا ، لم تكن تخطر له قبل ذلك ببال . إن القدامى من العقاد ، أرسلوا شكهم في الأدب الجاهلي إرسالا ، وضمموه تعبيا ، فلم يفرقوا في هذا الشك بين شعر وشعر ، ولا بين عرب وعرب ، فأما صاحب هذا الرأي ، فقد تناول الموضوع ففصله تفصيلا ، وقسمه أقساما ، ثم أصدر حكمه على كل قسم ، معللا مبرهنا ، تارة بما تراض إليه نفس الأديب ، وأخرى بما لا يخلو من لطف واضطراب ؛ وكلتا الحالتين محدية على الأدب ، لا يخلو النظر فيها من جدّة ، ولا يقتصر عن نفع . ولعمري لو صدر هذا الرأي عن غير من صدر عنه ، ثم جرد من تلك الفضول التي تضر الأدب أبلغ مما تنفعه ، لقوبل في العالم العربي بغير ما قوبل به إبان ظهوره ، ولسكنت أقلام كثيرة حركها بمبشئه بما كان إلى العلم والمنطق ، أقرب منه إلى النقد الأدبي والأدب . فالنورة على الرأي ، في حقيقة الأمر ، لم تكن لما أصاب الأدب من شك في بسبته ، إذ هو أدب سواء أ كان صحيح النسبة أم كان منحولا ، وإنما كانت ثورة على تلك الفضول التي استتبعها التوسع في استخدام حرية الرأي — من رجل معروف بالثقل في حرية الرأي — إلى حد غير مقبول ولا مجد على أدب ، ولا على غير أدب .



فالأزهر يلتقي مع صاحب هذا الرأي في الناحية الأدبية في حملتها ، ويغيد بما تعلق به من بحوث وأطراف ، فيها لذة ، وفيها متعة ، وفيها فنون من الأدب خصية ؛ ليس من البر بالأدب مطاردتها وإغلاق الأبواب دونها ، وضرب الأسناد على الطلاب حتى لا يتناولوها فيفتنوا بما فيها من خير ، مما في طواياها من شر ؛ فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، والخير لا يصد الوجوه عنه ، مصاحبة الشر له .

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ؟ وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر  
وها نحن أولاء ببعث البعث إلى أوروبا ، لتأخذ فلسفة العلوم والفنون عن علماء الغرب ، وفيهم اللاديني ، وفيهم الملحد ، وفيهم اليهودي والصرائي ، وغيرهم ، ولا نصرفنا عناوتهم لنا في الدين والمعتقد ، عن مصادقتهم في العلم والفن ووسائل ترقية الحياة .



يبد أننا نفترق عن صاحب هذا الرأي ، وعن السواد الغالب من شيعته وأتباعه ، لا في تلك الفصول التي مررت بها مرأً آنفاً فحسب ، بل وفيما يحاولونه ويدأبون في السعي إليه في أناة وحسب تأت ورقة أسلوب ، وهو فصل اللغة عن الدين ، والبحث فيها بجردة عن مسحتة ، وعن ملاساته ، وعدم التقيد في بحثها بالقيود التي ترتبطها به ، وتقصرها عليه ؛ وعندئذ أن هذا أخطر الأمرين ، وأسوأ الناحيتين ، إذ أن الدين من اللغة ، بمنزلة الروح من الجسد ، ففصل أحدهما عن الآخر ، قضاء عليهما جميعاً ؛ وليس هذا رأياً — معشر الأزهرين — وحدنا ؛ فالرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وهو صاحب مذهب في الأدب العربي معتقد ، ومكانته في البحث والنظر لا تحجب ، يقول في كتابه ( تاريخ آداب العرب من ١٣ ج ١ ) وأنت خير بأن الرجال في تاريخ الآداب الأوربية ، هم قِطْعُهُ التي يتألف منها ، لأنهم منصرفون في اللغة كأنها إنما توضع للمعدهم أوضاعاً جديدة . فكل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم ، أو هو على الحقيقة قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي . ولكن الرجال عندنا في قياسهم بأولئك ينزلون منزلة التشبيهات من المعاني الأصلية ، إلا ما ندر ، ولا حكم للنادر . وذلك لأن في لغتنا معنى دينياً ، هو مرها وحقيقتها ، فلا نجد من رجل روى أو صنف أو أمل في فن من فنون الآداب ، أول عهدهم بذلك ، إلا خدمة للقرآن الكريم ؛ ثم استقلت الفنون بعد ذلك ، وبقي أثر هذا المعنى في فواتح الكتب . والقرآن نفسه حادثة أدبية ، من المعجزات الحقيقية التي لا شبهة فيها ، وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه » اه : هكذا وضع — رحمة الله عليه — من لا يفهمونه ، بين قوسين ، يريد بذلك أن ينبه من لا يفهم ، إلى أنه يقصد إلى قوم معينين ، تبيين حنوحهم إلى هذا الرأي ، وعملهم على تطبيقه ، والسعي في سبيله . وما كان الرأي الذي أسلفنا الحديث عنه في هذا البحث إلا طليعة ومقدمة لتطبيق هذا المذهب الذي لم يمُتته قيام الثورة في وجهه ، بل ها هوذا :

يبدو وتصره البلاد كأنه سيف على شرف يسلم ويغمد

فتراه اليوم في متجهات التقدم الحديث ، ونظم التعليم ، كما رأيته أمس في الأدب الجاهل . وعلى الجلة ، فصميم الفرق بين مذهب الأزهر في اللغة والآداب ، وبين مذهب الجامعة فيهما ، أن الأزهر يخدم بدراستهما الكتاب والسنة ، وهما أصل الدين الذي يأخذ نفسه بحياطته والقيام عليه ، وأن الجامعة تدرسهما على أنها من خصائص الشرق ، وأدوات تاريخه ، ومقومات حياته .

وقفاً يلي من فصول هذه النظرات ، مزيد إصباح لمظاهر هذا الاختلاف ؛ فإلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان

كلية اللغة العربية

## نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

عرضنا في بحوث سابقة لنظام الوقف وآثاره . والوقف لغة : الحبس والمع ، وهو مصدر وقف ، تقول : وقفت الدابة إذا منعته من السير فوقفت ، ووقفت الدار إذا حبستها ، ولا تقول : أوقفناها لأنها لغة رديئة . وقد اشتهر إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول ، فيقال : هذا البيت وقف أى موقوف ، ومن ثم جمع على أوقاف .

يبقى بعد ذلك أن أتمم الفقه الاسلامي رضوان الله عليهم احتلقوا في معنى الوقف شرما ، فيذهب أبو حنيفة رضي الله عنه الى أن الوقف هو حبس العير على ملك الواقف مع التصديق بمنعقتها ، أو صرف منفعتها الى من أحب . فالنوع الاول كما لو وقف الواقف عينا من أول أمره على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساحد والمدارس والمستشفيات والحصون والمقابر والسقايات والقناطر والملاجئ والنكاي ونحو ذلك . والنوع الثاني كما لو وقف على جماعة من الأغنياء عينا ومن بعدم على جهة بر لا تنقطع . وفي هذه الحالة يعتبر الامام النوع الثاني وقفا قبل انقراض الموقوف عليهم ولا يعتبره صدقة . ومذهبه مبني على أنه رضي الله عنه لا يقول بلزوم الوقف ، فهو يرى كما يفهم من تفاصيل مذهبه أن العين الموقوفة تجري عليها أحكام الملكية بعد موت الواقف ، فتورث ونهب ، وتعرض لها صفات الملكية كما لو لم تكن موقوفة .

ويذهب صاحبان : أبو يوسف ، ومحمد رضي الله عنهما ، الى أن معنى الوقف هو حبس العين عن أن تملك لاحد من العباد ، فيما يروى العلامة ابن عابدين ، والتصديق بمنعقتها ابتداء وانتهاء ، أو انتهاء فقط . فالحالة الاولى كما لو وقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا خيرا . والحالة الثانية كما لو وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ثم جعلها من بعدم لجهة بر لا تنقطع ، كما إذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدم للعساكين ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا ، فإذا آل الى جهة بر دائمة صار خيرا . وتلك التسمية الثانية تسمية عصرية ، وإن كانت في مدلولها متمشية مع كل عصر وجيل . وعلى مذهب صاحبين يكون الوقف لازما ، فلا يوهب ولا يورث ولا يوصى به لأنه لا يملك لاحد من العباد .

وعما لا مرأى فيه أن الوقف شعوبه الخيرى والاهلى عمل من أعمال البر والخير ، ووسيلة من وسائل التقرب الى الله ، وهو فيما وراء ذلك نظام صالح يميته العقل وتدعو إليه نوااميس المجتمع ، وهو مع ذلك لا يمدو أن يكون نظاما لنوثيق ما بين الأغنياء والفقراء من صلوات

تقوم على التعاون بينهما ، فالأغنياء يبذلون نوالهم ، والفقراء يكفون عن الحقد عليهم والتبرم بما في أيديهم .

وهو فوق ذلك نظام أرشد إليه الكتاب والسنة ، وتواصت به أمم مسيحية مع اختلاف في الأوضاع والأساليب والمقاصد ، فيندرج في كثير من الآيات التي حثت على فعل الخير والنزود به للأخرة ، مثل قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « وابشعوا إليه الوسيلة » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، وقوله : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » .

وقد دلت على مشروعيته أيضاً الأحاديث الكثيرة والآثار المتضافرة ، واستمرار عمل الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا على الأخذ بالوقف من غير تكبر . وهذا إجماع على مشروعيته ، وهو حجة . قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : لم نر خيراً للميت ولا تلحى من هذه الجبوس الموقوفة . أما الميت فيجري أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يتصدق على استهلاكها .

فنظام الوقف بنوعه في الشريعة الإسلامية أوفى غرضاً للمجتمع ، وأعم فائدة لمصلحة الجماعة والفرد . وما يعرض له من المساوئ في تصرف النظار مما يطرح كل يوم في ساحة القضاء لا يفض من قيمته ولا يؤثر في مشروعيته . فإذا أحسكت طريقه مرافعة النظار والأخذ على أيدي العابثين منهم ، أنتج نظام الوقف لنوع من بنى الإنسان أفضل وجوه المعونة ، وأكفل طرائق العطف والمثوبة ؟

عباس ط

## الى حضرات القارئین

لم نستطع في هذا العدد أن ننشر كل ما لدينا من مقالات حضرات العلماء والكتاب التي تراكت لدينا في الشهرين الماضيين لا تصدر فيها المجلة ، وهما ذو القعدة وذو الحجة ، فنمتنذر الى حضراتهم راجين أن توفق الى نشرها تباعاً .

وكذلك نمتنذر لحضرات المؤلفين الذين رغبوا إلينا في نقد مؤلفاتهم ، فقد ضاق هذا العدد عن نشر شيء من ذلك ، آملي أن نوفيها حقها في الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟



# نفسِ سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي  
شيخ الجامع الأزهر  
الدرس الثاني الذي ألقاه فضيلته في رمضان سنة ١٣٥٨  
بمسجد السيدة نفيسة بالقاهرة  
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَقِيَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ  
فَقَاتِلُوا الَّذِي تَبْقَىٰ تَبْقَىٰ حَتَّىٰ تَبْقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ هُوَ فَاصلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسَمُوا  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِمِينَ ) :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشيء : قطعة منه ، وهي جمع طائف ، وقد يكنى  
بالجمع عن الواحد ، فيراد بها الواحد .

والبغي : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوز . وهو  
قسان : محمود ، ومذموم . فالأول : تجاوز العدل إلى الإحسان ، والثاني : تجاوز الحق إلى الباطل ،  
أو تجاوز الحق إلى الشبه ، وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بين الباطل وبين ذلك  
مشتمات ، ومن رجع حول الحق أوشك أن يقع فيه » . وقول الله سبحانه : « إِنَّمَا السَّبِيلُ  
عَلَى الَّذِينَ يَتْلُونَ النَّاسَ وَيَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ نَفِيرَ الْحَقِّ » دليل على أن هناك بغياً بالحق .

والتي والفتية : الرجوع إلى حالة محودة . والعدل : هو التقييد على سواء ، وهو  
مساواة في المكافأة ، إن خيراً أو غير ، وإن شراً أو غير . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ،  
والشر بأقل منه . ويقال : قسط الرجل ، إذا جاز فأخذ قسط غيره ، وأقسط ، إذا عدل  
فأعطى قسط غيره .

(١) العهد في الرواية « الحلال بين والحرام بين الحق » . والرواية المذكورة ساقها الراجح في مقدماته .

روى عن ابن عباس أن الآية في الرجلين ، أو النفر والنفر ، أو القبيلة والقبيلة من أهل الاسلام : يقتلان ، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله الله في كتابه : إما القصاص والقود ، وإما العقل والدية ؛ فإن بقت إحداها على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان في الآية واجب الإمام ، لأنه قائم مقام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ؛ فإذا وجد بلد لا يمتد إليه سلطان إمام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام . وجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة في كتب المذاهب . وروى الثوري عن سالم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسله » .

وعلى هذا فإذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين ، فعلى الإمام الإصلاح بينهما ، بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وإزالة الشبهة ؛ فإن تعدت إحداها ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت الملو بغير الحق ، ورضيت به الطائفة الأخرى ، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم كتاب الله ؛ فإن رجعت بعد القتال ، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإحسان ، ولا يكتفى بالمتاركة والمجازاة والكف عن القتال ، بل لابد من الإصلاح بالعدل ، لتزول الضغينة ، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك إلى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم .

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فإذا قبضت أيديها عن الحرب وكففت ، تركت ؛ وإذا ولت وركنت إلى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيها ؛ وإن بنى الفتنان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التي يراها المسلمون كافية للموادة والمكافة ؛ فإن لم تتعاجزا وأقامتا على البنى ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البنى فساد في الأرض ، وخروج على السنن الإلهية ، وتمدي على العدل الذي يحبه الله ويأمر به ؛ وعلى المسلمين أن يظهرُوا الأرض من البنى والفساد ، لتعمر بالعدل والإحسان .

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقواما عليه . ومن حق من يرضه الله في هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف ، أن يمد نفسه لهذا الشرف ، وأن يقدم كل شيء يملكه تلبية لهذا الواجب الرغيب الشأن ، من نفس ومال .

وإن اقتتل فتنان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاها ترى نفسها محقة ، وجب إزالة الشبهة وإطلاعهما على مرشد الحق ؛ فإن ركبنا متن الغواية واللجاجة ، ولم نعمل بما هديتنا إليه ونصحتنا به ، اعتبرنا في حكم الباغيتين .

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلقه السادل على الباغي ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالا :



أما المتلفات في غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة في قصاص النفوس وغرامة الأموال . وأما متلفات القتال فلا تضمن ؛ لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن الباغى لأن إزالة الضعيفة وحب الإصرار في وقف القتال يدعو إلى التسامح فيما أتلف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التي جرت في عصر الصحابة والتابعين ، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الأموال المأخوذة في القتال ترد بعد انقضاء الحرب إلى أهلها من الجانبين . وهذا كله في البغاة الذين لم شوكة من عدد وعدة ، ولم تأويل باطل ؛ أما الذين لا شوكة لهم فهم في حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلوه من نفس ومال .

والذين لم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمنهم ، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه : « وأقسوا إن الله يحب المقسطين » ، ومنهم من نفى الضمان عنهم .



( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) :

في هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح في الآية السابقة ، وبيان لعله فيه . ذلك أن الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد ثم سائر الناس أن ينهضوا في إزالته ورفعها ، ويمشوا بالصلح بينهما إلى أن يرقموا ما وهى من الوقا ؛ فالأخوة في الدين أحق بذلك ، وأحق بأكثر منه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتناول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه » .

وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه ؛ وبين أن تقواه سبيل التواصل والترامح ، وأن هذا سبب وصول رحمة الله إليهم .



( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تُلْجِزُوا أُنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ ، رُبُّسَ الْأَسْمِ السُّوءِ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ) :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منه بعين القمص ، واحتقاره قولاً أو فعلاً ، بحضرته .

والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ، ومنه قول زهير : أقوم آل حصن أم نساء \* وأما قوم فرعون وقوم نوح وماد ، فن باب تغليب الذكور على الإناث .

واللز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعاييب في حضرته . ولا يدخل في مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل في السخرية . وهذا هو الفارق بينهما .

والتناوب بالانقلاب : التداوى بها . والاسم : معناه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه في الآفاق .

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس . وقد جاء النهي في الآية منصباً على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية في الجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء . على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوي على النهي عن السخرية على أي وجه من الوجوه .

ثم بين الله تعالى الملة في النهي ، وهي أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساحر في الواقع وتفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شيء يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذي يعلمها ، ولا علم للعباد بشيء منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترأ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن زود به العيون لثأته حاله ، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعي لسانه وفهاهته ، فلعلمه أخلص ضميراً ، وأبقى قلباً ، وأظهر سريرة ، ولعله يحمل بين جنبه نفساً كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذبة العلم ، ولعله في هذا كله أحسن حالا من الساحر ، وفي السخرية ظلم بشعير من هو في نفسه عظيم لا يستحق التحقير .

ثم نهى الله المؤمنين عن اللز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضاً بما يكرهونه من الانقلاب ، ونههم إلى أنهم ، وهم كففس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضاً ، لأن الطاعن في هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ، وهذا هو السر في قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللامز إنما يلز غيره لا نفسه . وذهب صاحب الكشف إلى أن المعنى : وخصصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهي عن اللز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على دينكم أو ممن ليس على سيرةكم ، وم الجاهرون بالفسق . وفي الحديث الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الاسماء إليه .

ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشبهوا الكنى فانها منبهة . وقل من تجده من المشاهير في الجاهلية أو الاسلام ولا تجده لقباً حسناً أو كنية : كالعتيق لأبي بكر ، والتاروق لعمر ، وسيف الله ظلاله . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى في الأمم كلها في مخاطبتهم وكتاباتهم من غير تكثير .

تقدم النهي عن التلقيب بما هو مكروه ؛ ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لآبيه أو لآله أو غيرها ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون المباداة الكف من أمراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » . والهمزة : الطمأن في الناس .

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعي بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذي حل قلبه بالإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسقة ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عُرف بالإيمان .

فمعنى « بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان » : بشئ الذكر أن يُذكر المؤمن بالفسوق بعد أن انصف بالإيمان ، أي أنه لا ينبغي اجتماع هذين الوصفين : الإيمان والفسق ، كقولهم : بشئ الشأن بعد الكبرة العُصبة . وهم يريدون استقباح الجمع بين العُصبة - أي ما يكون في حال الشباب من الميل إلى الجهل - وكبر السن .

وينبغي أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو إليه الضرورة فيذكر لا على قصد التعقير ، كما يقول المحدثون : سليمان الاعمى ، وواصل الأحمد . وفي هذه الحالة لا ينهى عنه .

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالنوبة عن سائر المعاصي ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه .

وينبغي أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهي ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب إليه . كلا ! هذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذي يطلبه الله سبحانه ويحبه : « إني الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . التوبة تستدعي معرفة عظم ضرر الذنوب والإيمان عليها ؛ وتستدعي ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الإنسان بوصول الألم إلى العظم ، وحزنه فيه ، وبأن كبده تكاد تدوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه ؛ وتستدعي العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه .

لحقيقة التوبة : علم ، وتدم ، وقصد . وإذا فقد أحدها فقدت . وغير خاف أن معرفة كون المعاصي مهلكات جزء من الإيمان ؛ وعدم المبادرة إلى التوبة مغتور لجزء من أجزاء

الإيمان ؛ ولو كان الإيمان كاملاً لما أقدم مؤمن على معصية . وهذا يفمر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . ولا بد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السيئ ، رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ » ، فأولئك يتوبُ اللهُ عليهم ، وكان اللهُ عليماً حَكِيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ، ولا الذين يعمنون وهم كفارٌ ، أولئك أُعْتَذِرُ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١) . وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى يصير طبعاً ، ويران على القلب فلا تحمله الندامة على الذنب ، ولا القصد الى التخلص منه ؛ فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك ، كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب ، دون أن يغسله .



( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، إِنَّ يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ )

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم ضاع في التباعد اللازم له .

والظن : اسم لما يحصل من أماره قوية أو ضعيفة ؛ فإن قويت جدا أدت الى العلم ، وإن ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوم .

والإثم : الفعل المبني عن التوب ، وجمه آثام . وقوله : « أَخَذْتَهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » (٢) معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذي يحتمل الإثم .

والجسس : من العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسم . وهو أخص من الحس ، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الإنسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس .

والغيبية : أن يذكر الإنسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يخرج الى ذلك . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبتته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتته » .

من الظن ما يباح اتباعه : كالظن في أمور المعاش وما أشبه ذلك ؛ ومنه ما يجب اتباعه . كالظن في الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ؛ ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن في الإلهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعي قطعي يخالفه . ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين ؛ فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء . والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ؛ أما حديث النفس ، والمخاطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه . والمهيى عنه ركوز النفس وميل القلب . والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فليس لك أن تعتقد سوءا إلا إذا انكشف لك بيمان ، أو ثبت يرهان . أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك ، بل وقع في قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب . ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بيئة عادلة . وأما سوء الظن وعقد القلب ، تغير القلب عما كان . فم قد يصدر الإنسان في ظن السوء إذا أحبره العدل الثقة .

هذا الذي سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أوتيت فيه الإمامة ، أو شوهد منه التستر ؛ أما المجاهر بالمعاصي ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية ، لأنه ممكن من صفته ، وأزال حرمة عرضه .

ومن الظن ما هو قهري غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق به النهي لعدم القدرة عليه ، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه . وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءا ، فهذا الظان لا يضره أن يحترس ، لكن يضره أن يقع أذى بالظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخواني : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أمري مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا ، ومن عرض نفسه لاتهم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن في اكتسابهم ، فانهم زينة في الرضاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل هدوك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب » .

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة إلى التحقير والسخرية واللعن ، ومدعاة إلى إيقاع الضرر بالظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيرا » ، فإن بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه .

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن التجسس ، وتنتع عورات المسلمين ؛ ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته ؛ ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبععت عورات الناس أفقدتهم ، أو كدت تفقدنهم » . وقال

أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت إليه أحدا حتى يكون معي غيري . وفي الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته » . وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية . وقد دفعت كراهة المسكرات صهر بن الخطاب الى تتبع العورات ببعض الأحياء ، فقد كان يصح بالمدينة فسمع صوت رجل في بيته يتغنى ، فتسور عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده حجر ، فقال صهر : يا عدو الله ! أظننت أن الله يترك وأنت على معصية ؟ ! فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي ! إن كنت عصيت الله تعالى واحدة فقد عصيت أم الله في ثلاث : قال : « ولا تجسسوا » وقد تجسست ؟ وقال : « وأتوا البيوت من أبوابها » وقد تسورت ؟ وقال : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها » وقد دخلت بغير إذن ؟ ! ! ! وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعاتك وعصيانك أشد ! فقال صهر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا فغفا عنه صهر ، وخرج وتركه .

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ، ونهى عن الغيبة أيضا ، وهي أن يذكر الإنسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه ، سواء كان الذكر صراحة ، أو كناية ، أو إشارة ، أو رمزا ؛ وسواء كان ما يذكره متعلقا بدينه أو دنياه ، وبخلقه أو خلقه ، وسواء أكان متصلا به أو بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب ، وأم . ومحرم غيبة المعروف بالصلاح ، ومستور الحال ، ولا يحرم غيبة الجاهر بالفسق ، والداخل في مواطن الرب . وقد نقل القرطبي إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر . وبعد أن صورها الله أبشع تصوير في آخر الآية ، لا يصح أن تعد في الصفات . ثم منها ما هو عين كصيب الشخص في لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ، فإذا قيل : إن مثله من الصفات كان مقبولا .

ويجوز لمن ظلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما يمدح حيبا ، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ، ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، وإطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامي ، كما يجوز ذكر ما في الولاية والقضاة من شر لقادر على عزله .

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن في المسلم ، والقول فيه بغير علم ؛ ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ؛ ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق . وختمت الآية بإطلاع المؤمنين في رحمة الله بالتسوية ، وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة : « إن الله تواب رحيم » .

ومن أخبث أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون معاصيها ، ولكنهم يخجلون عليها بالاسمها ثوب الدماء والإشفاق لمن يريدون اغتيابه . مثلاً يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، ولا يطلب حطام الدنيا ! أو يقولون : والله ما أحسنه ! ما كان يقصر في عبادة ، لكنه ابتلى بما يتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غمنا أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يُظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتمجب من ظهور المسكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلاً : انظر إنما نحن في آخر الزمان ، لقد شوهده فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغنى أن فلانا فعل كذا .

وللغيبة أسباب ، أهمها : النفيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشقاء النفس من غضبها ، وبجمالة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الإنسان نفسه بالقصص من غيره . ومنها الحسد ، وهو أعم الأسباب . ومنها اللعب ، والهزل ، والمفاخرة ، وإضاعة الوقت .

وقد صور الله المختاب على أخش وجه وأشنعه ، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتاً ؛ وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحته ؛ فالمختاب يمزق لحم من اغتيابه . ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت إذا مزق لحته ، وكان المختاب أكلاً لحم أخيه ميتاً .

وقوله تعالى : « فكريهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحد أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فإن صبح هذا منكم ، وهو لابد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة .

وهو جواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم النائيين .

وتقول العرب للمختاب : فلان يأكل لحوم الناس . ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب      ويأكل كل بمضنا بمضنا هيأنا

وقول الآخر :

فإن يأكلوا الحي وفَرت لحومهم      وإن يهدموا مجددي بنيت لهم مجدداً

## كلمة الاستاذ الاكبر

في احتفال الأزهر بميدى الهجرة والميلاد الملكي

حضرة صاحب القضية الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر مواقف في مناسبة الذكريات الإسلامية يترقبها المسلمون في العالم بأسره ، أخصها ذكرى الهجرة النبوية ؛ فقد اعتاد فضيلته أن يلقى فيها خطبة مغلفة يتناقلها الناس في الآفاق ، ويتدارسونها في نواديبهم . وقد أفاض الله على فضيلته في هذه السنة كلمة جمعت بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، وعرضت من أدوائهم وهوائهم ما شعوبهم في أشد الحاجة إليه لإصلاح مشورتهم ، ورأب صدوعهم ، في ممر يأخذ بالآليات ، ويبان يستهوي الاستماع . وقد اتفق أن كان قد أطل عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فغم فضيلته خطابته بذكر مناقب جلالة ، وما أفاض الله على مصر والعالم الإسلامي من فضائله وفواضله ، فازداد الاحتفال بذلك جلالاته على جلالاته .

والى القراء نص خطبة الأستاذ الإمام حفظه الله :



بسم الله الرحمن الرحيم . ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا .  
أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بالعام الهجري الجديد ، الذي اجتمعنا اليه في الأزهر تحية له ، وتعجيدا للهجرة ، ولصاحبها سيدنا محمد بن عبد الله ، أشرف من سمي على الأرض ، وأطهر الخلق ضميرا ، وأشرفهم غاية وقصدا . وأبست من هذا المكان الطاهر تهنئي وتحياتي الى الأمم الإسلامية في أقطار الأرض قاصيها ودانيها .

هاجر محمد من وطنه ، والوطن لاصق بنفس صاحبه ، عزيز عليه أن يفارقه ؛ وإذا فارقه فالنفس نازعة اليه ، شديدة الشوق والحنين . وقد قيل قديما : ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم . وقد صهر الله البلدان بحب الأوطان .

وليس أدل على أن الوطن عديل النفس ، وعديل الأبناء ، من قول الله سبحانه : « ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابست لنا مليكا تقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ، وقول الله سبحانه : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا



من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم . فهو لاء الأشراف من بني إسرائيل قد قالوا : كيف لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، خملوا الإخراج من الديار داعيا قويا ملحيا في الإقدام على سفك الدم ، والاحتشانة بالأرواح ، ولم يكن سبيل الله عندهم كافيا وحده للقتال ، بل الذي أغرام به وحاج نفوسهم اليه هو الإخراج من الديار والأبناء ، وقد سوى الله سبعانه بين الأمر بقتل النفس والأمر بالخروج من الديار في أنه لا يفعله إلا القليل .

هذه قيمة الوطن عند الأشراف ، ونلك قيمته عند عامة الناس أيضا .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الدؤابة من قريش ، وكان أطهرهم نفسا ، وأكرمهم خلقا ، وكان شديد الحرص على هداية قومه ، حتى حاطبه الله سبعانه بقوله : « فلعطاك بأرغم نفسك على آثام إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، فلم يكن من المئين على نفسه الكريمة أن يفارق وطنه ولد فيه ، وطعم طعامه ، وشرب مائه ، ونفس في جوده ، وأشرقت عليه فيه شمس الهداية الربانية ، واتصلت روحه فيه بالوحى الإلهي ، ولقى فيه أخاه جبريل موقدا من قبل الله سبعانه لهداية قومه والناس ، لكن الدواعي قوية ملححة ، فقد حاربه قومه ، وحاولوا الخط من شأنه : كذبوه في دعوى النبوة ، وأنغروا به الشعراء بهجونه ، وأعتنوه فطلسوا منه معجزة كونية كعجزة موسى وعيسى « وقالوا لن تؤمن بك حتى تنفجر لنا من الأرض ينبؤنا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تغييرا ، أو تمسقط السماء كما زعمت علينا ريمنا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا .

ضائق قريش ذوما به وضائق بها فرما ، فلم يكن إلا شيء واحد : أن تظفر به أو يظفر بها ، فقد طاب معتقداتهم ، وسخر من آلهتهم ، وصلل آباءهم ، وسفه عقولهم ، وفتح للناس باب الحرية ، وساوى بين الشريف والوضيع ، ولم يبقم للأنسب وزنا ، وجعل الكرامة للتقوى ، وهون شأن المال ، وكل هذا يفرس البغضاء في نفوس أهل الثراء ، ويولد الحقد عند ذوي الأنساب ، وهو لا يحتمل مثله اليوم بعد أن مضى على الإسلام قرابة أربعة عشر قرنا ، فأولى ألا يحتمل عند أشراف قريش في الجاهلية .

لذلك قامت قريش تحاربه بكل ما تستطيع من الحول والقوة ، فتاوت به بالأذى ، وشردت أتباعه ، وأذاقتهم عذاب المحون ، ولا يخفى ما لحصد من القوة هل يمت الشر وإيقاظ الفتنة ، وما للقرابة من الأثر في إيقاد نار الحسد والبغضاء . وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : أنزل الوحي على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك هروة بن مسعود التقي سيد تقيف ؟ « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا »

وقد نقل عن أبي جهل قوله : تازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فاطمنا ، وجاروا حملنا ، وأعطوا فاعطينا ، حتى إذا تمخذا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، ففى ندرك مثل هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا تصدقه !

حاربوه بالدماية ، وحاربوه بالحصار الاقتصادي كما تفعل الدول اليوم ، فقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه ، وقالوا : معلم مجنون يفرق بين المرأة وزوجه ، والولد ووالده ، والمشيئة والمشيئة ، والقبيلة والقبيلة ، وكتبوا كتابا تافقوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، لا يصهرون اليهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يتعاونون منهم ، وعلقوه فى جوف الكعبة توكيدا لما فيه .

بعد هذا كله ، لم يكن يد من الهجرة ، لأنه لم يكن هو وأتباعه من القوة بحيث يكون لهم الظفر على قريش ، فهاجر فرارا بنفسه وبدينه من هذه البيئة المليئة بالحق ، وبظلمة الكفر ، الى بيئة يجدها فيها راحة ومتنفسا ، وله فيها أمل وثيق فى قبول دعوته وفى الأخذ بيده . وقد كان موقف قريش معه وموقفه معها من أكبر العوامل فى نجاحه بعد الهجرة ، لأن ثباته على الدعوة واختاله هو وأتباعه كل ما وجه اليهم من أذى ، كان من شأنه أن تتواتر أخباره ، وأن تتراعى الى القبائل ، وكان من شأنه أن يفتح الصين لإبصار نور الحق ، وأن يفتح بابا للتفكير ، حتى عند أشد الناس جودا ، وأقوام صلابة فى الباطل ، وهكذا يخدم الحق بما يوجه اليه من الأذى ، ومن هذا يجب أن تؤخذ العبرة .

ولا أظن أنه قد بقى فى الهجرة معنى لم يتناوله الناس فى خطبهم ومقالاتهم وأشعارهم ، فنحن إذا قلنا فإنما نقول مكررا معادا .

لكننا مع هذا نحاول للمودة الى العبرة ، ولا يجوز لنا أن نمر بها وبما يلازمها دون أن نصبر ونتمط ، وما قيمة ذكرى الهجرة إذا مرت ونحن عن الصبر معرضون ، فندخل فى قوله سبحانه : « وكأين من آية فى السموات والأرض يُعْرَوْنَ عليها وهم عنها معرضون » ! وما ابتليت الأم حامة ، وما ابتلى المسلمون خاصة ، بأشد من البلاء بالأوهام عن الآيات والنذر ، والغفلة عن وجوه العبر .

أنظنوا أن قوم نوح وماداً وثمود وقوم لوط وأنصحاب الأيكة ، ركوا من الإثم والبهتان أكثر مما ركبت الأم فى هذا الزمان ؟ وهل استمرءوا من الشهوات أكثر مما استمرأت الأم اليوم ؟

وهل تظنون أن الله بهمل أمم اليوم فلا يعاقبهم كما عاقب تلك الأم التى قص علينا فى كتابه ما حل بها ؟ كلا ! إن الله قد بدأ يتزل على العالم بسبب طغيانه وتمرده مثل ما أنزله على الأم الفائرة .

أغرق قسوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد ربحاً صرصراً آتية ، سفرها عليهم سبع ليال  
وثمانية أيام حسوماً ، وأرسل حاصبا على آل لوط ، وأهلك آل عمود بصيحة . كل هذه الآيات  
فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأي هذا من الرعب المستوى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل  
إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه  
وأولاده وأصحابه ، أو يختطف في لحظة من اللحظات ، في البر أو في البحر ، ومن ساعة السماء  
أو من خسف الأرض ؟ وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ،  
ومن البحر ، ويصاحبه الحرق والفرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلاً في مهد ، ولا مريضاً  
في سريره ، ولا ناسكاً في معبده ، ولا مالماً في معبده ، ولا مقعداً ولا شيخاً قانياً .

لا شبهة أيها الإخوان في أن هذا كله إنما هو جزاء ما اقترف من الشرور ، من إلحاد  
وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتنان في الشهوات ، وجزاء الآثمة والإعراض عن استغاثة  
الضعفاء والمظلومين ، من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ، وجزاء تسخير الأقوياء للأمم  
الضعيفة وعدّها أنعاماً ساعة ترضى ثم تستمتع بخيراتنا على ألوان من المتاع لم يكن يعرفها الناس  
من قبل هذه المدنية ، المارقة ، الفاحشة ، التي أغرق أهلها في الشهوات ، وأغرقوا في الإشادة  
بها والدعوة إليها .

أيها الناس :

تدبروا قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان  
الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القري ، فلم  
يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكنار الآخرة خير للذين اتقوا ،  
أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظلوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ،  
ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »

الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم يدهو هو ومن اتبعه إلى الله على بصيرة ، قاض بإجابة  
تلك الدعوة والعمل بها ، وهي قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصي ، والزام حدود الله ،  
والإتعاط بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر في عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما اقترفته ،  
فقد آآن للمؤمنين أن يتدبروا ، وآآن للآثم أن تعبر وتتعض ، وآآن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد  
بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجي الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ،  
ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟

لا يأس من روح الله ، وقد آآن المسلمين أن يستعدوا لحل نصيب واقر من مدنية فاضلة  
روحية تخلف هذه المدنية الفاسدة ، التي جعلت العالم أثوياً ، وسأقت إلى ذلك الآتون ببناءها

طعاما ووقودا، وآن لنا أن تفكر في حياة عزيزة يصفو لها فيها العيش ، ففستمتع بثمرات جهودنا ، ونضرب في العلم بسهم ، وننصر مدنية فاصلة ؛ وآن أن نجاهد في سبيل هذا لا نريد ظلما ولا نريد عدوا « وليُصْرَحْ اللهُ من ينصره ، إن الله تقوى عزيز . الذين إن مكّنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ونحن لم نزل عن قلة ؛ نحن كثير ، ولكنا كغناء السيل ، لكننا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفا نسمى إليه ؛ وإذا كنا ضماطا فنحن تقوى بالاتحاد ، وتقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالى : « وزيد أن كُفِّنَ على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وحنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

أيها المسلمون :

فكروا وتذبروا ، وقابلوا الحوادث بالصبر ، واغتنموا الفرص فهي لا تسرح في كل وقت ، واحرصوا على الإيمان فهو لصيق العزة ، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكونوا تلك الأمة الصالحة المؤمنة التي وعد الله أن يمكن لها في الأرض ، ويدخلها من بعد خوفها أئمة : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتشقق أقدامهم وأضل أعمالهم » .

أيها السادة :

كان من الحظ والسعادة في مصر وفي الأزهر ، أن يقارن الاحتفال بالهجرة المباركة الاحتفال بعيد ميلاد ملك البلاد المقدي المحبوب ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أيده الله وأدام توفيقه ؛ والأزهر يصطبغ بجلالة الملك بحب ظاهر ، وجلالته بنحس الأزهر برعاية تامة ، عرفها الأزهريون في أوقات عدة ، وفي مظاهر مختلفة ؛ وقد ورث جلالته هذه الرعاية عن المقفور له والده العظيم ، وكلاهما يمتد اعترافا خالصا أن الأزهر يؤدي رسالة دينية سامية للبلاد المصرية وللعالم الإسلامي ، وأن حياة الأمم حياة صالحة لا تكون إلا بفهم الدين وبيانه وإرشاد الناس إليه .

وكما أن مصر موضع آمال الأمم الإسلامية في الثقافة والعلم والمدنية ، وفيما يجيش بصدور تلك الأمم من آمال جسام للإسلام وأهله ، من مجد وعزة ، إلى صولة وقوة ودفاع عن الحق ، إلى مقاومة للطغيان ، حتى يعود التاريخ الإسلامي سيرته الأولى في أروع مظاهرها ، كذلك الفاروق - أطلال الله حياته في السعادة والمز - هو قبلة الجميع ، ومقد رجاؤهم ، وله من الفطرة



## احتفال الأزهر

السليمة ، والسريرة الطاهرة ، والنظر الثاقب ، والإحاطة التامة بأحوال الأمم الإسلامية ،  
والحرص على أن يراها عزيزة متحدة متضامنة في الغاية والقصد ، عزيزة بالعلم والدين ، لها من  
المكانة الرفيعة ما يجعلها في الصف الأول من صفوف الأمم ، قائمة بقسط عظيم في سلام العالم ،  
وتصميم جراحات الإنسانية ، له من ذلك كله ما يجعله أهلاً لأن تتجه إليه الأبصار .

وكما يحتفل بالهجرة لما لها من الآثار البالغة في قوة الإسلام وعزه ، يحتفل بميد الفاروق ،  
خلاله الكريمة الحديرة بالإعجاب ، ولما تؤمله فيه من عز للإسلام عظيم يكون لجلالته فيه أكبر  
الآثر وأحسن التوجيه .

ونسأل الله القادر على كل شيء للامة المصرية رعاية من الله وعونه ، وهدياً وتوفيقاً ، وللأمم  
الإسلامية جميعها صفاء وأماناً وسلاماً ، وأن يعيد للعالم جميعه هد سلام ورجوع الى الله سبحانه ،  
وأن يؤيد الفاروق بروح من عنده ، ويدعم له التوفيق ، ويعزه بالدين !

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

اتهمى أمر فريش إلى التأمر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم على حالة لا تحسن عشيرته من الثأر له ، فنكثني بقبول الغدية عنه ، وذلك حريا على رأي أحدم في أن يشترك في ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأغاذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا اليده في العمل من فورهم .

فأبى الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره بالتحاق بأصحابه في المدينة ، وجاء من ساعته إلى أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له في الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصديق راحلتيه اللتين أعدهما ، ويجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . ثم ترك أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مواعدا إياه التقابل في جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرره مؤتمرم ، فأمر النبي عليا أن يرقص في سريره ، ومها أنه هو حتى يشغلهم عنه بمض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذوا يسيران جادين حتى اتهميا إلى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا للاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا في أثناء ذلك ينظرون من رخصاص الباب ( أي فُرجه ) فيرون رجلا على سرير النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم مسجى ، فيظنونه هو فيطمشون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فنلبه النائم وإذا هو على بن أبي طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدري ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فازالوا يسرون حتى انتهى القائف إلى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا إلى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان في أثناء ترددهم على التار يري أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم

وهذا روعه ، وبشره بأن الله متقذه ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينة عليه ، وأيده بمجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . وقد صدقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأنام رسول الله وصاحبه في الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقيف لقين ( أي حادق سريع الفهم ) ، فكان يُدَلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيسمع الأحبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما واه . وكان حاصر بن فيرة يروح عليهما مقطعة من قتم يرطها ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلبون على شيء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بفسره إليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين متعجبين وساروا معه ، فسدل بهم ذات البين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك في ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأنام صلى الله عليه وسلم بقباء ليالي أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المكين واليثرين ، وقد دُعي الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم نحول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فاستقبله أهلها نساء ورجالا بما يستقبل به كبار القناحين ، وكان الناس يسرون خلفه مشاة وركبانا يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

وأدركته صلاة الجمعة وهو في ديار بني سالم بن عوف ، فنزل وصلاها ، وهذه أول جمعة صلاها جماعة ، وخطب فيها ، صلى الله عليه وسلم .

ثم سار وكلاهما على ديار للأنصار دعوه للغزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد ابن زيد ، وهو الذي عُرف بعد بابي أيوب الأنصاري ، وكان من بني عدي بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جدّه .

وفي المثل الذي أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل إليه بعد أن لبث في دار أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب في إيواء المهاجرين حتى حكوا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدموا بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

### نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فإنه يشف عن عقيدة راسخة في رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو في مئة السن ، وريق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازاتها في سبيل الشهرة ، ولكنه كان في عشرة الحسين ثم آلت الى عشرة الستين حيث تبدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيئات الأهواء ، وتهب الطبيعة لصاحبها الى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لكان أمرها على التعليل ، فإن من الناس من يألسون الى مثل هذه الحياة الخافقة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات هدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالآذى حتى اضطر عدد كبير منهم الى المهاجرة مرتين ، ضا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذي يحمل الأسر برمتها على الهجرة الى البلاد القاصية ، بالأمر الذي يستهان به . تهايك بالخواف التي تحمل أصحاب النبي على تركه يدفع أذاً واحده ، بل التي تحمل مثل عمر في شدته على النعاة بنفسه والمهاجرة الى يثرب ، وتدفع بابي بكر في تغايبه في حب نبيه على أن يستأذنه في أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا مع رسول الله له ليهاجر في محبته .

فالداعية الذي يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مقترباً في بونه ، ولا منكلفاً لما هو بصده ، ولكن الذي يعقل هو أنه كان يمتد بان أعداءه لن يصلوا اليه بسوء ، اعتماداً على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة في قوله تعالى : « يأياها الرسول بلغ ما أزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فإ بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » .

وهذه الثقة من النبي صلى الله عليه وسلم في وعده ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه في بقاءه بمكة الى الليلة التي تأمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان في وسعه أن ينحو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل في كسر شره خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبي ليلحق به ، إلا والخطر محقق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه كان في غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم فريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرحامهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم ينأسرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصديق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت اليه رسول الله وهذا روعه قائلاً : لا تخزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم كما رآه قارئنا في الآية المذكورة في هذا الفصل .



فهذا الثبات المحير للمقل في وسط هذه المخاوف الموحية لليأس ، لا يمكن أن يعزى تفضيلة الشجاعة لحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفلح ، وهذا لا يكون بغير وحى . ومن يتأمل في انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى اليه الأثر ، يأخذ العجب ولا يستطيع أن يعمل ذلك بعلة ينلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرم الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصاً مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبلية ، وقد دلمهم قائمهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة في قائمهم (١) ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وحود الغار غائراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدي الكلب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيؤوا النزول إلى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من يترله تنوشه أعاميه وتزديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل ألف تحيل أنهم يتركونه ويرجعون أذراجهم دون أن يحاصروه أيما وليالي حتى يتحققوا من خلوه ، والا اضطررنا أن تهيمهم بالأهمل في أمر خطير في نظرهم إلى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفى بهذا ، ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا في كل الطرق التي يمكن أن يتسرب منها إلى يثرب كبسكة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هي عادة من يهيمهم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيلة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدى دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنني التزمت في هذه السيرة أن لا أنجاوز أصول الدستور العلمي ، فلا ألجأ إلى الظن في موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها إلى ما يمكن الخصوم من تخرجه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش مما لم يصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة إلى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبي إلى حيث لا يراه العرب في مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانته وشدة عارضته .

بقي علينا أن ننظر في النظام الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم لجماعته ، وفي الأصول التي وضعها للقيام بمعهمته ، وفي المنازعات التي ابنت على دعوته ، والحروب التي أثارها الوثنية لمعاكسته ، وفي الأسلوب الذي جرى عليه صلى الله عليه وسلم في بناء دولته . كل هذه المناحي ستؤدنا إلى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجهة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرينا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله .

محمد فريد وجدي

(١) القائف : من يتبع آثار الأقدام لسيرة ابن انتهت . وهو يستعمل في تمتع المحاربين ، جمه قائف . وقيل

## أفعال العباد

طلب إلينا أن نكتب كلمة في أفعال العباد بين فيها الحق مما عليه الفرق الإسلامية . فنذكر ما حصرنا من كلام العلماء ، ومما أفيض علينا ، مما لعله أعظم الحلول وأفضل الآراء ، فنقول :

إنه ليكني لنصرة مذهب أهل السنة ، وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البدئية ، وخالفوا المحسوس ، فإن كل إنسان يفرق بفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ؛ وكل ما صادم الضرورة ونافض البدئية فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه ؛ وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ، ولا يضربوا من ضربهم ، ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الإنسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، وجمع المعائب والفرائب ، لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنساني ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم ، فترى المعتزلة والجهمية قد قالوا في التوحيد زعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل ، بنى الصفات ، وستسمع شيئا عنهم بعد ؛ والمشبهة تصدوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام ؛ والرافضة قالوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول ، والقول بالمصمة في غير الأنبياء ؛ والخوارج فرطوا حتى كفروا بالذنوب ؛ والمرجئة أفرطوا حتى أغفروا الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزنا ، إلى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر إلى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفي تقيض : كالم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا ؛ وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها ؛ وكذلك اختلافهم في الوجود ، وفي الضوء ، إلى آخر ما يلهيك عن أعظم المصائب وأكبر الآلآم . ولا غرو فقد قال الله في حق الإنسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، وقال في بيان طيشه : « خلق الإنسان من نجيل » ، وكان الإنسان عجولا . وإن من ضعفه الذي خلق عليه جهله لضعفه ، « ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » . وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والفلك ؛ والنور لا يزيد الخفاش إلا تحبظا وحيرة .

ولو تأمل المعتزلة قليلا لعلموا أن الموجودات تنقسم إلى ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ؛ بل إذا اعتبر ذات من

حيث هي كان عندما يحضرا . وقد عرف في أحكام المحكم أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والمعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد في قبضة الحق يصرفه كيف شاء أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريقة ، ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الآخروية إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لهم : « فريقا هدى وفريقا حق عايبهم الصلاة » ، فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدي إلى صراط مستقيم ، وكم صمموا من فصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ، وكل ذلك واضح المعنى ، طلي المبني ، سافر الحيا غير مبرقع ولا محجوب ، فهو على طرف التمام لمتناول ، ولكنهم يعمون به فلا يرون ضوء التلألؤ ، ولا يسمعون نداه العالى ، وكأن في آذانهم وقرا ، وعلى أبصارهم غشاوة ١

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت في الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يسرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شيء بحشا ، وتحملت لهم كل الطرق بأوضح معانيها ، وأدق حوافيها ، وجميع مبادئها ، وطاية مراميها ، فكان لسان القدرة الإلهية يقول : أوجعت كل شيء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وحملتني وأصممت بي على جانبي الطريق الذي ترون فيه كل يوم ، تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينحو ، ومن يرتفع ومن ينخفض ، ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تنظفوا بشيء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوصلوا إلى معادكم بشيء من تلك الوسائل التي جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لا تفقهون ! أفلا تعرفون بذلك أنكم مسيرون بقدرتنا نصرفكم كيف نشاء ، ولم يمنعنا من ذلك كله جعل الأعلام والصحاح ، والطرق بينات ، والدلائل ماطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا ، وأظهر في بيان نصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيك الأبصار تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور ، فلا تسلكون ولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير ، فأين تذهبون أيها المحجوبون ؟ هل تستدرحكم من حيث لا تعلمون ، وإنما أمرنا بشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وببينا ملكوت كل شيء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخاف أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردّها الله عز وجل ، فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله ، « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كفا » ١

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر ، حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات

أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكننا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، ولم يساعدنا الخط ، الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .  
وأما تثبت المعترلة بالبحث عن أسرار الله في حقيقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، فنأشئ  
عن جهلهم بالله ، وجهلهم بأنفسهم ، فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك  
كنهه علاقة الخالق بالخلق . والعكس الانساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأني أن يجاوزه ،  
وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنهه الأشياء وحقائقها ؛ ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك  
والأوهام ، فارتد طرفه غاشيا وهو حسير ، فليس له بالعلم إلا درجة مخصوصة يقف عندها  
ولا يتعداها ، ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مشار الأوهام ، وممشى الخيالات ، ومنع  
الشبهات .

ولنتزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر في كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأني  
تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهيمه  
أو قريبا منه . ولديك الوجدانيات التي لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ،  
كطعام لم تذوقه قط ، ولا ذقت ما يشبهه ؛ ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقع ، ولا من  
خلق أكنه تلك الألوان المختلفة ؛ وهكذا الأشياء كلها . وأنت تعلم أن الحيوان البهيبي لا يبلغ  
بماله من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف العلماء ،  
ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه ؛ فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ،  
ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام ،  
وهو هو ، صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه . وما يجب الالتفات اليه أن الطبع في هذه  
المسألة غالب بقوته على من لم يمارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص السودية ، ويتضرع الى الله  
في إمداده بهديته .

وينبغي للانسان في هذا المقام أن يتذكر ما يعصه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم ،  
وتردده في الأمور وحيرته في أشياء كثيرة ، ورجوعه مما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ  
على كثير مما فرط منه ؛ وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه في كتابه العزيز بأنه غلوم جهول .

وقد كان ينبغي أن تعلم من التجربة المتكررة ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت  
العظيم بين الخلق في معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ،  
فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالفهم عز وجل !

ولنتزل غاية النزول فنقول : لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه  
لجاز أن يكون ذلك التأويل في النصف الآخر ، فأتى الانسان في توهمه نفي الحكمة إلا من  
جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجلي بحكمة ربه كاف شاف ، وأن علمه بكامل ربه

في جميع أعماله الحسنى مع نقص العبد في كل شيء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازمأ عن اتباع سنة إيليس حيث نازع ربه في حسن سجوده لأدم . وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما ولائم من قبلتهم التي كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى للملائكة : « إني أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سألته عن مثل هذا : أعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغنام عن افتتاح السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بحملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، قدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا . وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا لجذاله ما نزل على عهد صلى الله عليه وسلم ؟

ولقف هنا اليوم ، وموعدا المدد الآتي ، إن شاء الله ؟  
يوسف الدهجوى  
عضو جماعة كبار العلماء

## فضيلة العمل والكسب

قال على رضي الله عنه : من مات تمبا من كسب الحلال ، مات والله عنه راض .  
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لأرى الرجل يمجنى فأقول : هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا ، سقط من عيني .  
وروى أن داود عليه السلام مر بأسكاف فقال له : يا هذا اعمل وكل فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل .  
وقال أحد الحكماء : كسب الحلال ، والنفقة على العيال ، من أعمال الإبدال .  
وقيل لبعض العلماء : ما المروءة ؟ فقال : العفة والخرفة .  
وقال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة : ما يسرني أني كفت أمر الدنيا كله لثلاث أعمود العجز .  
وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً . وقال ابن شاذب : كان إدريس عليه السلام خياطاً .

# الشيعة

## طاعة ولاة الأمور

عن حنادة بن أبي أمية ، قال : « دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، قلنا : أصليحك الله ! حدثت بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم . قال : دعانا النبي صلى الله عليه وسلم ، فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ، في منقطعتنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرنا علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، لا أن نروا كُفراً بواحاً ، عندكم من الله فيه برهان » . رواه البخاري في كتاب الفتن .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران : (١) بيان معناه إجمالاً ؛ (٢) حكم طاعة ولي الأمر في الشريعة الإسلامية ، وبيان ما يترتب على مخالفته في السر والملائية من الأضرار .

١ — أما معنى هذا الحديث : فهو أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا أحرص الناس على تعلم كل ما عساه أن يصلح دينهم أو دنياهم ، وكأولاً لا يتفككون عن البحث عن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ، ليكون لهم به أسوة حسنة . وهذا هو السر في نجاحهم وتفوقهم على الأمم القوية التي كانت في هدمهم .

حنادة بن أمية رضى الله عنه ، ذهب لعبادة عبادة بن الصامت وهو مريض ، فلم يترك الفرصة تمر دون أن يستفيد منه فائدة من الفوائد التي استفادها عبادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يحدثه ببعض ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام ، وقال له : إن هذا الحديث ينفعك الله به ، لأن من ينفع الناس بعلمه يناله من ذلك النفع قسط كبير ؛ فإن الله سبحانه قد وعد العلماء الذين ينفعون الناس بعلمهم وعداً حسناً في الدنيا والآخرة .

وفي ذلك حث على نشر الفضائل الدينية وإذاعتها بين الناس ، لأن الذين يعلمون شيئاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ويكتمونه ولا يذيعونه ، لا ينتفعون به على الوجه الكامل الذي يرضاه الله ورسوله ، بل هم مسئولون عن ذلك ومؤاخذون عليه إذا تمعدوا كتمانهم أو سئلوا عنه فلم يجيبوا . ولقد تأدب حنادة رضى الله عنه فلم يقل لعبادة

ذلك ، لأنه يعلم أن عبادة لا يضمن بنقل ما يعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب خاطر ؛ وهذا ما وقع فعلاً ، فإن عبادة قد حدثه بحديث جامع لكل ما يترتب عليه نظام الحياة الدنيوية والأخروية ؛ فقال له : إنا قد بايعنا النبي صلوات الله عليه على أشياء ؛ ثم ذكر له أهم هذه الأشياء ، وأعظمها قدراً ، وهو أمران .

(أحدهما) : « السمع والطاعة » في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، في جميع الأحوال التي يستطيعون فيها العمل بذلك ؛ وهو صلى الله عليه وسلم قد أمرهم بكل الفصائل الخلقية التي يترتب عليها صلاح معاشهم ومعادهم ، ونهاهم من كل الرذائل الخلقية التي تضرر المجتمع الإنساني .

(ثانيها) : « ألا ينارعوا ولاية الأمور » ولا يخرجوا عليهم في أمر من الأمور ، إلا إذا أسروهم بالمروءة من دينهم ، فإنهم في هذه الحالة لا يستجيبون لهم ؛ وذلك لأن الخروج على ولاية الأمور وعدم تنفيذ أوامرها منار لفتن الضارة التي قد تذهب بكيان الأمة ، كما سنبينه بعد .

وقوله في الحديث : « في منشطنا ومكرها » ، معناه في حال نشاطنا وفي حال كرهنا . فالنشط بفتح النين : مصدر ميمي معناه النشاط ، يقال : نشط بكسر النين نشاطاً فهو نشيط . والمكره بفتح الميم والراء : مصدر ميمي كذلك معناه الكره بضم الكاف وهو المشقة . وغرض عبادة أن يقول : بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حالة النشاط وحالة الكسل ، فلا يحمل المسلم أن يقع العوامل المنبطة عن القيام بما أمره الله به ورسوله من كسل وغيره .

أما قوله بعد ذلك : « وعسرنا ويسرنا » ، فمعناه أننا بايعنا الرسول صلوات الله عليه على السمع والطاعة والقيام بما يأمرنا به في حالة اليسر وفي حالة العسر . وليس معنى هذا أن الرسول قد كلفهم بما هو خارج عن مقدورهم ؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإنما معناه أن يقوم كل فرد من الأفراد بما هو في طاقته ، فمن كان معسراً لا يستطيع أن يبذل مالا فعليه أن يعمل بمجوارحه السليمة التي يستطيع أن يستعملها في طاعة الله ورسوله ، وخدمة دينه ووطنه ، كما ورد في حديث آخر .

وقوله : « وأثرة علينا » بفتح الهمزة والراء والتاء ، أو بضم الهمزة وسكون المثناة ، أو بكسرها مع الإسكان ، معناه الاتفراد بالشئ والاختصاص به مع كونه مشتركاً . والمعنى أنه لا يستأثر على أصحابه بما لهم فيه استحقاق . فهو يقول : بايعنا الرسول على ألا نتحرف عن العمل الذي يكلفنا الله به ورسوله ومن يلي أمرنا من أجل أن يمننا حقناً في النعمان أو المناصب أو نحو ذلك ويؤثر بها غيرنا علينا ؛ بل يجب علينا أن ننفذ الأوامر والنواهي بصرف النظر عن كل اعتبار .

وذلك هو الفناء في سبيل الإصلاح الاجتماعي والخلقى ، فإن العامل في سبيل الإصلاح ينبغي له أن ينفذ ما هو منوط به ، بصرف النظر عن كل ما يحيط به من عوائق ، فلا ينظر الى مصاحته الشخصية أياً كان حالها ، ولا يبالى بالأمور المادية التى تحيط به ، بل يجب أن يكون كل همه منحصراً فى أداء ما هو مكلف به من خدمة المجتمع الذى هو فرد من أفرادها ، بجد وإخلاص ، بصرف النظر عما وراء ذلك من متاع الحياة الدنيا وزينتها . وذلك فى الواقع أساس الإصلاح الاجتماعى ، فإن العامل الذى يريد أن يرضى الله عز وجل فى قوله وعمله ، يجب عليه أن لا يتطلع الى ما وراء ذلك من مال أو جاه أو منصب ؛ ومن يفعل ذلك فقد أساء الى عمله المنوط به ، وأساء الى المجتمع الانسانى ، بل وأساء الى نفسه من حيث لا يدري ، لأنه بذلك يكون قد أدخل نأداء واجب من الواجبات المقدسة فى سبيل متاع زائل لا قيمة له فى الواقع ، وكان مثلاً سيئاً لمن عساه أن يقلده فى فعله فيتضاعف شره . ولعل كثيراً من الناس يغفلون عن هذا المعنى الجليل ، وهذا الأدب الخلقى العظيم ، فيقتصرون فى أداء واجباتهم لأنهم يرون فى ذلك تشفياً لأنفسهم من حيف لحق بهم ، ولكنهم فى ذلك يخطئون كل الخطأ ، لأن الانحلال المافمة يجب أن تؤدى لقاتها ، وأن يقصد العاملون ابتغاء مرضاة ربهم بصرف النظر عما سواه .

أما قوله : « وألا ننزع الأمر أهله » ، فعناه ظاهر ، وسيأتى بيانه بعد . وقوله : « إلا أن تروا كفراً بواحاً » فعناه « كفراً ظاهراً » . تقول : باح بالشئ يباح به بواحاً ، إذا أذاعه وأظهره . وبعضهم يقول . يجب أن يكون اللفظ بواحاً بالهمز ، لا بواحا . وعلى كل حال فالمرس منه مفهوم كما ذكرنا .

٢ — أما حكم طاعة ولى الأمر فى الشريعة الإسلامية فهى فرض مقدس لا يجوز لأحد من الناس أن يخرج عنه قيد شعرة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فطاعة ولاية الأمور مقرونة بطاعة الله ورسوله ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى وجوب طاعتهم ؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ؛ وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوز وعلى الرعية الصبر » . من حديث رواه ابن ماجه وغيره .

وهذا الحديث الذى معنى يدل دلالة صريحة على أن طاعة ولى الأمر فرض مقدس على المحكومين ، فإن عبادة يقول : إنا بايعنا الرسول عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى كل حال من أحوالنا ولو شق علينا فعله ؛ وبايعناه على أن لا ننزع ولاية أمورنا فيما يأمروننا به ، بل ننفذه ولو لاقينا فيه عسراً ومشقة ، ما داموا لم يأمرونا بالخروج على ديننا .



وهذا المعنى يدور عليه نظام الأمة الإسلامية في كل أدوار حياتها ، لأن الدين الإسلامي قد حذر المسلمين عن إثارة الفتن التي يترتب عليها فساد نظامهم ، مها لاقوا في سبيل ذلك من العنت والإرهاق والعسر والمشقة . فإن الصبر على مثل هذا يوطد دعائم الوحدة ، ويثبت أركانها ، ويجملهم في مآمن من أعدائهم في الخارج ، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تذهب بقوتهم ، وتضعف شوكتهم ، وتجعلهم عرضة للغيرين دائماً على أن الصبر على ما قد يشعرون به من المسكاره قد يكون فيه مصلحة آجلة لهم تخفى عليهم حقيقتها ، فليس من الصواب أن يخرجوا على سلطانهم لمجرد مشقة أو عسرة يجدونها منه .

هذا إذا كان في أمر السلطان ونهيه خفاء ، أما إذا أمرهم بما فيه مصاحبة ظاهرة يقوم عليها شرفهم وحفظ كيابهم ، فإنه يفترض عليهم أن يطيعوه في تنفيذها طاعة صماء ، مها كانهم ذلك من مشقة وحرج ، وبذل نفس أو مال . ذلك لأنهم في هذه الحالة لم يشعروا بنتائج الأمور ، ولم يقدرُوا الفصيلة حق قدرها . مثلاً : إذا أمرهم السلطان بإعداد العدة للقاء عدو أو انتقاء شر ، فإنهم في هذه الحالة يفترض عليهم أن يتلقوا هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأن يتعاونوا جميعاً معه على تنفيذه ، وأن لا يجحدوا في أنفسهم حرجاً من هذا الأمر نأية حالة من الحالات ، فإن الله تعالى قد أمرهم بمثل ذلك الأمر صريحاً ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان لهم في المسلمين الأولين أسوة حسنة ، فسيدنا عثمان رضي الله عنه بذل جل ماله لتجهيز جيش كامل في وقت كان المسلمون في ضيق وعسر . وكثير من المسلمين كانوا يأتون إلى رسول الله يحملون كل ما تملكه أيديهم من متاع ويقولون له : هذا ما نملكه أتينا به لينفق في سبيل الجهاد .

صار المسلمون الأولون على هذا الموال من تضحية المال والأنفس والشهوات في سبيل المزة والكرامة ومقاومة الأعداء ، فأصبحوا بذلك سادة العالم يومئذ .

ويأخذوا لو اقتدى بهم من بعدهم في هذا العمل الجليل ، وذلك الخلق الفاضل ، فإنهم لو فعلوا ذلك لظلت لهم شوكتهم قائمة ، وعزتهم باقية خالدة . ولكن من الأسف الشديد غلب عليهم حب الشهوات والأنفس والأموال ، فضاعت بذلك شجاعتهم الأولى ، واستمرءوا عيش الذلة والهوان ، فضنوا بما يصون كرامتهم ، ويحفظ لهم عزتهم التي كانوا عليها !

عبد الرحمن الجزيري

## ذكرى هجرة محمد

صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ . » وقال تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَا كِرِينَ » :

الحوادث الجسام ونين قوى على الاستماع حين ورودها عليها ، إذ تحدث برامتها القوية هي السمع تكيفاً للنفس ، وتأثيراً على الروح والمقل ، فتجعل السامع ينتقل بفكره من حاله العادية الى حالة السمو والارتفاع الى الدرجة التي تجمله في مستوى من شاهد تلك الحوادث وكان منها على مرأى ومفاهدة . وأعظمُ حادث عرفه التاريخ الاسلامي ، حادث الهجرة التي انطلق فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق من مكة خفية ، إذ خرجا من دار أبي بكر في الثالث الأخير من إحدى ليالي الصيف فأصديا الى يثرب ، وقد كانا يملكان حمارة القبيظ ، وما تنلظي به رمال الصحراء المحرقة الفسيحة في تلك الآونة من الزمن ، ولكهما لشدة إيمانها وقوة يقينهما ومنتهى تضحيتهما من أجل غايتهما ، نسيا أهوال السفر ومتاعب السير ومشاق الرمال ، وهانت عليهما هذه الصعوبات المهلكة ، وتناسيا تلك الخطوب المدهية ، نظرا لأنهما قد ارتفعت أرواحهما ، وصفت نفوسهما ، ورفقت أفكارهما الى درجة جعلت غايتهما منحصرة في الوصول الى سلامة الدعوة التي حملها الرسول وآزره عليها صاحبه أبو بكر الصديق .

ولم يكن التمكيد في الهجرة والباعث اليها وليد الأسابيع والأشهر ، بل هو وليد السنين والظروف القاسية ، والحوادث المتتالية ، التي أنفتحت الاحقاد والحسد في نفوس قريش ، وما خافوا عليه من زوال سلطانهم ، وعفاء عزم ، وانحفاء سيطرتهم على أهل تلك الجزيرة ، وذلك لأنهم كانوا حراس الكعبة ، ويبدنهم مقاليد البيت الذي تخرج اليه العرب جميعا ، ويفدون اليه من كل صوب ؛ فأذا تمكيد محمد في الهجرة وبجته عن مكان يث فيه الدعوة قد جال بنفسه عقيب البعثة ، عند ما زل عليه قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، عند ما دما أهله وعشيرته ليتخذ منهم عوناً على نجاح دعوته وإبلاغ رسالته ، فما كان منهم إلا أن سخرُوا منه ، وكانوا حرباً عليه وعلى ما جاء به من الدعوة الى عبادة الله وحده ، وترك السجود لآصنامهم التي ورثوا عبادتها عن آبائهم ، وكانت ينبوع المجد والتفخار عندهم .

ولقد أخذ التفكير في الهجرة يزداد في نفس محمد يوما بعد يوم ، فكلمها وجد من أهل مكة إعراسا عن دعوته ، ومعا كسة لها ، ازداد تفكيره واشتد بحثه في إيجاد بقعة صالحة يفرس فيها شجرة الإيمان ، ويثبت فيها أصلها ويملو فرعها ، بعد أن اشتد يأسه من إسلام أهل مكة ومن جاورها ، وبعد أن رذته تقيف حين ذهب إلى الطائف يلتبس من أهلها الظهير والمعين ، فإكان منها إلا أن أغرت به سفهاءا وصبيانها لسخرية منه ، والاستهزاء بما دعاهم إليه ، حتى لقد بلغ به اليأس والقنوط ؛ فجلس بعد جهد سفهاء قريش له عند حائط لعنة وشيبة أبي ربيعة يحتمى به من عبث السفهاء وسخرية الأغبياء من أهل تقيف ؛ ولقد جلس إلى ظل شجرة من غنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب وظلمة الدنيا في وجهه وصيفها عليه على ما هي به من راحة وسعة ، حتى لقد دفعته هذه الحادثة إذ ينس من البصير والمعين إلى أن يرفع أكف الضراعة إلى الله تعالى ، ويفوه بقوله عليه السلام : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصالح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العني حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !

ولم يكن نصيب محمد من تقيف بأكثر مما كان نصيبه من كسدة وقلب وبني عامر وبني حنيفة وغيرها من قبائل العرب التي اشتد أذاها وغش قولها له ، فقد قل نصيره ، واشتد أعداؤه ، حتى بلغ التفكير بهم إلى العمل على إيمانه مع من تابعه جوعا ، وكتبت بذلك صحيفة هلفت في جوف الكعبة تتضمن قطع العلاقات بين محمد وأتباعه ، وبين سائر قريش ، حتى لقد حرموا البيع والشراء بينهم ، وتوعدوا من خالف تلك الصحيفة أو حمل على نقض حرف مما جاء بها بالذير الشديد والعذاب الآليم ، طمعا منهم في أن يعمل محمد عن الدعوة التي جاء بها ، ويبقى على سلطانهم وعزم ونفارم في تلك الجزيرة ، فكلمها ففشت قريش في مكيدة من مكائدها صمدت إلى مكيدة أخرى .

ولقد كانت آخر تلك المكائد ونهاية السهام التي توجهها قريش إلى محمد ، هو ذلك الاجتماع وتلك المؤامرة التي حدثت بدار الندوة ، إذ تشاوروا في أمر محمد وكيفية الخلاص منه والقضاء عليه ، واستراحهم من المخاوف التي ينتظرونها ، فأشار بعضهم بحجسه وتكبيله بالسلاسل والأغلال حتى ينحصر شره ويحمد نار دعوته ويساء أصحابه ؛ فمعرض ذلك الرأي بأن أصحاب محمد لا يتركونه دون أن يخوضوا غمار حرب تصطبى نارها جزيرة العرب وتدور الدائرة عليها . وقال البعض الآخر : أخرجوه من مكة حتى تنقطع دعوته عن أهلها ويحول اتصاله بأتباعه ، فمعرض ذلك الرأي أشد المعارضة لما كان يتوقمه المعارضون الذين

لم يلبسوا بيعتي العقبة الصغرى والكبرى الاثنتين أيرهما عد مع أهل يثرب ؛ وكان المعارضون يعرفون شدة الوفاء والمناصرة من أهل يثرب الذين قالوا عند العقبة الكبرى ، وهم زعماء الأوس والخزرج ، قوله صدق يصدقونها بالمال والولد والنفس والنفيس : « بإيعنا على السمع والطاعة في سرا وبسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن تقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » . فقد جال بخاطر المعارضين وطرفت آذانهم تلك المايعة ، وما قطعته الأوس والخزرج على نفسها من مناصرة محمد ، والوقوف بجانبه ، والدفاع عن الحق الذي جاء به . كل هذه العوامل لم تغب عن أذهان هؤلاء المعارضين ، فاندفعوا لمعارضة هذا الرأي وقالوا : لا نخرجوه لأنه سيرجع عليكم مع أتباعه من أهل يثرب ، ويوقعون بكم شر البلاء وأعظمه .

وحينما عورض هذان الرأيان لبري أبو جهل في صلف وكبر وزهو ، لما عرف به بين أهله من قوة الشكيمة وشدة المعارضة والخصومة لمحمد وأتباعه ، وقال : الرأي أن نجتمع من كل قبيلة رجلا جليدا فيضربوه بأسيا فمهم ضربة واحدة ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القسائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرصون بأخذ الدية . فانصاع الكل الى هذا الرأي ، وأخذوا يحبذونه .

وحينذاك صبح العرم من الرسول صلى الله عليه وسلم على المحجرة ، حماية للدعوة ؛ وأصر على بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه ، وأن يتسجى برדתه ، فبادر على الى طاعته ، مع اعتقاده أن القوم يربصون الفرصة لاقتحام الدار لقتل محمد ، ولكن عليا لم يعبأ بهذه المخاطر ، بل عزم على التضحية بنفسه اقتداء لمحمد ودعوته ، وصحب النبي أبا بكر في السير حتى دخلا فار نور ، ولم يفتهما أن قريشا لا بد أن تطلبهما في غداة اليوم الذي تركا فيه مكة ، وقد تحقق ذلك ، فإن قريشا ذهبت تطلبهما ، وحلقت حول الغار الذي استترا فيه ، وفي تلك اللحظة من الزمن اشتد خوف أبي بكر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا نزل قوله تعالى : « إلا تصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأزل الله سكينة عليه » .

ولما اطمانت قسما من خوف قريش ، واصل السير حتى وصلا الى المدينة التي تهيأ للقائه أهلها ، واستعدوا جميعا من يهود ومشركين ومن آمن به من الأوس والخزرج ممن بايعوا بيعة العقبة الكبرى والصغرى ومن تابعه على الإيمان .

وهناك اشتد الزحام ، وخرج الكل يجتلى ظلمة هذا القادم العظيم . وكان أول ما فكر فيه الرسول حينما دخل يثرب ، أن شرع في بناء المسجد ، ومسكنه الذي يأوي اليه . وطبيعي من محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل أول تعكيره ببناء المسجد الذي يؤدي فيه الركن الأعظم من أركان دعوته ، والعماد القوي ، ألا وهو ركن الصلاة ، فانها عماد الدين وقوامه .

ثم فكر بعد ذلك في جمع كلمة أهل مكة ، وإزالة ما بينهم من اختلافات من أجلها اشتدت الحروب وطال أمدها ؛ فهو واجد أمامه الأوس والخزرج اللذين نشأت بينهما الحروب التي اختتمت ببعاث ، أكبر حرب عرفها الأوس والخزرج ؛ ووجد أمامه اليهود تحتل بقاها كثيرة في المدينة وحولها ، وتحسكرو التجارة ، وغير هؤلاء ، وهم المهاجرون الذين تبعوه في الهجرة وتركوا أموالهم وأولادهم بمكة . إذا لابد للحمد من أن يعمل على جمع الكلمة ومحو أسباب الخلاف .

ولقد وفق الى طريق يحقق له بعض ما أراد ، وذلك هو طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار ، فقد آخى بين نفسه وبين علي بن أبي طالب ، وبين عمه حمزة ومولاه زبير ، وبين أبي بكر وحارثة بن زيد ، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الخزرجي ، وآخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إغناء رتب عليه الرسول أحكام إغناء الدم والسبب . وبهذه الوسيلة استطاع محمد أن يوحد بين المسلمين القاطنين بيثرب ، واستطاع أن يقضي على الدسائس والوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، واستطاع أن يجعل الحرية في العقيدة منزلة محترمة لا يقدر أحد على مهاجتها ، ولا يعذب صاحب الرأي ولا صاحب العقيدة من أجل المخالفة وترك ما ورثه من التقاليد وعبادة الأوثان .

وفكر بعد ذلك أن يوثق الرابطة بين المسلمين واليهود حتى يأمن من شرهم على الدعوة ، فأبرم بينه وبينهم معاهدات حسن الجوار وعدم العدوان وتمكين الحرية ، وبذلك استطاع النبي أن يتفرغ لمتعاليم الإسلام ، ويوثق الروابط بين المسلمين ، ويزيد المودة بينهم والإخاء ، بتعاليمه ومثله العليا التي كان يضربها لهم بأفعاله وأقواله ، إذ يقول في بعض خطبه : « من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقعة من تمر فليفعل » ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها . وكان يضرب لهم الأمثال بتواضعه وزهده في الحياة ، وما عليه من التقتشف في المعيشة من ما كل وملبس ومسكن .

ولقد ظهرت تعاليمه واضحة جليلة حينما سأله علي بن أبي طالب عن السنة التي يرتضها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه فقال : « المعرفة رأس مالي ، والمقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كثرى ، والحزن رقيبى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرصا غنيمتى ، والفقر نفري ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقتى ، وقرعة عيني في الصلاة »

كل جملة من هذه الجمل تصلح دستوراً تبني عليه أقوى الحضارات وأرقاها ، إذ بالمقل وحده تستطيع الحضارة والمدنية أن تقوى دعاتهما ، فما بالك إذا انضم الى العقل سلاح العلم ؟ وما بالك أيضاً إذا انضم إليهما جميع هذه الصفات التي جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم من سنته وأصول تعاليمه ، التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم في المدينة وما جاورها ، مما أوقع الرعب في قلوب

اليهود ، وجعل قوتهم تضعف يوما بعد يوم ، ودسيتهم تشتد بين المسلمين دون جدوى ولا فائدة ، حتى لقد خيل إليهم أن يستميلوا هذا ويميلوا على إخراجهم من المدينة موطن عزم ومحط تجارتهم بدعوى أن الرسل جميعا قد استقر بهم الأمر ببیت المقدس ، فأولى بمحمد أن يترك المدينة وينزل بيت المقدس ، مهيئ وحى الأنبياء ومحط تعاليمهم . وهناك فكر محمد مليا في القضاء على هذه المكيدة ، وقلب وجهه في الماء مبتغيا إلى الله الوسيلة ، وفي تلك الآونة حقق الله مراده ، واختار طريق الخلاص من هذه الفتنة ، وأنزل عليه قوله تعالى : « قد ترى تقلب وجهك في السماء فنؤايتك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وبذلك خاب رجاء اليهود فيما أملوا ، وتبين لهم فشل المكيدة التي دبروها ، وتحطمت آمالهم فوق الصخرة التي وصمها الرسول ليبنى عليها تعاليمه ، ويثبت عليها دعائم الإيمان .

وبعد كل هذه المحاولات والقضاء عليها ، فكر محمد طويلا في مكة ومن ترك بها من أهله وعشيرته ، وفكر طويلا فيما صنعت قريش به من الأذى وما أذاقوه له ولأتباعه من العذاب والمهوان ، وفكر أيضا في تمكين دعوته وبثها في جزيرة العرب وما جاورها ، بل فكر فوق ذلك في محو الشرك والوثنية والعمل على توحيد الله والإحلاس له ، وحدد عبادته بما في قوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

هذا هو أساس التوحيد الذي دعا إليه ، ومن أحله آذنه قريش ، ومن أحله طارده تقيف وكندة ، ومن أحله اجتمع المشركون في دار الندوة مؤتمرين على قتله ، ومن أحله ترك مكة ملتصا المدينة ، ومن أحله تحمل كل المصائب وضحي بكل شيء .

ولم يترك الرسول أمر مكة وكفار قريش ، وكذلك لم يترك أهل مكة محمدا دون أن يعملوا على الكيد له ، وبذلك وقعت الغزوات بيته وبينهم ، من بدر ، وأحد ، وغيرهما ، وحصل بينه وبينهم صلح الحديبية الذي نقضت قريش ما جاء فيه وما قطعته على نفسها من عهود . ولقد كانت نتيجة النقض أن لا يحج محمد بدأ من القضاء على قريش ، وأن يضع الحد الفاصل ويقول الكافة النهائية بينه وبينهم ، وذلك بأن يدخل مكة ويقرر مصير أهلها حتى يأمن شرهم ، وقد أعد جيشا عرمرما بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، وزحف به إلى مكة قاصدا فتحها دون إراقة دم .

ولما اقترب منها خرج إليه منه العباس بن عبد المطلب ، وسفيان بن حرب ، وبديل ، وغيرهم يستسلمون قوته ومعداته ، وينظرون إلى ذلك الذي خرج من بلادهم مكرها مغلوبا على أمره بالأمس ، وإذا به يعود اليوم قويا فاتحا عزيزا مكرما يحمل راية الحق والدين الذي

دعاهم إليه ، فساكن منهم إلا المعاندة والخصومة . ولقد دخل أنصار الله الى مكة فلم يجدوا منها مقاومة ، اللهم إلا بعض مناوشات وقعت بين جيش خالد بن الوليد ومن لقيه من أهل مكة . ولما استقر المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ يستعرض صحيفة الماضي والذكريات الالهية التي لحقته في هذه الامكنة من فريش ، والعذاب الذي ذاقه ؛ ولكن نفس عدا على من أن ينتقم لنفسه ويثأر لها ، فقد شكر الله تعالى أن هيا له الرجوع الى هذا البلد الامين مكة ، أم القرى ، ومهبط وحيه ؛ ثم أخذ يطوف بالكعبة التي تشوقت نفسه إليها ، ولم ينقطع تفكيره عنها . ولما قضى طوافه وقف على باب الكعبة وتكاثر الناس حوله ، فقام فيهم خطيبا يتلو عليهم كتاب الله ، ويبين لهم حدوده وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم سأطهم بعد ذلك فقال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فأذهبوا فأنتم الطلقاء .

لقد عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن الأعداء بعد أن ملك ناصية أمرهم ، واستول على أرواحهم ، وأموالهم ، وما ذلك إلا لأنه قد وصل الى غايته ، وأدى رسالة ربه ، فليس في نفسه حفيظة أو غيظ ، أو حقد أو حسد ، لأن روحه العالية قد صمت فوق الحفيظة والغضب ، والحقد والحسد .

من أجل هذا كله كانت المحبرة وبواضها من الأمور الجسيمة التي تحول الاسلام بسببها من حالة الركود والمعارضة بمكة ، الى حالة النشاط والجد والعمل بالمدينة : وهكذا كان الضرر والأذى والعتى الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أجلاه عنها سببا في الخير ، ونصرة الحق ، وإعلاء كلمة الله . وصدق الله وحقت كلمته حيث يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولنجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

عبد الله مصطفى المراغى

وكيل قسم المساجد بوزارة الأوقاف

## نظرات في المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء أثرها في الهيئات الاجتماعية

نظرنا في الفصل السابق في الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهي الناحية التي يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قبلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعي يزدهم فقرا على فقرم ، وإذا تمادى بهم حل وحدهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر في هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهي أخص مائعي به هذه المجلة :

عُرف الدين موجد الشيوعية ( كارل ماركس ) الاسرائيلي الألماني في بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تهديدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الدين يدعو إلى هذا المذهب : « في كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادي ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعي . أما عندما طان الشروط الاجتماعية التي كانت تنشأ عنها الأفكار والمقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميبأ لا تأثير له في الاقتصاد وفي النظام الاجتماعي » .

ونحن نبادر إلى دحض هذه الآراء قبل الانتقال إلى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئين : أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تهديدات الجماعات المظلومة ، فهي عبارة شعيرة ليس فيها عبقة من علمي النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى في ماطقة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأمرائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاها وغوقائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورما وتزهدا ؛ وفي الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش في ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التي تعتبر في عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشباع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تولد في الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أضحى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجبل . فإذا كان الشيوعيون يلاحظون كل النظم المعروفة فلا يؤمنون من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت يرائن



القادة الظالمين ، ولكنه يستمد من أشرف مواطن النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الانسان إذا كانت قواه متنوعة في طلب القوة ، ومحاولاته وقفا على فتح الحيل للوصول اليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر في آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ؛ وكثيرا ما أداه شغل العيش الى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء اليها بالمشاهدة ، فانك حيث تصادف النافذة والمُدم تجدهم يخود الشعور ، وهمود المواطن ؛ وحيث توافي ترائس اليسار والخفض ، تافى النوق للسمو الأدبي ، والحنين لاختراق حبب الغيب لتنور الأسرار العالوية . وهل الدين في حقيقته غير الانتهاء الى المنزل المليء في الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكسود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

ظن تخيلت كأننا ميتا تصميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلاكل الظلم ، لا عند الجماعات التي نالت حظها من الرغد ، وفرفت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستمدت نفوسها للترقى والتكلم . ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع التزعات الرجعية في أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول المدوابة نحو النساء ، ويخلق شريعة المبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

تقول : من حسن الحظ أن الدين يقومون بهذه الفلسفة هم في أوروبا لا في مجاهل أفريقيا ، ولا في مهوب الأقبانوسية ؛ وليس في العالم مظهر أروع ، ولا مشهد أكل ، من الامثال التي تضربها شعوب أوروبا في التخلص من التزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفي تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفي تحطيم أغلال العبودية ؛ وفي تلطيف سلطان العصية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تنهيف حقوق الضعفاء في الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد في كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها في الغرب في القرنين الأخيرين . فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من النقة بين حاكم وحكوم في هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين في الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا طاعة عليه ، ولكن

شربكا له في الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالمقاييس التي تضمن حقوقه الطبيعية ، وتمييز على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه في حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم في ميدان الترقبات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالجمعية والجمعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع العلة بين القديم والحديث .

وبالغت في تحرير النساء حتى اتهمت بمعابتهن ، وبث روح التمرد في قلوبهن ، وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح في شيء .

فلا أدري بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ولم تباهج الجماعات التي أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التي نذكرها ، وكان المقول أن تعطى العالم مثالا في تفوقها ، وفي سرعة تطورها ، فأى سبق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهي لا تحفظ وجودها في مقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وترى كل من تحدته نفسه برفع يدها عن طائفة ، وتلك الأمم تعيش في بحبوحة الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى نعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعي فوق سلطان أحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيته .

لعل الذي أطال من لسان الشيوعية ضد الدين الى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يرأون يدينون بالمخالفات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل نلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على الماطقة الدينية التي اعترفت الفلسفة أنها من لوازم القطرة البشرية ، وأنها لا ارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشتها إلا بإسقاط الإنسان الى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياح ، لأن القطرة الانسانية تعود فتتنبه للنظر في ذاتها وعلاقتها بالوجود ، فتستيقظ الماطقة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فاذا أمر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة القطرة في النفس البشرية بالقوة ، أدام ذلك الى ارتكاب ضروب من العنف ترفع أية حكومة متمدة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين تروح تحت كلاكه ، ولا تنتمش من كبوتها حتى تنخلص منه ، كان للشيوعيين عذر في العمل على ملاشاته في جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتقاء

الأمم الى أرفع درجات المدنية في خلال العهود الانسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالامة العربية ، فقد نعت فيها الاسلام روحا طالية ، وأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية الى أوج لا يزال مضرب الامثال الى اليوم ، وهذه الأمم المعاصرة لم تنمها أديانها ، ولا أوهاهم طامتها ، من بلوغ الغايات السعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدلت أن تقييد حرية الضمائر ، وتفتش لحكومتها ما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها الى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقترصر سلطان العقائد على الحيز الشخصي ، واتسع للمجتمع بمجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بغيره ، فلم يقف في توثباته عند حد .

فالمذهب الشيعوي لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الارزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم في الاستثمار والادخار ، فحول نفسه فوق ذلك الحق في تقييد عقولهم ، وحصرها في دائرة يحددها لهم . وهذه سيطرة لم ترضا الانسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبدلت في سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يحسكوها في دائرة العقائد الدينية التي تقدها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيعوية وهم يرمون الى ملاعاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أثبتت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشفيق الذي تتكلفه الشيعوية وتحتفظ به في سيل عرم من دماء البشر ، في سبيل اجتناء حرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الارصى ، فليس الانسان بالكائن الذي إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحاني الذي يحس بحاجة المساحة اليه . فالشيعوية تريد الانسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كبره ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث في حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فإذا كان من الحال تغيير الفطرة ، فمن الحال كذلك هدم الدين ؟

محمد رفيع وجري

# حياة حلال لاسم الله

## عبد الله بن عمر

أشرفت شمس الإسلام فارسلت بأشعتها إلى بيوتات مكة ، وكان من أول ما انفرج لها سقف آل الخطاب ، فأضاءت قلب فتي الفتيان عمر بن الخطاب فأصبح فاروق الإسلام ، وسرت منه مريان الكهرياء إلى قلب ناشئ وفلذة كبده وأكرم أهله عليه : ابنه عبد الله بن عمر ، فأمن معه ولما يشب عن الطوق ؛ وقد اشتدت فتنة الإسلام ، وعزت شوكته بهذه العناصر الجديدة التي دلفت إليه في ظل الفاروق وحمايته ، وضائق قريش بهذه العزة وتلك الحماية ، فتسمر حقدًا ، وازداد بالمؤمنين أذاها ، حتى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، فكانت فتحها مبينا ؛ وهاجر عمر ، وتبعه من أهله ابنه عبد الله وسننه لا تعدو العشر ، وإذا فضال اللسان والحجة يتحول إلى جهاد السيف والقوة ، ويخرج جنود الحق يقودهم رسول الله ، ويحدوم الإيمان إلى غزوة النصر : إلى بدر الكبرى ؛ ويتقدم عبد الله بن عمر في أسنان أمثاله يمرضون أنفسهم على القائد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فيردم لصفرهم ، فيرجع عبد الله ونفسه - على طموحه - تضطرم شوقا إلى الجهاد ، فيرتقب الفرص ؛ وسرطان ما تقبل غزوة الحنة التي صهر الله بها نفوس المؤمنين ، واستخلص رجولتهم ، وطهر قلوبهم ، ومحض بطولتهم ، وأدبهم أكل الأدب ، فينهض عبد الله في غصارة شبابه ، وحاسة طموحه ، يمرض نفسه جنديا محمود يروحه في سبيل دينه وعقيدته التي ولد في أحضانها ، ونهد في مهدها ، فبأنى رسول الله إلا الصبر ، لطراءة إهابه وصغر سنه ، فيعود عبد الله وفي نفسه ما فيها متربصا الشئز ، وكأنما هو في تشوقه إلى وقعة في صفوف المجاهدين يدفع بالزمن دفعا لبتقدم به إلى س الجهاد حتى وقف به على سلم الخامسة عشرة من صمره ؛ وأقبلت على المجاهدين غزوة الخندق ، فتقدم إليها عبد الله يمرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجس خيفة من الرد ، ولكنه في هذه المرة انتصر وفاز برصاء القائد الأعظم أن يسلكه في عقد الرجولة ، وينظمه في سلك المجاهدين ؛ ومن يؤمته لم يعرف أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن مم كان من أحرم الصحابة على ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعرف أحواله في حركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، وإقامته وسفره ، وإلى جانبه أكابر أصحابه ؛ روى ابن القاسم عن الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه قال : « أقام ابن عمر بعدي النبي صلى الله عليه وسلم

ستين سنة يقدم عليه وفود الناس ، فلم يخف عليه شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ؛ وكان ابن عمر من أئمة الدين . وسأل يحيى بن يحيى مالمكا : هل سمعت المشايخ يقولون : من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا ؟ قال : نعم !

ولقد كان بعض أئمة التابعين يحفل بينه وبين أبيه ، وهذه منزلة رفيعة جدا ، حتى كان سلمة بن عبد الرحمن يقول : « مات ابن عمر وهو مثل عمر في الفضل ، كان عمر في زمان له فيه نظراء ، وكان ابن عمر في زمن ليس له فيه نظير » .

وحقا لقد أوتي عبد الله بن عمر من المزايا والخصائص ما جعل حياته خصبة حافلة ، فلازمته لفتى صلى الله عليه وسلم ، وحرصه الشديد على المتابعة في كل شأن من شئونه ، وقرابة المصاهرة به ، ومكانة من نفس أبيه ، إلى مكة أبيه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، كل أولئك جعل لحياة عبد الله شانا عظيما في الحياة الإسلامية ، فكان من أوسع الصحابة علما ، وأملهم بالأحاديث النبوية ، وأقومهم بفهم القرآن .

وكان في فقهه يمثل مذهب المحافظين المتبعين أكمل تمثيل ، وهو يرى أن جميع حركات النبي صلى الله عليه وسلم وسكناته مكفولة بالعصمة ؛ قال الزبير بن بكار : « كان ابن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأل من حضر من الصحابة إذا غاب عن قوله وفعله ، وكان يتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه ، وكان يعترض براحتة في طريق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض نافته ، وكان لا يترك الحج ، وكان إذا وقف بعرفة يقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان رضى الله عنه من أشد الناس اتقاء للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحذرا من الإقدام على الفتيا ، فقد روى أنه سئل عن شيء فقال : لا أدرى : ثم قال : أريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا في جهنم ؟ تقولون : أفتانا بهذا ابن عمر !

وقد ذاق حلو الحياة ومرها ، فأقبلت عليه الدنيا حتى كان يضارب بالآربعين والخمسين ألفا . روى ابن الجوزي عن ابن عمر التميمي قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : شهدت جلولا ، واجتمعت من الضائم بأربعين ألفا ، فقال عمر : يا عبد الله بن عمر لو انطلق في النار كرسى مفتدى ؟ قلت : نعم بكل شيء ، أملك ، قال : فاني غاصم ، وكأني بك تباع بجلولا ، يقولون : هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أمير المؤمنين ، وأكرم أهله عليه ، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا دهرها أحب إليهم من أن يغاولوا عليك بدرهم ، وسأعطيك من الرمح أفضل ما ربح رجل من قريش ؛ ثم أتى باب سفينة نفت أبي عبيد فقال : يا سفينة نفت أبي عبيد : أقسمت عليك أن تخرجني من بيتك شيئا وإن كان عنق ظبية ! قالت : يا أمير المؤمنين ذلك لك ؛ ثم تركني سبعة أيام ، ثم دعا للتجار فباع منهم متاعا بأربعمائة ألف ، فأعطاني

ثمانين ألفاً وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفاً إلى سعد ، فقال - أقسم هذا المال فيمن شهد الواقعة ، فإن كان مات منهم أحد فأبعت بنصيبه إلى ورثته .

ولكن الدنيا بإقبالها لم تكن لتأخذ من قلب عبد الله بن عمر حيز ذرة ، بل كان معها أملك شباب قرين لنفسه ، وأبعدهم عن الميل للدنيا . يقول عبد الله بن مسعود : « لقد رأيتنا ونحن شباب متوافرون فابتننا شاب هو أملك لنفسه من الدنيا من عبد الله بن عمر » . ويقول جابر بن عبد الله : « ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر » . ويقول السدي : « رأيت قرا من الصعابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي غرق عليها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن عمر » . ولهذا يقول سعيد بن المسيب : « كان ابن عمر حين مات خير من بقى ، ولو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر » .

وكان رضى الله عنه بالدنيا جواداً في سبيل الله ، يؤثر الإتيان بأحب شيء لديه ، روى أن عبد الله بن جعفر أعطاه في مولاه نافع عشرة آلاف درهم أو ألف دينار ، فقيل له : ماذا تنظر ؟ قال : فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو حر ! ومن مثله العليا في الأثر ما رواه نافع قال : كانت لابن عمر جارية ممجبة تدعى رسة ، فاشتد عجبها فأعنتها ، وزوجها مولاه ، فأتت منه بولد ، فكان ابن عمر يأخذ الصبي فيقبله ثم يقول : وإها لريح فلانة ! فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت قول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى نافع أيضاً أن عبد الله اشترى له عنقود بدرم ، فأتاه مسكين ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرم ثم جاء به إليه ، فجاء السائل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرم ، ثم أراد السائل أن يرجع فنع ، ولو علم بذلك ابن عمر لما ذاقه .

وكان ابن عمر يتخادع في الله لمواليه فيضق الصلحاء منهم ، فمروا منه ذلك فكانوا يخذلونه بكثرة عبادتهم ، فقيل له في ذلك ، فقال : « من خدعنا في الله قبلنا منه » . وروى زيد بن أسلم أن عبد الله ستر راع فقال : هل من جزرة ؟ قال : ليس ها هنا ربا ، قال : تقول له : إن الدُّب أكلها ، قال : طاق الله ! فاشترى ابن عمر الراعى والغنم وأعتقه ووهبها له .

صالح إبراهيم عرجونه

## التجديد في الاسلام

— ٩ —

المجددون في القرن الثاني الهجري

١ — الإمام أبو حنيفة

١ — من هو أبو حنيفة ؟

هو الإمام الأعظم ، والحبر المقدم ، أول من دوت علم الفقه ، ورتبه كتما وأبواباً الذي أطبق العلماء على علمه ودينه ؛ اتخذوه المسلمون حجة فيما بينهم وبين الله تعالى ؛ صاحب المذهب الذي اتبعه وأخذ به مئات الملايين من المسلمين ، وعبدوا الله بمقتضاه ، وحكوا به في الأموال والدماء والأعراض ؛ وهو الذي يقول فيه الإمام مالك رضي الله عنه : لم أر مثل أبي حنيفة ، تالله لو قال إن هذه الأسطوانة من ذهب ، لأنام الدليل القياسي على صحة قوله . والذي يقول فيه الإمام الشافعي رضي الله عنه : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة . والذي يقول فيه الإمام ابن المبارك : من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى لا يخاف ، ولا يكون فرط في الاختيار لنفسه . والذي يقول فيه العلامة ابن خلدون : أبو حنيفة النعمان ، مقامه في الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلته ، خصوصاً مالكا والشافعي .

٢ — نشأة أبي حنيفة وعصره وبيئته :

نشأ الإمام بالكوفة ، وولد بها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، في زمن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم . ولقد عاش أبو حنيفة في النصف الأخير من القرن الأول ، قرن الصدر الأول ، كما عاش نصف القرن الثاني ، حتى توفي سنة ٩٥ هـ .

فعاصر التابعين ، وكان من كبارهم ، وعاصر الدولة الأموية من عهد عبد الملك بن مروان إلى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ورأى كيف ألفت الجمعية الميرية ، وكيف حملت على قتل الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ؛ وعاصر الدولة العباسية في مستهلها ؛ وعاصر من خلفائها السفاح ، والمنصور ؛ وعاصر الحوادث التي حدثت من عهد عبد الملك بن مروان إلى عهد المنصور . وعاش بالكوفة وبغداد ، وكاننا زاهيتين زاهيتين بمجالس العلم ، وأندية الأدب ، وكان بهما عدد لا يحصى من العلماء ، والفقهاء ، والحكماء ، والأدباء ، والشعراء ، والنحاة ، وغيرهم ؛ فلقد عاش الإمام أبو حنيفة إذاً في أفضل البيئات الإسلامية الحاملة بأطعم الرجال ، وأكابر العلماء ، والماملة بتعاليم الإسلام وثقافته وفضائله ، تلك الفضائل التي تكون أفضل الرجال ، وتجلب لمن اتبعها سعادة الدنيا والآخرة .

في ذلك العصر ، كان المسلمون قد اتصلوا بغيرهم من الأمم ، وشرعوا يملعونهم الدين الاسلامي ، واللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاتصال بين الأمة الاسلامية الممتلئة نشاطا وإيماناً وبين الأمم القديمة ، ذات الحضارات الخصبية العظيمة : نشاط عقلي عظيم ، وكان العراق من أهم مراكز هذا النشاط ، ولعل من الأسباب التي دعت الى هذا النشاط ، كما قال أحد الباحثين ، أن العراق كان مركز المعارضة السياسية لبنى أمية ، يشيرها شيعة بنى هاشم من ناحية ، والخوراج من ناحية أخرى ، ويشيرها عربها أنفسهم لأنهم لم يكونوا من قریش ، ولم يكونوا من مضر ، وكأولاً يطمعون ألا تسكون السلطة مقصورة على القرشيين ، أو المضريين ، بل تكون في العرب جميعاً . في هذا العصر ، وفي هذه البيئة ، كانت الصلات قد استوتقت بين العرب ، وبين غيرهم من الأمم الأخرى ، وكان الدين اتصل بهم المسلمون قد أخذوا ينقبون العلوم الاسلامية ، وكان الموالي قد بلغوا حظاً عظيماً من النشاط في العلوم الاسلامية على اختلافها ، وفي كل ما كان يرويه العرب ، ويتوارثونه عن آبائهم في جميع أنواع المعارف ، وكانت الأحزاب السياسية في العراق قد بلغت من الخصومة مبلغاً كبيراً ، وانتهت من التضارب بالسيف واللسان ، الى نتيجة طبيعية . وهي التناصل بالقلم واللسان ، وأخذت تنظم آراءها ، وتدافع عنها في المساجد والمجالس ، وكان أئمة المسلمين من رؤساء الأحزاب ، يجتمعون في مساجد العراق ، خصوصاً في مساجد الكوفة والعمرة ، كل يعرض مذهبه ، وينظر فيه ، ويدافع عنه ، ويرد على خصومه ، وكان الناس يختلفون الى هؤلاء الأئمة يسمعون منهم ، وفي هذا العصر ، وفي هذه البيئة ، نشأ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه وأرضاه ، فكان لها من الأثر فيه ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

### ٣ — هل هو من الموالي أو من غيرهم ؟

(١) وردت نصوص تاريخية صحيحة يظهر منها أن الإمام أبا حنيفة كان من الموالي ، كما وردت نصوص أخرى تدل على أنه ليس منهم . ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نذكر نصوص الطرفين : فأما الذين قالوا إنه من الموالي ، فمنهم يعقوب بن أبي شيبة بن الصلت ، فقد قال : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، مولى لبي تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل ومنهم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي الذي يقول : سألت ابن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : نسي ثابت أبو أبي حنيفة ، من كاهل شاه ، فاشترته امرأة من بني تيم الله ابن ثعلبة ، فتت عليه العتاق ، فولاؤنا لها . ومنهم عبد الرحمن المقرئ القائل : قال لي أبو حنيفة : ممن أنت ؟ قلت : من أهل دورق ، قال : فما يمنعك أن تعترى الى بعض أحياء العرب ؟ فهكذا كنت أنا ، حتى اعتريت الى هذا الحى من بكر بن وائل ، فوجدتهم حى صدق . وأما الذين قالوا إنه ليس من الموالي ، فمنهم إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، فقد



قال : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت ، بن النعمان ، بن المثرزبان ، من أبناء فارس ، من  
الاحرار ، والله ما وقع علينا رق قط ا ومنهم صالح بن الحسن العابد الذي يقول : حسدت  
المرء يا حنيفة لانه لم يكن منهم ؛ وحسده الموالي لانه لم يكن منهم . فقيل له : يا أبا الفضل ،  
ممن كان أبو حنيفة ؟ فقال : سأله رجل يوما فقال له : من أنت ؟ من ولدك ؟ فقال : أنا من أمة  
محمد صلى الله عليه وسلم ، ممن من الله على وعلى والدي بالاسلام ، أنت في حل .

( ٢ ) وعلى كل حال ، فالامام أبو حنيفة عربي المولد والنشأة والثقافة ؛ وإن كان جدوده  
من فارس ، ولا غشاشة في ذلك ؛ فقد سوى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل  
لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فهي أعلى الانساب ، وأقوى الاسباب ، فشرف العلم والتقوى  
فوق شرف النسب .

وكم للموالي ، وعلماء الفرس في الاسلام من فضل ، وكم لهم من مآثر ، وكم خدموا  
الاسلام وعلموه ، قال عطاء : « دحاح علي هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال : يا عطاء ،  
هل لك علم بعلماء الامصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ؛ فقال : فن فقيه أهل المدينة ؟ قلت :  
نافع مولى ابن عمر . قال : فن فقيه أهل مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح . قال : مولى أم عربي ؟  
قلت : مولى . قال : فن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طائوس بن كيسان . قال : مولى أم عربي ؟  
قلت : مولى . قال : فن فقيه أهل اليربامة ؟ قلت : يحيى بن أبي كثير . قال : مولى أم عربي ؟  
قلت : مولى . قال : فن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : مولى .  
قال : فن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : مولى .  
قال : فن فقيه أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : مولى .  
قال : فن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصري وابن سيرين ؟ قال : موليان أم عريبان ؟  
قلت : موليان . قال : فن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعي . قال : مولى أم عربي ؟  
قلت : عربي . قال هشام . لولا قولك عربي ، لكادت تقسى تخرج » .

وعلى الجلة خمة العلم في الاسلام أكثرهم من الموالي والمعجم ؛ وقد علل ذلك ابن خلدون  
فقال : « السبب في ذلك : أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة  
والبداءة ، وإنما أحكام الشريعة كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها  
من الكتاب والسنة ، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ لم يعرفوا  
أمر التعليم والتأليف والتدوين ؛ وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ؛ فلما يمد القل  
احتيج الى وضع التماسير القرآنية ، وتقييد الحديث ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع  
من الكتاب والسنة ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات ، واحتاجت الى علوم أخرى  
هي قوانين المربية ، فصارت العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت

في جملة الصناعات ، وهى من منتحل الحضرة ؛ والعرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ؛ والحضر لذلك المهدهم المعجم ، أو من في معنهم من الموالي ، وأهل الحواضر الذين هم تبع المعجم في الحضارة وأحوالها من الصناعات والحرف ؛ لأنهم قوم على ذلك الحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ؛ فكان صاحب صناعة النحر سيبويه ، والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما ؛ وكلهم عجم في أنسابهم ، وإعماروا في اللسان العربي ، فاكثبوه بالمربي ومخالطة العرب ، وصبروه قوانين وفنا لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث أكثرهم عجم أو مستمعون بالغة والمربي ؛ وكان علماء الأصول كلهم عجم ؛ وكذا حملة علم الكلام ؛ أكثر المفسرين ؛ ولم يقيم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأماجم ؛ وظهر مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو تعلق العلم بأكناف السماء ، لاله قوم من أهل فارس » . ومن هذا يتبين أنه لا غشاضة مطلقا إذا كان الإمام الأعظم من الموالي ، أو فارسي الأصل ، بعد أن ظهر أنه لم يقيم بتدوين العلم وحفظه إلا الموالي والأماجم ، وبعد أن سوى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لمخلوق على مخلوق إلا بالتقوى والعمل الصالح .

السيرة عفيفي

## حكم متفرقة

قال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والجاهل لا يوافق الجاهل ولا العاقل ؛ مثل ذلك : المستقيم الذي ينطبق على المستقيم ، فأما المموج فإنه لا ينطبق على المموج ولا على المستقيم .  
دخل خالد بن صفوان الخطيب المشهور الحمام ، فسمع رجلا يقول لابنه وهو يريد أن يعرف خالدًا بلاغته : ابدأ بيداك وثني رجلاك . ثم نظر الى خالد وقال له : يا ابن صفوان هذا زمان قد ذهب أهله . فقال له خالد : بل ما خلق الله له أهلا !  
قال أبو الأسود الدؤلي : إن أردت أن تملأ عالما فاقرب به جاهلا .  
وقال أفلاطون : ما أملت نفسي إلا من ثلاث : من غنى افتقر ، وعز يزول ، وحكيم تلاعبت به الجاهل .

وقال أرسطو : الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقا لغيره ؟  
وأحسن ما قيل في ذم الجبل :

وفي الجبل قبل الموت موت لأهله      وأجسامهم قبل القبور قبور  
وكل امرئ لم يحى بالعلم ميت      وليس له حتى النشور نشور

## الكلام والمتكلمون

- ٢ -

### المعتزلة

ظهورها ومنشأ تسميتها :

أخفت الاصطهاد صوت أنصار حرية الفرد زمناً ، فظلت البيئات العلمية تتناقل هذا الرأي وتتجادل سرا ، حتى دخل يوماً رحل على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين : لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ، والكبيرة عديم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبار ، والكبيرة عديم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل — على مذهبهم — ليس رك من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول : إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة .

هذه هي الأقصوصة الشهيرة التي يرجع إليها مؤرخو الحركة العربية نشأة المعتزلة وتسميتها . وقد ردها الأستاذ هـ . س . « نيجرج » في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية ، فصرح بأنه يستبعد أن يقبها زعماء المعتزلة بأمم وضعه لهم خصومهم ورموا به إلى أن هؤلاء الزعماء قد حادوا بأرائهم عن الطريق السوي ، كما أعلن أهل الحديث هذه التسمية فيما بعد ليرفعوا من شأن الجماعة ويحطوا من شأن خصومهم . وعند هذا المستشرق أن مفهوماً هذه التسمية سياسية ، وأن واصل ليس أول من سعى معتزلاً كما زعم الأقصوصة السابقة ، وإنما هذا الاسم يصعد في تاريخ الإسلام إلى سنة ٣٥ هـ حيث بدأت الفتنة السياسية ، وامتنع عدد من أكابر الصحابة عن مبايعة علي ، وبايعه عدد من طيب خاطر ، وعدد من وراء قلوبهم ، وظل كثير منهم على الحياد ، فتناقلت الألسنة أنهم اعتزلوا الخصومة القائمة ، ثم أخذت هذه الكلمة تتطور وتصلح شيئاً فشيئاً بالصيغة السياسية ، إلى أن كوثن سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، حزب المحايدين ، ورفضوا علينا مقاتلة علي كما رفضوا القتال في صفه ، وإن كانوا قد أعلنوا أنهم معه بقلوبهم ، وأنهم يحملونه وينتقون فيه ، فأطلق عليهم اسم المعتزلة ، وكان ذلك أساساً لتسمية المعتزلة الذين أتوا بعد ذلك .

ويعلق ذلك الأستاذ المستشرق على هذا بقوله : وإذا فمعتزلة السياسة قد سبقوا معتزلة النوحيد ، والأولى هي التي كوفت الثانية ، لاسيما وأن مسألة الميزلة بين المترئين التي هي سبب الاعتزال النظري لم تكن إلا مسألة سياسية تتعلق في عمقها ببعض مشاهير الأشخاص الذين ساهموا في القتال ، وليس أدل على ذلك من الأمكنة التي تشغلها شخصيات على وعائفة وطلحة والوزير بين محاورات واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهما من زعماء المعتزلة . وفوق ذلك فإن هؤلاء الزعماء السياسيين كانوا في نظر أولئك العلماء المعتزلين مؤمنين أتقياء ، ولكن الحرب التي اشتعلت بينهم شعلتهم شطرين متعادين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، لأن الحق لا يتعدد . وهذا يقتضي أن يكون أحد الفريقين آثما ، ولكننا لا نعرف أيهما الآثم ، فيلجئني أن يترك أمره لمن يعلمه . أما نحن فواجبنا أن نقف على الحياد ، وأن نحكم بأن أحد الفريقين فاسق لا تقبل شهادته ، بل إن عمرو بن عبيد — فيما يرى أهل الحديث — كان أفسى على هذين الفريقين من واصل ، إذ صرح بأن كل من اشترك في واقعة الجبل فاسق لأنه ارتكب كبيرة ، ولما كان قد تقرر أن معتزلة مرتكب الكبيرة بين منزلي الكافر والمؤمن ، فقد ظل كل هؤلاء المحاربين بين الكفر والإيمان . وبما أن هؤلاء المحاربين هم إما أسلاف العلويين أو أسلاف الأمويين ، فقد وجب أن يكون أخلافهم على باطل . ومن هذا يتضح أن نشأة الاعتزال النظري كانت أول الأمر دعاية للعباسيين قتل استيلائهم على العرش ، ولهذا حينما ظهرت الدعوة العباسية كان أنصارها ينادون علنا بوجوب اعتناق آراء المعتزلة ، وأن هذه الآراء ظلت آراء البلاط العباسي زهاء قرن كامل .

وكما أرجع هذا المستشرق نشأة الاعتزال إلى السياسة ، أرجع كذلك إليها نشأة الجبرية ، حيث رأى أن جهم بن صفوان الذي كان ينادي بالجبرية المطلقة ، كان من دعاة الأمويين ، دفعوه إلى محاسبة المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الفرد التي كانت متنافسة مع عقيدة ملوك بني أمية ، ومتلائمة مع أنصار الانقلاب المنتظر .

ونحن لا نستبعد أن يكون كل ذلك حقا ، لأن تعذيب معبد ثم قتله بأمر عبد الملك ابن مروان ، واصل أبي مروان الفهشي على باب دمشق بأمر هشام بن عبد الملك ، وضعف هذه الحركة في عهد الأمويين ، واتماشتها وتباها أنصارها بها في عصر العباسيين ، وكذلك صداقة أبي جعفر المنصور لعمر بن عبيد وشهادته له بالسحر والتزاهة في قوله : « كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد » . واحتضان المهدي والرشيدي والمأمون لرؤساء المعتزلة في عصورهم ، وإعلان المأمون في غير موارد أنه يدين بالآراء الاعتزالية ، وتعذيبه بعض الفقهاء وأهل السنة الذين لم يدينوا بآرائه . كل ذلك يدل في وضوح على صحة ما ذهب إليه هذا المستشرق .

غير أن العباسيين لم يكادوا يستولون على العرش حتى التفتوا إلى العلويين ليقصوا عليهم كما فضوا على الأمويين . وكانت هذه الحركة أيضا في حاجة إلى دعاية ، فأوحوا إلى رؤساء المعتزلة أن يخاصموا الشيعة ويشهروا بهم ، فاطاعهم أكثر معتزلة البصرة - وعلى رأسهم عمرو بن عبيد - من غير قيد ولا شرط ، وشذ عدد آخر عن هذا الأمر ، وأبى أن يكون لعبة في أيدي السياسة ، فأعلن أنه لا يذم إلا المفرطين في التشيع ، أما المعتدلون فهم على حق . فكان ذلك أحد أسباب اختلافات المعتزلة وتفرقهم إلى هذه الفرق التي سنشير إليها هنا .

فرقها المختلفة :

أوصل المؤرخون المعتزلة إلى عشرين فرقة ، هي :

(١) الواسلية أصحاب واصل بن عطاء . (٢) الصميرية أصحاب عمرو بن عبيد . (٣) الهذيلية أصحاب أبي الهذيل العلاف . (٤) النظامية أصحاب إبراهيم بن سيار النخاس . (٥) الأسوارية أتباع الأسوارى . (٦) الاسكافية أتباع أبي جعفر الاسكاف . (٧) الجعفرية أصحاب الجعفرين : ابن مبشر وابن حرب . (٨) البشرية أصحاب بشر بن المعتز . (٩) المزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزار . (١٠) الهشامية أصحاب هشام بن عمرو القوطي . (١١) الصالحية أصحاب الصالحى . (١٢) الحابطية أتباع أحمد بن حابط . (١٣) الحديبية هم أتباع فضل الحديبي . (١٤) المعمرية هم أصحاب ممر بن عباد السلي . (١٥) النخامية هم أصحاب نخامة بن أشرس النخري . (١٦) الخياطية أتباع أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط . (١٧) الجاحظية هم أنصار عمرو بن بحر الجاحظ . (١٨) الكمية هم أتباع أبو القاسم بن عبد الكمي . (١٩) الجبائية هم أنصار أبي علي الجبائي . (٢٠) البهشية أنصار أبي هاشم (١) .

نبذة من تاريخ مدارسها :

لم يكد القرن الثالث يجل حتى كان المعتزلة قد كونوا مذاهب ذات صبغات خاصة تمسكها من أن يجابه خصومها مجابهة الند لند ، وأسوا لهم مدارس خصب لم تلبث أن ازدهرت وآتت ثمارها في البصرة وبغداد والقاهرة وسوريا والأندلس ، وكان من الطبيعي أن تنتج من هذه الحركة القوية مجادلات واختلافات ، وأن تنفرع من كل مدرسة فروع متباينة في آرائها العلمية ونزعاتها السياسية . وهذا هو الذي حدث بالفعل .

في البصرة مثلا : أنشأ يوسف بن عبد الله الشحام ، وأبو علي الأسوارى وآخرون ، دعاية كبرى لمذهب أبي الهذيل ، كما قام عباد بن سليمان بمناصرة مذهب القوطي ، وإبراهيم بن إسحاق

(١) انظر صفحة ٥١٤ وما بعدها من لوائحه للايجي ، و صفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب الشهرستاني ، و صفحة ٤٠ وما بعدها من كتاب اعتقادات فرق المسلمين والفكرين للإمام نصر الدين الرازي .

المعروف بابن عالية مختصرة مذهب الأصم . ثم انقرض النظام من بين تلاميذ أبي الهذيل فأسس مذهب الخاص الذي كان من دعائه فيما بعد : عمرو بن بحر الجاحظ . وفي النصف الأخير من القرن الثالث كان أبرز معتزلي البصرة الجبائي الذي أثرت مدرسته في كثير من شباب عصره ، ولكن لم يكد القرن الرابع يبتدى حتى تفوقت عليها مدرسة ابنه أبي هاشم الذي كان من تلاميذه أبو عبد الله الحسين بن علي البصري المتوفى في سنة ٣٦٩ هـ - سنة ٩٧٩ م ، وأبو الحسين الأزرق التنوخي المتوفى في سنة ٣٧٧ هـ - سنة ٩٨٧ م ، وأبو إسحاق إبراهيم بن هياش البصري وتلميذه القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني الذي ارتحل في سنة ٣٦٠ هـ إلى الري وأسس فيها مدرسة هامة ، ثم توفي في سنة ٤١٥ هـ - سنة ١٠٢٤ م

وفي بغداد أسس بشر بن المعتمر المتوفى في سنة ٢٩٠ هـ - سنة ٨٢٥ م أول مدرسة اعتزالية في تلك الحاضرة . وقد خالف مبادئ العباسيين وتشيع لعل ، فأصطهده هارون الرشيد ، ولكن المأمون الذي كان يقول بتفضيل علي بن أبي بكر قد منح هذه المدرسة حمايته ومساعدته ، فتقوت وكثر أنصارها الأذكياء الذين نخس منهم بالذكر ثمانية بن أشروس المتوفى في سنة ٢٩٠ هـ - سنة ٨٢٥ م ، وقد تفرعت من هذه المدرسة فروع أخرى اتفقت في بعض المبادئ واختلفت في البعض الآخر . ومما اتفقت فيه القول بخلق القرآن ، والجملة العنيفة على خصوم ذلك الرأي . وهذا هو أحد أسباب حماية المأمون لهذه المدرسة بفروعها المختلفة ، لأنه كان من أنصار القول بخلق القرآن . غير أن هذا الرأي كان شؤما على أصحابه ، إذ أن المتوكل الذي لم يكن يدين به مجرم بين أيدي خصوم قساة حملوا عليهم وشهروا بهم ، كابن الرواندي الذي ترك الاعتزال في النصف الأخير من القرن الثالث والتحق بالرافضة المغالية ، وكتب ضد المعتزلة نقدا عنيفا عزا إليهم فيه آراء لم تدر لهم بحالده ، فبرهن بذلك على بعده عن التزاهة والإنصاف .

ومن المدارس الاعتزالية التي نشأت في بغداد مدرسة عيسى بن صبيح المزدار ، وكان معاصرا لبشر بن المعتمر ، ومدرسة الجعفرين . جعفر بن بشر المتوفى في سنة ٣٢٤ هـ - سنة ٨٤٨ م ، وجعفر بن حرب المتوفى في سنة ٢٣٦ هـ - سنة ٨٥٠ م ، ومدرسة محمد بن شداد المسمى زرقان المتوفى في سنة ٢٧٨ هـ - سنة ٨٩١ م ، ومدرسة أبي الحسين عبد الرحيم ابن محمد الخياط المتوفى في نهاية القرن الثالث ، والذي كان فيما يظهر أعلم أهل عصره بتاريخ المعتزلة ، كما يشهد بذلك كتاب « الانتصار » ، ومدرسة أبي بكر أحمد بن علي الأخشيد المتوفى في سنة ٣٢٠ هـ - سنة ٩٣٢ م ، ومدرسة أبي القاسم عبد الله بن أحمد الباهلي السكعي تلميذ الخياط الذي بدأ مذهبه في بغداد ثم ارتحل إلى نفس فأسس فيها مدرسته الخاصة ، وتوفى بها في سنة ٣٩٩ هـ - سنة ٩٣٩ م .

الدكتور محمد قطرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يبيع »

## البناء الاسامي للاسلام

Edwin E. Calverley

تقلا عن المجلة الملكية لآسيا الوسطى

استعمل لفظة (إسلام) ومشتقاتها (مسلم) في أربعة معانٍ مختلفة ، لكل منها مدلولها التاريخي . وقد راجع استعمال هذه المعاني الأربعة في الكتب الانجليزية ، وإن كانت لم تدخل بعد في قواميس هذه اللغة .

ففي الناحية الأولى : يستعمل اللفظان بمعنى ديني عام للدلالة على الخضوع والتسليم لله ، وهذا المعنى راعاه كل من المستشرقين (Sale) و (Roawill) و (Palmer) في ترجمة القرآن .

ولقد لُفِتَ النظر بحق الى هذا الإطلاق العام ، ولكن ليس صحيحاً أن القرآن لا يحتوي على نص طائفي .

ومن الناحية الثانية . يستعمل اللفظان في القرآن بمعنى شامل للدلالة على الدين الواحد الحق الذي أوحى به الله الى الشعوب المختلفة في العصور المتباينة ، عن طريق رسله وأنبيائه المتعاقبين . وعلى هذا التفسير يمكن اعتبار اليهود والنصارى الخ مسلمين ، وديانتهم الاسلام . ويعتبر هذا تفسيراً شاملاً . وقد ذاع بين جماعات من المصلحين الحداثيين في تركيا والهند وغيرها من الذين يريدون أن يعتبروا أنفسهم مسلمين من حيث الديانة ، ولكنهم يرفضون التسليم بالقوانين والفتاوى التي يرجع إليها أتباع النبي في شئونهم الدنيوية .

وفي الناحية الثالثة . يطلق لفظ (إسلام) على القيام بالواجبات الدينية المطلوب من المسلمين فائضة «تأديتها» . وعلى هذا الاعتبار يكون لفظ (إسلام) مرادفاً لعبادات (الخص) ، ومرتبطة أولاً (بالإيمان) بقواعده الستة المطلوب من كل مسلم التصديق بها ، وثانياً (بالإحسان) الذي يحض على عمل الخير المفروض على كل مسلم مراعاته .

وفي الناحية الرابعة : يطلق لفظ (إسلام) على ذلك النظام الديني بمخالفته الذي أسسه محمد ، والعمل على مقتضاه .

وعلى هذا يكون الاسلام مرادفاً للفظ (مسلمين) ، ويصبح له معنى طائفي لا شك فيه . وقد حصرنا بحثنا في هذا المقال على الاسلام بمعناه الرابع (الآخر) إذ هو الشائع والمقصود مادة من هذا الاصطلاح ، لأننا إذا ذكر الاسلام تذكر البيانات العالمية الأخرى كالنصرانية والبوذية والهندوسية وما أشبهها .

ولكننا إذا وصمنا الديانة الإسلامية ضمن الديانات العالمية الأخرى ، وحب أن لا يفوتنا أن نعلم أن الإسلام كدين عالمي ، ينطوي على معانٍ أكثر مما تظن الشعوب الغربية الحديثة عندما يستعملون كلمة الدين .

فللعالم الحديث طابعان خاصان يتميز أحدهما عن الآخر . أحدهما يقسم الحياة إلى قسمين : ديني ودنيوي . والثاني يقصر السلطة الدينية على التأثير النفسي . لهذا ننظر نحن إلى الدين كناحية من نواحي الحياة الأخرى ، مثله كمثل الناحية أو المصلحة الدنيوية التي تنفرع منها بالتالي نواح متعددة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصادية .

أما الإسلام فليس هو مجرد ناحية من نواحي الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية شأنه شأن الأديان الأخرى في البلاد الشرقية ؛ فهو يدير اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطئ الذين وصفوا الإسلام بأنه ( الجامع ) . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الإسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمداً مع علاقته بالله — جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة .

فأول ما تلقاه من الوحي جملة رسولا ونبيا وداعيا من الله إلى عباده ، لا يشاركه أحد في قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح شئونهم الدينية والدنيوية . وقد غيّر قبله الصلاة طبقا للوحي ، خوفاً من بيت المقدس إلى مكة . وكثيراً ما كان يتلبس الوحي والإطعام في إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضة ، وقد زالت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية .

ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا ( محمديين ) أو مسلمين ، وشايعة تلاميذه وأصحابه ومن قلدوه وتابعهم في كل ناحية من النواحي الاجتماعية والسياسية ، ونمسكوا بمبادئه وقلدوه في كل أعماله ، وكان تقليدكم له ممبياً على القرآن ، وتوسع فيه الحديث . ومع ذلك في كان لهم أن يقلدوه في كل شيء . ونكتني هنا بالإشارة إلى مثل واحد ( وسيأتي غيره في سياق الكلام في هذه الرسالة ) : ذلك أن الدين قد أباح للرجل الاقتران في وقت واحد بعدد من الزوجات جعل حله الأقصى أربعة . غير أن الحد الأقصى للرجل غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان أصحابه يطيعونه في كل ما يأمرهم به . فقد أسس جماعة جديدة ، وأصبح هو القائد والمدير لمن أسلم ، يرشدكم ويسوسهم في أمورهم المنزلية والاجتماعية والمدنية والدينية ، يؤيده الله في قيادته وبوته

محمد شاهين



( مجلة الأزهر ) :

أتينا على ما كتبه المستر إدوين ا. كلا فيرلي في معنى الاسلام ، وقد عربه حضرة صاحب المزة محمود شاهين بك ، وسأني على بقية ما كتبه في سائر السياسى والاجتماعى والدينى في الأعداد المقبلة مع التمعيب عليها ، إن شاء الله ، كما تفعل في هذا الفصل اليوم .

لا بأس بالتقسيم الذى ذكره المستر إدوين في نواحي الاسلام ، ولكنه في الناحية الثانية من معانى الاسلام ، وهى « دلالة على أنه الدين الواحد الحق الذى أوحى الله به الى الشعوب المختلفة في العصور المتباينة » ، لم يأت الكاتب فيها بالبيان الذى يقتضيه هذا المقام ، وهو أحص مدلولات الاسلام ، وأولاها بالنظر والاعتبار ، لأنها هى وحدها التى جعلت منه دينا عاما للبشرية بأسرها ، وهى التى كانت سببا في قوة سريانه في النفوس ، وسلطانه على العقول ، ولا تزال ذات التأثير الكبير في لفت الأنظار اليه ، وجمع القلوب عليه .

ألا ترى أنه يوجد فرق عظيم بين أن يحسب الناس الاسلام واحدا من الأديان السماوية يدعو الى المعروف وينهى عن المنكر ، مشاركا في هذه الخصائص جميع الأديان ، وبين أن يعتبروه دين الله الأقدم الذى أرسل به جميع رسله في خلال العصور ، ثم أمد إزاله على خام رسله محمد صلى الله عليه وسلم في الزمان الأخير ، ليخلص الناس مما وقعوا فيه من الضلال في العقائد ، والشطط في الشرائع ، وما لبوا به من شرور التشبيه والتعديد في ذات الخالق ، ببعضها ، ومن الخلط والخط في القواعد ، ومن طغيان التأويلات والشروح على الحقائق ؟

فبالاعتبار الأول لا يكون للاسلام مبرة على الأديان ، ولا لإزاله من موجب في نظر الانسان . ولكنه بالاعتبار الثاني تكون له مهمة طالية علية ، وهى إعادة الوحي الإلهي الأول الى صورته الصحيحة ، خالصة من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ اليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد الى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعولات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى مترددا بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركا ما يترجح عنده أنه من الموضوعات البشرية .

فالاسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحا عاما للأديان ، وموحدا لها ، ليصبح للانسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسلمات المطلقة لا تعتمد لدى جميع أفرادها .

والذى يقرره الاسلام في هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الاسلام ، أى الاستسلام لإرادة الله ، والتخلى عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع ما يأمر به الله ، وهو لا يأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة ، ويصلح به أمر الاجتماع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » ، وما اختلف الدين أو توأما الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .

فإن حاجوك ( أى جادلوك ) فقل أسلمت وحبى الله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين ( يريد بالاميين العرب ) أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد .

ثم بين الله أن هذا الدين هو دين الله الأقوم ، وهو المروءة الوثقى الذى تجتمع عليه الانسانية فى وحدة لا انفصام لها ، وأنه لا معدى عنه للعالمين أجمع ، قال تعالى مستنكراً فعل من يحاول أن يتخذ غيره ديناً له : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ قل آمننا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وهيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

ثم ذكر الكتاب أن من الناس من يحاول قسم عرى الانسانية فيؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض ، تمسباً لقومية ، أو مشايعة لزعمة مذهبية ، منها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقاً ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً » .

من هنا يتبين كل قارئ أن دين الله من حيث هو واحد لا يتعدد ، وأن رسله يعتبرون رسلاً للعالم كافة لا لامة دون أخرى . فيجب الايمان بهم جميعاً لتحقيق الوحدة الدينية للانسانية بأسرها . وتجلية هذه الحقيقة حق تجليتها يضع الاسلام فى الموضع الذى أراده الحق له ، ويرفعه الى المسكاة التى هى مكانته ، ويدفع بالأمم الى تبين حقيقته ، وتعرف صحة طريقته ، وليس ذبوعه فى العالم كافة بحاجة الى أكثر من هذا ؛ فإن الناظر فيه لى يفوته أحد أمرين : وهما إما أن يجد فيه مثله الأعلى فيدخل فيه ، وإما أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن المستقبل كله له ، وأنه سيرث الأديان جميعاً فلا يوجد فى الأرض دين غيره ، وهو إن لم يبلغ هذا الشأو بعسء ، فسيلبغه يوم تخلص البشرية من أوهامها ، وتنجرد من موروثاتها ، وليس هذا اليوم بعيد ، فإن العلوم الكونية تقوم بهذه المهمة التطهيرية منذ ثلاثة قرون .

فاذا تأت المستر إدوين لتت النظر الى هذه الحقيقة بعد بيانها على الوجه الذى تقدم ، فقد قنأ به ، وله الشكر على أن أتاح لنا هذه الفرصة .

محمد فريد وجرى

## الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٦ -

سواء أكانت تلك المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ، وما استنتجها من بحث وفد من وجوه العرب ليقوم بمهمة الإعلان عنهم ، كما رأيت في المقالين السابقين ، بمعنة في الصحة أم مصرفة في البطالان ، فإنها تدل في صراحة ومن غير التواء على أن التمسب بالحسن طبيعة لا تحول ولا تزول . ذلك لأن المخترع لهذا ولا مثاله يلزم نفسه خطة المحاكاة الدقيقة التي تتم عن روح العصر الذي يحاكيه ، وتتحدث عنه كأنها وقعت فيه ، وعلى غرار هذا نهج رواة الشعر الذين اشتهر عنهم أنهم يقرضون القصيد الممحب الرائق ، وينحلونه أعلام الشعر الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، لا إشباع بهم خاص في مشاربهم ، وإرضاء نزعة معلومة في نفوسهم ١١ ولما كانت روح الاسلام قوية غلبة في عصره الاول ، لم يظهر تمسب من الجانبين في الصورة الشائنة التي ظهر بها فيما بعد .

ومما يدل على أن العاطفة الجفسية ، وإن كانت كبتتها أصول الاسلام العالمية ، بقيت في أحماق النفوس حية لم تمت ، ما رواه بعض المؤرخين من أن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين . أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والمعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس ، فقال لهم : أنا مروني أن أطلب النصر بالجور ١٢ فذلك يدل في غير موارد على أن قادة الرأي في عصر الاسلام الاول ، أخذوا بهذا الأصل القيم ، وجروا عليه ، فضربوا بذلك مثلاً أعلى بقى الى اليوم علماً على سمو الاسلام وصلاحيته لأن يكون ديناً لجميع البشر .

فلما كان الحكم الأموي ، وأصاب النفوس بعض الوهن في الدين ، رفع العرب عقيرة المعصية ، وجأروا بصوتها ، ونادوا بامتيازهم على جميع الأمم .

والى القارئ الكريم بعض الشواهد التي توافر ما نقول وتوضحه :

زل جرير يقوم من بني العنبر ، فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكم رقد القرى مفسد لدين والحسب

قالوا : نبيعكم بيما فقلت لهم : ييموا الموالي واستحيوا من العرب

ففرق في المعاملة بين العرب والموالي ، وقد حرم الاسلام هذه التفرقة .

وروى أبو الفرج في أغانيه قال : إن رجلاً من الموالي خطب بقنا من أعراب بني سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الغارجي الى المدينة ، ووالها يومئذ ابراهيم بن هشام

ابن إسماعيل ، فشكا إليه ، فأرسل الوالي الى المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق لحيته ورأسه وحاجبيه ؛ فقال محمد بن بشر في ذلك -

قضيت بسنة وحكت عدلا ولم توث الحكومة من بعيد  
ومنها :

وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الخواجب والتخددود  
إذا كائنهم بينات كسرى فصل يبعد المولى من مزيد  
فأى الحق أنصف للمولى من اصهار العبيد الى العبيد ؟  
وهذا كما لا يخفى بعيد عن روح الاسلام ، ومخالف للتجديد الخطير الذى أتى به .

وذهب أعرابي الى سوار القاضى فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاكى - وخط خطين ناحية - ثم قال : وهجينا لنا (١) - وخط خطا آخر ناحية - ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثا ؛ فقال له الأعرابي : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى وأخى وهجينا لنا ؛ فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابي : يأخذ الهجين كما أخذ يأخذ أخى ؟ قال : أجل ؛ فغضب الأعرابي وقال : تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء !  
وأنت ترى أن القاضى حكم عدلا على مذهب الاسلام ، ولكن الأعرابي لم يرضه ذلك .  
وقال نصر بن سيار مخاطب التزارية والجمانية ، ويحذرم هذا العدو الداخل عليهم من الأجناس الأخرى :

أبلغ ويمة في صرور وإخوتهم فليفضبوا قبل ألا ينفع الغضب  
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حربا ، يحرق في حافات الخطب  
ما بالكم تلتحقون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم تحزب  
وتتركون عدوا قد أظلكم مما تأشب ، لا دين ولا حسب  
قدما يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب  
فن يكن سائلا عن أصل دينهم فان دينهم أن تقتل العرب

وما كان للأعاجم أن يغمضوا أعينهم عن هذه الصورة التى ظهر بها العرب إبان حكم بنى أمية ، بل نالوا - وبخاصة الفرس منهم - عن جنسهم ، وغفروا بسالف عهدهم وسابق عزمهم ، وتغنوا بحضارتهم التى شغلت مع التاريخ ونصره أمدا غير قصير ؛

فهذا هو إسماعيل بن يسار الشاعر الشموى يفخر على العرب بملء شديقه إذ يقول :  
رُبُّ خال متوَّجج لي وعم ماجد مجتدى كريم السَّباب

(١) الهجين . من كان أبوه عربيا وأمه أمة .

إنما سمى الفوارس بالفرس مضافةً رفعةً الأنساب  
 وأتركى الفخر يا أمامُ علينا وأتركى الجور وانطق بالصواب  
 وأسأل - إن جهلت - عما وعظكم كيف كنا في سالف الأحقاب  
 إذ نرعى بنائننا وتدشؤن سفاهاً بنائنكم في التراب  
 ودخل يوماً على هشام بن عبد الملك في خلافته ، فأنشده قصيدة يقول فيها :

إني وجدك ما عودى بذى خور عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم  
 أسلى كريم ومجدى لا يقاس به ولئس لك كد السيف مسموم  
 أحمى به عهد أقوام ذوى حسب من كل قرم بشاح الملك مغموم  
 ججاجير سافرة ببلج مرازية جرد عناق مساميع مطاعيم  
 من مثل كسرى وسابور الجنود مما والمهرمزان لفخر أو لتعظيم ؟  
 أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم  
 يمشون في حلق الماذى سابتة مثنى الضراخمة الأسد الهاميم  
 هناك إن تسألنى تنبئ بأن لنا جرثومة قهرت هز الجرائم

فغضب هشام وقال : أعلّى تفتخر ! وإياى تنشده قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! !  
 غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو يشر ، وتفاء  
 من وقته الى الحجاز .

وما لبث هذا الصوت الخافت الضعيف الذى سمعناه وسمعته من إسماعيل بن يسار في العصر  
 الأموى ، أن انقلب الى صوت جهورى دوى في أنحاء البلاد الاسلامية في أواخر أيام الدولة  
 الأموية ، ولولا أن الله حفظ الاسلام بالسمو الذى أودعه أصوله ، والحق الذى ضمنه تعاليمه ،  
 لتخاذلت الاجناس التى كان يتألف منهم المسلمون ثم تاحرت ، ولكن هذه الفتنة لم تلبث أن  
 تلاشت ، وعاش جميع المسلمين مدى تاريخهم كله على اختلاف أجناسهم من آخين متحابين حتى  
 حقق الله بهم وعده ، وم اليوم على أكل ما يكونون ألفة ؟

أحمد إبراهيم موسى البارودى

مخصص البلاغة والأدب

## نبره القتل

في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

ما زال كثير من خاصة الناس يجهلون التشريع الاسلامي ونظرة للحوادث وحكمه فيها ، وما زال فريق آخر ينظر الى أحكام هذا التشريع الجليل نظرة خاطئة فينكب عنه ولا يلتفت اليه كلما أعوزته البحث والتفكير لمعرفة وجه الحق في قضية من القضايا .

وكان من الخير والمعدل أن اتجهت الأنظار أخيرا الى هذا التشريع ، وطلب من رجاله الأجلاء أن يمثله في المؤتمر الدولي الذي عقد بمدينة لاهاي في العام المصرم ، إذ ما كاد المؤتمرن يصغون لرسالة الأزهر الشريف حتى أجمعوا على أن مبادئ الشريعة الإسلامية منبع فياض ، ومنهل غلب للقضاء والتشريع .

ولما كنت ممن تفقهوا في الأزهر ، ودرسوا القوانين الحديثة في غيره ، رأيت واجبا علي أن أقدم الى قراء مجلة الأزهر الغراء بين آونة وأخرى بأبحاث فقهية أقارن فيها بين حكم الشريعة الإسلامية وحكم القوانين الوضعية في مسائل معينة ، مشيرا الى ما قد يكون من اختلاف في وجهة النظر ، والى ما يظهر لي رجحانه جهد استطاعتي ، آملا أن يكون التوفيق رائدي في هذه الأبحاث ، وأن يجد فيها من يعينهم ذلك ما تطمئن له النفس ، ويرواح له الفكر ، ويستقيم معه المسطق .

وسأبحث اليوم في أم الجرائم التي تقع من الانسان على أخيه الانسان ، وهي جريمة القتل ، وأبين مكان النية منها في القوانين الجنائية الحديثة ، وفي الشريعة الإسلامية ، وما يترتب على معاصرتها لفعل القتل أو عدم معاصرتها له من اختلاف في الحكم ، وكيف يستدل علماء الشريعة وعلماء القانون على وجود هذه النية وعدم وجودها :

قانون العقوبات المصري — وهو على غرار القانون الفرنسي — ينص على أن : من قتل نفسا عمدا مع سبق الإصرار على ذلك أو التردد ، يعاقب بالإعدام ( م ١٩٤ ع ) ، ومن قتل نفسا عمدا من غير سبق إصرار ولا تردد ، يعاقب بالأشغال الشاقة ... ( م ١٩٨ ع ) ، ومن قتل نفسا خطأ بغير قصد ولا تعمد يعاقب بالسجن ... ( م ٢٠٢ ع ) .

وأحكام الشريعة الإسلامية تنظر الى القتل في ذاته وتقسمة الى أنواع ثلاثة فنقول : القتل إما عمد ، بأن يعمد الى ضرب المجنى عليه بما يقتل غالبا ، وجزاؤه القصاص ، وإما شبه عمد ، بأن يعمد الى ضربه بما لا يقتل غالبا ، وجزاؤه دية مغلطة ، وزاد عليها أبو حنيفة

الكفارة ؛ وإما خطأ ، بأن لا يقصد الجناية أصلاً أو يقصد زيدا فيصيب حمرا ، وجزاؤه دية مخففة ، وزاد عليها أبو حنيفة أيضا الكفارة .

ونظرة سريفة في هذه النصوص تدل على أن القوانين الجنائية الحديثة تقسم هذه الجريمة الى فرعين أساسيين ، وهما : القتل عمدا ، وعقوبته الأشغال الشاقة ؛ والقتل خطأ ، وعقوبته الحبس ؛ وأن القتل العمد قد يقترن بما يسمونه ظرفا مشددا كسبق الإصرار على ارتكابه ، فتتغير العقوبة الى الإعدام ، بينما نرى أحكام الفقه الاسلامي تنوع هذه الجريمة الى ثلاثة أنواع كما تقدم .

والتوجيه العقلي لتنويع القتل الى أنواعه الثلاثة في الفقه الاسلامي ، هو أن الجاني إما أن يقصد ضرب المجنى عليه بالذات أو لا يقصده ، ففي الحالة الأولى لا يخلو الأمر من أن يكون الجاني قد قصد ضربه بما يقتل غالبا فقتله ، وحينئذ فالجريمة هي القتل العمد ، أو يكون قد قصد ضربه بما لا يقتل غالبا ولكنه قتله أيضا ، وحينئذ فالجريمة هي القتل شبه العمد ؛ وفي الحالة الثانية ، وهي ما إذا لم يقصد الجاني ذات المجنى عليه بأن لم يقصد الجريمة أصلاً أو قصد زيدا فأصاب حمرا ، تكون الجريمة هي القتل خطأ .

أما علماء القانون فانهم يعتمدون في تقسيمهم على النية ، أي قصد ارتكاب الجريمة فقط ، ففى وجد كان القتل عمدا وإلا كان خطأ . والمراد عندم قصد القتل لا قصد الضرب ، خلافا لما ورد في النصوص الشرعية التي تتحقق العمدية فيها بقصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا .

ونظرة فاحصة في التشريعين ترشد الى أن القتل في كل منهما نوعان : عمد ، وخطأ . فاية الأمر أن الشريعة الاسلامية اعتبرت من يقصد هذه الجريمة ويستعمل لتنفيذها آلة قاتلة أشد خطرا من غيره ، فشددت عليه العقاب ؛ ويكون احتمال الآلة القاتلة ظرفا مشددا في الشريعة الاسلامية يؤدي الى وجوب القود ، كظرف سبق الإصرار أو التمرص الذي اعتبره القانون ظرفا مشددا ، ورتب على تحققه عقوبة الإعدام .

لكن هناك أمرا تنبئنا الإشارة اليه . ذلك أن العمدية تتحقق في نظر الشريعة الاسلامية بوجود قصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا ؛ أما النصوص القانونية فتشترط قصد القتل .

وقد يفهم من ذلك أن في أحكام الشريعة قسوة ليست في أحكام القانون ، لكن هذا مردود بأن المشرعين العصريين في أرق الأمم حضارة ومدنية يذهبون الى ما يعامل نظر المشرع الاسلامي في أحوال كثيرة . من ذلك أن قانون العقوبات الانجليزي يقضى بمقوبة القتل العمد على من قصد قتل آخر فضربه بعصا خفيفة ثم مات المجنى عليه ولم يكن موته نتيجة مباشرة

لهذا الضرب الخفيف بل كان سبب مرض باطنى مثلا حركة هذا الضرب . وهذه الحالة بالذات يعتبرها الشرع الاسلامى قتلا شبه عمد لا قصاص فيه .

وأكثر من هذا دلالة على رجوع مشرعى الأمم المنحصرة الى وجهة النظر الاسلامية ، أن علماء الانجيز وغيرهم يذهبون الى قيام القصد الاحتمالى مقام القصد الثابت فى جريمة القتل ، وبحكموت بقوة القتل العمد فيما لو ضرب إنسان آخر يزجاجة فى رأسه فاصدا الصرب فقط ، دون إحداث الموت ، ولكنه يقدر أن حدوث الموت ممكن ؛ ففي هذا المثل يرى أن الجانى لم يقصد القتل وإنما قصد الضرب ، ولم يبال بما عساه أن يحدث . وهو ضرب فى مقتل من شأنه إحداث الموت أى بما يقتل غالبا ، يعنى أن جميع العناصر اللازمة لاعتبار الحادثة قتلا عمدا فى نظر المشرع الاسلامى ثابتة ، فهو قتل عمد فى نظره ، وهو أيضا قتل عمد فى نظر المشرع الحديث .

عرفنا مما سبق أن النية ركن للمعدية فى الشرع الاسلامى والقوانين الوضعية ، وأن المقصود منها فى الاول بية الضرب ، وفى الثانية بية القتل ، وأن أحدث التشرييع يكتفى بنية الاعتداء دون أن يكون القتل مقصودا ، لاعتبار الجريمة معدية ؛ وضرنا لذلك بعض الامثال ، فلم يبق إلا أن نعرف متى تعتبر النية حاصلة ، وكيف يستدل على وجودها أو عدمه .

هذه النية التى هى من مقومات القتل العمد يستدل عليها الشرعيون بالآلة التى تستعمل لارتكاب الجريمة ، فتى كانت بما يقتل غالبا أى من شأنه إحداث الموت ، اعتبر القتل عمدا وإلا فلا . ويقولون فى توجيه ذلك . إن النية هى القصد ، ولا سبيل للوقوف عليه إلا بدليله ؛ ودليله استعمال القاتل آلة قاتلة ، فأقيم الدليل وهو آلة القتل مقام المدلول وهو القصد ، وذلك لأن الدلائل تقوم مقام مدلولاتها فى المعارف الظنية الشرعية . ومعنى هذا أنه يجب على القاضى تطبيق عقوبة الجريمة المعدية حتى لو أسكر الجانى التعمد ، أو لم يذكر شهودا لإثبات أنه كان متعمدا . وإذا كان علماء الشريعة يستدلون على وجود النية بالآلة التى استعملت وقت ارتكاب الجريمة ، فلا معنى للبحث عن عدم فى معاصرة النية أو عدم معاصرتها للفعل ، لأن المعاصرة من لوازم ذلك .

أما علماء القانون فانهم يستدلون على وجود نية القتل بكافة الطرق حتى القرائن البسيطة ، ويشترطون معاصرتها للفعل المادى وهو القتل ؛ ولكمهم يميزون إثبات عكس هذه القرائن بكافة الطرق أيضا . وعلى هذا الجانى الذى يمسكه إثبات أنه لم يقصد القتل مع أنه استعمل سلاحا فانسكا ، لا يعتبر قاتلا عمدا ، ولا تطبق عليه عقوبة هذه الجريمة .

ولا شك أن هذه الطريقة فى الاستدلال على النية قد تنفتح بابا واسعا للاجتهاد الذى قد يحظى صاحبه ، ولشهادة الشهود الذين قد لا يقررون الحق ، بينما تحول وجهة النظر الاسلامية دون ما عساه يحدث من ذلك ، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ما  
سبر سليم درويش



# مَعْرِضُ كَلَامِ الْمُحْتَمِلِ فِي إِسْلَامِ الْمُسْلِمِينَ

حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالي

نشر الأستاذ شكرى فرداوى العضو بالجمعية العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه ( إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الإسلام ) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، منتقيا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولا ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بدا من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الاحتية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات المنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن مستظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فأنضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوا فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤم وتسقطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكثف سبحانه وتعالى بالامر بالمعنى معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والرعاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدون فى تاريخ أمة من الأمم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشيء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشبهه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدا من الأيام جدة ، ولو أضفت إليها أمثاله فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لنألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالة الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الإسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأتى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتزازها بقومياتها وأديانها ، أن تغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة المحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون في أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولي أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى منحوها لإعلاء الدول الأجنبية أنفسها ، وقد اختارت لراطياها أفضل ما تخيلته من صروب الحماية ، وصنوف الضمانات ؟ فأى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس لمعجب غصب ، ولكنه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختارته لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكل ما تخيلوه لعبانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردكم .

وبما بلغت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتعذيب ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبة به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا طاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .



### المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجيبا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجيبا فهى سيدة مغربية أما جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تأملت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدينتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجيبا لهذه الملة ؟

قالت : الدواء هو أن تحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

متور وخلف أفعال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتي منها هي لا من الرجل . وطريق إيجاده هو أن تتملم ما هو ضروري لحياتها ، وأن تربي ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسمعن فيها ، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التي تعطاها أن تعرف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول إليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج في بلادها من الشذوذات الخائفة لحرمتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .



نقول : إننا قد ألقنا هذه اللمحة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لا لأننا لانهم لإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجة إلى الإصلاح والتقويم ، ولكن لأنها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت تمرتها وبالأعلى المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الأوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن الصودية لا تنحصر في أن تجمع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الأدبية ليست في المسكاة التي يروجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب في حقها من إثارة الإصراف في التبرج ، والإغراق في التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، في سقوطها في هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فإن المرأة اليوم أصبحت في العالم المتمدنة أشد عبودية مما كانت عليه في أي زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجاتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانساني وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومي ، في كل ناحية من نواحي النشاط العملي ، وباجور لا تكاد تكن ضرورياتها . وقد غصت بهن دور النعارة ، وأماكن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفحور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خاق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمرال الموبقة .

قالذي تشكو منه مدام ماري بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجوان تقول اليه حالها متى أكثرتها لها من فتح المدارس ، وتفتت فيها بدروسها روح التمرد والثورة . لو كانت تعلم مدام ماري بوجيبا ملخص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات في الحياة الزوجية ، لادركت أن أية امرأة في العالم لا تحمل بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب في حرمانها منها لاجلها غصب ، ولكن حمل رجلها أيضا ، بل

لتحقق أن جهل رجلها أشد تأثيراً في حرمانها منها من جهلها هي بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتعليمهم واجباتهم نحو نساءهم .

ومن العجب أن كثيراً من المسلمين الذين أخذوا إحدى المدينتين الغربية ، يظنون ظن مدام ماري بوجييا ، فينحيون أن الإسلام هو الذي قصى على المرأة الجاهلة بما هي فيه ، والواقع أن السبب في نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فإدام الرجال يجهلون أن لنساءهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهم حقوقاً يجب أن توفى لهم ، فلا يجب أن حاملوا نساءهم معاملة البهائم ما دهن لا يساويهم في القوة الجسدية . والرجال الجاهلاء لا يحسنون معاشرته أصحابهم بالمعروف ، ولا يحفظ كراماتهم الشخصية ، فقاموا إذا جلسوا يتصاحبون ويصطرخون ، ثم يتسايون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما هم فيتصاربون ويصطرعون . هذه حالتهم العادية تشاهد لمن يعتمد رؤيتها في بيتناهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدمية أن يحسنوا معاشرته زوجاتهم ، وأن يلقوا من سلطانهم عليهم إلى الحد الذي رضى به منهم ؟

الشرع الإسلامي يخص الرجال على معاشرته زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجتهن ، حتى لم يكلفهن بمخدمتهن ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهم خدماً ، وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ، وعرف الزواج بأنه سَكُنَ لسكلا الجفسين يحدان فيه المطف والمجبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والإسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بدون تدخل من زوجها في شئونها ، وأن تقضى في الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرس العلوم العالية إذا تأملت لذلك كله . ومنعها فوق ذلك حق التصرف في عيبتها ، فتمتبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا بعارضها فيه معارض . فهذا كله إعلان من الإسلام برشدها وصلاحيها لكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام ماري بوجييا الإسلام قبل أن تطعن فيه وتسمى محمته في بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجييا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الإسلام قضى عليها بذلك ، وهذا خطأ عظيم ، فإن الإسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولكنه أمر بحفظ عرضها سليماً من الدفء ، وصحتها نقية من سوء الفاقة . فإذا غلب بعض الجهال في ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الإسلام ، ولكن على جهل العامة ، فإذا أحسننا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الكسف الخلقية أكثر حقوقاً من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .

محمد فريد وجرى

## نظام الوقف في الاسلام

وأثاره المترتبة عليه

قدّمنا لحضرات القراء أن حكم الوقف عند أبي حنيفة جائز غير لازم ، فهو عنده بمحلة العارية ، على معنى أن للواقف أن يرجع عنه ، وأن يتصرف في العين الموقوفة بالبيع والرهن والهبة والوصية وسائر التصرفات النافذة للملكية ، فإذا مات الواقف ورث عنه كما يجوز للمعير أن يرجع في عاريته ويتصرف فيها تصرف المالك فيما ملك ، حتى تقسم بين ورثته لو مات . فيجوز للواقف أن يتصرف في العين الموقوفة بعد وقفها بسائر أنواع التصرفات النافذة للملكية . فلو مات قسمت هذه العين بين ورثته كما لو كانت غير موقوفة . هذا معنى عدم لزوم الوقف عند الإمام أبي حنيفة .

لحكم الوقف عند أبي حنيفة جوازه مع عدم لزومه لما بينّا . وحكه عند صاحبين أبي يوسف وعبد لزومه لجمود تمام ضبطه وصيغته ، فليس للواقف أن يرجع عنه قيد حياته ، ولا أن يتصرف فيه تصرفاً من التصرفات النافذة للملكية إطلاقاً ، وإذا مات لا يورث عنه . قال العلامة ابن تاجدين في إحدى رسائله : « لأنه خرج بعد ضبطه ، وتماحه من ملك الواقف إلى ذمة الله ، فلا يجزى عليه تصرف من التصرفات اللاحقة للملكية ، وهذا علة لزومه عند صاحبين »

وبه أفتى جمهرة ساحقة من السلف والخلف ، وكاد يتمدد عليه الإجماع بين جمهرة من المتأخرين وفريق من الفقهاء المشرعين ، وعليه عمل القضاء والفتيا منذ قام نظام القضاء الشرعي في الأمم الإسلامية ، ومصر منها في الطليعة ، ولم يتصل بعلم أحد من المشتغلين بنظريات الوقف أن محكمة من محاكم الموضوع نقضت إشهاداً بوقف توفرت شرائطه وأركانها ، وسلت أسبابه وبواعثه . فذهب صاحبين كما أسلفنا هو المفتى به ، وهو المعول عليه .

استدل الامام أبو حنيفة على عدم لزوم الوقف بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله تعالى » . ومعناه أنه لا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته ، تطبيقاً لآية الموارث في القرآن ، فهو ظاهر في عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف المقترض لعدم لزوم الوقف ، وإلا كان اللزوم مصطدماً بآية الموارث ، وخارجاً عن مدلول هذا الحديث .

هذا أولاً ، وثانياً : أن شريحاً القاضي رضى الله عنه صرح فيما صرح بذلك القالة المشهورة ، وهي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس » بضمينين ، وهي جمع حبس يضم فسكون

وهو المال الموقوف . وصريح تلك الرواية عن شريح أن الأموال المحبوسة كان يبيعها محظورا في عصور الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم أجاز بيعها والتصرف فيها ، فكان لكل مالك عين حبسها على بعض عبدة الأوثان أو على جهة من جهات المنفعة أن يتدخل من ذلك القيد في الإسلام ، وأن يستمتع بنعمة الحرية التي هي ملك عام للناس جميعا ، فيجوز له أن يتصرف في العين المحبوسة على سبيل الوقف ، كما لو كانت ملكا غالبا للواقف انتهاء ، والوقف على كل حال يشبه العارية ، والعارية جائزة الرجوع فيها ، والواقف حين رصد عينه على جهة إنما رسدها لله وفي سبيل الله ، وليس لاحد أن يسلبه حق الاختيار في بقائها موقوفة أو رجوعها الى ملكه لأنه تصرف لا يمدو تبرعا . وأيضا فإن حقوق العباد لم تنقطع حال قيام صفة الوقف عن العين الموقوفة ، حيث لهم أن ينفعموا بالموقوف زراعة وسكنى مثلا ، فبقاء هذه الحقوق متصلة بالموقوف دليل بقاء الملكية للواقف ، ولا ملك لغيره ما دام صاحب العين الموقوفة منه ابتداء . وهذا قدر متفق عليه بين الامام وصاحبيه ، فلم عن ذلك أن يكون الملك للواقف لا لغيره .

ومما يؤكد اتجاه الامام رضى الله عنه أن للواقف نصب النظار على وقفه يحددهم باسمائهم أو بشرائهم الممينة لمصائهم التي استحقوا بها الأرجحية عندهم من سواهم ، كما له عزهم ، وله صرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وأحكام المحاكم الشرعية قائمة على احترام تلك الشروط التي شرطها الواقف لنفسه في كتاب وقفه ، وهذا دليل بقاء أثر الملكية للواقف في العين الموقوفة ؟ « يتبع »

عيسى ط

### المقالات والتقارير للتأخرة

منعنا نزاحم المواد من نشر بحوث ومقالات ممتعة ، منها زيادة بيان في بحث الزكاة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ؛ ومنها الحلقة الثانية من بحوث فضيلة الأستاذ العاضل الشيخ عبد الجواد رمضان في الأدب ، ودراسات قيمة أخرى في التراجم والاقتصاد والقد ، وتقارير لمؤلفات ثمينة وصلت إلينا ، فنعتذر عن ذلك ، ونعد بنشرها في الأعداد المقبلة إن شاء الله .



# نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي  
شيخ الجامع الأزهر  
الدرس الثالث الذي ألقاه فضيلته في رمضان سنة ١٣٥٨  
بمسجد السيوي بالقاهرة  
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ،  
إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ) :

الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات التي عليها العرب ، أعنى أهل أعم الطقات ، فهو  
أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العارة ، والعمارة أعم من البطن ، والبطن أعم من الفخذ ،  
والفخذ أعم من العصية . فخرقة مثلاً شعب ، وكساة قبيلة ، وقرش عمارة ، وقصى بطن ،  
وهاشم فخذ ، والناس فصيلة . وسميت شعوباً لأن القبائل وما حدها تشعب منها وتتفرع  
عليها . وقيل : إن الشعوب في المعجم ، والقبائل في العرب ، والأسباط في اليهود .

ومضى الآية : أن الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم ، فهم متساوون  
في أصل الخلقة ، وفي المادة التي منها الخلقة ، كما أنهم متساوون في الصدور عن الإله جل شأنه ،  
وأن الله جعلهم شعوباً وقبائل ليعرف بعضهم بعضاً ، في قرب القرابة وبعددها ، وليعرفوا  
الأرحام ، ولا يمتزى أحد إلى غير آله . والنسب غير مكتسب للإنسان ، وليس للإنسان إلا  
ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مداراً للفخر . والتقوى هي المكتسبة ، وهي  
التي عليها تجري المقاييس عند الله تعالى ، فإذا جاز الفخر شيء ، فإن أحق شيء بالفخر هو  
التقوى فانعروا بها ، فإن أكرمكم عند الله أتقاكم . فقله تعالى : « إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ  
أَتَقَاكُمْ » تلميح للنهي عن الفخر بالأنساب ، وبيان للطريق الصحيح في الفخر . والله خير  
بأحوال الناس ، عليم بأعمالهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ويقدم أحسنهم عملاً ، لا أشرفهم نسباً .

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب ، بل بالعمل . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله » ؛ الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » ؛ ثم قرأ هذه الآية . وخطب صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال : « ألا إن ربكم واحد ، لا فصل لمرى على عجمي ، ولا لمعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحر ، ولا لأحر على أسود ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ؛ ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : فليبلغ الغائب الغائب » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « كَيْتَنَّهُنَّ قَوْمٌ يَفْخَرُونَ بِأَبَائِهِمْ أَوْ لِيَكُونُوا أَهْوَى عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَمَلَانِ (١) » .

الاسلام دين عام خالده ، قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة ، واعتبرهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب المعجم تحت راية الاسلام ، تقايل مخالفيه ، وتنتشر تعاليمه ، وثبتت قواعد التوحيد ، إذا استمرت القبائل تمخر على القبائل ، والشعوب تفخر على الشعوب . وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجناس تشجر بالتفاوت والتغاير . ولا بد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها ، وتنتظمها وحدة تكون هي الغاية التي يحافظ عليها ، ويقايل من أجلها . وهذه الوحدة التي اعتبرت ، وباطلها الايمان ؛ فهو الجامع لجميع الأجناس ، والموحد لجميع القبائل والشعوب ؛ وهو الذي يدافع عنه ، ويقايل من أجله

بهذه الآية وجد الرباط القوي بين الأمم والأجناس ، وقضى على النزعة الهادمة التي كانت تسود العرب ، حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ، ويفخرون بسبهم على المعجم ؛ وكان هذا التفاخر يوجد بينهم أحيانا عداوات وتراشقا . وبهذه القاعدة مهد الاسلام للعامل المجتهد ، أن يفتح أمامه طريق المجتهد ، وأن ينال في الدنيا ما يصل اليه جهده ، وفي الآخرة ما تمده له تقواه . والتقوى تنال بالأعمال الصالحة ، وليست الأعمال الصالحة صلاة وصوما وحجبا لحسب ، بل هي هذه وحيطة الاسلام ، والجهاد في سبيله وفي سبيل الحق . وفي آخر هذه السورة : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » ، فمن الممكن أن يكون أي شخص هو الأكرم عند الله . وإد قد عرف المسلمون أن الكرامة عند الله بالتقوى ، فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو الميار هدم ، وأن يكون المتقون هم الأكرمين .

هذا هو السمو بالفس الإنسانية الى أعلى الدرجات ؛ وهذا ما جاء به الاسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ وكان الناس إذ ذاك في ظلمة المبودية وتقديس الطغيان . وبعد أن عرفت

(١) الحملان بكسر الجيم - جمع جمل بضم الجيم وقبح العين : دابة سوداء كالخنساء . وقيل هو أبو جمران .



الأمم هذا غرت به ، وظنت أنها وقعت على شيء جديد لم يعرف ، والاسلام طائر الجدد بينهم مما هو براء منه ، وبما جاء لخدمته .

جاء الاسلام بهدم مزايا الأجناس ، وبالتعمير على التقوى والعمل الصالح . وأين هذا مما عليه المسلمون الآن ، من اعتزاز كل أمة بمجدها ، وكل واحد بقبيلته أو أسرته ، مما أدى الى تقطيع الروابط ، والى ألا يكون المسلمون تحت وحدة يدافعون عنها ، فأصبحوا أدلة بعد العزة ، وضعفاء بعد القوة ، فهم على كثرتهم كأنهم غناء السيل ، لا يقيم لهم وزن :

وَيَقْضِ الْاَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ وَمِنْ شُهُودٍ

هذه الآداب التي سافها الله في الآيات السابقة ، والتي طلب أن يكون عليها المؤمنون ، قائمة على أصول هي اعتبار المسلمين وحدة ، واعتبار أفرادهم إخوة ، وقائمة أيضا على أصل خطير في الحياة ، وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم ، والأخذ بيد الحق ، والوقوف في صف المظلومين . هذه درجة سامية كرمهم الله تعالى بها ، ومن الواجب أن يفهموها ، ويتدبروها ، ويعملوا عليها ، ليكونوا أشرف الناس ، وأعزهم جابيا ، وأكرمهم مبدأ . ونسأل الله الهداية والتوفيق ١١



(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الأمم . طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذ منه الإيمان وجعل اسما للتصديق الذي معه الأمن ، وهو الإذعان للحق ، ومنه قول الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا (١) » أي بمصدق . والاسلام : استسلام وانقياد وترك التمرد والسناد . والتسليم تام ، يكون في القلب واللسان والجوارح . فالاسلام أعم ، والإيمان أخص ، وهو أشرف أجزاء الاسلام . هذا ما تعطيه اللغة ، لكن الإيمان والاسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى ، فقد استعملتا مترادفين ، ومختلفين ، ومتداخلين .

ومن الترادف قول الله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢) » ، ولم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد . وفي الحديث الشريف : « بنى الاسلام على خمس » . وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بمثل هذا .

ومن الاختلاف قول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنوا ولم نؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، أراد بالإيمان التصديق وطمأنينة النفس ، وبالإسلام الاتقياد والاستسلام في الظاهر . وفي حديث جبريل لما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت ، وبالْحساب ، وبالقدر خيره وشره » ، ولما سأله عن الإسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » .

ومن النداخل : سئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإسلام ؛ ف قيل : أى الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . وهو دليل على أن الإسلام أعم والإيمان أضيق . وهذا يوافق الاستعمال اللغوى ، لأن الإيمان محل من الأعمال هو أفضل جزءه في الإسلام ، لأن الإسلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح . وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب ، وهو الإيمان .

وعند الترادف يكون هناك تعميم في الإيمان ، بإطلاقه على التصديق ، وعلى ثمرة التصديق ، وهى النطق باللسان ، والإتيان بالأعمال . وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص في الإسلام ، حيث حصن بالتسليم الظاهرى ، وهو الإقرار باللسان ، والطاعة بالأعمال .

وقد جاء استعمال الإيمان في العمل الصالح : « وما كان الله ليضيع إيمانكم (١) . وفي الحديث الشريف : جعل إمامة الأذى عن الطريق ، والحياة من الإيمان .

ولا خلاف في أن النطق بالشهادتين كاف في إجراء أحكام الإيمان في الدنيا ، ويعتبر المقر بلسانه مؤمناً ، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه قلبه ؛ كما أنه لا خلاف في أنه إذا لم يكن مصداقاً بقلبه فهو كافر بخلاف في النار . لكن هناك خلاف فيما يجب أن يضم إلى التصديق القلبى للنجاة في الآخرة ، وعدم الخلود في النار :

فن جمع بين التصديق والإقرار ، والإتيان بالأعمال الصالحة ، فلا خلاف في أن الجنة مستقرة ؛ ومن صدق وأقر وارتكب شيئاً من الكسائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة ، لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ وبخلاف في النار عند المعتزلة ، لأن مرتكب المصيبة يخرج في رأيهم عن الإيمان ، والجنة لا يدخلها إلا مؤمن . وهو عند الجمهور رجل حاص يدخل النار فيطهر فيها ثم يخرج منها ، لأنه لا يدخل في النار إلا الكافرون .

ويمكن بعد هذا أن نقول : إن الإيمان الذى لا يدخل صاحبه في النار هو التصديق وحده عند الجمهور وعند المرجئة . أما الإيمان عند المعتزلة فهو مركب من ثلاثة أشياء : التصديق ،

والإقرار ، والعمل الصالح . ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروى عن السلف ، رضى الله عنهم ، فقد نقل اتفاقهم على أن الإيمان تصديق ، وقول ، وعمل . لكن الجمهور يقولون : إن المروى عن السلف هو تفسير للإيمان الكامل الذى يحمل مستقر صاحبه الجنة ، وينجيه من دخول النار ، وذلك لقطع بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتبرون العصاة غير مؤمنين . ولا شبهة فى أن المنتبغ لآيات الله سبحانه ، وللسنة المحمدية ، وأقوال الأئمة ، بقطع بأن الاسلام يمنح العصاة مؤمنين ، يعذبون ويظهرون ثم يخرجون الى دار النعيم .

لأنه من كذا يلينه : صرفه عنه ونقصه حقاً له . والمصدر ليت .

ولا يلتكم من أموالكم : أى لا ينقصكم من أموالكم . ولات وألات بمعنى تقص .

هؤلاء الأعراب إما أن يكونوا مصدقين مقرين ، وإما أن يكونوا مقرين غير مصدقين . فإن كانوا مصدقين مقرين ، كان المعنى : لا يصح لكم أن تقولوا آمناً على الإطلاق ، لأن معنى آمناً ، على الإطلاق : حققنا القول بالعمل ، ويصح لكم أن تقولوا قولاً لا إشكال فيه على سامعيه ، وإن قلتموه كنتم محقين فى قوله ، وهو أن تقولوا : أسلمنا ، أى دخلنا فى الملة بالشهادة التى تحقن الدم وتصور الأموال . وعلى هذا يكون معنى قوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » : لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائقه ومعانيه فى قلوبكم . وإن طيعوا الله ورسوله ، وتعاملوا بما فرضه الله عليكم ، وتلتزموا بما نهاكم عنه ، لا يظهركم شيئاً من أجور أعمالكم ، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً . وهو غفور لمن تاب ، ورحيم لا يعاقب بعد التوبة . ويمكن أن تكون الطاعة هنا بمعنى التوبة عن النفاق ، وعقد القلب على الإيمان ، ليوافق القلب اللسان ، فإذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم ، وغفر لكم .

وإن كانوا مقرين غير مصدقين ، كان المعنى : لم تؤمنوا إيماناً وافق القلب فيه اللسان ، لأنكم لم تصدقوا ، وقولوا : أسلمنا ، أى انقدنا ودخلنا فى زمرة أهل السلم ، ولما يدخل الإيمان الحقيقى وهو التصديق فى قلوبكم . ولا تكرار بين قوله : « لم تؤمنوا » وقوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » لأن الجملة الثانية فى موضع الحال من الضمير فى « قولوا » ، وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه ، فالمعنى : قولوا أسلمنا فى الوقت الذى لم يدخل الإيمان فيه قلوبكم .



( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَدَّأُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ) :

رأيه : أوقعه في الشك والتهمة ؛ وارتاب : مطاوعه ؛ وريب المنون : ليس الشك فيه من جهة حسنة ، بل من جهة وقته .

والمجاهدة : استمراغ الوسع في مدافعة العدو . والجهاد : يشمل جهاد العدو الظاهر ، وجهاد النفس . وفي الحديث : « جاهدوا أهواءكم كما تنجهاون أعداءكم » . والجهاد الظاهري يكون باليد ويكون باللسان . وفي الحديث : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » .

يقول الله سبحانه : ليس الإيمان هو ما زعمتم من قول لا يوافقه عقد القلب ، أو من تصديق وقول لم تؤازرها الأعمال ، ولم نشدها الطاعة ، بل الإيمان الذي يعتمد الله سبحانه ، ويستحق أهله الحد والثناء ، ويباعد بين أهله وبين النار ، هو تصديق لا أثر للرب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح ، بالطاعة ، وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والنضحية بالنفس والمال ، في سبيل الله الذي ارتضاء لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البنى ، وصيانة الأرض ، وتطهيرها من الفساد . أولئك الذين هذه خصائصهم ، وهذا إيمانهم ، هم الصادقون إذا قالوا آمنا على الإطلاق ، وهم الذين إيمانهم إيمان صدق ، وحق ، وجد ، وثبات .

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر ، لأنه أشق أنواع الطاعة .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » إما أن يكون معناه : آمنوا واستمروا على التصديق والإيمان للحق ، ولم يمتزهم الريب بعد ذلك ، لأن المؤمن قد يتلى بمن يضلله ويقذف في قلبه ما يثلم اليقين ، أو يطر نظرًا خاطئًا يسقط به على الشك فيركب رأسه ، لا يطلب المخرج ؛ فوصف المؤمنون حقًا بالبعد عن هذا . وإما أن يكون معناه : آمنوا ولم يداخل إيمانهم ريب ، وفرد بالذكر مع أن الإيمان يقتضيه ، دلالة على مكانة نبي الرب والشك من الإيمان . وجاء « ثم » للدلالة على استقرار الإيمان في الأزمنة المتزامنة المتطاولة ، فصا طريًا .

الجهاد بالنفس يشمل القتال ، والمرابطة في النفر على حدود بلاد الإسلام ، ويشمل الحراسة ، وكل حمل من الأعمال التي يحتاج إليها القتال . والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر ، من الزكاة ، والصدقة ، وبناء المساجد ، والمصحات ، وإنشاء المرافق العامة للمسلمين . ومن أهم أنواع الجهاد بالمال ، تجهيز الغزاة بالمعدات ، والإيقاع عليهم في طعامهم وشرابهم ولباسهم .

ذكر الجهاد في هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة ؛ وفرض على المسلمين في آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع إلى الحق . والجهاد في سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ، وإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين

إعلاء للحق ، فسكان المسلم نذب من الله لمصر الحق وإعزازه ، والضرب على أيدي البغاة ؛  
ونذب لتطهير الأرض من الفساد .

هذه منزلة وصع بها في الدرجة العليا من منازل الكرامة ؛ فعليه أن يمد نفسه لها ،  
وأن يعتبر نفسه حديداً ، إما في القتال والغزو ، وإما في الرباط ، وإما على أهبة أن يدعى  
لواحد منها . وقد جعل الله أجر الجهاد عظيماً ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه .  
ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد في بقاء فرضيته إلى الأبد ، وفي أنه فرض عين أو كفاية ،  
فهذه مسائل تكفلت بها كتب الفقه . ولكن مما لا نزاع فيه عند أحد أنه إذا قاتل المسلمون  
واعتمدوا عليهم ، قتالا للدين أو للوطن ، وجب على المسلمين الجهاد ، وقاتل المعتدين ، وأنهم  
يأثمون جميعاً إذا لم يتعاونوا جميعاً على قتال الأعداء . والجهاد في سبيل الله هو الجهاد الذي  
لا يقصد منه منافع دنيوية . فمن أتى موسى أن أعزانيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :  
يا رسول الله : الرجل يقاتل لله ، والرجل يقاتل للذكر ، فمن في سبيل الله ؟ فقال صلى الله  
عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله » .

وبعكس أن تعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الاسلام في القتال : « لا ينهاكم الله  
عن الدين لم يقاتلواكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤوا وتطهروا إليهم ، إن الله  
يحب المقسطين . إن ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا  
على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (١) » .

أمر الله ورسوله بالجهاد ، وبين فضله ، ورغب فيه . وفي الكتاب العزيز : « فليقاتل  
في سبيل الله الذين يشركون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل  
أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (٢) » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي  
الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فصل الله المجاهدين بأموالهم  
وأنفسهم على القاعدون درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفصل الله المجاهدين على القاعدون  
أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيماً (٣) » ، « أجعلتم سقاية  
الحاج ومهارة المسجد الحرام كن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون  
عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله  
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفاترون . يثبتم الله لهم برحمة منه  
ورضوان وجنتهم فيها لهم فيها نعيم مقيم . خالدون فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم (٤) » .  
وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « من خرج في سبيل الله لا يخرج إلا جهاداً  
في سبيله وإيماناً به ، وقصديق يرسله ، أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه

فائلا ما مال من أجر أو غنيمة . وعنه أيضا : « عيناان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله . ألا أنبئكم بليّة أفضل من لية القدر ؟ حارس حرس في أرض خوف لعله ألا يرجع الى أهله ؛ ومن رابط لية حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه بمن صلى وصام » . والرابط : هو الذي يكون آخر بلاد الاسلام على حدود بلاد الأعداء .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من أمان مجاهدا في سبيل الله أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقال : « رابط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما فيها » .

أمر الله بالجهاد ، وأمر بأن يمد للأعداء العدة ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ، فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (١) » . والقوة تختلف باختلاف المصور ، وتجد في كل عصر عدة وأسلحة للقتال ، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم في العدة ، وعليهم أن يتقنوها ، وعليهم أن يصنعوها ، وعليهم أن يحرزوا موادها ، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد ، وأسرار الصنعة ، كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها ، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره ، واللغة العربية وعلومها .

لكن المسلمين قد حرموا بعض هذه المعارف ، فمأقبيهم الله بما هم فيه من ذل وهوان ! ! يجب على المسلم أن يمد نفسه حسانيا ليكون دائما على أهبة القتال ، فيتعلم ضروب الرماية ، والسباحة ، ويمرن عقله ، ويمرن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار . كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفي الحديث الشريف : « كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو » ، إلا أربع خصال : مشي الرجل بين الغرضين ( أي بين الهدوين اللذين يوضعان للرعى ) ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة » . وعنه أيضا : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فهي نعمة جحدتها » .

وحرم الله في القتال الفرار من الرحف : « يأبى الله الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا يؤفكهم إلا ذكراً ، ومن يؤفكهم يومئذ ذبحه إلا مشحراً لقتال ، أو متحزراً الى فشة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهنم ، وبئس المصير (٢) » .

وحث الله تعالى على الإسراع في إجابة الدعوة الى القتال في سبيل الله ، وحرم التناقل ، فقال تعالى : « يأبى الله الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم افيروا في سبيل الله أنفقتم الى الأرض ! ! أدرئتم بالحياة الدنيا من الآخرة ألقا متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليلاً » .

إِلَّا تَنْفِرُوا يَمُذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَصُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ينفع معهم حمل . الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » . وفي حديث آخر « خمس ليس لهن كفارة — واحدة منهن : الفرار من الزحف » .

هذه هي أحكام الجهاد ، وفصله . ولم يشرعه الاسلام لتوسع والغنى ، بل شرعه دفاعا من الحق ، وذودا من حياض الدين .

أعد الله المسلم ليكون في القتال رجلا إذا دما الدامي وحانت ساعة الإقدام ، وليكون ملكا مهذب الاخلاق ، صميح الطباع ، لا يسخر من أحد ولا يلعنه ، مؤدبا مع الله سبحانه : لا يقدم رأيا على رأيه ، ومع الرسول الكريم : يخاطبه باللين والرفق ، ويجاهد نفسه وهواه . هذا هو المسلم الذي يريد الاسلام .

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم ، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين ، وأن يبتزوا لدفع الأخطار المحيطة ببلادهم ، والأخطار التي ربما قوضت مبادئ الدين ؟ !  
أعتقد أن ناقوس الخطر دق ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح ، وأن الفرصة سانحة الآن لغير الاسلام والمسلمين .



( قُلْ أَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) :

يعنى : أنتم لعلو عقيدتكم وتقولون آمنا ؟ ومعناه : أطلعنا وتحققنا بالقرائن ، أو صدقنا ووافق قولنا ما في قلبنا وأنتم على غير ذلك ، وهو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية .



( يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) :

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : لا تمهوا على إسلامكم ، بل الله هو الذى يمس عليكم أن وفقكم للإيمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم آمنا ، فإله وحده هو الذى هداكم لهذا الإيمان الذى تزعمونه وتدعون أنكم أرشدتم إليه .

يقال : من عليه يبد أسداها إليه . والمئة : النعمة التى لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ، لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المثوبة . ومن عليه صنمه : إذا اعتنقه عليه .

قال صاحب الكشاف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة : ذلك أن الكائن من الأعراب قد سمع الله إسلاما ، ونفى أن يكون إيمانا كما زعموا ، فلما منوا ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدون عليك ما ليس جديرا بالاعتداد به ، من حديثهم الذى حقه أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تمتدوا على إسلامكم ، أى حديثكم المسمى عندى إسلاما لا إيمانا ، بل الله يعتد عليكم أن أمركم بتوفيقه حسب زعمكم للإيمان ، فإن صح زعمكم ، وصدقت دعواكم فإله صاحب المئة ، لكنه زعم يعلم الله خلاقه .



( إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ) :

وإذا كان يعلم الغيب فى السموات والأرض ، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب ، والداخل فى الإسلام رغبة فيه ، والداخل خوفا من جسد الله وحقنا لدمه ، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه ، فهو يعلم ما تكبه الضمائر ، وما تحدث به النفس ، وما قاب عنكم فاستتر فى خبايا السموات والأرض ، وهو بصير بأعمالكم التى تعملونها سرا وجهراً ، وطاعة ومعصية ، وهو مجاز على هذا كله ، يحزى على الشر بالشر ، وعلى الخير بالخير .

وأسأل الله العلى القدير ، أن يوفق المسلمين لمعرفة دينهم ، والعمل على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، إنه صميع مجيب .



# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

### نشوء الدولة الإسلامية

بين الموامل المختلفة

لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الإسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب في عشية وضحاها لم تشهد مدينة قبلها في الأرض ، وأى مدينة جاهلية في أية بيئة من بيئات الممور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله في عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، وبحل محله دين جديد ، ليس الداعي إليه بملك عظيم يرجي أن تمنهم عطاياه ، وتحببهم من أصدائهم جبوشه ومراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبته به دياره ، وطأه قومه ، ولحق به من شيمته رجال لا يملكون شروى نقير ، حاملا إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأي شيء تفرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وكجزر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم إلى قريش لتقتصروا بها ، أفترعدون وقد استجلبت سخطها ، واستهدفت حرمها ؟ وكتمت تستجدون البعدين عنكم ، على عدو كان يساوكم عددا وهدية ، أفترقبون وقد أترم عليكم العرب كلهم ؟ فإذا ترجون من وراء هذه المفاسدة التي لم تدفع في تيارها جماعة قبلكم إلا باءت بالويل الوائل ، والمهول الهائل ؟ قلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلمهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق في الأرض ، وإما الشهادة في سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تحليله لو حدث لرجل واحد ، فذا ظنك وقد حدث لقبيلتين متحافدين ؟ في هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبي صلى الله عليه وسلم حكومته ( النبوية ) ، وهي طرار من الحكومات لا تقوم إلا في عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحي الإلهي والشورى ، والوحي في الأمور الكلية التي تتأصل فيها الأصول ، وتندم المبادئ الأولية للدين والدولة المستقبلين ، والشورى في الأمور الجزئية التي تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة

على نظام الحكومات الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبي صلى الله عليه وسلم نصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألنكم . فكانوا يناقشون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فبعدل من رأيه إلى رأيهم . على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الأحوال التي يقتضيها قيام جماعة من أول تكوئنها إلى أن تصل إلى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطراؤ شاكل ، تارة تصادف حلولاً ، وطورا تؤدي إلى ما أرق نسطر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الخناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج إليه كل نفس بشرية في تكملها ، وكل هيئة اجتماعية في تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

فالباحث الاجتماعي يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواة أكبر أمة عالمية نالت من زمامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية المتفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها إلى اليوم . وهذا ما ستقوم به في هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلوي ، وفاء بما شرطناه في مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبي صلى الله عليه وسلم من يثرب في جماعة قبلت الاسلام دينا ، وسدت له مقاديرها بقودها إلى حيث يشير به عليه الوحي من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقب على حكمه معقب ، وهي قيادة لم ينلها قبله في قبيلة أجنبي عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذي يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشا غطفاني ، ولا غطفان تميمي . هذا كان بين القبائل التي تنتمي إلى أصل واحد ، كالقبائل التي يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمي إلى أصليين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

كان في بلاد العرب نوعان من القبائل : عدنانية ، ويمانية ، تزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سيل المرم إلى جهات كثيرة من الشمال ، غافلت على طبعها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتنا الأوس والخزرج اللتان صرنا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قطعانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تصعا على رأسيهما زعيا عدنانيا ، تلك كانتا عدنانيا نسبة لا تزول عنهما وصمتها ما بقي القرقدان . فكان قبولها لزمامة محمد صلى الله عليه وسلم وهو من صميم قريش ، غير آبهتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبا في نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عزوه إلا إلى عظم سلطان الاسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الاسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تيمك القبيلتين ، فبقي منهم قوم على كفرهم باطناً ، وإن كانوا التحفوا الاسلام ظاهراً ، وأولئك كانوا يدهون بالمناقضين ، وكان أمرهم لا يخفى

على النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أخصائه، ولكنه كان يقبل منهم ظاهراً، وإكلاً سرّاً ثم إلى الله، ما داموا خاضعين لحكومته، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته. فكان ضررهم ينحصر في حل عزائم المؤمنين، إذا دعاهم الرسول للجهاد، بنفث الدعر في قلوبهم، وبث اليأس في نفوسهم، بالتهويل في قوى أعدائهم، والمبالغة في هدمهم. فإذا لم تفلح وسائلهم في صرفهم، صعدوا إلى ما هو أفضل في إفشالهم، فخرجوا معهم، حتى إذا تلاقى الجمعان في ساحة الوغى تبادروا إلى الهزيمة ليحرثوا المؤمنين معهم، وهو تدبير حطير يؤثر في القوى المنوية للمقاتلة أسوأ تأثير، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفض الطرف عن فعلهم، ويقبل واهن أعدائهم.

فإذا وضعت الحرب أوزارها، وطاد المسلمون إلى بلدهم، عادوا إلى سابق عرفهم، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم، وروجوا من سوء المبادئ، وسقيم الآراء، ما تنسم به النفوس، وترتبك العقول، فكانوا أشد على النبي وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته، المتوعدين بحل جماعته. كل هذا ولا يأذن صلى الله عليه وسلم في اصطلامهم لانتقام شرهم، لخائفة ذلك للبدا الإسلامية العظيمة من قبول الظاهر، وترك الباطن لعلام السرائر، وهذا مبدأ جليل القدر، بعيد الأثر في تربية الأمم على احترام الحياة البشرية، وعدم الإسراف في سفك الدماء جرياً وراء البغضاء الحزبية. والامة التي تربي على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول، تضي في تطبيقه في جميع أدوارها، كتقليد من تقاليد الاجتماع، فتتق شرور التناحر في حياتها المدنية، حيث تختلف المبادئ، وتتباين المذاهب، فلا تنصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر. وهذا الضبط للنفس من أجل ما تنصف به الأمم الرشيدة، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية، وهو كما ترى وليد الديانة الإسلامية.

وبما يوجب الدهش في أمر الاحتمال الذي أمر به الاسلام حيال المنافقين، أن ما وصفهم به القرآن من الخيعة والمراوغة، وبذر بذور الفتق بين العنাম، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين، مما لا نظير له إلا أمة بلغت من ضبط النفس، وكبح الهوى، درجة ليس بعدها مرتقى. ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم في الكتاب الكريم إدلالاً على ما نقول.

قال تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب عظيم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم (أي إلى إخوانهم في الكفر) قالوا إنما معكم بئس ما نحن مستهزئون.»

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم فحاة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم فمض على أعينهم ، ومن يقولوا سمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صحيفة عليهم ، هم المسدود فاحذروهم ، فأنهم الله أنى يؤفكون » .

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، والله خزانة السموات والأرض ، ولئكن المنافقين لا يفقهون » .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم في صميمها ، والذي غير مبال بهم ، حتى تفاقم شرهم ، فنزل في حقهم قرآن يهددهم بأخذه بالعنف ، فقال تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرحفون في المدينة ، لنغريك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » ، أى لئن لم يقامع المنافقون عما هم بسبيله من المفساد ، لنسلطك عليهم ، فيضطرون للعجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الاسلام على مطاولتهم حتى لم يبق في جزيرة العرب من يصنى الى إيفكهم ، ففنى في جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسع بمثله في تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الطين والاثامات ، حتى تتغلب الآراء الحديدة ، فتنبو الجماعة الى رشدتها ، وتستقر الامور في نصابها ( راجع تواريخ الثورات الكبرى ) .



لم تكن عوامل الفساد في جماعة المسلمين الأولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت مجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وقد ساءها أن تتأسس في يثرب ديانة يُتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبياتى الأوس والخزرج ، فتحليلهم عن البيئة التي اتخذوها دار هجرة لهم ، وتميد لهم عهد الاضطهاد الذي ذاقوا صرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوأتها العداء ما استطاعوا اليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الاسلام بخاطون المسلمين ، ويسمون بينهم بالنجائم والإرجاقات ، وينقلون الى الآخرين ما يقفون عليه من الاخبار ، وما يترامى اليهم من الأسرار .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أخبار متضلعون في الثقافة الدينية ، وحارون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الاسلامية كان يتوقف على تأثيرها في العقول والقلوب ، وهؤلاء الاحبار كانوا لا يحدون في مهاجمة عقائد الاسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدها ،

فكانوا بهذا العمل مثيرين على الاسلام حربا أدبية ، أقفل في الصد عنه من الحرب المادية ؛  
فلو كان في مكان النبي صلى الله عليه وسلم الأمة العربية بأسرها في أميتها وجاهليتها وبعدها  
عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأخبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم  
القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، في مستوى أمثالهم من رجال الدين في البيئات  
المنحصرة . واليهودية أقدم الأديان السامية بعد دين إبراهيم ، ولهذا يدعون أن ما جاء بعدها  
قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروجون هذه الدعوى الى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه  
وتعالى أن يبرل الاسلام في هذه البيئة من النضال الديني ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه  
لم يستمد وجوده من دين ساق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذي استمد كل دين  
مادته منه ، كما قرر ذلك قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا  
إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

لهذا السبب جاءت في القرآن آيات كثيرة جدا في مجادلة اليهود والنصارى ، فسردت  
ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبيل موسى عليه السلام ، وما كانوا  
يقابلونهم به من اللعنات والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ،  
ثم عقيبت ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهروه في مواطن شتى من العصيان  
والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع في أسر الأمم الفاسقة ، حتى أدى ذلك الى هدم  
هيكلهم المقدس مرات ، وتشتيتهم في الأرض ، وضياع استقلالهم في عقر دارهم ، يتخلل ذلك  
ما عمدوا اليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل  
والتحريف حتى حلوا كثيرا عما كان محرما عليهم .

فهذه الساحة من القرآن الكريم كشفت عن أصلاته في سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ،  
وعن تحليه بضروب المسامات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التي اقتضاها الجدل  
بين الدينين آيات بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة  
واحدة ، مرتبطة بأرض معينة ، لا يصح لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة  
في أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثاني على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع  
لكل ما بلغته من خير في جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به  
من مزية الإطلاقة ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

في هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الاسلام عن وجوده  
وإقام دولته ، ومنها امتد الى أقطار الأرض ، ولما بلغ مداه بعد م ( يقبع )

محمد فريد وجدي

# السُّنَّةُ

## الوفاء بالعهد

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُرْبِعُ خِلَالَ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مَنَافِقًا خَالصًا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » ومن كانت فيه خُصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنَ النِّمَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا .  
رواه البخارى في كتاب الجهاد ، وفي كتاب الإيمان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معنى النفاق ، وهل يطبق هذا المعنى على من كانت فيه هذه الخصال أو بعضها ؟ ( ٢ ) بيان قيمة الوفاء بالعهود في نظر الشريعة الإسلامية وما يترتب على نكثها من آثام وأضرار . ( ٣ ) بيان ما يترتب على كل خصلة من باقى الخصال المذكورة في الحديث من مضار خلقية واجتماعية .

( ١ ) معنى النفاق في اللغة : غشافة الظاهر للباطن . ومعناه في الشرع : الاعتراف بصدق الرسول باللسان فقط مع كون القلب منكرا غير مقر . وإن شئت قلت : هو الإقرار باللسان والإنكار بالقلب . فالمنافقون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا يظهرُونَ الإيمان ويبطنون الكفر ، فكانوا شرا على المسلمين من المشركين الذين كانوا يجاهرون بالمدوان ، ويعطون عادة الأوثان ، لأنهم كانوا يختلطون بهم ويعرفون أسرارهم المتعلقة بالجهاد وغيره ، ويحاولون التأثير على بعض المؤمنين الفخلفين ليفسدوا عليهم اعتقادهم . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متصلا بالوحى الإلهى حقا ، وكان الله سبحانه يحذر النبى وأصحابه من شرهم ، ويبين لهم ما يحضرون من عقائد ، لكان خطرهم على الاسلام يومئذ عظيما . ولكن الله سبحانه حذر منهم نبيه ، وأنزل فيهم كثيرا من الآيات ، وهددهم بالمذاب العاجل والآجل .

وقد كانت تدبر منهم هنات تدل على تفاقمهم ، كتحلفهم عن الغزو ، وابتزاز الفريسة للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، وبث بذور السداوة والبغضاء بينهم . فمن ذلك ما روى البخارى معناه من أن المسلمين كانوا في غزوة ، فوقع شقاق بين رجلين ، أحدهما من الأنصار ،

والآخر من المهاجرين ، فاستغاث كل منهما بقومه على عادة الجاهلية كي يستنصره لمناصرته فيقع القتال بين الفريقين ؛ وكان في القوم رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، فانتهاز الفرصة ، وقال : لن رجسا الى المدينة ليُخرجن الاعزُّ منها الأدلُّ . فلما بلغ رؤساء الانصار ورؤساء المهاجرين هذا الامر ، غضبوا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بقتل ابن أبي ؛ فابى عليهم ذلك ، وقال لهم : إنكم إذا قتلتموه يقول الناس : إن محمدا يقتل أصحابه . وأصلح بينهم ، ونهاهم عن التمسك بعادات الجاهلية الفاسدة .

وقد أنزل الله في ذلك سورة المنافقين ، فقال تعالى . « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » الخ ، وقال فيها : « يقولون لن رجسنا الى المدينة ليُخرجن الاعزُّ منها الأدلُّ » ، والله العرة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

ولعل قائلا يقول : إنك قد عرفت النفاق بأنه الإقرار باللسان مع الإنكار بالقلب ؛ والكذب وصف للإقرار المسائي ؛ وهؤلاء قالوا بالسنتهم . نشهد إنك لرسول الله ، فكيف يصنفهم الله بالكذب في هذا القول مع كونه صدقا لا شك فيه ؟

والجواب : أن قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، وإن كانت مطابقا لواقع ونفس الامر ، ولكنه ليس مطابقا لواقع عندهم ؛ والكذب هو عبارة عن عدم مطابقة الواقع في نفس الامر أو في زعم المخبر ؛ فالذي يخبر بخبر يعتقد أنه ليس بصحيح يكون كاذبا في نظر الشرع ، وإن كانت صيغة الخبر صحيحة ، لأن الشارع يعتبر النية في هذا المقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » . ألا ترى أن المجتهد إذا أخبر بخبر يعتقد صدقه ولم يكن صادقا فيه يثاب عليه ؟ لأنه إنما أجبر بناء على اعتقاد يرضاه الشرع ويقره . وبعضهم يقول : إنهم كاذبون في الشهادة ، لأن قولهم نشهد ، يتضمن دعوى أن هذا يسى شهادة ؛ والشهادة في لسان الشرع يشترط فيها أن يكون ما في القلب مطابقا للنطق باللسان . ونسبة قول الزور شهادة من باب التجوز ، لأن المفروض فيها أن يكون اللسان فيها مطابقا لما في القلب ؛ فمن شهد الزور فقد سقط في نظر الشريعة عن الاعتبار . وهناك وجهان آخران في الجواب لاجابة الى ذكرهما هنا .

من هذا تعلم أن المنافقين بهذا المعنى من أرذل الكافرين وأخسهم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولذا قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » . فلم يغزى في الدنيا ، ولهم في الآخرة سوء العذاب .

ومما لا يخفى فيه أن النفاق بهذا المعنى ليس بمقصود في هذا الحديث ، وإنما المراد أن هذه الخصال السيئة يتجافها المؤمنون حقا ، الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام ، وعملوا بما جاء به

الرسول صلوات الله عليه من مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات . فهذه الخصال المذكورة في الحديث لا ينبغي أن تصدر إلا من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وعلى هذا يكون معنى الحديث أن صاحب هذه الخصال شبيه بالمنافقين في أعمالهم ، وإن كان مؤمنا بقلبه مقرا بلسانه .

وبعضهم يقول : إن النفاق ينقسم الى قسمين : نفاق في العمل ، ونفاق في الاعتقاد . فالذين يعملون ما نهى عنه الشارع من الرذائل الخلقية مع اعتقادهم بصدق الرسول فيما جاء به ، منافقون في العمل دون الاعتقاد . ومن ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لحذيفة : هل تعلم في شيئا من النفاق ؟ فان مراده نفاق العمل طبعاً .

( ٢ ) الوفاء بالعهود في نظر الشريعة الاسلامية فرض من الفرائض المقدسة التي ينبغي القيام بها على وجه تام لا انحراف في أى ناحية من نواحيه . ويطلق العهد في اللغة على معان كثيرة ، منها الأمان ، يقال : أعطى لفلان عهداً ، إذا أمنه من شر ؛ ومنها الجيـ ، يقال : على عهد لأفعلن كذا ، أى يمين ؛ ومنها الذمة ، يقال : لفلان على عهد ، أى ذمة . وهذه المعاني كلها قد أمرت الشريعة الاسلامية بالوفاء بها . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى أن من خالف عهداً من العهود كانت فيه خصلة من خصال المنافقين المذمومة .

من أحل ذلك قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . والوفاء والإيفاء أيضاً : هو القيام بما يقتضيه العقد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقاً بأمر مادي أو أدبي ، كالتمتع على معونة فى حمل من الأعمال ، أو ضمان ، أو كفالة ، أو مناصرة على عدو أو دفع أذى ، أو غير ذلك من الأمور المشروعة التي تستلزمها الحياة الانسانية .

فمن هاهد ثم غدو كان من شر التفجار الآثمين فى نظر الاسلام ، ولذا ذم الله سبحانه وتعالى المشركين بشكك اليهود أقبح ذم ، فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين هاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا ينتقون » ، وفقد وصفهم الله بانهم أسوأ حالا من الدواب التي لا تمقل معنى الشرف والكرامة ، ولا تقيم لليهود والمواثيق وزناً ، وذلك لأن الانسانية تقتضى تبادل المنافع ودفع الشر بقدر المستطاع ، فإذا تههد أفراد أو جماعات على أن يكف بعضهم عن إيذاء بعض ، أو ينفع بعضهم بمضا ، فانه يجب عليهم أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه بالدقة ، وإذا لم تكن لليهود والمواثيق قيمة عندهم ، ارتفعت الثقة من بينهم ، وأصبحوا كالحیوانات المحم الذين لا هم لهم إلا انتهاز الفرص لقضاء شهواتهم وملء بطونهم ، بل كانوا أضر على المجتمع الانسانى من الحيوانات ، لأن الحيوان شره محدود يمكن دفعه بسهولة ، أما الانسان فشره مستطير لا يقف عند حد ، ولا يمكن دفعه إلا بعد مشقة وعناء .



(٣) أما الفجر في المحاصمة ، فعنا أن يكثر الشخص في القول على وجه غير صحيح كي يظهر على خصمه ويقطع منه حقا بالباطل ، فيأتي بزخرف القول ، ويستعمل العبارات التي لا يستطيع خصمه إلحاحه فيها ، ويزين الباطل كلها وجد لذلك سبيلا .

ولاريب في أن ذلك مذموم كل الدم ، فقد أخرج البخاري ومسلم من مائشة روى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أبغض الرجال إلى الله تعالى الآله الخضم» . والآله : الشديد في خصومته ؛ والخضم بفتح الخاء وكسر الصاد : الشديد في خصومته أيضا ؛ قال تعالى : « وهو آله الخضم » أي شديد المحاصمة في الباطل . وكفى بذلك زجرا لمن تحدته نفسه باقتطاع حق الغير ، وأخذ منه بالباطل ، اعتمادا على قوة في المنطق ونحوها . فمن التجور المزدول أن ينتزع شخص من آخر ما ليس له بقوة المنطق وحنن البيان ونحوها من الوسائل المفحمة للخصم بالباطل . ومن قفى له بشيء من ذلك فكأنما قطعت له قطعة من النار ، كما ورد في حديث آخر .

أما الكذب : فهو أن يقول الإنسان الباطل الذي يعرف أنه باطل ويعتقد أنه باطل ، وهو ضد الصدق . فإن كان ذلك متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم كان من أشد الكبائر وأشنع الجرائم التي تضر المجتمع الإنساني ، وتقضى على العدل والنظام الاجتماعي شر قضاء . قال الذي يكذب ويقول الزور يقتلع حقوق عباد الله أو ينلهم في أعراضهم أو يؤذيهم في أنفسهم ، فهو أضر على المجتمع الإنساني من كل ما يصره ويؤذيه . فقد يكون ذلك سدا في بث القوضى ، وإغراء المجرمين على افتراء الجرائم ، فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتون تحت ستار الكذب .

ومن ذلك الكذب على الله ورسوله ، فمن استهوته شهوته إلى أن يقول : قال الله كذا ، أو قال رسوله كذا ، وهو يعلم أنه كاذب في ذلك ، فإنه يكون قد ارتكب جريمة من أزدل الجرائم الخلقية ، وليس لصاحبها إلا أن يقبوا مقعده من النار .

هذا وقد يعنى عن الإحبار بغير الواقع في بعض المواطن ، كالكذب لإيقاظ مظلوم من الهلاك ، أو تعظيم قوة الأمة الحربية في نظر الخصم ليرهب جانبها ، أو تضليل الخصم المتعدى ليدفع شر عدوانه ، أو نحو ذلك من مهام الأمور ، بل قد يكون ذلك واجبا إذا اقتضاه النظام الاجتماعي . وقد ورد في ذلك أحاديث ، وليس في ذلك ضرر على الصدق ، لأن هذه الأحوال ليست هادمة له ، بل هي في الواقع تزيد معناه تأييدا ، لأن الصدق إنما كان ممدوحا لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع واعدة الإنسان . ولا نظر في هذه الأحوال إلا للفائدة التي ينشدها العقل والدين ، ويمتدح من أجلها الصدق .

عبد الرحمن الجزيري

## ذكرى شهر ربيع الاول

ميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

يوافق صدور هذا العدد اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وهو الشهر الذى شرفه الله بميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان ذلك فى اليوم التاسع منه ، من العام الأول لحادثة العيل ، وهو يوافق اليوم العشرين من إبريل سنة ( ٥٧١ ) بالتاريخ الميلادى .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عمه أبى طالب بشعب بنى هاشم . وقد تولت الإشراف على ولادته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، وهو الذى صار بعد بئته من أجلاء أصحابه .

لما أشرق العالم بنور وجهه الوصاح ، أرسلت أمه آمنة بنت وهب لجدّه عبد المطلب سيد قريش ، تبشره بميلاد حفيد له ، فأقبل من فوره وأسماه محمداً .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، وأول من أرضعته نوبة أمة عمه أبى لهب .

وكان من عادة العرب أن يوصلوا بأولادهم الى البادية ليخضوا فيها عهد الرضاع ، اعتقدا منهم أن ذلك يكون أدعى الى النجاة ، ذهاباً منهم أن تحمية أولادهم هذا العهد فى المدن يجعلهم خامدى الذهن ، ضعيفى الإرادة . فكان الطفل محمد بن عبد الله من حظ حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد . وكان اسم زوجها أبا كبشة وهو والده من الرضاع .

ذكرنا هنا أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت فى السنة الأولى من حادثة الفيل . وتلخص هذه الحادثة فى أن أحممة ملك الحبشة كلف أبرهة حامله على اليمن ، وكانت خاضعة لسلطانه ، أن يبنى كعبة بصعاء ، ويصرف العرب من الحج الى الكعبة الى الحج إليها ، فصعد بأمره وسار على رأس جيش لحب الى مكة لهدم الكعبة ، وكان من مطاياهم فى حروبه فيل صخم على عادة الفرس والهنود وغيرهم فى اعتمال الفيلة فى حروبهم ، ولم يكن للعرب عهد بها ، فقلز بجوار مكة يتأهب للشروع فيما هو بسيله ، فأرسل الله عليهم طيراً أنابيل ( أى حمامات ) ، ترميهم بحجارة من سجيل ( أى من طين متحجر ) ، فجعلهم كمصف ما كور ، أى جعلهم كورق الشجر الذى أكلته الديدان . أخذ جمهور المعسرين هذه الآية على ظاهرها ، وأولها بمصهم بأن المراد منها أن الله أرسل عليهم ميكروبات الطاعون فاجتاحهم .

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الرامة من عمره استردته أمه ، وتوجهت به الى يثرب لزيارة أخوال أبيه بنى عبدى بن النجار . وبينما هى آتية الى مكة مرضت بالطريق وأدركتها الوفاة

بقربة في الطريق أقرب الى يثرب منها الى مكة يقال لها الالبواء . فخصته أم أيمن بركة الحبشية ، حاصنته الأولى ، وكفله جده عبد المطلب ، ولكنه لم يلبث أن توفي ، فكفله عمه أبو طالب والد علي كرم الله وجهه ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك ثمانين .

ولما بلغت سنه صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة استصعبه عمه الى الشام .

ولما بلغت سنه العشرين حضر حرب الفجار ، وهي حرب كانت بين قريش ومعها كنانة ، وبين بني قيس . وسبها أن واحدا من كنانة قتل رجلا من بني قيس ، فثار الحرب بينهما وغردت فيها قريش الى جانب كنانة ثم تصالحوا .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين سافر الى الشام للمرة الثانية في تجارة غديجة بنت خويلد ، وكانت ذات مال . ولما آب بالرح الوفير وتحققت فيه الامانة والكرامة ، أرسلت اليه تحيطه لنفسها ، فقبل صلى الله عليه وسلم زواجها ، فكان يعظمها ويحبها لعقلها وفضلها ، وهي أم أولاده جميعا إلا ابراهيم فإنه ولد من سريته مارية .

ولما صنع السيل بعض جذران الكعبة ، وشرعت قريش في ترميمها اختلف رجالها فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومي : حكموا بينكم رجلا ترضونه . فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أول داخل عليهم ، فحكموه ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية منه ، فلما انتهوا الى موضعه رفعه بيده ووضع فيه .

أما سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في شبخته فكانت مثالا لشرف النفس وعلو الهمة ، والبعد عن السفاسف ، والإخلاص والعفاف والصدق وكرم الأخلاق والجود والحلم والشجاعة والتواضع ، لم تحفظ عليه حقوة ، ولم تحص عليه زلة . وما زال يتقدم في سنه المباركة على هذا النحو من الكمال القمري حتى بلغ الأربعين ، فشرقه الله بوحيه وأرسله الى الناس كافة . وهما نحن نجهد العقل ، ونكد القلم ، ونستخدم العلم الحديث كله ، لنصل الى تصوير بعض ما أغض الله على يديه من الخير المأم ، والحياة الفاضلة ، علينا وعلى الناس قاطبة ، فلا نسكاد بنبل منه إلا غيبضا من فيض . ولا غرو فإن إدراك النهايات البعيدة التي كان عليها خاتم المرسلين في أخلاقه وشجائله ، والمثل العليا التي أتى بها العالم كله ليقيمه على سواء الصراط ، والوقوف على العوامل التي صاحبت هذا الانتقال الانساني الجليل ، كل ذلك لا يكون إلا على قدر عقولنا لا على قدر ما هو عليه في ذاته .

محمد فريد وجدي

## مكان الزكاة من الشؤون الاجتماعية

الضرائب والمخراج لا يمنعان وجوب الزكاة

محاضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد : فقد نشرت لنا المجلة في الجزء الأول الصادر في المحرم سنة ١٣٥٩ مقالا في « مكان الزكاة في الاسلام من الشؤون الاجتماعية » ، بسطنا فيه عناية القرآن بحق الفقير ، وما يجب على الأغنياء من التراحم ، والبذل ، ومساعدة الضعفاء ، والمساهمة بأموالهم في صلاح الأمة وحياتها حياة طيبة قوية . وقلنا : إن الاسلام جعل الزكاة فرضا من الفروض الدينية ينفذه بالقوة ، ويقاقل من امتنع عن أدائه ؛ جعلها في الذهب والفضة ، وفي البضائع التجارية ، وفي الماشية ، وفي الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وهي في الوقت نفسه تسعف المسكين والفقير ، وتصلح من شأنهما ، وترد من غائلتهما . وقلنا : إن هذا النظام سلكته الشريعة بعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتبأت النفوس لقوانين والنظم كورد دائم للفقراء والمساكين ؛ ولم تقف عند هذا الحد ، بل وكلت الأمر فيما وراء هذه المقادير - إذا استدعته الحاجة - الى العاطفة الدينية الأخوية ، ورغبت في البذل بعظيم الثواب في الآخرة ، وبمظم الإخلاص في الدنيا .

وقد جاءنا خطاب من الفاضل « محمود الروبى » بالمصورة من قراء مجلة الأزهر ، يتلخص في أنه يرى أن أرباب الأموال يدفعون من أموالهم فوق مقادير الزكاة التي حددتها الشريعة الى الحكومة ، باسم الضرائب والمخراج ، والحكومة تنفق ما تأخذ في مصارفها المبينة في ميزانيتها . ويرى أن بعض هذه المصارف من مصارف الزكاة . ويقول بعد ذلك : « فإذا تزون قد بقي في ذمة الملاك من حق الزكاة ؟ » . ويرى بذلك أن حاجة الفقراء التي يجب سدها على المسلمين الأغنياء أصبحت بهذا الوضع في حق الحكومة التي لا سبيل لنا عليها ، وكأنه يريد أن يصل من ذلك الى سقوط حق الزكاة عن الأغنياء ، وإلى إلقاء التبعة في إهمال الفقير الذي يهدد الغنى في حياته على الحكومة ، ويرجو أن يقرأ في ذلك بيانا مفصلا يرضى الله ورسوله .

ويكفي في هذا البيان الفصل الذي يلتمسه أن نقول :

إن الضرائب نظام مالى سياسى ، استدعته في نظر الحكومة المصلحة العامة ، تفرضه الحكومة - بناء على ما تراه في المصلحة - مرة ، وتلغيه أخرى ، وتخففه ثالثة . فليس لها الوضع الدينى الدائم المفروض عينا على المالك القادر باعتباره مسلما ، كما فرضت عليه الصلاة والصوم . ولا يمكن أن تقوم الضرائب - ووضعها كما نعلم - مقام الزكاة التي يقول الله فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » . وإذا كان الناس يحسون بشئ من الإرهاق في بعض

ما يفرض عليهم من ضرائب ، فنبعة ذلك لا ترجع الى الفقير بحرماته من حقه الذي أوجبه الله له . وسبيله مطالبة الحكومة بالاقتصاد في مصارفها ، ومحاسنتها على ما تجمع وتنفق . ومحاسبة الحكومة على أعمالها عامة ، مما تشهد به أصول الإسلام ، وتقصى به المصلحة الاجتماعية العامة التي يضمها الدين في المكان الأول

أما الخراج الذي تأخذه الحكومة على الأراضي الزراعية ، فيرى جمهور أئمة المسلمين أنه حق مغاير لحق الزكاة ، في دليله ، وسببه ، ومصرفه ، وحكته ، فلا يمنع أحدهما الآخر . والمقارنة بين أدلة هؤلاء وأدلة مخالفيهم تبين جليا رجحان مذهب هؤلاء الجمهور ، مع ملاحظة أن مخالفيهم لا يرون تأثير الخراج على كل أنواع الزكاة ، وإنما يرون تأثيره خاصا بزكاة الزروع ؛ أما زكاة الأموال وما إليها فلا تأثير للخراج عليها ، لأنه غير متعلق بها ، وإنما يتعلق بالأرض التي يتعلق بها أو يزرعها المشر .

وإذا كان الاتجاه في الضرائب والخراج هو ما ذكرناه ، وليس أحدهما مبذولا بحكم الدين وقضاء واجب النفس في التطهير من خلق الشح ، ولا بقضاء واجب الأخوة الدينية التي أراد الله أن يستكمل بها إنسانية المؤمن ، فلا ينبغي التفكير في محاولة اعتبارها قائمين مقام الزكاة . فالزكاة فرض ديني كالصلاة والصوم يجب على الإنسان محاسبة نفسه عليه متى ملك النصاب فارغا . كما يقول الفقهاء - عن حاجته الأصلية .

ولعل صاحب السؤال يذكر الكلمة التي ختمنا بها مقالنا الذي يشير إليه . وتذكيرا له بها نختم بها هذا البيان :

« وبعد فليسمح لي حضرات الأمراء والأغنياء والمفكرين أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

« إن التطور الفكري المتناقض قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصارت به على ملتقى السبل ، فلما أن نسير في سبيل الرأسمالية كما يلوح في أفق الأغنياء فنصل إليها ناراحامية من العاطلين والفقراء ، ولما أن نسير في سبيل الشيوعية كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء فنصل إليها تخريبا وتدميرا . ولقد جاءنا من الأنبياء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا - وكتابه قائم بين أيدينا - الى السبيل السوي الذي يقينا شر هذه وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكاملة في البر والتقوى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود سلوت

## العوامل الأدبية التي اعتمد عليها الاسلام

في تقويم الشخصية الانسانية بسرعة لم يعدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الاسلام نشأ في شبه الجزيرة العربية ، فاختفى في سنين معدودة بين قبائلها المتصاغنة ، وألف منهم أمة ، وحلت تلك الأمة بالرُّبُط الأدبية والمادية التي لا بد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحواظ الثانية بما صان وجودها ، في جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سلباً وقوياً ، وأودع كيائها من بواعث التطور ما دفعها للترقى في جميع مجالات النشاط العلمي والعمل ، خالصة من جميع القيود التقليدية التي تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطئ من سيرها ، فوصلت في نحو قرنين الى مستوى رفيع حصلت معه على الرُامة العالمية ، وهي ميزة لم تمنحها إلا أُم معدودة في الأرض .

وصلت الى هذا الأوج في نُخْطى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبر ومُثل عليها ، شأن كل جماعة تصدر عن ذخر أدبي متأصل في طبيعتها ، أو تمرست به أجيالاً متعاقبة من حياتها . فإذا كان هذا الحادث الفذ في تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه في صعوبة التعليل تأثيره طفرة في جماعات مفككة الأوصال لم تعتمد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤثر في تاريخها أن داعياً دعاها إليها في عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الحلل مظهراً ممتازاً ، أنه كان مصاحباً لسمول تشهد البشرية من قبل ، في أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الانسانية أجمع ، في أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائفة هوجاء ، تشور ثوران الفوضى لا تفرق في هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، في طغيان من القائمين بها ، لا ترددها حكمة ، ولا ترددها شكيمة ، فإن الانتقال السريع الذي أحدثه الاسلام ، رافقته رحمة بالمتقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخاصين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مديرة في مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أو خطة مقررّة كدرست مقدماتها ونتائجها في ملاءمة الزمان صُرّفت في الحساب والتقدير ، وليست الحركات العادية للجماعات في شيء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التي مرت بالانسانية في عهدها الطويل بالوجود ، والانقلابات التي يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التي سبقتها من هذه الناحية .

فصندوق أكبر انتقال في العالم الانساني ، في بيئة لا عهد لها بمنه ، بل ولم تشارك العالم في غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرًا ، ومصاحبًا لأعظم انقلاب أدبي لم يصل اليه النوع الانساني بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطًا بعيد المدى في تغذية الحوادث ، وتغلب تطوراتها ، للوصول الى أبعاد مناسبتها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ، فإذا أُنْجَحْنَا في ذلك أطرنا العالم بمجديد من البحوث لا تقف دعائنه للإسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

#### مواطن التأثير في النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة في الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلي لا معدى عن الخسوع له .

فوطن التأثير بالدعوات هو العقل ، لذلك تهتبه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعاين تناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ، ويفوتهم أهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المتناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجح لأقربها الى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل الى كماله بعد ، فما يقرر حقيقته اليوم ، وهو في درجة من التطور ، يقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما ما كان يقضه من قبل . قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حمله بفطرته من العلم الضروري بمجواز المسكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البديهية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشيء في مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة في جميع أفراد النوع البشري لا تتخلف في بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتعلقها .

فهذا السلطان الفطري للعقل كاف في حمايته من الضلال في أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المواخضة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض ضمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المعقدة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تنسى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فإذا أقام الناس سلطان العقل الفطري ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسموا نفوسهم بالمعائذ الصالة .

#### العوامل التي تمكن بها المضلون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطري بين الناس ، وترتيبهم أممهم الدينية عليه ، استطاع

المضطرون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا في فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهليتهم ، حتى صار مألوفا أن الأمم التي تقع في التحضر الاجتماعي لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضطرون في هدم سلطان العقل الفطري ، باعتادهم على جهل الجماعات التي تبلى بهم ، وبالطائفة بالخيالات والأوهام ، وبالتفرع في إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقتل من رؤساء دينها كل ما يلقنوها إياه من التعاليم وإن جافت حكم العقل ، لأنها حردته في هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل إليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورما ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثالات إلى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جهودها ، نير الدين ، الدين الذي ألقته الأوهام ، لا الدين الفطري الذي أُجبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الاسلام في بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الاسلام في بنيه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنا الطبعيان اللذان تقوم جميع الشئون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الانسان ، يعتره من الجود والنحور ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكمه جعله في دائرة محاولاته يترقى في إدراك أسرارها ، واستشراق أنوارها ، كما يترقى في فهم الوجود الذي يعيش فيه ، وفي تحصيل العلم الذي يتعرفه به ، فأصبح الاسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الانسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشيء إذا وافق عقله وغطرته ، وكان الاسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معا ، وهو ما دل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود اسبانيا الغربية بأوروبا ، إلى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقيا كله ، في نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أمم برمتها قبلته ديننا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث طالى فدي يجب درسه ، وتعرف ما يهدي إليه العلم من عجائبه .

هذا هو السبب الرئيسي في تسارع الناس إلى قبول الاسلام ، وفي شدة تحسكهم به ، وتحمصهم له ، وبذلم المبرج رخيصة في سبيله . ونحن في دراستنا للاسلام من ناحية سرعة تطوره للشخصية الانسانية ، وشدة تأثيره فيها ، فسليرت تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ، والله نسأل أن يجعل السداد رائدا في هذا الموضوع الخطير ، الذي نرجو أن يكون تأثيره عميقا في نفوس القاصدين المتعلمين ؟

محمد فريد وهجرى



## حَيَاتُ رَجُلٍ لَا يَسْتَأْذِنُ

عبد الله بن عمر

- ٢ -

خرجت مدرسة الاسلام الاولى من قادة الفكر ، وزعماء العلماء ورجال العرفان ، كثرة لا نعرف في التاريخ لمدرسة أخرى في أمة من الأمم التي سبقت الأمة الإسلامية أو عاصرتها . وقد كانت تلك الكثرة متفاوتة فيما بينها تفاوت قواها المدركة واستمدادها الفطري ؛ وقد اشتهرت منهم جماعات في جوانب الحياة المتناوحة ، وكان من أشهر هؤلاء عبادة الاسلام ، الذين يرزوا في العلم وتميزوا بالنبل ، يقدمهم عبد الله بن عمر أحد ستة من تلاميذ هذه المدرسة لم يكن في رجال الاسلام أروى للحديث ، ولا أعلم بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وكان عبد الله منذ نعومة أظفاره ذكي الفؤاد ملهما ، لقنا لبقا . روى البخاري في صحيحه عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة لا يستط ورقها وهي مثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ فوق الناس في شجر البادية ، ووقع في نفسي أنها النخلة ، قال عبد الله : فاستحييت ، وفي رواية : فإذا أنا طائر عشرة أنا أحدهم ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فقالوا : يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة . قال عبد الله : لحدثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لي حشر النجم » .

وكان ابن عمر شديد الأحذ لنفسه وتكييفها بما يعلم ، لا يتكاهده في سبيل العمل شيء ، في الصحيحين عنه : « كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاما أعزب أنا في المسجد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في المنام كأن ملكين أحذاني فذهبا بي إلى السار فإذا هي مطوية كطي البئر ، وإذا لها قرنان كقرني البئر ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجلعت أقول : أعوذ بالله من النار ! فلقبهما ملك آخر ، فقال لي : لم ترع ! فقصصتها على حفصة ، فقصصتها حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل ! قال سالم — هو ابن عبد الله بن عمر — فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا » . وفي بعض الروايات « فرأيت في يدي مِرْقَةً من حرير فساهاوى بها إلى مكان

في الجنة إلا طارت بي إليه ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن عند الله رجل صالح . وهذه شهادة عظمى من الصادق المصدوق ، ترفع درجة عند الله إلى ذروة اليقين .

وبحدثنا نافع مولاة : « أنه كان له مهراس فيه ماء ، فيصلي ما قدر له ثم يصير إلى فراشه فيغني إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، ثم يرجع إلى فراشه فيغني إغفاء الطائر ، ثم يشب فيتوضأ ثم يصلي ، يفعل ذلك في الليل أربع مرات أو خمساً . وكان رضى الله عنه يكره من الناس الملق له ، فقد روى « أن رجلاً قال له : لا يزال الناس يخشون ما أتاك الله ١١ فغضب وقال : إني لأحسبك عراقياً ، وما يدريك علام أغلق بابي ١١ » . وكان من أحلم العرب ، حمل رجل يسبه وهو ساكت ، فلما بلغ باب داره التفت إليه فقل : « إني وأخي حاصم لا نسب للناس » . وكانت له في الله تعالى ثقة لا تحده ، فقد روى ميمون بن مهران « أن أصحاب نجدة الحروري مروا بإبل لابن عمر فاستأقوها ، فجاء الراعي فقال : يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل ، وأخبره الخبر ، قال : فكيف تركوك ؟ قال : اتلفت منهم لأنك أحب إليّ منهم ، فاستحلفه لحلف ، فقال : إني أحتسبك معها ما عتقته ، وقيل له بعد ذلك : هل لك في ناقتك الغلابية فأجابه بتابع في السوق ؟ فاراد أن يذهب إليها ، ثم قال : قد كنت احتسبت الإبل فلأني معنى أطلب الناقة » ١٢

وقد روى الله تعالى عبد الله حمرا طويلاً ، فنبه وساد حتى كان شيخ قريش وعالمها ، يرجع إليه في الملهاة ، ولا سيما في أحداث الفتن التي فرقت كلمة المسلمين . وكان شديد التكبر على زعماء الفرق الذين تحدثهم أنفسهم بمس جانب الاحترام والإجلال في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخاري في الصحيح « جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوساً ، فقال : من هؤلاء القوم ؟ قال : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبدالله بن عمر ، قال : يا ابن عمر إني سألتك عن شيء فحدثني عنه : هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم ، فقال : تعلم أنه تقيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ، قال : هل تعلم أنه تقيب عن بيعة الرضوان فلم يشهد ؟ قال : نعم ، قال : الله أكبر ! قال ابن عمر : تعالى أتين لك أما قراره يوم أحد فاشهد أن الله عفا عنه وغفر له ! وأما تقيمه عن بدر فانه كانت تحت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ، وأما تقيمه عن بيعة الرضوان فلم كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمان . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك .

وروى البخاري أيضاً « جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاصر عمله ،

قال : لعل ذاك يسوءك ؟ قال : نعم ، قال : فأرغم الله بأنفك ! ثم سأله عن عليّ فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذاك بينه وأوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لعل ذاك يسوءك ؟ قال : أجل ، قال : فأرغم الله بأنفك ! قال : انطلق فأجهد عليّ جهدك .

وقد كان لعبد الله بن عمر موقف من التراجع الذي مزق وحسدة المسلمين بسبب الخلافة من أبيل المواقف وأسلمها ، استمع فيه الى نصيحة أبيه الفاروق رضي الله عنه : روى الثقات من المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما طعن وأيس من نفسه قال لابنه عبد الله : اذهب الى عائشة وافترها مني السلام ، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع صاحبي ، فأناهاها عبد الله فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ، ثم قالت : يا بني أبلغ عمر سلامي ، وقل له : لا تدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ولا تدعهم بمدك هلالاً فإني أحشى عليهم الفتنة . فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرني أن أستخلف ؟ ثم قال : ما أجده أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، ومتمام ، ثم قال لهم : وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فإن لهما قرابة وأرحو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء ، قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعا فاستخلفه فانا راضون به ، فقال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شيء ! ثم قال : يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها !!

وأخلص عبد الله لموقفه وامتناله نصيحة عمر إخلاصا لم يمثله ، مع الترغيب والإطمان اللذين بسطهما له حزب الزبير وطلحة في خروجهما وإخراجهما أم المؤمنين عائشة ، فانه لما اجتمعت كلمتهم على المسير الى البصرة قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استماله أهواء الناس من أن نفحص عند الله بن عمر ، فأنياه فقالا : يا أبا عبد الرحمن إن أمتنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس فأشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايئنا الناس فأنت أحق بها . فقال ابن عمر : أيها الشيخان أتريدان أن أف تخرجاني من بيتي ، ثم تلقياي بين مغالب ابن أبي طالب ؟ إن الناس إنما يخذعون بالديار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عيانا في عافية أناها 1 فأنصرفا عنه ، ثم غدا مروان بن الحكم الى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلهذه ينيب ، فعاوداه فتكلم طلحة فقال : يا أبا عبد الرحمن إنه والله رب حق ضيمناه وتركناه فلما حصر المذمر قضينا بالحق وأخذنا بالخط ، إن عليا يرى إتقاد بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يسابع له ، وإنا نرى أن زدها شوري ، فإن مرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة ! فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيقت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ، واعلموا أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأتما المدينة خير لكما من البصرة !!

لم يجد عبد الله بن عمر عن هذا المبدأ رغم تقلب الأعاصير ، ورغم توسل زعماء الأشياخ والأحزاب بكل وسيلة الى ضمه اليها لما له من المكانة السامية في نفوس المسلمين ، فان الموقف لم يكدر يستفي بن علي وحزب عائشة ، ويقف معاوية وحبا لوجه أمام علي كرم الله وجهه ، حتى التجأ معاوية الى ابن عمر يطعمه ويرغبه لينضم اليه ، فكان موقفه منه هو موقفه مع طلحة والزبير ، فقد كتب اليه معاوية « أما بعد : فانه لم يكن أحد من قريش أحب الى أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، وإني لست أريد الإمارة عليك ، ولكي أريدها لك ، فان أنت أبيت كانت شورى بين المسلمين » . فكتب اليه عبد الله في رده « أما بعد : فان الرأي الذي أطمعك في هذا هو الذي صيرك الى مصيرك ، وقد حدث أمر لم يكن الينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففرغت الى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت ، فأغن عن نفسك » .

وقد زاد هذا الموقف المسالم من عبد الله بن عمر مكانه في قلوب المسلمين ، وبهذه المكانة وصل عمرو بن العاص الى قلب أبي موسى الأشعري في التحكيم ، فقال له في اجتماعهما : « هل لك أن نخلفكما جميعا ونعمل الأمر لعبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسط في هذه الحرب يدا ولا لسانا ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؟ » فقال أبو موسى : جزاك الله نصيحتك حيرا ! وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله ابن عمر أحدا ، لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانته من أبيه ، ولفضل عبد الله في نفسه . فما بلغ عبد الله ما كان من رأى أبي موسى كتب اليه « أما بعد : يا أبا موسى فانك تقربت إلى بامر لم تعلم هواي فيه ، أكننت نظري أني أبسط يدا الى أمر نهاني عنه عمر ، وأكننت ترائي أتقدم على علي وهو خير مني » ١٢

رحم الله عبد الله ، فقد خلاص نفسه من فتنة حادثة جاحقة ، ونجا منها صفيا ، ومات والمسلمون لا يرون أحدا يعاصره أفضل منه ؟

صديق إبراهيم هرجوري

## آداب الجلوس

من آداب الجلوس أن يجلس الانسان حيث يجد متعاطا له ، وقد كان هذا دأب الكثرة من أهل هذه الملة . أما التضييق على الجالس بقصد التصدر فلا يكسب أهله إلا ضعة .

قال الاحنف بن قيس : ما جلست مجلسا خفت أن أقام منه لغيري .

وقال الشعبي : لأن أدعى من بعيد أحب الي من أن أدفع من قريب .



## عمر بن عبد العزيز

— ٥ —

رأيه فيمن سب الخليفة :

نشأ عمر على قول الحق ، لا يحابي كبيراً ، ولا يحالي عظيم ، ومشاوره سليمان بن عبد الملك يوماً في رجل سبه ، فقال من حوله من الناس : اكتب بضرب عنقه ، وعمر بن عبد العزيز ساكت لا يتكلم ، فقال له سليمان : ما الذي أسكتك يا عمر ؟ فأجاب قائلاً : أما إذ سألتني رأيي فلا أعلم في شرعة من الشرائع أن سبه أحت دم امرئ مسلم كان أو غيره ، إلا سبه بي . فقام من عنده ومنهم عمر ، فقال سليمان : لله بلادك يا عمر ، والله لو فرشتي طبخت في مرقته لالصبحتها .  
بعثه العلماء الى البادية :

أراد عمر أن يثقي أهل البادية تفشئة دينية ، ويعلمهم ما فيه صلاح عالم ديناً ودنياً ، فبعث لهم يزيد بن عبد الملك ، والحارث بن عبد ، ليبينا لهم كتاب الله وسنة رسوله ، وجعل لهم أحرأ على ذلك ، فقبل يزيد ، ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لأخذ على علم علمه الله أجراً ! فلما ذكر ذلك لعمر قال : ما تعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث !  
عطفه على الفقراء :

كان يعطى السائل ولا ينهره ، ويعطف على الفقراء تارة من ماله ، وأخرى من بيت مال المسلمين ، كل هذا لوجه الله ، لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً ، فوفدت عليه امرأة من العراق لها من البنات خمس قد لبسن لباس الجوع والفقير ، فلما وصلت الى باب بيته قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فدخلت المرأة على فاطمة زوجة وهي جالسة في بيتها وفي يدها قطن تمايل ، فسلمت ، فردت عليها فاطمة السلام وأذنت لها في الجلوس ، فجلست وجالت ببصرها في البيت فلم تر شيئاً ذا بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : ما خربه إلا عمارة بيوت أمتائك ! فأقبل عمر حتى دخل الدار فدل الى بئر في ناحيتها ، وانتزع منها دلاء صبها على طين كان يحضره في البيت ، ولم يغض الطرف عن فاطمة ، فقالت لها تلك المرأة : استترى من هذا الطيان فاني أراه يذم النظر اليك ، فقالت : ليس هو بطيان وإنما هو أمير المؤمنين !

فلما انتهى عمر من عمله هذا ، دخل مصلاه فصلى ما شاء الله أن يصلي ، ثم سأل عن المرأة وأخذ يحبوها بعطفه وحنانه ، ويختار لها أطيب ما عنده من عنب كان يملكه ويطعمها إياه ،

فلما استقر بها المقام قال لها : ما حاجتك ، ومن أنت ؟ فقالت : امرأة من العراق لي خمس بنات كُسد ، يفتقرن الأرض ، ويلتحفن بالهواء ، ويضمنن الإحباط على بطونهن من شدة الجوع ، وجنتك أبتنى حسن نظرك إليهن ! فجعل يقول : كُلُّ كُسد ! وأخذ القرطاس والمهبرة وقال لها : سمى كبراهن ، فسمتها ، ففرض لها ، خدمت الله ، ثم قال لها : سمى الثانية والثالثة والرابعة ، فسمتهن ، ففرض لهن ، خدمت الله .

فلما فرض للأربع أخذتها بشوة من الفرح ، واستنفرها السرور فشكرته ودعت له ، فرفع يده ولم يفرض للخامسة ، وقال : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحد أهله ، أما وإنك أوليتيه وأما لست أهله فرى هؤلاء الأربع يفض على الخامسة منهن . وكتب بذلك إلى والى العراق ، وسلمها الكتاب لتعطيه له ، فانطلقت به إليه ، ففضه وقراه ثم بكى وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ! فقالت له المرأة : هل مات ؟ قال لها : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال لها : لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كنهه في شيء ، ثم قضى لها وفرض لبياتها

حالته قبل الخلافة وبمدها :

كان صمر قبل الخلافة من أعظم الأمويين زفها وتعلكا ، غنى بالملك ، ونشأ فيه لا يعرف إلا هو ، يلبس الحرير فيستخشفه ، وينطيب بالدهن فتشع رائحته في أي مكان حل به ، ويروخي ثيابه ، ويمشي مشية التبختر حتى تعلعها الجوارى من حسنها ، وسميتها « العمرية » ، فلما استخلف أفلح عن كل شيء غير مشيته ، فإنه لم يستطع الإقلاع عنها ، لا حمدا منه ، ولكن لتمذر تركها مرة واحدة ، لذلك أمر مزاحما أن يذكره كلما عاد إليها .

حاش عيشة التشف ، وتبذل حتى استنم الصوف واستلله ، فعجب له رباح بن عبيدة ، وكان تاجرا من أهل الصرة يشتري له ما أراد حين كان واليا ، فاشترى له جبة من الخز بعشرة دماير ، فلمسا فاستحشها ، فلما ولي الخلافة اشترى له بأمره جبة من الصوف بدينار ، فلمسا فاستلها ، فقال له رباح . عجبا لك يا أمير المؤمنين تستحش الحرير بالأمس وتستلين الصوف اليوم ! فقال له : هذه حال وتلك حال .

وزهد في الدنيا طلبا للآخرة ، وآثر التميم الدائم على المتاع الزائل ، فكان ينفق كل ماله على المسلمين وفي حوائجهم ، فعاده الناس في مرض موته فلم يحدوا عليه غير قميص مرقع ، فقال مسلمة لأخته فاطمة : أقتنى قميص غير هذا ، فظفر إليه صر وقال : دعها يا مسلمة فلما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذي يرى عليه !

المأثور من كلامه :

يا كرم والمزاح فانه يورث الصغينة وينبت الفل . إذا جاءك الخصم وعينه في كفه ، فلا

تقصر له حتى يحيثك خصمه . من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ما يسرني لو أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . خذوا من الرأي ما قاله من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم ، لأنهم كانوا خيرا منكم وأعلم . الرضا قليل ، والصبر معقل المؤمن . قيدوا النعمة بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب . العفاف الأكبر القناعة وكف الأذى . إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عمل المسكر جهاراً نهائراً فقد استحقوا العقوبة كلهم .

وقال في وصف القاضي : ينبغي أن يجتمع للقاضي خمس خصال : أن يكون مالماً بما قضى به الكتاب والسنة ، سليماً ذا أمانة ، عفيفاً . فإن اجتمع فيه ذلك كان قاضياً ، وإن نقص منهن شيء كان وصفاً فيه .

ودخل عليه رجل يشكو ظلهما فقال له : إنك إن تلقى الله ومظالمك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد انتقمتهما .

وقال : ملاقة الرجال تلقيح لألبابها ، القلوب أوعية السرائر والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ منكم مفتاح ولاء سره . إذا وافق الحق الهوى فهو ألد من الشهد وأحلى . وما وجدت في إمارتي هذه شيئاً ألد من حق وافق هواي .

عمر والغلام :

دخل على عمر في بدء ولايته وفود المهنيين ، فتقدم وفد الحجازيين بين يديه ، ثم قام من بينهم غلام لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأراد أن ينكلم عن قومه فقال له عمر : اجلس أنت وليقم من هو أسن منك . فقال الغلام : أيدك الله يا أمير المؤمنين ! إن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استحق الكلام ، ولو كان الأمر بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا ! فسر عمر من حسن جوابه وفصاحة لسانه ، وأكرمه ، وسمع منه شكاة فتته ، وقضى حوائجهم .

تغور بنى أمية من عدله واجتماعهم اليه :

حينما ولي عمر الخلافة أقبل على رد المظالم إلى أهلها ، فقطع بذلك عن بنى أمية جوارهم ، وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم إلى الطراج ، وأعطى قضاةهم ، فسألت حالتهم ، وتبذل أمنهم خوفاً ، وقرأوا الأمر الذي دفعهم إلى الاجتماع اليه ، ثم قالوا له : إنك قد أجليت بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أيبك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك فملك ، فدعهم وما كانوا يفعلون ، واشتغل أنت وشأنك ، وأعمل بما رأيت . فقال لهم : هذا رأيكم أقولوا : نعم ، قال ولكي لا أرى ذلك ، والله لو ددت أن لا تبقى في الأرض مظلمة

إلا رددتها على شرط ألا أورد مظلة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد أنه ، ثم يعود كما كان حيا ، فإذا لم يبق مظلة إلا رددتها سألت نفسي عندها : أخرجوا من عبده ودخلوا على بعض ولد الوليد وكان كبيرهم وشيخهم ، فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبخه لعله يرجع عن إساءتهم ، فكتب إليه : أما بعد : أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، نقصا لهم وعيبا لأصنامهم ، وشتا لمن كان بعدهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وهدمت بغير الحق في قرابتك ، وهدمت إلى أموال قريش ومواريتهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظمسا وجورا وعدوانا ، فائق الله يا ابن عبد المريز وراقبه ، فإني قد شططت ، لم تظلمني على منبرك حتى خصصت ذوى قرابتك بالظلم والقطيعة ، فوالذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لقد ازددت من الله بعدا في ولايتك هذه التي تزعج أنها بلاء من الله عليك ، وهي كذلك ، فاقصد في بعض ميلك وتعاملك ، اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صبح بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فرد عليه عمر قائلا : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، إليك نفقات جبارا شقيا ، كنت إلى تظلمني وزعمت أني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمساكين وابن السبيل ، إنما أنت كأحدكم ، لك ما لهم وعليك ما عليهم ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله ، الذي استعملك صبيبا سفيا تحكم في دعاء المسلمين وأموالهم برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ، ولم يكن ذلك له ولا حق له فيه ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكره طلابكم وخصماءكم يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لمالية البريوة سهما في المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت شكتك أمك ، أم يابعت بيعة الرضوان فاستوجبت سهام المقاتلين ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرعة بن شريك أعرايبا جلفا جافيا على معسر ، وأذن له في المعارف والبرابيط وشرب الخمر ! وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من ولي يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يبغي المال الحرام ، ويسفك الدم الحرام . رويدك لو قد التفت عليك حلقتا البطان وطالت في حياة ورد الله الحق إلى أهله لتفرغت لك ولاهل بيتك ، فطالما أخذتم بنيات الطريق وتركتم الحق وراهكم ظهريا ، ومما وراء هذا ما أرحو أن يكون حير رأى أبنه بيع رقبته ، فإن لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله . والسلام على من اتبع الهدى . ولا ينال سلام الله الظالمين ١

محمد مصطفى سادى



## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

### التصوير والصور

ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المحترم ( حمزة يوسف أفندي ميجاج ) ببلدة  
هرجيسة - الصومال البريطاني - استفتاء عن حكم الصورة ، أحلال هي أم حرام ؟

#### الجواب

جاء في صحيح البخاري وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أشد الناس عذاباً  
يوم القيامة المصورون » ، وأنه قال : « إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ،  
يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » ، وأن ابن عباس رضى الله عنهما آياه رجل فقال : إني أصور هذه  
الصور فأقتنى فيها ، فقال : ادن مني ، فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال : « محمت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مصور في النار » ، ثم قال : إن كنت لا بد فاعلا فاصنع  
الشجر وما لا نفس فيه » . الى غير ذلك مما صح في النهي عن التصوير واتخاذ الصور من أحاديث  
كثيرة تكاد تبلغ حد الشهرة .

قال الجمهور من العلماء في شرح هذه الأحاديث : إنما عظمت عقوبة المصور ، لأن الصور  
كانت تعبد من دون الله ، وكانت أصنام الجاهلية في العرب تمثال على صور الانسان ، فتكون  
حكمة الله من التصوير راجعة الى الاحتياط في حسد أبواب الشرك ، والمحافظة على عقيدة  
التوحيد ، بتجنب كل ما قد يؤدي الى عبادة غير الله ، ولو في النادر القليل .

وقد أجمع الفقهاء - أخذاً من هذه الأحاديث - على حرمة تصوير الحيوان مجسماً كاملاً ،  
لا نعلم لاحد في ذلك خلافاً ، أما الصور غير الكاملة كالتماثيل النصفية التي لا تمثل إنساناً  
أو حيواناً يستطيع أن يعيش ، فانها ليست من الصور المتوعده عليها بهذه العقوبة الشديدة ،  
ومع ذلك فقد كرهها العلماء واستحسنوا تركها .

وقد استثنى بعض العلماء من الصور المحرمة ، التماثيل الصغيرة التي يتخذها الأطفال لعبة  
لهم ، استناداً لما ورد في صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت ألعب بالبنات  
عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لي صواحب يلعبن معي » . وفي فتح الباري : أخرج  
أبو عروة وغيره عن عائشة قالت : « كنت ألعب بالبنات ، وهن اللعب » . وحكى القاضي عياض  
عن الجمهور أنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن .

وكذلك اتفق العلماء على إباحة تصوير الشجر وما لا تنفس له، لما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما . قال الخطابي : « إنما فرقوا بين ما له روح وما ليس له روح ، لأن الأول من جنس ما كان يعبد من دون الله ، وأما ما ليس له روح فإنه لم يعبد من دون الله » .

أما الصور غير المحصنة التي لا ظل لها : كالصور الفوتوغرافية ، والصور الزيتية ، والصور المنقوشة في الثياب وعلى الجدران ، فهي في مجال النظر عند الفقهاء ، فمنهم من حرمها ، ومنهم من أباحها . وتميل اللجنة إلى الرأي الثاني صلاباً بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من استثناء الصور المرقومة في الثياب من الصور المحرمة ، ولأنه لم يقل أن أمة عبدت صورة مرقومة غير مجسدة .

هذا ، وإذا قيل : « إن المصورين الآن لا يقصدون من التصوير توجيه الناس إلى عبادة الأوثان ، وإنما يقصدون من تماثيلهم أن تكون مظهرًا من مظاهر الفنون الجميلة التي لا يابها الذين ، وفي التماثيل فوق ذلك إحياء لذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم التي تكون مثار الاقتداء بهم والنسج على منوالهم ، وقد ارتقى العقل البشري وصار من المستحيل أن يعتقد في حجر منحوت باليد استحقاته العبادة من دون الله ، فالعاقبة إذن مأمونة ، وعلة التحريم غير قائمة ، وحينئذ يكون التصوير الآن على اختلاف أنواعه مباحاً لا تحريم فيه » .

إذا قيل ذلك ، فجوابه : أن توارث العقيدة بين الأبناء والآباء ، ونسب الأمم بالآدم ، وتأثير البيئة على الإنسان ، كل ذلك قد يطغى على العقل والتفكير ، ويبعد الإنسان عن التفكير الصحيح ، والتمييز بين الحق والباطل ، فلا يصل إلى الدين الحق ، وقد عبدت الأشخاص والأصنام والأرواح حتى في أزهى العصور العلية وأرقاها ، وفي العصور الباصرة من عصور الحضارة والارتقاء ، في وقتنا الحاضر وفي غير وقتنا الحاضر ، فملة التحريم قائمة .

وإذا كان الغرض من التصوير ، كما قيل ، إحياء ذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم ، وبعث النفوس إلى الاقتداء بهم ، وكان هذا الباعث الشريف غاية الناس من هذا العمل ، فإنه قد ينجم عنه بتداول الزمن ما لا تحمد عقباؤه في عقيدة التوحيد . فقد صح عن ابن عباس في أوائل قوم نوح أنه قال : « كان ود وسواع ويغوث ويموق ونسر ، أعماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ومموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتناخس العلم عدت » . أخرجه البخاري وغيره .

وإن الفنون الجميلة لا ينحصر مجالها في التصوير الذي حرمه الإسلام محافظة على عقيدة التوحيد ، وسدا لعبادة الأصنام والأوثان ؛ وكذلك الأسوة بالعظماء لا تتوقف على نحت

تُمَاطِل حجَرة تقام فى الميادين وتُمر عليها السنون والدهور ولا تكون منارا لشيء مما يرجع الى الاسوة والاقتداء ؛ وإن فى العمل الصالح وتدوين تاريخ العاملين والإشادة بذكرهم لأوضح مرشد لمن يريد الاقتداء بهم ، والنصح على منوالهم .

إن تُمَاطِل العظماء التى تقام فى الميادين تقتضى تفقات طائلة لو أنها أنفقت باسم هؤلاء العظماء فى أعمال البر والصدقات الجارية ، لكان ذلك أجدى وأنفع فى تخليد ذكراهم ، واستدراة رحمة الله عليهم فى دار الخلد وجنات النعيم .

واقه الهادى المرفق الى سواء السبيل .

\*\*\*

## محارِب المساجد

ورود الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء عن المحارِب الجوفة فى المساجد ، أهى بدعة منكورة فى الدين ، أم هى أمر مستحسن يمين على معرفة جهة القبلة ؟

### الجواب

إن التجويف الذى أُنْخِذ علامة على القبلة فى المساجد وصماه الناس « محرابا » لا يعدو شأن أية علامة تتخذ للقبلة . وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخشبة علامة عليها ؛ ورأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اتخاذ هذا التجويف علامة على القبلة فى المسجد النبوى الشريف أيام كان واليا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، فى أواخر القرن الأول الهجرى ، ولم ينكر عليه أحد من علماء التابعين ، بل إنهم استحسنوه لأنه عام النفع فى جميع الأشخاص والأوقات ؛ وتتابع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على اتخاذه ليكون علامة على القبلة ؛ ولم ينقل أن أحدا من متقدمى العلماء اعتبر ذلك ابتداعا فى الدين ، أو إحداثا لما ليس منه .

إن الابتداع المذهبى عنه لا يتناول مثل هذا التجويف ، لأنه لم يُتَعَبَّد به الله ، ولكنه جعل وسيلة لمعرفة القبلة التى تُحمل التوجه إليها شرطا فى صحة الصلاة . وإنما يدخل الابتداع فيما يتعبد به : من إحداث عبادة مستقلة ، أو زيادة فى عبادة ، أو تغيير فى كيفية عبادة ، على أن يقصد التعبد بالمستحدث كما يتعبد بأصل المشروع . وهذا هو ما يدل عليه حديث النهى عن الابتداع ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد » ، فإن الإحداث ( فى الدين ) لا يتناول إلا ما استحدث على أنه عبادة أو زيادة فى عبادة كما قلنا . أما وسائل العبادات فإن استحداثها لا يقال له إحداث ( فى الدين ) ، فلا يدخل فى حد الابتداع أصلا ؛ وذلك كنقل الأذان من باب المسجد الى سطحه ثم الى المئذنة ، لا يعد ذلك ابتداعا ،

بل هو من الوسائل التي تحقق الغرض من الأذان في أكل معانيه ؛ وكذلك مدافع الإفطار والإمساك في شهر رمضان ليست ابتداء في الدين ، مادام الغرض منها ضبط الوقت الذي ينتهي به الصوم ، والوقت الذي يبدأ فيه بالصوم ؛ وكذلك اتخاذ منبر الخطابة ذي درج مرتفع لغرض إسماع الناس في المساجد الكبيرة ليس من الابتداء في شيء ، وإن كان مخالفا لمنبر الرسول عليه الصلاة والسلام في مادته وشكله وعدد درجاته .

فهذا أصل يجب أن يتحاكم إليه في معرفة كون المحدث بدعة منهايا عنها أو ليس بدعة . وفي اعتقادنا أن التحاكم إلى هذا الأصل يقرب مسافة الخلف بين الطوائف الإسلامية في كثير من الفروع التي يختلفون في مشروعيتها وعدم مشروعيتها ، ويجملهم ذوى دين واحد ، ووجهة واحدة ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

أما تمعّب كل فريق لموروثه ، وعناده لما سواه ، فهذا شيء ياباه الدين ويمقتة ، ويصور المسلمين بصورة أرباب الأديان المختلفة ، وبصورة الجاهلين بدينهم هذه الأجيال المتعاقبة .

ورب قائل يقول : كيف ترون اتخاذ المحاريب مباحا وليس بدعة ، وقد روى البيهقي في سننه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا هذه المذاهب » ، وفسرها البيهقي بالمحاريب ؟

وجوابه : أن هذا الحديث قد ضُمتف بعض رجاله . على أن انتهى فيه موجه إلى اتخاذ المسلمين مذاهب في مساجدهم كذناج النصارى ؛ وقد صرح بذلك في حديث موسى الجهني ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذاهب كذناج النصارى » . فاللهي لا يتناول التحوييف الذي يسميه الناس الآن محاربا ، لأنه يخالف المذهب في ذاته ، وشكله ، والغرض منه ، كما يعرف بالمقارنة بينهما .

وحاشا لعمر بن عبد العزيز ، الرجل الفقيه التي الورع ، أن يعمد إلى مسجد الرسول الكريم ومهبط الوحي الأمين ، فيحدث فيه مذبحا كذناج النصارى في كنائسهم ! وحاشا لعلماء المدينة أن يقرروه على هذا المنكر الشنيع ! وحاشا لأئمة المذاهب المجتهدين من بعدهم أن يسكتوا على هذا الحدث العظيم ، بله أن يعتمدوه في مذاهبهم فيستبروا محاريب المسلمين مرتبة مقدمة في العلم بحجة القبلة على مرتبة الاجتهاد والتحرى !

نعم قد أطلق لفظ البدعة في كثير من كتب الحديث والفقه على كل ما لم يكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وعلى هذا الإطلاق قسم بعض الفقهاء البدعة إلى بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . والغرض هو ما أشرنا إليه من أن ما استحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يرجع إلى إحداث عبادة ، أو زيادة في عبادة ، أو تغيير في كيفية عبادة ، فهو بدعة سيئة ، لأنه يرجع إلى التعبد بما لم يأذن به الله . أما إحداث أمور أخرى لم تكن على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن من هذا القبيل ، بل كانت من قبيل الوسائل التي تساعد على أداء العبادة ، فهو بدعة حسنة ، وعلى هذا التوجيه يحمل ما ورد في كتب الفقه من أن إحداء المحارب بدعة :

وإمد : فإلى كل الطوائف والجماعات التي تحارب البدع وتحرم على خدمة الاسلام ونشر تعاليمه ، توجه هذه النصيحة .

يا قوم ! دعوا هذه النواهي التي لا تفيد إلا أن تثير الفتنة ، وتزيد في عوامل الفرقة بين المسلمين ، وتعمل بعضهم حرباً على بعض .

دعوا المحارب — وقصارى أمرها في نظركم أنها فرع من الفروع الخلافية في المذاهب الاسلامية — واعمدوا الى المنكرات المجمع على إسكارها ، وحاربوها بكل ما استطعتم من قوة ، وهالك محمد لكم المسلمون جهادكم ، ولا يضيع عند الله جزؤكم .

وفقنا الله وإياكم لخدمة الاسلام والمسلمين ؟  
رئيس لجنة الفتوى  
محمد عبد اللطيف النحام

## اتخاذ الأصدقاء

قال محمود الوراق الشاعر :

نكسر من الأخوان ما استطعت إهم صناد إذا استنجدتهم وظم-ور  
فما بكثير ألف خذل وصاحب وإف عدوا واحدا لكثير  
قبل لابن المقفع : أصدقك أحب إليك أم نسيبك ؟ فقال : إنما أحب النسيب إذا كان صديقا ، والصديق نسيب الروح .

وإلى هذا المعنى أشار شاعر فقال :

نسيبك من ناست بالود قلبه وجارك من صافينه لا المصائب

المصائب : المجاور ، من صرقت الدار أي قربت .

وقد بالغ بعض الأدباء فقال : الأخ الصالح خير لك من نفسك ، لأن النفس قد تأمر بسوء ، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير .

وقال المأمون : الأخوان ثلاثة : أخ كالغذاء يحتاج إليه في كل وقت ، وأخ كاللواء يحتاج إليه أحيانا ، وأخ كالداء لا يحتاج إليه أبدا .

وقال عمر بن الخطاب : احذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله

## الكلام والمتكلمون

- ٣ -

### المعتزلة

تتمة الحديث عن مفارصهم :

وفي أصفهان أنشأ أبو بكر محمد بن إبراهيم الزبيرى ، وهو من أنصار أبي الهذيل ، دعاية للاعتزال ، وقد توفي في القرن الرابع .

وفي القرن الرابع نشأت دمايات لمختلف المذاهب الاعتزالية في مدن : قريسين ، وجرجان ، ونيسابور ، وغيرها ، وكل هذه المذاهب تعتبر فروما للمدرسة البغدادية العامة . وفي القرن الخامس بدأت المذاهب الاعتزالية تندمج في الزيدية . ويعتبر الرنخبرى المتوفى في سنة ٥٣٨ هـ - سنة ٩٤٣ م أشهر زعماء متأخري المعتزلة في القرنين : الخامس والسادس ، ولكن اندماج هذه المذاهب في الزيدية لم يقض عليها ، بل ظلت حية الى عهد الاجتياح المغولى .

وفي مصر كان إبراهيم بن إسماعيل الملقب بابن عليّة ، الذى رأيناه في البصرة خصما لمدرسة العلّاف ، والمتوفى في سنة ٢١٨ هـ - سنة ٨٣٣ م ، أول المعتزلة ، إذ أسس مدرسته في أوائل القرن الثالث ، وتبعه فيها حفص الفرد ، الذى ظل ممثلا للأراء الدينية الرسمية في الدولة طول مدة محنة الوائى ، غير أن الخياط أعلن فسوقه وخروجه على الشريعة .

وفي الأندلس كان أبو بكر فرج القرطبى أول من نشر المبادئ الاعتزالية ، وذلك بعد أن ارتحل الى الشرق وتلقى العلم على الجاحظ . وإذا ، فالمبادئ التى أذاعها فى الأندلس هى المبادئ الجاحظية ، أو بمباراة أدق : النظامية محوكة بعض الشيء ، ولكن هذه المبادئ لم تلبث أن امتزجت فى تلك الأصقاع بالباطنية ، وغالطتها عناصر أجنبية خطيرة لم تحظر لأصحابها الأولين ببال (١) .

### لمحة من أشهر زعماء المعتزلة

واصل بن عطاء :

هو أبو حذيفة الغزال واصل بن عطاء ، وقد ولد في المدينة في سنة ٨٠ هـ - سنة ٦٩٩ م ،

(١) النظر صفحة ٨٤١ وما بعدها من المجلد الثالث من دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية .

وكان من موالى بنى مخزوم أو بنى ضبة ثم أعتق . وعلى أثر تحرره سافر الى البصرة فالتحق بمدرسة الحسن البصرى ، وإذ ذاك اتصل بهم بن صفوان ، وبشار بن برد الذى كان كثيرا ما يسخر من طول عنقه ، فيقول : إن واصلا يحمل رأسه فوق عنق زرافة . ولكن صلته بهؤلاء الرجال الثلاثة لم تلبث أن فترت ثم انقطعت .

كان واصل حسن الخلق ، نزيها محسنا ، حق إنه - لفرط إحسانه على الفزالات الفقيرات - لقب بالفرزال . وكان زاهدا فى المال فلا يتقاضى منه إلا ما هو من حقه ، وكان فصيحاً قادراً على امتلاك ناصية الكلام الى حد أنه - للثقة فى حرف الرأى - قد استطاع أن يتجنب هذا الحرف فى خطبه ودروسه ، بل فى محادثاته العادية ؛ وقد كان تلميذاً للحسن البصرى الى أن وقع بينهما الخلاف فى مسألة « الميزة بين الميزتين » فافترقا كما أسلفنا . وأخيراً توفى فى سنة مائة وإحدى وثلاثين للهجرة - سبعمائة ومئتان وأربعين ميلادية .

ويعتبر واصل المؤسس الأول لفرق المعتزلة ، وإن كان معبد الجهنى ، وعطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى وأنصارهم قد سبقوه الى مبدأ حرية الفرد . كان السبب الذى تفرع واصل بأنه هو الذى دفعه الى الاعتزال ، هو تنزيه الإله عن جميع شوائب الظلم والعجز والتعدد . فلكى ينقضى شائبة الظلم قال بقدرة الفرد على جميع أفعاله ، لتتحدد مسئوليته ، فتتحقق العدالة بمقابله وثوابه .

ولكى ينقضى شائبة العجز عن الإله قال بأنه قدر الشرور المادية كالأمراض والآلام والموت ، ولكنه لم يقدر الشرور الأخلاقية ، لأنه فى الحيلة الأخيرة يكون قد قدر ما يكرهه ، ولا يعمل ذلك إلا العاجز .

ولكى ينقضى شائبة التعدد ، قال بنى جميع الصفات ، لأن ثبوتها يتنافى مع الوحدانية ، كما سنبحث ذلك حين تناول المذهب العام للمعتزلة .

لم تكن مدرسة واصل أولى مدارس المعتزلة لحسب ، بل كانت أهم المدارس التى ظهرت فى عصر ما قبل الترجمة الى الإطلاق ؛ وقد ظلت مستمعة بالحياة والانصار الى أن خففت حركة الاعتزال فى عهد المدرسة الأشعرية .

صمرو بن عبيد :

هو أبو عثمان صمرو بن عبيد بن رباب ، وهو مولى بنى تميم ، وكان جده رباب من سبي كابل من رجال السند ، ولا يعرف تاريخ مولده بالضبط ، وإنما كل ما عرف من هذا التاريخ هو أنه كان معاصراً لواصل بن عطاء ، وأنه توفى فى سنة ١٤٤ هـ ، وأنه كان بمد وعاة واصل شيخاً للمعتزلة ، وأن له خطباً ورسائل لها قيمتها ، وأنه قد بلغ من الصراحة والزهادة وعزة النفس والتبذل حداً لا يكاد يوجد لدى معاصريه جميعاً . ومن دلائل ذلك أنه مثل يوماً بين يدي أبى جعفر المنصور ،

فقال له الخليفة : عطني، فوعظته ، فأمر له بمشرة آلاف ، فقال : لا حاجة لي فيها . فقال أبو جعفر : والله لتأخذنها ! قال : لا ، والله لا آخذها ! وكان المهدي حاضرا فقال يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ قالت صمرو الى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد بنى ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي . قال - أما والله لقد ألبسته لباسا ماهو من لباس الأبرار ، ولقد سميت به باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمنع ما يكون عنه اثم أقبل صمرو على المهدي فقال : نعم يا بن أحمى ، إذا حلف أبوك أحسنه صمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من صمك ! فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهى ؟ قال : ألا تبعث الى حتى آتيك . قال : إذا لا نلتقى . قال : هى حاجتى ! فضى وأتبعه المنصور بطرفه ثم قال :

« كلكم يمضى رويد \* كلكم يطلب صيد \* غير صمرو بن عبيد » !

وقد دخل على المنصور بعد ما بايع للمهدي فقال له : عطني يا صمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فأشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى فى يدك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فأحذر ليلة تمحض بيوم لا ليلة بعده ! أما مذهبه ، فهو يشبه مذهب واصل فى النظريات الفلسفية ، ولا يختلف عنه إلا فى مبدئه السياسى الذى يقضى بتفسيق الفرقين المتحاربين من المسلمين .

#### أبو هذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل العلاف ، ولد فى البصرة فى سنة ١٣٥ هـ - سنة ٧٥٣ م ، وكان من موالى بنى عبد القيس . ولما شب تلقى العلم فى بغداد على عثمان بن خالد الطويل أحد تلاميذ واصل بن عطاء ، وكان فى زمانه شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها ؛ وكان من أشهر أهل زمانه فى القدرة على الجدل . وقد حدثنا المؤرخون أنه لم يكذب يستقر فى بغداد حتى بلغت شهرته مسمع المأمون ، فقربه من مجلسه ، وجعل يثير بينه وبين خصومه وأنصاره مناظرات علمية جدية ، وكذلك طالما كان الجدل يشتمل بينه وبين هشام بن الحكم زعيم الروافض فى ذلك الحين . وقد اعتبر العلماء أبا الهذيل أول منشئ الاعتزال الفلسفى المؤسس على الاطلاع الواسع . وأخيرا توفى أبو الهذيل فى سنة ٢٢٦ هـ - سنة ٨٤٠ م ، أو فى سنة ٢٣٥ هـ - سنة ٨٤٩ م أى عن إحدى وتسعين سنة فيما يرى الأول ، ومائة سنة فيما يرى الثانى . وقد رجع الأستاذ كارادى فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية الرأى الأول .

كتب أبو الهذيل كثيرا من المؤلفات ، ولكنها فقدت جميعها . وكل ما وصل إلينا من آرائه هو نقول عن تلاميذه وخصومه وعن المؤرخين المحايدين .

غير أن ما وصل إلينا من هذه الآراء يدلنا دلالة واضحة على أن المترجمات الاغريقية كانت



قد بدأت تعمل عملها في البيئات العربية ، إذ لا يكاد الباحث يتأمل في آراء أبي الهذيل حتى يقين له أنها قد غذيت بعاصر جديدة لا عهد للقراء بها ، فهو مثلاً يعتقد الرأي القديم القائل بنى الصفات بتاتا ، بل قال بأن البارئ عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرته ، وقدرته ذاته ، وهلم جرا . وقد تأثر في هذا الرأي بقول الفلاسفة : إن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته ، وترجع الى السلوب أو اللوازم . وقد علق الشهرستاني على هذا الرأي بقوله : « والفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم ، هو ذاته ، أن الأول نفي الصفة ، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هي بعينها ذات . وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهي بعينها أرقام التنصاري أو أحوال أبي هاشم (١) . »

وهذه الصلة التي يعقدها الشهرستاني بين وحوه أبي الهذيل وأحوال أبي هاشم ، وبين أرقام المسيحيين ، لها وجهتها فيما أرى ، على الرغم من أن الأستاذ كارادي قوي يقول : إنه لا يرتضي هذا التشبيه . ولو أنه علق نقده للشهرستاني لماقتنائه فيه ، ولكنه قد ساقه على عواهنه . أما نحن فبرهاننا على صحة التشبيه ما أثبتناه حين عرضنا لدرس الفلسفة المسيحية من أوصاف للأرقام تشبه كثيرا وحوه أبي الهذيل وأحوال أبي هاشم ، فليرجع اليها الباحث في مواضعها . ومن أبرز آرائه التي تأثر فيها بالفلسفة الاغريقية قوله : « إنني لا أقول بمحركة لا أول لها ولا آخر ، ولكنني أقول بسابقة السكون على الحركة وتلوه إياها ، وبأن بدء الخلق هو بدء هذه الحركة ، ونهايته نهايتها . وهذا تصور من بعض الوجوه للنظرية الاغريقية التي ترجع الى الحركة إبراز كوامن الميولي الأزلية وتسييرها من القوة الى الفعل ، وتوليد الشخصيات المختبئة في المنحركات ، وإنما نقول : من بعض الوجوه ، لأن النظرية الاغريقية تصرح بأزلية الحركة وأبديتها على عكس رأي أبي الهذيل . »

ومن هذه الآراء أيضا تقسيمه الكلام الإلهي الى قسمين : الأول لا في محل ، وهو ما يتعلق بالخلق والإيجاد ، فإن قول البارئ : ليكن كذا ، ليس في محل ، لعدم وجود المحل إذ ذاك . والقسم الثاني في محل ، وهو ما يتعلق بالامر والنهي .

ومنها كذلك قوله : « بأن المقتول لا يموت بأجله ، وإنما قبله . وقوله : « بأن المقتول من أهل الفترة غير ناجين ، لأن العقل الدائم هو وحده مناط التكليف . »

هذا ، وله نظريات أخرى غير مذكرونا ، ولكننا نكتفي بهذا القدر ؟

(١) انظر صفحة ٩٦ جزء أول من الشهرستاني .

الدكتور محمد قطب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

## تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

تمهيد:

لا شك أن اللغة العربية قد دخلت ، بإشراق شمس الاسلام ، في عهد جديد كله خير وبركة . ولا شك أن الفكر الانساني ، والعقل العلمي ، قد وحدا في الاسلام غذاء جيدا لا يفتنى ، ومادة غزيرة لا تنفد .

فأما اللغة العربية ، فقد نزل بها القرآن الكريم ، فسمعت بسموه ، وخلدت بخلوده ، وترقت ألقاها وعباراتها عجاكاة البلاء إياه ، واقتباسهم منه ، وزال ما كان بها من جفوة وغلظة ، فأصبحت بيضاء نقية ، لا ليس فيها ولا إبهام ، ولا عيب مما يعترى الكلام .

ثم رفعت بما أحدثه القرآن والحديث فيها من علوم وقنون ، وانتشرت بانتشارها فيما فتح الله على المسلمين من أمصار ، واستعلت على سائر اللغات في مواعظها ، وأصبحت لغة قوم ذوي عز وسيادة ، ومدنية وملك ، كما أصبحت لغة علوم وفنون ، وتدوين وتصنيف .

وأما الأفكار والعقول ، فقد وجدت في الاسلام ديناً رحب الصدر ، واسع الاحتمال ، لا يهاب العقل ، ولا يصادم العلم .

وضعت قواعد الاسلام وقضاياه من أول يوم بين يدي العقل ، وطرحت على بساط العلم والنسج ، فجاءت تفحصها العقول ، وتصهرها مراحل العلوم ، وتبلورها التحارب ، وهي ترفع رأسها رويدارويدا في ثقة وإيمان ، لا تخشى أن تخفضه الأيام وفي الناس عقول ، وفي الدنيا أنصاف .

ثم ظلت فسوق ذروتها العليا ، تمجدجها الابصار حيناً ، وتكمل عنها حيناً ، وهي في كل حال يلمت منها نور الحق ، وينشق منها شعاع الهدى .

ومرت عصور ، وتوالت دول ، وتولت ملوك ، وأقيمت نظم ثم بدلت ، واشتجر صراع عنيف بين العلوم ، والادبان ، واللغات . فإذا كان حظ الاسلام في لغته وعلومه ، من هذا الصراع العنيف ؟ وبماذا خرج من هذه المعارك المختلفة الألوان والأغراض ؟

إنه خرج منها مستصراً مرفوع الرأس ، يحمل بإحدى يديه عقيدته سليمة طاهرة ، نقية صافية ، ويحمل بالأخرى علومه ولغته وتاريخه !

لو أن أحداً مثل له تاريخ الإسلام العلمي، فوقف بحيث يستعرضه، وتقر عليه جيوشه، وتجري أمامه كتابته، لرأى ما يعلو النفس روعة وجلالا، وما يعمر القلب يقينا وإيمانا .  
فهذه كنوز ثمينة، في التأليف والتصنيف، ورثناها عن آباءنا وجدودنا .  
كنوز في اللغة : متونها، وآدابها، وشعرها، ونثرها، ونحوها وصرفها، واشتقاقها، ومعانيها، وبياناتها، وبيدتها، وسائر فنونها .

وكنوز في علوم القرآن : تفسيره وتأويله، ومجازه، وأسباب نزوله، وطرق الاستنباط منه، وهداياته، ومبادئه في الإصلاح وبناء الأمم، وأسلوبه في التربية والتشريع .  
أمرا لا تحصى : ففقيه فيها نظر، وللأديب نظر، وللغوي نظر، ولصاحب النحو نظر .  
وفي دائرتها يعمل المصلح، والمربي، والمرشد، ورجل الدين، ورجل القانون .  
وكنوز في علوم السنة : من رواية ودراية، وتجريح وتعديل، وناسخ ومنسوخ، ومذاهب فقه، وأصول أحكام، وتاريخ رجال . وغير ذلك من علوم وفنون .  
هذه صفحة من تاريخ الإسلام العلمي، كتبها أبطاله الأولون، وسار على سنتهم أبائهم وأحفادهم، إلى هذا العصر الذي نعيش فيه .

وهذه قافلة العلم مازالت تسير، لا تقف عند حد، ولا تعرف الركود ولا الجود .  
ونحن - أساء هذا العصر - من حقنا، بل من واجبنا أن نسير في هذا الركب كما سار الذين من قبلنا، وأن يضم كل منا لبنة في هذا البناء الشامخ الذي شيده آباؤنا .  
ومن الخير أن يعيد القادرون منا إلى استكشاف النواحي التي مازال بها شيء من الغموض، وارتداد المواطن التي تحتاج إلى التمهيد والتعبيد، فقد طال ما حرينا في السهل، ونحلبنا عن الوعر، وكثر ما آثرنا المنال القريب، على المنال البعيد ١١

إن العلم لا يعرف الترفه ولا النعم، وإنما يسلس جاحجه، وينال صعبه، بالتقصي والتغفن .  
وإني أضرب لهذا مثلا قريبا حاضرا : لماذا لم يبن أحد من المؤتمين أو الكتاب في عصرنا الحاضر العناية الواجبة بتاريخ الحركات العلمية والفنية والأدبية في مصر خاصة ؟  
إننا إذا أردنا أن نقف على تاريخ هذه الحركات في مصر، اضطررنا إلى الرحلة إلى بلاد غير البلاد، لا أقصد الرحلة الحقيقية التي هي سفر وغتاراب، وإنما أريد الرحلة إلى الكتب العامة، التي لم تنقيد سله دون بلد، وإنما تتحدث عن الآداب والعلوم في البلاد جميعا بوجه عام .

قلما نجد كتابا يجمع بين دفتيه الحديث عن الآداب المصرية قديمه وحديثه، ويخصص أبوابه وفصوله لهذا الموضوع تخصصا . فإذا أردت أن تقف على هذه الناحية فإليك لابد راحل

الى الكتب العامة ، التي تموز الحديث عن الأدب مختاطا من غير تمييز ، فتجمع أدب الحجاز الى أدب الشام ، الى أدب العراق ، وربما عرجت على الأدب المصري فسته مسا رقيقا رفيقا ، لا أثر فيه لدراسة أو تمحيص ، ولا لتعمق أو استيعاب ، عندئذ ترى جملا متفرقة ، ونثما مبعثرة ، لا تقوم بها شخصية مستقلة ، ولا تنأف منها صورة واضحة ، وتكون النتيجة أنك تعود من هذه الرحلة كما بدأت ، خالي اليدين مما أردت !!

وقل مثل هذا عن النحو والنحو ، فلا شك أنه كان لمصر نحو ، كما كان لها أدب ، ولا شك أنه كان في مصر نحاة ، كما كان فيها أدباء وشعراء ، ولا شك أنه كان لوطلاء النحاة طرق تنفق أحيانا مع طرق غيرهم ، ومختلف أحيانا ، وأن هذا الاختلاف تارة يكون يسيرا هادئا ، وتارة يكون عنيفا شديدا ، ولكن ، هل تستطيع أن ترسم للنحو صورة مصرية واضحة ؟ وهل تستطيع أن تجمع من النحاة المصريين هيئة مستقلة متميزة ؟

لا ! وأنت مضطر أيضا الى الرحلة الى كتب النحو العامة ، لتقرأ ، من حيث يحلو لك أو لا يحلو ، الأحاديث الطوال عن نحو البصرة ، ونحو الكوفة ، ونحو البصرة ، ونحو الكوفة . فإذا عثرت على شيء من الحديث عن المصريين ، ونحو المصريين ، وجدته بجملا مقتضبا مشتمتا ، وحينئذ تعود مسرعا من حيث أتيت ، خالي اليدين مما أردت !

وتعال معي الى الفقه ، وتاريخ الفقه ، أو كما يقولون عنه « تاريخ التشريع » : أكان في مصر فقهاء ؟ أكان لهم فقه ؟ أكان لهم رواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ما لون هذا الفقه في عصوره المختلفة من عهد الفتح الى اليوم ؟ وما هذه الرواية ؟ وما مدى انتفاعهم بها ؟

ارجع الى الكتب المؤلفة في « تاريخ الفقه » . ارجع الى الكتب التي تتحدث عن أصول الفقه ، وتذكر الأسس التي بنى عليها الأئمة والفقهاء مذاهبهم . ارجع الى كتب التاريخ العام ، ارجع الى كتب المذاهب المختلفة التي تتحدث عن فقه أصحابها وتجميع رأى الحجازي والعراقي والشامي والمصري والمغربي ، لا تفرق بين أحد منهم ، ولا تعني بتبيين وجهات أنظارهم .

ارجع الى ذلك كله ، وارحل اليه ، ولنظل رحلتك كما تحب أن تطول ، ثم حدثني : هل عدت في هذه المرة من رحلتك مملوء اليدين ؟ وهل استطعت أن ترى للفقه المصري صورة واضحة ، وأن تثبين ملامح هذه الصورة ثابتة غير مهتزة ولا متارجحة ؟ وهل استطعت أن تحلق بفكرك في جو من الفقه الاسلامي له طابع مصر ، وفيه روح مصر ؟ وهل استطعت أن تصل روحك بروح فقيه مصري خالص أو غير خالص ، تهتدي الى نفسه وعقله ، وثقافته ، وطريقة تفكيره ؟ لا بد من « لا » .

هذه نواحي نقص من غير شك ، ولكننا مع ذلك لنصرف النظر عنها ، وترى مؤلفنا أو كاتبها يرضى منها فرارا ، لأنه يؤثر الراحة ، والطمأنينة ، ويكره أن يقاوم راحته بحث حقيق ، ويعكر صفوه نظر دقيق ، ويرى أنه لا بأس عليه إذا ترك الورد لما حوله من أشواك !!

يجب أن يتقدم أصحاب الأدب لتلافى هذا النقص من الناحية الأدبية ، فيقوم منهم من يورخ أدبنا المصري العربي ، ويحرص على أن يعطى قراءه فكرة واضحة عنه ، وعن أدبائه وشعرائه ، وعن جهود المحملاته وارتقائه .

يجب أن يكون لنا شأن غير هذا الشأن ، وأن تكون لنا مهمة أعلى من هذه المهمة .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بالنحو بمثل ذلك في ناحيتهم ، فيدرسوا النحو المصري العربي ويورخوا رجاله ، ويدلوا على ما عسى أن يكون لهم من آثار علمية أو عملية في هذا العلم العظيم .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بتاريخ الفقه غير هباين ولا وجلين ، فيزاملوا الفقه الاسلامي من عهد الفتح الى اليوم ، ويبينوا كيف كان شأنه في مصر ، ويمطوا صورة ضمن اشتركوا في فتح البلاد من محابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن جأه بعدم من التابعين والفقهاء ، وماذا كان نصيب مصر من المذاهب الفقهية ، وما شأن القضاء فيها ، وهل كان لها فقه (في حدود الشريعة) يمتاز عن فقه غيرها من الأمصار ؟ والى أي مدى كانت تتأثر بفقه الحجاز والمراق مثلا ؟ والى أي مدى كانت تأخذ بالرأي أو تعمل بالحديث ؟

عليهم أن يقتلوا مع هذا التاريخ مرحلة بعد مرحلة حتى تنتهي بهم الرحلة الى عصرنا ، وينظروا فيما عليه اليوم فقها .

هذا اقتراح أعرضه على الأدباء والعلماء راجيا أن يصادف منهم قبولا .

ولعلنا بذلك نخدم التاريخ العلمي لمصر ، كما نخدم تاريخها السياسي قديما وحديثا .

وإني أقدم للمساهمة في هذا العمل ، وأخذ على طائفي نصيبا من عبئه ، وأرجو أن يوفقني الله الى الحديث عن « تاريخ الفقه الاسلامي في مصر » في مقالات متتامة ، ابتداء من العدد القادم ، وبالله أسئمن ، وهو حسبي ونعم الوكيل ما

محمد محمد المرنى

المدرس بكلية الشريعة

## الورع والمال

ترك عبد الله بن المبارك دنانير وقال : اللهم إني لم أجمعها ، ولا أصون بها حسبي وديني . وقال ابن عيينة : من كان له مال فليصلحه ، فإنكم في زمان من احتاج فيه الى الناس كان أول ما ينفقه دينه .

# فني الأدب العربي

## نظرات في الأدب العربي

جاهليته وإسلاميته

- ٢ -

جناية الأدب الجاهل على الأدب العربي

ظهر هذا البحث في الربيع الماضي ، ونشرت لنا مجلة الرسالة فيه كلمة ، تحت عنوان :  
« بين جناية الأدب الجاهل والجناية عليه » كانت على هامش الموضوع ، ولم تكن في صميمه ،  
ولا يخامرني ريب في أنها كانت واضحة أو قريبة من الموضوع ، في معناها المراد ، بدرجة  
تغني عن الشرح والتوجيه .

وأمير هذا البحث ، رجل قوى الخلق ، متين الدين ، معروف التاريخ ، يحميه صياح  
من تربيته ، وعقله ، واتزانه ، أن ينفذ الشك إلى نيته ، أو يستراب في نجل الغاية التي رمى  
إليها . ولعل من الخير أن أشير هنا ، إلى أنه ليس أحقر على آرائنا - معاصر الأزهرين -  
من أن نقرع فيها عن قوس طامقتنا الحادة ، التي ركبناها في طبيعتنا تلك البيئة الدينية الغالية ،  
التي لا يمكن حمل فصلها على الناس ، فليس أكل لرجل الدين من سعة الصدر ، واصطناع  
الآراء ، وتقليب الرأي على وجوهه ، قبل إصدار الحكم فيه . وإن خيرا للدين ألف مرة  
ومرة ، أن أجمع عليه البر والمصير ، من أن أفرق عنه كل من قصر به عمله عن أن يكون  
من كبار الصالحين ، ومن يدرى ؟ فقد يكون لمن أذوده عن الدين باسم الدين ، وجهة نظر  
هي أشبه بحقيقة الدين من وجهة نظري ، وبخاصة من تربى تربيتي ، وتكتمل بما حرمتني  
الاعتدال بعضه أو كله . أنا رجل رجعي ، يعرف خلطائي جميعا ، أنني أرى الدين والأزهر  
بمخير ، ما بقيت فينا طائفة تمثل الجود الديني بأتم معانيه ، حتى تردنا إلى الحد الوسط ، أمام  
طغيان الحضارة الغربية الفاتنة الرهيب ، ولكنني أريدها لحفظ التوازن ، لا للحرمان ، ونحن  
في طور انتقال .

لم يكن لهذا البحث من خطر الشأن ، بعض ما كان لبحث « الشعر الجاهلي » ، ولعله كان  
يمر على القراء في عناية معتادة أو فوق المعتادة بقليل ، لو لم تُسح به فرصة خصم مُمكول ،

اتَّهَبَتْهَا ، فَتَمَرَّهَا فَمَا أُحْدَى عَلَى شَيْعِ الْبَحْثِ مِنْ جِهَةٍ ، وَعَلَى إِظْهَارِ بَرَاءَتِهِ هُوَ فِي تَشْقِيقِ الْكَلَامِ ، وَلِصَرِّهِ فَنُتُونِ الْأَدَبِ ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِسْتِطْرَادِ ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَصَرَدَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْبَحْثَيْنِ ، إِلَى أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ لَا اتِّصَالَ لَهُ بِالْدِّينِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةٍ غَيْرِ مَقْصُودَةٍ ، كَمَا سَتَعْرِفُ ؛ ثُمَّ إِلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْبَاحِثَيْنِ ؛ فَهَذَا بَاحِثٌ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ الرِّعَاةُ الْعِلْمِيَّةُ ، وَذَلِكَ بَاحِثٌ أَدِيبٌ ؛ وَالْمَوْضُوعُ مِنْ مَوْضُوعَاتِ الْأَدَبِ ، يَقُومُهُ الْقُدُوقُ الْأَدَبِيُّ ، أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَقُومُهُ النَّظَرُ الْعِلْمِيُّ . وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرِيدُ الشُّعْرَاءَ عَلَى أَنْ يَتَّخِذُوا عَلَى حُكْمِ الْعَقْلِ وَالْوَاجِبِ غَيْرَ الْعُلَمَاءِ ؟ فَتَمَّا الْأَدِيبُ ، فَانْهَمَ أَرْقَى أَكْبَادًا مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ رَمَوْا الشُّعْرَاءَ حُرِيَّةَ التَّحَلُّقِ فِي آفَاقِ الْخَيَالِ . وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْبَحْثِ قَدْ أَرَادَ بِهِ رِيَاضَةً نَفْسَهُ بِحَمْلِهَا عَلَى مَا تَأْتِي ، وَرِيَاضَةً قَلَمَهُ بِاجْتِرَائِهِ فِيمَا يَمَارِضُ هَوَاهُ ؛ أَوْ أَنَّهُ — وَقَدْ جَدَّدَ فِي زَيْهِ — ظَنُّهُ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ كَذَلِكَ أَنْ يَجِدَّدَ فِي آرَائِهِ ، فَأَتَتْ عَلَيْهِ الْإِثْلَاقَةُ الْأَزْهَرِيَّةُ الْمَحَافِظَةُ ، الَّتِي تَبْدُو مِنْ تَخَلُّلِ نُحْلَتِهِ الْفَرَسِ نَجِيَّةً ، أَنْ يَنَالُ كَبِيرَ حِفْظٍ مِنَ النُّجَاحِ ؛ وَقَدْ يَمُحَا قِيلُ :

يَرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسِيَاكُمْ وَتَأْتِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّافِلِ

تَرْجِعُ أَهْمِيَّةُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ فِي نَظَرِ كُلِّ عَرَبِيٍّ بِخَاصَّةٍ ، وَفِي نَظَرِ كُلِّ مُسْلِمٍ بِعَامَّةٍ ، إِلَى أَمْرَيْنِ أَاسَاسِيَيْنِ ؛ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا ، فَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُ خُجِيِّ الْإِسْلَامِ نَفْسَهُ ج ١ ص ٣١١ بِقَوْلِهِ :

« وَوَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَلْعَاطُ لُغَوِيَّةٌ ، فَضَرَبُوا أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى الْبَادِيَةِ ، يَسْتَفْسِرُونَ عَنْ لَفْظٍ ، أَوْ يَقْتَفُونَ عَلَى تَعْيِيرٍ ؛ وَدَهَامَ ذَلِكَ إِلَى حِفْظِ الْأَشْعَارِ ، فَقَبِيهَا أحيانًا مَا يَضُرُّ لَفْظًا قُرْآنِيًّا ، أَوْ يُسَاعِدُ عَلَى فَهْمٍ تَعْيِيرٍ قُرْآنِيٍّ . فَأَكْثَرُوا مِنْ رَوَايَةِ اللَّفْظِ وَالْأَشْعَارِ لِدَلَالَتِهِ ، وَدَقَّقُوا فِيهَا ، وَتَحَرَّوْا الْمَوْضُوعَ مِنَ الصَّحِيحِ ؛ وَمَا كَانَ يَنْبُذُ هَذَا الْجُهْدَ ، وَذَلِكَ التَّحَرُّيَّ ، لَوْلَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ بَاعْتِ دِينِي » . اهـ بِنَصِّهِ . وَعَلَّقَ عَلَيْهِ فِي هَامِشِ الصَّفْحَةِ نَفْسَهَا بِقَوْلِهِ :

« قَالَ التَّعَالِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ فَقَهُ اللَّفْظِ : « أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ مِنْ أَحَبِّ اللَّهِ أَحَبَّ رَسُولُهُ الْمُصْطَلَى ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْ أَحَبِّ النَّبِيِّ الْمَرْفِيُّ أَحَبُّ الْعَرَبِ ؛ وَمِنْ أَحَبِّ الْعَرَبِ ، أَحَبُّ اللَّفْظِ الْمَرْفِيَّةِ ، الَّتِي بِهَا أُتِّزَلُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ ، عَلَى أَفْضَلِ الْمَجْمُوعِ وَالْعَرَبِ ؛ وَمِنْ أَحَبِّ الْعَرَبِيَّةِ ، عُنَى بِهَا ، وَتَابَرُ عَلَيْهَا ، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا » . وَيَقُولُ : « وَالْعَرَبِيَّةُ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى تَقْوَمِهَا مِنَ الدِّيَاةِ ، إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ ، وَمِفْتَاحُ التَّمَقُّقِ فِي الدِّينِ . الخ » .

« وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « الشُّعْرُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ ، فَإِذَا حَتَّى عَلَيْنَا الْحَرْفَ مِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي أُتِّزَلَهُ اللَّهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، رَجَعْنَا إِلَى دِيْوَانِهَا فَاتَّسَنَّا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ مِنْهُ » . وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ رَضَيْنِ » قَالَ : مَزَيْنِ : الْحَلْقُ الرِّقَاقُ ، قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ :

جَاءُوا يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مَنْبَرِهِ عَزِينَا

انْظُرِ الْإِتِّقَانُ ١ — ١٤٩ وَمَا بَعْدَهَا . اهـ بِنَصِّهِ مِنْ خُجِيِّ الْإِسْلَامِ .

ومما يتصل بقول الثعالبي : « والعربية خير اللغات والألسنة » ما ذكره صاحب المثل السائر ، قال : « وحضر عندي في بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذ ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد ، لمكان علمه في دينهم وغيره ؛ وكان - لعمري - كذلك ؛ فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعاً ، فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخرها ، فنفدت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؛ ثم إن واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة ، فأختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ؛ فن ذلك اسم « الجمل » فانه عندنا في اللسان العبراني : كوميل ، ثملاً ، على وزن فوميل ، فجاء واضع اللغة العربية ، وحذف منها الثقيل المَحْتَبِشَع ، وقال : جمل ، فصار خفيفاً حسناً . وكذلك فعل في كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة . ولقد صدق في الذي ذكره ، وهو كلام عالم به » اه بنصه من ٧٣ المطبعة البهية .

ومن هذا الذي ذكره صاحب الصحى ، ومما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن الثعالبي ، يظهر السبب في شدة الرشد على الحسن بن هاني لما خرج على سنة شعراء العرب ، ونهى عليهم افتتاح القصائد بوصف الطلول ، والوقوف بالديار ، والتألم للفراسق ، والحدين الى اللقاء ، الخ . واستبدل بذلك في كثير من مطالع قصائده وصف الحر ، فسجنه الرشيد ، وبالغ في تهديده ؛ وزاد من تحنقه عليه استهائته بالعرب : عدائيتهم ، وقحطانيتهم ؛ فقد هجا عدناناً ، واغتفر بقحطان ، بقصيدته التي مطلعها :

لَيْسَتْ بِدَارٍ عَفَتْ وَغَيْرَهَا ضَرْبَانِ مِنْ قَطْرَهَا وَحَارِصِهَا

وفيها يقول :

فَاغْفِرْ بِقَحْطَانٍ غَيْرِ مَكْتُوبٍ خَاتَمُ الْجُودِ مِنْ مَنَاقِبِهَا

وَاهْجُ زَوَارَا وَأَفِرْ جِلْدَتَهَا وَهَنَكَ السَّرَّ عَنْ مَثَالِهَا

ثم عاد فهجها اليمين في قصائد كثيرة ؛ منها قصيدته التي يقول فيها :

لَا زِدْ حِمَامًا بِالْمُهْلَبِ زَوْوَةً إِذَا افْتَحَرَ الْأَقْوَامُ ، ثُمَّ تَلَيْنُ

وَبَكَرَ تَرَى أَنَّ النِّسْوَةَ أَتَرَلَتْ عَلَى مَسَمَحٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ كَجَنِينٍ (١)

وَقَالَتْ تَيْمٌ : لَا زِيَّ أَنْ وَاحِدًا كَأَحْتَفْنَا حَتَّى الْمَاتِ - يَكُونُ (٢)

فَالْمَتْ قِيَا بِمَدِّهَا فِي قَتِيَّةٍ وَغَفِرَ بِهِ ، إِنَّ الْقَضَارَ فَنُونُ (٣)

(١) مسجع ، كثير . أبو قتية من ربيعة ، وآل مسجع : بيت بكر بن وائل في الاسلام . (٢) الأحنف بن قيس التيمي الذي يصر به اللبس في الحلم . (٣) هو قتيبة بن مسلم الباهلي القتيبي ، القائد الاسلامي العظيم ، يدل إياه فتح سبع مدن في غراسان ، فيها سبعة حصون ، لم يصل إليها أحد قبله .



وقد أُرغم أبو نواس على العودة الى وصف الطلول ، فعاد في خيث ، وذلك حيث يقول :

أَعْرَ شِعْرُكَ الْأَطْلَالَ وَالْمِرْلَ الْقَفْرَا      فَقَدْ طَلَمْنَا أُرْدَى بِهِ نَمَثَكَ الْخِثْرَا  
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مَسْلُطٌ      تَضِيْقُ ذِرَاعِي أُنْثَى أُرْدَى لَهُ أَمْرَا  
فَسَمِعَا — أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — وَطَاعَةً      وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَفْتَنِي مَرْكَبَا وَعُرَا

وكذلك فعل الرشيد مع الفصل بن يحيى ، حين أنكر على الأصمعي إمعانه في وصف الجبل من قصيدة للمجناح ، ليلة سمره مع الرشيد ، إذ قال الفضل للأصمعي : « مالك تضيق علينا كل ما اتسع من مشاهدة السمر في ليلتنا هذه ، بذكر جبل أجرب ؟ » فقال الرشيد : « اسكت ، هي التي أخرجتك من دارك ، وأخرجتك من قرارك ، وسلبتلك نأج ملكك ، ثم ماتت ، فصُلمت جلودها صياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد . ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع نفسك والتمعرض لما نكره » ا فقال الفضل : « لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله » ا قال الرشيد : « أخطأت في كلامك ، يرحمك الله ! لو قلت : وأستعين الله ، قلت صوابا ، إنا يحمده الله على النعم » .

ولما نهض تبادر الخدم فأمسكوا بيده ، حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النمل ، فجعل الخادم يسوي عقب النمل في رجليه ، فقال : ارفق ، ويحك ، حسبك ، قد عقرتني . قال الفصل : لله در المعجم ! ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سُنْدِيَّة ، ما احتجت الى هذه السكفة . قال الرشيد : هذه نمل ، ونمل آباءى ، ورحمة الله عليهم ، وتلك لملك ونمل آباءك . لا تزال تعارضنى في الشيء ، ولا أدعك بدون جواب بمضتك ! ! ! « العقد الفريد لابن عبد ربه »

وعلى صلة بهذا ، قول يزيد المهلبى ، يعيب على بنى العباس تقريب الموالى وإبعاد العرب ، من مرثية له في الخليفة المتوكل على الله ، فنيل الأتراك :

لَمَّا اعْتَقَدْتُمْ أَنَا مَا لَا حَادِرَ لَمْ      رَضِعْتُمْ ، وَضِعْتُمْ مِنْ كَانَ يُعْتَقَدُ  
وَلَوْ جَعَلْتُمْ عَلَى الْأَحْرَارِ نَعْمَتَكُمْ      حَتَمَكُمْ السَّادَةِ الْمُسَوِيَةِ الْحَقْدُ  
قَوْمٌ هُمُ الْحِزْمُ ، وَالْأَنْسَابُ تَجْمَعُهُمْ      وَالْمَجْدُ ، وَالِدَيْنُ ، وَالْأَرْحَامُ ، وَالْبَلَدُ  
إِذَا قَرِيشٌ أَرَادُوا شَدْ مَلِكُهُمْ      بَغِيرَ قَحَطَانٍ ، لَمْ يَبْرَحْ بِهِ أَوْدُ  
أَضْحَى شَهِيدُ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوْضِعُهُ      لِكُلِّ ذِي عِزَّةٍ ، فِي رَأْسِهِ سَيِّدُ



وأما الآخر ، فهو توقف تعلم صناعة الشعر على رواية الأدب الجاهلى وحفظه ، فقد اتفق أهل البصر بالشعر ، على أن من قل حفظه أو عَديم ، لا يكون له شعر ، وإذا جاء بشيء منه ، كان نظماً ساقطاً ، لا قيمة له عند أهل الصناعة ؛ وفي درجته ما كان من جنسه ، كأشعار المصريين : الاسلامى والعباسى ؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه ، وكثرته وقلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . قال العلامة ابن خلدون :

« اعلم أن الأساليب عسدم عبارة عن الموال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرع فيه ؛ ولا يرجع الى الكلام باعتبار إبادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إبادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المستظمة ، كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويمتريها في الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان ، فيرتصها فيه رصاً ، كما يفعل النسا في القالب ، أو النسا في المنوال ، حتى يتسع القالب بمحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ؛ فإن لكل فن من الكلام أساليب مختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ؛ فسؤال الطول في الشعر ، يكون بخطاب الطول ، كقوله : يادارية بالعلياء فالسند ؛ ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والمؤال ، كقوله : قفا سأل الدار التى خف أهلها ؛ أو باستبكاء الصحب على الطلل ، كقوله : قفانك من ذكرى حبيب ومنزل ؛ أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين ، كقوله : ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟ ومثل تحية الطول بالامر لمخاطب غير معين بتعيتها ، كقوله : حى الطول بحانب التمرل ؛ أو بالدعاء لها بالسقيا ، كقوله :

أَسْقَى طَلُولَهُمْ أَجَشَّ هَذِيمٍ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَلِيمٍ  
أو سؤاله السقيا لها من الرق ، كقوله :

يَا بَرْقَ ، طَالِعْ مِثْرَلاً بِالْأَرْقِ وَاحْدُ السَّحَابِ لَهَا حُدَاهُ الْإَيْنِقُ  
أو مثل التفع في الجزع باستدعاء البكاء ، كقوله :

كَذَا فليَجَلِ الْخَطْبُ ، وَلِيَفْدَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لَعِينٍ لَمْ يَفِضْ مَأْوَها هَذُرُ  
أو بالنسج على الأكوام بالمصيبة لمقدمه ، كقوله :

مَنَابِتُ الْعُشْبِ ، لَا حَارِمَ ، وَلَا رَاعِي مَضَى الرَّدَى بِطَوِيلِ الرِّيحِ وَالسَّاعِ  
أو بتهيئة فريقه بالراحة من تقل ومطائه ، كقوله :

أَلَيْ الرِّيحُ رَيْبَةً بِنَ تَزَارِ أَوْدَى الرَّدَى بِفَرِيقِكَ الْمَخْوَارِ

ولا يفيد هذه الأساليب ، إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً ، اه مقدمة ص ٧٧ ، طبعة فهمي .

ومن هنا كان أهل العلوم كلهم ، من الفقهاء والنحاة وغيرهم ، قاصرين في الشعر ، لقلة محفوظهم من جهة ، ولخدش ملكة البلاغة عندهم بما يسبق الى محفوظهم ويمتلى به من

القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية التي لا حظ لها في البلاغة . ولقد كان الأزهريون ، ولا يزالون ، يمتقدون أن الأدب والعلم لا يجتمعان . وهم في ذلك رَجْدٌ مصيبين ، ويشهد لهم أننا لم نزهرياً أحرز قَوْفاً في الأدب ، إلا جاء مقصراً في العلم ، أو ترك ساحته جلة .

\*\*\*

يساند الأمرين الآمين ، أساقم قومٌ عرب ، والعرب أشد الأمم عصية وحشيا إلى وطنهم الأول وعيشتهم الأولى ؛ لذلك لم تلمهم مفاتن ما فتحوها من البلاد والممالك ، عن التفتي يذكر بلادهم ، وعن اتخاذ الشعر للتقديم نموذجاً لهم في الصناعة وفي الخيال . وأن الحنين الذي هز أبا الحسن على بن حواري ، وهو في رياض الأندلس ، إلى نجد ، فأطلق لسانه بقوله :

أحنّ إلى ربيع الشمال فانها      تذكرنا نجداً وما ذكّرت نجداً  
تمر على ربيع أقام به الهوى      وبذل من أهليه جامعة رُبداً

وقوله -

حليلي ، عن نجد ؛ فان بنجدم      مصيفا لبنت المصيري ومريداً  
ألا رجّعا عنها الحديث ، فاني      لأغبط من ليل الحديث المرجما  
عزيز علينا - يابنة القوم - أننا      غريبان كدّني ، لا يطيق التجمعا  
فريق هوى ما : يَمَاف ومُشَم      يحاول يأساً ، أو يحاول مطعماً  
كانا حلقنا للنسوى ، وكانها      حرام على الأيام أن تتعصما

أقول : إن الحنين الذي هز هذا الأندلسي الزاغة ، إلى مراحب نجد ومصايفها ، فأطلقه سجماً مردداً ، وغرداً ساحراً ، هو هو الذي هز المصري والشامي والأفريقي والسوداني ؛ أو بعبارة أعم وأشمل ، هو نفسه الذي هز مشاعر كل مسلم إلى معاهد الاسلام الأولى ، فيطلق لسانه بمحاكاة أول أسلوب عرفه الاسلام .

\*\*\*

أما بعد ما تقدم ، فاعنيارُ تأثير الأدب العربي ، بالأدب الجاهلي ، جنابة ، هو — كجنابة الآباء على الأبناء التي اشتريها الحكيم الشاعر أبو العلاء المعري ، بقوله : هذا جاءني أبي على — وما جنيت على أحد — اعتراض على الطبيعة ، أو على شيء غير الطبيعة ، يوّأ الأدب الجاهلي من الأدب العربي هذا الموضع ، لا اعتراض على جوهر الأدب

وتحقيق قضية هذه الحناية ، في المقال التالي ، إن شاء الله ؛ فلقد طال هذا الحديث ؟

عبد الجواد رمضان

كلية اللغة العربية

## في حفلة المحمل

### دورات الجمل السبع

كثير كلام الناس في « حفلة المحمل » و « دورات الجمل السبع » ، ففهم من يحب التمسك بها إبقاء للتقديم على قدمه ، ومنهم من يرى إلغاءها لأنها من المحدثات التي لم تؤثر عن الصدر الأول .

وإرشادا للحق في هذه المسألة أقول :

لحفلة المحمل ناحيتان : ناحية تاريخية ، وناحية دينية . فأما الناحية التاريخية فلا أحرص لها ، ولا أذكر فيها إلا ما هو معروف من أن العصر الذي نشأت فيه فكرة المحمل ، لم يكن من عصور الرقي الفكري والديني ، وإنما كان من عصور التأخر والانحطاط التي أضيف فيها إلى الدين ما ليس منه .

وأما الناحية الدينية ، فإننا إذا نظرنا إلى حفلة المحمل كحكمة يقصد منها الدعاوة للحج ، وخروج الكسوة بمظهر يلفت إليها أنظار المسلمين ، فيثير في نفوسهم الرغبة في أداء فريضة الحج ، وحدانها حفلة لا يابأها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، مادامت مبرأة من كل ما يسيء إليها ، ويشتره وجهها السمع . ذلك أن الإسلام لا يأتي أن يأخذ بأية وسيلة من شأنها أن تعين على إظهار شميرة ، أو الإعلان عن سنة .

فهو منسلا ، لا ينكر المحراب لأنه وسيلة إلى معرفة القبلة ، ولا ينكر مدفع الظهر لأنه وسيلة لتعديد وقت الصلاة ، ولا ينكر إعلاء صوت الخطيب بأداة تضخيم الأصوات ، مادام ذلك وسيلة لإبلاغ صوت الحق إلى الناس ، وإذاعته بينهم .

وإنما الذي يابأه الدين ، هو العادات المنافية له ، المخالفة لأغراضه ، أو التي تثير في نفوس الناس اعتقادا غير صحيح في الأحكام الدينية .

فمن ذلك ما يحدث عادة يوم الاحتفال بالمحمل من اختلاط النساء بالرجال على صورة شائنة ، تنكرها الآداب ، وتمجها الأذواق ، ولا ترضى بها الشرائع والأخلاق .

ومن ذلك دوران المحمل سبع صرات كما يدور الطائعون بالبيت ، واستلام مقوده كما يستلم الحاجر الأسود ، في إجلال وتقدير .

فالإسلام لا يعرف طواغيتا إلا حول البيت ، ولا يمتزج بالتقريب والتعظيم لشيء يستلم

إلا للحجر الأسود ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطف بشيء إلا بالبيت ، ولم يقبل شيئا إلا هذا الحجر ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

هذه هي روح الاسلام ، ومبادئ الاسلام ، التى يعرفها الفقهاء ، ويقررها الأئمة . يقول الفقهاء : « إن وقوف الناس — غير الحجاج — يوم عرفة مجتمعين في مكان تشبها بالواقفين بمرغات ، مكروه كراهة تحريم ، لأنه مخترع في الدين ، إذ الوقوف إنما عهد قربة بمكان مخصوص ، فلا يجوز فعله في غيره ، كالطواف ونحوه . ألا ترى أنه لا يجوز الطواف حول مسجد أو بيت سوى الكعبة » .

هذا نص صريح من كلام الفقهاء . فدورات الحمل إذا صورة لما يحدث من الطواف حول البيت ، في ذاتها ، وفي عددها ، وهى مخترعة لا يعرفها الدين ، وليست ضرورية في الدعاوة للحج ، لأنه يمكن أن تتم هذه الدعاوة على خير وجه بدونها ، وكذلك القول في استلام المقدود وتقبيله ، وما بعد ذلك صورتان تشوهان وجه الدين ، وتمينان خصومه على ما يبتغون من تلمس أسباب الطعن فيه ، والنقض منه . فمن الطبيعى إذاً أن يتناولها هذا النص الفقهى الذى قدمنا ، وأن يعمل أولو الأمر على حماية الناس من اعتقاد أنهما من الدين ، وحماية الدين من أن يلصق به ما ليس منه .

وبعد . فهذا هو رأينا في المسألة من وجهها الدينية ، أرجو أن يجد القراء فيه ما يبر

لهم سبيل الحق والهدى

محمد سلتوت

## هما قيل في المال

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بالله من الفقر . والفقر هو أن لا يجد الإنسان حاجته وحاجة عياله ، لا المتفق عليه اليوم من الإقلال مع الكفاف . فالفقر بمعناه الصحيح مذموم لأنه من أكبر القواطع عن ممارسة الفضائل . ولذلك قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه لابنه محمد : يا بني إنى أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل ، داعية للعقت .

وروى عن لقمان أنه كان إذا مر بالأغنياء قال لهم : يا أهل النعيم الأصغر ، لا تنسوا النعيم الأكبر . وإذا مر بالفقراء قال : يا أيكم أن تغبنوا مرتين .

وقيل لأفلاطون - لم صار الرجل يقتنى مالا وهو شيخ ؟ فأجاب : لأن يموت الإنسان فيخلف مالا لأعدائه ، خير من أن يحتاج في حياته إلى أصدقائه .

## في بلاغة القرآن

« اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما ينلوه لساني من كتابك ،  
والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك  
ما بقيت ، إليك على كل شيء قدير » . صهر بن الخطاب

حاولت لك في الحديث السابق بعض ما تهدي إلى عقلي ، واستنطف لي بياه من أسرار  
البلاغة في آيتين من آي الذكر الحكيم ، ولعلك عجبت منها المعجب كله . « وأي شيء أعجب  
من أن تتجاذبك معاني الوضع في ألفاظ القرآن ، فتري اللفظ قاراً في موضعه لأنه الأليق  
في السط ، ثم لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى ، ومع ذلك الأقوى في الدلالة ، ومع ذلك الأحكم  
في الإيالة ، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة ، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآيات  
بما يتقدمه أو يتأخر عليه » . وهذا من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن وبين هذه  
الأنواع في كلام البلغاء . فنظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاء طبيعياً بحيث يبنى هو عليها  
لأنها في أصل تركيبه ، ولا يبنى هي عليه ؛ فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ، ولا شيء  
من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسهل الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلت منه ،  
فضلاً عن أن يبنى به ، وفضلاً عن أن يُرْسَى عليه ولو أدت اللغة كلها على هذا الموضع . فكان  
البلاغة فيه إنما هي وجه من نظم حروفه ؛ بخلاف ما أنت واحد من كلام البلغاء ، فإن بلاغته  
إنما تصنع لموضعها ، وتبنى عليه ؛ وربما أخلقت ، وهي لو رفعت من نظم الكلام  
ثم نزل غيرها في مكانها لأبقت النظم نفسه غير مختلف ، بل لكانت هي أن يصح ويجوز  
في مواضع كثيرة من كلامهم .

كم حارت العقول الواصفة في وصفه ، وكلت الألسنة البارة من لعمري ، لأنه المطمع  
بظاهره في نفسه ، والممتنع في باطنه بنفسه ، ولأنه لا يشبه كلاماً تقدمة ، ولا يشبه كلام  
تأخر عنه ، ولا ينصل بما قبله ، ولا ينصل به ما بعده ، فهو الكلام القائم بنفسه ، البائن  
من جنسه ، العالي على كل كلام قرن إليه وقيس به . وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من  
غرائب الفصاحة ، وثواب البلاغة ، ونوادر الكلم ، وبابيع الحكم ، ما يعمز الخواطر عن  
الكلام فيه ، والإيضاح عن عجائب ما فيه . حقا إنك « لتحار إذا تأملت تركيب القرآن  
ونظم كتابه في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها ، وتعمد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تقضي  
في وصفه ، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك ، وأنجع لما في نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة  
غير كلمة « الإعجاز » .

« ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب وأنت ترى أن أعجب منه بجيئه على هذا الوجه الذي يستفد كل ما في العقول البانية من الفكر ، وكل ما في القسوى من أسباب البحث ، كأنما ركب على مقادير القول والقوى ، وآلات العلوم وأحوال العصر المخفية ،

« ولن نجد في وصفه كلاماً أدق ولا أبرع ، ولا أخصر ولا أجمع مما وصفه به من أوتي الحكمة وجوامع الكلم ، الذي لم يسمع الناس بكلام قط أمم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقفاً ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في لغوه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ؛ فهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة وزه عن التكلف ، وهو الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاها بالقول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإقحام وقلة عدد الكلام . واصل بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ، ما ليس منه ، ولا يبلغ قدره ؛ كلا والذي حرم التريد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء لا يظن هذا إلا من ضل سعيه (١) »

لن نجد في وصف القرآن أحسن من وصفه صلى الله عليه وسلم : حدث الترمذي أن ابن أبي طالب رضى الله عنه سمع الرسول وهو يقول : « أما إنها ستكون فتنة » . فقال له : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تليس به الآلوسة ، ولا تنفع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تفته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجيباً يهدي إلى الهدى ، ومن قل به صدق ، ومن حمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

أضف إلى هذا أنه كلما دار الزمان ، وتقدمت العلوم ، وتكشفت للإنسان أسرار الكون ، استبان الناس من عظمة القرآن ، ووضح لهم من وجوه إعجازه ما لم يدر لهم ولا آياتهم بخلاف . فهذه أسرار طيبة ، وهذه أسرار فلسفية ، وتلك أسرار زراعية كشف عنها العلم الحديث ؛ وإلى الأخيرة نلتفت النظر لطرافتها وغضارتها :

قال الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

(١) البيان والتبيين فاجاز .

لقد ساءلت نفسي وأنا أندبر هذه الآية : لماذا كانت هذه الجنة ربوة ؟ ولماذا عبر الله عن سقيها بإصابة الوابل ؟ وهل لذلك من فائدة في كونها تؤتى أكلها ضعفين ؟

قال الخليل : الربوة : أرض مرتفعة طيبة ، وخص الله بالذكر التي لا يجري فيها ماء من حيث العرف في بلاد العرب ، فتلهم ما يحسنونه ويدركونه . وله رحمه الله :

ترفت عن ندى الأحماق وانخفضت من المعاطش واستغنت بسقيها  
فقال بالفسوخ والرمات أسفلها واعتم بالنخل والزيتون أعلاها

وقال ابن عباس الربوة : المكان المرتفع الذي لا يجري فيه الأنهار ، لأن قوله : « أصابها وابل » يدل على أنها ليس فيها ماء جار . قال أبو حيان : وتفسير ابن عباس الربوة بالمكان المرتفع الذي لا يجري فيه ماء إنما يريد المذكورة هنا ، لقوله : أصابها وابل ، فدل على أنها ليس فيها ماء جار ، ولم يرد جنس الربوة لا يجري فيها ماء ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ربوة ذات قرار ومعين » ؟ وخصت بأن سقيها الوابل لا الماء الجاري فيها على عادة بلاد العرب بما يحسنونه كثيراً ، وخص الربوة لحسن شجرها وزكاه فمرها . فدل من الحق أن القرآن عبر بإصابة الوابل عن السقي لأن هذه الربوة التي أشار إليها لا تجري فيها الأنهار كما روى عن ابن عباس ، أم جريا على عادة بلاد العرب ، وتغنيلا لهم بما يحسنونه ويدركونه كما يقول غيره من المفسرين ؟ عندي أن القرآن لم يرد ذلك ، ولم يذهب إليه ، وإنما ذهب إلى سر عظيم كشف عنه العلم الزراعي : فقد أثبت علماء النبات بعد تجارب أخطأها الحصر وما أخطأها الصواب ، أن الحدائق التي تنشأ في الأراضي المرتفعة تقل أحسن من الحدائق المنشأة في الأراضي الواطئة ، لأنها بمسدة عن الرشح الزائد ، والماء الراكد ، ولأن الهواء يتخلل بين طبقاتها في يسر وسهولة ، فيساعد على التأكسد وصلاح المواد الغذائية ، التي تمنعها الشجيرات الجذرية طيبة سائلة وتغذي بها الساق ، والأوراق والزهور ، فيركو الزرع ويستغلظ ويستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ويؤتى أكله ضعفين بإذن الله .

ولقد أثبت هؤلاء العلماء أيضا أن أحسن طريقة لاسقي ، طريقة المطر الصناعي ، لأنه يزيل ما على الأشجار من أوساخ ، فتفتتح مسام الأوراق ، وتسهل عليها الفتحة والتنفس ، أو « التمثيل الكاوي » .

ولأنه ينثر الماء على سطح الأرض بالتساوي ، فتأخذ منه كل بقعة حاجتها ، ولا تتعرض الأشجار والنباتات للآذى . فهذا سر إنبات « الربوة » وسر « إصابة الوابل » كما بينه العلم الحديث ، وجاء بيانه مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

السيد محمد صفر



# معركة الأديان الحديثة

## في الإسلام والمسلمين

المستشرق إميل ديميرجهام الفرنسي  
يشهد بأن الإسلام دين عالمي

أوفدت حريدة ( لا بورص اجيبسيان ) مندوباً لها الى أشهر رجالات التفكير العالي في فرنسا لمعرفة آرائهم في موضوع ( فرنسا والاسلام ) ، ونشرت له في عدد ٢٧ مارس من هذه السنة كلاماً للمستشرق الجليل إميل ديميرجهام تحت العنوان المتقدم صدرته بقولها :

« بعد أن نشر إميل ديميرجهام ( Emile Demergham ) بحثاً على جوزيف دوميستر ونوما مور ، ومفكرى عهد النهضة الأوروبية ، رأى نفسه مأخوذاً بروحانية الاسلام وخاصة بناحيته الباطنية ، فعنى منذ سنين بدراسة كل ما يختص بهذا الدين . فبعد أن نظر في كل ما صادفه من طادات المراكشين وتقاليدهم الدينية ، ترجم ( خرية ) عمر بن القارض الصوفي سلطان العاشقين وشرحها الفبيخ عبد الغنى النابلسي . وقد نشر كتاباً أتمناه ( حياة محمد ) ، وهو عمل نهائي في سيرة النبي ، أبان فيه عن ألمعية ، وتفوق في بعد النظر ، وعن مواهب في الاستشهاد بالتاريخ ، وخاصة عن الميل الى ديانة التوحيد التي نشأت في البلاد العربية ، ولم تقب عنه عظمتها وقوة انتشارها باعتبار أنه كاتوليكي وفرنسي الجنس .

« إن إميل ديميرجهام يستغل منذ زمان طويل في عمل كتاب على « حياة الاولياء المسلمين » سيملاً نشره أهل المعرفة غبطة ، وسيعتبره القارئ العربي البعيد عن هذه الامور كشفاً . هذه الدراسة ، كما يسره الاعتراف به ، قد سمحت له بالتعرض على « الصبر » و « الفقر » و « التوكل » ، وهي الثلاث الفضائل الاسلامية المحض . ولا يوجد أمامنا أمثل من ديميرجهام ليشتي غلتاً فيما نحن بسبيله من الاستفتاء الذي شرعنا فيه . ذلك لأنه مع إكبابه على دراسة الصوفيين العربيه ، تصلع في معرفة العقلية الاسلامية لأهل أمريكا الشمالية ، فاليك ما قاله لمندوباً . « إن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطاً بتسمية القرآن ، يلوح لي أنهم معدون حفرافيا وروحياً لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وأفريقيا . فهذا الارتباط الذي لا بد منه دون شك لحفظ التوازن الروحي للعالم ، وهذا

الموضع من قلب الكوكب الأرضي من جاوة والهند إلى المغرب، يظهر أنه اختص هذه الكثرة المؤلمة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز النقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية المناصر المختلفة — وقد صار ذلك أشد وضوحاً اليوم — في أوروبا التي يمزق بعضها بعضاً أمام نظرها الآن .

« للمؤرخ ظاهرة في هذا الموطن يفرض عليه تسجيلها ، وهي أن أساس التقليد التاريخي المشترك بين أوروبا والعالم الإسلامي هو الوحي الذي أنزله الله إلى إبراهيم ومن جاءوا بعده ، ومنهم موسى وعيسى ؛ والثقافة اليونانية التي نقلها العرب إلى الغرب مع رصاصيم وفلاسفتهم : أفلاطون وأرسطو وبولتان من مصر ؛ وفكرة القانون والنظام الشرعي الذي كان قائماً في روما

« فليس يدهشنا والحالة هذه أن الضمير الإسلامي يستنكر ، حرياً على مبدئه وقرينه ، كل مذهب يدعو إلى العنصرية والنيشية (١) وإلى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، وإلى أية حكومة استبدادية ، ذهاباً إلى أن الله قدس الشخصية الإنسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الإسلامي المرموز إليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضاملاً لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدة وجودها من واجب الوجود المطلق ، التي يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الأنبياء ، تتساوى كلها في قيمتها وفي تلاشيها أمام رب العالمين ، ولكن ما أوتيته من الإلهام الإلهي لا ينسخ . وقد وجه الإسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد به بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أرومة آفاق الأرض كل سنة محرمين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عارى الأحكام يتميرون عرقاً ، ويطلقون كرباً .

« إن الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية التي لم تصب إلى الوثنية الحديثة ، تستوى في اكتوائها بتغلب الطغمة والمتذهبين الماكيا فيلية ، بالخضوع لما تحين منغضمين ، فلا شيء يمنع أن يكون قد وقر في صميم ضائرهم الإيمان بالمكانة العامة للعلم ، والمعدالة ، وقدسية الأمر الواقع » .

(مجلة الأزهر) : إنا مع شكرنا للاستاذ ديمبرجهام المستشرق على حسن نظره في الإسلام ، ننكر عليه صرفه لمذلول آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » عن صرماها الديني إلى صرمي اجتماعي ، وخاصة في موطن كبير الدلالة على مهمة الإسلام ، وعلى ميزته على سائر الأديان . فقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » ليس معناه : وكذلك جعلناكم أمة في بلاد تصلح لأن تكونوا فيها جماعة اتصال بين الشرق والغرب ، ولكن معناه : وكذلك

(١) الينشية : مذهب فريدريك نيتشه الفيلسوف الألماني . وقد أسسه على وجوب تربية القوة الحيوية والارادة بصرف النظر عن كل اعتبار روحي أو إنساني ، وهو يستبر الرحمة والعطف سماً في النفس وحروراً في الطبيعة .

جعلناكم أمة هي من عقائدها وأصولها وأدائها على الصراط السوي ، بعيدة عن الإفراط والتفريط ، لتكونوا شهودا على غيركم في غلوم وتقصيرهم ، وخروجهم عن سواء السبيل في عقائدهم وتقاليدهم . وهذه أمانة أدبية لم تحمّلها أمة غير الأمة الإسلامية ، وإنحذروا من أن تتحول عن معناها بمثل ما ذكره الأستاذ ديميرحام رأيا أن نعقب على قوله بهذه الملاحظة .

## الاسلام والمصر الراهن

### الساكنة المغربية ( سيدة سافيتري )

هذه السيدة المغربية تجيد الفرنسية الى درجة التأليف بها ، ألقت كتابا في الإسلام باسم ( الإسلام والمصر الراهن ) وصفه الميروجاك نارجو في جريدة ( البتيق بلو ) الباريسية بقوله : « إن هذا الكتاب سيمهل كثيرا على الأوروبيين معرفة الدين الاسلامي ، وإنه سيعدل آراء ضالة عنه ، ويكشف عن أصوله القيمة للانسانية المنجبة بمجموعها نحو مدينة فاضلة » . وقالت السيدة سيدة :

« نحن معشر النساء المسلمات لا تزال بعيدات عن الآراء الغربية وكلها في مصلحة الاسلام . أما اللاتي أخذن طريقهن في الترقى على الطرار الغربي فلا نظن أنهن سعيدات . فان المرأة التي تمنى أن تتحرر لترتفع في الملاذ الدنيوية لم تفهم للغاية التي خلفت من أجلها ، ولا مثلها الأعلى وقيمتها بالنسبة لها .

« أما خلاصة ما أريد قوله ، فهو أن لدى المسلمة التي تريد أن تعقل من هاصر إيمانها قاعدة صالحة لأن تقيم عليها حياة سعيدة . فهي ليست مضلة بعقيدة الخطيئة الأولى ، ولها أن تنسج الى الحياة قلب نقي ، متبعة مثلاً أعلى لا غبار عليه ، وشاعرة بقيمتها الدانية التي لا نزاع فيها » .

ولم تهمل السيدة سيدة أن تلم بمسألة تعدد الزوجات ، وهي المسألة التي اتخذها خصوم الاسلام تكأةً للنبيل منه ، قالت :

« أما مسألة تعدد الزوجات فهي تشريع حكومة تعترف بالقوانين الطبيعية بغير نفاق ، ولا هرب من التبعات . فالاسلام لا يوجب تعدد الزوجات إيجاباً ، ولكنه يسمح به . والاسلام يقبله تعدد الزوجات استطاع أن يحرم الزنا على الرجال والنساء » .

نقول : لقد أحسنت السيدة سيدة كل الاحسان بعملها الجليل الذي يقول عنه محرر البتي بلو إنه يزيل كثيرا من ضلالات الأوروبيين عن الاسلام ، فما أولاهما بقول المنهنى :

فلو كانت النساء كن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

محمد فريد وجدي

## نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا في العدد السابق أن خلافاً نشب بين أبي حنيفة وصاحبيه في لزوم الوقف وعدمه ؛ وأن مذهب أبي حنيفة هو عدم لزومه ، بخلاف الصاحبين فإن مذهبهما لزوم الوقف وتأيدده . فنذكر اليوم بإيجاز أدلة كل من المذهبين ، ولكن يجدر بما أن نلبي قبل ذلك إلى أن أباحنيفة لا ينكر أئنة مبدأ الوقف ، فهو مبدأ منفق عليه ، بل على أنه قرابة إلى الله عند الجميع .

فن أدلة الصاحبين :

(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخير لم أصب ما لا قط أنفس عندي منه ، فما تأمرني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت حبست أصله وتصدقته بشمرته . فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث . . . وقد أشهد عمر في زمن خلافته على كتاب وقفه نقرأ من المهاجرين والأنصار . قال جابر بن عبد الله : فما أعلم أحداً ذاميسرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشتري ولا توهب ولا تورث .

خاتمة عمر رضى الله عنه وما يتبعها من رصد موسرى الصحابة الأعيان وإطلاق غانها على الفقراء ، آية على أن الدين الموقوفة يمتنع التصرف فيها بالبيع ونحوه . وهذا هو معنى لزوم الوقف عند الصاحبين .

(٢) استمرار حمل الأمة الاسلامية من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حادثة عمر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم خلفاً من سلف ، وجبلاً بعد جبل ، على وقف الأموال وحبسها أبداً . فقد وقف أبو بكر وعمر وهشام وعلي وطلحة والزبير بن العوام وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، أموالاً على سبيل التأيد ، واستمر العمل بعدم إلى يومنا هذا من غير تكير . وهذا إجماع على خلاف قول الإمام أبي حنيفة ، وهو حجة شرماً .

(٣) أن نية الواقف يوم أشهد على وقفه كانت قائمة على تأيد ما وقف ، ليستديم بهذا التأيد استمرار المثوبة من الله ما دامت منفعة وقفه جارية على أهلها حسب ما شرط في إشتاد وقفه . فلو قدر الواقف في دخيلة نفسه عدم لزوم الوقف والتحلال الموقوف بعد موته ليقسم بين ورثته لما أشهد على كتاب وقفه .

هذا تلخيص ما اعتمد عليه الصاحبان في التدليل على ما ذهبوا إليه من لزوم الوقف .

أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فقد استدلل على عدم لزوم الوقف ، وجواز الرجوع فيه من الواقف ، أو التصرف فيه بالبيع والشراء والهبة ، بما يلي ملخصا :

( ١ ) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن غرائض الله سبحانه وتعالى » . ومعنى الحديث ألا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته . فاللازم عن هذا الحديث عدم خروج المال الموقوف من ملك الواقف . وإذاً يكون الوقف غير لازم .

( ٢ ) ما روى عن شريح رضى الله عنه أن عدا صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس . . وقد ذهب صاحب البدائع الى أن الأموال الموقوفة كان بيعها محظورا في الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أباح بيعها ، وتلك الإباحة صريحة في جواز التصرف في الموقوف وعدم لزومه .

( ٣ ) مما استدلل به المذهب أبي حنيفة أيضا ما حوره العلامة الكمال بن الهمام ، وخلاصته : أن حقوق العباد لم تنقطع عن الموقوف ، فلهم حق الانتفاع به زراعة إن كان مما يزرع ، أو سكنى إن كان مما يسكن ، مثلا ، وبقاء الحقوق في الموقوف دليل بقاء الملكية فيه ، ولا ملك لغير الواقف من العباد اتفاقا ، فلزم عن تلك المقدمات المسئلة أن يكون الملك للواقف . ويؤيد هذه القضية أن ثلث الواقف نصب النظار على وقفه وعزلهم ، وحرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وملك التصرفات مجتمعة أو منفردة أمانة على بقاء الملكية في يد الواقف وعدم زوالها عنه .

( ٤ ) أنه يلزم على قول صاحبين أن يخرج الموقوف عن ملك الواقف الى غير مالك ، وهو خلاف المجهود ، على أنه غير معلوم من مبادئ الشريعة .

هذه هي أدلة الفريقين باختصار . ولا أدري كيف يقع بين الإمام وصاحبيه هذا الخلاف ، وكيف تترتب عليه آثاره في يومنا الراهن بعد أن نقل عن الإمام رضى الله عنه أنه يستثنى من قاعدته الجارية على عدم لزوم الوقف حالة أخرى ، وهي أن يصدر بالوقف حكم حاكم . ومعنى ذلك أن حكم القاضي يرفع الخلاف بين الإمام وصاحبيه ، فيصبح الوقف المقضى فيه بحكم القاضي وقتا لازما عند أبي حنيفة .

وبدهى أن عهدنا الراهن قامت فيه خصومات حول الحبوس كلها تقريبا ، فما من وقف إلا وقد عرضت أعبانه وغلاته على القضاء فيقفى فيه قضاءه ، وما من وقف إلا اتصل به علم القضاء فيقول فيه كلمته ، فأصبحت الأوقاف لازمة عند أبي حنيفة تطبيقا لهذا الاستثناء ، ولقاعدة « كل حكم من القاصي يرفع الخلاف » ، فلا أدري بعد ذلك مدى الخلاف ، ولا أنرا يترتب عليه ؟

### الفتح الرباني :

تم الجزء الثاني عشر من كتاب الفتح الرباني وهو جامع لمسند الامام احمد بن حنبل . قام بتربيته وتبويبه فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وقد وضع عليه شرحا أسماه « بلوغ الاماني » لا يترك حاجة في نفس قارئه ، لا وفاها . جاء عملا جليلا يشكر عليه الأستاذ . وفقه الله لانعامه ونفع المسلمين به .

عنوانه عطفة الرسام رقم ٥ بالفورية بالقاهرة .

### بين صديقين :

هذا عنوان كتاب وضعه حضرة الأستاذ الأديب الشيخ احمد جمعة الشرباصي الطالب بكلية اللغة ، موضوعه محاور بينه وبين صديق له ، أهداه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وقال في إهدائه : « هذا كتاب تلعبت منه بوادر الثورة الإصلاحية التي سيقوم بها الشباب في المجتمع مما قريب » . وكتابه يشمل عددا وفيرا من علل الاجتماع ، وآراء جذيرة بالعناية لمعالجها . ولكن مما يعيبه ويضع من قيمته ، صراحته فيما يجب أن يكتم ، بل فيما الخير كله أن يكتم ، من الاعتراف بالانحرافات الخلقية ، والرعونات الشبهوانية . وإنما لنأمل في الفيرة الملتزمة للأستاذ أن يرأب هذا الصدع في أسلوبه ليكون ما يحبى منه جيلا كله .

### ثورة الاسلام وطال الانبياء : أبو القاسم محمد بن عبد الله

للأستاذ الأصولي الجليل محمد لطفي جمعة جولات علمية يقوم بها في أثناء اشتغاله بالمحاماة يأتي فيها الطريف الغض من الدراسات ، فاذا ألم بالتقديم الذي روشته الأفلام ، جاء بأسلوب فيه يكشف منه نواحي جديدة تتطلبها النزعة العقلية في العصر الراهن . عرفت للأستاذ هذه الموهبة النخبة فصار لما يكتبه أثر بليغ في توحيه الثقافة قل في السكتات والمؤلفين من يساويه فيها .

وقد أنحف المطبوعات العربية حديثا بكتاب جليل القيمة ، سماه ( ثورة الاسلام وطال الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله ) موضوعه دراسة تفصيلية للبيئة العربية والدعاة المحمدية ، سخاوت من خير ما كتب على أسلوبه الذي أشرنا إليه ، فالج فيه موضوعات لم يعالجها مؤلف قبله ، وكشف عن نواح تعتبر ذات دلالات حاسمة في تقدير نفسية النبي ومحو نشأته .

فتننى على حمة الأستاذ الجليل محمد لطفي جمعة ، ونرحوه أن ينابيع هذه السلسلة القيمة حتى يأتي بجميع ما تشمله السيرة المحمدية من بحوث ، على أسلوبه هذا ، فهو من أفضل الأساليب في تجلية الحقائق ، وفي بناء فكرة صحيحة ثابتة للقارئ .

# احتفال الجامع الأزهر بعيد الجلوس

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يرأس الاحتفال  
ويلقى فيه خطابة يشيد فيها بذكر جلالة الملك

حفل الجامع الأزهر مساء الأحد ٥ مايو سنة ١٩٤٠ بألوف من العلماء وكبار رجال الدولة والطلبة احتفالاً بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول . فبدأ الاحتفال بقراءة آيات من القرآن الحكيم ، ولما فرغ القارئ ، نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى كلمة جمعت من شمائل جلالة الملك وما آثره ، ما النفوس تنطلع الى سماعه ، والناس ينكراره ، ولا سيما إذا صدر من إمام الدين الأكبر للشيخ محمد مصطفى المراغي ، موشاة بعباراته الشائقة ، وكلماته النابغة . وقد استورد فضيلته الى ذكر الأزهر ، وما أداه من الخدم العظيمة للعالم الاسلامي ، وما يفتنظر أن يؤديه في مدى حياته الخالدة ، من نشر الثقافة الدينية ، والأصول الاسلامية ، لجاءت كلمة رائدة على غرار جميع كلمات فضيلته . وختمها بالدعاء لجلالة الملك ، فأمن على دماائه الحاضرون بقلوب حاضرة بالإخلاص ، فأثمة بالولاء والإكبار .

وعقب فضيلته حضرة الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد الببان شيخ كلية أصول الدين ، فألقى كلمة بليغة في الموضوع نفسه ، قوبلت بالإعجاب والتقدير .  
والى القراء ما ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام :

أيها السادة :

اعتبرت هذه الليلة السعيدة ، ليلة عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، آمال الله حياته ، وأدام له المزم والسعادة ، في ذاته الكريمة ، وقته ، وفي بلاده المريزة المحبوبة . واسم الفاروق في هذه البلاد ، وفي غير هذه البلاد ، اسم محبوب ، يصاحبه دائماً الإحلال والتقدير والإعجاب ، ويقتن به الإخلاص والولاء . افتتن أول عهد المبارك بإكمال استقلال البلاد ، واضطلاع الأمة بتدبير شأنها ، وقيامها بأمرها ، بعد أن مرت عليها رحب ملوية تسمى اليه ، وتنازع من أجله .

جاء الفاروق وفي شباب الأمة زلمات الى الخير ، والى الدين ، والى العزة القومية ، وزلمات الى إصلاح شامل يتناول مرافق الحياة جميعها . والفاروق بطبعه الخير نزاع الى كل هذه الرغبات ، تتواق الى تحقيقها ، فعمل جاهداً لرفعة قدر البلاد ، وعمل جاهداً للإصلاح في جميع نواحيه .

عزة البلاد تحلك على الفاروق نفسه ؛ فهو يصدر في جميع أعماله عن هذا المبدأ الراسخ في طبيعته ، ويضع خير البلاد ومجدها أمامه هنا أسمى ، يسعى إليه ، ويرى واجبا على كل مصري أن يسعى للوصول إليه . وإذا قيل عزة البلاد ، فقد قيل كل شيء ، فهي كلمة تنطوي على مناحي الخير جميعا : على إعداد الأمة إعدادا صالحا قويا ، جسميا ، وعقليا ، وخلقيا ، ودينيا ؛ وعلى إعدادها إعدادا صالحا قويا ، حربيا ، وزراعيا ، وتجاريا ، وصناعيا ؛ وعلى إعدادها لتسخير كنوزها وذخائرها ، وعلمها ومعرفتها ، في سبيل الواجب ، وفي سبيل إسعاد البلاد . كذلك وضع الفاروق أمامه مبدأ وحب اتصال الأمة بجميع الأمم ، اتصالا أديبا ، وثقافيا ، لتأخذ من الأمم أحسن ما عندها ، وتقدم إليها أحسن ما لديها . تبادل الثقافة والأدب ، كما تبادل السلع والعروض والغللات . وهو — أعزه الله — حريص أشد الحرص على وحدة الأمة الإسلامية ، وتعاونها ، وعلى إزالة الفوارق بينها ، وإزالة التعصب الطائفي والجنسي ، لتتقابل كل طائفة أختها مقابلة الأخ لأخيه ، والنصير للنصير . والمسلمون أمة واحدة ، وتحدها القرآن ، ووحدتها القبلة ، فلا يجوز أن تفرقها الأغراض والشهوات ، واختلاف المذاهب والجنسيات .

منح الفاروق — أعزه الله — ملكة دقة الملاحظة ، وحب الاستطلاع والبحث ، وحب المعرفة الحقة ؛ فهو يسأل عن كل شيء ، ولا يقنعه إلا الجواب الصحيح . ورث هذا عن المغفور له والده العظيم ، الذي استجمع وسائل العلم وحب المعرفة ، وكان حريصا دائما على الاستزادة منها ؛ وكان يرى السلم شرعا ، وغرا يجب أن يقارن عزة الملك وشرف الملك ؛ فليس عجيبا أن يكون الفاروق في شرح الشباب جاريا على هذا المنهج . ذلك إلى فطرة سليمة جبلت على حب الخير والبر ، وحب العلماء وإحلالهم ، وتوفير الخير والسعادة لهم . والامثلة والشواهد على ذلك كثيرة ، وهي في غنى عن العدد والبيان .

أيها السادة :

لا شيء أنفع للأمم ، ولا أجلب للخير والسعادة ، من الحكمة ، وأداء الواجب ، على أن يكون أدائه من عقيدة وإخلاص ، لا من خوف من ذوى السلطان . والحكمة ، وهي المعرفة الحقة ، تستدعي تحرييد النفوس عن الأغراض والشهوات ، وتستدعي دراسة المسائل دراسة صحيحة ، ودراسة الوسط الذي تنبت فيه . ووظيفة الحكم كما تستدعي دقة الفهم والتعمق ، تستدعي مع هذا وجود الحلول على وجه السرعة والحزم . والشعور بالواجب شعور بوجود الأمانة والجد ، ألا يؤخر عمل اليوم للغد ، وألا يُدخّر وسع وقوة في سبيل الإداء . وكل إصلاح لا يكون على هذا الأساس فهو زخرف باطل . ولا بد أن يكون حرص الأفراد والجماعات على أداء الواجب حرص المسلم التقى على الطاعة لله . ويجب ألا يخلط بين الجد والهزل ، وأن يكون لكل منهما موطنه .



أيها الإخوان من العلماء ، والأبناء من الطلبة :

إن معهدكم هذا اضطلع بحفظ الشريعة الإسلامية وقواعد الملة ، وبحفظ اللغة العربية وعلومها عشرة قرون كاملة ، درجت فأبست أمما ومعاهد ، وأحييت أمما ومعاهد ، ومرت عليه أطوار من قوة وضعف ، شأن شأن كل كائن حي . وهناك حقيقة لا ينكرها أحد ، وهي أنه أستاذ جميع المعاهد التي تفارقه في معارفه ، وأستاذ كل خطيب وكاتب في مصر ، بطريق مباشر أو غير مباشر . ولا ينكر فضله إلا رجل عاق يفتي الحسد في صدره ، وتأكل صدره الضغينة والحقد . ومن المجهوب أن أشد الناس عداوة له هم الذين تولاه لما استطاعوا التعليم في معهد غيره ، ولولاه لكانوا من عامة الناس .

مرت على الأزهر أطوار قوة وضعف ، لكنه في طوره الحاضر نهض ينافع عن مجده ، ونهض يحيي معارف الأولين ، ويضم إليها معارف المحدثين ؛ وهو سائر في طريقه ؛ لكن بعض التراث القبي لم يخلص منه حتى الآن يظهره بظهور البطيء في الحركة إلى الرقي . والمطلع على الحقيقة يعلم أن عناصر الحياة قوية ، ويعلم أن أهله جاثون .

إني أرتحب بالنقد البريء ؛ وأنصح لكم ألا يضيق به صدركم ؛ فإن كان حقا فاشكروا الناقد واحملوا على الخلل من الخصال التي كانت سبب النقد ؛ وإن كان غير حق فادفعوه بالحسنى وأظهروا براءتكم مما وجه إليكم .

أما النقد الصادر عن حسنة في الصدر ، وعن ضغينة ، فروا به من الكرام ، صلابقول الله سبحانه : « وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُغْرَمِ مَرُّوا كِرَامًا » . وليس في مقدور أحد إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وأسأل الله جلوت قدرته أن يحفظ حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، وليكما المحبوب ؛ وأن يجعله مسدد الخطى ، دائم التوفيق ؛ وأن يجعل هذه البلاد دار أمن وسعادة ، ملحوظة بمرور الله ، مشموة بتوفيقه ورضاه .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

في احتفال الازهر ببليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم

احتفل الجامع الازهر المعمور في مساء يوم السبت الثاني عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٥٩ باحياء ذكرى المولد النبوى الكريم ، فاحتشدت فيه ألوف كثيرة من أقطاب العلم ورجال الدولة وطلبة العلم ووجهاء الناس ، وبعد تلاوة ما نسى من آيات الكتاب الحكيم ألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبة طنانة جمعت بين الحكمة الدينية والبيان الساهر ، فكانت قصة من نور الحق أفيضت عليه ، فأشعها على الحاضرين ، وحللتها موجات الاثير الى جميع أكناف الأرض .

لا جرم أن فضيلة الأستاذ الامام قد جمع من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وعظم خصائصه في صحف معدودة ، وبمبارات هي قاية في السمو الكتابي ، ما ضاقت عنه المطولات ، فكان ذلك منه إعجازا في الإيجاز ، لا يعرف قدره إلا من عانى هذه المواقف . واختتم فضيلته الاحتفال بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك معز الاسلام ، ومؤيد الدين .

قل فضيلة الأستاذ الامام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، به نستعين ، وعليه نتوكل ، ومنه نطلب التوفيق والسداد ، والهدى والرشاد .

رسول الله محمد بن عبد الله عليك صلوات الله ونعماته وسلامه وبركاته ، ما ذرّ شارق ولمع طارق . حصصت بصفات ميزك الله بها عن سائر ولد آدم ، في جسمك ، ونفسك ، وعقلك ، وعملك ، وخلقتك ، ولسانك ، وبيانك ؛ وأكل لك هذا بما لم يؤته أحداً من خلقه ؛ فأنت الشجرة المباركة الكاملة في دوحة الانسانية ، أخذت أكل ما في الدوحة من خصائص ثم آتت أحسن ما تؤتي شجرة مباركة من ظل وثمر .

أيها السادة :

كلما تعاقبت الأيام على الحوادث أثبتنا ، لكن جسيمات الحوادث يزيد من الأيام ذكرها ، ويملي قدرها ، ويكشف عن جمالها وبهائها ، وقوتها وعظمتها . وحادث ميلاد النبي العربي الأسمى من أكبر الحوادث خطراً ، وأبعدا أثراً . غيّر وجه التاريخ ، وأفاض على الانسانية من الخير والبركة ، والعلم والعرفان ، ما لم يكن لها به عهد من قبل . ولكل نوع من الخليفة مثال

يخال إن لم يكن موحوداً ؛ وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المثال الكامل من نوع الانسانية ، إذا نظرت إليه من جميع أقطاره ونواحيه ، بهرك وملاك إلهابك ، وفهرك على التأمل والبحث .

وإذا كان سرّ الوجود لا يزال محجّباً ، والناس تجدد فلا تصل إليه ، ولا تدرك إلا بعض الخصائص ، وأمامهم إليها سفر طويل ، ومراحل لا نهاية لها : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ، « أشهدوا خلقهم » ، شكك في شهادتهم ، فكذلك سرّ العظمة الحمديدية لا يزال محجّباً ، ولم يعرف الناس إلا بعض الخصائص ؛ ولا يزال سرّ العظمة مبرقعا بالجلال والجلال ، منيعاً بروعة الضوء وقوة النور ، لكن الآثار تهدي العارفين ، وتسوق أبواب البصائر الى العظمة والاعتبار .

وإذا كان الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، قد اختار محمدًا صلى الله عليه وسلم أميناً على وحيه ، مسلماً أكمل دين وأتم نعمة ، وأقوم هدى وأقوى رشاد ، واختاره خاتم الأنبياء ، واصطفاه للانسانية بعد أن قطعت مراحل شاسعة في سبيل الكمال ، واصطفاه لعالم جميعه أحمره وأسوده ، فقد صنعه الله على عينه مثالا كاملا خصه بأكمل الصفات ، وأرفع الدرجات .

وماذا أصنع أنا أو غيري أمام هذه العظمة التي ترد الطرف كتيلا ، سوى أن ألفت النظر الى بعض تلك الشرائل العظيمة والذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

كل ما صح في الروايات عن أوصافه الخلقية ، يدل على أنه منع أجل صفات الرجل وأكملها : بسط الله له في الجسم ، ومنحه من القوة ما أعدّه به لمصارعة الحوادث ، واحتمل الشدائد ، والصبر على المسكاره ، ليكون رجل جلال وجهاد ، إذا صارعه الباطل صرعه ، وإذا دعاه الحق نصره . وقد رووا أنه صرع ( ركانه ) وكان أشد أهل وقته ، وصارع أبا ركانه في الجاهلية مرات وصرعه ، فهو شبيه في هذا بأخيه موسى عليه السلام حيث وكز شخصا ففقدى عليه ، وقيل فيه : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

وإذا نظرتم الى حسن تديره ظواهر الخلق وبواطنهم ، وإلى سياسته العامة والخاصة ، وما أفاضه على الوسط حوله من علم وتهذيب ، وخلق وقوة وعزم وحسن معاشره ، حتى خرج من هؤلاء الدين لم يدرسوا في مدرسة ، ولم يخرجهم جامعة ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وعمر وحالد وأبي عبيدة وابن عباس وابن مسعود ، من غول العلماء ، ووجهة الفقهاء ، وأبرع القواد ، ودهاقين السياسة ، وجماعة الاخلاق ، وذوى البر والرحمة والشجاعة والتجدة - علمهم مقدار ما كان له من الاتر البالغ في تربية الرجال ، وتهذيب النفوس ، وتطهير الاخلاق .

ولقد كان مثلاً أعلى للأنطال في الشجاعة ، يؤيدها سلاح اليقين بالله . حضر المواقف كلها ثابتاً لا يبرح ، مقبلاً لا يدبر ، وقد فر من حوله السكأة والابطال مراراً ولم تحفظ عنه فرة ، حتى قال ابن حجر : « ما رأيت أشجع ولا أنجده ولا أجود من رسول الله » .  
وقال علي : « كنا إذا جئ الناس ، واحمرت الحديق ، اتقيا برسول الله ، فإ يكون أحد أقرب إلى العدو منه ؛ ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوح بالنسي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو ، وكأن يومئذ أشد الناس بأساً » . ولقد فزع أهل المدينة ، وانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم النبي راجعاً قد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ الخبر ، والسيف في عنقه ، وهو يقول : « لن ترأعوا » .

هذه القوة ، وهاتيك الشجاعة ، كانت لله ، وفي سبيل الله ، يصاحبها قلب رحيم ، وصبر لا يفي ، وحلم لا يتعد . قال في أحدٍ لما كُسرَت رُباعيته ، وُشِّجَ وجهه : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » . فقدم لهم العذر بالحالة ، ودعا لهم بالهداية ، ولم يشارك أخاه نوحاً في الدماء على قومه ، حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنيك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يفلحوا إلا فاجرًا كفاراً » ، بل قال : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » . ومثله في هذه الرحمة مثل أخيه عيسى حيث قال : « إن تعدبهم فانهم عبادك » ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

كانت أخلاقه القوية الباهرة ، يؤيدها الوحي الإلهي ، والتفناء في امتثال أوامر الله : « خذ المغر وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » - مادةً لهذا المريح المحيبي الذي يرضى إذا رضى الوحي والكتاب ، ويفضب إذا سخط الوحي والكتاب ، ويفضي عما فرط من أعدائه في حق شخصه ، ويدعو لهم بالهداية ، ويقول يوم فتح مكة « اذهبوا فانتم الطلقاء » .

ولقد دانت أطواره جميعها ، قبل النبوة وبعدها ، على أنه كان شديد الرأي ، قوى القلعة ، واسع الحكمة انظر إلى تصرفه في وضع الحجر عند اختلاف قريش على من يضعه منهم ، حيث أمر بشوب وصع فيه الحجر ومسك كل فريق منهم بطرف من أطرافه ، حتى إذا دنا من موضعه أخذ به بيده الطاهرة فوضعه موضعه ، وبذلك أزال الضغينة ، وحقق الدماء .

هذه الحكمة التي كانت قبل النبوة ، زادت في النبوة قوة وثباتاً ، فلم تفارقه في تبليغ الوحي ، ولا في الحروب ، ولا في تأليف الناس ، ولا في سياسة العامة والخاصة . وكتب السير مليئة بالأمثلة والشواهد التي يخطئها العد ، وتفوق عن الحصر .

أسعده في هذا كله طيب العصر ، وشرف النسب ، والحباء ، والتواضع ، والشكر ، والزهد ، والعفة ، والجود ، والمروءة ، وبيان ساحر يملك على النفوس أمرها ، ويقفها موقف المشدود العاجز .

وسع الناس جميعهم خلقه ، فصار أباً رحماً ، وصاروا أبناء يرة ، كلهم عنده في الحق سواء ، لا يذكر أحدا بسوء ، وإن افترف أحد سيئة قال : « ما بال أقوام يصنعون كذا » . لم يطلع عن أحد شره . على أنه كان أعرف الناس بالناس ، وكان شديد الحذر . كان يقول : « أحبكم إلى وأقربكم مني محالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموثون أكنافاً ، الذين يلقون ويؤلقون » . يكرم كريم الأقوام ، ويتفقد أصحابه لا يغفل عنهم . لكل حالة عنده عتاد . يقرب الأخيار ، وأفضلهم عنده أصمهم نصيحة لله والرسول وللمؤمنين ، وأكرمهم عنده أحسنهم مواساة ومؤازرة . يلبس الشملة والكساء الخشن ، والبرد الغليظ . لا يبيت عنده دينار إلا ديناراً أعده لقضاء دين عليه .

ثابر على الصراط المستقيم ، وثابر على الدعوة إليه ، ففى في الحق ، ولم يزل وجوداً إلا بالحق ، فتم بقلته ، ونعم بحوار ربه حياً ، ونعم بحوار ربه ميتاً ، فسلام الله عليه يوم ولد ، وسلام الله عليه يوم مات ويوم بعث حياً .

ولقد فاز بكل مادما به ربه في دوائه المشهور ، المملوء جلالاً وسجراً :

« اللهم إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شمتي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها صلي ، وتاهمني بهارشدي ، وتعضمني بها من كل سوء . اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وروى عنه أنه قال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، واليقين قوتي » . فقوا عند هذا ، وأطيلوا الوقوف ، وتأملوه وافقهوه ، فما الخير إلا في فهمه ، وإطالة الوقوف عنده .

لم تكن معرفته قارة من القوارع ، يراها أهل جياها ومن حضرها منهم ثم تغيب فلا تعرف إلا بالأخبار والسامع ، فلا عصا موسى وتفجير الينابيع من الأحجار ، ولا شفاء الأمراض المستعصية ، ولا الرغ الصرصر والنافه ، ولا الطوفان ، لاشيء من ذلك باق أمام العقل والفهم ، تستمد منه الحكمة ، وتتفجر منه ينابيع البلاغة ، ويشق أمراض المنجم ، ويقيم العدل ، ويعرف الناس ما يليق أن يعرف من الغيب ، ويضيء الطريق أمام الإنسان فيضع لنفسه أحسن النظم وأكمل القوانين .

لكن القرآن ما لا يبدد ولا ينقطع ، تجدد في كل حين آياته ، ويذكر الناس بعظاته ، وهو الحصن إذا اشتد الكرب ، والملاذ إذا حمت السبل ، وتشابهت الأمور ، وهو سفينة النجاة من هذا البحر المضطرب الذي تغشاه الظلمات .

على أساس العقل — كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم — كانت محزنة ؛ وعلى أساس العقل شرعت الشرائع وسنت القوانين ؛ وعلى أساس العقل واجه الاسلام الانسان ووضعه حيث هو ، حيوان ذو عقل ، أباح له الدنيا وزينتها ، ومكنه من الطيبات في حدود حددها ، ووفى غرائزه حقها بما يصلحها ، ثم رفع منزلته حتى جعله خليفة الله في الارض ، وجبب إليه المعرفة ، وجعلها رأس المال ، وفتح أمامه الطريق واسعاً لإشباع شهوة العقل وفهمه في الحدود الثلاثة به .

على أساس العقل قامت الدولة الاسلامية ، وقام العلماء الصالحون يفسرون الكتاب ، ويوضحون العقائد والشرائع ، فكانوا أئمة الهدى ، ومنار الرشد ، وساسة العدل ، وأساطين الحكمة ؛ وكأول الله وفي سبيل الله ، لا لأنفسهم ، ولا لأئمة الجور والطغيان . ولما زحزح الناس الأساس ، ولم يعرفوا حرمة العقل في مصائر الأمور ، زحزح الله الخير عنهم ، وأبغضهم من فقه الدين ، كما أبغضهم عن الدين : « أصاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يذوقون عذاباً » .

على أساس العقل يجب أن يفهم الكتاب ، وتفهم السنة ، وتفسر الآيات ، وينظر الى مصالح البشر . ومن أهدر العقل فقد أضاع الأساس وباء بالخسران .

رأس ماله صلى الله عليه وسلم المعرفة ، فهي تمسح العقيدة في الغائب والشاهد ، وتفسر آية الكون ، وتسخر الطبيعة وتذلها للانسان ، وتجلب سعادة الدنيا والآخرة ، وترفعه على الانسانية ، وتلطف حدة الطبيعة وقوتها ، وتز الأمل وترفع قدرها ؛ لكن على شريطة أن يصاحبها الدين ، وتشدتها الأخلاق ، فإذا فارقت الدين والخلق ، نتجت شر الشج ، وأمطرت سحبا الشر ، وقذفت صواعق الهلاك ، وكانت وبالاً على الانسانية . فهاهنا الشرور الجائحة في العالم اليوم إلا نتيجة المعرفة بطواهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة : « يملكون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأنكروا فعاقمهم ، سليمهم بهجة الحياة ، من طمأنينة ، وأمن ، وسلام ، ورضا بالقدر ، وقناعة بما قدره الله .

اليقين هو القوة ، فما اعتزت أمة إلا باليقين ؛ فهو الذي يدفع الى العمل ، ويسوق الى الأسباب .

اليقين يزيل الراسيات ، ويحول مجرى الأنهار . ينبت الأخلاق الفاضلة إن لم تكن ، ويقويها إن كانت . فهو إيمان بالله وبالخلق ، وبأن الحياة الدنيا متاع الفرور ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الموت آت لا محالة ، إن كان مقدوراً لا تنق منه البروج المشيدة ، ولا الأطم المحصنة ؛ وأن الجنة أعدت للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله ، وفي سبيل الحق ، وفي سبيل اللود عن الوطن

والمرض ؛ وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة ، وأن الله سدوة والروحة في سبيل  
الله خير من الدنيا وما فيها ؛ وأن الشهداء في جوار الله ينعمون . وإيمان بأن الجبان الفارّ طاق  
الله والوطن ، وغائن للأهل والمشيخة والقرية .

أيها السادة :

لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بالعقل ، والمعرفة واليقين ؛ فلم يذهب مجدها وعلمها  
وفقها إلا بإهدار هذه الأسس ، وبمدها عن فهم الكتاب وتعاليمه الراشدة ، وعن هدى  
صاحب الرسالة ، صلوات الله عليه ؛ وقد فرقها الجهل ، وأذهب ربحها عدم استعمال العقل .

قد يكون ذلك الشر الذي تعانيه الأمم بسبب غضب الله وسخطه على عباده ، وبمدها عن  
الآديان وغلوها في الإلحاد ، قد يكون سببا في الآوبة والرجوع إلى الله . يقول الله تعالى : « وإدا  
مسّ الإنسان الضر دنا ما لجنته أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر  
مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . فهذه المحن والويلات قد توجه الناس إلى الواحد  
المعبود ، يطلبون النجاة فلا يجدونها إلا عنده ، في وحيه وهديه ، وقد تنسبهم هذه الشهوات  
الجامعة فيبحثون عن الشفاء . ومصائب الأمم لا تنسى مريعا ، وضررها لا يتكشف قريبا ،  
وآثاره تبقى ماثلة طويلا ، وفي هذه الحقبة تفكر في الدين وتمود إليه ، إن شاء الله .

أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بحول الله على الله عليه وسلم ؛ وأسأل الله لي ولكم  
عونا وتوفيقا ؛ وأسأله لي ولكم عيش السعداء ، وإيمان الأصفياء ؛ وأسأله للعالم عقلا يدينه  
من الصواب ، ويشفيه من الجنون ، إنه الطيف الرحيم .

وأسأله لبلادنا العزيزة طمأنينة وسلاما ، وسعادة وهديا ، ولصاحب الجلالة العزيز المحبوب  
ملكنا المعظم ﴿ غاروق الاول ﴾ رعاية من الله وعزا ، وأن يكون عونا على الحق ،  
ناصراً للدين .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركته .



# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

### الحرب في شرعة الاسلام

لما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها في الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تمنح قريش حينها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زمامة الدين في البلاد العربية ، عن قيام زمامة أخرى في بلد كثير بيصح منافسا لأم القرى ، وربما يزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الاسلام من جانبها كانت ميوله سادية ، فاصفح عنهم وقل سلام ، أن يستمر في منع التناحير به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذي نُزل للانسانية كافة ، في عالم يضع الحق فيه إن لم تكن ورائه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلح الذي يشهره خصومهم في وجوههم ، فأُزيل الله قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساعد يدكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الامور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح وحاد ونمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدائن ، وكذب موسى ، فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ؟ فكان من قرية أهلكتها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . ويستجابلك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير . قل يا أيها الناس إنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين

سعوا في آياتنا ما جزين أولئك أصحاب الجحيم »

هذا ولم يُعقل الاسلام حتى في هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لاتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لاموضوع انتقام ولاشفاء حزازات الصدور .

وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لا ستنصاه ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض لعمل لاستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والاسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يمد العالم كله أمة واحدة ، غير معتد بما أحدثته البيئات والتقسيم الجغرافية بينهم من الفروق في الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موجهه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء ، أحبطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف في سفك دماهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مثلاً علياً لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوطاً من السنين الى خيال منها ، فاهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدام المحاربين الذين يمدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الإجهار على حرهم ، وعدم تعقب مهزومهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : « قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمكم شئآن قوم ( أي ولا يحملكم بغضكم لقوم ) ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » وقال : « ولا يجرمكم شئآن قوم على أن لا تعدلوا ، عدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

بهذه القيود الرحيمة ، وفي هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن يفتكوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقاتلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات خاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه الى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم في حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتراف .

هنا لا بد لنا من نقي شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الاسلام ضده ، إذ قالوا إن الاسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا الى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهي أول ليكون رحمة للعالمين .

لا جرم أن الذين يطعنون بهذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضي ومن عوامل الاجتماع الانساني ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليحيى حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدامع والتقابل ، ليس فيما بين الناس غصب ، ولكن فيما

بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من قسـه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا ، وقد نبى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الانسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا اظن أن قارئنا من قرائنا يجبل الشاموس الذي اكتشفه دارون وروسـل ولاس ودعواه ناموس تنازع المقاء ، وبقيـا عليه كل تطور أصاب الأنواع السانية والحيوانية والانسان أيضا . وقد أشار الله الى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالانسان : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » . وإعنا تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاسم الأخيار من التنكيل بهم . فضلا عن تغلب الأشرار في شرورهم ، فاهم لا يدعون الأخيار أحرارا في ممارسة فضائلهم . وقد صرح الكتاب الكريم بهذا في قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع ويبسوع ، وصلوات ومساعد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى حصوم الدين النصراني للمسيح وما كان يدعو إلا للإصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مصت ثلاثة قرون وهم مشردون في الأرض لا تجمعهم جامعة ، الى أن حامم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قنسططين الروماني ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أحمل السيف في الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية ديناً لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زمامة دينية . وأقلام هذا الدرس القاسي في ضرورة استخدام السيف لشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم في الحيز الذي هو فيه .

أولم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لحمد صلى الله عليه وسلم فتموه من نشر الدين الذي أوحاه الله إليه ، واتهم أسرم بالتآلب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر الى المدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والنفضة على أثره ؟

أفريد منير وهذه الشبهة أن يقوم دين على غير المبدأ الطبيعية في عالم مبني على مبدأ التفاضل والنزاع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، وذلك صروح العدل ؟

يقول المعارضون : وماذا أعدتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستئصال فيه ؟

نقول : أعددتنا لهذا العهد قوله تعالى : « وبن جمعوا لاسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

هذه حكمة بالغة من القرآن، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة، وهي أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التي لا يد منها مادام الإنسان في عقلية ونفسية المأثورتين عنه. غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمي يتفق فيه على إبطال الحرب، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية، وليلد على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى. ولو كان يريد لها لذاتها لما نوه بهذا الحكم. ولو كان ذكره إمكان جنوح الأمم للسلم، لكر على هذا القول بالدحض، ولخص أهله على عدم الإصغاء إليه، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم.

ومما يجب لفت النظر إليه، أن الاسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعي قبله. ناهيك أن الله قد سمي نفسه السلام، وجعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات، ونوه القرآن في آيات كثيرة بكلمة السلام، ودعا الجنة التي وُعد بها المؤمنون بدار السلام، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام، فخواء البلاد الاسلامية مشبعة بهذه الكلمة بنفسها المسلمون بمنزلة بأوكسيجين الهواء، وليست هذه سيرة الأمم التي تجعل شعارها الحرب في الحياة، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس.

ويزد هذا الأمر انضاحاً أن الاسلام إنما سمح بالحرب لايجاد السلام، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأمم، فقال تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله». ومن المعجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هي في مثل هذه الضرورة اليوم، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها، لا م لها إلا إيجاد السلام، فعلى من يتهم الاسلام باقرار مذهب التناحر أن يستمر بما سيقت اليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا في سبيل تحطيم مبدأ التناحر لا في سبيل شيء آخر. فإذا كانت هذه الأمم التي وصلت من المدنية الى درجة رفيعة، تضطر الى الدخول في مثل هذه الحرب الماحقة، في القرن العشرين، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تشأ في الجماعات التي في دور التكوّن لتحمي وجودها، في عالم كان كل ما فيه موحها إليها لخلها، وملاشاة كل ما حُملته من عوامل الهدم والنساء لتأسيس عهد جديد يخرج بالانسانية من الظلمات الى النور؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الاسلام بالحرب، كضرورة لا محيد عنها، كان لحكمة بالغة، لو أغفلت لكان تلاشي كل ما حُملته الاسلام من عوامل إنهاص الأمم، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه توزع تحت كسف من الضلالات، وتنوء تحت آصار من الأوهام، الى عهد حرية التعقل والسطر، والبحث والتدليل، والمسئولية الشخصية، وهي الثلاثة الأركان التي ائتمن عليها صرح التطور الأخير للانسانية المتجهة الى كمالها المنشود.

محمد فريد وجري

# التفسير

## سورة الاعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفريغ سورة الاعراف

«الْمَعْصُومُ» كَتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَى  
لِلْمُؤْمِنِينَ :

هذه سورة الاعراف ؛ والاعراف هي المواضع العالية الممتازة ، تُختص لأهل الشرف والامتياز . وسميت هذه السورة بسورة الاعراف ، لما جاء فيها من حديث عن أشرف أهل القيامة الذين يجعلهم الله إذ ذاك في مكانة الإشراف على المخلوق : على المؤمنين وهم يستقبلون ما وُعدوا من نعم خالد ، وعلى الكافرين وهم يستقبلون ما أنذروا من عذاب مقيم . اقرأ قوله تعالى : « وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » ، ونادوا أصحاب الجنة أني سلام عليكم ، وقوله تعالى : « ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

وقد نزلت هذه السورة في العهد الأول للدهوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الاسامي لمرح الاسلام ، ويدعو الى توحيد الله ، بالنبشير والإنذار ، والتذكير بالمسئلات التي خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد زولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذ لم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوي تحت لواء واحد فتحتاج الى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحلق ، جرى فيها أمره الله ، يرن في أجواء مكة وما حولها ، ويدوي في آذان قوم ما كفيين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العال الجريء يدعو الى توحيد الله ، وإلى التحرر من رقة الأوهام ، وإلى السمو بالكرامة الانسانية والعقل البشري عن وهدة الشرك التي ارتكس فيها الانسان ، فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

هدا ما كان في ذلك العهد الذي نزلت فيه سورة الأعراف . وهي أطول سورة نزلت في ذلك العهد ؛ وأكثر ما نزل قبلها من سور الجزأين الآخرين .

وهي تكاد تكون مقررة لجميع ما ذكر في السور التي نزلت قبلها ، ولهذا لا نجد فيها بدءاً للمؤمنين ، ولا خطايا لهم ، ولا لأهل الكتاب ؛ وإنما تجدها مخاطب الإنسانية في أوسع حدودها ، وبأعم أسمائها .

« يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباساً يوارى سوءاً ربكم ، وریشاً ؛ ولباسُ التقوى ذلك خير » .

« يا بني آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويك من الجنة » ؛

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ؛

« يا بني آدم إنما يأتيتكم رسول منكم يقصصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

المخاطب في ذلك كله لأبناء آدم ، للناس جميعاً ، لا للعرب ولا للمسلمين ؛ حتى وهي تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك في أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنسأهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما نفشأها حملت حملاً خفيفاً فررت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاها صالحاً جملاً له شركاء فيما آتاها ، فتعالى الله عما يشركون » .

وكذلك لا نجد فيها أحكاماً ولا نظماً ، ولا تفصيلاً لمادة من العبادات ، وإنما نجد فيها تتحدث عن المبادئ العامة ، والأحلاق الفاضلة ، تدعو إليها الناس جميعاً ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادئ التي لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالم السلم ، وشملته الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تمودون » ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى نهي الخلق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « ولكل أمة أجل » ، « لا تكلف نفساً إلا وسعها » ، « ولا تفسدوا في الأرض بحد إصلاحها » ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لمتحننا عليهم ركات من السماء والأرض » ، « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي حبست لا يخرج إلا تكيداً » ، « أو لم يهد للذين يؤثون الأرض

من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم » ، « ساء عرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا » ، « فلما نسوا ما ذكروا به أنحننا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا بمذابيب يسيس بما كانوا يفسقون » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » .

وسورة الأعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الانسانية من يوم نفثها ، فتذكر خلق الانسان وتصويره ، وتمكينه في الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد قطري ، بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » .

وتذكر آدم وزوجه ، وتأثيرها بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجهما عما كانا فيه ، وتضع العلاج الذي بقى الانسان شر التأثير بالهوى والشيطان : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإدام مبصرون » .

والسورة أيضا تنلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق في فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ، وتذكر في ثنايا ذلك ما نزل بالآيم التي هنت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلسكوا بالصبيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة ، ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من المذاب : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقنسل والضفادع والدم ، آيات مفصلات » . ثم هي تقف على ذلك بأخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهي الخالد ، فصل النبوة المحمدية : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . هذا تعريف مختصر بسورة الأعراف .

#### أوائل السور

قال الله تعالى : « الْحَمْدُ » :

هذه حروف مركبة تكون في رسمها شكل الكلمة ، ولكنها لا تقرأ قراءة الكلمات ، وإنما تقرأ ساكنة هكذا : ألف ، لام ، ميم ، صاد . وقد ابتدأ الله بهذه الحروف وأمثالها تسعا وعشرين سورة من كتابه العزيز ، كلها مكية إلا قليلا نزل بالمدينة أول عهد المسلمين بالهجرة إليها .

واللغة العربية لا تعرف لهذه القوائم معنى غير التي تتركب منها الكلمات . ولم يرد تفسير أترى صحيح يبين المعنى المراد منها ، كما ورد في مثل الصلاة والزكاة وسائر الكلمات التي أثبتت

الشرعية لها معنى جديدا . ولهذا وذاك غلّت تلك القوايح مد أن تناول الناس التفسير والتأويل موطن أقوال وتاويلات .

غير أن لهذه الحروف في جميع مواطنها خاصة لا تكاد تفارقها ، وهي أنها يعقبا خالدا ذكر الكتاب ، والتنويه بشأنه ، وتوجيه الأنظار إليه . والكتاب هو الدين كله ، وهو الدعوة كلها ، وهو الفرقان القائم يقضى الحق ويفزو الباطل في جميع المصور والأحيال :

«السمّ» ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، «السمّ» الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق ، «الآر» تلك آيات الكتاب المبين ، «الآسر» تلك آيات الكتاب ؛ والذي أنزل إليك من ربك الحق ، «الآر» كتاب أنزلناه إليك لتفخرج الناس من الظلمات الى النور ، «طسم» تلك آيات الكتاب المبين ، «طس» تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين ، «طسم» تلك آيات الكتاب المبين . تسلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، «من» والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، «حسم» تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، «حسم» تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، «حمصق» كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ، «ق» والقرآن المجيد .

وبهذه الخاصة نستطيع فقط توحيه الحكمة في افتتاح هذه السور بتلك الحروف على وجه لا يعرفه القوم في لغتهم ولا كلامهم .

إن حياة الرسول كانت في ذلك العهد الذي نزلت فيه تلك السور حياة كفاح وحلاد ، وخصومة ولدد : يلقونهم رسالة ربهم فيعرضون عنه ويتمونه بالكذب ؛ يثار عليهم من كتابه فيقولون : هذا سحر ، ويقولون : إنما يعلمه بشر ؛ ولكنهم مع هذا يرون للقرآن سلطانا على نفوسهم ، وتأثيرا في عقولهم ، فهم إذا مسموعه أخذتهم روحه ، وملكتهم قوته ، وبهرتهم بلاغته ، فاذا يصنمون ؟

يوصى بعضهم بعضا أن يصموا آذانهم ويعلقوا قلوبهم : «وقالوا قلوبنا غُلْفٌ» ، «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب .»

يوصى بعضهم بعضا أن يتصامحوا في مجلسه ، وينطقوا باللغو في أثناء قراءته ، على نحو ما تعمل السوق من التهويش والتشويش : «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» .

هكذا كان موقفهم من القرآن ؛ فابتدأ الله بمض السور التي نزلت في ذلك العهد بهذه الحروف التي لا يألها القوم ، قرأوا لاسماعهم ، وتوجيهها لأنظارهم ، وقسراً لهم على استماع



القرآن ، واستخدما للفرزة الانسانية المولعة باستكشاف الغريب واستطلاع العجيب . ذلك بأنهم إذا سمعوا قارئاً يتلو « أَلَمْ يَكُنْ » « حَسْبُكَ » ، عجبوا لما سمعوا ، وأنصتوا بعد ما أعرضوا ، فيدخل القرآن بذلك آذانهم ، ويغش عقولهم ، ويميل بدعونه الى تقويمهم ، وكان ذلك طريقا الى انتفاعهم بالقرآن ، وحلا لهم على الدخول في هداية الرحمن .

ولعد : فهذا كتاب الكون لم يزل كثير من أسرارہ عجبا لا تدركه العقول ، ولا تهتدى إليه الأفكار ، على شغف الانسان باستطلاع خباياه ، وجده في معرفة حماياه ، واستكشاف غرائبه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وكذلك كتاب الله المكنون ، فنه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخبر متشابهات ، استأثر الله بعلمها ، وقضت حكمته بحجبها ، ابتلاء واختبارا ؛ « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ؛ وما يذكر إلا أولو الألباب .

قال الله تعالى : « كِتَابٌ أُزِّلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » :

جاءت هذه الآية بعد « أَلَمْ يَكُنْ » على المحط الذي أشرنا اليه ، تنويعا بشأن الكتاب ، وتمجيدا لقدره ، وتقريرا لآزاله على عهد صلوات الله عليه ، لغاية سامية : هي هداية البشر ، وإخراجهم من الظلمات الى النور : « كِتَابٌ أُزِّلَ إِلَيْكَ لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » . وحسرج الصدر : ضيقه . وينشأ من فوات مرغوب أو ترقب فواته ، ومن حصول مكروه أو توقع حصوله . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحي الذي ينزل عليه . « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا » ، ومن جهة إيمان قومه به ، ومقدار حرصه على ذلك ؛ ومن جهة تكديهم إياه ، وما يلاق من إعنات ومشقة . كل هذه الجهات كانت مبعث حرج وضيق ؛ وكان شأن الله معه — وقد تولى أمره ، وكمل له العصمة من الناس ، والإقدار على تبليغ الرسالة — أن يخفف عنه آلام ذلك الموقف ، ويتممه الفينة بعد الفينة بالصبح والإرشاد والتسوية ، وحمل ما يلقي في سبيله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْلِكَ بِهِ ، إِنْ عَلِمَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنْ عَلِمَا بَيَانَهُ » ، « فَلَمَّا كَلَّمَ بِحُجَّتِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ، « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْسُدُونَ » ، « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن هذا القبيل قوله جلّت حكمته : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ » ، أي إذا كان

الواقع الذي تعلمه من قرارة نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله ، فمكن عند تقنك نفسك ، ولا تدع لشكذبيهم أثرا في قلبك ، ولا لعدم إيمانهم ساطنا على نفسك ، ولا لثقل الوحي اضطرابا في قواك ، فإله قد تولاك ، وبفضله رباك ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك » . فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة ، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال لتقوم بوظيفتك التي اصطفاك لها الله .

« لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » :

الإيذار . لتبليغ مع التخويف . والذكرى : التبليغ مع توجيه النفس الى ما تعلم من جهات العظة والاعتبار . وقد ذكر الله في هذه الآية الإيذار عاما ، وخص الذكرى بالمؤمنين ، وتلك سمة القرآن وطريقته غالبا في الإيذار والذكرى : « لتنذر أم القرى ومن حولها » ، « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » ، « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ، « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . ولعل ذلك يرجع الى أن الإيذار كما قلنا تبليغ مقرون بالتخويف ، والتخويف زجر وتأديب . وهذا يناسب الكفاية بما فيهم من الاستعدادات المختلفة والطباع النادرة . أما الذكرى فاحتكام الى النفس الملهمة والضمير الحى ، والرجوع بهما الى ما فى الكون من عظات وعبر . فهي نوع من السمو حدير بالمؤمنين الذين صفت نفوسهم ، واستعدت أرواحهم لما يتلقونه من وحى وتعليم : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

محمود شلتوت

( يقبع )

## القلوب الكبيرة

كان كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى عم محم النبي صلى الله عليه وسلم ، مأهرا دمه . فعما بلغه ذلك خشى طافية أمره بعد فتح مكة ، ونصحه بعض أصحابه بأن يستسلم لرسول الله فإيه لا يحمل ضمنا لاحد ، قائلا : إن هذا أنجى من كل وسيلة . فقصده اليه فى المسجد واندفع ينشده لاميته المشهورة حتى بلغ الى قوله :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والغزو عند رسول الله مأمول

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يردده عليه .

# السنة

## مباحة الدين الاسلامي

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِنَّ الدِّينَ يَمْرُءٌ وَلَهُ يَشَادُ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدُّوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْقُدُورَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلَّةِ » .  
رواه البخاري في كتاب الإيمان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالاً . (٢) بيان مباحة الدين الاسلامي .  
(٣) بيان ما يترتب على مخالفة هذا الدين من المضار الدنيوية والآخرية

(١) يتضمن هذا الحديث نهياً عن التشدد في الدين تشدداً يوجب السآمة والملل ، أو المحز من أداء الواجبات ؛ وحثاً على القصد والتوسط في أداء التكاليف الشرعية بدون إفراط أو تهريط .

ومعنى التشدد في الدين : التمسق في تطبيق قواعده الحكيمة السمحة ، والإفراط في الأعمال والأقوال الدينية إفراطاً ضاراً . وذلك شر وييل نحو مجافاته والفرار منه . فواجب على المؤمنين العاملين أن يزكوا قدرتهم على الاستمرار في أعمال الخير والبر بميزان الدين الصادق ، فلا يرهقوا أنفسهم في عمل من الأعمال الدينية بدون حساب لقدرة على الاستمرار في أدائه بدون انقطاع ، سواء كان ذلك العمل صلاة ، أو صياماً ، أو صدقة ، أو جهاداً ، أو غير ذلك من الأعمال التي لا بد منها لإصلاح الأفراد والجماعات .

ولعل قائل يقول : إن هذا الحديث وأمثاله إنما يناسب حال المؤمنين الأولين الذين كانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، ولعبدون الله تعالى آباء الليل وأطراف النهار بدون تفرقة أو هوان ، فاحتاجوا إلى تنبيه بأن دينهم يأمر بالرفق والتوسط في كل الأمور ؛ أما الآن فنحن في زمن قد هجر فيه كثير من الناس قواعد دينهم الأساسية ، وأخلاقه الفاضلة ، التي سعد بالاستمسك بها من كان قبلهم من المؤمنين حقاً ، فاعطوا ، وما العظة التي تأمر بالتوسط في أعمال البر وتنهى عن المخالفة فيها خوفاً من السآمة والملل أو العجز عن الاستمرار في أدائها . فترى الآن كثيراً من الناس يجاهرون بالفسوق والمعيان ، والإفراط في الشهوات الفاسدة الضارة

بالأنفس والأموال ، على عكس أسلافهم من المؤمنين الذين كانوا يرهقون أنفسهم في سبيل الله ومن أجل الله . ومن أهل زماننا من بلغت به الفحمة وحبه للشهوات الفاسدة واللذات المحرمة مبلغا جعله يباهى بالذائل الخلقية ، ويعتبر الفضيلة جورا وانحطاطا . ومنهم من غادته زخارف المدنية الكاذبة الى التقليد الأعمى في المفاسد والموبقات ، ومحاربة الله ورسوله ، مع أنهم كانوا أحق بأن يفلدوا في التمسك بأسباب القوة والمنعة ، ووسائل الشرف والكرامة . فكان من نتيجة كل هذا أن مكن الله منهم أعداءهم ، وأذاقهم هوان الشهوات الفاسدة ، وكانت حاقمة أسرم خسرا . فاهلؤلاء والموعظة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الأولين الأطلهار ، الذين كانوا يبالغون في طاعة الله ورسوله ١٢

والجواب : أن هذا الكلام حق لا ريب فيه ، وأن الفساد الذي طرأ على الأخلاق أصبح داء عصالا ، ولكن النظر في هذا الحديث وأمثاله فيه عظات وعبر لأولئك الذين هجروا العمل بقواعد دينهم الحكيمة . فاعمل هؤلاء ينجلون من أنفسهم ومن حساباتهم في عداد المسلمين المؤمنين حقا ، إذا علموا أن أسلافهم الأولين كانوا يجهدون أنفسهم في أعمال البر ، ويبالغون في طاعة ربهم مبالغة قد تضر بأنفسهم وأموالهم وأهلهم ، فاحتاجوا الى نهى عن الزيادة المضارة التي قد تكون سببا في العجز عن العمل طاحلا أو أجلا . لعل هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله بالانقياد الى شهواتهم تؤثر فيهم أخلاق أسلافهم الفاضلة ، ويكفون عن الموبقات المضارة بأبدانهم وأموالهم ، ويسيرون في أعمالهم وأقوالهم سيرة مرضية ، فيظفرون ببعض ما ظهر به أسلافهم من عز ومنعة وشرف وكرامة . لعل هؤلاء تؤثر فيهم الموعظة الحسنة ، ويدركون أن القدوة الصالحة تتقدم وتنقذ أمتهم من فوضى الشهوات الصارة ، وذل المعاصي المحزى ، فيكفون عن الموبقات ، ويعملون الصالحات التي تسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

ومع هذا فإنه يوجد في زماننا هذا كثير من الجهلة يرهقون أنفسهم بالقيام بالأعمال المندوبة ، من أذكاء ، وأوراد ، ونحو ذلك ، فتشغلهم عن أداء الفرائض التي لا بد منها لصلاحهم وصلاح المجتمع . ومنهم من يستمسك بعبادات فاسدة ، فيرهق نفسه في سبيل إحيائها باسم الدين ، ويترك ما هو واجب عليه اكتفاء بها . فترى بعض الجهلة يتهاكفون على الاتفاق في إحياء الموالد المبتدعة التي نهى عنها الدين ، ظنا منه أنها من القرب التي يتقرب بها الى الله ، ويترك زكاة أمواله وصلة أرحامه ، وإفائة الملهوف ، والاتفاق في سبيل الله ، اكتفاء بما قام به من الاتفاق في إحياء ليالي المولد وذبح القبايح . ومن هؤلاء من يرهق نفسه ويستدين لإحياء تلك البدع المضارة أو لإحياء ليلية يرضى بها شيخ طريقة ، فيستدين للاتفاق على ما يعتقد عبادة من أذكاء محرقة ، وتمايل معيب وسط أتان محظورة . كل ذلك ومحوه مما يظنه بعض الناس عبادة تغنيهم عما كلفهم الله به من مهام الأعمال الخيرية ، لا يقره الله

ورسوله ، وإنعاهم في الواقع يشقون على أنفسهم بعمل ما حبشتمون به عند الله عز وجل ؛ ولم يكلفهم الله إلا بعمل نافع لهم في آخرتهم وديارهم . وهناك فريق آخر يشدد فيما لا فائدة فيه ، أو فيما عفا الشارع عنه ، كمن يضره الوضوء أو الغسل فيفتسل ، مع أن الشارع شرع له التيمم في هذه الحالة ، أو يضره الصيام فصوم ، مع أن الشارع نهى عن الصيام في هذه الحالة ، وشرع له الصيام في أيام آخر .

أما قوله : « فسعدوا » فعناه : الزموا السداد ، وهو التوسط في الأعمال من غير إفراط ولا تفريط . وقوله : « وقاربوا » معناه : إذا لم تستطيعوا فعل ما أمرتم به فافعلوا ما يقرب منه مما هو في ملافتكم . وقوله : « وأبشروا » أبشروا بنواب أعمالكم ، لأن الله سبحانه لا يضيع أجر الماملين ، وقد وعدهم أن يجزيهم على ما يستطيعون من العمل أحسن الجزاء ، ولئن تخلف الله وعده .

أما قوله : « واستمعنوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة » فعناه أنه يجدر بالعاملين أن يتوخوا في القيام بأعمالهم أوقات النشاط ، كما يتوخى المسافر أوقات النشاط ، فيسير في الغدوة بفتح الغين ( وهي السير أول النهار ) . والروحة بفتح الراء المشددة ( وهي السير بعد الزوال ) . والدلجة بضم الدال وفتحها وإسكان اللام ( سير آخر الليل ) . وهذه الأوقات هي الأوقات المناسبة للمسافرين الذين يقطعون البوادي على راحلهم . فالعاملون ينبغي لهم أن يسلكوا سبيل المسافرين في اختيار أوقات النشاط التي لا يملكون فيها . والغرض من هذا أن يقول لهم : لا يلزم أن تصرفوا كل أوقاتكم في الأعمال فتدرككم السآمة ويلحقكم الملل ، فتعجزوا عن مواصلة العمل ، كما لو واصل المسافر سيره فإنه ينقطع ويعمل .

وقد وردت أحاديث كثيرة في الدلالة على هذا المعنى ، منها ما رواه مسلم : « كان أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وروى البخاري ما معناه أن بعض المسلمين نزل ضيفا على صديق له فرأى امرأته رثة ، فسأها عن سبب ذلك ، فقالت له : « إني أهلك منصرف إلى عادة الله ، فلما جن الليل ونأما قام صاحب المنزل للصلاة فتعته الضيف ، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا لعبادة ، ثم بعد ذلك نهى عن مواصلة العبادة وقال له : إن لبيدتك عليك حقا وإن ثروجت عليك حقا . فينبغي مراعاة هذه الحقوق كلها مع عبادة الله . وهذه هي قواعد الاسلام الذي جاء باليسر في كل شأن من شئونه .

( ٢ ) لم تكن مباحة الدين الاسلامي وممولته مقصورة على رفع الحرج والمثقة في العبادات والمعاملات المتعلقة بأهل هذا الدين حسب ، بل مباحة الدين الاسلامي تتجلى في معاملة أعدائه وخصومه بصورة لا مثيل لها في الأديان الأخرى ، حتى مع المشركين الذين كانوا يحاربون الله ورسوله بكل ما يستطيعون من قوة وبأس ، فإنه قد اتسع صدره لهم في إبان قوته ، مع شدة خصومتهم ، ومحاوتهم القضاء عليه بكل ما يستطيعون .

عامل الدين الاسلامي الكتابيين الذين جنحوا للسلم ورضوا بأن يدفعوا ما فرضه عليهم من ضرائب هينة ، معاملة أهل من المؤمنين في كل شيء ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات المتعلقة بأمر الحياة ، وأباح لهم التمتع بعقائدهم وعبادتهم التي لا يقرها ، بدون حرج ، وكان يقتصر للضعيف منهم كما يقتصر للضعيف من المؤمنين بدون فرق . وكان صلى الله عليه وسلم يضرب للمسلمين الأمثال على هذه السماحة بنفسه ، فكان يعامل يهود المدينة ، ويشترى منهم ما يحتاج اليه من السلع الموجودة مثلها عند المسلمين ، الى حد أنه رهن درعه عند أحدهم ، مع سلطانه الواسع على جميع نفوس مواطيه يومئذ ليكون هو بنفسه مثالا لجميع المسلمين .

وليس أدل على شعور المسلمين نحو أهل الكتاب من قوله تعالى : « آلم تَغْلِبْتِ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بَعْضِ سِنِينَ » . وذلك أن الفرس حاربوا الرومان في ذلك المهدى أطراف الشام ، وهى أدنى أرض العرب ، فانهزمت الروم وهم مسيحيون ، وغلبت فارس وهى يومئذ وثنية تعبد النار . خزن المسلمون لذلك ، وفرح المشركون وقالوا : إن هزيمة الروم الكتابيين وظهور الوثنيين عليهم فال حسن للوثنيين . فنزلت هذه الآية . لئلا يظن أن الروم مستظفرون بالفرس . وقد تحقق ما أخبر به القرآن وغلبت الروم الفرس بعد ذلك في المدة التي ذكرها الله في هذه الآية .

فهذا مثل واضح يدل على ما كان في نفوس المسلمين من المودة لأهل الكتاب الذين لم ينصبهم العداء ، ورضوا بأن يخضعوا لتنظيم الاسلامية .

ولم تقتصر معاملة المسلمين لأهل الكتاب على ما ذكرنا ، بل نص القرآن الكريم على أكثر من ذلك ، فأباح للمسلمين طعام أهل الكتاب الذي لا يختلف مع نصوصه القاطعة ، كما أباح أن يتزوج الرجل من نسائهم . وإنما لم يبح للمرأة أن تتزوج كتابيا ، حرصا على الولد ، لأن الشريعة الاسلامية جعلت فرحل سلطة التربية ، فلأباح للمسلمة أن تتزوج كتابيا لترتب على ذلك أن يكون الولد غير مسلم . ويدهى أن الاسلام لا يسمح بإخراج أحد منه ، مع أن قواعده تقتضى المحافظة عليه وعلى كل ما يريد فيه . فلم يكن تحريم المرأة المسلمة على الكتابي لنقص ومهانة ، وإنما كان لسبب صهراني لا بد له منه .

أما المشركون فإن الاسلام كغيره من الأديان الأخرى كان شديدا عليهم ، فلم يقلل منهم جزية ، لأنهم كانوا يعبدون غير الله ، وكانوا لا ينفكون عن محاربة ما يقتضيه العقل من عبادة له واحد متزه عن كل ما لا يليق به . ومع ذلك فقد ظل بعض الأئمة : إنهم إذا دفعوا الجزية يعاملون معاملة أهل الكتاب . فهذه المعاملة لا نظير لها في الأديان الأخرى ، لأن التوراة صرحت لموسى بإعدام المشركين على بكرة أبيهم ، وصفت على استرقاق بعضهم ، واعتبرتهم كالأنعام التي لا حرمة لها .

( ٣ ) من هذا تعلم أن مخالفة الدين الاسلامي الذي جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل ، شر مطلق ، وأن المسلمين الذين هجروا دينهم واستهانوا بآياته الحكيمة ، ونقضوا عهده الصالحة لكل زمان ومكان ، قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم ، وأضاعوا استقلالهم ، وأصبحوا أذلة بعد عزة ومنعة . فعليهم أن يقتنوا همهم في من شهوات فاسدة ، وعليهم أن يذكروا أن الله أمرهم بالاعتصام في أموالهم ، والمحافظة على أبدانهم من الإفراط في الشهوات ، وأمرهم بأن يعمدوا لأعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس . فعليهم أن يذكروا كل هذا وأن يستمكوا به لعلهم يفلحون ؟

عبد الرحمن الجزيري

### الكلمة الثوابغ

قال ابن السكيت : أعقل الناس محسن خائف ، وأجهلهم مسمى آمن .  
 نقول : إنما يخاف المحسن العاقل أن لا يكون قد وضع الاحسان موضعاً ، لأنه يعلم أنه مسئول عن نتائج أعماله ، وأما الجاهل فيسئ وهو آمن ، ظاناً أن الأمور فوضى لا ضابط لها ؛ وهذا غاية الجهل بالحقائق ، ومدعاة لأن يعمى الانسان متخبطاً في أعماله .  
 قيل لجالينوس : متى ينفي للانسان أن يموت ؟ فقال : إذا جهل ما يصير مما ينفعه .  
 وقال حكيم : اجتنب الجاهل فإنه يجنى على نفسه وهي أحب النفوس إليه .  
 وقال غيره : الجاهل يفسد لعدم تهديته للإصلاح مع رغبته في الصلاح . والآخر يفسد لأنه يتلذذ بالفساد ، ويتألم من جريان الأمور على السداد .  
 وقال ذو النون المصري : من جهل قدره ، هتك ستره .  
 وقال شاعر :

العلم أنفس شيء أنت ذاكره      من يدرس العلم لم تدرس مفاخره  
 فاجهد بنفسك فيما أنت تجهله      فأول العلم إقبال وآخره  
 وقال غيره :

موت النقي حياة لا تفاد لها      قد مات قوم وهم في الناس أحياء

## باب الأسئلة والفتاوى

الحكم الشرعي في حمل المسلم بساط الرحمة :

سأل الأستاذ محمد عبد الوهاب البرعي المحامي أمام محكمة النقض والايام بالمصورة ، عن حكم الشرع الاسلامي في رجل مسلم اشترك في حمل بساط الرحمة بجاملة لبعض أصدقائه من المسيحيين ، لا يقصد بذلك إلا الجاملة فقط .

### الجواب

من المقرر في الدين الاسلامي أن الشعائر الدينية المختصة بأرباب الديانات الأخرى لا يحل للمسلم أن يشترك فيها بحال مهما كان الأمر .

ومن المقرر أيضا أن قيام المسلم بشعيرة مختصة بهم لا يخرجهم عن الاسلام إلا إذا صحبته عقيدة الرضا به والاطمئنان اليه .

وعلى ذلك يحرم على المسلم الاشتراك في حمل بساط الرحمة الذي يسرون به أمام جناتهم استمطارا للرحمة على ميثهم ، كما تدل عليه تسميته بساط الرحمة . ولا يحل له أن يفعله ولو على سبيل الجاملة . وكيف يحمله المسلم وقد رسم عليه الصليب ، والصليب رمز لعقيدة معينة متنافية لعقيدة الاسلام ؟

ولسكن مهما عظمت الحرمة واشتد النهي لا يخرج المسلم بحمله عن الاسلام إلا إذا رضيه وأطمأن اليه . والله أعلم ؟

أبو فرار السكتاني فأوقرار الساني

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

ما قولكم دام فصلكم في رحل توفي بحادثة فجائية عن زوجته : ليلى ، وسلمى ، وبعد وفاته أبرزت زوجته ليلى كتابا تزعم أنه بخط زوجها وتوقيمه مؤرخا قبل وفاته لسنتين ، وهذا الكتاب يتضمن العبارة التالية « إنني طلقت زوجتي سلمى طلاقا بائنا » .

ولم تعلم الزوجة سلمى بالطلاق قبل وفاة الزوج ، ولم تطلع على كتاب الطلاق الآنف الذكر ، وكان الزوج المتوفى يرأسها فيكتب اليها بخط يده وتوقيمه ، ومن ذلك كتاب مؤرخ بتاريخ يقع بعد تاريخ كتاب الطلاق المزعوم بأربعة أشهر ، من محتويات هذه العبارة « إنني باق وسأبقى لك الزوج الخالص الأمين كما كنت » . وهناك عبارات أخرى من هذا القبيل تدل على بقاء الزوجية .



أُصِفَ إلى ذلك أن الزوج المتوفى كان يدفع زوجته سلمى ثقة على اعتبار أنها زوجته قبل وبعد تاريخ كتاب الطلاق الذي أبرزته الزوجة الثانية .

كما أن هناك من يشهد بأن الزوج لحين وفاته كان ينكر حدوث الطلاق وزوجته سلمى ، ولأى شخص كان يحادثه في الموضوع .

وبناء على ما مر ذكره نرجو أن تفتونا فيها إلى :

١ - ما قيمة كتاب الطلاق المزعوم إذا ثبت أنه بخط وتوقيع الزوج المتوفى ؟

٢ - هل يعتبر الكتاب الذى أبرزته الزوجة المدعى طلاقها ( سلمى ) ، والذى يحتوي على قوله : « إنى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » ، هل يعتبر هذا الكتاب تعديداً للزوجة ، أو استمراراً لها على الرغم من وجود كتاب الطلاق المذكور ؟ وهل يعتبر الطلاق طلاقاً رجعيّاً أم طلاقاً قاراً ؟ وهل تحرم الزوجة سلمى المذكورة من الإرث أم لا ؟

مشهور ضامن بركات

### الجواب

مضى ثبت أن الخطاب الوارد دليل ، المتضمن أن الزوج طلق زوجته طلاقاً بائناً ، صادر من الزوج بتوقيعه ، فهو إقرار كتابي منه على نفسه بطلاق زوجته سلمى طلاقاً بائناً . وقد قرر فقهاء الحنفية والحنابلة أن الإقرار الكتابي كالأقرار اللفظي ، كلاهما حجة ملزمة للقرع بما أقر به ، ولا يقبل منه بعد ذلك أن يدعى أنه كان كاذباً في إقراره ، كما لا يقبل منه رجوع عنه .

وعلى هذا تكون زوجته ( سلمى ) مطلقة طلاقاً بائناً من حين إقراره المذكور ، وليس لها حق في ميراثه بعد موته .

أما قوله لها في الكتاب الذى أرسله إليها بعد : « إنى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » فهو لا يخرج عن كونه إنكاراً للطلاق الذى أقر به ، فلا يقبل ، ولا يصح أن يعتبر قوله هذا إقراراً بتحديد العقد بعد ذلك لطلاق المقر به ، لأن لفظه ينبوعه ، إذ يقول : إنه باق على زوجيته لها ، أى لم يصدر منه طلاق .

والطلاق الذى أقر به ليس من طلاق الفار ، لأنه صادر منه في حال صحته ، وشرط طلاق الفار أن يصدر من الزوج وهو في مرض الموت . والله أعلم .

رأى الامام مالك فى محكم إفساد المرأة على زوجها لفرض التزوج منها .

وجاء الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال ملخصه ما يأتى .

عمل رجل على إفساد زوجة جاره ليتزوجها حتى تم له ما أراد . فهل تحمل هذه الزوجة لهذا الرجل الذى أفسدها لهذا القرض ؟

حسنى يوسف

## الجواب

إن الدين الاسلامي يحرم السعى بالفساد بين الناس ، ويعتبره من أكبر الكبائر ، وخاصة إذا كان بين المرء وزوجه .

والذي جرى عليه العمل في مذهب الامام مالك ، أن إفساد الرجل زوجة غيره ليتزوجها يحرمها عليه تحريماً مؤبداً ، معاملة له بنقيض قصده . وبقية المذاهب لا ترى إفساد المرأة على زوجها محرماً لها على من أفسدها ، ولكنها تعتبر هذا الفساد من أفسق الفسوق وأنكر أنواع المصيان . والله أعلم ؟

## الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

أنا أريد أن أتزوج ابنة عمي ، ولكن عمي والد الفتاة كان متزوجاً بخالتي وطلقها وتزوج بغيرها ، والفتاة التي أريد أن أتزوجها ابنته من غير خالتي ، وخالتي تقول إنها أرضعتني لما كانت زوجة لعمي وتقول : إن فترة الرضاع استغرقت نحو خمسة عشر يوماً كانت ترضعني في غالب أيامها ، ولما سألتها هل تجزم بأنها أرضعتني أكثر من أربع رضعات ، قالت إنها لا تتذكر العدد إن كان أربعاً أو أكثر أو أقل ، وأصرت على تلك الأقوال ، ولا يوجد من يؤكد أو ينفي أقوالها غيرها . وأنا أميل لتصديقها ، غير أنها وبما تضمنه الشر لوالة الفتاة مطلقها ، ومن جهة أخرى فإنها كانت قليلة اللبن ويحصل تشقق بئديها عقب كل وضع .

فهل يجوز العقد على الفتاة ؟ وإن كان بعض المذاهب يحرم العقد بهذه الصورة ، فهل يوجد من المذاهب ما يبيح العقد ؟

عبد الفتاح السماعيل

## الجواب

يرى علماء المذاهب الثلاثة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، أن الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة . ولما كان واضحاً من السؤال أن الرضاع المستفنى عنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة هي المرضعة ، لا يكون حراماً على السائل أن يتزوج بابنة عمه التي يريد أن يتزوج بها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## حفظ الأمم من الرسل

هل أرسل إلى أمريكا والاقبالوسية وأطراف العالم القديم رسل ؟

كتب إلينا غير واحد من الفضلاء يسألوننا ، من ناحية اجتماعية بحث ، عن حفظ الأمم من الرسل ؟ وآخر سؤال وصل إلينا من هذا القبيل ما وجهه إلينا طالب تحييب قال فيه :  
« كل ما قرأناه عن الرسل محصور في الدين أرسلوا إلى الأمم القائمة فيما بين القرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والتبت ، فلماذا لم يرسل الله تعالى رسلا إلى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القديم كجنوب أفريقيا وشمال أوروبا ، وشرق روسيا ؟  
« نظن أنكم ستقولون إن هذه البقاع هي التي ازدهرت فيها الحضارة ، وصحرت بالخلائق ، فانتشروا منها في كل بقعة حاملين معهم الموسوية والميسوية إليها ، ولكن كيف نفذ هذا الجواب شافيا والحفريات تثبت أن الانسانية وجدت قبل هدين الدينين بألاف السنين ؟  
« ثم ماذا تقولون في الأمم التي لا تزال تعيش في سهوب الأرض ووديانها القصية ، فهل أرسل إليهم رسل ، وإذا كان لم يرسل فلماذا ، ومتى ؟ » انتهى .

\*\*\*

تحبيب حضرات الدين فخطبهم هذه المسألة بقولنا :

« إذا رعى توجييه هذا السؤال إلى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه إلى الاسلام ، لأن في كتابه الجواب الشافي عليه ، قال الله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ، والمعنى : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » .  
وهذا كلام صريح فيما نحن بصدد ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها في هداية الرسل ، فأرسل إليهم رسله لترى ليعلموم ما يجب عليهم أن يعملوه ويعملوه ، ولكنه لم يقص سيرهم أجمعين ، والحكمة في هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فإن عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وحرد الانسان على الأرض يجب أن يكون من السكثرة بحيث لا تسع أسماءهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الكلام عنهم إجمالا في آيات كثيرة ، قال الله تعالى : « ثم أرسلنا رسلانا تترى ( أي تتوالى ) كلما جاء أمة رسولها كذوبه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أممات ، فبعدا لقوم لا يؤمنون » . ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ، وهذا هو الذي حدث ، فإن جميع الاساطير المنقولة عن الأمم تدل على أن تلك الجماعات عولوا في بنائها على أوهامهم ، فلا يأخذون بأحد من ذلك أنهم حرموا حظهم من الرسل ففصلوا هذا الضلال البعيد .

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لاتباع الدين الذين سبقاه ، فلان في ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يفتى عنها الاجمال الذي أتى به في هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتي زمان تنصل فيه الأمم اتصالا وثيقا بما يكتشف من وسائل الانتقال ، فيتساءل الناس : ألم يرسل الله رسلا الى الأمم التي لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولهم حُرِّموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما قرطنا في الكتاب من شيء » ، فالإلمام بهذه المسألة في الكتاب على هذا النحو الشافي الموجز يعتبر آية توجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذين يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهى عند الحدود التي وصلوا اليها ، وأن ما عداها من الجماعات فهمم رماح لا يعسى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحیوانات .

ومما يزيد في عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألم بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل إليهم فكانوا لا يعرفون بهديتهم رأسا ، وكانوا منهم يسفرون ، فقال تعالى : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » : وقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ، إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أولو جئتنكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » ، وقال تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير في القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت الى المهد الذي كان ينزل فيه القرآن ، وهي قولهم إن أديان الجماعات الانسانية في جميع ادوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان في تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم في الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينفذوا ما آتاهم من الوحي ظهريا ، دافع حاسم لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التي احنك بها الأوروبيون في فتوحاتهم الأمريكية والافياوسية والإفريقية ، لا تزال محافظة على أوهامها رغمًا عما حادهم به من التعاليم المصرية ، وليس يخفى أنهم حاولوا تصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا الى ما أرادوا بعد صرفهم فئاطير مقنطرة من الأموال في هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم رسلا .

يتضح من هذا البيان أن السؤال الذي وجهه إلينا بعض الفضلاء في هذا الشأن ، أجاب عنه القرآن بما لا يدع شيئا في نفس مرتاب ، وعلى وجه يتفق ومقررات العلم من كل وجه ؟

محمد فريد وهري

# حياة إسماعيل بن إبراهيم

عبد الله بن مسعود

شيخ المبادلة ، وفقه المهاجرين الأولين ، وحبر العراقيين ، وإمام المفردة التشريعية في الكوفة ، وملاسن سنة كانوا أسبق أهل الأرض إلى الهداية والظفر ، والاستجابة إلى كلمة الحق ودعوة اليقين ، وأول من جهر بالقرآن الكريم بمكة ، فصك بقوارعه عنجنية الشرك وطفيان الجبروت ، وصاحب المهجرتين ، والعلام الملم ، كلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الاسلام ، وجندى بدر الكبرى ، وشاهد مواقع الاسلام بعدها ، وأخو الزبير ابن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قبل الهجرة ، وأخو سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار فيما بعدها ، ومبعوث الفاروق إلى أهل القادسية أستاذاً ومعلماً .

ذلكم هو عبد الله بن مسعود ، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومظهره ، وحامل نعليه ، يرى منه ما لا يرى جميع الناس ، ويدخل عليه حين يحجب عامة الخلق وخاصتهم فيسمع ما لم يسمعوا ، ويشهد ما لم يشهدوا ، حتى كان أعلم الناس بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، في منخله ومخرجه ، وسفره وحضره ، ونومه ويقظته .

قال العلامة العيني في شرح البخاري : « وكان النبي صلى الله عليه وسلم خصص ابن مسعود بنفسه اختصاصاً شديداً : كان لا يحجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء ، ولا يخفي عنه سره ، وكان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، ويستتره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ؛ وكان يعرف في الصحابة بصاحب السواد والسواك ، وكان يقول له النبي صلى الله عليه وسلم : « أذنتك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي حتى أتياك » .

وروى البخاري عن أبي موسى الأشعري أنه قال : « قدمت أما وأخي من اليمن فكنتنا حينما ما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم » .

وروى الترمذي عن حذيفة « أن ناساً قالوا له : حدثنا بأقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً ودلاً ، نلقاه فنأخذ منه ونسمع منه » قال : كان أقرب الناس هدياً ودلاً وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفى » .

وقد كان لهذه الخصيصة أثر ظاهر في حياة عبد الله بن مسعود العلمية، جعلت منه أحد أولئك الغر البهابيل الذين حملوا لواء التشريع الإسلامي في أطراف الأرض، وحلفوا للانسانية تراناً فكرياً خالداً يبعدها بما تشاء من قوانين قاضية، وسياسة عادلة، في أي زمان أو مكان. وقد كان عبد الله بن مسعود في هذا ملأداً يرجع اليه أكبر الصحابة في الفقه والفقه وأصول الدين؛ روى ابن سعد في الطبقات «أن قرأ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في دار أبي موسى الأشعري يعرضون مصحفاً، فقام عبد الله بن مسعود ففرج، فقال أبو مسعود: هذا أعلم من بنى بما أزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فقال أبو موسى: إن يكن كذلك فقد كان يؤذى له إذا حببنا، ويشهد إذا غيبنا».

وكان أبو موسى يسمى ابن مسعود «الحبر»، فقد جاء في الطبقات عن أبي عطية الهمداني قال: «كنت جالسا عند عبد الله بن مسعود فأراه رجل فسأل عن مسألة، فقال: هل سألت عنها أحداً غيري؟ قال: نعم، سألت أبا موسى، وأخبره بقوله، ونالقه عبد الله، ثم قام فقال: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم». وكان عمر بن الخطاب إذا ذكر عبد الله بن مسعود يقول: «كنسيف ملىء علماً آثرت به أهل القادسية». ولما سيره عمر إلى الكوفة معلماً وبمث صهاراً أميراً، قال: إنهما من السجباء من أصحاب محمد فاقننوا بهما. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «لو كنت مؤمراً أحداً بغير مشورة لآثرت ابن أم عبد». وفي صحيح البخاري عن مسروق قال: ذكر عبد الله (بن مسعود) عبد عبد الله بن عمر فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «استقرهوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، فبدا به».

وقال مسروق بن الأحمع: «لقد حالت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاد (مجمع الماء) فالإخاد يروي الرجل، والإخاد يروي الرجلين، والإخاد يروي المشرة، والإخاد يروي المائة، والإخاد لو نزل به أهل الأرض لأصدمهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاد». وفي الحديث الصحيح عن علي رضي الله عنه «كأن رجل عبد الله أثقل في الميزان من أحد». ويقول بعض التابعين: «جالت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارأيت أحداً أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أحب إلى أن أكون في صلاحه من ابن مسعود». وكان عمر بن الخطاب يعظم ابن مسعود تعظيماً كبيراً، فقد روى أن عبد الله بن مسعود رأى رجلاً قد أسبل إزاره، فقال له: ارفع إزارك، فقال الرجل: وأنت يا ابن مسعود ترفع إزارك، فقال: إني لست مثلك، إن بساق ممحوسة وأما آدم الناس، فبلغ ذلك عمر، فضرب الرجل وقال له: أترد على ابن مسعود؟

وكان ابن مسعود على ضئولة جسمه يحمل بين جنبيه قلباً جريئاً تمثلت فيه شجاعة الأبطال،

وقد سجل له تاريخ الاسلام في صحائفه مواقف عظيمة ؛ فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : « إني أسرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعني ؟ » قالوا ثلاثا ؛ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : « لم يحضر ليلة الجن أحد غيري فأنطلقا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شِمْبِ الْحُحُونِ ، لَحَطَلِي خَطَا ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم امتنع للقرآن وسعمت لفظا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيتهُ أَسْوَدَةٌ كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لي رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم : رجالا سودا مسنفرى ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين . »

وذكر أصحاب السير أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من غزوة بدر أمر بأبي جهل أن يلتبس في القتلى ، وقال : « اللهم لا يعمزك » ، وكان قد عقره معاذ بن عمرو بن الجوح ، فر به وهو عقير معوز بن عفره ، فضربه حتى أثبتته ، ثم تركه وبه رمق ، فر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين سمع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتبس في القتلى ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إن حتى عليكم إلى أثر جرح بركبته ، فاني أزدجت أما وهو يوما على مأذبة لعبد الله بن جدهان ونحن غلامان ، وكنت أشتف منه بيسير ، فدفعته فوق علي ركبته فخلدش في إحداها حدشا لم يزل أثره فيها بعد . » فقال عبد الله بن مسعود : فوجدته بأخر رمق فمرفته ، فوضعت رجلي على عنقه — وقد كان ضبث بي مرة بمكة فأذا في ولسكرني ، ثم قلت : هل أحزالك الله يا عدو الله ؟ قال : وماذا أحزاني ؟ أصد من رجل قتلتموه ؟ المن الأبرة اليوم ؟ قلت : لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود يقول كما في بعض الروايات : إن أبا جهل قال لي لما وضعت رجلي على عنقه : لقد ارتقيت مرتقى صميا يارويى الغم . ثم احترزت رأسه وحثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آله الذي لا إله غيره ؟ — وكانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم والله الذي لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله .

وكان عبد الله بن مسعود من فصحاء الصحابة وخطباءهم الأبيناء ، وله أسلوب في خطابته يشبه أسلوب أكنم بن صبيح حكيم العرب ، غير أن أكنم بن صبيح ينزع عن حكمة التجارب ووحى الفكر الصادق ، أما عبد الله بن مسعود فإنه يمتنع من منع الدين ووحى الروح . وقد روى ابن عبد ربه في كتابه ( العقد ) خطبة لعبد الله بن مسعود تؤيد ما ذهبنا إليه في أسلوبه الخطابي ، قال : « أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق المرى كلمة التوحيد . التقوى خير زاد . أكرم الملل ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم . خير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم . »

شر الأمور محدثاتها . خير الأمور عزائمها . ما قل وكفى خير مما كثر وأطهى . لنفس يحميها خير من إمارة لا يحميها . خير الغنى غنى النفس . خير ما ألقى في القلب اليقين . الخرج جماع الآثام ، النساء حبائل الشيطان ، الشباب شعبة من الجنون . حب السكينة مفتاح المعجزة . شر من الناس من لا يأتى الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله إلا هجرا . سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه مَعْصية . من يتأذى على الله يكذبه ، ومن يغتري يغتر له . مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا عن عنه . الشقى من شقى في بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . الأمور بمواقبها . ملاك الأمر خواتمه ، أحسن الهدى هدى الأنبياء . أقيع الضلالة الضلالة بعد الهدى . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء يتكره .

وإذا وازنا بين هذه الخطبة وخطبة أكنم بن صيق بين يدى كسرى ، ظهر لنا جليا مكان المشابهة بين الأسلوبين ، ومتزع كل من الخطيبين . يقول أكنم : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أممها تقيا ، وخير الأزمنة أخسبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطى . آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية ، خير من إصلاح فساد الراعى . من قدمت بطانته كان كالفارس بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من حافه البرىء . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريره . يكفيك من الزاد ما يتركك المحل . حسبك من شرماعه . البلاغة الإيجاز . من شدد نقره ، ومن تراخى تألف . »

ولولا اختلاف المنزع وظهور أثر البيئة في الكلامين ، لصح لزاعم أن يزعم أنهما صدرا من نفس واحدة ؟

صالح إبراهيم عرجوب

## أحسن الانتقام

قبل لقيلسوف : بم ينتقم الانسان من حاسده ؟ قال : بأن يزداد فضلا في نفسه .

حقا إن هذا من أشد ضروب الانتقام من الحساد ، وهل ألهب في قلوبهم نيران الاحقاد إلا ما آتسوه في المحسود من إقبال الناس عليه ومحبتهم له ، والتحدث بمصائبه وفواضله ؟ فإذا أراد أن ينتقم ممن يحسده على ذلك فهل في وسعه أفضل من أن يزداد تكلا في نفسه ، ليحصل من حب الناس وتقديرهم أكثر مما له عندهم ؟ ولقد قيل :

ما ضرني حسد الخبيث ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو النقص



## أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي

حياته وفلسفته

### أصله ونشأته:

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن همران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث ابن قيس .

وأول من أسلم من آباء الكندي الأشعث بن قيس ( انظر طبقات الأمم للقاضي صاعد ص ٥٢ ) .

وجاء في كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ : قال ابن الأثير الجوزي : وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة في وفد كندة ، وكانوا ستين راكباً فأسلموا ، وكان الأشعث ممن ارتد بعد وفاة النبي ، فسير أبو بكر الجنود الى اليمن فأخذوا الأشعث أسيراً ، فأحضر بين يديه ، فقال له : استبقني لحربك ، وزوجني بأختك . فأطلقه أبو بكر وزوجه بأخته ، وهي أم محمد بن الأشعث .

سكن الكوفة وانتفى بها داراً ، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه ، وكان ممن أزم علياً بالتحكيم ، وشهد الحكيين بدومة الجندل ، وكان عثمان رضي الله عنه استعمله على أذربيجان ، وكان الحسن بن علي تزوج بنته . وتوفي سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة أربعين .

وأما محمد بن الأشعث ، فقيل : إنه ولد على عهد رسول الله ، واستعمله ابن الزبير على الموصل ( أسد الغابة ج ٤ ص ٣٩١ ، ٣٩٢ ) . وذكر الزبير بن بكار في تسمية أولاد علي : أن مصعب ابن الزبير لما غزا المختار بعث على مقدمته محمد بن الأشعث وعبيد الله بن علي بن أبي طالب فقتلا ، وكان ذلك سنة سبع وخمسين .

ولمحمد بن الأشعث ولد يسمى عبد الرحمن ، فخرج على الحجاج واستولى على خراسان ، ثم سار الى جهة الحجاج وغلب على الكوفة ، وقويت شوكرته . ثم أمدّ عبد الملك الحجاج بالجيوش فانهزم عبد الرحمن ولحق بملك الترك ، وأرسل الحجاج يطلبه وتهدد ملك الترك بالغزو إن أخذه ، فقبض ملك الترك على عبد الرحمن وأربع من أصحابه وبعث بهم الى الحجاج ، فلما زل في مكان في الطريق أتى عبد الرحمن نفسه من سطح فئات ، وذلك في سنة خمس وثمانين .

جاء في مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ في بحث قيم عن الكندي للأستاذ مصطفى عبد الرازق بك قال فيه :

يظهر أن هذا الحادث جنى على مترلة بيت الأشعث بن قيس عند آل مروان، تخفت ذكرهم في التاريخ حوالى جيلين . من أجل ذلك سكت التاريخ عن اسماعيل بن عبد بن الأشعث أخى عبد الرحمن، وعن ابنه مهران، وهما حدثان من جدود يعقوب بن إسحاق الكندى . بل قد سكت التاريخ عن شأن الصباح، اللهم إلا ما جاء في كتاب أخبار الحكماء نقلًا عن ابن جليل الأندلسي، وكما جاء أيضا في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أن يعقوب بن إسحاق الكندى شريف الأصل كان حده ولّى الولايات لبني هاشم .

وإذا كانت صلة بني الأشعث بن قيس بالخلقاء من بني مروان قد انقطعت منذ خروج عبد الرحمن بن عبد بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك بن مروان، فإن بيت الكندى ظل في الكوفة من بيوتات المجد والحسب الرفيع . ولما تولى الخلافة العباسيون عاد بيت الكندى إلى الظهور في ميدان السياسة والحكم، فتولى إسحاق بن الصباح الكوفة في أيام المهدي والرشيدي .

والغالب أن الكندى ولد في مطلع القرن التاسع الميلادي حوالى سنة ٨٠١ م سنة ١٩٥ هـ، كإرجعه «دي بور» (في دائرة المعارف الإسلامية) . أما تاريخ وفاته فلم يمرض تذكره أحد من ترجموه من الأقدمين . وقد حاول المحدثون أن يحددوا ذلك التاريخ من سبيل الاستنباط، ففهم من جعل موته سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦٠ م، كالاستاذ «مسليون» في نصوصه الصوفية؛ ومنهم من جعله نحو سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٧٣ م، كالاستاذ «نلينو» في محاضراته في الفلك، وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى .

والمرجح أن الكندى ولد في أعقاب مهران، وأن أباه تركه طفلا، فنشأ في الكوفة مع أمه في تراث من السؤدد والفن، وفي حضن اليتيم، فديرته له الأم المال، ونشأته مقتصدًا مرفها غنيا، ثم ساقته في سبيل العلم لما أنست من ذكائه وقوة طارسته، فتعلم علوم اللغة والأدب، ونهل من علوم الدين شيئا، ولكن الطفل كان بفطرته القوية يريد أن يحيط بكل شيء علما، فافتتح أبواب الفلسفة وما إليها من العلوم المقولة عن القدماء من الفرس واليونان والهند .

ويظهر أن الكندى كان عالما بالمرئانية، وكان ينقل الكتب منها إلى العربية . فقد جاء في كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء : ومما اشتهر من كتب نطليموس وخرج إلى العربية «كتاب الجغرافيا في المعمور من الأرض» . وهذا الكتاب نقله الكندى إلى العربية نقلًا جيدا، ويوجد مريانيا . وفي كتاب طبقات الأطباء نقلًا عن أبي معشر : هذا الترجمة في الإسلام أربعة : يعقوب بن إسحاق الكندى، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفراء الطبري، وحسين بن إسحاق . و مترجم الكندى يكادون يتفقون على أنه كان كثير الاطلاع . وفي مواضع متفرقة من كتاب المهرست ما يدل على أن الكندى كان محيطا بمذاهب

الصائبة ومذاهب التنوية الكلدانيين . وفي كتاب طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٠٧ : أن الكندي كان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم ، وأنه كان مؤدباً لأحمد بن المعتصم .

ومما يدل على ممارسة الكندي للأدب ما نقلوه عنه من نقد الشعر ، وفي الحدل وأسرار البلاغة العربية ، حتى ذكروا أن له كتاباً في صنعة البلاغة .

وأسلوب الكندي في الترجمة لما يدرس بعد ، كما أشار إلى ذلك الأستاذ مسفيون في كتابه مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الاسلام ، ص ١٧٥

ولما كان أكثر ما كتب الكندي قد عبثت به يد الضياع ، إلا بقايا توجد في تراجمات لاتينية ، مثل رسالته في العقل ، فإن على الباحث في أسلوب الكندي أن يكتفي بالترز القليل الذي وصل إلينا من مؤلفاته بالعربية كرسالته في كية ملك العرب ، أو ما وصلنا من التراجم التي أصلها الكندي ، مثل كتاب ( أتولوجيا ) الذي نقله عبد المسيح بن عبد الله بن تامة الحمصي وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله « أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي » .

والذي يلاحظ في أسلوب الكندي اعتماداً على هذه المصادر : أن فيه فموضاً يأتي بعضه من أن الالفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت في نصابها وتحددت ممانها ( عملة كلية الآداب ديسمبر سنة ١٩٣٣ ) . بعد أن ترك الكندي الاشتغال بفنون الأدب وعلوم الكلام انصرف إلى الحكمة فنشغ في علومها ، وصار كما يقول « مسفيون » إمام أول مذهب فلسفي إسلامي في بغداد ، وباله يرجع الفضل في تحرير جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية في الفلسفة . ونسب إليه المترجمون من الكتب في الموضوعات المختلفة سبعة عشر نوعاً .

ويقول طهير الدين اليبقي في كتابه تاريخ الحكماء ص ١٨ : جمع الكندي في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

ويقول « ده جوي » عند ترجمته للكندي : إن كوردان ( Gurdan ) وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة ( La Renaissance ) يعد الكندي واحداً من اثني عشر مم أتمد الناس عقلاً ، وأنه كان في القرون الوسطى بعتر واحداً من ثمانية مم أكمة العلوم الفلسفية . ويقول ده جوي أيضاً : إن الكندي كان مولعاً بتطبيق الرياضيات لا في العلم الطبيعي وحده ، ولكن في الطب أيضاً . فهو مثلاً يفسر عمل الأدوية المركبة بالتناسب الهندسي الحادث من مزاج صفاتها الحسية . أي الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة .

ولقد دفع الواع بالكندي في الرياضيات إلى أن كان يحمل من الفنون الموسيقية طبا لبعض الأمراض . وعلم الموسيقى كان يومئذ معتبراً فرماً من الفروع الرياضية ؛ وكان الكندي عالماً بالموسيقى وبالطب ، وله فيها مؤلفات ، كما سبق أن أوضحناه .

عنى الكندي بالكيمياء ، وأبطل دعوى الذين يدعون صنعة الذهب والفضة ، وترجم

الكندى رسالة : « إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها » . وقد نقض هذه الرسالة على الكندى « أبو بكر محمد بن زكريا الرازي »

وللكندى دراية تامة بالجغرافيا ، إلا أن كتبه في هذا العلم ضاعت فيما ضاع من كتبه ، وكانت مرجعا لمن جاء بعده من المؤلفين . ونجد في كتب المسعودي نماذج منها .

### الكندى والفلسفة :

الكندى يقول عن الفلسفة فيما روى عنه ابن بياته المصرى :

علوم الفلسفة ثلاثة : ( فأولها ) العلم الرياضى فى التعميم ، وهو أوسطها فى الطبع . و ( الثانى ) علم الطبيعيات ، وهو أسفلها فى الطبع . و ( الثالث ) علم الربوبية ، وهو أعلاها فى الطبع .

وللكندى الفضل الأول فى توحيه الفاسفة الاسلامية وحة الجمع بين أفلاطون وأرسطو ، وهو الذى وجهها فى سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين .

ويمجدد بنا فى هذا المقام أن تقف على التيارات المختلفة لهذا التوفيق الفلسفى .

### موقف الكندى من علم الكلام :

تمثل الكندى كل ما كان فى عصره من علم . وآراؤه فى المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة . ويذكر القمطى وابن أبى أصيبعة للكندى كتابا فى أن أفعال البارى كلها عدل لا جور فيها . ويذكر أن له كتابا فى التوحيد والعدل ، والتوحيد أكبر أصليين من أصول المعتزلة .

وله كتاب فى إثبات النبوة على حصيل أصحاب المنطق ، وكان يحاول فى نظرية النبوة التوفيق بينها وبين العقل . وقد عارض الكندى فى رأيه فى كتابه هذا نظرية كانت تنسب الى البراهمة أساسها أن العقل وحده يكفى مصدرا للمعارف البشرية .

### موقفه من الرياضيات :

للكندى رسالة فى أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضة ؛ وفلسفته فى هذا الباب مزيج من الأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الجديدة .

### موقفه من الله والعالم والنفس :

كان الكندى يذهب الى أن العالم مخلوق لله ، وفعل الله فى العالم إنما هو بوسائط كثيرة ، فالأعلى يؤثر فيها دونه ؛ أما المعلوم فلا يؤثر فى الله لأنها أرق منه فى مرتبة الوجود ، وكل ما يقع فى الكون يرتبط ببعضه ببعض ارتباطا علة بمعلول ؛ ونستطيع من معرفة العلة النبؤ بالمستقبل . ويذهب الكندى الى أن نفس الانسان جوهر بسيط غير فان هبط من عالم العقل الى عالم الحس ( وفى المكتبة التيمورية بدار الكتب رسالة للكندى فى النفس رقم ٥٥

موقفه من نظرية العقل :

يذهب الكندي إلى أن معارفنا إما أن تكون حسية ، وإما أن تكون عقلية ، والحواس تدرك الجزئي أو الصورة المادية ، على حين أن العقل يدرك السكلي ، ويدرك الجنس والنوع ، أي الصورة العقلية .

هذه النظرية التي استحدثها الفيلسوف الكندي أخذت مكانا كبيرا عند فلاسفة المسلمين . ( انظر رسالة في معنى العقل عند الأقدمين للكندي ) ترجعها من اللاتينية إلى العربية الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب

ويرجع الفصل في تكوين ثقافة الكندي الفلسفية إلى أخذه بتعاليم أفلاطون وأرسطو ، حتى إنه قيل إنه لم يكن في الإسلام فيلسوف أحندي في تأليفه حذو أرسططاليس غير الكندي .  
شخصية الكندي من وراء كتبه ونظرياته :

كان الكندي هادئا في حياته ، آخذًا بأسباب الاقتصاد والظام ، وسياسة النفس ، ومجاهدة شهواتها . ومن حكمه المأثورة :

« اعص الهوى وأطع ما شئت » « لا تنجو مما تكرهه حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد » .  
والكندي كان يستوحى فكره ، ويستلهم ذكاه الحاد ، وما تنطوى عليه نفسه الكبيرة من صفات فتتحكم في اتجاهه العقلي . فكان من نتيجة ذلك هذه الصور الذهنية الفلسفية المختلفة التي أخرجت للعالم نظاما فلسفيا قائما لا يزال محترما بين العلماء إلى اليوم ، إلا أنه يكاد يستحيل على الباحث في المذاهب الفلسفية للكندي أن يرجعها إلى أصل واحد ، أو أصول معينة فلسفية ، لأن هذا الرجل الغامض ، والذي يعد بحق أكبر فلاسفة العرب ، قد أخذ من كل أصل بطرف ، بل غذى مذهبه بمذاهب تشعبت طرقها ، واختلفت وتناقضت كل التناقض ، فلم يترك خيطا من خيوط التفكير الفلسفي إلا نسجه في مذهبه . فقد جمع الكندي في فلسفته أصولا ترجع لفلاسفة اليونان ومتقدمي العلماء من المتكلمين في الإسلام . فترى في هذا المزيج الأفكار اليونانية بجانب الأفكار الإسلامية البعثة . كل ذلك يضطرنا إلى الاعتراف بما كان ثمرحلا من صدق الحس وتقوب النظر في استخراج الحقائق .

لم يقتصر هذا الفيلسوف القانع من الحياة بالصمت في بيته ، والذي كان بيته أشبه البيوت بيت الناسك ، إلا أن يحارب زعمات الانانية والاستسلام للذات النفس ، فوضع دستور الحدود النفس أمام مفاصد الحياة وما يمتورها من تفسخ والخلل .

يقول الجاحظ « في كتاب البخلاء » : إن الكندي كان بحیلا . فإذا كان ذلك صحيحا فإن ما قدمناه من سخائه ، وما بذله طول حياته من وقت وجهه ، ثروة لا تقي ، خلفها للإنسانية نبقى ما بقي الدهر ؟  
عبد الحميد سامي يوسى

## صَفِيحَةُ الْحَمْدِ أَفْطَابِ الْفَلَسَفَةِ الْعَصْرَةِ

### لماذا أنا متدين؟

يجيب الفيلسوف ساباتييه بقوله : « لأنني لا أستطيع أن أكون غير ذلك »

بدلت الفلسفة الإلحادية في أوروبا جهد المستبسل في هدم صرح الدين ، واستعملت لذلك كل معسول وصلت اليه يدها ، حتى ما لا يصح التمويل عليه من وسائل التصيل والتزوير في مقررات العلم ، وقد أثرت فلسفتهم تأثيراً عظيماً في الذين لم يؤثروا القدرة على دحض الشبهات ، وقد أصابنا رشاش من طلائعهم هنا ، فرأينا أن من أحسن الدرائع لإبطال مراعهم نقل ماصدر ضد هذه الحركة المشؤمة من أفطاب الفلسفة الغربية ، ليعرف الذين غرهم ظاهر هذه الشبهات منا أنها لا تصلح لهدم الدين ، بشهادة من هم أقرب من هؤلاء الملاحدة إلى صميم العلم ، وأحدث منهم بصياغة الأدلة .

فتحلف قراء مجلة الأزهر اليوم بترجمة المقال الأول من كتاب جليل القدر للفيلسوف الكبير ( أجوست ساباتييه ) الفرنسي المدرس بجامعة باريس ، يدعى ( فلسفة الدين ) ، كافع فيه شبهات الملحدين كفاحاً موفقاً كان سبباً في اعتنا كتابه علماً من أعلام عهد حديد للعاطفة الدينية . ظل تحت عنوان :

#### تأملات انتقادية أولية

« لماذا أنا متدين ؟ إنني ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جواباً واحداً وهو : أنا متدين لأنني لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فإن التدين حاجة من حاجات وجودي . يقولون لي : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسي . ولكن تحليل المسألة على هذا الوجه يقهرها ولا يحلها .

« إن الحاجة إلى التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية ، أشاهدها في الحياة الاجتماعية للإنسانية أكثر قوة . فإن الإنسانية ليست بأقل معنى تعلقاً بالعاطفة الدينية . فبعيناً يعترض عليها بأننا الديانات التي أخذت بها وتركناها ، قد خدعناها الواحدة بعد الأخرى ، وسُئدَى يهدم لها نقد الفلاسفة والمعاد خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلاً يصور لها ما تركته الأديان في تاريخ البشرية من آثار عظيمة للماء والنيران ، فإن الدين لا يزال ماثلاً في جميع أدوار الثقافة العلمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية احتث ألف مرة من

سطح الأرض ، ولكن جذوره المتينة أهدته الى ما كان عليه قويا إذا أنفان وريقة . فـ أين  
ثبت الدين هذه الحيوية التي لا يتضب معها ؟ وما هي هلة عمومية الدين وخلوده ؟

و أنا لا أستطيع أن أنمر هذا الأمر لنفسى إلا بمحاولة إيضاح وتحقيق آرائى فى الأصول  
النفسية التي ترتكز عليها العاطفة الدينية ، وفي جوهرها نفسه . سيكون هذا موضوع  
تأملاتى الاولى .

« قبل التورط فى هذا البحث ، يجب على أن أبعد سببا خصباً من أسباب إساءة الفهم  
والوقوع فى الأخطاء ، وخاصة لدى الشعوب اللاتينية . هذه الأسباب منارها كلمة ( الدين )  
نفسها . فانها لا تدعى الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعييناً سيئاً جداً ، لأنها تحيط هذه  
الظاهرة بأراء تبعية ، وأحياناً غريبة عنها ، تصلل الدين مـ من الثقافة المحلية فى درجة متوسطة .  
وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدبياً . وليس لها مرادف لافى لغة  
المبرايين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلمنيين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء  
الأمر الانسانية التي ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تعجيداً فيها . إن  
روما هي التي فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها .

« فالمسيحيون الاولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد . ولما  
دخل فى القرن الثالث فى النهضة المسيحية كأيد ضرباً من التنصير ، واكتسب معنى يتفق وروح  
الانجيل . فمرئ لاكتانس الدين بقوله : « هو الملافة التي تجمع بين الانسان وربه » . ولكن  
هذا اللفظ عند كـتاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق . فبدلاً من أن يعين  
لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين ، ويشير الى أنها تعنى ظاهرة نفسية منتزلة  
من الروح ، حدثها من ناحيتها الظاهرية ، معتبراً إياها مجموعة تعاليد ونظم اجتماعية مورثة عن  
الأقدمين . وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يجمع منه هذا المعنى ذا الأصل الرومانى .  
والدين لدى السواد الأعظم من الناس الى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات  
فيها فوق الشؤون الطبيعية ، ونظماً سياسية . فهو كيسة غمك الأسرار الإلهية ، وتقوم على  
نظام من الرتب الكهنوتية ، تهذيب الأرواح الآدمية . هذا هو الشكل الذي أدركت  
المقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحقت وجودها فى العالم الغربى . والملطان الذي  
تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استمارة ، تقرر مذهب  
اليه المسيو برونتير حيناً أراد التنبيه على سمو الكاتوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى ،  
متابعاً في ذلك ( بوسويت ) ، بقوله : إنها أكل شكل لحكم الشعوب .

« وفي المصور والبلاد التي تغلب فيها هذا الوصف السياسى للدين ، ظهر بضرب من  
ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيله لتولد الدين فى الجماعات الانسانية . فقد قالوا :

لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب لإعجاب ، فقد اخترع إداً للوصول الى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والبراطرة الذين أرادوا بهذه الوسيلة تثبيت سلاطهم ، وضمان استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون ، والفلاسفة في القرن الثامن عشر . ولم نموز المدافعين عن هذا الرأي الأدلة عليه . فمن المحقق أن الدين كثيراً ما سُخر لحكمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فُضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى في تواريخ جميع الأديان .

« ولكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عددها المركوم ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هي التي أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فاذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فإنا أسألم بدوري : وما الذي أوجب وجود القساوسة ؟ أليس لأجل أن توحد القيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع في الشعوب كلها مشاركة عامة في اعتباره ، يجب أن يكون ثابوا في سويداء القلوب عاطفة دينية ، تحلت هذا الاختراع صبغة مقدسة ؟ نعم ، فيجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القيسية هي التي تفسر وجود الدين ، ولكن الدين هو الذي يعلل وجود القيسية .



« النظرية التي وضعتها الفلسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر حماساً . قالوا إن الدين الذي كان موحوداً في أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيراً ساذجاً للظواهر الطبيعية العجيبة التي كانت تدهش الإنسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الاحقاب لصور أخرى أرق منها وأكثر إنقانا . ولقد عهدا الأطفال والمتوحشين بمنحون حياة روحية لكل ما يحيط بهم . فهم يتخيلون وجود إرادات فعالة خلف جميع الظواهر التي تثير عندهم الخوف أو الرجا . وبناء على هذا صمدت غيلة الأنامي الأولين الى ملء الوحد بمدد لا يحصى من الأرواح الخيرة والشريرة ، وتوهوا أنهم يتأثرون بأصنام الخفية في كل صغيرة وكبيرة مما يصيهم . وقد رأينا الساعة كيف علوا وجود الدين بوجود القيسية ، وأماننا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية . ولكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذي تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها .

« القول بأن الدين ضرب من العلم ، يعتبر خطأ لا يقل في خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية تكون مصاحبة دائماً لشيء من العلم ، ولكن هذا المنصر العقلي مهما ظهر أنه ضروري للعقيدة ، فهو ليس في شيء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتغير على الدوام في أدوار الانتقالات الدينية . والصنيع



المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هي وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر في أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأتى لأية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

« يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التي مربها الفكر الانساني فيما ذهب إليه أجوست كومت وتلاميذه ، وهي : الدور اللاهوتي في المصور الأولية ، ودور ما وراء الطبيعة في القرون الوسطى ، والدور العلمى في العهد الراهن . فإذا كان الدين في جوهره علما ، لكان صرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها . والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا في شيء ، بقاء الدين وظهوره في جميع العهود ، وفي درجات من الثقافة متباينة كل التباين . والذي يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ، ولكنها توحد كلها في وقت واحد . فهي لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ ، ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الانسانية . فانك تجدوها مجتمعة على درجات متخالفة في العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتجدوها في العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وليبنز وكنت وكلود برنار وباستور . وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمى الذى لا يرمى إلا الى تحديد الظواهر وشروط حدوثها في الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ؛ وليس من الدين أيضا الحاجة الاعتقادية التى إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيا للفريضة التى تحمل كل كائن على التثبت بالخلود . فكيف لا تظهر هذه الميول المختلفة للنفس فى آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهى موجودة معا فى الجبهة الانسانية وفى كل زمان ؟

« فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمانة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياخ الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟

« إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليثريه سيكونون شهودنا المدول على صدق ما نقول . فزعيم الفلسفة الوضعية ( بريد أجوست كومت ) الذى كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية فى النفس الانسانية ، توج مذهب وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها نقلة مهارة على النظام الكهنوتى ، وطقوس الكاثوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لتقديسين ، ولها عطلات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس كبير ليس بأقل عصمة من الخبر القامم فى روما ، الأمر

الذي هاج على أجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه، وأرادوا الاعتذار عنه بإتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هي أن أجوست كومت بعدما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعي ، أدرك الدور الذي تقوم به العاطفة والغريزة الدينية في حياة الشعوب ، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلية إلا بالدين ، فأتاها به على أسلوبه . إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة في مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن أجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأحدثوا ما أحدثوه ، فتكون الطبيعة في سخريتها بالمستغفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم .

« ولما بحاجة لإزالة الكلام في هيرت سبنسر ، فالناس يعلمون ما آل إليه في مذهبه قوله ( بالوجود الذي لا يمكن إدراكه ) من اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تندفع مأخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك في نظره الملة المفسرة لكل تطور ، والنبوع المدة الذي يستمد منه كل شيء وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، السنا نرى في هذا القول المذهب القديم في وجوب وجود علة أولية للوجود ، وصورة غير واضحة للإله الذي يقول به المؤمنون ؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الانجليزى على هذا النحو إلى إعلان الدين الخالد ، وإلى حصر الحياة العقلية للإنسان في جهدين أصليين أوليين : أولهما الجهد العلمى الذي يتعقب الظواهر الطبيعية واستعمالها ، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للوجود العام ؟

« أما ليريه فأمره أشد تأثيرا على النفس . فاني أذكر أنى قرأت له صفحة خفية في بعض مؤلفاته مؤداها أنه بعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة ، ووصل إلى نهايتها القصوى ، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة إلى البحر ، وهناك وجد نفسه محاطا بالمساير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له ، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة ، فوقف يتأمل ، فاعتراه خضوع أمام هذا المجهول ، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه ، وأزلت على قلبه السكينة والسلام . فسألت نفسي عند ذلك : ما معنى هذا التأمل في هذا المستور الكبير إن لم يكن انتفجارا خفائيا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها ؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الوجود الذى لا يمكن إدراكه أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس لعلم ولكنه غريزة ؟

« قد وصلت الآن ، وإن كان هذا المذهب أقدم مما مر ، فإنه يوصل إلى ما يقرب من الغاية التى نرى إليها . فقد قال شاعر لا تبنى : ( إن الخوف هو الذى ولد الآلهة ) . هذا التليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح . ذلك أنه مما لا مشاحة فيه أن طائفة للتدين تنهت في قلب

الإنسان تحت تأثير الخوف الذي سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله . فانه وقد قذف به طارى الجسم ويجردا من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان نارا تنلظى ، كان يعيش وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقفا في حالة من القنافة والبؤس تملأ قواده بذعر عظيم . نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل ، فإن الخوف وحده ليس في ذاته في شيء من الدين ، إذا أنه يشل للقوى ، ويطمس العقل ، ويسحق الإنسان . فلأنجل أن يكون الخوف خصا من الساحة الدينية، يجب أن يلبسه من لدن وجوده شعور مضاده ، أى بصيص من الأمل . يجب أن يشعر الإنسان وهو بين يرائق الوجع بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عونا يدفع عنه ما يتوقمه من خطر . وبناء على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الإنسان إلا لأنه يوقف فيه الأمل ، ويلهمه الدماء الذى يفتح لنوازه متسرعا . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من السبوع الذى نبحث عنه بوصفنا في المجال العملي للحياة ، لافى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الإنسان من الدين هو نجاته من العطب ، فإذا ظهر أحيانا أنه يحاول بواسطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل هذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا الى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتمين علينا أن نرى كيف يفسح الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية . وهو ما سنصل اليه بتحليل سيكولوجى يستطيع كل إنسان أن يتابعه ، وأن يحققه بسهولة إذا كان ممن يملكون القدرة على ذلك بالاعتماد على تجاربهم الخاصة .

\*\*\*

( مجلة الأزهر ) هذه محاولة فلسفية تعتبر أبعد ما أنتجت الفلسفة الأوروبية للإثبات أن الدين غريزة طبيعية في النفس البشرية ، فانظر كيف تتأذى الفلسفة العالية الى تأييد الكتاب الجعبد ؟ أليس كل ما في هذا البحث الجليل محصورا في قوله تعالى : « فأنم وحمك لدين حنيفا ( فطرة الله ) التى فطر الناس عليها ، لا تبدل خلق الله ، ذلك الدين القديم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

محمد رفيع وهجرى

## الكلام والمتكلمون

- ٤ -

### المعتزلة

تتمة الحديث من مشاهير زعمائهم :

النظام :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني . وقد لقبه الجرحاني بأحد شياطين القدرية ، ولا يعرف ما لدينا من كتب التاريخ المعتمدة متى ولد ، وإنما كل ما يعرف عن حياته الخاصة هو أنه نشأ في البصرة وتلقى النظر على أبي الهذيل العلاف ونابغه في حملته على المانوية ، وأنه عني عناية فائقة بالرد على الدهرية ، بل كرس لذلك شطرا عظيما من حياته وجهوداته ، وأنه أمضى السنين الحسبة الأخيرة من حياته في بغداد ، وأنه طالما اشتغل لطيب الجدل في تلك الحاضرة بينه وبين زعماء المرجئة والجبرية ، وأهل السنة والفقهاء ، وأنه حينما اشتهر بعلمه وذكائه انفصل عن مجلس أستاذه أبي الهذيل وأسس مذهبه الخاص الذي كان له على معتزلة بغداد أثر عظيم الشأن ، وأنه هو الذي خلق أهم المشكلات التي كانت موضع الجدل في عصره ، وهو الذي وجه أعوص الاعتراضات إلى أهل السنة ، وأن خصومه كانوا يشتمون عليه زاعمين أنه دهرى رغم ما صوبه إلى الدهرية من سهام الطعن والتجريح ، وأن الخليفة المأمون كان يشغف بسماع مناظراته مع أبي الهذيل . وقصارى القول أنه كان حوالي سنة ٢٢٠ هـ ساطعا في سماء البيئات العربية المتفتحة ، وأنه توفي فيما بين سنتي ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ — ٨٣٥ و ٨٤٥ م .

أما آراؤه الخاصة فقد كانت متأثرة بالفلسفة إلى حد بعيد كأراء كل معتزلة عصر الترجمة . ولهذا يحدثنا الشهرستاني أنه قرأ كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط آراءهم بآراء المعتزلة .

غير أنه لما كانت كتبه قد فقدت ولم يبق منها إلا شفرات متفرقة نقلها اليينا عنه تلميذه الجاحظ ، فأننا نرى أنفسنا مضطرين إلى الاحتياط بما نسب إليه من آراء ، لاسيما وأن مؤرخي الحركة العقلية عند العرب قد عروا إليه آراء كثيرة بعضها محقق ، والبعض الآخر مشوه أو محرف ، ونعزز ذلك التشويه ما نسب إليه البغدادي في كتابه « الفرق » من آراء تعتبر كما يقول أحد المستشرقين - غاية في الويف والتصليب وسوء النية . ويرجح أن يكون البغدادي قد نقلها عن ابن الراوندي .

ينبغي ، قبل أن نجعل آراء النظام الخاصة ، أن نصير إلى أن فكرتين هامتين قد غلبتا

عنده كل ما عداها، وهما : فكرة التوحيد البريء من جميع شبه التعدد وعلاقي التألف  
مهما ضوّلت ، وعلى أي حال فرصت ؛ ومكرة جعل القرآن هو المصدر الأوحد للإلهيات  
والأخلاقيات ، وقد أدخلته هذه المغالاة في مخاصمات عنيفة مع جميع الفرق المعاصرة له  
حتى المعتزلة أنفسهم .

يتلخص أهم هذه الآراء التي اقردها فيما يلي :

( ١ ) قوله بأن القبح ليس مقدورا لله . وحجته في ذلك أن الأولين قالوا : إن الله قادر  
على الأفعال القبيحة ، ولكنه لا يفعلها لقبحها . فقال لهم : إذا كان القبح مانعا من نسبة  
الفعل إليه ، فانه يجب أن يكون مانعا من نسبة الإمكان إليه أيضا . ولما اعترض عليه بأن  
هذا يستلزم أن تحد قدرة الله ، أجاب بأن القول الآخر يستلزم أن يحد فعله ، ولا  
فرق بين الحالتين .

( ٢ ) قوله إن الإنسان في الحقيقة هو النفس ، والبدن قالبها ، وإن الروح جسم  
لطيف مشابه للبدن ، مداخل له فأحرائه مداخلة المائتية في الورد ، والدهنية في السمسم ،  
والسمنية في اللبن (١) .

ويلحق الشهرستاني على هذا الرأي بما يفهم منه أن مبدؤه محاكاة لفلاسفة «الميتافيزيكيين» ،  
ولكن النظام قصر عن فهم مبادئهم ، فالأولى الطبيعيين منهم وجاراهم فيما قرروه . ولو أن  
النظام كان قد قرر أن الروح في البدن كالماء في الورد ، والدهن في السمسم ، والسمن في اللبن ،  
لكان ما راماه به الشهرستاني صحيحا . ولكن بما أنه يقرر أن الروح في البدن كالمائتية  
والدهنية والسمنية ، والفرق بين النوعين جلي ، فنحن نرى أنفسنا بازاء هذا مضطرين إلى  
الاحتياط من تهمة الشهرستاني .

( ٣ ) قوله بنظرية الظهور والكهون التي طعن عليه من أجلها كثير من خصومه الذين لم  
يفهموه ، والتي لم تكن في الحقيقة إلا مشكوكا قاصيا استعماله في هدم مذهب الدهرية .

( ٤ ) تصريحه بأن إيجاز القرآن منحصر فيما أنبأنا به من أحبار ماضية ومعلومات ضرورية  
لنا ، وما احتواه من مغيبات وأسرار ، لا في أسلوبه الذي كان من الممكن أن يحاكيه الشر  
لو لم يفهم الله عن هذه المحاكاة .

ولا ينبغي أن مصدر هذا الرأي هندي ، إذ أن بعض كهنة الرامة قرروا أن محاكاة  
كتابهم المقدس «الفيدا» ممكنة ولكن إلههم صرف المتحدثين عن هذه المحاكاة .

(١) انظر صفحة ٦٢ من الجزء الأول من الشهرستاني .

(٥) قوله بأن كل شيء في الكون خاضع لناموس طبيعي ، ولا يوجد بين الكائنات كائن حر في فعله وتركه إلا الانسان وحده .

(٦) رأيه القائل بنى الجزء الذى لا يتحرز ، وبقبول الأجسام اتقسامات لا تنتهى .

(٧) قوله بأن الاعراض ، من طعوم وألوان وروائح ، أجسام . وهذا رأى الأخير متأثر برأى « الدوتيين » من فلاسفة الاغريق القائل بأن الطعوم والألوان والروائح مؤلفة من ذرات اجتمعت بكيات معينة وعلى حالة خاصة .

(٨) تصريحه بأن كلام الإله جسم مخلوق ، وكلام الانسان أعراض . وغير ذلك من الآراء التى قد يكون غيره شاركة فيها ، ولكنها لم تشتهر عن هذا الغير اشتهاها عنه .

فصل بن الحديدي واحمد بن حاطط .

هما من تلاميذ النظام ، وقد زادا على مذهبه أن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو الباري ، وثانيهما محدث وهو المسيح ، بدليل قول القرآن : « إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » ، وأن المسيح هو الذى سيحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو المقصود بقول القرآن : « وجاء ربك والملك صفا » ، وهو الذى يأتي في ظلل من الغمام ، وهو المعنى بقوله تعالى « أو يأتي ربك » ، وهو المراد بقول النبي عليه السلام : « إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » . وانفرد أحمد بن حاطط عن صاحبه بقوله : إن المسيح تدرع بالجسد ، وهو الكلمة القديمة المتجسدة .

وقد قال أيضا بالتناسخ ، فزعم أن الباري قد خلق الناس جميعا أسماء عقلاء في دار قبل هذه الدار ، وأسغ عليهم نعمه ، وكلغهم بأوامر ، أطاعه فيها كلها فريق ، وعصاه فيها كلها فريق ثان ، وأطاعه في بعضها دون البعض فريق ثالث ، فأبقى الفريق الأول في تلك الدار السميدة ، وأدخل الفريق الثاني النار ، وأقر الفريق الثالث في هذه الدار على صور تختلف باختلاف أفعالهم ، فمن كانت آثامه أقل ، كانت صورته أقل قبعا ، ومن كانت آثامه أكثر ، كانت صورته أقبح . ولا تزال هذه الحيوانات تعود الى الدنيا مرة بعد أخرى ما دامت آثامها تصحبها .

وعما أثر عنهما أيضا : تأويل الحديث القائل بأنكم سترون رسكم كاترون القمر ليلة البدر ، بأن الذى سيرى كالقمر هو العقل الفعال الذى قال به الفلاسفة (١) .

عمرو بن بحر الجاحظ : — المتوفى في سنة ٢٥٥ هـ وهو أول موصوعى في البلاد العربية ، وكان في مبدأ شبابه تلميذا للنظام ، فتلقي عنه العلم وتأثر بأرائه . ولما نضج صار رئيسا لمدرسة البصرة الاعترالية ، وقد كتب عددا عظيما من الكتب في كثير من الفنون والعلوم المختلفة كالآداب والخطابة والتوحيد والفلسفة والتاريخ الطبيعي والجغرافيا ، وقد امتازت كتبه بميزات

(١) انظر صفحة ٦٧ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب المهرستاني .

كثيرة كالدفقة والقند وصوغ المعاني القوية في ألفاظ أنيقة ، وكتجليل آرائه بزينة الأسلوب تارة ، وبمزجها بالمكاهة تارة أخرى . وإليك ما وصف به المسمودي هذه الكتب ، قال : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبنا منه مع قوله بالعناية . وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع . وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلوا صدأ الأدهان ، وتكسف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ووصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف مثل القاريء وسأمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى فائدة غريبة » (١)

ومن أبرز آرائه قوله : إن معنى كون الإله عالما أنه لا يجوز عليه السهو ولا النسيان . ومعنى كونه مريدا أنه ليس مكرها ، وأن من اعتقد وحدة الإله ورسالة محمد لم يكلف بصد ذلك شيئا ، وأن من دان بالتشبيه أو بالجبر فهو كافر . أما أسخف ما نسب إليه من الآراء فهو قوله بأن القرآن جسم ، تارة يكون رجلا ، وتارة يكون امرأة .

محمد الجبائي وابنه أبو هاشم — هما من بقايا تلاميذ المدرسة الواسطية . وقد كانا من أبرز أهل عصرهما وأذكا مذهبهما ، وأكثرهما علما ، وأعلاما كسبا في النظر والبحث ، فأقرا كل أصول المعتزلة وزاد عليها أن إرادة الرب حادثة لا في عمل ، وأنه متكلم بكلام يخلقه في جسم . وانفرد الجبائي بأن معنى كون الله صميما بصيرا هو أنه حي لا آفة به ، وأنه يجب على الله لمن يكلفه إكمال عقله ، ونهية أسباب التكليف له . وانفرد أبو هاشم بقوله إنه لا ينطق علم بمعلومات على التفصيل ، وصرح بأن جعود قدماء المعتزلة الصفات بتاتا صرب من التصف ، وأن الحق هو أن العلم والإرادة والقدرة هي أحوال لله ، بها يعلم ويقدر ، وهي ليست معلومة ولا محمولة ، أي أنها لا تعرف وحدها ، وإنما مع الذات فقط . وهذه الأحوال هي التي شبهها الشهرستاني بأقنيم المسيحية كما أسلفنا .

هذا ، وسنوال البحث في الفصل المقبلة في مميزات المعتزلة ومذهبهم العام

المركنور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحتي ١٣٥ و ١٣٦ من الجزء الرابع من كتاب « مروج الذهب » لمسمودي طيبة

القاهرة سنة ١٩٣٨

## ذكرى ميلاد النبي الكريم

« محمد رسول الله »

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ينزل عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لآلى ضلال مبين »

ليس من الحديث المكرر ، ولا من القول المردد ، أن يماود الكاتب البحث في شخصية النبي عليه السلام ، كلما جاءت ذكرى ميلاده ، أو ذكرى هجرته ، أو ذكريات غزواته ، أو نرى صمل من الأعمال الجليلة التي قام بها ، والتي انتظمت عقداً تحلى به جيد الدهر ، وصار الناظر الى كل درة من دور هذا العقد ، يبهره سناؤها ، وتنتوي على مشاعره وحواشيه دهشة الإعجاب .

ولا غرو أن تكون ذكرى ميلاده باعنا قويا ، وحافزا ملحا ، للكاتبين والواصفين ، في أن يكشفوا للناس بعض صفاته الخلقية : من الشجاعة ، والكرم ، ولين الطبع ، وقوة العزم ، وكمال التضحية ، والصبر على تحمل المشاق ، في سبيل القيام بالواجب ونصرة الحق .

ففي محمد صلوات الله عليه - وقت أن كان جنينا في بطن أمه - عبرة وعظة ؛ وفي رضاهه عبرة وعظة ، وفي مميسته والحصول على رزقه - قبل بعثه - عبرة وعظة . فهو الذي حملت به أمنة بنت وهب بن عبد مناف سيد بني زهرة ، ولما عجز على حملها إلا القليل من الزمن حتى أدركه اليتيم بموت أبيه . وكان موعد ميلاده ، الذي كان ينتظره جده عبد المطلب بفارغ الصبر ، فأشرقت الدنيا به في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ( ٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ ) ، فاسماه جده عبد المطلب ( محمداً ) .

ولقد انتظرت أم اليتيم محبة المراضع من بني سعد لتدفع بطفها الى إحداهن ، ليشب في البادية على الصفات الحيدة ، وتلك مادة أشراف أهل مكة ، فانهم كانوا يسمون أطعمهم الى المراضع من أهل البادية . ولكن من هي تلك التي ترغب في أخذ ذلك اليتيم ، الذي لا يستطيع أهله دفع ما تطلبه المراضع ، من مال ونحوه ؟

ولقد كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية ، ممن عرض لها من هذا اليتيم ، فأبّت أن تأخذه أول الأمر ، ولما لم تجد من الاطفال من تأخذه ، رضيت بأخذ محمد صلى الله عليه وسلم . ولئن كان محمد قد أدركه اليتيم بموت أبيه وهو في بطن أمه ، فقد ماتت أمه وهو في السادسة من عمره وهي آية من المدينة ، بعد زيارتها لبني السجار ، أخوال زوجها عبد الله ابن عبد المطلب ، فرجعت به أم أيمن الى مكة ، بعد أن أصبح يتيما من الأيتام . ولم تمض



على هذه الحادثة المصيبة الاليمية إلا سنتان ، حتى توفي جده عبد المطلب ، الذي كان يحنو عليه حوا يفوق حنوه على أبنائه .

ومحمد بعد ذلك ينتقل الى كفالة عمه أبي طالب ، ويرحل معه الى الشام ، ليتدرب على التجارة ، ويشرف مسالكها وأضرابها .

ولسا نطيل الحديث في هذه الأدوار التي مر بها محمد قبل بعثته ، بل الذي يمتينا الحماية كلها ، ما قام به من الأعمال ، بعد أن حل رسالة ربه ، وكلف بتبليغ خلقه ، وأزل الله عليه : « يا أيها المدثر قم فأأنذر . ووبك فكبر » .

حينذاك واجه محمد قبائل متنافرة ، وطادات سينة . فحروب يحمي ويطيسها ، ونقل مراجلها ، وتفتد أهوالها ، لآفته الأسباب . ومعتقدات متضاربة نشأت من ظلمة العقول ، والمخاطبات الى الخفيض من الإدراك .

ولقد كانت جزيرة العرب ، مشتملة على أقوام لا يمتقدون بالخالق ويقولون : ما هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلى ، وما يهلكنا إلا الدهر . وقد حكى الله عنهم ذلك فقال : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . وبجانب هؤلاء وجدت فئة تؤمن بالخالق وتكر الميث ، وفي هؤلاء يقول الله تعالى : « بل هم قوم خصاصة » . وبجانب هؤلاء وأولئك ، كان عبادة الأصنام : من بنى كعب ، وهذيل ومذحج ، وهمدان وثقيف ، وفريش وكنانة ، والأيوس والحزرج ، يعبدون : اللات والعزى ، ومناة ، وودأ وسواها ، ويفوث ، ويعوق ، ونسرا . يحكى عنهم القرآن فيقول : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ونسرا » .

وبجانب من تقدم ، كان اليهود والنصارى الذين استحكم بينهم الخلاف ، واشتد الجدل ، وطال الحوار . وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء » ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، الى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم ، من طعن كل من أهل هاتين الديانتين في الديانة الأخرى .



ولقد كانت هذه المعتقدات المتضاربة المتنافرة ، سببا في الاضطرابات المتتالية ، والدماء المرافقة ، في هذه الجزيرة التي طوحت بها ظلمة العقول ، واشتداد الجهل ، وفشو الخرافات ، وكان لابد للرسول عليه السلام من أن يوطد لدينه ، ويهدد لدعوته ، ويثبت أركان رسالته في هذه الجزيرة ، مهبط وحيه ، حتى يستطيع بعد ذلك أن يعمم رسالته ، ويبلغها الى جميع سكان المعمورة .

فكرر النبي صلى الله عليه وسلم في جمع الكلمة ، و ربط القلوب ، وتوحيد الاتجاه ، وقد تم له ذلك ، إذ يقول الله تعالى مخاطباً بنيه عليه السلام : « وإن يريدوا أن يخمدوك فإن حسبك الله ، هو الذي أيدك نصره ، وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنقذت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »  
ولم تكن التشريعات الإسلامية تفرق بين غني وفقير ، ولا بين قوى وضعيف ، وما ذاك إلا لأن الإسلام دعا إلى الوحدة ، وإلى الأخوة ، وإلى المساواة ، إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وإنما جاءت التكاليف الإسلامية موافقة للطبيعة الإنسانية . لا عسر فيها ، ولا إرهاب ، ولا إغاثات ، قال تعالى : « لا يكلف الله تمسكاً إلا وسعها » وقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، وقال : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج » ، وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . فهو دين صريح ، لين سهل ، يكره الغلو ويبغض التشدد ، وينصح للنفس التمتع بالطيبات ، يقول الله جل وعز : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لمعاد ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » كذلك تفصل الآيات لقوم يملكون ، ، ويقول : « يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم » .



حدد الإسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الراعي والرعية ، على أحسن وجه ، وأسسها على أقوم قواعد ، تنتج الصالح العام ، وعدم ضياع حق الفرد على الأمة ، وحق الأمة على الفرد ، وتحقق تكاتف القوى ، واتجاهها لغاية سامية ، تجعل الحكم شوري لا استبداد فيه ، ولا تبحر ولا طغيان ، إذ يقول الله تعالى . « وأمرهم شورى بينهم » ، ويخاطب رسوله الأمين صلوات الله عليه بقوله : « وشاورهم في الأمر » . وقد كانت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم شاهدة بذلك ، فكثيراً ما جمع أصحابه ، واستشارهم في أمور مالية وسياسية ، وحرية ، فتراه في غزوة ( أحد ) يأخذ رأى أصحابه في اختيار أحد أمرين ، ها : انتظار المؤمنين في المدينة ، أو الخروج إلى لقاء العدو خارجها ، وقد كان رأيه ورأى بعض أصحابه المكث بالمدينة ، ورأى الأغلبية الخروج إلى لقاء العدو ، ففزع عليه السلام رأى الأغلبية ، وخرج لملاقاة العدو ، فكانت الشورى أساس نظامه .

وقد جعل الإسلام بجانب الشورى في الحكم ، وحب الطاعة من الرعية لأولى الأمر ، إذ يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » .



تلك اللحات جاشت بالنفس عند ذكرى مولد النبي الأسمى ، ذلك المصلح العظيم الذي ولد ليولد على يديه دين الفطرة ، وتوجد في أسس هذا الدين الفطري ، مصالح الناس منظمة محكمة ، تسمى لهم ويسعون لها آمنين مؤمنين .

فهل عند ذكر الميلاد الحمدي أو ذكره ، يذكر ذلك الدين مجد ، وسمو ، وفضل على الدنيا ؟ الدنيا التي تشهد للإسلام بالسلام ، كما تشهد للإنسان بالفسيان والطغيان .

صدق الله تعالى ، له الحجة على ابن آدم بعد أن قال له :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا

مهلك القرى إلا وأهلها ظالمون »

هــب الله المرافى

وكيل قسم المساجد

## دين الاسلام كما يحفظه المسلمون

### THE RELIGION OF ISLAM

يرى حضرات قرائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة انجليزية تحت عنوان (The Religion of Islam) وهي المزمة الأولى من كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ الأمامي الجليل أحمد خلوص رئيس جمعية منع المسكرات في القطر المصري ، وضعه خصيصا للتعريف بالاسلام للام التي تتكلم الانجليزية ، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب الذي اطلع عليه عدد كبير من رجال العلم الانجليز والعرب ، فوجدناه جديرا بأن ينشر ملحقا لمجلة الأزهر تباعا حتى يتم ، والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخى فيه بيان مزايا الدين الاسلامي ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وتوفيقه لجميع حاجات القلوب والمعقول ، بببارات بليغة تؤثر في قارئيه من أهل تلك الفئة أبلغ تأثير . وقد جلى فيه المسائل الاسلامية الكبرى محلبة جدية بباحث واسع الاطلاع ، نير البصيرة .

# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الأدب العربي

جاهليته وإسلاميته

— ٣ —

جناية الأدب الجاهل ، على الأدب العربي أيضا

لم يكن صاحب هذا البحث ذاعُذْرُهُ ، ولا أول من وفق الى إثباته ؛ فقد عرفت أن الشاعر أبا نواس قد طرّفه ، واستهجنه ؛ وأكبر ظني أنه لولا تلك النزعة الشعبية التي كانت تبدو من خلل أشعاره ، لمضى به ، ونجح فيه ، ولم يأخذه عليه أحد . ويؤيد هذا الظن ما زعموا : من أن أول من تلبه الى ذلك مطيع بن إلياس العربي الكسائي ، وهو شاعر من طبقة كانت في صدر الدولة العباسية ، قبل أبي نواس وأبي المناهية ، قالوا : وقد اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ؛ فقال مطيع :

لَا حَسَنَ مِنْ بَدَّ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا وَمِنْ جَبَلِي طَى ، وَوَصَفَكَا سَلَمَا  
تَلَا حَظَّ عَيْنِي مَاشِقِينَ ، كَلَامُ لَه مَقَلَةٌ فِي وَجْهِهِ صَاحِبُهُ تَرْمِي

وكذلك تنه له النقاد ؛ فهذا ابن رشيق يقول : « وليس ما تَحَدَّثُ من الحاجة الى أوصاف الأبل ونموتها ، والقفار ومياها ، وحر الوحش ، والبقر ، والثقلان ، والوعول — ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ، ليحري على سنن الشعراء قديما ؛ وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما في تلك الطرائق ، ما هو مشهور في أشعارهم ؛ كرائية الحسن في الخصب ، وحبيبة ابن المعتز المردفة في الضرب الثاني من الكامل . والاولى بنا في هذا الوقت ، صفات الحر والقيان ، وما شاكلهما ، وما كان مناسبا لها ، كالسكّوس والقناني والآباريق ، وتماح التحبات ، وباطت الزهر ، الى ما لا بد منه : من صفات الخدود والقنود والنهود ، والوجوه والشعور ، والريق والنفور ، والأرداف والمصور ؛ ثم صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شاكل المولدين ؛ فان ارتفعت البصاعة ، فصفت الجبوش وما ينصل بها ، من ذكر الخيل والسبوف ،

والرماح والدروع، والقسي والنبل، الى نحو ذلك، من ذكر الطبول، والبنود، والمنحرفات والمنجنيقات؛ وليس يتسع بنا هذا الموضوع لاستقصاء ما في لنفس من هذه الأوصاف الخ. اهـ .  
يبد أن الظاهرة البارزة، التي تبدو سامرا للقارئ الكريم: أن الشعراء والنقاد القدامى، تناولوا الموضوع برفق، وحالجه في هوادة ولين؛ فأما بمحائنا العلامة، فقد تناوله بمنف، وثار فيه ثورة جامحة، كلها لخب، وكلها صخب، وكلها هدم، وكلها تدمير؛ وليس فيها مخالقات، ولا جنح مركبة، بل كلها جنائيات، محكوم فيها بالإعدام، بلا نقض ولا إبرام !!



لا حرم أن للأدب الجاهلي الأثر البالغ في الأدب العربي، لتقيامه منه مقام الأصل من الثرع، كما أسلفنا القول؛ ولكن هذا الأثر لم يكن على الأدب العربي، ولم يتحد من فرائهه، ولم يقتصر به دون السمو الى الغايات، في قوة النسخ، وسحر الخيال، واتساع الأفراض، وبديع المعاني؛ وما كنت لأشرح هنا ما تكفلت به كتب تاريخ الأدب للمدارس الثانوية والعالية، من أدلة ذلك، فهو من الحديث المعاد؛ وإن حسبي أن أقول: إن رجال النقد الأدبي على أن الشعر الاسلامي: شعر الاحطل والفرزدق وجري، وغيرهم من شعراء بني أمية - أفضل من شعر الجاهليين؛ بل لقد تصدوم، فقدموا شعر المصدر الاول من العصر العباسي، على الشعر الجاهلي. قال العلامة ابن خلدون: «إنا نجد شعر حسان بن ثابت، ومهر بن أبي ربيعة والحطيئة وجري والفرزدق وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية، وصدر من الدولة العباسية، في خطبهم وترسلهم، ومحاوراتهم للملوك - أرفع طبقة في البلاغة من شعر الباقية، وهنرة، وابن كلثوم، وزهير، وعلقمة بن عبدة، وطرفة بن العبد؛ ومن كلام الجاهلية، في منشورهم ومحاوراتهم؛ والطبع السليم، والذوق الصحيح، شاهدان بذلك للنقاد البصير بالبلاغة. والسبب في ذلك، أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام، هموا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين هجز البشر عن الإتيان بمثلهما، لكونها ولجت في قلوبهم، ونفأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة، على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، من لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم، أحسن ديباجة، وأصق رونقا من أولئك، وأرصف مبنى، وأعدل تنقيفا، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة؛ وتأمل ذلك، يشهد لك به ذوقك، إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة» اهـ .

أما أبو الفتح بن جني، فيقول: «المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقسماء في الألفاظ». - ويعطل ذلك ابن رشيق، بأن المعاني إنما أسمع، لاتساع النفس في الدنيا، وانتشار العرب بالاسلام في أقطار الأرض، فعتسروا الأمصار، وحفروا الحواضر، وتألقوا

في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان مآلاتهم عليه بداهة العقول ... وصفة الانسان مارأى ، يكون — لاشك — أصوب من صغته ما لم ير ، وتشبيهه ما بين ما بين ، أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر . .

ثم قال : « ولم أدل بهذا على أن العرب خلت من المعاني جملة ، ولا أنها أفسدتها ؛ لكن دلت على أنها قليلة في أعمارها ، تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ؛ وهي كثيرة في أشعار المتأخرين ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الإعلام للتأخرين ... ومن هذا يتبين ما في أعمار الصدر الأول الاسلاميين ، من الزيادات على معاني القدماء والمخضرمين ، ثم ما في أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات المحببة ، التي لا يقع مثلها للقدماء ، إلا في الندرة القليلة ، والقليلة المنردة ؛ ثم أتى بشار بن برد وأصحابه ، فزادوا معاني ما مرت قط بخاطر جاهلي ، ولا مخضرم ، ولا إسلامي ؛ والمعاني أبداً تزداد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً » اهـ .

وقال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه ؛ فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ؛ فعملت على أبي عبيدة ، فوجدته لا ينتقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ؛ فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن ابن وهب ، وعبد بن عبد الملك الزيات » . قال صاحب : فله أبو عثمان ! فلقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرق من السمر !! .

ولا غرو ، فقد قيل : الكتاب دهاقين الكلام . وما يؤيد ذلك قول ابراهيم بن العباس الصولي ، بمدح الفضل بن سهل :

فضل بن سهل يد      تقاصر عنها المثل  
فباطنها للندي      وظا هرها للقبل  
ومثلها للقي      وسطوتها للأجل

وقد تناول ابن الرومي هذا المعنى فأجاد ، حين قال :

مقبل ظهر الكف ، وهاب بطنها      له راحة فيها الخطيم وزمزم  
فظاهرها للناس ركن مقبل      وباطنها عين من الجود عيشام  
ولكن الأول أخف وزناً ، وأرشق لفظاً ومعنى ؛ وبيناه — وإن كان فيها زيادة — بإزاء البيت الأوسط فقط من أبيات ابراهيم الصولي .

ومن قوله في هجاء ابن الزيات ، وقد بلغ فيه أبعاد الفايات .

فكن كيف شئت ، وقل ما تشاء      وأرعد عينا ، وأبرق شمالا  
نجايبك قومك منجى الباب      حنه مفاخره أن ينالا

وما أحسن قول ابن الرقيات :

مالي إذا غبت لم أذكر بواحدة      وإن مرضت فطال السقم ، لم أعد ؟  
ما أعجب الشيء ، ترجوه فتحرمه      قد كنت أحسب أنني قد ملأت يدي ١١  
وعلى الجملة : كم ترك الأول للأخر ١١



من المفروغ منه ، أن مستوى الشعر قد انحط في العهود الأخيرة ، وأن حيدته ومطبوعه لا يكاد يحس إلى جانب زيفه ومصنوعه ؛ ولكن مرد ذلك ليس إلى جنابة الأدب الجاهلي ، كما يرى الباحث الكريم ، أو تأثره ، كما يرى القدماء ؛ بل إلى ضعف العلوم والآلات ، وانحطاط الثقافة العربية أولاً ، والجهل بالتقافات الحديثة ثانياً . وإلا فقد امتدت جنابة الأدب الجاهلي على الأدب العربي منذ صدر الإسلام ، ومع ذلك فقد تمردت عليها الآداب العباسية تمرداً ، وطلعت عليها طغياناً مبيناً .

ويلد لي أن أستدل هنا بقول صاحب نحيي الإسلام ج ١ ص ١٤ : « فإذا نحن طغرنا إلى العصر العباسي ، وحدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا الإسلام ، لم يمدوا يندوقون الشعر العربي الجاهلي ، وإنما يندوقون ما ألفوا ، من النخعي في شعرهم بالحب ، والخمر ؛ فظهر المباس بن الأحنف الخراساني البيهقي ، وأبو نواس الفارسي الأم ، يشبهان ذوقهما : الأول في عشقه ، والثاني في خرياته . قد كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الخمر ؛ ولكن شتان بين خريات طرفه ، وخريات أبي نواس ؛ وشتان بين شوق امرئ القيس ، وشوق المباس . ومعنى في ذلك قول الجاحظ : « كم بين قول امرئ القيس : تقول وقد مال الغبيط بنا مما ، وبين قول علي بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمتنا بعد هجمة      وأدنى فؤادا من فؤاد معذب  
فبقنا جميعاً ، لو ثراق زجاجة      من الراح فيما بيننا لم تسرب

فقد أخذ الفرس الوزن العربي ، والقافية العربية ، والأسلوب العربي ؛ ولكن أخذوا بجانب ذلك الخيال الفارسي ، والقوى الفارسي .

وقد تأثر جيب والمنهني بالعلوم الفلسفية تأثراً أسرف فيه إسرافاً ، جرّ عليها النقد ، لأن الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرك الطباع ؛ والفلسفة باب آخر غير الشعر ؛ وهذا باب أشهر من أن يذلل عليه ، أو ينمّ بالإشارة إليه .

وليس عصرنا الحاضر بدم من المصور الأخرى ؛ فتألمو الحركة الفكرية فيه ، لا يموزم الدليل على صحة ما نرى : من ردة ضعف الشعر ، وغير الشعر من فنون الأدب ، إلى ضعف

الثقافة ، وشيوع النوع « الشيطاني » منها . وإن حسبك أن تستعرض تاريخ الفئة القليلة ، التي تحسن النقد الأدبي اليوم ، لتؤمن إيماناً صادقا بأن الثواب على قدر المشقة ، وأن أحدا منهم لم يبلغ ما بلغ ، حتى علّ ونهل من صميم الثقافة العربية في الأزهر ، ثم انتجع أوربة ، فعمل ونهل من مورد طريف ، فأنتج هذا « التنظيم الثقافي » مزيجاً ، فيه متانة القديم ، وفيه طرافة الحديدي ، ولا عجب أن نحىء منازلهم في ذلك متفاوتة ، عند من عرف تفاوت حظوظهم من النضج الأزهرى ، وليس من شك في أن التفوق والتبريز ، من نصيب المتفوق المبرز في الثقافة العربية وإلاّ عسّر المزج ، واستحال الهضم ، وجاء الإنتاج أخلاقاً غير متأسكة ، وأمشاجاً غير متشابكة ، يسكرها الشرق ، وينفيها الغرب ، فلا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

أما بعد ، فقد أخذ على بعض الأصدقاء ، أنني لم أصرح بأسماء من أنعرض لقد آرائهم ، وجوابي : أنني ما أردت رداً ، فإن وقت الردقات ، بل أردت مناقشة هذه الآراء في جملتها ، وبيان وجهة النظر الأزهرية فيها ، توجبها لأبنائي من طلبة كلية اللغة العربية ، وتكسيلا لماداتهم الدراسية ، فهذه المطرات الأدبية العابرة ، أبحاث صحفية ، متممة للبحوث المدرسية . على أن مثيري هذه الموضوعات ، أشهر بأثرهم ومراكزهم ، من أن أدل عليهم ، أو أشيد بكبرهم . وقد أثار أستاذي العلامة مدير مجلة الأزهر بالإيجاز ، فلا تزل على أسره ، ولا كتف في تحقيق « حناية الادب الجاهلي » ، عاقدت ، وأقل الحديث إلى موضوع آخر . طلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان  
كلية اللغة العربية

## ماهية التصوف

سئل رويم الصوفي عن الصوفي فقال : هو الذي لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء .  
وسئل رويم عن الانس فقال : هو أن تستوحش من غير الله حتى من نفسك .  
وقد سمع رويم ينشد :

ولو قلت لي مت مت صمما وطاعة      وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً

نقول : ربما ظن بعض الناس أن التصوف يشري صاحبه بأن يكون عالة على غيره . وقد دحض عمر الفاروق هذه الشبهة بنفسه ، وقد سأل ناساً من أهل اليمن عن حالهم فأجابوه بأنهم متوكلون ، فقال لهم : كذبتم بل أنتم متأكولون ! ألا أخبركم بالتوكل ؟ هو رجل أتى حبة في بطن الأرض توكلها على الله .

وقال عمر رضي الله عنه : من أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه ، فإنما أظهر نفاقاً على تقا .



# دراسة في القرآن الحكيم

## المجاز والكناية في كتاب الله

نحت هذا العنوان كتبت في عدد من آي القرآن الكريم . وسأكتب اليوم في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون » .

وفي تفسير هذه الآية يقول المفسرون : إن معنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » أن الله تعالى مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذرية ، ثم قال : هؤلاء للنار ، واستخرج فريقا آخر ، ثم قال : هؤلاء الجنة ؛ وبنوا على ذلك ما يدعونه عالم الذر ، وأن ذلك العهد كان في هذا الحين الذي ذكروه .

يذكرون ذلك ، وإما إذا رجعنا إلى أصول الدين المقررة المقطوع بها والمجمع عليها ، وجدنا ما ذكرنا في تفسير هذه الآية من حديث عالم الذر الذي تخيلوه غفلة ، ما يتنافى مع تلك الأصول منافاة واضحة لا تحتمل جدلا ، ولا تقبل مرأ .

أليس من المعروف قطعا ، والمعلوم ضرورة ، والمتفق عليه من جميع الفقهاء ، في جميع العصور ، أن البلوغ هو الحد لجميع التكاليف التي جاء بها الإسلام ، لأن الشارع الحكيم ، ومكون النفوس ومقدرها ، وعالم تطوراتها وقواها ، قد علم أن ذلك هو السن التي تتم فيها العقول ، وينضج فيها النظر ؟ فكما ترى ، قد اقتضت حكمته السامية ألا يكلفهم قبل هذه السن ، وإن كانوا ناطقين بميزين ، يفهمون الخطاب ويدركون مقاصده ، ولكنهم مع هذا خفيفة أذانهم ، خداج أنظارهم ، مزدهاة أحلامهم . وبهذا تعلم أنه يكون من غير العقول ولا المتصور أن يكلفهم وهم رصع في مهودهم ، وتعلم أنه أبعد من هذا من العقولية والتصور أن يكلفهم وهم في بطون أمهاتهم ، وإن كانت قد تفشت الروح فيهم ؛ أو أن يكلفهم مضغا أو علقا ، أو نطفا في الأرحام .

وإذا كان كذلك ، وأنهم لم يكلفوا في أطوار وجودهم ، مادنا منها من المدم وما بعد ، فكيف يكون من الله أن يكلفهم في ذلك العالم : عالم الذر ، وهم فيه عدم ليس لهم من اعتبارات

الوجود إلا أن الله يعلمهم ، إذ علم الله محيط بالماضي والحاضر والمستقبل ، محيط بالواجب والممكن والمستحيل ؟

وكيف يجوز على الله وهو الحكم العدل ، أن يؤخذ من الناس من يخالف ذلك العهد وهم ما سمعوه ولا قرعوه ولا علموه ، ولا خطر في أنفسهم ولا على أقل وجوه الخطور ، ولا كما تخطر أضغاث الأحلام ، ولا كما يهوس الخيال بالأوهام ؟

هذا ما ندحض به هذا الذي أولوا به تلك الآية الكريمة أولاً ؛

وأما ثانياً : فإن من الأصول المقررة والمتفق عليها ، هو أن أهل الفطرة ناجون ، وقد استندوا في هذا الأصل أولاً : لقوله تعالى : « وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا » ، وثانياً : لقوله تعالى : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . فالآية الأولى كما ترى تدل في صراحة على أن الله عز وجل لا يوجه مؤاخذه على أحد من الناس حتى يبعث إليه برسالة الرسل ، ليوقظوا الشعوب من نومهم ، وينبهمهم من غفلتهم ، ويبينوا لهم طريق الحق والمصلحة . كما أن الآية الثانية تدل في قوة وصراحة على أنه لا يقطع حجة الناس نحو ربهم وخالفهم إلا إذا بُعثت إليهم الرسل يثيرون المستحيين للحق ، ويندرون من أمرض ونأى . فهل يمكن مع هذا أن نطاولنا عقولنا فنجيز أن يؤخذ الله الناس ويحاسبهم بعهد يؤخذ عليهم قبل أن يوجدوا ، وقيل أن توجد آياؤهم بل وأجدادهم ، كما هو مقتضى تصوير عالم الله الذي يحدثون عنه ؟

على أنه لو صح أن يراد من الرسول في قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » العقل ، لما تغير الموقف ، ولقيت الحجة قائمة قوية على عدم صحة هذا الذي حملوا عليه الآية : من أن العهد قد أخذ على بني آدم يوم استخرج الله من ظهر آدم ما أراد أن يخلقه من البشر ، إذ أنه مع هذا التأويل يكون قد بقي أن العقل شرط للمؤاخذه والتكليف ، وقد علمت أنه حتى اشتراط العقل للتكليف لم يطلق إطلاقاً ، بل قد جعل ارتباط التكليف به مقيداً بنصاب منه خاص ، حين حدد للتكليف حالة خاصة أو سناً معينة .

وأما ثالثاً : فإنه قد جعل في نفس الآية من الحكمة في أخذ هذا العهد على الناس ، أن تنقطع حجبتهم فلا يقولوا : « إنا كنا من هذا غافلين » . وواضح أنه لو كان الأمر كما قالوا ، وأن العهد قد أخذ يوم استخرجوا من ظهر آدم ، لما كان ذلك قاطعاً حجبتهم ، بل يبقى لهم أن يقولوا : إنا كنا من هذا غافلين ، وهم إذ ذاك يكونون جدد محقين في أنهم من ذلك العهد غافلون . فإنه إذا كان خالفهم الحكيم الرحيم قد اعتبر ذلك حجة منهم إذا هو لم يرسل إليهم الرسل مع بروزهم للوجود ، ومع منحهم العقل أداة النظر وآلة التفكير ، ومع بسط صحائف الكائنات

أمام أنظارهم ، وقد امتلأت بالآيات البينات والبراهين الواضحة على ما يجب لله من إجلال وتقديس ، فهل يمكن بعد هذا أن يفهم ظم أن الله ذا الحكمة البالغة ، والرحمة الشاملة ، يواخذ الناس بمهمل ما عرفوه ولا أدركوه ، ولا خطر لواحد منهم ببال ؟

الهم إن ذلك هو بعينه تكليف ما لا يستطاع الهم إن ذلك هو بعينه تكليف المحال ! تعالى الله عن ذلك ، فهو الذي يختار على عباده في مواضع مختلفة من كتابه بسمة رحمة وممو حكمته ، يقول عز من قائل : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وأما رابعا : فإن الآية لم يكن التعمير فيها : ويد أخذ ربك من آدم من ظهره ؛ كما هو مقتضى هذا التأويل للآية ، بل عبارة الآية كما ترى بلفظ « بنى » مضافا إلى آدم ، ثم ذكر الظهر مجموبا « من ظهوره » مما هو صريح في أن الأخذ ليس من آدم نفسه ، ومما هو صريح في أن الأخذ من ظهور البنين . فالآية واضحة في أن المراد بالأخذ هو التناسل والتوليد . وعلى العموم ، فأى عقل ذلك العقل الذي يتسع لأن تكون تلك القطرة من الماء المنحدرة من ظهر إنسان قد اجتمعت فيها بدور تسلسلها إلى نهاية تلك الحياة ؟ وكيف يخاطبنا القرآن ، وهو الكتاب المبين ، بما لا تقبله العقول ، ولا تسيغه الأفهام ؟

أما ما روى عن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أنه سئل عن هذه الآية فقال : إن الله سبحانه خلق آدم ، ثم مسح ظهره . . . إلى آخر ما بينا سابقا ، من أنه قد خرج من ظهره فريق للنار وفريق للجنة ؛ أما هذا فهو إن صح ، لا يمكن إلا أن يكون من باب التمثيل ، وهو في ذلك واضح كل الوضوح .

إلى هنا يقين الناظر في وضوح ، أنه ليس من الصواب أن تقول الآية هذا التأويل . وعلى هذا فعلينا أن نقنع بالآية فاحية تتفق وحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ؛ تتفق وحزله القرآن ، وقوة أسلوبه ، وجلال معانيه .

إن الذي ينبغي أن تقصر به الآية الكريمة على ما يقع في حدود الأصول المقررة في الدين والمعلومة منه بالضرورة ، وعلى ما يناسب مع حكمة الله ورحمته ، هو ما سلبديه ؟

« يفتح »

عالم لميسر

المدرس بكلية اللغة العربية

# تاريخ الفقه الإسلامي

## تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

- ٢ -

### ١ - ما معنى تاريخ الفقه :

الفقه ، في اللغة : العلم والمهم والفتنة ، قال تعالى : « لم قلوب لا يفقهون بها » .  
وفي الحديث الشريف « من ردد الله به خيرا يفقهه في الدين » .  
وفي اصطلاح أهل الشرع : « العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية » .  
فالذي يقال له الفقيه على الحقيقة ، هو العالم الفطن القادر على الاستنباط ، وهو المجتهد ؛  
وأما غيره فلا يطلق عليه اسم الفقيه إلا مجازا وتوسعا إذا كان قد وصل في العلم بالأحكام  
وتحصيل المسائل إلى درجة يستباح معها التوسع والمجاز .  
وتاريخ الفقه : هو النظر في عهوده المختلفة ، وما طرأ عليه من أحوال ، وما اختلف عليه  
من رجال .

وهذا النظر يستنبع الكلام عن طريقة استنباط الفقهاء للأحكام ، وعن العوامل التي أثرت  
في ذلك ، ولونت الفقه بالألوان المختلفة ؛

ويستنبع النظر في الأسباب التي جعلت للفقه الإسلامي مكانته المرمية في القانون  
والمعاملات ، حيناً من الزمن ، وفي الأسباب التي انتعرت منه فيما بعد ذلك هذه السيطرة ،  
وأدت إلى إقصائه ، تقريبا ، عن الحياة العملية ، وفصره على المسائل الشخصية والروحية !

ويستنبع النظر في ثقافة رجال الفقه التي أثرت في فقههم ، ومدى انتفاعهم بالرواية ،  
أو اعتمادهم على الرأي ؛ وبالجلة عن طريقة استنباطهم أو تفريعهم ، أو تطبيقهم للقواعد العامة  
على جزئياتها المتعددة ؛

ويستنبع النظر في تأليفهم ، وأساليبها المختلفة ، في عهود الرق والانحطاط ، وما كان لهذه  
التأليف من أثر في الإحسان إلى الفقه أو الإساءة إليه . هذا هو تاريخ الفقه .

ولمض الدين يكتبون في هذا العلم يسمونه « تاريخ التشريع » . وهذه العبارة نفسها هي  
العبارة الرسمية في منهاج الدراسة بكلية الشريعة .

وقد أعجبني تحقيق جيد لاستاذنا العلامة الشيخ محمود شلتوت في محاضرة من محاضراته  
القيمة ، أثبت به أن هذا الإطلاق خطأ ينبغي أن يصلح !

ذلك أن كلمة التشريع لا تصلح هنا ، لأن التشريع هو وضع الشريعة ، فلا يسمى تشريعا إلا هذه النصوص التي ينظر فيها الفقيه ، ويجهد فيها ، ويستنبط منها ، وهي نصوص الكتاب أو السنة .

أما الاستنباط ، والاجتهاد ، والترجيح ، والتأويل ، فذلك هو الفقه . وظاهر أن الذي له أحوال ، وعهود مختلفة ، وأطوار ، ورقق وانحطاط ، ليس هو النصوص ، وإنما هو الفقه ، فهو الذي يؤرخ له إذن .

نعم : إن النصوص قد ينظر فيها من حيث الدلالة ، والنص ، والسكينة والجزئية ، والعموم ، والخصوص ، والنسخ والإحكام ، ونحو ذلك ، ولكن ذلك من أغراض علم الأصول ، فإذا عرض لها المؤرخ للفقه ، فهو يعرض لها تبعا لا استقلالاً .

وعلماء كلية الشريعة الذين ألفوا كتابا قد فطنوا لذلك ، واعتذروا عنه بالتوسع في معنى كلمة التشريع حتى يشمل الفقه ، وفهم النصوص وغيرها . ولنا نرى مبررا لهذا التوسع الذي يقلب المسألة ، فيجعل الغرض المقصود تابعا يندرج في سواء ، وحقه أن يكون متبوعا يندرج ما سواء فيه !

وأكبر الظن أنهم أرادوا مجازاة الخطأ الراسي في المنهاج ، ومجازاة بعض المؤلفين السابقين ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، فقلعهم ، ولعل كلية الشريعة ، يعملون على إصلاح هذا الخطأ !

#### ٧ — كيف كان الفقه في عهد الفتح :

ونقصد فتح مصر ، ولا بد من هذا الفصل لنستطيع أن نقيس في بحثنا مدى تأثير الفقه في مصر بالفقه في الحجاز .

ومن المعروف أن الحركة الفقهية يومئذ كان مركزها بلاد الحجاز ، بل كان مركزها المدينة خاصة ، حيث بقيم الخليفة ، وكبار الصحابة من المشتغلين بالفقه ، والرواية والفتيا ، فما هي الطريقة التي كانت متبعة في الفقه ، والأحكام يومئذ ؟

هي الطريقة التي ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته لأصحابه : يمرضون مسائلهم على القرآن ، فإن وحدوا فيه نصا أو دلالة ، وإلا عرضوها على سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيها شيء أملوا فكرتهم مسترشدين بروح الشريعة ، ثم قضوا بما يقضى به الرأي السليم .

وهذه الطريقة هي التي وردت في حديث معاذ بن جبل ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لما بعثته إلى اليمن : وكيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد

رأى ولا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » ١

ومثل ذلك ما روى عن سعيد بن المسيب عن علي قال : « قلت يا رسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تعض فيه منك سنة ؟ قال : اجتمعوا له العالمين ، أو قال : العابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

تلك كانت طريقة الصحابة بالإجماع ، ولكن كان هناك عوامل أثرت بعض الآثار في الفقه .  
( ١ ) منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينهى عن الإكثار من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً للخطأ أو التحريف أو الكذب .

وروى قرظة بن كعب قال : « خرجنا نريد العراق ، فشى معنا عمر بن الخطاب فتوضأ ففضل الثنتين ثم قال : أتدرون لم مضيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضيت معنا ! فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم كدوى بالقرآن كدوى السحل ، فلا تصدوم بالأحاديث فتشغلهم ، جودوا القرآن ، وأفلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأما شريككم ! فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا ، قال بها ما عمر بن الخطاب : »

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : « كنت جالسا في مجلس من مجالس الأنصار ، جاء أبو موسى فرما ، فقالوا : ما أفزعك ؟ قال أمرى عمر بن الخطاب أن آتية فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي ، فرجعت ، ثم قال لي عمر : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إني أتيت فسلمت على بابك ثلاثا فلم تردوا علي ، فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استأذنت أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ، قال عمر : لتأتيني على هذا الحديث بالبينة ! فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه فشهد له ، فقال عمر لأبي موسى : إني لم أنهمك ولكنه الحديث عن رسول الله » ١

وهذا من حذق عمر وفطنته ، فانه مع علمه بصدق أبي موسى وزايعته ، أراد أن يأتي بالبينة ليطمئن قلبه ، فلما أتى بها أفهمه أن ذلك لم يكن عن شك فيه أو تهمة ، وإعما هو الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حقه أن يفتي عنه أيسر الشبهات ١ !

وكان من نتائج ذلك أن هاب الناس عمر ، فلم يكثروا من رواية الحديث ، وقد كان على مذهب عمر في ذلك جماعة من كبار الصحابة ، منهم عبد الله بن مسعود ، ومنهم علي بن أبي طالب .

فأما عبد الله بن مسعود فقد كان يقل الرواية من الحديث ، ويتورع في الالفاظ ، ويقول في ذلك أبو هريرة الشيباني : « كنت أجلس الى ابن مسعود حولاً لا يقول قال رسول الله ، فإذا قالها استقلتته الرعدة ، وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا ... الخ »

وأما على رضى الله عنه فقد روى عنه أنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فمضى الله بما شاء أن يفتنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استعملته ، فإن حلف صدقته » .

ولا شك أن هذا التشديد ، وهذا الاحتياط فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أثر فى الفقه لهذا العهد ، بل امتد أثرهما لما بعده من عهود ، فإنه لما كثر الحديث فيما بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح الخذاق يرجعون إلى الأحاديث التى كانت تروى لعهد عمر ، فإنها أوثق . روى ابن علية عن رجاء بن أبى سلمة قال : « طعننى أن معاوية كان يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) ومنها أن عمر رضى الله عنه وأبا بكر من قبله ، كانا يتحريان أن يصلأ إلى ما يشبه الإجماع ، فكانا يستشيران المسلمين فيما يعرض من المسائل ، ويفسحان لهم مجال النقاش والتفاهم ثم يقضيان بما يظهر .

أخرج النجاشى عن ميمون بن مهران قال : « كان أبو بكر إذا ورد عليه المصوم نظر فى كتاب الله . . إلى أن قال : فإن أعياء أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شئ ، قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فإن أعياء أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ؟ فإن وجد أباً بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دما رؤوس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به » .

وروى الضبى عن أشعث عن عامر قال : « إذا اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى فيه عمر ، فإنه لم يكن يقضى فى أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور » .

وكان من آثار ذلك فلة الخلاف بين الصحابة ، ووضع أساس فكرة الشورى ، وتقررها بين المسلمين .

(٣) ومنها أن الصحابة رصوان الله عليهم ما كانوا يكلفون أنفسهم مشقة البحث فى القروض ووضع الأحكام لما عسى أن يحدث - فيما بعد - من الأحداث ، بل كانوا يكرهون ذلك ، ويمرضون عنه .

روى عن زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فإن قيل له وقعت أفتى فيها ، وإن قيل لم تقع قال : دعوها حتى تكون !

وكان من آثار ذلك أن قلت كية الأحكام المستنبطة تبعاً لقله الحوادث الفعلية .

هذه خلاصة الحال الفقه في مركزه الرئيسى وهو المدينة لمهد عمر ، وهو العهد الذى فتحت فيه مصر ، فنترك هذا الآن ولننظر فى حالة مصر نفسها فى ذلك الوقت ، وكيف دخل إليها الفقه الإسلامى .

### ٣ - كيف كانت مصر قبيل الفتح :

كانت مصر قبيل الفتح الإسلامى تعيش تحت ظلال الحكم الرومانى كما يعيش الأسير الممذّب ، والذليل المستعبد ، وكأنما كانت القاعدة فى حكمها هى الظلم المطلق الذى لا يعرف حدا يقف عنده ، ولا مدى ينتهى إليه .

وكانت مصر تنظر الى ذلك كله وتعانى منه ما تعانى ، من غير أن تستطيع لهذا العناء دفعا ، ولا من هذا الظلم مهربا ، لأنها كانت لا تملك أمر نفسها . ولأن هؤلاء الولاة كانت تفرضهم عليها دولة سرت فيها عوائل الفساد ، ودب إليها ديب الشيخوخة ، وأذنت حياتها بالانقضاء والزوال ، فن أين هؤلاء الولاة أن يشعروا برقابة فعالة قوية تخفف من غلواتهم ، وتخفف من كبرياتهم !!

ورأت مصر المسكينة أن تصير على هذه الحفنة من ناريجها ، وأن تستسلم لبلواها ، وتخضع للمستبدين على كره منها ، وكأنها ترقب حادثا تاريخيا يقع فيغير منهاج حياتها ، وينقلها من مفرسها ، ويفتح لها صفحة جديدة من صفحات المجد ، ويكتب لها فصلا خالدا من فصول التاريخ . وكان الله قد أذن بذلك ، ومن سفته أن يأتى النور بعد الظلمة ، والفرج بعد الشدة ، والبعث بعد الموت والفناء .

جاء إليها الملاحون ينسلون من الصحراء ، تسبقهم هيبتهم الحربية ، وتدعو لهم شهرتهم بالعدل ومجاعة الظلم فيما يفتحون من بلاد .

فتلقتهم مصر كما تلتقى الأرض المجدية غيث السماء ، تلقاهم الشعب بالبشر والارتياح ، وإن تلقاهم الحكومة بالحرب والكفاح : الشعب يريد أن يخلص من أسره وينتقم من ظالميه ، والحكام يريدون أن يحافظوا على أنفسهم ، ومناصبهم ، ومتاعهم .

ودخل المسلمون مصر ، لأن الله أراد ذلك ، ولأن الشعب أراد ذلك ، ولأن الحكام نسوتهم وسوء سياستهم قد مهدوا لذلك !

وابتدأت مصر تكتب صفحاتها الجديدة الخالدة !

محمد محمد المدنى

المدرس فى كلية الشريعة



## المحاماة قديما وحديثا عند الامم

أسلفنا في عدد سابق من هذه المجلة شطرا من الكلام عن أوضاع المحاماة في جهود مختلفة كمهد الكلدانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين ، وكيف أن فن المحاماة بلغ من النضوج المثلى والخطابي والأخلاق مستوى تنقاصر عنه الهمم في كثير من نواحيه في عهدها الأخير ، وكيف أن الحذر من تطرق الوهن إلى مهنة المحاماة بلغ عند الجمهورية الرومانية مستوى يثير الإعجاب ويستحث الألباب ، حتى إنهم حظروا على المحامي أن يشخذ في مجلس القضاء نوما من التأثير عليه إرادة تمويله عن اتجاهه أو الهيمنة على شعوره ، ليجرى القضاء على سنن واضح من العدالة ، ويتخذ إلى بحث الطمأنينة في قلوب المتقاضين طريقا مستساغا .

ولذلك صدر قانون قضى على الخطاء بأن لا يشخذوا المقدمات كوسيلة لتغطية الحقائق والتأثير على القضاء في دعاهم ، وأن يمتنعوا عن كل قول من شأنه استجلاب الرفق بموكليهم أو إثارة الغضب ضد خصومهم ؛ كما قضى على القضاة بأن لا ينظروا ولا يقيموا وزنا لما قد يبذله من وسائل استعطافهم ، حتى لقد بلغ من حرصهم على نقاء ذلك الطابع سليما من عبث الماثنين ، وقوف مناديين على المتقاضين والمحامين في أول افتتاح كل جلسة ليدكروهم بنصوص القانون ، حتى لا يستخدم أحدهم تلك الوسيلة لينال الفوز في خصومة باطلا .

وكان من أثر هذا القانون فتور عزائم الخطباء من المحامين ، ونحى بعضهم نحو الإطالة والإسهاب ، فصدر قانون يحدد زمان المرافعة لكل حطيب ، وحلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، وانخفضت في قاعة الجلسة ساعات مائة لملاحظة ذلك .

وكان من المتعارف أن لا يخرج المحامون عن جادة الكمال والنواضع ، ولا يسموا عد القضاة ليمهدوا طريق النجاح ، وأن لا يخطبوا في المسألة الواحدة مرتين ، وأن يمتنعوا عن الشتم ومر الكلام ، وأن لا يضربوا بأرجلهم الأرض في خطابهم ، وأن لا يشوشوا على القضاة وهم يتداولون ، وأن ينسحبوا من الجلسة بالهدوء والسكينة ، وأن لا يجمعوا الناس حولهم . ومن خالف منهم تلك الوصايا كان عقابه التفريم .

وكانوا غير مأجورين على عملهم ، وإنما كانوا يكافأون بارتقاء الوظائف في الحكومة ، لأن ذلك العهد كان قليل الخصومات ، ولأن انتخاب المحامين كان من بين الأسر الثرية ، لأن تقاليد الدولة كانت تعتبر المحامي عونا للقاضي في أداء مهمته . ولو فهمت الحقائق على أوضاعها في عصرنا الذي نميش فيه لكان للمحاماة مع القضاء نوع من الازدواج على الأقل . وهنا يحكي العلامة « فتحى باشا زغلول » أن أول من أخذ أحرار من موكله هو « ألبيفون » ، وتبعه الباقون .

غير أن مبدأهم لم يتغير وهو بيل الشرف ، وخدمة العدالة ، ومساعدة صاحب الحق على أخذه . ولما جذب حب المال بعض أولئك الخطباء ، وصار الكسب صلتهم ، عابهم قراؤهم ، ولا مهم الناس لوما شديدا . ولم يغيب عن الرومانيين منذ هدم الأول أن العدالة كيان الدولة ، وأن القضاء هم أركان العمران في الأمم ، ولذلك اختار « دومولوس » وهو أول ملوك الرومان عددا من الأشراف وشكل منهم مجلس الأعيان ، وجعل الباقيين من أمثالهم في العلم قواما على مصالح الطبقة الثانية في الأمة . فانقسم الناس الى فريقين : فريق المتبوعين ومنهم أعضاء المجلس ، وفريق التامنين . وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والعبد سيده ، وحددت واجبات كل فريق بالنسبة الى الفريق الثاني ، فلم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ما عليه الآن من نسبة المحامي الى موكله ، بل كانت أوسع محالا وأكثر مهاما . فكان يجب على المتبوع أن يمين تابعه في جميع أموره ، ويستخدم في مساعدته ما أتبع له من العزة والجاه ، وما لديه من العلم والمال ، وهو الذي يشد أزره في معاملاته عند الحاجة ، ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء . وسوف نحاول في فرصة أخرى أن نعرض للأدوار التي قطعها فن المحاماة في عصوره المختلفة . فالى الأعداد القادمة ؟

عبدلرس ط

القول السديد ، في تفسير آيات النسخ والطلاق والربا من القرآن المجيد .

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسين الطواهي حولات في تفسير الآيات الشريفة التي يكثر البحث في موضوعها ، وهو إذا طلع مسألة وأما حقها بحثا واستقراء ، ولم يدع مما يتصل بها قولاً إلا أتى به ومحصه واعتصر مصادمه .

فأما مسألة النسخ فقد أفصح لها من كتابه سبعا وأربعين صفحة جاء فيها بكل ما يحسن الإلمام به عنها ، وليس يخفى أن للمعتزلة والخوارج والملاحدة نظرا فيه يخالفون به أهل السنة ، فأتى بكل ذلك وحتى ما كان منه بعيد المال مما يدل على سعة الاطلاع وحب الاستيعاب .

ثم أفاض في مسائل الطلاق والربا على هذا النحو من الاستقراء والتفصيل ، لجاء كتابه جامعا لكل ما يود محبو التوسع في هذه المسائل أن يجدوه بين دفتي كتاب خاص .

فنشكر لفضيلة الأستاذ الموفر خدمته العلمية . لا زال موقفا في احتياره ، مسددا في تقريراته .

تأخير بعض المقالات

تأخرت لدينا مواد ، وخاصة ( معرض الآراء العالمية ) بسبب ضيق المقام .



Arabic? Are the names of Assamh, Abu Othman, Alberuni, Albeithar, Abu Ali Ibn Sina (Avicenna) the great physician and philosopher, Ibn Rushd (Averroes) of Cordova, the chief commentator of Aristotle Ibn Bajja (Anempaze) besides a host of others but dead letters? Is the great work that they have done and the fame they have left behind them in their books to be consigned to the limbo of oblivion, by an ungrateful but antipathetic Europe?

"It cannot be that already we have lost sight of the amazing intellectual activity of the Muslim world during the earlier part of the 'Abbaside' period more especially. It cannot be that we have quite forgotten the irrecoverable loss that was inflicted on Arabian literature, and on the world at large by the wanton destruction of thousands of books that was promoted by Christian bigotry and fanaticism? It cannot be surely said of Christian Europe that for centuries now she has done her best to hide her obligations to the Arabs, yet most assuredly, obligations such as these, are far too sacred to lie much longer hidden." (1)

For further enlightenment as to the far reaching beneficial effects of Islam I quote Bosworth Smith, M. A., Asst. master in Harrow School and late fellow of Trinity College, Oxford

"Nor does Islam lack other claims on our attention. Its ultimate acceptance by the Arabs, the new direction given to it by the later revelations to Mohammed, its rapid conquests, the literature and civilisation it brought in its train, the way in which it crumpled up the Roman Empire on one side and the Persian on the other, how it drove Christianity before it on the West and North and fire worship on the East and South, how it crushed the false prophets that always follow in the wake of a true one, as the jackals do the trail of a lion, how it spread over two continents, and how it settled in a third and at one time all but overwhelmed the whole. . . all this is matter of history, at which I can only glance.

"And what is the position now?

"It numbers at this day more than one hundred millions, probably one hundred and fifty millions (2) of believers as sincere, as devout, as true to their creed, as are the believers in any creed whatever. It still has its grip on three continents, extending from Morocco to the Malay Peninsula, from Zenzibar to the Kirghis horde....

---

(1) "Islam: Her Moral and Spiritual Value" by Major Arthur Glyn Leonard.

(2) The number is assumed at present (1940) to be about four hundred millions (Author)

The Prophet said "No man's faith shall be perfect unless he wish for his brother whatsoever he wishes for himself".

That Islam was admittedly the torch-bearer of light and learning in the West when Europe was enshrouded in ignorance and darkness, and that the followers of the Holy Prophet were undoubtedly among the very few factors creating the conditions leading to present culture and advancement, are in themselves cogent reasons to justify an appeal to the Westerner's sense of duty and justice in judging Islam and the Muslims.

An honest student of the tenets of Islam and the labours of Muslims for the regeneration and edification of mankind, especially of Europe, cannot fail to find much for which Islam should be thanked.

I quote Major Arthur Glyn Leonard in this connection.

"Never to this day has Europe acknowledged in an honest and wholehearted manner the great and everlasting debt she owes to Islamic culture and civilisation. Only in a lukewarm and perfunctory way has she recognised that when, during the dark ages, her people were sunk in feudalism and ignorance, Muslim civilisation under the Arabs reached a high standard of social and scientific splendour that kept the flickering embers of European society from utter decadence.

"Do not we, who now consider ourselves on the topmost pinnacle ever reached by culture and civilisation, recognise that, had it not been for the high culture, the civilisation and intellectual, as well as the social splendours of the Arabs and soundness of their school system, Europe would to this day have remained sunk in the darkness of ignorance? Have we forgotten that the Muslim maxim was that 'the real learning of a man is of more public importance than any particular religious opinions he may entertain', that Muslim liberality was in striking contrast with the then intolerant state of Europe? Does the magnificent valour of the Arabs, inspired as it was by a theme as lofty as it was pure, not appeal to us? Does not the moderation and comparative toleration shown by them to the conquered, notwithstanding the fierce and burning ardour to regenerate mankind that impelled them onward to conquest, also appeal to us? Does it not all the more appeal to us when we contrast this with the bitterness of the attitude of the Christian sects towards one another? Especially when we consider that in Christendom, as it was then constituted extortion, tyranny and imperial centralisation, combining with ecclesiastical despotism and persecution, had practically extinguished patriotism, by substituting in its place schismatic and degenerate Church?"

Further the same writer continues to say :—

"Is it possible that Europe is unmindful of, and has the ingratitude to ignore, the splendid services of the scientists and philosophers of

Furthermore, it behoves those ministers and missionaries of the Christian faith whose zeal leads them to labour in the propagation of their own doctrines and in attempts to refute the tenets and precepts of other religions, to be well acquainted with those things which they undertake to impugn.

The learned Roland<sup>(1)</sup> has shown that "Christian writers of no small eminence in point of learning and reputation have egregiously misrepresented the doctrines of Muslim faith, and bestowed much useless labour, in confuting opinions which the followers of the Arabian Prophet never maintained, thus exposing themselves to the charge of ignorance and the contempt of their adversaries, and injuring the cause they had undertaken to defend, by making it appear to stand in need of false allegations for its support".

Indeed, it is misrepresentation and misinformation, from which Muslims chiefly suffer. They have had imputed to them that which has no existence whatever in their teachings and policy, baseless charges have been advanced against Islam, nay, the very beauties which Muslims account amongst their exclusive possessions have been denied them, and the very evils which Islam came to eradicate and did succeed in so doing, are ascribed to it. It is certainly a great pity that, with all this outpouring of learning and literature, very little real effort has been made to clear away the clouds of misrepresentation and defective knowledge which still envelop the religion of the Arabian Prophet in Europe and America.

It is a happy sign, however, to find plans for a universal religion being discussed in certain advanced circles in both continents, and a desire to create a better understanding among the adherents of the various denominations of the world.

To achieve this desirable end, it is inconsistent with the advanced culture of enlightened European or American inquirers that information on Islam—a religion which at present is a powerful factor in humanising millions hitherto living in ignorance and barbarity—should come through any adulterated channels and from the writings and works of propagandists hostile to Islam.

Undoubtedly a true knowledge of the life of the Prophet and of his principal teachings is full of interest to those who desire to increase their general stock of information. Indeed the doctrines of Islam tend in general to promote the welfare and prosperity of mankind, inasmuch as they cultivate charity and good will to all people<sup>(2)</sup>.

---

<sup>(1)</sup> De Relig. Mohammedica, L. II.

<sup>(2)</sup> Bosworth Smith, "Mohamed and Mohamedanism"

## INTRODUCTION

---

The diffusion of knowledge over the world and the spread of civilisation have very largely lessened the difference between one nation and another and have almost subdued the flames of animosity kindled in men's bosoms by blind fanaticism evoked by religion or creed.

History relates many awful wars waged in the name of religion

Today, however, men are largely imbued with the spirit of toleration and love of truth and liberty. The more enlightened do respect the doctrines and principles of their fellow-men, however widely they differ from their own. The followers of different religions make earnest endeavours to spread their own faith and to plant their standards even farther afield. It is left to reason to examine and judge the respective merits of each. Christian missionaries in the Orient may be heard loudly preaching Christianity to followers of Moses and Mohammad without the least apprehension of any unlawful opposition on the part of their hearers.

From time to time, we read of some distinguished person who has abandoned the religion of his forefathers to adopt a different persuasion which, in the light of reason he has found more acceptable. Further the spirit of intelligent curiosity has been so fully developed in human beings by education, that books are eagerly read which deal with the dogmas and tenets of different nations. The widest possible knowledge of these is sought and at times an attachment to new beliefs is not hidden, nor a readiness to adopt them.

On the other hand, the more highly a nation is civilised, the more it is inclined to make known its customs, habits and national or religious character.

Although some vague knowledge of the laws and tenets of Islam may be obtained from treatises and books which have been composed by certain Westerners, yet he who desires thoroughly to comprehend their spirit must trace them to the fountain-head. In the ordinary intercourse of life, he who is desirous of gaining the esteem and affection of those with whom he converses, will be careful not to offend against their religious precepts and notions of right and wrong, with which precepts and notions he can become acquainted by consulting their own records.

*In compiling this book I have set before me a high ideal: to be a true historian and a conscientious writer, to abstain, not only from eulogy and partizanship, but also from scoffing and misplaced criticism. My sole endeavour is to give the reader a true account of the life of the Prophet Mohammad and a fair exposition of the religion of Islam.*

*As the history of the Arabs has a very close connection with the life of the Arabian Prophet and the rise and development of Islam, the author has dedicated Part I of the Book to a summary of that history and to the exposition of the social, moral, political and religious conditions of the Arabs prior to the advent of Islam.*

*With regard to the present work, the author who is an Egyptian Muslim, lays no claim to the art of elegant composition in English. But further he is of opinion that if this ability were within his reach, it would have been misplaced in a work of this nature, the principal merit of which is simple fidelity.*

*I desire above all things, that in a humble way, this book may be the ambassador of good will and understanding between Muslims and those of other faiths.*

AHMED A. QALWASH

Cairo, April 1940.

# THE RELIGION OF ISLAM

## P R E F A C E

*The purpose of this book is to give to English readers a concise and fair history of the Prophet Mohammad and to present an accurate account of the religion of Islam wrongly called (Mohammedanism), which he taught — a religion which has become the faith of hundreds of millions of people throughout the world. I have been moved to undertake this work because I frequently met Englishmen brought to Egypt in connection with the Great War (1914-1919) who evinced a real desire to acquire a certain knowledge of the principles of Islam — the dominant religion of the country.*

*I tried to satisfy their curiosity just as much as my limited intercourse with them permitted. Finally it was suggested to me that I should write a treatise on the subject for the use of English speaking inquirers to familiarise them in a general way with the doctrines of the religion practised by several millions of British subjects. I considered it a duty to comply with the suggestion — first in regard to the religion of Islam, as I have as yet hardly found a single treatise which properly explains the essence of that creed and is at the same time free from defects or misrepresentations, and secondly, in regard to the members of the Anglo-Saxon race, through whose language I was able to pursue my studies successfully.*

*Apparently English writers, or rather writers of the Christian persuasion who dealt with Islam, seem either to have obtained their knowledge of that religion haphazardly from untrustworthy sources, or to have allowed their judgment to have been biased by their own Christian outlook; and this partiality has, consciously or otherwise, changed them from honest historians to critics — and at times malignant critics.*





# THE RELIGION OF ISLAM

A STANDARD BOOK

BY

AHMAD A. GALWASH, PH. D., LITT. D.

Published

by

AL-AZHAR MAGAZINE

Printed at

EL-RAGHAIEB

CAIRO

## حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

بذبح خطبة تبين ما يأمر به الاسلام أهله من الصفات حيال الخطوب

لم تر أمة ما رأى المسلمون من ضروب الانقلابات وتطوراتها ، وقد دل تاريخهم على أنهم صمدوا لكل هذه الأحداث بقلوب كالرواسي ثباتاً ، وعقول كالمرايا المجاورة صفاء ، لم تزعزعهم أخبار السوء ، ولم تضعف ثقتهم بالله إرجافات الأعداء ، كل ذلك قياماً بما أوجبه عليهم دينهم من الآداب السامية ، والحالة النفسية القوية . وهل في العالم الاسلامي من يستطيع أن يجلي هذه المثل الأدبية العليا مثل ما يستطيعه فضيلة الأستاذ الامام في رصانة تميره ، وسمو أسلوبه ؟ فتفضل حفظه الله مساء أول يونه بإذاعة كلمة جليلة الشأن فيما يجب أن يكون عليه المسلم إيان الشدائد من الرجولة الصحيحة . ونحن نقول هذه الكلمة هنا لتكون الى جانب مثيلاتها من كلمات فضيلته القيمة : قال أيده الله :

أيها السادة :

في بقاع من الأرض ، قبض أهلها على ماضية العلم والفلسفة ، وبلغوا في المدنية شأواً رفيعاً لم يبلغه أحد من قبل ، تدور أرحاء حديثه لا تطعن الحب ، ولكنها تطعن جاحم البشر وعظامهم . وفي تلك القاع ضرور عوج بعضها في بعض ، تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وفيها يتجلى معنى قول الله سبحانه : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم ريشاً ويؤذيكم ببعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

ولا نملك أيها السادة أمام هذه الأحداث إلا أن نلجأ الى الله القوى العزيز « وهو القاهر فوق عباده وهو العليف الخبير » ، ونموذ بجماله من شر البني والمدوان ، والظلم والظفیان ، ونسأله أن ينزل على الأرض رحمته ، ويرفع مقتته وغضبه ، ليحم السلام ، وتكشف الكروب ، ونسأله السلامة لنا ولأوطاننا ولبلائد المسلمين .

أيها السادة :

في كل أمة من الأمم ضعفاء جبناء ، تدور أهيئهم من الخوف كالقذى يفتش عليه من الموت ، أشعة بأنفسهم ، بخلاء بأموالهم ، وفي كل أمة مرجفون يذيمون بأخبار السوء يختلقونها أو يرددونها حمداً للتخذيل وإصعاف الهم وإيقاع الرعب والتزعزع في النفوس ، أو جهلاً بما لا محالهم من ضرر بالغ وأثر ذميم . أولئك هم الأعداء حقاً ، يحاولون أن يتوطن النزوع والرعب في القلوب وبين الجوانح ، والتزعزع عدو فائق ، بل هو أشد فتكاً من العدو المهاجم .

احذروا هؤلاء الأعداء ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

وللقرآن الكريم في مثل هذا أدب أدب به المسلمين وحشهم على الأخذ به ، قال الله تعالى :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » . فهذه الآية تقرر أصلاً عظيماً له خطره  
في الحياة وهو وجوب التثبت من الأخبار وتمحيصها قبل قبولها ، وعدم العمل بها قبل  
الاطمئنان إليها ، وعدم إذاعتها قبل التأكد من صدقها . وذويج الأخبار الكاذبة لا يقتصر  
أسره على الفاسق الخسب ، بل يكون من الرجل العدل الذي لا يعرف طريق صناع الخبر وطريق  
نقله فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء . ولمهرة الكاذبين حيل نحى على أشد الناس تبئنا ،  
وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون .

إن الذين يذيعون أخبار السوء ينالون بها أكثر مما ينال بالسيف ، والقذائف ، فهي تهدم  
النفوس ، وتقل العزمات ، وتوقع الرعب والهلج ، وتفرق الصفوف المتصامة ، وتذهب السعدة ،  
وتلين شدة المقاومة ، وتخلق الخور والوهن ، لذلك يجب على الناس ألا يصدقوا كل خبر يقال ،  
وأن يقاوموا ما استطاعوا إذاعة أخبار السوء ، وأن يتحلوا بشيعة الصبر وضبط النفس .  
ويجب على المسلمين أن يتعلموا طرق الكشف عن الأخبار ، وأن يروضوا أنفسهم على تمييز  
صادقها من كاذبها ، وعليهم بعد ذلك أن يرجعوا إلى الله وحده ، وأن ينصروه باتباع دينه  
« وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مِنْ نَصْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ مَزِيدٌ » .

هذه آداب يجب على كل مسلم أن يستمسك بها ، وأن يحافظ عليها كما يحافظ على العبادات .  
أيها السادة :

في هذه الآونة التي يتخبط فيها العالم في الشرور ، لا يوجد حصن أقوى من الإيمان  
والعمل الصالح ، ولا عمل يقرب العبد من ربه أحسن من البر والصدقة .

والإيمان تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتشهر ثمراته على الجوارح بالطاعة وأداء  
ما فرضه الله من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والنصحبة بالنفس والمال في سبيل الله  
التي ارتضاء لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع النقي ، ومهارة الأرض ،  
وتطهيرها من الفساد .

اسمعوا قول الله سبحانه : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن  
البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى  
واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون  
بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا  
وأولئك هم المتقون » .

أيها السادة :

قد فسرت هذه الآية الكريمة من قبل وأذعت تفسيرها ، وقد يحسن اليوم أن أديع عليكم مرة أخرى مقتطفات مما قلته :

« الانسان كائن يختلف عن غيره أشد الاختلاف ، فهو كثير الحاجات ، متنوع الرغبات ، بعيد الأمل ، كثير الطمع ، يحتاج لغيره فيما يقوم البدن ويسترد ويرفقه عيشه ، وفيما يصلح به نفسه من علم وتهذيب ، لا تقف رغباته عند حد ، ولا يستقر على حال ، ويحتاج الى غيره في حماية نفسه من الماديات . ومن الخطأ أن يعتبر الفرد وحدة منفصلة عن الجماعة ، بل يجب أن يعتبر جزءا من وحدة ومنمها لها ، وبهذا الاعتبار كان مطالبا بأن يقدم للوحدة نفسه وماله وكل ما وهبه الله إياه من علم وعقل وتهذيب ، غير أن الانسان أناني أيضا يحب نفسه ويحب ماله ، يرى في المال حفظ النفس والتمتع بالملذات ، فيحرص عليه ويستدحره ، فأرشد الله العباد الى ما يجب أن يكونوا عليه من التعاون ، وحثهم على إتقان المال ، كما حثهم على تقديم النفس عند الحاجة . ولا يكون الإنفاق برا إلا حيث يكون في موضع النذل ، وحيث يكون المال المذلول محبوبا ، وحيث يكون النذل نفسه محبوبا ؛ وهذا هو قول الله حل شأنه : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الزقاب » .

بين الله من يبذل اليهم المال ، وأنهم أهل القراية واليتامى والمساكين ، من سأل منهم ومن لم يسأل ، والغرباء المحتاجون المقطعون عن بلادهم وأمورهم ، وكما حمل الله الإنفاق والنذل برأ جعل الصبر من أنواع البر في حالات الفقر والمرض والقتال . وقد ذكر الله الصبر في كتابه الكريم أكثر من سبعين مرة ، وأضاف اليه أكثر الخيرات ، وأعد لأصحابه أرفع الدرجات : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . « ولنجزين الذين صبروا بأحسن ما كانوا يعملون » .

وقال صر رضى الله عنه : « عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر : الصبر في المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر مما حرم الله » .

وليس الصبر الاستسلام والخنوع أمام الحوادث ، والانتظار لما يسوقه القدر ، وإنما الصبر الثبات في مقاومة الصواب ، وبذل الجهود لتخلص منها في غير جزع ولا هلع ولا يأس ، ولذلك يقرن الله الصبر بالعمل فيقول : « ولنجزين الذين صبروا بأحسن ما كانوا يعملون » . فالصبر جهاد وعمل ، لا استسلام وكسل ، فإن الكسل والاستسلام عجز ومذلة وصغار .

أيها السادة :

يجب على الأمة لكي تكون عزيزة الجانب قوية الشأن محبة لله ، أن تتمسك بدينها ، وأن تنهج الى الله في أمرها كله ، وأن تستعين به وحده ، وأن تعرف أصول الحياة الطيبة والسنة

التي ربط الله بها عز الأمم وسعادتها ، فتعمل فيها باجتهاد ، وتحرم عليها الحرس كله ، ثم تنحلي في ذلك بأحلاق الصبر والتعاون والتناصر ، والبذل في سبيل الله ، ومعاونة الصنفاء والمحتاجين . ولا يوجد نظام في البر والصدقات أوفى من نظام البر والصدقات في كتاب الله وسنة رسوله المطهرة .

اسمعوا قول الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتبئنا من أنفسهم كمثل حبة من برودة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطلى ، والله بما تعملون بصير » . « يا أيها الذين آمنوا أسعوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » . « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كفقرا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » . « وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . « ومنهم من عاهد الله لئلا آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلو به وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نقابا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

واسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم » ، حملهم على أن ينفكوا دماءهم ويستعملوا بحارهم .

هذه هي منزلة العدل والإتفاق في الإسلام ، وهذا هو نظامه . ولا شك أنه نظام يقوى روابط الأفراد بعضهم ببعض ، ويصلح شأن الجماعات ويحقق سعادتها ، وينقي ضغينة الفقراء على الأغنياء ، ويزيل آلام أهل الرمانة والمعجز ، ويوجد التراحم ، وينمي طائفة الخنو ، ويوثق صلة الإخاء .

وهذا وقت يجب أن يتحلى فيه روح التعاون ، وأن تظهر فيه آثار البر ، وأن ترجع إلى روح الإسلام وقواعده وأحكامه ، فما ضعفنا إلا بالبعد عن الهدى الإلهي ، وما تحبط العالم فيما هو فيه من ضرور إلا بالبعد عن التدين والانهماك في المادة التي يتلظى بنارها المناجبة ، وأنصار المدنية هم الذين يحبطون لهذه النار ، وإذا لم يمدودوا إلى روحية التدين وشربوا إلى الرشد وإلى طلب الحق عند الله جل شأنه فسوف تأكلهم النار وتذروهم الرياح .

إلهي أنت العليم الخبير ، وأنت وحدك المستعان ، أظننا بظلك الذي لا يشق من استظل به ، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

بدء الصراع بين الحق والباطل - وقمة بدر وما سبقها من اللواشات

—

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتحاشوا الأولون فيتركوا لخصومهم الوقت الكافي للاستعداد لمحقتهم في دار هجرتهم ، ثم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يقبلوا طرفة عين عن العمل لاضفاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعلا بهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المسدد الذي يتمكنون به من الثبات في مكائهم ، وليضطروهم إلى التميعيل بمنازلهم حتى لا ينخدوا من مطاوتهم عواطم على حل جماعتهم

فكان أول ما ارتأه النبي صلى الله عليه وسلم من وسائل مناهضة الجاهليين ، إيصاد طريق التجارة الخارجية في وجوههم من ناحية الشمال . وكان من حادثهم أن يقبضوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول إلى الشام إلا من طريق يثرب ، نذب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلا ليستولوا على تجارة لقريش وهي آيبة من سورية ، وكان يجرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبي جهل من كبار أعداء الدعوة الإسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية الميصر ، وهي قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتالهم ، وتضاف القريشان فحجز بينهم أحد رجال تلك الناحية : مجدي بن عمرو الجهمي ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبي صلى الله عليه وسلم مجديا على ما حمل ، لقله عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبي أن تجارة لقريش في طريقها إلى الشام ، فندب عبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلا لاعتراض تلك التجارة . فصادفها بطريق رائج ، وهو واد قريب من البحر بين مكة والمدينة ، فترامى القريشان بالنبل ، ثم انهزم القرشيون خشية أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كمن لهم هناك .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في السنة الثانية من الهجرة قاصداً أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . واتهم بنو ضمرة هذه الفرصة فاتفقوا مع رسول الله على التعاون في الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم ياقون على شركهم .

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم عاتق مقاتل عند ما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بواط ، وهي جبال جهة ينبع ، وجد القافلة قد صرت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلاً ، وقد بلغه أن تجارة لقريش في طريقها إلى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلاً تحت قيادة أبي سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد صرت سالمة ، فعاد إلى المدينة يتربص رجوعها . وقد بلغه أن في هذه القافلة معظم أموال قريش .

في هذه الأثناء أثار رجل من أصحاب الغارات اسمه كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة (١) واستاق عدداً منها وهرب ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتأثره (٢) حتى بلغ سفوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرزاً قد أفلت . ونسى هذه غزوة بدر الأولى .

وفي رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فصيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتاباً يختمها وأمره أن لا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد في الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فتصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة في أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من استخدام طريقة الاوامر المخنومة كان منه عملاً لم يسبقه إليه قائد حربى في جزيرة العرب ، حيث الامية كانت ملقبة بجرائها لديهم ، وربما كان عملاً لم يسبق إليه في العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة على مبدأ التجديد الذى جملة الاسلام شعار أهله في جميع محاولاتهم ، سواء أكانت في حركاتهم الحربية أم في محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا في سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم في قرون كثيرة ، كما سنبينه في مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخياً تنفيذ ما أمر به ، وقد تخلف منهم اثنتان لإضلالهما بعيراً كانا يستقبانه . فلما وصل إلى مكان يقال له نخلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، حمل عليها رجاله فقتلوا واحداً وأسروا اثنين ، واستاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم إلى المدينة . فقامهم المسلحون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع في شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أما ما أمرتكم بقتل في الأشهر الحرم .

(١) السرح : المال السام من ابل وغنم ويتر الخ . (٢) يتأثره أى يتبع أثره



وطاهم اليهود ، وسلقتهم قريش بالسنة حداد . فقدموا على ما فعلوا ، فأرسل الله على رسوله في هذه الحادثة قوله تعالى : « يأتونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصدتني عن سبيل الله وكفرت به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » فسرني عنهم .

ومعنى هذه الآية : يأتونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم القتال في الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنباً أكبر من ذنب القتال في الشهر الحرام ، وما فيه الكافرون من الجاهلية الجاهلاء أكبر هؤلاء من القتل الذي ارتكبته السرية التي يرأسها عبد الله بن جحش في الشهر الحرام .

هنا لا نرى بداً من ثقتنا بالنظر إلى انتقال خطير في فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الإسلام عهداً للإصلاح الجليل الذي حمله للإنسانية ، وحى وجوده انخداً به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية في خلال الأطوار المتعاقبة التي لا تبقى من الأوضاع القديمة إلا أطلالاً دارة لا يكون لها وجود إلا في ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير في حياتهم الدنيوية .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذي عابته قريش على قائد السرية النبوية من خرقه حرمة للشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجود والتلاعب مما . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال في شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهي أنهم كانوا يتقاتلون في أي شهر حرام أياماً ويجرمون القتال أياماً على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض للفطر أياماً من رمضان ويصوم بمندوها أياماً من أي شهر آخر ، أداء لما فاتته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين في هذه الناحية بقوله تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » . وهذا الذي كان يسميه الجاهليون بالنسيء هو إبدالهم أياماً عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا في القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة في الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا ، يحلونه حلالاً عاماً ، وحراماً عاماً آخر ، وقد زين لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدي الكافرين .

والفرق بين الذي كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبني على الحيلة التي لا تجوز على الجاهليين ، وتنطوي على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التعاليل في حياة الأمم الأدبية ، يفضي إلى إلهامات لا تخصي لا تبقى معها شريعة ، ولا إيمان معها من العبث أصل .

ولكن الثاني وهو الترخيص في القتال في الشهر الحرام ، فقام على أصول قيمة يبنى عليها انتقال بعيد المدى لمقلية الشعوب ، ويضع حداً للجور على الأوضاع ، ويقص على صفة خسية في النفوس ، وهي التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .  
أما الأصول التي يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم في حياة الجماعات أديا واجتماعيا ، فهي :

( أولاها ) أن كل تحليل أو تحريم في الدين إنما قصد به مصلحة الانسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلال أو تحليل حرام جريا مع الهوى .  
فإذا حدث ما يوجب إعادة النظر في حكم ما هو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، ففي الدين الحق نفسه ما يفنى من هذا التحايل . والدين في هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالا وحراما لا يجوز تعدى حدودها بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدهما فلا يجوز أن يعمد الى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فإن لم يوجد فيه ما يسوغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

( ثانيا ) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فإن الشيء قد يكون ضروريا أو نافعا أو حسنا في حال ، ونافعا أو ضارا أو قبيحا في حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الإسلام كانوا يمتنعون النظر في الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قاداتهم إليه ، حتى أصبح الدين في نظر الناس مع تقلب ظروف التحايلات عليه رسما لا حياة فيه .

( ثالثها ) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذي تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبناء على الأصول المقررة ذات الأثر الذي يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التي تقوم على الآثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمر في الإسلام يجري على مبادئ عامة ، ويقوم على أصول لم تعلقها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملت لها مصلحة العالم الإنساني كله ، يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملة من الوصايا بوجوب تحريم الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلب المصلحة العامة . وإن ناقضت المصلحة العامة .

( رابعها ) تقديم المنفعة المالية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذي يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدي إنما وضع في الإسلام للمصلحة المالية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أي كان نوعه ، فإن الله غي عن العالمين ، وقد جاء في الكتاب : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » .

فكل وضع ديني أو حمل تقليدي إنما أريد به فائدة العالم نفسه . وقد جرى الاسلام على هذا الأصل في كل ما أمر به ونهى عنه ، فانه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها لمصطري اليها ، فقد قال : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، حتى أنه أباح للفلم أن يتظاهر بالصبوء عن الاسلام تعاديا من هلاك نفسه ، فقال تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

ولكن الامر على عكس هذا لدى الأمم التي سبقت الاسلام ، فكان الامر التقليدي لا بد من القيام به ولو أتى على نفس الانسان فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحاللات والمحللات ما يجعل أن يرتكبه قائل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما في الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فترك جلة .

ولكن الاسلام دين أول ليعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لا بد له من هذه القواعد التي تؤتي أوامره ونواهيه من المرونة ما تسمح له أن يوصى بها في كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم اليها ، في الحدود التي قررها لهم في كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة في الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية الى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا في القرون المتأخرة ، ولكن مع هذا التفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أي حال كانوا حبال التقاليد الدينية خصصوا لسلطان المبادئ الأدبية الخالدة ، مهدين في هذا السبيل الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم في الوقت الذي يعلنون فيه أنهم يعتدّون بالأحوال ، ويقدمون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأهم تقيداً بالمبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشدّدون في ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والاسلام لم يقرر هذه المبادئ ليتحلل أهل من التقاليد المرعية في الناحية الإيجابية بحسب ، ولكن في الناحية السلبية أيضا ، فانه كما انتصر لعبد الله بن جعش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين في الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال المصوم . فقد قتل صحابي في الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وتبرأ من عمله ، وزل في ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابي في دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاور على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شبهته بقوله : إنما أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدال على أممي ما يعرف عن الماطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام

في أوجه صحف الدعوة الدينية . وإذا أضف القارئ الى ذلك ما يلمه عن الوحشيات التي استحدثها متحمسة الدينيين غير المسلمين في مقاتلة خصومهم ، والتشكيل بمن لا يدين بدينهم ، حتى أبادوا في مودة هذه الحماسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل في الاسلام ، وتصور مصدره الإلهي البحت .

وهذا الفهم الجديد لتصرف حيال التقاليد الدينية في أمر هذه المادة البسيطة ، لازم المسلمين في جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويمضوا فيها على ما توجهه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أحملوا فهمهم - بأمر من كتابهم وبسنة من رسولهم - فلم ينكأدم أمر مهما أعزل ، ولا حيرهم مطلب مهما أشكل ، بل واجهوا الأحوال بصدور رحبة ، ووجوه مطلقة ، وعقول صمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الكفر هي السفلى ، ولكن في غير عنف بوصم صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهم يفتح أمام المخاض له أبوابا من التخييلات تورطه فيما كان في غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادئ القويمة إن فهمت على وجهها ، وأخذت على حقيقتها ، وقام بتلقينها رسول جمع من عقائل الصفات الانسانية ، وخصوصيات النفسية البسوية ما جمعه النبي صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فرير ومجدي

## في الظن والفراسة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في كل أمة محدثين ، أو مروءعين ، فإن يكن في هذه الأمة أحد فان مر منهم » .

المحدث : المصيب في رأيه كأنما حدث بالامر . والمروءع : الذي يلقى الامر في روعه أي قلبه أو عقله .

وقال علي رضي الله عنه : ما أضر أحد شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه .

وقيل : اعتبر بما في قلب أخيك بعينه ، فالعين عنوان القلب . وقد نظم شاعر هذا المعنى فقال :

ألا إن عين المرء عنوان قلبه      تخبر عن أسرارده شاء أم أبى

هذا ولا يجوز أن ينسب أحد قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » ، فلا يترسل في التظن ،

متوها أنه من المحدثين أو المروءعين ، فيتهم الناس بما لم يفعلوا اعتداداً بأوهامه .

# التفسير

## سورة الاعراف<sup>(١)</sup>

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الولاية لله وحده :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » :

بعد أن قوتى عزيمته الرسول ، ونصحه بالصبر وقوة الاحتمال ، إعداداً لقيام جمعة الإنذار والذكرى ، بين هنا صيغة الإنذار العام الذى يوجهه الى الناس أجمعين ، فقال : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . وهو تحديد للتشريع الذى يجب اتباعه ولا يجوز المدول عنه ، وهو ما كان صادراً من الله ربكم ، خالقكم ومربيكم ، والعليم بنفوسكم ، فله قد أرسل الرسل لهدايتكم وتهذيب فطركم ، وشرع الأحكام لمصالحكم وإسعادكم فى الدنيا والآخرة .

وأما قوله : « وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » فهو فى الحقيقة نهى عن اتخاذ غير الله ولياً يرجع إليه الناس فى التشريع ، وفى التحليل والتحریم . وإذا كان مصدر التشريع الحق هو الولي الحق ، فلا ينبغي اتباع غيره ولا التوجه إليه . وقد قرر القرآن الكريم فى غير آية أن الولاية لله جميعاً ، ونهى على من يتخذ ولياً من دونه ، سواء أكان باعتقاد أن فيه سلطة غيبية ، أو فيه قداسة تحمل على اتباع آرائه وتشريعه . اقرأ إن شئت : « قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخُذُوا وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ » ، « أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ » ، « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ، « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » .

هذا هو الأصل الذى يوجب على الإنسان أن يلتزم ما أنزل الله ، وأن يبعد بالادب عن تصرفات الأهواء والرؤساء ، والآباء والأجداد ، فن عبد الله بما لم يأذن به الله وإنما استحسنه هو أو استحسنه غيره وقلده فيه ، فقد اتخذ ولياً من دون الله ؛ ومن توجه

(١) بفتح الباء المثناة فوقها ، والنون فى المتن السابق .

في شدائده وكشف هومو ومفكرة ذنوبه الى أحد من خلق الله ، فقد اتخذ وليا من دون الله . ومن هذا وذاك حُرِّفت الأديان ، وبدلت الشرائع ، وانطمت معالم الحق فيها . وكذلك نشأت عبادة غير الله ، وعبد الانسان ما لا يضر ولا ينفع ، ووقع في طريق النقي والضلال . ثم أشار الله بعد ذلك الى أن اتخذ الله وليا ، والبعد عن ولاية غيره ، هو ما تقضى به الدلائل القطرية ، ولكن قليلا ما يتذكر الناس هذه الأدلة وما تقضى به من إخلاص التوحيد لله ، والرجوع بكل شيء في الكون اليه ، وذلك قوله تعالى : « قليلا ما تذكرون » .

ثم قال تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا بِمَا بِآيَاتِنَا أَوْ كَانُوا قَائِلُونَ » :

هذا هو التثغيف الذي قرن به التبليغ السابق . وإهلاك الله للأمم إنما يكون بمخالفتها للسنة التي عقد الله بها الحياة الطيبة ، والشرائع التي أنزلها لتنظيم تلك الحياة . فإذا ما ظهر الظلم في أمة ، وفشا فيها الفس ، والفساد ، وانصرف الناس عن الصالح العام ، واتسكوا حرمات الله ، اغتزل نظامها ، واتخذت قواها ، وفسد أمرها ، وضعت منمتها ، عندئذ يسأدها الله بالإهلاك أثرًا طبيعيًا لطيفيها ، فيأخذها من مأمنها ، ويأتيها من حيث لا تحسب ، بيئاتاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائمون . « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأدناها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنمون » . وليس إهلاك الله للأمم قاصراً على الأخذ بالصيحة ، أو بالريح العاتية ، بل له نوع من الإهلاك أشد في النفوس أثرًا : ذلك هو فقد عزتها ، وذهاب قوميتها ، وذواتها في غيرها ، واستعباد غيرها لها ، فيذلها ، ويلبس منها خيراتها : « وقضينا الى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد . فخاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولاً » .

ثم قال : « فَأَكَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِآسِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ غَالِبِينَ » :

تقرير لطبيعة المذهب الذي أحاطت به خطيئته ، ونزل به ما يستحق من عقوبة . يندم ويشعر ، ويعترف بظلمه ، ويسعى على نفسه باللائمة ، ولكن هيهات أن تنفعه ندامته ، أو تنفي عنه من الله معذرتة ، إنما الملاج الحق هو ما رسمه الله تعالى بقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فعلى الأمم التي وقعت من جراء ذنوبها في استعباد غيرها لها ، وإذلاله إيها ، أن تفسط من عقابها ، وتذكر روح العمل والنشاط والغيرة في نفوس أناسها ، حتى تحيا حياة طيبة ، وتحفظ لنفسها العزة والكرامة .

ثم قال تعالى : « فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون :

بعد أن بين أنه أول الكتاب على الرسول لتبليغه والایذار به ، وأمر الأمم بالاتباع ، وحذرهم المخالفة ، وأذهرهم عاقبتها بالمثلث التي خلت - أكد في هذه الآية أن الأمر ليس قاصرا على مظاهر السكال في الدنيا التي ينتهي أمدها بانتهائها ، وإنما شأن آخر في يوم يفرغ فيه الثقلين ، ويتمحض الملك فيه لقوته القاهرة وسلطانه العظيم ؛ ذلك الشأن هو أنه سيألف الجميع : يسأل الأمم التي أرسل إليها : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ، « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » ، « فوريك لنائنهم أجمعين مما كانوا يعملون » ؛ ويسأل الرسل الذين كفوا الإذار والتبليغ : « ولنسالن المرسلين » ، « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئناك على هؤلاء شهيدا » .

يسأل هؤلاء وهؤلاء ، إظهارا للخزي ، وإقامة للمعجزة ، وهو المحيط بكل شيء علما ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ؛ وإنما هو المدلل الحق ، يتجلى بجميع مظاهره ، وينكشف من جميع جوانبه ؛ الحق الواضح الذي لا تشوبه أبهة جاه زائل ، ولا عظمة سلطان زائف ؛ الحق السافر الذي لا يحجبه غطاء ، ولا يصانع في إخفائه بزخرف أو رواء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها » ، وكفى بنا حاسبين .

الوزن والميزان :

« فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون » ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون :

ثقل الميزان كساية عن عظم القدر والقيمة . وخفته كساية عن الحقارة وعدم الاعتداد . ولا يكون الانسان ذا قدر وقيمة إلا بأثره الصالح ، وعمله المبرور ، وسميه المشكور . فإذا عدم التفاصيل وانغمس في الشهوات ، وباعد بينه وبين فطرته التي خلق عليها ، وضاع منه استعدادها ، كان على العكس خفيف الميزان ، عديم القدر ، ساقط المنزلة . فالوزن تقدير من الله لأعمال عباده . هذا ما تؤمن به ، ولا نسترس في الخيال فنزعم أنه سيضع ميزان له لسان

وَرِكَتَانِ ، وَأَنْ مَا يَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ سَيَجُودُ أَوْ سَيُوضَعُ فِي أَجْسَادٍ ، وَأَنْ الْمِيزَانَ جَفَنَهُ كَذَا ، وَصَفَتَهُ كَذَا ، وَطَوَّلَهُ كَذَا ، وَجَمَلَتْهُ كَذَا ، إِلَى آخِرِ مَا يُقَالُ فِي هَذَا الشَّأْنِ ؛ فَبِهَذَا شَيْءٍ لَمْ يَبِينَهُ الْقُرْآنُ ، وَلَمْ تَرِدْ بِهِ سُنَّةٌ يَصِحُّ الِاعْتِدَادُ عَلَيْهَا . وَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي هَدَى الْإِنْسَانَ إِلَى اخْتِرَاعِ أَدَقِّ أَنْوَاعِ الْمَوَازِينِ ، وَمَكَّنَتْهُ بِهَا مِنْ تَقْدِيرِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْعَوَاطِفِ النَّفْسِيَّةِ ، وَالْاضْطِرَابَاتِ الْعَكْرِيَّةِ ، لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ مِيزَانُ حِسَابِهِ فِي يَوْمِ سُلْطَانِهِ الْمَطْلُوقِ ذَا لِسَانٍ وَرِكَتَيْنِ ، وَلَوْ وَسَمَتْ كِفَتَاهُ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ .

قَالَ تَعَالَى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » :

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ الْإِبْذَارَ الْعَامَ ، وَخَوْفَ مِنْ عَذَابِهِ ، وَذَكَرَ يَوْمَ حِسَابِهِ ، عَقَّبَ ذَلِكَ تَذْكِيرَ النَّاسِ بِنِعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، الْمُسْتَوْجِبَةِ لِشُكْرِهِ وَالتَّزَامِ طَاعَتِهِ : مَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَسَخَّرَ لَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا مِمَّا يَكْمُلُ لَهُمُ الْحَيَاةَ طَلِيَّةً هَنِيئَةً ؛ مَنْحَبَهُمُ الْقُوَى وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِمَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ ، وَمَاءٍ وَهَوَاءٍ ، وَمَعَادِنٍ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ ، وَطَيْرٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، وَأَنْهَارٍ جَارِيَاتٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا نَكَلًا وَنَاطِرًا ، وَتَسَخَّرَ جَوَائِمُهُ مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبِسُونَهَا ، وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاطِرَ فِيهِ ، وَلَتَبْتَخُنُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَتَمْسِكُمْ تَشْكُرُونَ .

هَذِهِ أَمْثَلَةٌ مِنْ أَنْوَاعِ تَحْكِيمِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَهِيَ كُلُّهَا نَعْمٌ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ ؛ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ، « قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » ، « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » . وَلَيْسَ الشُّكْرُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ بِلِسَانِهِمْ : فَشَكَرَ اللَّهُ وَنَحْمَدُهُ ، وَإِنَّمَا الشُّكْرُ الَّذِي يُطَلِبُهُ اللَّهُ وَيَعِدُّ عَلَيْهِ بِالْزِيَادَةِ مِنْ نِعْمَةٍ ، هُوَ : أَنْ يَذْكُرَ فَلَا يَنْسَى ، وَأَنْ يَعْبُدَ فَلَا يَعْصِي ، وَأَنْ يَنْفَقَ الْعَبْدُ جَمِيعَ قَوَائِمِهِ فِي مَرْضَاتِهِ وَخِدْمَتِهِ .

مَكَانُ الْمَبْرَةِ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ :

قَالَ تَعَالَى (١) : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » ، إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْدِثُنَا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ .

هَذَا تَذْكِيرٌ آخَرٌ ، يَذْكُرُنَا بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَصَوُّرِهِ ، وَاسْتِخْلَافِهِ فِي الْأَرْضِ ، وَتَكْرِيمِهِ

(١) ذَكَرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي سَبْعِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : الْبَقَرَةِ ، وَالْأَعْرَافِ ، وَالْحَجَرِ ، وَالْإِسْرَاءِ ، وَالْكَهْفِ ، وَطه ، وَنور . وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَعَانٍ حَلِيقَةٍ لَهَا أَثَرٌ سَمِيٌّ فِي جِهَةِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ . وَفَسَدَ حَارِبُ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْمَعَانِي جَدِيدًا ، وَكَرَّرَ الْقِصَّةَ كُلَّمَا عَرَضَ لَهَا أَوْ لِبَعْضِهَا . فَجَاءَ مِنْ جَانِبِ إِبْلِيسَ : اسْتِكْبَارٌ وَجَهْلٌ وَتَغَرُّبٌ وَحَسَدٌ وَسُوءُ عَاقِبَةِ الْمُتَشَرِّدِينَ ؛ وَفِيهَا مِنْ جَانِبِ آدَمَ : تَسْيِيقٌ وَثَابُتٌ بِالتَّغَرُّبِ وَحَسَنُ عَاقِبَةِ التَّائِبِينَ . وَبِغَيْشِ هَذَا يُوْجِهُ السَّبَبَ فِي تَكَرُّرِهِ مَا كَرَّرَ مِنَ الْقِصَصِ فِي الْقُرْآنِ .



على جميع خلق الله : ولقد خلقناكم بخلق أيبكم آدم ، وصورناكم فأحسننا صوركم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم تنفيذا لأمر الله ، ولكن إبليس الذي كان من تناوله الأمر بالسجود فسق عن أمر ربه ، وأبى عتوا واستكبارا أن يكون مع الساجدين . ومن ذلك الحين ظهرت قوة الشر ، وجبروتة التمرد ، وعامل الإغراء على الفساد . عند ذلك سأله رب المزة ، وهو العظيم بكل شيء ، عن السبب الذي منعه من السجود ، وحمله على المخالفة حينما أمره مولاه ، فأجاب بأنه أفضل من آدم وخير منه ، فاعترض بذلك على أمر الله ، ولم يرق في نظره ، وأخذ يحاج ربه إمعانا في الطغيان ، فقال : إن المادة التي خلقت منها هي النار وهي أشرف من المادة التي خلق منها آدم وهي الماء والطين . يخالف الله ، ويستظهر على أمره ، ويحتج في خطاه . لما حاج ربه هكذا ، وأعلن تكبره واستخفافه ، مع اعترافه بأن الله هو الذي خلقه ، وأفاض عليه نعمة الوجود ، حكم الله بطرده من مكانة التكريم ، وإنزاله في مكان التحقير والازدراء : « قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ مِنْهَا إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ » ، « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاتَكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » . عند ذلك أدرك إبليس أن طرده من رحمة الله كان بسبب امتناعه عن الخضوع لآدم ، فسأل ربه أن يُبصره ، ويعمله ، ويعد في حياته إلى يوم يبعثون . وقصده من ذلك أن تنبأ له الفرص فيتمكن من إصعاد الأمر على آدم وذريته ، بأن يوسوس لهم الوقوع في المخالفة والمعصيان كما وقع هو فيها من قبل ، فيطردوا من مكانة التكريم كما طرد هو أيضا من قبل ، فأنظره الله كما طلب ، وجعله فتنة لعباده ليجزيه الخبيث من الطيب : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » . عندئذ انكشف النطاء عن بيته ، وما أكنه في نفسه لآدم وذريته : « لَا فَعْدَ لَهُمْ صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ » ، « وَلَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ جِهَتِ الْغَيْرِ فَاسُدَّهَا عَلَيْهِمْ ، وَجِيعَ جِهَاتِ الشَّرِّ فَانْتَحَى لَهُمْ ، أَرَبْنَ لَهُمْ وَأَغْرَبَهُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ ، فَيَقْبَعُونَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَمْبُدُونَ الْإِهْوَاءَ ، وَيُرْتَكِبُونَ الْمَظَالِمَ ، وَيَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ ، وَيُضْطَقُونَ مِنَ الْأَوَامِرِ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . فَأَجَابَتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَبْرَمَةً مَا أَرَادَتْ ، مُنْفَذَةً مَا قَضَتْ .

« قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا » :

يعنى مذمومًا مبعدًا ، وسأخذهم إياه ، وأبين لهم عداوتك ، وأذكركم بسابقتك ، فن اتبعك منهم بعد ذلك فلا تلاقى جهنم معكم أجمعين . وبهذا كانت الحياة الدنيا حياة نضال وتزاحم بين الخير والشر ، فمن مالت روحه إلى الشر واستجاب لدعوة إبليس ، فهو من حزب الشيطان « أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ، ومن مالت روحه إلى الخير ، وتعوذ بالله من إبليس وشره ، فهو من حزب الله « أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » ، « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

قال تعالى : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » :

يصور الله لنا بهذه القصة الفرصة الأولى التي انتهرها إبليس في توعده آدم وذريته ، وهي أول عنة امتحن بها الإنسان ، وكانت في هبتها وملاحها أساساً لكل عنة تقع في الأرض بعدها : أسكن الله آدم الجنة مع زوجته ، وأباح لها أن يأكلا منها رعداً ، وأن يشمتا بكل ما فيها سوى شجرة معينة نهياهما عن الأكل منها . وهكذا كانت شرائع الله في أرضه : إباحة وتحريم ، وأمر ونهي ، فأخذ إبليس يوسوس لها بالأكل مما نهيا عنه ، ويفرهما بأنواع المغريات ، قل لها : إن ربكما لم يحرم عليكما الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو من الخالدين ، لا يقركما موت ولا فناء ، وبالع في الإغراء بالقسم على أنه لما لمن السامحين ، وما زال يحد لها حبل القرور ويقويه حتى ارتقا به إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، ودلاهما به إلى هاوية العصيان ، فأكلا منها وعصيا ربهما ؛ وهكذا كانت الحياة خداعاً وتفريقاً ، يتخدع الفرد الفرد ، ويتخدع الأمة الأمة . نسي آدم أن الله حذره من إبليس بقوله : « إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا يَخْرُجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » ، ونسي كذلك أنه أبى أن يسجد له ويطيع فيه مولاة ؛ ولكن هي الطبيعة البشرية معترك الخير والشر ، ومسترك المخالفة والامتثال ، والطاعة والعصيان ؛ وصدد ذلك أدركا أنها وقعا في المخالفة ، ونجست أمامهما الجريمة ، وتغللت لها شاة العصيان ، وظهر لها ما كان خفياً عليهما في أنفسهما من القتل والسوءات ، فوقعا في الحيرة والاضطراب ، ماذا يقولان لله الذي كرمهما وأحسن تصويرهما ، وأغدق عليهما بالنعم والتسكين ؟ أخذتا يلتسان ما يستر تلك العودة التي بدت ، ويحتالان على استرداد مكاتهما عند الله ، « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » افرعهما على مخالفة أمره ، وأتجهما على اتباع الشيطان والاعتراض بمعمول أمانيه . عندئذ لم يجدا بدا من أن يعترا بدبيهما : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » . فأجابتهما الحكمة الإلهية : « احْبِطُوا بِمَعْصِكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّ » ، يريد المداوة بين آدم وذريته من ناحية ، وبين إبليس وحموده : دوافع الشر والفساد من ناحية أخرى ؛ وقال لهم : على هذه المسة التي علمتم من عداوة الشيطان لكما ولقديركما ، اسكنوا الأرض ، ولكم فيها مستقر ومتاع مما هيأناه لكم إلى حين ، إلى يوم يبعثون ، في الأرض تحبون وفي الأرض تموتون ، ومن الأرض تخرجون ، وإلى ربكم ترجعون .

وقام الله وإياكم شر وسوسة الشيطان ، وبصيرة بهداية القرآن ، إنه صبيح عجيب

محمد شلشوت

# السنن

## الحكم والصبر والعفاف

عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد أخبره « أن أبا أسام من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى تفيد ما عنده ، فقال لهم حين تقد كل شيء أنفق بيديه : ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم ، وإنه من يستغف يعفه الله ، ومن يصبر يصبره الله ، ومن يستغف يعفه الله ، ولن تُعطوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر » .  
رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) بيان معناه إجمالا . ( ٢ ) بيان شيء من كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ( ٣ ) بيان معنى الصبر وما يترتب عليه من محاسن . ( ٤ ) بيان فضيلة العفة وآثارها النافعة في المجتمع الانساني .

( ١ ) معنى الحديث ظاهر ، وحاصله أن بعض فقراء الأنصار دفعتم الحاجة الى أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم مالا يستعينون به على قضاء حاجتهم الضرورية ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ ما عنده من مال يومئذ . فنقد ( بفتح النون وكسر الفاء ) معناه فرغ . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : إني لا أمتنع عنكم مالا أملكه ، فإيكون عندي من خير ( أي مال ) لا أدخره عنكم ولا أجمله ذخيرة لغيركم من أهل أو غيرهم ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب بهم الى معنى السعادة الحقيقية ، وما ينبغي أن يكون عليه الانسان من الصفات المدحوة عند التوائب والحسن ، فقال لهم : « وإنه من يستغف يعفه الله ، ومن يصبر يصبره الله ، ومن يستغف يعفه الله » الخ .

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي تحت على التفاصيل ومكارم الاخلاق ، يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناية بهذيب أمته وتقويم أخلاقها ، وحثها على سلوك سبيل الفضائل في كل شأن من شئونها . فلو أن المسلمين علموا بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الصحيح وفهموه حقا ، وعملوا بما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، لكانوا أسعد الأمم حظا ، وأجلهم قدرا في كل زمان ومكان .

يبحث هذا الحديث على ثلاث خصال من مكارم الاخلاق ومحاسن الصفات ، وهي : الكرم ، والصبر على المكاره ، والعفة . وبديهي أن هذه الصفات من الصفات النفسية القويمة التي يدور عليها صلاح الأفراد والجماعات . وقد آن للمسلمين أن يستيقظوا من نومهم العميق ، ويتدبروا ما كان عليه أسلافهم من مجد ومسعة وقوة بسبب استمساكهم بأداب دينهم وتعاليمه القويمة ، وطرحهم الشهوات الفاسدة جانباً . وإن هذا الزمان وما فيه من حادثات لمو من أكبر العوامل التي تبعضهم على البقطة ، ونحتمهم على الاستمساك بفضائل دينهم ، والافتداء بأسلافهم الأطهار ، لعلهم أن يظفروا ببعض ما ظفروه هؤلاء الأسلاف من عزة ومجد . نعم قد آن لهم أن يحاربوا شهواتهم الفاسدة ، ويقلموا عما فيه ضررهم وهوانهم من الاسترسال في الشره والشح والجزع ، وتقديم ما تقتضيه الشهوة على ما تقتضيه العزة والكرامة . وليعلموا أن كرامة النفس وهزتها هو أنفس ما يحرق عليه الأبرار ، وأعز ما يتصف به الأخيار ، وأجل تراث يتركونه لأمتهم وذريتهم من بعد « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

(٢) أما كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا حد له فيوصف ، ولا نهاية له فيعرف ، بل كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة ، كما ورد في بعض الأحاديث . وحدث الكرم في الشريعة الإسلامية هو : أن ينفق الإنسان ما تقتضيه الواجبات والحقوق ، وتتطلبه حالته المالية من وسائل الرأسمال الخيرة النافعة للمجتمع الإنساني . وقد جمعت الشريعة الإسلامية للإتفاق حدا لا ينبغي لأحد أن يتعداه حتى يتيسر له قطع مراحل الحياة آمناً مطمئناً ، قادراً على أداء الأحمال المطلوبة منه بدون انقطاع ، فلا يكون شحيحاً ، ولا يكون مسذراً . قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » . وهذا ميزان عادل صالح للبيئة في كل حين ، لأن الإنسان إذا بخل حله بخله على الكف عن أداء الحقوق والواجبات ، وإذا أسرف تقدم ماله وهجز عن أداء تلك الحقوق فالنتيجة في كل حال واحدة وهي عدم أداء الحقوق والواجبات إما عاجلاً أو آجلاً . نعم إن البخيل أشد مقنا وأردل حلقاً وأخش أثراً من المبذر الذي ينفق ماله في أعمال البر ، ولكن ينبغي للعاقل ألا يحيد عن ميزان الشرع القويم ، فإن من حاد عنه ندم أشد الندم ، كما قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

وقد يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نعم القدوة في أقواله وأفعاله ، وقد ورد في صحيح مسلم وغيره « أنه صلى الله عليه وسلم لم يسأل شيئاً إلا أعطاه ، فأتاه رجل فسأله فأمره بفنم كثير ملأت بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » ، والحديث الذي معنا يدل على أنه عليه السلام قد أتفق جميع ما عنده ، وهذا في ظاهره يتناقى مع ظاهر الآية ، ويتناقى مع القانون الشرعي وهو عدم التبذير والإسراف الموجب لتنفيذ المال والعجز عن أداء الحقوق والواجبات .

والجواب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متعل بالوحي ، وله سلطان على النفوس لا حد له ، فهو يعلم حق العلم أن إتقائه للمال لا يمجزه في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال ، فهو دائماً قادر على الحصول على المال من طريق شريف مدوح ، وقد كانت له صلى الله عليه وسلم حالة خاصة ، وهي توسيع نطاق الإسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، كما هو واضح في هذا الحديث ، فإن الرجل قد أثر فيه بذل المال أحسن الأثر وأمر قومه بالإسلام ، وهذه هي الغاية العظمى التي يتوخاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان في عمله هذا مبدراً ، بل كان آمناً من شر العاقبة والاحتياج ، كما قال الأعرابي لقومه : إن عدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس طبعاً ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة » من وآه بذيبة هابة ، ومن خالطه معرفة أحبه ، الخ . فليت المسلمين يقتدون برسولهم الكريم في أقوالهم وأعمالهم ليكونوا من المفلحين .

( ٣ ) وأما الصبر فهو من أجل صفات النفس وأعظمها قدراً . وكفى به مدحاً أن الله سبحانه قد مدحه في أكثر من سبعين موضعاً من القرآن الكريم . وهو : حبس النفس عن الجزع ، ومنعها عن محارم الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . فمن انصف بذلك كان صابراً . وينقسم الصبر باعتبار ما يتعلق به من الأمور الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الصبر على طاعة الله تعالى ، ويشتمل هذا القسم على أداء ما أمر به الله تعالى من واجبات ، واجتناب ما نهى عنه من محرمات . ومن ذلك الثبات أمام الأعداء في الحروب ، فمن فقد الصبر في هذا الموطن فإنه يكون جباناً مردولاً في نظر الشريعة الإسلامية . ولذا كان من أشد الكبائر في نظر الدين الفرار من أمام الأعداء . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ومعنى « اصبروا » : امنعوا أنفسكم من الجرع وأزموها احتمال المكروه . ومعنى « وصابروا » : ظالبوا أعداءكم في الصبر على شدائد الحروب وويلاتها ، ولا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . ومعنى « ورابطوا » : أقيموا في الثغور مترصدين مستعدين للأعداء . فهذه الآية الكريمة صريحة في كل ما يجب على الأمة الإسلامية أن تعمل به بإزاء أعدائها الذين يريدون انتهاك حرمتها . فقد أمرهم الله بالصبر عن شهواتهم ولذاتهم في سبيل القدود عن كرامتهم ، وأمرهم بأن يصابروا أعداءهم بحيث يكونون دائماً أكثر منهم صبراً وحلداً ، وأن يحافظوا على ثغورهم ولا يتركوها مفتوحة لأعدائهم . ذلك هو نص كتاب الله الذي لا ينفك المسلمون عن تلاوته ، فبإلتهام يتدبرونه حقاً ، ويعملون بما فيه بصدق عزمة ورباطة جأش .

القسم الثاني : الصبر على المصيبة . وهذا القسم يتناول الصبر على فقد الأحباب ، ويتناول

الصبر على البؤس والفقر وضيق الاموال ، كما يتناول الصبر على لقاء الأعداء في ميادين القتال وغيرها ، والصبر على المرض واحتمال الآلام وغير ذلك . وقد أثنى الله تعالى على الصابرين عند المصائب وأعد لهم جزاء حسنا وأجرا كبيرا . قال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . ومعنى البأساء : الفقر . ومعنى الضراء : المرض . وقوله تعالى : « وحين البأس » يعنى عند القتال ومنازلة الأعداء . فمعنى هذه الآية الكريمة : إني أمدح الصابرين في حال الفقر والمرض ، وحين قتال الأعداء ، وهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم بربهم ، الموفون باليوم الآخر ، فلا يبالون بمحاذات الدنيا ، ولا يرهبون عدوا ، ولا يخافون بطش أحد .

القسم الثالث : الصبر على ترك الشهوات التي نهى الله عنها . وهذا القسم لازم لسعادة الإنسان في دنياه وآخرته ، فإن الله سبحانه قد نهى عباده عن الفحشاء والمسكر ليعيشوا في هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين ، فلا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ، ولا يعتدى أحدهم على غيره في ماله وبذته ، ولا تفرم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون في الأرض فسادا من أجل الحصول على لقائها الفانية وشهواتها الفاسدة . فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ، ولا يقذف أحدا ، ولا يشهد الزور ولا ينطق بالفحش ، ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ، ولا يجادل بالباطل ، إلى غير ذلك من آفات اللسان ، فإنه بذلك يكون قد صبر عن ارتكاب معاصي اللسان . ومن يصبر على حفظ فرجه فقد صبر على شهوة الفرج المحرمة . ومن صبر على ما لا يملكه من الذات والشهوات فقد نجح من ألم الحسد والحقد وغير ذلك من الآفات المهلكات .

( ٤ ) أما العفة : فهي صفة من صفات النفس الفاضلة ، وهي عبارة عن التوسط بين طرق الإفراط والتعريط في الشهوة والغضب ، فلا يشتهي شيئا حرمه الله تعالى ، وإن وحد في نفسه باعثا لهذه الشهوة فإنه يجب عليه مقاومته ودفعه بكل ما يستطيع من طول وحول ، لأن الله تعالى قد أباح له من الشهوات ما فيه الكفاية ، فلا يحل له أن يعتدى على غيره بموامل الشهوة التي ليست من حقه ، وكذلك لا يغضب إلا بعد موجبات الغضب التي أبانها له الدين ، فلا يؤذى أحدا بقول أو عمل بدافع الغضب بدون حق .

والله تعالى يوفق المسلمين إلى العمل بقواعد دينهم الحكيمة ، وينتظم مما هم فيه من قوضى الشهوات والأخلاق ، إنه صميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيري

## دراسة في القرآن الحكيم

### المجاز والكناية في كتاب الله (١)

في الآية السابقة على هذه الآية ، أعنى قوله تعالى : « وَإِذْ كَتَبْنَا الْجِبِلَ فَوْقَهُمْ كِتَابًا ظُلُمَةً وَنَبَّأْنَاهُمْ أَنَّهُمُ اسْخَفُوا مَا آتَيْنَاهُمْ بِقُوَّةٍ وَادَّكُرُوا مَا فِيهِ لَكُمْ تَقْوَنَ » ، قد ذكر بنى إسرائيل بالمهد الذى وثقه معهم يوم رفع الجبل فوقهم بأن يأخذوا بما فى الكتاب المنزل على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأن يذكروا دائماً ما فيه ويتفهموه ، لما فى الأخذ بما فيه إذعان بنبوة خاتم النبيين ، وإيمان برسالة سيد المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولما كان المهد الذى ذكروا به فى الآية السابقة قد أخذ فى ظل آية مؤقته ، ووثق تحت حجة هى بنت حينها ، وكان مقتضى المهد إنما هو العمل بما فى الكتاب ، وما فى الكتاب قد تحوّل الأهواء وتعبت به الأغراض بالتبديل والتعريف ، كما حدثنا القرآن ، فكان يكون من تملأهم أنا لم تشهد تلك الآية التى كان الاقتناع بحقيقة ذلك العهد فى ظلها ، والتى كانت هى الدافع الى قوة الاستمسك به ، ولم يعلن الكتاب إلا على هذا الوجه الذى لا يلزمنا بالاستجابة الى الدعوة المحمدية ، لما كان كذلك ، أخذ القرآن يذكركم بعهد آتبه لا تنسخ ، بل هى ثابتة على مدى الأيام ، ومقتضاء أصل من أصول الشرائع ، وهى الاعتراف بربوبية الخالق ، ذلك الأصل الذى هو غريزة فى النفوس ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : لما كان من طبيعة من غلّفت الشهوات قلوبهم ، وأعمت الأهواء أبصارهم ، وأصمّت الأغراض آذانهم ، أن يتلصوا فى ساحة الحق القتامة وإن كانت نيرة نقية ، وأن يتحسروا فى أفقه الغيوم وإن كان موهجاً صافياً ، لما كان من شأنهم أن يستمسكوا بالأباطيل ، ويتعلقوا بواهن الشبه ، فكان لبنى إسرائيل أن يقولوا فى مقابلة تلك الآية الكريمة : إنا لا نعرف هذا المهد ، ولا هو قد أخذ علينا ، ولا نوثق معنا ، وإنما أخذ على أسلافنا ، فلاتواخذنا بما فعل آبائنا ، فإنك قلت وقولك الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

لما كان لبني إسرائيل أن يتعللوا بتلك الشبهة ، فقد أراد الله تعالى أن يقتلع تمللهم ، ويستأصل شبهاتهم ، ويقطع من أيديهم كل مستمسك ، فدكّرهم بذلك المهد العام الشامل الذي لم يختص به جيل دون جيل ، ولا شعب دون شعب ، ولا الآباء دون الأبناء ، بل كل جيل يجتده هو مأخوذ عليهم ، وموثق معهم ؛ ذلك المهد العام الشامل هو المذكور في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ » . . . الآية . وهذا المهد إنما ينعقد بين الناس وما أودعهم من عقول أقدرها مانحها على النظر والتفكير والتدبر والاستنتاج ، وبين ما أنعم في السموات والأرض وما بينهما من حجة واضحة وبرهان ناصع ، وما كتب في أكوانه من آيات بينات ، وأدلة نيرات ، على أنه لا إله إلا هو الواحد القهار ؛ غير أنه قد سلك في ذلك سبيل الخليل على حد الاستعارة ، فأبرز ما بين العقول والكائنات من استمداد العقول القوي للنظر والتدبر ، واستخلاص الأدلة واستنتاج الآيات ، ومن وضوح ما في الكون من أدلة قدرته ، وبراہين علمه وحكمته ، وآيات علوه وعزته ؛ أبرز ذلك في صورة التقاؤل والمكاملة ، لينبذ بذلك إلى قوة ما في العقول من الاستعداد لفهم ، وقوة ما في الكائنات من الاستعداد للاتهام ؛ فكان آيات الله القائمة في الأرض والسماء ، وما بينهما من كوكب ثابت وآخر سيار ؛ ومن كوكب ساطع مضئ ، وآخر دونه في ذلك ، من زروع وأشجار ، وجبال وأنهار ، إلى غير ذلك من جاد وحيوان ، وجامد وسائل ؛ كأن هذا يستطرق العقول بالاعتراف بالربوبية بآياتها ومحكمها ، وكأن العقول إذا ذلك تنطق في بيان معترفة بمبدعها ومودعها .

هذا هو ما ينبغي أن تحمل عليه الآية الكريمة ، حتى يقع في حدود ما قرره الاسلام من قواعد وأصول ، وتساير المعلوم من الدين علما ضروريا .

وواضح : أنه لا يفتقر من هذا الاتجاه الذي اتجهنا به الآية ، أن نعتبر الآيات التي تخاطب عقول البشر وتنقسمهم الاعتراف بالربوبية ، هي آيات تطوراتهم من ظهور الآباء إلى أرحام الأمهات ، وتطوراتهم في أرحام الأمهات إلى خروجهم من بطون أمهاتهم ، إلى بلوغهم أشدهم ؛ إذ في ذلك من مظاهر الربوبية ، والتمجد والرعاية ، وآيات القدرة ، ما هو جلي واضح ، مثله يكفي لمن نظر وتدبر أن يوحد الله بالمعبودية ، وأن يفرد بالاعظام والإجلال ؛ ويكون إتيان تذكيرهم بهذا النوع من الآيات دون ما أنعم في الأرض والسماء وما بينهما ، يكون إتيان هذا النوع لما أن مظاهر التمجيد والترية ، وآثار الرأفة والرحمة فيها ، أجلى وأوضح ، لأنه تعبد ورحمة حين لا يستطيع أب لهم أو أم أن يجلب نحوهم قسما ، وأن يدفع عنهم ضرا ، وحين هم كذلك لا يقدر أن لا تنقسم على شيء مما من خير يجلبونه أو شر يدفعونه ، فلا جرم أن كان معنى الربوبية في ذلك أجل وأوفر ، وأعظم وأكثر ؛ ولا جرم أن كان أقوى استدعاء لهم أن يعترفوا له تعالى بالربوبية دون سواه .



والى هنا ، قد يدور بالغله سؤال : إذا كان هذا هو المعنى ، وجريتنا على أن الآيات هي آيات الأرض والسماء ، لا آيات التطورات في ظهور الآياه وأرحام الامهات ، فلم سلك له هذا الأسلوب ، وقد كان يمكن أن يؤدي بهذه العبارة : « وإذا أشهد ربك الناس على أنفسهم ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ، ؟ »

وإنما إزاء هذا السؤال لا بد لنا أن نوضح السر في الصدول عن تلك العبارة الى العبارة التي جاء بها القرآن الكريم ، حتى يتبين لك ما في الكتاب من دقة ، وما في ثباته من روائع معاني هي التي أعجزت أرباب البلاغة وفرسان البيان ، وهي التي أعييت الرأصين شوامس القول ، والمدللين جوامح الكلام : ذلك أن الله عز وجل قد أراد أن يبين ماله على الناس من فصل كبير ، وما له بهم من رحمة واسعة ، وما هو عليه من عدل وحكمة ، مما اقتضى أن يمنحهم الاستعداد لإدراك ربوبيته ، واستحقاقه أن يعبدوه ويقصدوه ، من أول أطوار وجودهم ، ومبدأ تهيئتهم للإبراز في هذا الوجود ، وهم من ساعده أخذ بذرتهم من ظهور الآياه وإيداعها أرحام الامهات وهم على ذلك الاستعداد الذي منحهم إياه ربهم ليبركوا به ما أقام في الآفاق وفي أنفسهم من آيات وحدانيته وأدلة ربوبيته ، فهم بذلك لم يولدوا ولم يبرزوا من ظلمة الأرحام الى نور هذه الحياة إلا وهم على فطرة سليمة هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، كما قال الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه » ، أي أن الله تعالى يريد أن يقول للناس : إنى لم أبرزكم الى هذا الوجود إلا وأتمم على فطرة قد زاجت فيها وبين ما في الأكوان من دلائل وآيات ، بما أودعته فيكم من الاستعداد للنظر والاستنتاج ، وما عليه الكون من وصوح آياته للناظرين ، وجلاء دلائله للعشدين ، وإذن فما هو عذركم الذي به تمعدرون ؟ وما هي شبهتكم التي بها تدفعون ؟ ما دتم لم تحلوا هذا الوجود إلا ونور الهدى والحق بين أيديكم وبأيمانكم ؟ أما تلوث فطركم بنهويد الآياه والامهات وتنصيرهم ، أما ما أسبغت خرافات يثبات نشئتكم فيها من أغشية دون الحق الواضح الصريح ؟ أما ما بنته العقائد الباطلة التي حملتها أدمغة فاسدة من أوساط عثم فيها ؟ أما ذلك كله فليس بمقيم لكم حجة ، ولا بيان لكم بهانا ، ولا معقبكم من عذاب الله ، ولم يبق لكم من الحجة أن تقولوا : إننا كنا عن هذا غافلين ؟ فقد كان ينهض هذا حجة لو لم تمنحوا ذلك الاستعداد من أول أطوار وجودكم ، ولو لم تبرزوا لهذا الوجود وأتمم بتلك الفطرة النقية ، وبهذا النور الساطع المصنئ أمامكم صحيفة الكون وما فيها من شواهد وحدانيته وآيات ربوبيته ، فلم نظرتهم وتدبرتم ، وأدتم استعمال ذلك المنظار الرباني وتلك المنحة الإلهية ، ما تراكمت عليه أتربة الأباطيل والترهات ، ولا حاطه ققام التقليد والمعادن من كل ما حجب عنكم نور الحق ، وأضلكم عن سواء السبيل ؟ كما أنه ليس لكم من الحجة أن تقولوا : إنما أفسرك آباؤنا من

قبل ، وكنا ذرية من نعدم ؛ فقد كان ينهض ذلك حجة لو أننا أهملناكم للآباء ، ولم نخرجكم من بطون أمهاتكم ونور الحق يحوطكم ، ولو لم نبسط أمام عيونكم صحيفة العهد من أرض وسماء تقرأ في ظلة الليل كما تقرأ في وضوح النهار ، فكان عليكم أن تنظروا وأن تتدبروا ، وآيات الله في كونه ملححة في دعوتكم الى النظر والتدبر ، وبالنظر والتدبر تحرق هذه الأغشية ، وتهدم تلك الحواجز ، وتفتح تلك الغيوم .

هذا هو السر في أن عدل القرآن عن التعبير بقوله : وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ، الى التعبير بما جاء عليه القرآن الكريم .

هذا ، وإن هناك الى ذلك سراً آخر لذلك العدول ، وهو أنه لما كان الأخذ بمقتضيات العهد ، والاستمساك بالمواثيق إنما يكون مكفولاً ومضموناً إذا اقتنعت النفوس بحقيقته وأن المصلحة والخير في العمل به ، إنما يكون مضموناً أو أقرب الى التحقق إذا آمنت به القلوب من حجة ودليل ؛ لما كان كذلك كان من حكمة الله البالغة ألا يوثق مع عباده عهداً إلا كان إيمانه في ظل آية من آيات قدرته ، وشاهد من شواهد تفرده بالتصرف ووحدانيته في الكمال ، حتى لا يكون لهم إذا هم نقصوا عهداً بعد ميثاقه أن يقولوا لعلنا واعتذارا : إنا كسا على التزام ذلك العهد مكرهين ؛ إذ تكون حجتهم حينئذ مدحوضة ما داموا قد التزموا عن اقتناع بالدليل . لهذا تراه في الآية السابقة قد بين أن لم يأخذ على بنى إسرائيل العهد الذي التزموا فيه الأحاد بما أوتوا من شرائع عن طريق رسولهم موسى صلى الله عليه وسلم إلا في ظل آية من آيات قدرته ، وهي رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة ؛ ولما ذكرهم به على لسان رسولنا الكريم ذكرهم كذلك بالآية التي وُثق العهد تحت لوائها ؛ فهو جلت حكمته يعلم أن لا قهر على عقيدة ولا إكراه في دين .

ومن هذا تدرك السر في ذكر الأخذ من الظهور قبل ذكر العهد في قوله : « ألسنت يربكم » : فهو قد أراد الإرشاد الى أن العهد الذي يجب أن يوثق بين عقول البشر وبين ما في الكون من آيات ، لم يكلفوا به إلا بعد تذكيرهم بما سبق زمن التكليف من تلك التطورات المجيبة من حين أخذوا من ظهور الآباء فأودعوا أرحام الأمهات ؛ ثم صارت الطفرة علقه ، والعلقة مضغة ، الى آخر التطورات التي تتقدم الاستعداد للنظر والتفكير ؛ وفي ذلك من آيات القدرة البينة ، وآثار العهد والتربية ، ومظاهر الرحمة ، ما يستدعي منهم في قوة وإلحاح أن يستمسكوا بذلك العهد الذي توحى آيات الله في الكون على ما منحوه من عقول .

والى هنا قد فرغت مما أردت أنؤكد به تقرير المعنى الذي يجب أن تفسر به الآية الكريمة ، وأن أبين بطلان ما عدها من التأويلات .

والى القارىء بعد هذا دقائق أخرى فى الآيات مما كان به القرآن معجزاً ، ومما كان به ماسكاً للنفوس ، مستولياً على العقول ، موجهاً لها الى الخير والحق :

يقول عز من قائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » فيذكر مبدأين للاخذ على طريقة الإبدال : فيبدل قوله - « من ظهورهم » من قوله : « من بنى آدم » ، وقد كان يكفى أحدهما لاداء المعنى ؛ إلا أنك تدرك جلال القرآن وروعته حين تقارن بين الإتيان بهما وبين الاختصار على أحدهما ، فإنه لو اقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم » لما كان فى هذا لفت الأذهان الى مبدأ تهيئة مادتهم للإيجاد ، ولا الى التطورات التى اجتازوها قبل خروجهم من بطون أمهاتهم الى هذا الوجود ، مع أن ذلك مقصود إليه ليلهمهم الى أنه قد بذروهم لأول ما بذروهم فى صلاحية واستعداد للتدبر والنظر حتى تنقطع الحجة التى كان يصح لهم أن يحتجوا بها لو كان قد منحهم الاستعداد متأخراً ، فجاء بعد ما برزوا لهذا الوجود ، وبعد ما يكونون قد تأثروا بتقليد الآباء وتقاليد البيئات ، ثم لا يكون فى ذلك الاختصار لفت الى ذلك ، مع إيهامه أنه أخذ كما يؤخذ من المرء ماله ، أو تؤخذ منه أمتعته ، وليس بلفت الى ذلك ، ولا مبعد لذلك الوم إلا أن يبدل منه قوله : « من ظهورهم » . كما أنك تدرك جلال القرآن حين تقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم ذريتهم » لما يوجب ذلك الاختصار من تقصير فى نسبة الأبناء الى الآباء ، ويكون التعبير الى ذلك موهاً أنه أخذ كأخذ جزء من عضو خاص . فلتمام النسبة ودفع الإيهام جاء بالمبدأ الأول ، ولما قدمنا من التوجيه جاء بالمبدأ الثانى .

وإليك دقيقة أخرى : يقول تعالى : « ألسنت بربكم » ؟ ولم يقل : « أنا ربكم » ؟ مع أنه هو الذى يظهر لنا ، بناء على ما يقرره علماء التفسير من أن المقرر به فى مثل ذلك هو ما بعد النفى ؛ لم يقل عز وجل : « أنا ربكم » لأن الذى يتتبع أساليب اللغة بدقة يجد أن المقرر به دائماً هو ما يوافق الحال التى يكون عليها الشخص . تقول للرجل قد أحسنت إليه ثم هو يسئ إليك ألم أحسن إليك ؟ لأن سنيبه من إساءة وعدم إحسان إنما يتفق مع عدم الإحسان منك إليه . وإنما كان هذا لأن الغرض هو تنبيهه الى الحالة التى هو عليها ليقطع عنها لأنه لا يستطيع أن يواجه سائله بأنه لم يحسن إليه ، لكن يستطيع أن يواجه سائله بأنه أحسن إليه حين يسأله عن الإحسان ؛ غير أنه لا يكون فى ذلك تنبيه ، ولا ينوجه به إنكار ولا ملام .

إذا عرفت ذلك ، فلنرجع الى الآية نمجدها جارية على هذا الأسلوب الدقيق ، ويكون المقرر به هو الملقى لا ما بعد النفى كما يقوله المفسرون . ألا ترى أن المطرد من أحوال المجموعة البشرية هو الجحد والكفران ، والجحد والكفران هو ما يتفق مع عدم الاعتراف بالربوبية

مع ما أسنغ عليهم من نعمة وأدّر عليهم من رحمة ، ومع ما أقام لهم في أنفسهم وفي عوالم الكون الأخرى من آيات ، ومن كل ما يقتضيه في قوة الاعتراف بالربوبية ! وبهذا فهم إنما يسألون عن الحالة التي هم عليها حتى إذا فطنوا لها علموا أنهم على باطل واضح لا يسعهم أن يجيبوا بإيجابه ، ولا يستطيعون أن يراجعوا سائلهم بالاستقرار عليه .

وإليك دقيقة ثالثة : إنك تعلم أن أول ما يوفر للكلام صفة البلاغة ، ويحل منها في المقام الأول : أن يأخذ بذهنك الى المعنى في طريق متيرة مستقيمة غير معوجة ، من غير بطء ولا توان ، ومما هو في تلك المرتبة من أسباب توفير البلاغة وجزالة الأسلوب ، أن يسلك في أداء المعنى سبيل الإيجاز ليكون أسرع في الأداء ما دام الإيجاز لا يحل أقل إخلال بالغرض المقصود أداءه ، من ذلك نترك السر المعيب في أن حكي جساب الاستفهام في « ألسنت بربكم » بقوله : « قالوا بلى » دون أن يقول : « قالوا أنت رسا » ، إذ لو جاء بالجواب « بآنت ربنا » لكان من الاحتمالات أن يغفل ذهن عن ارتباطه بالاستفهام ، وأنه جواب له ، وفي ذلك وقفة بالذهن مهما كانت قليلة عن الوصول الى المراد . أما لفظة « بلى » فهي لا تكون إلا جوابا ، فلا يمكن للذهن أن يقف عن إدراك الارتباط بينها وبين الاستفهام السابق . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن في لفظة « بلى » إيجارا مشيرا الى أنهم حريصون على المسارعة بإظهار عقيدتهم وأداء اعترافهم بالربوبية . وإلى هنا ، قد يقال : إنه وإن كان في ذلك تمام الارتباط والمسارعة بالإيجاز الى الأداء ، لكن بقي أن لتفصيل الاعتراف من المزية ما ليس للأجبال ، ونا نقول : لهذا ترى القرآن الكريم قد جاء بعد ذلك بقوله : « شهدا » الذي فيه تفصيل الاعتراف ، ولكنه قد جاء بهذا التفصيل بعد أن جاء بالأول الذي قطع به كل احتمال ، وسارع به في أداء المعنى لما فيه من إيجاز .

وإلى هنا ، وعلى ذلك التقدير ، أقنصر ، فإنه ليس لاحد أن يطمع في بيان كل ما تحتويه آيات القرآن الكريم من دقائق وعجائب ، فهو كلام رب العالمين ، خالق القوى ، ومكون القدر ؟

حامد محيسن

المدرس بكلية اللغة العربية

## الكمال في العقل

روى أن جبريل عليه السلام جاء آدم بثلاث خصال : الحياء ، والدين ، والعقل ، فقال : اختر واحدة منها . فقال : الحياء والدين ، أمرنا أن لا تفارق العقل

لولا العقل لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الإنسان

## الكلام والمتكلمون

— ٥ —

### المستزلة

#### مميزاتهم العامة :

اتفقت فرق المعتزلة — على اختلاف لزعائنها وتباينها في بعض المبادئ\* — في كثير من المميزات ، كما اتفقت في أصول مذهبها العام على ماسيجيء . وإليك أهم هذه المميزات .

(١) اعتمادهم على العقل قبل كل شيء ، وتأويلهم كل ما لا يتفق معه من السمعيات . وقد عللوا هذا الرأي بأن العقل هو العمدة في فهم الشرع ، وبالتالي هو مناط التكليف ، وهذا يستوجب احترامه وإزالة المترلة الرفيعة التي منعه إياها مبدع الكون حين أصعده الى عرش الجسم الانساني ، ووجه إليه خطابه مباشرة ، وأخضع له كل قوى الطبيعة ، وسلمه مفاتيح مفلقاتها ، وأباح له بنس القرآن الخوض في التدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته . فلو أننا أهملنا حكم العقل فخرجنا على الوضع الإلهي ، وتمردنا على من تنزل الباري جل شأنه فاحترمه وأمر جميع مبدعاته بالخضوع له . أما تأويل النصوص الشرعية فلا إهانة فيه لمحترم ، ولا اعتداء على حق ، وإنما هو انتقال من معنى كان مباحا قبل اصطدامه مع العقل ، الى آخر قد أصبح واجبا بمد اتفاقه مع هذا العقل .



(٢) دفاعهم الحار عن الوحي وعن كل ما يتعلق به .

(٣) اعتبارهم القرآن هو المصدر الوحيد للأحكام والأحكام .

(٤) خصومتهم مع أهل الحديث الذين لم يلبثوا أن أعلنوا أن المعتزلة فسقة .

(٥) خصومتهم العنيفة مع الجبرية لقولهم بأن الفرد كالريشة المعلقة في الهواء ، على ماسيجيء . في مذهبهم من مناقضة صريحة لرأى المعتزلة القائل بأن الفرد يخلق بأنهم أنواع الحرية كل أفعاله ، وإلا لما كان هناك أى معنى للتكليف ولا للمسئولية ، ولا ستوت الفضيلة والزيلة ، ولما كان أقل تقريظ بينهما ضربا من العنت والعيب .

(٦) حملتهم على الديانات الفارسية التي كان الشيعة قد نقلوها الى البلاد الاسلامية ، والتي كانت تروج لعبادة النار قولا . إنها أشرف المناصر وأسمائها ، ولهذا لم يكن من العدل أن يسجد إلهيس الذي هو من العنصر الاسمي لآدم الذي هو من العنصر الادنى ، والتي كانت إحداها وهي المانوية تدعو الى الرهبنة وإبادة العالم . وقد ألجأتهم حملتهم على هذه الديانات

الى دراسة العناصر ، والى محاربة النار بالتراب . وقد نجم عن ذلك المسلك تعمقهم فى دراسة الفلسفة الطبيعية التى انتعش بانتعاشها المذهب الدهرى ، فأخذ المعتزلة يحاربونه كما حاربوا المانوية ، وإن كانوا قد تأثروا ببعض آرائه .

(٧) مهاجمتهم لرافضية التى كان هشام بن الحكم يمثلها فى عصره أصدق تمثيل . ويعتبر أبو الهذيل زعيم هذه المهاجمات التى وجهها المعتزلة الى الروافض . وقد دفعته ضيقه بالرد على أولئك القوم الى دراسة كتب الفلاسفة ، فاستفاد كثيرا من الآراء التى لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، وتأثر بها فى مذهبه . ولذلك أطلق عليه الباحثون اسم مؤسس الاعتزال الفلسفى الصحيح ، كما أسلموا . ولما جاء تصيذه ابراهيم النظام سار على منهجه فواصل حملته على الدهرية والمانوية والرافضية ، وأعلن أن القرآن كما هو أساس للأسماء والأحكام يجب أن يكون أساسا لجميع المبادئ العقلية . وبهذا يكون أولئك الزعماء الأربعة . واصل ، ومحمرو ، وأبو الهذيل ، والنظام ، هم الذين وضعوا على التوالى للقواعد الأساسية للاعتزال . وقد وجدت أهم قواعد المذهب العام بين آراء الأول والثانى منهم ، وتمثلت فيهم المميزات التى أسلفناها .

#### مذهبهم العام :

اتفقت فرق المعتزلة كلها على خمس قواعد أساسية هى أصول مذهبهم . فالأولى : قاعدة التوحيد ، والثانية : قاعدة العدل ، والثالثة : قاعدة الوعد والوعيد ، والرابعة : قاعدة الأفعال والأحكام ، والخامسة : قاعدة العقل والسمع . وقد تفرعت عن كل قاعدة من هذه القواعد عدة مشاكل كانت مجموعة المذهب العام للمعتزلة .

فمن قاعدة التوحيد مثلا : تفرعت مشكلة الصفات ، إذ بينا أعلنت الصفاتية أن التوحيد معناه نفي التقسيم فى الذات ، والتظير فى الصفات ، والشريك فى الأفعال ، صرحت المعتزلة بأن الله تعالى واحد فى ذاته لا قسم ولا صفة له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، فلا قديم خسر ذاته ، ولا قسم له فى أفعاله . فحال وجود قديمين أو اجتماع مؤثرين على أثر واحد . وإذا فاعله قادر بذاته ، مرهيد بذاته ، عالم بذاته ، لا بقدرة أو إرادة أو علم ، لأن القدم أخص وصفه ، فلا شريك له فى الصفات فيه لشاركته فى الألوهية . وقد ادعوا أن هذا وحده هو التوحيد الحقيقى . ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم « أهل التوحيد » . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة جصور رؤية الإله فى الدار الآخرة ، لانتفاء الشبه والجهة والتجزئ عنه ، « لأنه لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، وإن شيئا من الخواص لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة » (١)

ولما اتسع نطاق الفلسفة الاغريقية في البيئات العربية ، ألغى المعتزلة في آراء الفلاسفة صريحا خصيما من الجدل ، واثرة واسعة من البراهين ، فبعد أن كان خصومهم من الصفاتية يكادون يتغفون عليهم بقولهم : إن التقسيم لا يتحقق إلا عند التألف ، والتألف لا يكون إلا في الأجسام ، أما مسألة القنات والصفات فليس للتألف فيها حقيقيا ، ماد المعتزلة فهزموهم بما وجدوه مسطرا في مؤلفات الفلاسفة من أن التأليف خمسة أنواع : الأول : التألف المادي كتألف الجسم الطبيعي من العظم واللحم ، والثاني : التألف العقلي كتألف الجسم من الهيولى والصورة ، والثالث : التألف بالقول الفارح كتألف تعريف الكائن من الجنس والفصل ، والرابع : تألف الكائن من ذاته وصفاته ، والخامس : تألفه من ماهية الوجود ، ثم أوضحوا لهم أن أي واحد من هذه التألفات يناقض الوحدة الحقيقية ، وأن القول بالصفات يقتضي التألفات الثلاثة الأخيرة من هذه الحجة ، إذ هو يستلزم أن يكون الإله مؤلفا من الذات والصفات ، وأن يكون تعريفه ذا جنس وفصل ، وأن يكون وجوده غير ذاته ، وبالتالي يكون قولنا : « الله موجود » قضية مؤلفة من موضوع ومحول متغايرين ، والمغايرة تناقض الوحدة النامة ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط في أسفار فلاسفة الإسلام وخصومهم من أعلام المنكلمين كالآئمة : الأقرمي ، والفزائي ، والرازي . فنبينا ﷺ يكره المحصر صريحا .

وعن قاعدة العدل : تعرضت مشكلة وجوب فعل الصلاح على البارئ لضرورته في تحقق المدالة الإلهية ، لأنه بينما أعلنت الصفاتية أن العدل هو تصرف المالك في ملكه على مقتضى العلم والمشيئة ، والظلم ضد ذلك ، وبالتالي تكون تصرفات الإله كلها مادية ، لأنها صدرت منه في ملكه بمقتضى علمه ومشيئته ، قررت المعتزلة أن العدل هو ما يقتضيه العقل من الحكمة ، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يقتضى أن يكون فعل المصالح واجبا على الله ، لكي يتحقق العدل المتوقف على الحكمة .

ومن هذين التمرزين ، وما استقر عليه كل من الفريقين من حكم على العدل ، وعلى الأخص من براهين متأخرى المعتزلة في هذه المشكلة ، يتبين جليا أن هؤلاء الأخيرين قد تأثروا بالفلسفة فنظروا إلى المدالة في ذاتها ، أي من حيث فكرتها النظرية دون أي التمسك إلى الناحية العملية فيها . ولهذا لم يهتموا في التصرف إلا اتباع الحكمة ، ولم يهتموا بأن يكون واقعا في ملك المتصرف أو في ملك غيره ، وإنما لاحظوا في المدالة الهيئة الهندسية التي تقابل عند الفينثاغوريين الشكل المربع ، والتي بها استوى نظام السماء والأرض ، وتحقق الانجمام في جميع كليات الكون وجزيئاته . أما عقلية الصفاتية فقد نظرت إلى المدالة من حيث ناحيتها العملية التي تلتنسج إلى النتائج لا إلى الفكر النظرية . ولهذا كان كل ما شغلها هو أن يكون التصرف واقعا في ملك المتصرف ، ولو كان مهاديا للنظام ، مختصا مع الانجمام .

وفي هذه القاعدة أيضا ، اندجبت مشكلة قدرة الفرد على خلقه أفعاله الاختيارية ، تلك المشكلة التي أثبتنا لك أنها نشأت قبل ظهور فرقة الواصلية . وقد عللوا قولهم بحرية الفرد بعلّة ضرورته كذلك لتحقيق العدل الإلهي ، لأن عقاب المجرم ظلم ، وإثابته سفه ، والإله منزّه عن الظلم والسفه ، أما التفضل بفترة وراء ذلك . ولهذا أطلقوا على أنفسهم وحدهم اسم « أهل العدل » .

وفي قاعدة الوعد والوعيد أيضا : يمكن إدماج مشكلة حرية الفرد ، لأن الصفاتية قرروا أن وعد الله ووعيده أزيلان ، فمن أثيب فيوعده ، ومن عوقب فيوعده . أما الممتزلة فقد صرحوا بأن الوعد والوعيد محدثان ، وبأن من أثيب فبنعله ، ومن عوقب فبنعله . وإذا كان الفعل عندهم هو منشأ الثواب والمقاب ، فيجب أن يقع بأنهم الحرية . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة أزلية القرآن أو حدوثه ، لأنه كلام به أدى الوعد والوعيد المحدثان عند الممتزلة ، القديمان عند حصومهم . وقد تداخلت هذه المشكلة أيضا في قاعدة التوحيد حيث اعترض الممتزلة على الفائلين بقدم القرآن باعتراض تعدد القدماء .

ومن قاعدة الأسماء والأحكام : نشأت مشكلة المتزلة بين المتزلّين ، التي دار فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وهل يسمى مؤمنا أو كافرا ؟ وأعلن فيها الممتزلة القول بالنوسط بين الكفر والإيمان ، وكانت سبب اعتزال واصل من الحسن ، أو سبب نفوه فرق الممتزلة على أحد الأقوال ، كما أثبتنا ذلك في موضعه .

ومن قاعدة العقل والسمع : نشأت مشكلة المعرفة والوجوب وهل هما بالعقل أو بالشرع ؟ فاعلنت الصفاتية أن المعرفة بالعقل ، والوجوب بالسمع ، أي أن العقل لا يحسن ولا يقبح ، ولا يقتضي ولا يوجب ، بل يعرف فقط ، وأن السمع لا يوجد المعرفة بل يوجبها . وقررت الممتزلة أن المعارف كلها معقولة بالعقل ، وأحدة بالنظر ، وأن الحسن والقبح سفتان ذاتيتان للحسن والقبح ، فهما مدركتان بالعقل ، وأن شكر المسم وفعل الخير ونجيب الشر واجبات بالعقل (١) . « يتبع »

المكتوب محمد غنيم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب الشهرستاني .



# حياة أحوال السلف

عبد الله بن مسعود

والقرآن الكريم

نحدثنا في المقال السابق عن مزيد اختصاص عبد الله بن مسعود بالنبي صلى الله عليه وسلم في خاص أحواله وخفي شئونه ، مما جعل بعض الأكابر من الصحابة يحسب أنه من آل البيت ، لما يرى من كثرة دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات وأحوال ليس لاحد غيره أن يدخل فيها عليه .

ومن الطبيعي أن هذا الاختصاص لجعل مثل ابن مسعود من السابقين الأولين الذين أوتوا حسماً مرهفاً ، وذكاءً مطرباً ، وذهناً خصباً ، وصريرة صافية ، كان له أكبر الفضل في تمييز ابن مسعود من بين إخوانه قادة الفكر الإسلامي الذين خرجتهم المدرسة المحمدية العظمى ، بألوان شتى من الحياة الإسلامية تولدت منها مذاهب وآراء لها في تاريخ التشريع الإسلامي حطرها ، ولا سيما فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، دستور الإسلام الأعظم ، حفظاً وأداءً وتدويناً ، وفقهاً في أحكامه ، وغوصاً على حكمه وأصراره .

وقد رأينا أن هذه الناحية من المباحث الإسلامية عُنِيَ بها أشد العناية علماء المشرقيات من باحثي الغرب في عصرنا الحاضر ، ونشروا في موضوعاتها كتباً وبحوثاً وتعليقات تردد صداها بين الباحثين ، واشتغرت في شأنها الأفلام ، فكان من حق البحث علينا ونحن نحاول أن نرسم لشباب الإسلام - في صدد الحديث عن رجال الإسلام وقادة الفكر - صورة موجزة عن حياة هذا السابغة الجليل ، أن نلم إلىمامة عاجلة بما تردد على أسلالت الأفلام حول تدوين القرآن وقراءاته الباعثة على جمع الناس حول مصحف عثمان رضي الله عنه ، وما يتصل بمبدأ عبد الله بن مسعود من ذلك ، متوخين ذكر ما نطش إلى النفس ورتاح له الصمير .

كان عبد الله بن مسعود من أقرأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وأقومهم بأدائه ، روى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال لبعض أصحابه - أي القراءتين - أتمدون أولى ؟ فقالوا : قراءة عبد الله ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعرض عليه القرآن في كل رمضان مرة إلا العام الذي قبض فيه فإنه عرضه عليه مرتين ، فحضره عبد الله بن مسعود

فتشهد ما نسخ منه وما يبدل . وهذا الأمر لم يتضح منه قراءة من من قرأ الصحابة التي جعلها ابن عباس في مساكنه أصحابه عدلا لقراءة عبد الله بن مسعود ، وأقرب الظن أنها قراءة زيد بن ثابت . ويرشح هذا أمران :

( الأول ) ما رواه ابن سعد في الطبقات عن شقيق بن سلمة قال : « خطبنا عبد الله بن مسعود حين أمر في المصاحف بما أمر ، فذكر الغلoul فقال : إنه من يكمل يأت بما قل يوم القيامة ، فقلوا في المصاحف ، فلا نقرأ على قراءة من أحب أحب إلى من أن نقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، فوالله لا إله غيره لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان ، والذي لا إله غيره لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني ببلغه إلا بل لآتينه ! قال شقيق بن سلمة : ثم ذهب عبد الله فقامت في الحلق وفيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم فما رأيت أحدا رده عليه ما قال . في هذه الخطبة دلالة على أن المنافس لعبد الله في قراءته هو زيد بن ثابت ، فهو أجدر أن يكون مزاحما بقراءته التي أصبحت فيما بعد قراءة الجمهور . وأثر ابن عباس يدلنا على أنه كان يذهب مذهب ابن مسعود في قراءته ويقدمها على قراءة زيد معلا ذلك بأن عبد الله حضر العرضة الأخيرة التي استقر عندها حكم الكتاب .

( الثاني ) أن زيد بن ثابت - كما يقول السيوطي في الاتقان - انتهت إليه الرئاسة في القراءة ، وأنه هو الذي عهد إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بأول جمع للمصحف ، ولم يكن لغيره من القراء ما كان له ، فقراءته أقرب إلى أن تكون هي الموازنة لقراءة عبد الله ، والذي يظهر أن لهدذين الإمامين الجليلين ميزة في حفظ القرآن اختص كل واحد منهما بجانب منها ، وقد كانت براعة عبد الله في حسن الأداء والترتيل ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اقرأ على ، فقلت : كيف أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إني أشتبه أن أسمع من غيري ، قال عبد الله : فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال لي : حسبك ! فنظرت إليه وقد اغرورقت عيناي الذي صلى الله عليه وسلم وقال : من سره أن يقرأ القرآن غضا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد . وقد كان رضي الله عنه أعطي حظا عظيما في تجويد القرآن ، وكان يأمر به ويقول فيما روى عنه : « جوّدوا القرآن » . وفي الصحيحين عنه « أن رجلا قال له : إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال عبد الله : هذا كهد الشعر ؟ إن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه فنع . وكان رضي الله عنه يقول لتلاميذه وأصحابه : « لا تتروءوا نثر الله قل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون تم أحدكم آخر السورة » .

كانت هذه العناية الفائقة من ابن مسعود بالقرآن الكريم باعثا قويا على أن يدون لنفسه مصحفا يجمع بين دفتيه ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم . وحالة التدوين في أول عهد المسلمين به غامضة ، والروايات في شأنها كثيرة ، والناظر في تلك الروايات واختلاف عباراتها اختلافا شديدا يدرك منها أن الذين دونوا ما سمعوه تدوينا فرديا لم يقصدوا إلى أن يجمعوا القسركم الحكيم في مصحف ، وإنما قصدوا حمل مذكرات لهم يرحمون إليها عند الحاجة ، ولم يقصد جمع القسركم في مصحف يكون إماما للأمة ترجع إليه إذا أعوزتها آياته أحد قبل أبي بكر وصرى الله عنهما ، ولذلك لم يكن حملهما محلا فرديا كعمل غيرهما . روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلى أبو بكر مَقْتَلٌ أهل البصرة فإذا هم بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن امرأتى فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم البصرة بقراءة القرآن ، وإنى أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراءة في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمري : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير أفلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك ، الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن أجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال هو والله خير أفلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى لهذا ، الذي شرح الله صدر أبي بكر وصرى ، فتتبع القرآن أجمعه من المسبب والخفاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أحدها مع غيره : « لقد جاءكم رسول » حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . وقد لا يُبعد من يفهم في هذا الحديث أنه ظاهر جدا في شدة الاحتياط في قرآنية ما يدون تدوينا جماعيا ، لأن زيدا قال : فتتبع القرآن أجمعه من المسبب والخفاف وصدور الرجال ، فسكانه رضى الله عنه جعل نفسه قاعدة لتدوين القرآن : أن يحمد الآية أو السورة في المسبب والخفاف وصدور الرجال ، وليس يكتفي وجدانها في واحد من هذه المصادر ؛ ولما كان الوجود في صدور الرجال يتعدد غالبا به في الحديث على انفراد أبي خزيمة الأنصاري بآخر براءة مع القطع بأنها كانت مدونة في المسبب والخفاف ؛ وبهذا التأويل ينقطع الإشكال على تواتر القرآن ، ويثبت له التواتر النقلي والتدويني ؛ ولا أعلم في الروايات بعد البحث ما ينافي هذا التأويل . وروى عن علي رضى الله عنه وكرم وجهه أنه كان يقول : « أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله » . وهذا الجمع من أبي بكر وصرى إنما كان خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته ، لأن أصل الكتابة والتدوين كان موجودا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الخطابي : « إنما لم يجمع صلى الله

عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من وجود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاة ألمه الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصدّيق بمشورة عمر .

انتهى هذا الدور ، ولم يظهر أثر لاختلاف المصاحف ، ولم يتردد صدى شيء من هذا النحو الذي ظهر في طور الجمع العثماني ؛ وكان ذلك لأن السبب في الجمعين مختلف ؛ قال ابن القيم : « الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتّبا لآيات سورة على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وجمع عثمان كان لما كثرت الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم إلى تحطئة بعض ، ونقشي من تفافهم الأمر في ذلك ، فسخ تلك المصحف في مصحف واحد ، مرتّبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم فمما للحرص والمشفقة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقصر على لغة واحدة » . وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : « لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته ، كتب مع مثبت رسمه ومعرض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد » .

وهذا الاختلاف في القراءات الذي دعا عثمان إلى جمع المصحف الإمام ، كان موجودا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يشهد له حديث الصحيح في اختلاف عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام في سورة الفرقان ومحاكهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتصويب قراءتهما جميعا ، لأن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه كانت أعظم ضمانا لتتزيه القرآن عن أحرف لم ينزل بها الوحي ، أما إذا انقطع الوحي بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق مناص من سد الثغر التي يسم منها الخطأ ، وذلك بجمع الناس على مصحف واحد يتخذونه إماما لهم ، وذلك ما صنع عثمان رضي الله عنه .

من هذه الروايات الكثيرة يظهر أن القرآن الكريم كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا مجموعا مرتّبا ترتيبه الذي تلقته عليه الأمة جيلا بعد جيل ، من غير زيادة حرف أو نقص حرف ، أو تقديم كلمة وتأخير أخرى ؛ وهو الذي تضافت عليه أقوال الأئمة المعتمد بهم في جميع الدهور والأعصار ؛ قال القاضي أبو بكر الباقلاني : « الذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بآياته رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه ، وأن

ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولا آخر منه مقدم ، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواضعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة . وعن ابن وهب قال - سمعت مالكا يقول - « إنما ألّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم » .

لم يبق سبيل للاعتداد على بعض الروايات الواهية أو المعرفة في فهمها التي تنسب الى عبد الله بن مسعود من إنكار كون المحدثين وفاتحة الكتاب ليستا من القرآن لأنهما لم يوجدتا في مصحفه . قال الامام عمر الدين الرازى : « نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمحدثين من القرآن ، وهو في غاية الصعوبة ، لأننا إن قلنا إن النقل المتواتر كان حاصلًا في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا لم يكن حاصلًا في ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود باطل » . وقال النووي في شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن المحدثين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد منها شيئًا كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع » وإنما صح عنه قراءة طاصم عن زرّ عنه وفيها المحدثان والفاتحة . والذي يدل لذلك إجماع الأمة من لدن عصر النبوة على أنه لم تقع صلاة في الاسلام بغير فاتحة الكتاب ، كما نقله صاحب الإيقان .

وقد قدمنا لك خطبة عبد الله بن مسعود التي تعيد أن الخلاف بينه وبين غيره إنما كان على القراءات ، وقد قال له الناس حينما عزله عثمان عن الكوفة : أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء نكرهه ، فقال : « إن له على حق الطاعة ، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة » .

صاحب الإهميم هريز

## حجاب القادة

ذم كثير من الأدباء الحجاب المضروب على القادة ، كأنهم يريدون أن يدخل عليهم من يريد وقت ما يريد . وغاب عنهم أنهم لو سمحوا بذلك لما وجدوا وقتًا لتصرف الأمور العامة . ومن هؤلاء الذي قال :

ليس الحجاب بالآية الإشراف      إن الحجاب بحجاب الإنصاف  
ونقل من يأتي فيحجب مرة      فيعود ثانية بقلب صاف  
ولكن أفضل من هذا وأحكم قول أبي تمام :  
ليس الحجاب بمقصر عنك في أملا      إن السماء ترجى حين تحتجب

## بَابُ الاسْتِئْثَارِ وَالْفَتَاوَى

### في الميراث :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :  
توفي رجل وترك أولاد أختين : ثلاث بنات من واحدة ، وولدا وبناتا من الأخرى ،  
ومقدار التركة خمسة عشر جنبها ، فما يبان الحكم الشرعي ؟  
شافعي سلامة  
بصرياقوس

### الجواب :

هولاء المذكورون من ذوى الأرحام ، وحكمهم في هذه الحادثة أن أولاد كل أخت يتولون  
منزلة أمهم ويأخذون ما كانت أمهم تأخذه لو كانت هي الموجودة وقت وفاة أخيها المتوفى .  
والظاهر من السؤال أن الأختين شقيقتان ، فإذا كان الواقع كذلك فإن التركة تقسم  
نصفين ، كل نصف يوزع على أولاد أخت ، فيأخذ البنات الثلاث أولاد الأخت الأولى  
كل واحدة منهن جنبين ونصفا ، ويأخذ الولد والبنات أولاد الأخت الثانية ما كانت تأخذه  
أمهم ، فذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، فللولد خمسة جنبات ، وللبنات جنبان ونصف .  
والله أعلم .

### في الرضاع :

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :  
خديجة بنت محمد البهشاوي رضعت من والدتي مريم وقت أن كانت ترضع أخي الأكبر ،  
وإن خديجة محمد المذكورة قد تزوجت وأنجبت بنتا تسمى حياة ، وإن أخي الذي رضع معها  
قد توفي ، وأنا مرادى الزواج من بنت خديجة وهي حياة . فهل يصح لي الزواج منها أولا ؟  
ابراهيم مصطفى العوف — بمركز وليس بئر السبع — حيفا

### الجواب :

حيث إن خديجة رضعت من مريم فقد صارت مريم أمًا لها من الرضاع ، وصار جميع  
أولادها إخوان خديجة من الرضاع ، فلا يجوز لواحد منهم أن يتزوج حياة بنت خديجة ،  
لأنها بنت أخته من الرضاع . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام



## المستقبل للإسلام<sup>(١)</sup>

العلم والفلسفة يهينان العقول والقلوب لتقبل الاسلام ديننا عالميا

وبما خيل لمن لا يعرف الاسلام أن هذا إعلان جرىء ، ولكننا نعتقد أنه متى عرفه فسبقونا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثة والتقاليد ، وإيمانه في النقد والتحصيل ، يتشقى على غير قصد منه نحو الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة في الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدينة ، وارتكست الجاعات الانسانية عن وجهتها العالمية . هذا إجل لمؤزه البيان، فاليك :

كُذِفَ بالإنسان الى هذا العالم جاهلاً به غاية الجهل ، عمياً عن أسرار كل الماية ، ولولا أن خالقه جعل شأنه أوجدته حيث الماء والنبات ، لمات فلماً وسقياً ؛ ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضواري التي كانت تتبعه ، ويحتجى من العوارض الطبيعية التي كانت تصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلاً ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر المواد ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة . ثم ما برح ترقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل في المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مسامير الوجود ، واحترع الآلات الممعة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم في نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبية هو أن  
الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن  
يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغي أن  
يشبه لتوثيقه من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

في أثناء تمحيي الانسان في هذه السبيل الأدبية، تحت ضوء العلم والفلسفة، تسقط في نظره

(١) نطلب لينا أن نهل بأدنى ما نملك من حجج في موضوع أن المستقبل للإسلام ، فضلا ، ولم فتنا أن  
ننصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نضم إذ عته بشعره في مجلة الارهرليكون  
الى جانب نظائره مما يتولى به حمية الاسلام في هذه الحقبة .

الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والنصب التقلدية ، فيرى الخضوع لها طاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة في أقصى ثناياه ، عاداً ذلك من منتهات وجوده الأدبي .

فكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات للتقاوية في هذه الناحية ، تدس الأصول الآتية :

( أولاً ) زوال آثار الوراثة الدينية .

( ثانياً ) انحاء النصب المذموم للعقائد الباطلة .

( ثالثاً ) قيام للنظر العقل مقام التقليد الأعمى .

( رابعاً ) قبول كل عقيدة تسلم من القدر وتهض بها حجة .

( خامساً ) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحو كل العقائد المفرقة للأمم ، والجماعة إياها جميعاً .

( سادساً ) الاتجاه الى نصب العلم فاروقاً بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا يحصى من تولدها كنمرة طبيعية للثقافة المصرية . وقد تولدت فعلاً وصارت جزءاً من الدستور العلمي لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصح عنصراً رئيسياً من عناصر العقلية الأوروبية إلا أن تنشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهي لا تزال بريدة عن الدهاء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه الميزة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من العقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر في الأديان التي يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه في صميم الإسلام ، وأنه في جهاده العلمي الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس الممثلة .

فكاجاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وصحبوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الدين من قبلهم ، ولجعلهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً » الآية . وقد كانوا يمدون الله سرا ويخفون أن يتخلفهم أعداؤهم ويمزقهم شذر مذر ، فكأنهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهراً على الأديان كلها ، كذلك ستمصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى



يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ،  
أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب في أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم ( برنارد شو ) أن أوروبا قد لا يعضى عليها قرآن حتى تكون قد انخفضت  
الإسلام ديناً .

أى شيء يعتبر في حكمه هذا بعيداً عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التي أثبتناها هنا ،  
وهي أخص أصول المستور العلمى ، هي نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هي معناه وروحه ،  
والموجب لجملة ديننا للعالمين كافة في كل زمان ومكان ؟

لقد كُتف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجرداً من كل ما يربطه بالماضى من دين  
ووراثه وتقليد وروم وخیال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى  
سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تفسه أمه .

فإذا تمت له هذه النصفية وثُمن أمور الدين ، أمر أن يتعمقها وأن ينظر في أدلتها ، ونهى  
أن يأخذ بها تقليداً مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكُتف أيضاً أن يتأمل فيما نصبه الله  
في الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتقبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله  
لأدق أساليب التحييس والتحليل ، حتى لا يتورط في الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول  
عن كل ما يستخدمه في هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، وعاسب حتى على جيئات خواطره .  
وإذا لمقتبسوا لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فإليك :

قال الله تعالى في ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس  
عليها ، لا تبدل خلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح  
النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحاة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده :  
« كل مولود يولد على الفطرة ، وإنا أوفاء يهوداته أو نصرانه أو مجسانه » . أى أن كل  
مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقاشان في عقله من الصور  
ما يغيران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى في ذم الظنون والأوهام : « إن يتبعون إلا الظن وإن ظن لا يخرسون » . وقال  
« وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يضى من الحق شيئاً »

وقال تعالى في النهى عن اتباع الهوى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وقال  
في وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » . وكرر ذلك في آيات كثيرة بألوان مختلفة  
عشرات من المرات .

وقال في ذم الذين لا يعرفون لعقل حقه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وقال : « صم بكم مى فهم لا يعقلون » وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » وقال « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » .

وقال تعالى في المسئولية الشخصية ، وفي عدم جواز الاعتماد على الغير . « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . وقال « واتقوا يوما لا تجزى نفس من نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ( أى فداء ) » .

وقال تعالى في ذم التقليد الأعمى : « وقالوا ( أى يوم القيامة ) ربنا إما أطعنا سادتنا وكبراءتنا أم أضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتبعوا ( أى يوم القيامة ) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراوا مما ، كذلك يرهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى في وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفي النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومن بدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال في وجوب تفاسى الدليل من كل صاحب قول « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقال في تنفيه أحلام الذين يمجدون على ما ورنوه من آباءهم من الإباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هذا دستور ديني جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمن لم يكن فيه دستور أي كان نوعه دولة في الأرض ، لا من الناحية المياسية ، ولا من الناحية العلمية ، أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن الحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرق إلى با فيخفهم في حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عديم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله المسلمة لاروس في دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تحجر إلى النار المحرقة في تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الديني ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وضعنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جندوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملارما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسموا داعيا يدهوم إلى تقيضه ، وإذا

أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قاله للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور فقال تعالى : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنا نراك لجنوناً » . وقالوا : « إنا نراك لجنوناً » . فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنن ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهي في المقعة الفسيحة من الأرض التي استولى عليها المسلمون في أول الإسلام ، هي دخول أم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تسكلها العلوم ، والنفوس لم تمقلها الشكوك ، فإذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمي لحسب ، ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه ، بالنظر أكل ما يمكن أن يصل إليه من سمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تغفل منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضائر : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

#### العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطر على باله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ ( هنري بيرنايه ) في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المنحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخي قد حطم اليوم كل الأشكال المنحجرة في الأديان ، فإنه لم يستطع أن يدعو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان منطور على الاعتقاد بالله رغم أنه . في كل حمة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان الى العباد والعبادة والتضحية ، في أخس الأديان الوثنية ، كما في أرق المذاهب الروحية . هذه هي الشرارة البسيكولوجية ( أي النفسية ) التي استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فن الحال أن يطبقها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

ثم قال :

« إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وخاصة لأن الديانة الفطرية ( أى الطبيعية ) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . لجان جاك روسو ولمرتين ولانديه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة ، وقريب منا إرنست رينان وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ما هى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلية ؟

إننا نأثيك بها على لسان أحد كبار أسياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى ( كارو ) ، فقد قال فى كتابه :

( البحوث الادبية على الزمان الحاضر ) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ، ووجود روح للانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمداً لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تظهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلاقها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتنحان والانلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدرجى لنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة المادية عن المواعظ الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » اهـ .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تعجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المهيطة بهم ، مصداقاً لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى ( أى الطبيعى ) آت لا محالة باعتباره أنه دين مالى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الاسلام نعم كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا آتس الناس لتلكوا فى التمسى اليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستمتتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلاً لجيلاً تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوماً بينهم ، فلا يزال الأمر جارياً على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذا ذلك تحل الروح الاسلامية

في العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمي يتمناه المصلحون في العصر الحاضر .

في ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالاستاذ ( هنرى بيرنجيه ) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشيء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .  
نعم لا يستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه في قوله تعالى : « فطر الله النسيان فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروطة بالرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهو في شرعة هذا الدين الفطري دين . وكل باطل وضلال وجبل وشر وتدل ، فهو في شرعته كفر .

هذا هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيضا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل بمراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيى عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية معها حاولوا ذلك وتسكفوه ؟ فإن كان في العالم أصول كلها أمنت في البعد عنها ، ازدادت قربا منها ، فهي الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يسفون » ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أنزل موسى وهارون والتيتيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« يأبى الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبيا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم الى صراطا مستقيما » .  
« يريدون ليبطشوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق » ، ويهدي الى صراط العزيز الحميد » .

محمد فريد وجدي

## تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

### تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

- ٣ -

#### كيف دخل الفقه الإسلامي مصر

لم يكن الفتح الإسلامي فتحاً سياسياً خصباً ، ولم تكن الحملة التي أرسلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حملة حربية فقط ، فإن العرب كانوا دائماً يحملون مع السيف علم ثقافتهم ودينهم ، وكانوا يبسطون حينما حلوا بساط عدلهم وأمنهم ، وكانت البلاد التي يفتحونها تتمتع سريعاً بحكم عادل مستقر لأنه حكم الرحمة والمصلحة ، خال من التعقيد لأنه هو البساطة بعينها ، بعيد عن المشقة لأنه لا يعرف إلا اليسر والسهولة .

ولا تجد أمة راقية تكسني أبداً بالفتح السياسي حتى تضعف إليه الفتح الثقافي . بل إنه لا يفلح الفتح السياسي ، ولا تتولد أقدام القائمين به إلا في ظلال الفتح الثقافي ، والغزو العسكري .

وها نحن أولاء نرى في عصرنا الحاضر أثر الدعوة المريع ، ومقامها العظيم ، وعناية الدول الحديثة بها ؛ ونرى أن الأمم المستعمرة تقدم ثقافتها ومبادئها بين يدي ما تبني من فتح واستعمار ، وتغزو بجيوش العلم والفكر ، قبل أن تغزو بجيوش الحرب والطعان .

على هذه السنة كان الفتح الإسلامي لمصر ، فكان مع الفاتحين حملة ثقافية علمية دنيوية ، أعضاءها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شهدوا الرسالة ، ومحبوا الرسول ، وقرءوا القرآن ، ورووا الحديث ، وشهدوا ما كان يفعل أبو بكر وعمر بعد وفاة الرسول فيما يمرض للمسلمين من قضايا ، وما يحدث لهم من أحداث .

ودخل مصر بعد الفتح أصحاب آخرون ، وكان من هؤلاء وأولئك أمراء تولوا حكمها ، وقضاة فصلوا في قضاياها ، ومفتون ، وفقهاء ، ورواة حديث .

فعلى يد هؤلاء جميعاً دخل الفقه الإسلامي إلى مصر ، وعلى يد هؤلاء جميعاً وضع أساس الفقه فيها ، أو كما يقال في التعبير الحديث : أسست مدرسته الأولى .

فما هو طابع هذه المدرسة ؟ وماذا كان أثرها في مصر من حيث القوانين والأفصية ، والأحكام ؟ وهل كان لمصر أثر خاص في فقه هذه المدرسة ؟

## مدونة الصحابة :

ألف محمد بن الربيع الحبري كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة ، ذكر فيه مائة وثيما وأربعين صحابيا ، ثم جاء جلال الدين الصبوطي فألف كتابا سماه « در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » جمع فيه من ذكرهم ابن الربيع ، وزاد مثلهم أو أكثر من ذكروا في مصادر أخرى ، فبلغت عدة هؤلاء وهؤلاء أكثر من ثلاثمائة .

وقد تبعت أخبار هؤلاء الصحابة ، فوجدت كثيرا منهم رواة حديث ينفذون في عدد ما يروون منه ، ففهم القليل ، ومنهم الكثير .

ووجدت قليلا منهم ممن عرفوا بالفتوى أو اشتغلوا بالقضاء ، ووجدت بعضهم قد مر بمصر مرورا ، أو أقام بها قليلا ، وبعضهم قد استوطنها واتخذها له دارا ، وبعضهم قد تولى شأنا من شئونها .

وتحس نعرض لبعض هؤلاء الأصحاب من قبيل التمثيل ، ليكون القارئ فكرة عنهم :  
 طائير بن العوام : أحد الذين شهدوا الفتح ، وكان لهم أثر ظاهر فيه ، فهو الذي قدم إلى عمرو في مدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو الذي اقتحم الحصن على من فيه ، فتم بذلك النصر للمسلمين .

وهو من المعروفين بالفتيا ، وقد أحقه ابن القيم بالمتوسطين (١) ، ولكنه لم يقم في مصر إقامة تجمل له في فقهها أو روايتها أثرا بارزا ، وقد ذكروا أن المصريين لم يرووا عنه إلا حديثا واحدا .

وعبادة بن الصامت : كان سفيرا للمسلمين إلى المقوقس في أثناء الحصار ، وهو أيضا من المفتين المتوسطين ، ولكنه لم تطل إقامته كذلك ، ولم يرو المصريون عنه إلا عشرة أحاديث .

والمقداد بن الأسود : من القليلين ، وقد شهد الفتح ، وللمصريين عنه حديثان .  
 وأبو ذر الغفاري : شهد الفتح أيضا ، وأقام بمصر زمنا ، ولهم عنه عشرون حديثا ، وهو في القليلين من المفتين .

وربيعة بن شرحبيل بن حسنة : شهد الفتح ، ولم يرو المصريون عنه شيئا ، ويظهر أنه كان ذا موهبة مالية دعت عمرو بن العاص أن يستعمله على المكس وهو الخراج (٢) .

(١) نقل ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين أن الصحابة هموا باعتبار فتاوتهم قلة وكثرة ثلاث طوائف : مكثرون يمكن أن يجمع من فتوى كل منهم سفر صغرى ، ومتوسطون يجمع من فتوى كل منهم كتيب صغير ، ومقلون لا تعرف عن أحدهم إلا المسألة أو المسألتان أو الزيادة اليسيرة على ذلك . . الخ ١٣ ج ١

(٢) خطط القرطبي ١٢٢ ج ٢

ومسألة بن عثمة الانصاري : قد ولاء معاوية على مصر ، وجمع له الصلاة والحج والبلاد المغرب ، ولكنه كان مشغولاً بالفتوحات ، فلم يرو له المصريون إلا حديثاً واحداً ، ولم يعرف عنه فتاوى مع أنه أقام بمصر أميراً خمس عشرة سنة ١

وهناك رحلان يحدثننا الرواة أنه كان لكل منهما أثر في المصريين ، ومقام محمود : أحدهما عقبة بن طاهر الجهنى ، والثاني عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي .

فأما عقبة ، فإنه لا يعد في المفتين المقتدين أو المكثرين ، وإنما يعد من رواة الحديث (١) ، أقام بمصر زمناً طويلاً ، ومات بها سنة ٥٨ هـ ، وتولى إمارتها من قبل معاوية بن أبي سفيان سنتين وثلاثة أشهر .

وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن (٢) ، وإتقاناً لقراءته ، وله مصحف كتبه بيده ، قال أبو سعيد بن يونس : رأيت مصحف عقبة بمصر على غير تأليف مصحف عثمان .

ويظهر أنه كان رحلاً ظريفاً ، لين الجانب ، عذب الحديث ، وهذه الصفات حببت فيه أهل مصر ، وجعلت له فيهم منزلة سامية ، فأقبلوا على حديثه يروونه عنه ، ويتناقلونه ، حتى عد من الذين أكثر عنهم المصريون ، فقد روى ابن عبد الحكم أن المصريين عنه نحو مائة حديث .

وأما عبد الله بن عمرو ، فكان من نجباء الصحابة وعلمائهم ، عدوه في المكثرين من المحدثين ، وفي المتوسطين من المفتين ، من طبقة عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل ، ونحوهم .

كان له منزلة بين الصحابة ، حتى لقد تردد ذكره في أيام التحكيم كمرشح للخلافة ، وحتى لقد قالت عائشة لعروة بن الزبير ، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة : يا ابن أخي بلغني أن عبد الله بن عمرو مآثر بنا إلى الحج ، فآلقه فأسأله ، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً (٣) .

وكان له صحيفة كتب فيها ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها «الصادقة» ويقول : « فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد » .

وكان يحج ويمسح ، ويأتي الشام ، ثم يرجع إلى مصر (٤) ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر .

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين ، منهم أبي عباس ، وأبو أمامة ، وحلق من أهل مصر . (٢) حسن المحاضرة ١٠٣ ج ١ (٣) تاريخ التفرغ الاسلامي و لكتبة الفرقة ٤ ص ١٣٦ . (٤) ج ٢٣٤ ج ١



وأكثر علم المصريين عنه . كانوا يرجعون اليه في الفتيا ، ويكتبون عنه ما يحدث . روى أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر عن حبشوة بن شريح قال « دخلت على حسين بن شغسي ابن مانع الأصمعي وهو يقول : فعل الله بفلان ا فقلت : ماله ؟ فقال : حمد الى كتيابين كان شغسي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا ، وقال رسول الله كذا . والآخر : ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذها فرمى بهما بين الغلوة والرباب (١) .

وهذا الخبر يعطينا فكرة عما كان يرويه المصريون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فهو يذكر كتيابين : في أحدهما أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحكامه ، وفي الآخر أخبار لا تتصل بالفقه ، والنوع الأول هو الفقه الذي كان يثبه في المصريين عبد الله مستعينا عليه بما يروى من قصص رسول الله وأحكامه .

ويظهر أنه كان للمصريين عناية خاصة بالنوع الثاني تزيد على عنايتهم بالنوع الأول . وسبب ذلك أنهم كانوا مولعين بالقصص ، والاستماع الى غريب الأخبار ، والاطلاع الى معرفة ما سيحدث في المستقبل من الأحداث ، أكثر من ولوعهم بالأحكام .

ولذلك راج القصص ، وكثر القصص في هذا العهد ، بل أصبح القصص هملا رسميا يعمد به الأمير الى بعض الناس ، ويعطيه عليه أجرا ، كالذي يحدثنا به الكندي في كتابه « تاريخ القضاة والولاة » من أن سليم بن عتر النخعي كان يقص عصر في سنة ٣٨ هـ وتُجمع له القصص الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأُفرد بالقصص (٢) .

وكان الناس يهتمون الى القاص فيد كرم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب (٣) .

هذا النوع آخر انتشار الفقه زمننا طويلا ، روى الكندي والمقرئ عن أبي قبيل وغيره أن أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام « وفي رواية ابن يونس : ومسائل الفقه ، يزيد بن أبي حبيب ، وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون في الترغيب والفتن (٤) . ويزيد هذا هو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم مصر بن عبد العزيز الفتي في مصر .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ وفيها « قال أبو سعيد : بنى بقوله الحولة والرباب مركبين كبيرين من سخن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلي القساطل نحو من مئتيهما لسكبرهما المراكب » .

« ٥ » ساجم بن عتر هذا ليس صحابيا ولكنه من الطبقة الأولى من التابعين ، تولى القضاء سنة ٤٠ هـ وتوفى بدمياط سنة ٦٥ (٢) فجر الاسلام ص ١٩٦ ج ١ (٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٣ (٤) ووفى

وقد رأيت فيما رواه المصريون عن عبد الله بن عمرو أحاديث كثيرة من هذا النوع .  
 منها ما روى في مسند الامام احمد عن أبي قبيل - وهو من الرواة المصريين - قال : « كنا  
 عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أي المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟  
 فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، فأخرج منه كتاباً ، ثم قال : بينما نحن جلوس حول النبي صلى  
 الله عليه وسلم نكتب إذ سئل رسول الله : أي المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو  
 رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : مدينة هرقل تفتح أولاً ، أي القسطنطينية .

ومنها عن أبي قبيل عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات يوم  
 الجمعة ، أو ليلة الجمعة ، وقته فتنة القبر ... الخ الخ  
 وإليك لتجد كثيراً من الأحاديث التي يرويها المصريون عن غير عبد الله بن عمرو أيضاً  
 من هذا النوع الذي يدور حول الترغيب والترهيب ، والأخبار والتقصص ، والنبوءات ،  
 ونحو ذلك .

تلك صورة من الرواية والفن ، لهذا العهد ، من تاريخ الفقه في مصر ، يمكننا بعد ذلك  
 أن نستخلص منها هذه النتائج :

(١) لم تكن الرواية كثيرة ، ولم يكن في الصحابة الذين دخلوا مصر أحده أثر بارز  
 في الفتوى سوى عبد الله بن عمرو .

(٢) كان المصريون يروون عن الصحابة أحاديث في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بالفقه  
 ومنها ما لا يتصل به ، وكانت عنايتهم بالنوع الثاني أكبر .

(٣) لم يكن الفقه في هذا العهد منتشرًا كالم يقصد اليه خاصة .

هذا كله فيما يتعلق بالرواية والفن ، وكان الى جانب ذلك حركة أخرى أثرت في الفقه  
 على يد القضاة ، ولها حديث بعد هذا الحديث إن شاء الله ؟ محمد محمد المديني

المدرس في كلية الشريعة

## هل العقل يشقى صاحبه ؟

قال أبو الطيب المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ولو سألت الأكثرين وحدتهم على مذهب أبي الطيب . والحق أن العقل لا يشقى صاحبه  
 إلا إذا كفه جهل فطالبه بالحال : كأن يتمنى أن يكون لصيحه المادى مقبلاً ، في عالم كل ما فيه  
 زائل ، وينبغي مما وراءه من عالم الروح الذي ليس لصيحه وصف . فمثل هذا العقل الناقص  
 جدير أن يشقى صاحبه ولا كرامة !

# فِي عَالَمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## نظرات في الأدب العربي

جاهليته وإسلاميته

— ٤ —

تيسير النعمو

لعله لم يمر في تاريخ اللغة العربية عهد ، هو أخطر على حياتها من هذا العهد ، فلقد اصطلحت عليها عوامل داخلية وخارجية ، غزت من جميع نواحيها ، وهددت في معاقها ، ولولا ما ركب الله في طبيعة هذه اللغة من القوى الحيوية ، لآلت سلاحيها ، وأرزت إلى المساجد والمعاهد الدينية كما تأرز الحية إلى وكرها ، وانتهت إلى المصير الذي انتهت إليه اللغات التاريخية من قبل .

فقد تحقق وكاد يكتمل ، ما تنبأ به علماء القرن التاسع عشر ، من تقدم العلوم الطبيعية ، وترعرعها ، وسيطرتها على سياسة العالم ، وإحكام الصلات بين أجزائه المتناحية ، حتى أصبح وكأنه قطر واحد ، ولا ريب أن السيادة لن تعدو لغة العلم ، فنصيب لغة الأمة من السيادة ، تابع لمقدار حظها من العلم الطبيعي ، والعلوم الطبيعية كما تفرض نفسها على العالم لمكان الحاجة إلى آثارها ، كذلك تفرض لغتها التي هي مفتاح رموزها ، وكشاف أسرارها . يقول بعض شراح مذهب دارون في النهوض والارتقاء :

« والعقبة التي يقدر لها عمر أطول من سواها ، هي عقبة التفاه ، أي اللغة ، ولكن العلوم الطبيعية نفسها — يجعلها العالم كأنه مدينة واحدة بتقريبه المسافات بينه — ستعمل التنازع شديدا جدا بين اللغات ، حتى يقضى على الكثير منها الذي لم يكن له في هذه العلوم شأن يذكر . وكان البقاء اليوم غير مقدور إلا للغات ثلاث سيقنصر التنازع في المستقبل بينها ، وهي الانكليزية والفرنسية والألمانية ، وكان الراجح حتى الربع الأول من القرن الماضي أن يكون الفوز للفرنسية ، لأنها أسبق اللغات ، وأمتها أسبق الأمم إلى المبادئ الاجتماعية الراقية ، ولولا شيوع كتب الأدب الخيالية المجنونة ، وعلم الحقوق الذين صرفوا الأفكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة ، وكان ضررها على فرنسا وعلى العالم أشد

من ضرر النظريات الدينية ، التي ما كادت تتخلص من شرائها في يورتها الأولى ، حتى وقعت من ذلك في شرار آخرى أدهى وأشد . ففي القرن السادس عشر كانت إيطاليا في مقدمة الأمم في ذلك ، ثم في القرن السابع عشر إنجلترا ، وفي الثامن عشر فرنسا ، وأما في القرن التاسع عشر ، فالسابقة ألمانيا هـ .

فهذا أحد الأخطار التي تهدد لغتنا الكريمة ، وهو أنكرها وألغها ؛ ويلزمه حطر آخر ، وهو السرعة التي تسود الحضارة الآلية الراهنة ؛ والسرعة عدوة الإعراب ؛ لأن اللغات المعربة تعتمد الفهم قبل القراءة ، بخلاف اللغات غير المعربة ؛ على أن اللغة آلة البيان والإيهام ، فإذا توفقت على الفهم ، انعكس الحال . وعلماء اللغات يذكرون أنه ليس في لغات العالم ما هو مغرب إلا الألمانية ، والحبشية ، والعربية ، ولكن أولاهن في نهاية الطريق إلى التخلص من الإعراب ، وهي بذلك حق جذيرة ، بمد أن عرفت منزلتها بين أمم العالم .

يضافر السببين الآتين ، ماركب في طبائع الصفاء من تقليد المتغلبين ، والفناء فيهم ، والإعجاب بكل ما يحيط بهم من عادات ، وأزياء ، وآداب وفنون ، وغيرها ؛ وفي كل أولئك يضماط للناحية المصرية ، التي أمم شخصياتها اللغة ؛ ولا سيما ، قالوا حياة الأمة بحياة لغتها .



لقد دخل اللحن على العربية الفصحى ، أول عهد العرب بالفنوح الإسلامية ؛ وبقيت الدواوين بلغة البلاد المفتوحة أمدا طويلا ؛ وتسلبت غير العرب من الديارم والأترار وغيرهم على الممالك الإسلامية ؛ ونقلت الدواوين إلى التركية إبان العهد العثماني ، واسكنه بقى اللغة مع كل أولئك حلفائها المتغلب ، يرفع لواءه الخلفاء والولاة والأمراء ، والآداب والدين . فاما في هذا العهد ، فإن طفيان العلم الطبيعي ، وآثار العلم الطبيعي ، تمصف بالزائيم الصادقة ، التي تنطوى عليها نفوس ملوك الاسلام ، ورجال الممالك الإسلامية ، وعلمائها وأدباؤها ؛ وعذروهم في ذلك قائم ؛ فإن المدرسة ، والمسرح ، والسوق ، والمزل ، والمادى ، كل أولئك قد طغى فيه اللون الغربي الوافد ، على كل لون سواه . ومن هنا كانت مهمة الجامعات اللغوية ، من أشق المهام ، وأعظمها خطرا ، وكان السحاح المرحوم منها محدودا ، لأن آفات اللغة العربية ، تسير في اتجاه العالم في إثر الحاجة الطبيعية ؛ فأما عمل الجامعات اللغوية ، فإنه متكلف مدفوع بقوى غير طبيعية ، ولا قوية ؛ ولعل أفضل ما فيها إحياء شعائر اللغة ، والقيام على ثفر من ثغورها ، وهو بيئة الخاصة ، ثم الانتفاء من مذلة الاستسلام ، وإلقاء السلاح ، بالدفاع من حومة مجد العربية ، ولسان الاسلام ، حتى الرمق الأخير .



لما ظهرت فكرة « تيسير النحو » ، انقسم الناس بإزائها إلى قسمين : ذهب قسم إلى أنها

أول خطوة الى التخلص من إعراب اللغة العربية ، باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، على طريقة الدولة التركية ، وهياهم لهذا الفهم ما قدمت من أسباب ، ثم شجعهم عليه ، خطبة خطبها وزير المعارف الذي كان تيسير النحو من إصلاحاته ، رعى فيها الى بعض ما شرحت آنفاً ، من عسر القراءة باللغة العربية ، عسراً يوقع في الإلباس والخلال ، فساد « علم » مثلاً ، يحتمل أن تقرأ : عِلِّمْ ، وَعَلِّمْ ، وَعِلِّمْ ، وَعِلِّمْ ، وَعِلِّمْ . الخ .

وذهب آخرون — وأنا أولهم — الى أن الغاية من هذا التيسير نبيلة ، والقصد حسن ، والتمرة أقرب وأنفع ، من ثمرات طريقة التطويل التقليدية ، التي اشترعها أبو علم الاجتماع العلامة ابن حلدون ، وتابعه عليها الأزهر والمدارس ، منذ كان التدريس ، وكانت المدارس .

وجهة النظر في تيسير النحو ، تُعَمِّلُ في الاكتفاء من النحو وقواعده بالقدر الذي لا بد منه لتقويم اللسان ، كتمرغ الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر الخ ، والتمويل في تمام إصلاح اللسان على الإكثار من المطالعة في الكتب الصحيحة ، حتى تربى عند الطالب ملكة من كثرة التكرار ، وتعود الطق الصحيح ، تنبئه عن قواعد النحو وتطبيقها إذا قرأ ، وإذا كتب . وعلى الرغم من جمال هذا المتجه ، واحترام هذا الرأي ، فإن الشطر الأول منه باطل ، والشطر الثاني نظري ، وقد كُفينا الاستدلال على بطلان الشطر الأول ، أبو عثمان الجاحظ ، يذيقنا في كتابه « الحويان » : « قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو كشمير : إذا كان لا يتوصل الى ما يحتاج إليه ، إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه ، يحتاج إليه » . اهـ

فأما أن الشطر الثاني نظري ، فذلك ما يكرره الواقع المحس ، إذ لو كانت كثرة المطالعة في الكتب الصحيحة كافية في تقويم اللسان ، لكان الأزهر وفروعه ، كدار العلوم ، ومدارس المعلمين الأولية ، أغنى المهاد عن دراسة النحو ، والتعمق فيه ، لأن طالب هذه المهاد لا يدحله ، إلا وقد حفظ القرآن الكريم ، حفظاً مجوداً ، وأثر القرآن في إصلاح اللسان ، أبين من أن يشرح ، فإذا دحله كان مجتيراً المطالعة في كتب تلتقي كلها في صحة التراكيب ، وسلامتها من الخطأ العربي ، وإن اختلفت أساليبها ، واضطرب حفظها من الفصاحة والبلاغة . وجميع ما يدرس في هذه المهاد من غير العلوم الشرعية والنسابة ، قد روعي في كتبه وفي دراسته تلقيناً وتلقياً ، التمرير الى أرق حد مستطاع . ومع كل أولئك ، فإن أحداً لا يستطيع أن يقول : إن الأزهرى ومن في حكمه في غنية عن دراسة النحو ، أو عن التعمق فيها ، ليس لمكانه من القيام على الشريعة واللغة حسب ، بل لحاجته إليه إذا حط ، وإذا كتب ، وإذا قرأ أيضاً ، ومسك ذلك جاحد للمشاهدات .

وإذا كان هذا حال الأزهر وما في حكمه ، فما ظنك بالمدارس المدنية ، والحال فيها جد مختلفة

عن حال الأزهر ؟ فالطالب يدخلها خلوا من المعلومات ، إلا قليلا من مبادئ القراءة والحساب ؛ ودروس اللغة العربية فيها محدودة ؛ ودروس الدين تعطى على سبيل البركة ؛ ولغة مدرسي العلوم الأخرى لا هي عربية ، ولا هي سريانية ؛ أما مدرسو اللغات الغربية ، فالويل للطلاب الذي ينطق عندهم بغير لغة الدرس ؛ وقد ينزل دارس اللغة العربية ، فيخاطب طلبته بالعامية ، ويناقشهم بالعامية ، فأما دارس اللغة العربية فلا يتساهل ، ولا ينزل .

زارني في إحدى مدارس الأوقاف الملكية ، المغمورة له صالح مجدى باشا المستشار ؛ فسألت عن حال اللغة العربية والدين في المدرسة ، فلم أجد لها ، وعظمت ذلك : بأن اللغة تزاحمها اللغات الأجنبية ، والعلوم التي لا يلتزم مدرسوها النطق الصحيح ؛ وبأن الدين يدرس إضافيا . فأجابني - أعذق الله عليه فيوض رحمته - بقوله : لا - يا أستاذ - ليس ما ذكرت هو السبب في ضعف اللغة والدين ، وإنما سببه ضعف الروح المعنوي في نفوس مدرسي اللغة والدين ؛ ولو أحلص المدرس لغته ودينه ، كما يخلص المبشر الأجنبي ، لوجد السبيل إلى تقويتها وضمها في النفوس مهدا ميسورا . إن الرغبة أساس الانتفاع العلمي ؛ وعلى حسن حيلة المدرس تتوقف وسائل الرغبة ؛ ولو أنني كنت مدرسا مكانك ، لالتزمت الأسلوب الصحيح ، ولقصرت التمثيل في دروس اللغة والدين والتاريخ وما إلى ذلك ، على القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولظفرت بنوجيه التلاميذ فوجيها عربيا دينيا من حيث لا يشعرون ، من غير استظهار بفتح ، ولا استعانة بقانون . فلم أحر - والله - جوابا ؛ ولا وقتت موقفا كنت فيه أضعف من ذلك الموقف !

بيد أنه مما لا يرتاب فيه ، أن التعليم أصبح آليا بحتا ، وأن الرغبة أصبحت تابعة للإيجاب والإلزام ، أو بعبارة أصح : قامت رهبة القانون فيه ، مقام الرغبة في التمثل النفسي ؛ ورائت ضرورات الحياة وقسوتها وتكاليفها على قلوب المدرسين ، فقامت حائلا صفيقا دون الإخلاص للمهمة ، الذي هو سبيل الافتنان في المرض ، والاحتياال في التلقين ، والتعاني في الوصول إلى تربية الملكات الكفيلة بالوصول إلى الغايات المتفاعة من العلم والتعليم ؛ فشكل تيسير يشترع في كل ما أوجب القانون ، مؤيدا - بلا حدال - إلى التحلل والتخفيف من بعض المبادئ حسب ؛ وليس معناه في نظر طالب اليوم ومدرس اليوم ، تحويل باب آلي من أبواب العلم ، إلى نحو عملي ، قد يكون أعسر البابين ، وأشق العملين . فلنلق الواجبات - إذأ - والرسوم ، إلى أن يخلص القلوب ، وترقى الفهوم ؟

## دراسة البحث القيمة مبنية على

### النقد وسيلة المبادلة

الاسلام دين جامع لكل المقومات الاجتماعية ؛ ومن أهم تلك المقومات انتظام الشؤون المالية ؛ وفي الفقه أبواب كثيرة تبحث في الثروة العامة وطرق توزيعها بين الأفراد ، وجبايتها لمصلحة الدولة ؛ فوإن كان كل ذلك لا يتوقف على التبسط في معرفة تاريخ التعامل بالمقد وبالأوراق المالية ؛ فإن الامام بحركة النقد ، وخاصة في هذا العهد ، مما يحتاج اليه المشتغل بالفقه الاسلامي حتى لا يكون أجنبيا عن حركات التعامل الاقتصادية . وللإسلام ناحية لا يجوز إغفالها من التعاون ، وهذا لا يمكن معالجته إلا بدراسة ما يتصل به من قريب وببعد من الشؤون . لهذا كله نرى أن البحوث الاقتصادية ليست ببعيدة الاتصال بالاسلام ، بل هي من أخص ما تجب العناية به ، ولنتكلم اليوم في النقود :

كان الناس في بدء حياتهم يعيشون على ما تنتجه أراضهم ، أو يستبدلون محصولات الآخرين بمحصولاتهم للحصول على ما ينقصهم من الحاجات .

ولما نما عددهم ، وظهرت لهم صعوبة المقايضة وتمقدها ، اضطروا الى اختيار شيء يلبسون اليه قيم السلع المختلفة ، واتفقوا على أكثر الأشياء بروجاً في مجتمعاتهم التجارية ، فاختاروا الأرض في اليابان ، والشاي في وسط آسيا ، وكنز الملح في أفريقيا الوسطى ، والفرو في الشمال من أوروبا . وأخيراً اهتموا الى المعادن النفيسة كالذهب والفضة والنحاس ، واستعملوها كوسيلة للمبادلة لما تمتاز به من صفات كيميائية وطبيعية حملت لها التفصيل على سائر السلع .

فالفضة والذهب غير قابلين للنفاس ولا الصدأ ، ويسهل حملهما مع كبر قيمتهما بالنسبة لوزنهما ، فإن متوسط ما يستطيع الإنسان أن يحمله فوق ظهره هو ٦٥ رطلاً ، وإن ٦٥ رطلاً من الفضة تساوي ٢٢٠ جنياً ، ومن الذهب ٧٠٠٠ جنيه . ومن مزاياهما دوامهما لمدد غير محدودة ، فلا تختلف قيمتهما من وقت لآخر . وعلاوة على ذلك فانهما لا يوجدان في الطبيعة بالكثرة التي تغير من قيمتهما .

كان الناس يستعملون ذينك المعدنين في معاملاتهم في العصور الأولى في شكل سبائك بدون دمجها ، وكان ذلك يترك لهم فرصة للسرقة والتلاعب في وزنها ، فصلاهما كان يلاقيه

التجار في كل صفقة من العنت الناتج عن وزن النسب المتفق عليها من المعدن ؛ وكلما زادت لديهم الصفقات واختلفت ، اتضح لهم صعوبة تلك الطريقة وعقمها .

ولما أصبح استخدام المعادن كوسيلة لتسهيل المبادلات عادة بين الناس ، اتفقوا على تحديد وزن عام من المعدن لكل نوع من السلع ضمنته الهيئة الحاكمة ، فانخذت بذلك المسألة النقدية صبغة رسمية ، وقسمت السبائك الى قطع صغيرة ، وأصبحت تعد بعد أن كانت توزن ؛ ثم تولت الحكومات المتمدة دفعها وضربها عملة ، وجعلتها مستديرة ولها شفرة ، وطبعت على أحد وجهيها رمزا للمملكة ، وعلى الوجه الآخر قيمتها الاسمية المحددة لها . ويقال إن أول من ضرب النقود ملك لبيديا في آسيا الصغرى حوالي سنة ٧٠٠ أو سنة ٦٥٠ قبل الميلاد . وتوجد مينة من نقوده في المتحف البريطاني ، وهي مصنوعة من خلوط من الذهب والفضة يسميه اليونان اليكترون ، وهي في شكل البيضة ، وعليها علامات

واستمر اهتمام أولى الأمر بمسألة النقد ، واحتفظت الحكومات لنفسها بحق ضربه ، واعتبرت قيام الأشخاص بذلك العمل جريمة تعاقب عليها أشد العقاب . ويرجع تاريخ هذا الاحتكار الى رغبة الأمراء والملوك في العصور الأولى في الاستئثار بالربح الناتج من سك النقود ، ولحرص الحكومات المتمدة في العصور الحالية على السهر لضمان وحدة مقياس المبادلة . والعملة لا تضرب من المعدن وهو نقي ، لأنه وهو في هذه الحالة لا يتحمل كثرة الاستعمال التي يقتضيها تداول النقود ، لذلك تضاف اليه نسبة مئوية من النحاس تحددتها الحكومة لتكسب الصلابة اللازمة .

وتقدمت المدنية ، وتطورت الصناعة والزراعة ، وتنوعت المنتجات ، واتسع نطاق المعاملات التجارية ، وتعددت الحاجات ، واختلفت قيم السلع ، وزم الحال أن يعمل نظام النقد عددا كافيا من قيم مختلفة من العملة تنفق ومطالب الحياة اليومية ، حتى إنه أصبح من المنعذر فصر العملة على الذهب أو الفضة ، لأن ذلك يقتضي أن تصبغ بعض القطع صغيرة ورقيقة جدا لدوجة تحمل من الصعب تداولها بين الناس ؛ لذلك استعملوا نقودا مساعدة من معادن أخرى ، كالنيكل والبرونز ، لتقوم بحاجة المبادلات الرخيصة .

وازدادت أهمية التجارة الدولية ، وهي تقوم على واردات وصاحرات من وإلى الخارج ، ولا تقل الدول في الدفع غنا لبضائهما غير الذهب أو الفضة ، لذلك احتفظت الحكومات والبيوت المالية بكميات كبيرة من المعدنين لاستخدامهما في سداد ديونها الناشئة عن التجارة والصناعة . ولما كانت النقود المساعدة من النيكل والبرونز لا تكفي كل حاجات المبادلة الداخلية ، ولا يرغب الناس في حمل كمية كبيرة منها لتقلها ، استعملت الحكومات في التعامل الاقليمي نقودا ورقية منحها صفتها النقدية بقوة القانون والاتفاق العام .

والنقود الورقية ليست جديدة في التداول ، فان ماركو بولو الرحالة الأوروبي الذي اشتهر



في القرن الرابع عشر، جاء بكية منها من الصين، ولكن لا يعرف بالتدقيق من الذي اخترعها. والنقود الورقية لا تستعمل إلا في البلد الذي يخضع للقانون الذي أوجدها وحدد قيمتها، على عكس النقود المعدنية فإن قيمتها واحدة في كل مكان، وبذلك يقبل تداولها في كل البلاد المنمذنة. هذا، ومن جهة أخرى فإن النقود الورقية ليست لها قيمة تجارية في ذاتها، لأنها تقوم على إدارة المشرع، ولذلك فإن القانون الذي خلقها يمكنه أن يسطرها، وإذا أبطلت فلا يبقى في يد صاحبها إلا قطعة ورق لا قيمة لها، على عكس النقود المعدنية، فإن لها قيمة ذاتية تجارية، فإذا أُنزل القانون اعتبار المعدن كنقد، فإن مالك العملة لا يفقد كل شيء، بل تبقى في يده قيمة النقد المعدنية.

ولما كان الغرض من النقود هو تبسيط مسائل المبادلة، فإن الناس دائماً يفضلون أسهل وسيلة لإدراك هذه الغاية، لذلك أقبلوا على النقود الورقية لأنها أخف وأيسر في الحل من النقود المعدنية. ثم تطور نظام التعامل بالورق النقدي واخترعت الشيكات، وهي عبارة عن أوامر بالدفع يأمر بها صاحب البنك، ويسمى المسحوب عليه، بأن يدفع إلى وتحت إذن أي شخص، وهو المسحوب له، مبلغاً من المال هو قيمة الشيك. وكان ذلك نتيجة لانتشار نظام البنوك واحتفاظ رجال الأعمال والمنتجين وكبار التجار والملاك برصد كبيرة من أموالهم في البنوك. فإذا اشترى أحدهم من الآخر بضاعة فبدل أن ينقده بمخاضها، وهذا يقتضى ضياع وقت ومصاريف في عد النقود وفرزها ونقلها وتسليمها، فإن المدين (المشتري) يعطى الدائن (البائع) شيكاً على البنك تحت إذنه، أي يترك له حرية تحويل الشيك لمن يريد، فانه بذلك يستطيع تسديد دين عليه لآخر، وهذا يمكنه تحويله لدائن له، وهكذا ينتقل الشيك من يد إلى أخرى، وهو يمثل مبلغاً من المال مرقوماً على وجهه ومحمولاً في البنك، فإذا انتهى الأمر إلى دائن أو بائع وراد سحب قيمته، فانه يرسله إلى البنك الذي يقوم فوراً بالسداد. وانتشرت طريقة التعامل بالشيكات في البلاد التجارية، وخصوصاً إنجلترا، على عكس ما يتم في الفرد ويسمى إليه من الإكثار من حيازة النقود لتتسع ثروته، فإن الأمة في مجموعها لا ينبغي لها أن تزيد كمية النقود عن القدر اللازم لحاجة التداول التجاري الذي يتوقف لديها على مقدرتها الإنتاجية وثروتها الزراعية والمعدنية، لأنها لو زادت عن هذا القدر فإن قيمتها تنخفض، وترتفع في مقابل ذلك قيم السلع المعروضة للبيع بالنسبة لها، وبذلك ترتفع أسعارها. ويقلب حدوث هذه الظاهرة في زمن الحرب حيث تكون الحكومات في حاجة إلى النقود لتدفع بها أثمان الأدوات والمهام الحربية، فتحفظ بما لديها من المعادن النفيسة لشراء الذخائر والأسلحة من الدول الأجنبية التي لا تقبل ثمنها لهذه الأشياء غير الذهب أو الفضة، فتلجأ إلى وسيلة إصدار الأوراق المالية دون أن يقابلها رصيد من الذهب، وإنما

تكتسب صفة النقد بقوة القانون ، وتستعملها الحكومة في دفع المأيا والمربيات وسداد ديونها الداخلية ، وتقرض التعامل بها في المبادلات المحلية . وكلما استغندت الحكومة جزءاً من المعادن النفيسة في تجارتها وديونها الخارجية وأرادت سحب ما يوجد في السوق الداخلية من نقود معدنية ، فإنها تزيد كمية هذه الأوراق النقدية ؛ وبذلك ترتفع الأسعار ، ويقال عندئذ إن النقود في حالة تضخم ؛ وهذا إذا استمر فإنه يؤثر في حالة البلد الاقتصادية ، ويوصم بمعنتها المالية بالاختلال ، فتسمى رهوس الأموال الأجنبية التي تستثمر فيه إلى الفرار ، ورهوس الأموال الوطنية إلى الانكماش ، وبذلك تضخم مقدراته الإنتاجية ، ويكون مهدداً بالفقر والاضمحلال ، كما كانت حالة ألمانيا بعد الحرب العظيم .

ولقد حاولت روسيا البلشفية في ذلك الوقت أن تقضى على النقد ، وذلك بالمبالغة في إصدار النقود الورقية حتى تفقد النقود المعدنية قيمتها ، وتضيع ثقة الناس بها ، ويعنادوا التعامل بالورق ، فذا تم لهم ذلك يستبدلون التذاكر النقدية ذات الكوبونات بالنقود الورقية ، وكل فرد يأخذ تذكرة دورية بها كوبونات بمقدار ما تحدده له الدولة من اللبن واللحم والخبز والسكر والنقود والملابس والأساس والكتب والخور والملاهي وغيرها من الحاجات اليومية ، ويمكنه استبدال هذه الكوبونات بما تساويه في المخازن العمومية ؛ وحددت الكمية من كل صنف من هذه الأشياء تبعاً لقوة الفرد العملية ومقدرته الإنتاجية وحاجته المعيشية . ولكن المخازن العمومية لم يكن بها من البضائع ما يكفي هذه الطلبات ، ولذلك كان الناس يفتككون من نص القانون ويتعاملون سرا بنظام البيع والشراء القديم ؛ فسكانوا يفضلون أن يبيعوا أو يشتروا سلهم بالنقد ، ولذلك استمرت للنقود في تلك البيئة قيمة تبادلية ؛ فلما أعلنت الحرب الحالية بدءوا يستعملون تلك التذاكر على نطاق أوسع في ألمانيا وروسيا .

وكانت قد جرت الحكومات على سة تقضى بالاحتفاظ برصيد كبير من الذهب تجعله الدعامة التي يرتكز عليها نقدها ، وكان أكثر ما تجمع من هذا الذهب لدى الدول الرأسمالية ، لذلك قامت الدول حديثة العهد بالصناعة تحرم تصدير النقود ، وتسمى من جهة أخرى لتفجيع صادراتها ، وتخفيض وارداتها ، لتجذب إليها مقدارا من هذا الذهب ، وأصبحت كل دولة وهي ترضن بذهبها ونقودها تتبادل حاصلات ومنتجات في مقابل حاصلات ومنتجات أخرى ، وبذلك عادوا إلى طريقة المقايضة ، ولكن على أساس التقدير النقدي ؛ وحددت ذلك كمية التجارة الدولية ، واجتهدت كل دولة أن تكون نفسها بوسائلها الخاصة ، وفرضت القيود الجبركية الشديدة ، وغلبت على المبادلات التجارية الروح الحربية ، وكانت النتيجة تخرج العلاقات التجارية بين الدول ، كما نرى ذلك في السنين الأخيرة .

## أساليب التربية والمنطق

في دعوة إبراهيم عليه السلام

كان إبراهيم عليه السلام ، أوفر الأنبياء حظاً من عناية القرآن الكريم ، والتحدث عنه ، في غير ما موضع ؛ وقد يرجع ذلك الى أنه أبو الأنبياء ، وأنه صادقه من المحن والشدائد ، ما كان غريباً في التاريخ ، وهجياً في الحسودات ، وأن حياته كانت مزيجاً من حل وتراحل ، واضطراب نفس ، وقلق وجداني ؛ ولم يكن ذلك الاضطراب ، وهذا القلق ، فيما يختص بسير الدعوة غصب ، واسكنه كان مزيجاً من أساليب الدعوة ، ومن هؤلاء الذين كان يوجه إليهم وحى الله ، وكلمة السماء ، ونداء الحق .

وفي الحديث عنه غذاء خصب ، لمن يتطلب اتقاناً من أساليب التربية الحديثة ، وفنونا من جدل المنطق ، وعراك الفلسفة ؛ فإذا كان أسانذة التربية اليوم يدعون أنهم يدرسون شيئاً جديداً ، أو يتقدمون الى الناس بطرق لا عهد لهم بها من قبل ، فإن القرآن الكريم يتحدثنا أن ذلك لم يكن جديداً على الإنسانية ، ولا حدثاً من أحداث القرن العشرين !

ظهر إبراهيم عليه السلام في « بابل » ، حيث الوثنية ضاربة أطنابها ، والجهل غيم على العقول ، فلا يعرفون عن الآله إلا أنه هذا الحجر الذي ينحتونه فيمبدونه ، ولا يعرفون من العبادة إلا أنها تلك الطرق والرسوم التي يقومون بها بين يدي هذه الأصنام ، كل ذلك وإبراهيم يفكر في نفسه ، أن ذلك ضلال قديم ، وعبت بعقول البشرية ، وأنه لابد من النور عليه والعمل على هدمه ، الى تدبير خطة حكيمة ، ورسم طريقة مثلى !

بدأ مآبيه ، ولكن أى سبيل يملك الى إقصاءه ، وأى وسيلة يتخذها الى هدايته ؟ لجأ الى الموعدة الحسنة التي لا تمحى في أدب النبوة :

« يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يحسبك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . فوقع قوله أسوأ موقع من قلب أبيه ، ورد عليه رداً تتمثل فيه عزة الأبوة ، وسلطان العقيدة :

« أرأيت أنت من آلهم يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرحمك وأهجرني ملياً » . فلم يسع إبراهيم إزاء هذا الرفض المؤيس إلا أن يستثير كل ما لديه من عطف الابن البار ، على أبيه المتعاضى في الضلال ، فلم يزد على أن قال له : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حقيقاً » .

هي في الواقع دعوة جريئة من إبراهيم عليه السلام . يحارب آياه في رزقه ، وقد كان ينعت الأصنام ليديها ، ثم هو مع ذلك يحارب في عقيدته ، وهل يكفي أن دما هذه الدعوة في عمر بيته ، وهو مكلف بأن يذهب إليها جميع قومه ؟ فإذا فعل ؟ خرج إلى قومه ، وصادف أن كان ذلك اليوم عيداً لهم ، يتغفلون في باطن الصحراء ، ويفسون عن سبب المدينة وضواحيها ، قالوا له : تخرج معنا إلى المعبود إبراهيم ؟ فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم . فتولوا عنه مديري . ولم يكن به سقم ، ولكنها وسيلة لعمل خطير انتهى أن يقوم به ليدل على فساد الوثنية بدليل محسوس . فقال في نفسه : أحطم هذه الأصنام ، فإذا ما رحعوا إليها وجدوها أجناداً إلا كبيراً لهم ، لهم يذبحون أنفسهم : كيف ساغ لهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيذا ؟ فلما رحعوا ووجدوا ما وجدوا ، اشتدت حيرتهم ، واستولى عليهم الغضب ، وأخذوا يتساءلون : من ترى هذا الذي يجرؤ على أن ينالنا في عقيدتنا ، ويتهم على آلهتنا ، ويمتدئ على معبوداتنا ؟ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ! قالوا معناه فتي يذكركم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألهم إن كانوا ينطقون .

ما أحسن الحجة تقريع الجود ، والبرهان يصدم الضلالة ، والمنطق يتهاقت أمامه الخطل ! ذلك هو الغلب من غير جيش جرار ، أوسيف يتار : « بل تقذف بالحق على الباطل فيد مفعه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » . شعروا بالهزيمة ، وأحسوا الضعف « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنا لكم الظالمون . ثم تكبروا على رؤسهم ، ولكنهم لا بد أن يتسلخوا في المنطق ، ويرتبكوا في الجدل ، فقالوا لإبراهيم « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، وما دروا أنهم بذلك يناقضون أنفسهم ، وقيمون الدليل على صمغ حجتهم ، وخرج موقفهم ! قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفتر لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » .

هنا موقفان عجيبان : إبراهيم يتسلح بالمنطق والبرهان ، وهم يتسلحون بالتقليد الأعمى ، يسكاد كل منهم يذعن ، وقد وضع الصبح لدى عينين ، إلا أن هنالك شيئاً آخر ، هو التقليد الموروث ، وهو لا يخضع للمنطق ، ولا يتزل على حكم برهان ..

أخذوا يتهاسون : هل هنالك من مخلص ؟ فلم يجدوا إلا أن قالوا « وجدنا آياه ما لها ما هدين » . وكأن الوراثة دين آخر . ثم أذكركم ما يدرك المبطل المذموم : « قالوا حرّفوه وانصروا آلهتهم إن كنتم فاعلين » . فجمعوا الخطب الجزل ، وأنجوه حتى صار كالجحيم ، وألقوا بإبراهيم بين أحضان تلك النار ، فلما خبا أوارها ، وسكن شرارها ، وجدوه حياً ، لم ينله أذى ، وهي

آية تكفى أن يجعل أعناقهم لها خاضعين ، ولكن أدرك كبيرهم النمرود ، داء الجأيرة الأولين ، فأمر بالقبض على إبراهيم ، وأخذ بحاجة في ربه أن آتاه الله الملك « إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت » فأجابه النمرود : « أنا أحى وأميت » قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر . »

حجة بالغة ، ولكن أين القلب الذي يستضيء بها ، ويرجع عن غيه بنائيرها ؟ وحينئذ رأى من حصافة العقل ، ورجاحة التمييز ، أن ينتزل الى مستوهم ، ويسير معهم ، على الطريقة التي ينسبونها « لسقراط » طريقة خلو الذهن ، وتجاهل الماروف :

« فلما تجن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أقبل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بارقا ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهتدي ربي لأكون من القوم الصالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاشا قومهم ، قال أتستأجرونني في الله وقد هدانا ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . »

هذا هو إبراهيم شيخ الأنبياء ، وهذا هو الرجل الذي اعتمد على المسطق والقطرة السليمة ، والذي استعمل في دعوته أساليب التربية الحديثة ، من الاستقراء ، والاستنباط ، والتمثيل بالبدهي المحسوس ، لتثبت دعواه ، من طريق العلم والعمل ، فيطمئن قلب من يدعوه ، إن كان الله يريد أن يهديه للإيمان . وهذا هو إبراهيم الذي بلغ من عظمته أن تنازعت له الأمم قديما وحديثا ، فرد الله عليهم ذلك كله : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » .

إبراهيم على إبراهيم

المدرس بمعهد القاهرة

## التشريع الاسلامي وأثره في الأمم

ليس بين الشرائع الوضعية منذ تواضع الناس عليها قانون يكفل بقائه وديمومته بين الناس واجب التطبيق مطرد النفاذ، وذلك بدهى النبوت . فإن قانوناً تمس إليه حاجة فريق من البشر، وتستتبعه حالات معينة خفرت إليها ملائسات مجتمع بعينه ، وقصت بها ضرورة مؤكدة ، لا يمكن أن يكون أبدى البقاء ولا سرمدى الدوام ، فلكل أمة بل لكل جيل تقاليد ومراسيمه ، وعلى قدر تلك التقاليد يكون سير تلك الأمة ، وعلى هديها يجرى سننها وتطبق أحكامها فيما يتصل بها من معاملات ، سواء أكانت تلك المعاملات بين العباد بعضهم مع بعض ، أو بين العباد وخالقهم ؛ والقوانين أخلاق وعادات .

لكن التشريع الاسلامي دين خالد على وجه الزمن ، لا يتطرق إليه تعديل ولا تحول ، لأنه وضع مسابراً لمراقى الناس جميعاً ، مرعياً فيه كل حالة تنصل بنظام الفرد والجماعة والأمة ، ويحكم نوماً من التعاون في بناء هذا المجتمع ، يصل الحاضر بالمضى والمستقبل ، ويؤلف بين أجزاء هذا المجتمع ، ويجمع بين شتات كل ما يتصل بالأخلاق والمعاملات العامة والنوعية والفردية ، فهو يقيم المجتمع كله على أسس صالحة ، ويقدر لكل حالة قوامها ولبوسها ، ويدعو الناس الى ممارسة الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإلى العقائد المعتقدة بالحجة القارعة والأدلة الدامغة .

فبينما تدعو الناس الشريعة المطهرة الى تذكيرهم بعالم الجزاء ، وأن هناك ميزاناً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فلا يستغل الأقوياء ضعف الضعفاء ، فيستلطفوا عليهم ، يفسدونهم أموالهم ، ويسلبونهم أمنهم وطمانيتهم ، ويأخذون عليهم سبيل الاستمتاع بما أحل الله لهم من طيبات :

أخرج مسلم والترمذي في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت أن رجلاً جاء الى يأخذ مالى ؟ فقال : لا تعطه ، فقال : أرأيت لو أنه قاتلنى ؟ قال : قاتله ، فقال : أرأيت لو أنه قتلنى ؟ فقال : قاتلنى ؟ فأنت شهيد . قال : أرأيت لو أتى قتلته ؟ قال فهو في النار .

بينما تدعو الناس الى هذا إذا بها تدهوم الى التراحم والتآزر ، وقيام أواصر الاسلام ووشائج الدين بين المسلمين مقام روابط الانساب والارحام ، فلا يظلم بعضهم بعضاً ، ولا يجوز الكبير على حق الصغير :

أخرج الترمذي وأبو داود في صحيحيهما « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أندرون

من المفلس ؟ قالوا : يا رسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال - إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسلبك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الحقوق أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في نار جهنم »  
وبينما توصي الناس برعاية أحكام المجتمع ، فتشرع لهم شرعة يتوارثونها خلفاً عن سلف في أحكام دنياهم ، إذا بها تدعوم إلى مراقبه الله ورعايته ، فإنهم قادمون على يوم لا ينفع فيه نسب ولا نسب ، يوم تجحد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

أوصت الشريعة الاسلامية في دار الابتلاء برعاية حدود المعاملات ، تلك الحدود التي أقامها الشارع بين الناس اتقاء الطغيان والخور ، والطمع وسوء الخلق ، واعنداء الأقوياء على الضعفاء ، فشرع فيما شرع من المعاملات : باب البيع والسلم والاجارة والقراض والوقف والهبة والوصية والعارية .

ثم أبار أن للانسان شهوات جامحة وزمات طامعة ، فغذره من التردى في حفائر الرذيلة والسقوط في مهوى العار والخمرى ، فشرع اجتساب الميسر والربا والزنا والسرقة وقطع الطريق على الآمنين والجر ومعاقرتها والقذف في أعراض الناس والجناية على النفس وعلى ما دون النفس .  
ثم ركز الاخلاق على أسس من الخير متينة ، وأصول من السعادة الابدية حصينة ، فأفاض في الغاية من الدعوة الاسلامية ، وبلغ الناس على السنة الرسل والانبياء ما أسجد العقول السليمة ، وأوزع النفوس الكريمة بما يصر هذا المجتمع ويشع فيه من رحمة وطمأنينة وعدالة شاملة .

لقد جمعت تلك الشريعة السمحة بين أحكام المعاش والمعاد ، فغزت الناس إلى طلب المعاش برفق وهوادة ، وبصرتهم بماقبة ما يجنى الخويع من حرصه ، والطامع من طمعه ، والشحيح من شحه ، والباغى من بغيه ، ثم نصبت لهم الحدود والمعالم ، وقالت : « من يعمل سوءا يجز به » ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، ثم نوهت بجزاء المحسنين في دار الجزاء والثوبة ، فقال جل ثناؤه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

فهل رأيت أبلغ قصداً ، ولا أقوم حجة ، ولا أهدي سبيلاً ، من تلك النظريات العامة الخالدة التي بعثها الله على السنة رسله وأنبيائه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؟

هبلنس ط

# معرض لأراء المجتهدين في الإسلام والمسلمين

تشهد جريدة المونيتور بأن الأصول الإسلامية تعترف غاية في السمو ،  
وأن الإسلام وهب المرأة حقوقاً لا تتمتع بمثلها المرأة الفرنسية

بعد أن زال التعصب الأعمى الذي كان يحمل أهل الملل على تيهت بعضهم أديان بعض (١) ،  
واستقام العقل على صحت النقد الحر التزيم ، عند النخبة المتعلمة من الأمم ، بدأ مفكرو الغرب  
يفكرون آراءهم القديمة في الإسلام ورسوله وكتابه ، واعترفوا بأنهم صلبوا في الحكم عليه  
تضليلاً معيماً ، حتى أن أحد هؤلاء النخبة وهو الكونت هنري دو كاستري مؤلف كتاب  
( دراسات في الإسلام وتراثات ) أتى على عشرات من أقوال المؤرخين السابقين في الإسلام  
ورسوله وكتابه ، تدل على مبلغ ما كان يستولى على أولئك المؤلفين من روح التعصب القديم ،  
والحققت المتأجيج في الصدور .

كان قبح المسلمين كافة يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن الإسلام دين بشري صرف منزل  
عن العقليّة العربية ، وأنه قائم على المبادئ الجاهلية ، غرضه الأول الغزو وتدويج البلاد (٢)  
للحصول على المغنم سداً لنهمة الفاتحين ، وأنه لم ينفذ الإنسانية بشيء غير نشر الدمر في بقاع  
عظيمة من الأرض ، حطم عمرانها ، وأباد خضراءها ، وكان شراً عليها من كل شر أصابها ،  
وأن واجب الأمم التي لم تبل به أن تنال على تخليص البشرية من ويلاته

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون الدين قالوا هذا القول هم الذين يرون الإسلام  
من جميع هذه التهم ، ويقررون عليها أنه أسمى مظهر للمعاطفة الدينية ، وأن أصوله ومبادئه  
تعترف مئلاً علياً للإنسانية في تمهيتها نحو كمالها المشهود ، وأنه آخى بين العقل والدين ، ووفق  
بين العلم والإيمان ، مما قلنا كثيراً منه نقلاً عن الأستاذ الكبير الكسندر درير المدرس  
بجامعة نيويورك في كتابه ( المنازعة بين العلم والدين ) ، كما قلنا مثل ذلك عن كبار الفلاسفة  
والمؤرخين : حييون وكارلايل الانجليزيين ، وسديو ولاسرتين وجوستاف لوبون ودروبي

(١) يقال بيته بيته بيتا وبيتا : أي فقهه بالباطل وافترى عليه الكتب وهو من باب قطع .

(٢) يقال دوج البلاد ودجتها : قهرها واستولى على أهلها .



الفرنسيين وغيرهم من أجناس أخرى ، في تعداد أسماهم تطويل لا موجب له . وقد شاع فضل الاسلام على الأمم التي أخذت به ، وعلى الإنسانية بأسرها ، بما أحدثه من انقلابات خطيرة في الاجتماع والعلم والسياسة والديانة ، حتى صارت الجرائد والمجلات على اختلاف لغاتها تردده ، وبعضها يكتب فيه البحوث الطوال حتى ما لا يصل الى المسلمين منها ، خدمة للعلم ، وتقويها للآراء في أمر جلل كهذا ، اعتبر قرونا كثيرة على خلاف ما هو عليه في الواقع .

من هذه البحوث التي تكتب في أوروبا لأهلها لا لفرض آخر ، ما نشرته جريدة ( الموبينور ) الفرنسية . فذكرت القرآن وقالت عنه : إنه كتاب ديني على شاكله التوراة ، واعترفت بأنه كتاب لدين من أكبر الأديان البشرية ، وقررت أن صدوره من بلاد العرب التي لا يعرف أهلها غير قيادة الإبل يعتبر آية عظيمة .

ثم أخذت تعترف الأصول والمبادئ التي نشرها القرآن ، وكان مما قالته :

« القضاء والقدر على ما هو مقرر عنهما في القرآن ، يقصد منهما وحبوب الخوض لمقررات الخالدة للنعمة الإلهية . ولكننا إن تقيعنا الأصول الاسلامية على الأسلوب الحرفي يتبين لنا أنهما لا يميان مذهب الجبر في هذا الدين . فالقول بتدخل الإرادة الإلهية في جميع أعمال الانسان ليس إلا وهماً أريد به تشويه وجه هذه العقيدة الاولى ( كذا ) .

« أما الأصول الأدبية الواردة في القرآن فكثيرة ، وتكشف عن سمو عقل عظيم ، ولنا نذكر إلا قليلاً منها على سبيل المثال كحب الغير ، وعمل البر ، واحترام الذات ، والوفاء بالوعد ، والتسامح حيال أهل الكتاب أي لليهود والنصارى .

« وقد أوجد الاسلام إصلاحاً عظيماً في حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية . وما يجب التنويه به والإشادة بذكره ، أن الحقوق الشرعية التي منحها الاسلام للمرأة تفوق كثيراً الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية .

« أما تعدد الزوجات الذي أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه ، ولا يزال يأخذ في النقص لدى المسلمين ، فيجب علينا أن نلفت الأنظار الى شرط قرآني خاص بالزواج يحمله الناس على وحه عام ، وهو يسمح للمثل المرأة أن يشترط على الزوج عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته في حل من أمرها »

( مجلة الأزهر ) افرق بين لهجة المؤلفين والعكبات السابقين ، وبين لهجة المؤلفين والكتاب المعاصرين في الاسلام ، عظيم كما يراه القارئون . والفصل في ذلك لسقوط دولة الأتراك التي كان يروجها متحمسة الدينين في القرون الفارة ، حتى إن من هذه الكتابات المطاعة عن الاسلام ما لا يستطيع أن يزيد عليه المسلمون أنفسهم شيئاً . وكثير مما نستشهد به الآن من سمو الأصول الاسلامية وآثارها العلمية والعمارة في العالم ، قد استفدناه من

بحوث كبار مؤرخيهم وفلاسفتهم . فقد درسوا تاريخ العلوم والصنائع والفنون ، ووقفوا على أدوار نشوتها وتطوراتها ، ووجدوا أن كثيرا منها قد اكتشفه المسلمون أو هذبوه وجعلوه صالحا لأن يستفاد منه في تحسين وسائل الحياة ، فنبهوا إلى أن مصدر ذلك المسلمون إبان نهضتهم الأولى ، فتألف من ذلك منخور من المجد ليس لامة مثله في نظر المنصفين ، بل قالوا لولا أن المسلمين تولوا حفظ علوم الأولين بعد أن ترجوها إلى لغتهم ، وتولوها بالترقية والتهذيب ، وسندوها بعلوم جديدة من مكتشفاتهم ، لبادت تلك المعارف القيمة ، ووقع العالم في ظلام بهم ، لأن مصادر تلك المعارف كانت مختزنة في دور كتب عتيقة ، وفي حالة إهمال مطلق ، ترتع فيها الحشرات والحوام ، وتلبث بها الأيدي تأخذ صحتها للاستعمالات المنزلية ، كأنها أوراق مهمة لا تصلح إلا للحرق .

فجدد المسلمين من هذه الناحية لا يحاكيه مجد لامة من أمم الأرض ، وقد اعترف بذلك مؤرخو الأمم غير الاسلامية كما قدمنا . وها نحن من هذه المقالة في حريدة يومية إزاء تبرئة الاسلام من تهمة كانت ملصقة بالاسلام ، ومعتبرة عنصرا من عناصر كيانه الأدبي ، كسألي القضاء والقدر ، والمرأة والأصول القرآنية . فقد كان الكتاب السابقون يقولون إن الأصول القرآنية ساذجة لا تصلح إلا للشعوب المنحطة ، وإنها تدعو إلى التعصب الدميم وسفك الدماء البريئة ، وتحرض على الهب والسلب . وكتاب اليوم يقولون كما تقول جريدة الموفيتور إنها أصول غاية في السمو ، والفرق لا يقدر بين غاية السمو وبين السذاجة والدعوة إلى الجرائم .

وكانوا يقررون أن الاسلام يقول بانحطاط المرأة ، وأننها أسيرة في يد الرجل لتجردها عن الحقوق ، حتى بالغ بعضهم فقالوا إن الاسلام يعلم دويه بأن المرأة لا روح لها ، وأنها لا تراث الحياة الآخرة . وقد ثبت المسلم أنهم هم الذين كانوا يعاملون النساء هذه المعاملة ، فكانوا يجرمون عليهن الضحك والكلام ، ويضمون على أنفسواهن الإقتال . واليوم يقول كتابهم إن الحقوق المدنية التي منحها الاسلام للمرأة تفوق ما تتمتع به المرأة الفرنسية . ولا يخفالك أن المرأة الفرنسية في مقدمة نساء الأرض حرية وثقافة . وحشية أن ينوم قارى أننا نبالغ في القول ، نقل له النص الفرنسي لهذه العبارة ، وهي :

Il est à remarquer que la femme musulmane a, de nos jours, une capacité juridique beaucoup plus développée que celle attribuée à la femme française .

ليست هذه مبالغة من الكتاب النبيل ولكنها الحق الصراح ، وصدوره من رجال الصحف الكبرى في أرقى الأمم مدنية ، أمر جلال يوجب التأمل والتفكير .

نظر إلى مسألة القضاء والقدر في الاسلام ، وإلى تبرئة محرر جريدة الموفيتور له من تهمة الثقل بالجبر ، فقد اعتمد في دفاعه على أن القول بتدخل العناية الإلهية في كل صغيرة من

صغريات الأعمال الانسانية من الاوهام التي قصد بها تشويه حقيقة هذه العقيدة الاولى ، وكان أولى به أنه يقول : إنه مع اعتقاد المسلمين أنه لا يقع شيء في السموات والأرض إلا بإرادة الله وتقديره ، فانهم لم يقولوا بذهب الجبر ، إلا طائفة صغيرة منهم ، وذلك لأنه مع هذه العقيدة أمرهم دينهم بالعمل وترك الاحتجاج بالقضاء والقدر . وقد عاب القرآن على المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وعد ذلك جهلا منهم .

فليس بين قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وبين قوله : « وقولوا » فليس بين الله مملكم ورسوله ، تناقض قط . فإذا لاح لك أن تعمل عملا فإنا الذي يمر بك بأن الله يشاء أولم يشأ أن يعمل ؟ إنك في حالة الهم بعمل شيء تتيقظ فيك بواعث من ضروب شتى تحرضك على أدائه ، ولا تجد في نفسك ميلا الى العجز : هل يشاء الله أن تفعله أم لم يشأ أن تفعله . وإذا رأيت أنك غير مرهبد لعمله ، لبثت حيث أنت ولم تحرك في سبيل محاولته ما كسا . على هذه الحال جرى الناس في حياتهم الشخصية والاجتماعية ويجرون ، لا فرق بين الذين يقولون منهم بالجبر ومن لا يقولون به ، ولم تر إنسانا أوى الى كسر داره ، وترك كل عمل اعتادا على أنه مجبر على ما يفعل ، وكان أثر ذلك عليه أن يقتصر عن مساواة غيره باسم الدين ، وإن وقع مثل هذا الأمر لأحد وسئل أي آية من الكتاب تأمرك أن تعمل بنفسك هذا الذي تفعله ؟ لم يجز جوابا . فالقرآن الكريم كله حض على العمل وطلب الرزق ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس فيه آية واحدة تحض على الجود والتراخي .

وإنما كان يصح أن يكون هناك تناقض إن كان أمر الكتاب شخصا بعينه أن يعمل عملا على حين أن الله قد قضى عليه بأن لا يعمل ، ولكن الكتاب يخاطب العالم كله جملة ، وفيهم من وفقه للعمل ومن قضى عليه بالنكول عنه . فإن كان الكتاب ينص على أن لا إرادة مع إرادة الخالق ، فإنما هو يقرر حقيقة أولية ، وهي أنه لا يقع في ملكه إلا ما قدره وقضاه ، حتى سقوط ورقة جافة على الغبراء ، أو تحرك ذرة من ذرات الهواء .

ومن عجب أن كثيرا ممن كتبوا من الأوروبيين عن المسلمين في العهد الأخير ، عزوا تقصير أكثر الشعوب الاسلامية عن اللحاق بالأمم الراقية الى عقيدتهم في القضاء والقدر . فإن صح ما قالوه فم يملكون سرعة نهوض المسلمين في صدر الاسلام ، وما بذلوه من الجهود الجبارة في إقامة دولتهم ، ومكافحة أعدائهم ، وتعمير بلادهم ، ورفع مدار العلم ، ونشر مدنية فاضلة يتحدث عنها المؤرخون ، ويمجدون فيها كل يوم جديدا يعجبون به ويستولون بحب الناس منه ؟ هم يملكون هذه الحركات السريعة ، والأعمال المتواصلة ، والمجاهرات التي تكاد لا تقبل ، حتى قيل إن كريستوف كولومب مكتشف أمريكا وجد للمسلمين آثارا في الدنيا الجديدة ؟

محمد فريد وجدي

## جمعية منع المسكرات

تحت رعاية حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

تقرير من المؤتمر الدولي الثاني والعشرين المنعقد في فنلندا سنة ١٩٣٩

عقد مؤتمر دولي في عاصمة هولاندة لمنع المسكرات شهده ٦٨٩ عضوا يمثلون ثلاثا وعشرين دولة ، وكان مندوب مصر في هذا المؤتمر الأستاذ الجليل أحمد غلوش الذي قام بمهمته خير قيام استوجب إعجاب المؤتمرين وتقديرهم .

في اليوم الثالث للمؤتمر دعي مندوب مصر لينكم في مساهمة الدولة المصرية رسميا في مكافحات المسكرات ، فنهض الأستاذ غلوش ، وأبان عن اهتمام الحكومة المصرية بهذا الامر وإزماعها وضع تشريع يمنع حدا لاضرارها ، وكان من ذلك حصر سلطة الترخيص بفتح طانات في الأحياء الوطنية في يد وزارة الداخلية ، فترتب على ذلك أن نقص عدد المحال التي تبيع الخمر من ٧٣٦ سنة ١٩٠٤ الى ٤٨٩ سنة ١٩١٧ ، وذلك رغما عن زيادة عدد السكان .

وشفع هذا بذكر اهتمام وزارة الصحة بهذا الامر أيضا صيانة للصحة العمومية . وهي على وشك استصدار قانون يمنع بيعها بعد الساعة العاشرة ، وتحريم تقديمها لمن تقل أسنانهم عن التاسعة عشرة ، وهي تقوم بمنع بيع الخمر المغشوشة ، وبمحاكمة بائعيها ، وعدم الدشر عنها في الصحف وعلى جدران الدور ثم ذكر أن وزارة الدفاع ووزارة المالية ورجال الدين والجامع الأزهر تحت زعامة الأستاذ الامام يعاونون من جانبهم على محق هذه الآفة . وختم خطبته بذكر المثل الأعلى الذي يصريه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، بمنع القصر الملكي من تقديم الخمر في الحفلات .

ثم دعت لجنة نشر الدعوة الدينية في العالم حضرة الأستاذ غلوش ليلقي كلمة في الخمر من الوجهة الاسلامية ، فلقى الدعوة ، وأفاض في ذلك بما كشف من حكمة الاسلام ، وحلى عن قوة أصوله وسلامة مبادئه

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر ، تكلم مندوب مصر الأستاذ غلوش ، فشكر الشعب الفنلندي والحكومة الفنلندية باسم الشعب المصري والحكومة المصرية ، على ما لقيه من حسن الضيافة والترحيب .

ومما حصل عليه الأستاذ غلوش مما يوجب الفخر لمصر أنه كان واحداً من خمسة رجال رشحوا لينوبوا عن رئيس المؤتمر في جلساته المتوالية .

ثم حتم المؤتمر أعماله بإصدار قرار بأن يكون مكان انعقاد المؤتمر التالي سنة ١٩٤١ في فرنسا .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا أيضاً بالمذكرة التي قدمها حضرة الأستاذ أحمد غلوش إلى حضرات شيوخ الأمة ونوابها في شأن المشروع المقدم من الحكومة بتعديل لائحة المجال العمومية ومكافحة الحشور ، فقد ألقى بها نوراً على كثير من مواطني البحث تخدم هذا الموضوع خدمة جليلة . فنشكر لحضرة الأستاذ أحمد غلوش ، كل الله جهودته بالنجاح ، وأثابه على هذه الخدمة بما يناسب عباده المجاهدين .

### أوائل الشهور العربية :

هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكي ؟ .

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر رسالة بهذا الاسم طبع فيها مسألتين : هل يجوز الأخذ بأقوال الفلكيين في إثبات أوائل الشهور العربية ؟ وهل يجوز توحيد أوائل هذه الشهور لجميع بلاد المسلمين . فسلك في الإجابة على هذين السؤالين مسلك الباحث الضليع في الحديث والفقه ، وكان من جوابه على المسألة الأولى : يجب الأخذ بأقوال الفلكيين وعدم الاعتماد بشهادة الرؤية ، لما في الأولى من القطع ، ولما يطرئ على الثانية من الخطأ والكذب .

وأجاب عن الثانية : بأن يجوز توحيد أوائل الشهور العربية لجميع الأمم الإسلامية ، واتخاذ موافقت مكة موافقت لبلاد المسلمين كافة بصرف النظر عن اختلاف المطالع .

وإننا نوافق على رأي الأستاذ في وجوب الاعتماد بالتقريرات الفلكية ، لا سيما وقد ذهب إليه أئمة من المتقدمين . وأما رأيه الثاني فنكتفي بعرضه على حضرات رجال الدين راجين أن يوافقونا برأيهم فيه . ومن واجبتنا في هذا المقام أن نشيد بأهمية الأستاذ أحمد شاكر ، وأن ننوه بزرعته للتجديدية ، أكثر الله من أمثاله الفيورين على الدين .

### أقدم جامعة إسلامية في العالم :

وضع سعادة محمد خالد حسنين بك رئيس مفتي العلوم والآداب بالجامعة الأزهرية رسالة بهذا العنوان ، صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة ، جمعت في صفحاتها الاثنتي والثلاثين كل

ما يجب أن يعرف عن تاريخ الأزهر، ونظام التدريس فيه قديماً وحديثاً، والقوانين التي صدرت لتنظيمه، ومراحل التعليم فيه، والعلوم التي تدرس به، والشهادات التي يمنحها المتخرجون فيه، وإدبرته ومجلسه الأعلى، والمعاهد التابعة له، وعدد طلبته المصريين والأجانب، والمالك التي ينتمون إليها، وسككها، وموارد الأزهر المالية، ودور كتبه، ومدينة الأزهر الحديثة، وما يدرس فيه من علوم كونية، ولغات أجنبية، ومذهبه في المحافظة على الدين، ورسائله في العالم، وما أعقد عليه المغفور له الملك فؤاد وصاحب الخلافة الملك فاروق - أعزاهم الله - وأبدعهم - من ضروب الرعايات. جاءت رسالته تفتي عن مؤلف ضخم. وإتقاناً لمقدرة في التأليف تسجل لسعادة خالد بك حسنين، وينبسط عليها. وفقه الله لحلائل الأعمال وأمنه بروح منه.

### المنظومة الشكرية :

لسعادة السيد شكري باشا قصيدة مطولة أودعها كل ما عن له أن يتصدى للكلام فيه من دين وتاريخ وأدب وحوادث، على نظام لم يسبق إليه، وعلق عليها بما يشرح مجملاتها، فالمطلع عليها يشرف على ما وقع بمصر من الحوادث من عهد محمد علي وإلى مصر إلى اليوم، سواء كانت سياسية أم علمية وأدبية، مما يصعب أن يجده القارئ في مؤلف واحد. وقد أنحفنا بالمجلد الرابع منها وهو يقع في ٧٨٠ صفحة ضمنها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وشرح ما أجمل في أبياته شعراً، وجاءت سيرة حافلة بالتواريخ، وبحياة من ورد بها من الصحابة. فنشكر لسعادة الباشا عنايته العظيمة بالأدب والتاريخ، ونرجو أن يطيل في أيامه، وأن يوفق لما يرجوه من الصالحات.

### اللمعة البهية في الأدلة الإجمالية :

لحضرة صاحب التفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم الراوي الراعي، قدم صدق في العلوم الدينية، وتاريخ الفرق، والمسائل الخلافية، وهو اليوم من أقطاب العلم في بغداد يرجع إليه شيوخها فيما يشكل عليهم من مسائل، ويغض من دقائقه. وقد وضع في المهد الأخير رسالة دعاها (اللمعة البهية) ضمنها الكلام على مذهب الشيعة والوهابية ومصنفاتهم وأدلتهم. وصمها لنشر معلومات أولية عن هذين المذهبين تصلح للتفاهم بينهما. وقد سلك في إيراد ما أراد به طريقة تقرير الحقائق، بعيداً عن التعصب المذموم، ونحري أن يتلاقى هذان المذهبان في غايتيهما التي يشدانها من طريقين مختلفين، وهي القيام على السنة الصحيحة، والطريقة القويمة. وقد أبدع الأستاذ في بيان المذهبين إبداعاً دليلاً على سعة اطلاعه، ووقوفه على كل ما كتب عنهما في أدوار تاريخيهما، وتجلي مراده في التوفيق بينهما تجلياً يستحق عليه كل ثناء، فنرجو أن يكمل الحق مسماه بالنجاح، وأن يثيبه على عمله ثواب العاملين.



## BOOK I

# HISTORY OF THE ARABS

### (1)

#### A SUMMARY

---

Arabia is the great western peninsula of Asia. Its area is about 1,230,000 square miles, i.e. about one third of Europe. The name is said to be derived from "Araba", a small district in the south east of the province of Tehama, to which Yarab, the son of Kahtan (The Biblical 'Joktan'), the father of the Arabs ancient gave his name, and where some ages after dwelt Ishmail, the son of Abraham and Hagar.

The chief province in connection with the history of Islam is known as the Hidjaz, which occupies the western strip of Arabia to the east of the Red Sea and contains the famous cities of Mecca and Medina. The former of these claims the distinction of being the birth place of the Prophet and possesses the celebrated sanctuary of the Kaaba, and the second was the home of the Prophet for the last ten years of his life, and in it he was laid to rest.

The shrine of Kaaba is stated to have been originally built by Abraham and Ishmail for the worship of the true God, but in after times it became the common pantheon of pagan Arabia. The peninsula of Arabia has always been inhabited by two classes — town dwellers and those who live in tents. The former live by tillage, the cultivation of palm-trees, cattle breeding, and the exercise of trades, and even in the time of Jacob, were famous as merchants. The members of the tribe of Koreish, the wealthiest and most distinguished of the Arabian tribes, were especially engaged in commerce, and Mohammed in his youth was brought up as a trader, as it was the Arabian custom for sons to carry on the business of their fathers. The Arabs who dwelt in tents were occupied with the pasturing of their flocks, varied by the raiding of caravans and pillaging of travellers. They lived chiefly on milk, dates and camel flesh, they changed their habitation as the convenience of water and of pasture required, staying no longer in one place when these failed.

spite of occasional uncalled-for sarcasms and characteristic innuendoes" (1). It seems that Gibbon's so called unfair treatment of Christianity prevented the Christian world from doing justice to his generally fair treatment of Islam, and consequently most Englishmen<sup>1</sup> who do not condemn the Arabian Prophet unheard, derive what favourable notions of him they have, not from Gibbon, but from Carlyle" (2).

It was really a great surprise and an epoch in English intellectual and religious life, as Bosworth Smith has rightly observed, when it was found that Carlyle chose for his "Hero as Prophet" "not Moses or Elijah or Isaiah, but the so called impostor Mohammed" (3).

Now it is time to conclude this my introduction. The reader will see and judge for himself the extent to which European writers of various reputations and in various ages have, in their different treatments of the Prophet Mohammad and of Islam, been either misleading or themselves misled.

In conclusion I wish to express my heart-felt-obligation to my numerous friends both in Egypt and abroad for their kind assistance and encouragement which enabled me to bring this work to completion. I wish it were possible for me to name them all, but certain considerations prevent my doing so.

My gratitude is due to His Eminence Shiekh Mohamed Mustapha El Maraghi Grand Rector of Alazhar University through whose personal suggestion the book has been accredited by that great Muslim Institution for publication as a supplement to Al Azhar Official Monthly Review.

Special mention must, however be made of H. E. Mohamed Khaled Hassanein Bey of Al Azhar University who was so kind to revise the manuscript and check the proofs.

In my human endeavours I humbly implore the Almighty God, the God of all mankind, to grant that my labour may serve as a basis, if not for an ultimate agreement between Christendom and Islam, at all events for mutual understanding and forbearance, for sympathy and respect.

**Ahmad Galwash.**

---

(1). Bosworth Smith.

(2). Bosworth Smith.

(3). Ibid.



discord; his companions being Fra Dolmo, a communist of the fourteenth century, and Bertrand de Born, a fighting Troubadour.

The Romances of Baphomet, so common in the fourteenth and fifteenth centuries, attribute any and every crime to him, just as the Athanasians did to Arius. He is a debauchee, a camel stealer, a cardinal, who having failed to obtain the object of every cardinal's ambition, invents a new religion to revenge himself on his brethren (1).

With the leaders of the Reformation, Mohammed "the greatest of all Reformers (2)" meets with little sympathy, and their hatred of him, as, perhaps was natural, seems to be proportionate with their knowledge. Luther doubts whether he is not worse than Leo, Melancthon believes him to be either Gog or Maggog, and probably both (3).

In the imagination of the Biblical commentators the Arabian Prophet divides with the Pope the credit, or discredit, of being the subject of special prophecy in the books of Daniel and the Revelation "He is Antichrist, the Man of Sin, the Little Horn" and I know not what besides, nor do I think that a single writer, till towards the middle of the eighteenth century, treats of him as otherwise than a rank impostor and false prophet (4).

England and France were the first to take a different view and to have begun that critical study of Arabian history or literature which in the hands of Gibbon and of Muir, of Caussin de Perceval and of St. Hilaire, of Weil and of Springer has provided some material for a comparatively fair and unbiassed judgment within the reach of everyone. But most other writers of the 18th century such as Dean Prideaux and the Abbé Maracci, Boulainvilliers and Voltaire have approached the subject only to prove a thesis. With them the Prophet was to be either a hero or an impostor. "From them is learnt much that has been said about Mohammed, but comparatively little of Mohammed himself (5)".

Gagnier has then proceeded to write a history of the Prophet claimed to have been based on the work of Abul Feda. Gagnier's history was still not free from wrong inferences and erroneous allusions (6).

Then followed the translations of the "Koran" by Sale and Savary into English and French respectively. Gibbon has then written his "three masterpieces of biography": Athanasius, Julian, and Mohammed. Gibbon's treatment of Islam is considered to be generally fair and philosophic, "in

(1). Renan "Etudes d'Histoire Religieuse" p. 223, note.

(2). Bosworth Smith

(3). See "Quarterly Review" Art. Islam, by Detsch, No. 254, p. 296.

(4). Bosworth Smith

(5). Bosworth Smith.

(6). Ibid.

portant educator on all systems of purely human origin, and its creed adores, worships and acknowledges the Creator of the Universe, in the most sublime, loftiest and divine expression, never to be found in the liturgy of other religions. The Islamic conception of God is that He is 'Allah' and there is no deity beside Him, He alone is to be worshipped. He begets not and He is not begotten. He was before time began its race. He is 'Allah' Who hath raised different prophets of men throughout the ages. His greatness is immeasurable. Allah is He That abideth from eternity to eternity. This is but a fractional part of the Muslim Creed - a creed which strictly, forbids the worship of images and the artistic representation of anything that resembles the human form. Yet in Christian literature, periodicals and other publications Muslims have been alluded to, and spoken of, as pagans, idolaters, polygamists, sun-worshippers and what not. Our sacred edifice has been characterised as the Mosque of swords, our heaven as a heaven of sensual bliss, and that after death we sink into space, soul-less, and have no account to give. In the romance of "Turpin" quoted by Renan, Mohammed, the fanatical destroyer of all idolatry, is turned himself into an idol of gold, and under the name of Mawmet, is reported to be the object of worship at Cadiz. In the song of Roland, the National Epic of France, Mohammed appears with the chief of the Pagan Gods on the one side of him and the chief of the Devils on the other. Human sacrifices are supposed to have been offered to him, in the imagination and assertions of Christian writers of the tenth and eleventh centuries, under the various names of Bafum, or Maphomet, or Mawmet. Malaterra, in his history of Sicily describes that island as being, when under Saracenic rule, a land wholly given up to idolatry (1). It is not a little curious that both the English and French languages still bear witness to the popular misapprehension, the French by the word "Mahomerie", the English by the word "Mummery", still used for absurd or superstitious rites (2). "Mammetry", a contraction of Mahometry was used in early English for any false religion, especially for worship of idols, inasmuch that "Mammet" or "Mawmet" came to mean an idol. In Shakespeare the name is extended to mean a doll Juliet, for instance, is called by her father "A winning mammet" (3). In the twelfth century "the god Mawmet" passes into the heresiarch Mahomet, and as such, of course he occupies a conspicuous place in the 'Inferno'.

Dante places him in his ninth circle among the sowers of religious

(1). "Which people were the greater idolaters, any candid reader of the Italian annals of this time collected by Muratori, can say" Bosworth Smith "Mohammed and Mohammedanism".

(2). See Trench on "Words" p. 112.

(3). "Mawmet (contr fr Mahomet) a puppet, a doll originally an idol, because in the Middle Ages it was generally believed that the Mohammedans worshipped images representing Mohammed". Webster's Dictionary.

importance in the progress of a tribe. The Mosque gives an idea at all events higher than any the negro has yet had. A thirst for literature is created, and that for works of science and philosophy, as well as for commentaries on the Koran. There are whole tribes, as the Jalofs on the river Oambia and the Haussas, whose manly qualities we have had occasions to test in Ashantee, which have become to a man Muslims, and have raised themselves infinitely in the process, and the very name salt-water-Muslims given to those tribes along the coast, who, from admixture with European settlers, have relaxed the severity of the Prophet's laws, is a striking proof of the extent, to which the stricter form of the faith prevails in the far interior.

"It is melancholy to contrast with these wide spread beneficial influences of Islam, the little that has been done for Africa till very lately by the Christian nations that have settled in it, and the still narrower limits, within which it has been confined. Till a few years ago the good effects produced beyond the immediate territories occupied by them were absolutely nothing....

"The message that European traders have carried for centuries to Africa has been one of rapacity, of cruelty and of bad faith. It is a remark of Dr. Livingstone's<sup>(1)</sup> that the only art that the nations of Africa have acquired from their 500 years' acquaintance with the Portuguese, has been the art of distilling spirits from a gun-barrel, and that the only permanent belief they owe to them, is the belief that man may sell his brother man, for this, he says emphatically, is not a native benefit to Africa, but if we except the small number of converts made within the limits of their settlements, it has been the only benefit conferred by Europeans.

"Truly if the question must be put, whether it is Muslim or Christian nations that have as yet done most for Africa, the answer must be that it is not the Christian...."<sup>(2)</sup>

I think I can occupy no more space in this introduction by making further quotations to discuss the relation of Islam to modern civilisation and the position which it holds among the recognised religions of the world. It is a matter of pure history that Islam has been beneficial to humanity in general and that it had, and still has, an everlasting influence on the development of human character.

The Muslim School embraces all branches of human knowledge and research - theology, medicine, history, astronomy, grammar, economics, physics, racial philosophy and racial psychology and ethics. It is an im-

---

(1). Livingstone's "Expedition to the Zambesi" page 240.

(2). R. Bosworth Smith "Mohamed and Mohamedanism".

and intelligence, as well as of very Catholic spirit, deplores the fact that of the total number of Muslims to be found in Sierra Leone and its neighbourhood three fourths were not born Muslims, but have become so by conversion, whether from a nominal Christianity or from Paganism<sup>(1)</sup>.

"We are assured on all hands that the Muslim population has an almost passionate desire for education, and those in the neighbourhood of our colonies would throng our schools, first if the practical education given was worth having, and secondly, if the teachers would refrain from needlessly attacking their cherished and often harmless customs. Wherever Muslims are numerous, they establish schools themselves, and there are not a few who travel extraordinary distances to secure the best possible education. Mr Pope Hennessy mentions the case of one young Muslim Negro who is in the habit of purchasing costly books from Trubner in London and who went to Foulah, two hundred and fifty miles away, to obtain an education better than he could find in Sierra Leone itself. Nor is it an uncommon thing for newly converted Muslims to make their way right across the desert from Bornu or from Lake Chad, or down the Nile from Darfour or Wadi, a journey of over one thousand miles that they may carry on their studies in El-Azhar, the great collegiate Mosque at Cairo, and they may thence bring back the results of their training to their native country, and form so many centres of Muslim teaching and example.

"Nor as to the effects of Islam when first embraced by a negro tribe can there be any reasonable doubt. Polytheism disappears almost instantaneously, sorcery with its attendant evils, gradually dies away, human sacrifice becomes a thing of the past. The general moral elevation is most marked, the natives begin for the first time in their history to dress and that neatly. Squalid filth is replaced by a scrupulous cleanliness, inhospitality becomes a comparatively rare exception. Though polygamy is allowed by the Koran, it is not common in practice, and, beyond the limits laid down by the Prophet, incontinence is rare, chastity is looked upon as one of the highest and becomes in fact one of the commoner virtues. It is idleness henceforward that degrades, instead of the reverse. Offences are henceforward measured by a written code instead of the arbitrary caprice of a chieftain—a step as everyone will admit, of vast

---

(1). Papers relating to Her Majesty's Colonial Possessions, Part II 1873, 2nd Division, p. 15. As Mr Pope Hennessy's Report has been much criticised, chiefly on the ground that he is a Roman Catholic and as I have based some statements upon it it may be worth mentioning that I have had a conversation with Mr Johnson who is a strong protestant himself, and that he bore testimony to the bonafides of the Report and to its accuracy even on some points which have been most questioned. He told me that Islam was introduced into Sierra Leone not many years ago, by three zealous missionaries who came from a great distance. It seems now to be rapidly gaining the ascendancy, in spite of all the European influence at work.

(Footnote to Bosworth Smith's Lectures pp. 33-34).

"In Africa again Islam is spreading itself by giant strides almost year by year. Everyone knows that within half a century of the Prophet's death, the richest states of Africa, and those most accessible to Christianity and to European Civilisation, were torn away from both, by the armies of the faithful, with hardly a struggle or a regret, but few, except those who have studied the subject, are aware that even since then Islam has been gradually spreading over the northern half of the continent.

"Starting from the north west corner, it first marched southwards from Morocco, and by the time of the Norman Conquest had reached the neighbourhood of Timbuctoo, and had got firm hold of the Mandingoes, thence it spread southwards again to the Foulahs, and then eastward by the thirteenth century to Lake Chad, where finally the Arab missionaries from the West joined hands with those from the East in the very heart of Africa....

"We hear of whole tribes laying aside their devil-worship or immemorial Fetish and springing at a bound, as it were, from the very lowest to one of the highest forms of religious belief. Christian travellers with every wish to think otherwise, have remarked that the negro who accepts Islam, acquires at once a sense of the dignity of human nature not commonly found even among those who have been brought to accept Christianity.

"It is also pertinent to observe here, that such progress as any large part of the negro race has hitherto made, is in exact proportion to the time that has elapsed, or the degree of fervour, with which they originally embraced, or have since clung to Islam. The Mandingoes and the Foulahs are salient instances of this, their unquestionable superiority to other negro tribes is as unquestionably owing to the early hold that Islam got upon them, and to the civilisation and culture that it has always encouraged. The Government Blue Books on our West African settlements, and the reports of missionary societies themselves, are quite at one on this head. The Governor of our West African Colonies, Mr. Pope Hennesay, remarks that the liberated Africans are always handed over to Christian missionaries for instruction, and that their children are baptised and brought up at the public expense in Christian schools, and are, therefore, in a sense, ready made converts, yet the total number of professing Christians, 35,000 out of a population of 513,000, very few even of these, as the Governor says, and as we can unfortunately well believe from our experience in countries that are not African, being practical Christians — falls far short of the original number of liberated Africans and their descendents (1). On the other hand the Rev. James Johnson, a native clergyman, and a man of remarkable energy

---

(1). Papers relating to Her Majesty's Colonial Possessions. Part II, 1873 2nd Division, p. 14.

"... Africa, which had yielded so early to Christianity, nay, which had given birth to Latin Christianity itself, the Africa of Cyprian and Tertullian, of Antony & Augustine, yielded still more readily to Mohammed, and from the Straits of Gibraltar to the Isthmus of Suez may still be heard the Cry which with them is no vain repetition of "Allah Akbar", God is Great, there is no God but God and Mohammed is His Prophet.

"And if it be said, as it often is, that Islam has gained nothing since the first flame of religious enthusiasm fanned, as it then often was, by the lust of conquest, has died out, I answer that this is far from the truth.

"In the extreme East, Islam has since then won and maintained for centuries a moral supremacy in the important Chinese province of Yun-Nan, and has thus actually succeeded in thrusting a wedge between the two great Buddhist empires of Burmah and of China....

"Throughout the Chinese Empire there are scattered Mussulman communities who have higher hopes than Buddhism or Confucianism, and a purer morality than Taoism can supply. The Panthays themselves, it is believed, still number a million and a half, and the unity of God and the mission of God's Prophet are attested day by day by a continuous line of worshippers from the Atlantic to the Pacific Ocean.

"Nay, even beyond, in the East Indian Archipelago, beyond the straits of Malacca if I may venture just now so to call them, in Java and Sumatra, in Borneo and Celebes, ISLAM has raised many of the natives above their former selves and has long been the dominant faith.

"It cannot of course, be supposed that among races so low in the scale of humanity as are most of the Indian islanders, Islam would be able to do what it did originally for the Arabs or for the Turkish hordes; but it has done something even for them. It was propagated by missionaries who *cared very much for the souls they could win, and nothing for the plunder they could carry off*. They conciliated the natives, learned their language, intermarried with them and in larger islands their success was rapid, and, so far as nature would allow, complete (1).

"The Philippines and the Molaccas, which were conquered by Spain and Portugal respectively, did not become Muslim, for they had to surrender at once their liberty and their religion. It is no wonder that the religion, known to the natives chiefly through the unblushing rapacity of the Dutch, has not extended itself beyond the reach of their swords. Here, as elsewhere in the East, the most fatal hindrance to the spread of Christianity has been the lives of Christians (2).

(1). Crawford's "Indian Archipelago" II, 275 and 315.

(2). For the cruelties of the Portuguese see Crawford, II, 403 and for the Dutch see especially II 425 and 441. For some startling facts as to the comparative morality of some native and Christian communities in India, see a paper by Rev. J. N. Thoburn in the Report for the Allahabad Missionary Conference, held in 1872-73 p. 467-470.

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حديثة  
تصدرها شبكة الأزهر

المجلد الحادي عشر  
العدد ١١٦  
١٩٤٠

في كل شهر عربي

الجزء السادس	جمادى الثانية سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
--------------	------------------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد الدين

الاشتراكات منه	الاعادة
داخل القطر ... .. ٢٠٠ ٢٠٠	مطبوعات الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠ ١٠٠	تليفون : ٨٤٣٣٢
خارج القطر ... .. ٣٠٠ ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

تتم الجزء الواحد ٢٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )

## فهرس

الجزء السادس — المجلد الحادى عشر

صفحة	
٣٢٩ ... ..	خطبة فضيلة الأستاذ الامام ... ..
٣٢٩ ... ..	السيرة المحمدية — وقعة بدر ... بقلم حضرة الأستاذ مدير المجلة ... ..
٣٢٧ ... ..	تفسير سورة والشمس وضحاها ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى
٣٣٩ ... ..	التحذير من الفتن ... .. » » » » عبد الرحمن الجزوى
٣٣٥ ... ..	شبه قد ترد على القارىء ... .. » » » » حامد عيسى
٣٣٨ ... ..	تاريخ الفقه الإسلامى فى مصر ... .. » » » » محمد محمد المدنى
٣٤٢ ... ..	فائدة الأريضاء ... .. » » » » لجنة الفتوى
٣٤٣ ... ..	خدمة المسلم غير المسلم ... .. » » » »
٣٤٣ ... ..	طعام أهل الكتاب ... .. » » » »
٣٤٤ ... ..	الحيل لا يقرها الشرع ... .. » » » »
٣٤٦ ... ..	الكلام والمتكلمون — المعتزلة ... .. حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
٣٥٩ ... ..	الشعرية وأثرها فى الأدب العربى ... .. » » » » احمد ابراهيم
٣٦٠ ... ..	نظرات فى الأدب العربى ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
٣٦٤ ... ..	عبد الله بن الزبير ... .. » » » » صادق مرجونى
٣٦٨ ... ..	التحديد والمحددون فى الاسلام ... .. » » السيد عفيفى
٣٧٢ ... ..	أبو نصر الفارابى ... .. حضرة الأستاذ عبد الحميد سامى بيوى
٣٧٦ ... ..	الدين هو السكوة التى يبيع منها النور للانسان ... .. حضرة الأستاذ مدير المجلة
٣٨٠ ... ..	الاسلام والمرأة ... .. » » السيد متولى
٣٨٣ ... ..	الحمامة قديما وحديثا ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ عباس طه



# حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

مخطب عقب صلاة الجمعة في حضرة صاحب الجلالة الملك

مقترحا أن تعتبر القاهرة مدينة مقدسة

أدى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم صلاة الجمعة الأخيرة من جمادى الأولى بمسجد الرفاعي ، وكان المسجد مكتظا برجال الدولة من العلماء والوزراء والكبراء . فلما تمت الصلاة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر وألقى خطبة جليلة الشأن كان لها أعمق تأثير في موسى السامعين ، وسيرن صداها في المسموع فيعجب بها جميع المسلمين ، بئين فيها مكان القاهرة من قلوب الشعوب الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، باعتبار أنها عاصمة الاسلام ونبتها ودائمه الأثرية ، ومما هذه الثقافية ، وأحداث آل رسوله ، وأشهر مساحده ، وأقدم جامعاته ، فهي هذه الخصائص كلها حديرة بأن تمتاز مدينة مقدسة يجب أن يصح لها على قذائل الطائرات ، وهي لا تكون بمنحة منها إلا إذا حردت من الأهداف الحربية ، وليس هذا نمرز على حكومة جلالة الملك إن سميت لذلك سميه ، فإدام قابله المسلمون كافة بالاجلال والاكبار ، ولا يخفى أثر ذلك في جمع كلهم ، وتوحيد وحميتهم قال فضيلته حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم : أيها المؤمنون لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وقد وعد بالرحمة عباده المتقين ، وهذا يوم مبارك يرجى فيه قبول الدعاء ، وعن في بيت الله ، فتوجهوا إليه سبحانه منيبين مخلصين ، طالبين إليه العون والراية ، وأن يقي بلادنا وبلاد المسلمين ضرور الحرب ومصائبها ، ويرفع عن العالم جميعه مقتنه وغضبه ، وينجلي عليه بلطفه ، وينزل عليه رحمته ليسود السلام ، ونحقق الدعاء ، ويأمن الأطلاق والوالادات .

ولو كنت أظن أن صوت مسلم شرقي يسمع في العالم الغربي المسيحي من بين قصف المدافع ، وأزيز الطائرات ، وهدير المتحركات ، لماديت بالسلم ، ودعوت الأمم الى حكم العقل ، وحركت فيهم طائفة الانسانية .

لكنني أشعر بأنه أمل ضائع ، فليس أمامي سوى التوجه الى الله جل شأنه ، وهو الواحد القهار اللطيف الخبير ، أن يكشف البلاء ، ويرفع الكرب إنه سميع الدعاء .

ليس أرحى لقول الدعاء من توبة نصوح ، وعمل صالح ، ويرسدي الى المحتاج ، وليس أرحى للنهضة من وحدة الأمة وتصامرها وإحلاصها ، ومن أن يكون لها في وقت الشدائد غرض

واحد ووجهة واحدة هي الوطن وسلامته ومجده ، والعرش وحلاله وعزه ، فعلياً أن نحرم على هذا الجرم ، وأن ندع الضغائن والأحقاد لا نبهتها من رسمها . وإذا أراد الناس فيما بعد أن يعبثوا ذميمة ، فلذلك يوم آخر يلحق به ، جدير أن يصفى فيه الحساب ويوجه اليوم والعتاب .

لا أدري ماذا يحبّه القدر ، ولا أريد أن أتحدث في السياسة ، لكى وأما مصرى مسلم من حتى أن أعرض عن شعور المسلمين ، أشعر بحرارة بالغة ، وألم بمض ، كلما خطر ببالي أن مدينة القاهرة قد تكون مسرحاً للفتنات ، وهذا لقنابل الفارات . يعز على هذا كما يعز على الأمم الإسلامية جميعها ، شرقية وغربية ، عربية وأعجمية . فمدينة القاهرة كعبة العلوم الدينية ، والثقافة الإسلامية ، يحج إليها طلابها من جميع بقاع الأرض ، وفيها الأزهر الشريف ، أكر جامعة إسلامية وأقدم معهد مقدس ، وفيها آثار رائعة من آثار الفن الإسلامى فى العمارة من جميع عصور التاريخ الإسلامى ، وفيها مشاهد تضم أجساد آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأحداث أمة المسلمين وعلماهم وصالحهم .

وفيها دور الكتب الإسلامية التى تحوى أنفس الفتن ، وأعز التراث ، وأحسن ما أثمرته عقول علماء المسلمين فيها . هذا كله منبث فى نواح متعددة ، وأما كنى متباعدة غير متلاصقة ، وهذا كله له جلاله وقديسته ، ومن الحق أن يحترم ، وأن يحترم شعور المسلمين من أجله ، فما من أحد منهم ألا يؤذى شعوره ، ويثلم كرامته الاعتداء على تلك الآثار ، لذلك أوجه ندائى الى العالم جميعه باسم علماء الاسلام ، وباسم المسلمين ، مطالباً بالحفاظة على مدينة القاهرة ، واعتبارها مقدسة لا يغير عليها أحد ، ولا يكون أحد سبباً فى الإغارة عليها . وأتمس من مولاي حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم ، وجلالته معقد الرجاء ، وموضع الأمل من جميع المصريين ، وجميع المسلمين ، أن يتفضل فيصدر أمره الى حكومة جلالته بالسعى لتحقيق هذا المطلب بالوسائل المشروعة ، والله لا رب سواه المستعان وحده ، وهو حمينا ونعم الوكيل — وأنتهز هذه الفرصة وأطلب منكم الترحم على الملك المعظم المرحوم فؤاد الاول وقراءة الفائدة .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## السِّيَرَةُ الْمَجْمُوعَةُ

### تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة بدر — النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحي

ظل النبي صلى الله عليه وسلم مرتقباً عود تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها، فمدب محابته للخروج معه إليها، فلي دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهو عدد يكفي لما هو بسبيله، فاكثى بهم، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يمتقبونها، منها فرسان وسبعون بعيراً. فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على أموالهم، وكان قائداً لحامية القافلة، أرسل إلى قريش رسولاً يعلمهم بالخبر، واتبع هو طريقاً غير طريق القوافل، وجاء أن يغفل ممن يترصده. وتسارعت رجالات قريش إلى نجدة فخرجوا تحت قيادة كرائهم في تسعمائة وحسين مقاتلاً، معهم مائة فرس وسبعمئة بعير. ولم يعلم رسول الله بكل هذا، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعركان له الأخبار، ثم سار حتى بلغ الروحاء، وهي على بعد نحو أربعين ميلاً من الجنوب الغربي للمدينة، وهناك جاءه الخبر بأن قريشاً قد هبت تدافع عن أموالها، وأن تجارة قريش تمر من بدر غداً أو بعد غد. فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم كبار جنوده وأحبرهم بأن الله أوحى إليه ووعد إحدى الطائفتين: قافلة التجارة، أو جيش قريش، فتبين أن الرأي الغالب يميل إلى الاستيلاء على القافلة، واحتجوا بأنه لما استقنرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال، ليأخذوا له عدته، فأزل الله في ذلك قسراً ما يمانهم وهو قوله تعالى: «وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم»، أي أسكن طائفتهم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم.

عند ذلك قام المقداد بن الأسود وتكلم، وكان مما قاله: «يا رسول الله امض لما أمرك الله، والله لو سرت بنا إلى برك السهاد (١) لجالدنا ملك من دونه حتى تبلغه». فدعا له بخير. ثم التفت إلى رجاله وقال: أشيروا علي أيها الناس، وهو يريد أهل المدينة، لأن البيعة التي أخذها عليهم قد يظن منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعاً وهو بين أظهرهم.

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب. ويطلق ويراد به أقصى المسودة.

فقال له سعد بن معاذ سيد بنى الأوس كأنك تريد ما يارسول الله ؟ فقال : أجل .  
فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ،  
فواللهي بعثتك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر غطتته لنحوضه مملك ، وما ذكره أن تكون  
تلقى العدو بنا غدا ؛ إما الصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به  
عينك ، فسر على بركة الله » .

فأشرق وجه النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الكلام وسر به . وعند ذلك التفت الى أصحابه  
وقال : « أبشروا والله لكانى أنظر الى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أما سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ،  
وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة الى الحرب فقد  
أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرحح حتى نصل الى بدر ونقيم  
بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيها موتنا أيد الدهر .

فلم يرق هذا رأى الأحنس بن شريق الثقفى فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا .  
وسار جيش قريش حتى وصلوا الى وادى بدر فنزّلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى بعيدا  
عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تنضب عزائمهم وهم قريبو  
عهد بالاسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مدرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشريوا واتخذوا  
الحياض ، وملاوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث ويلا  
على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال وقد أشار الله الى  
هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : « إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْبَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ، وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ » .

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له  
الحباب بن المنذر الانصارى وكان مشهورا بإصالة الرأى : يارسول الله أهذا منزل أنزلك الله  
ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يارسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهم بالباس حتى تأتى أدنى ماء من  
القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فتنزله ونفّود ما عداه من الآبار ، ثم بنى عليه حوضا  
فتملأ ماء ففشرب ولا يشربون .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى أتى أذنى ماء من القوم ، ثم أمر بالأيار التي خلفهم فثورت ، وبني حوضا على البئر التي نزلوا إليها .

وبعد ذلك بُني له عريش (١) فوق تل ليشرق منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوم صفوفهم ، وحمل منابكهم متلاصقة كأنهم بفيان مرصوص . ثم نظر إلى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرها بمحاذك وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني به » . ثم نظر إلى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات في مجاهدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به من النعم » .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم » ، وإن اكتنفتكم القوم فانصحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يفشوكم » .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلا فله سلبه » .

وأمر النبي بالحلة على المشركين ، فاهى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وغازت قوائم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أمضى بهم التراجع إلى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عنة وشيبة ابن أبي ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البختري بن هشام ، والجراح والد أبي عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه علي ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصي ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعند الأسرى فكانوا سبعة رجال أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل منهم عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤذنين عليهم ، والمستزئين بهم .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يدفن قتلى المشركين في قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب إلى شقة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

(١) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش الكرم وشبه الحية من حطب وتعام جمه عرش جنتين .

فقال له رسول الله : والذي نفس محمد بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين في وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاص على مصير أسرى بدر .

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، ومنحجاً بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم إلى الصلاة ، وواقفه سعد بن معاذ وعبد الله ابن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا له عضداً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى رأي أبي بكر ، فكان منهم من يشتدي نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك إلى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة حُمل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طُل ما آذى المسلمين بلسانه ، فطالب عمر في شأنه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا : دعني يا رسول الله أنزع ثنيقي سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبداً .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاماً لانتداه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبي ، وذلك أنه لما تولى صلى الله عليه وسلم وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا وصحبه بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

هتاب الله للمسلمين في أسر الفداء :

قرر النبي صلى الله عليه وسلم بعد أحد رأي أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يمانع المسلمين على ما فعلوا ، ويشير إلى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا في الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا في إيذاء المؤمنين واصطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكاحته ، وجاء أن يتمكسوا من حل جماعته ، والنقبة على ثروته ، فقال تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُنخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

معنى هذا أنه ليس لنبي أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكثر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يحكمه الله منهم ، ليعودوا إلى شر مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للنار من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذي عُرف عن الاسلام أنه دين رحمة وسمحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق في تسامحه وسعة صدره كل ما عُرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله في هذا الموطن يعتب على المسلمين أحذم بمبدأ الرحمة في معاملة رحالات قريش الذين أسروا في معركة بدر ؟

تقول : إننا نخالف المعترض ونرى في هذا التشديد أروع مظهر لإلهية هذا الدين . ومنجلى هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الاسلامية التي يذكرها المعترض لم تكن قد نزلت بعد ، وما رل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الاسلام ، وتوات المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتل الأسرى قبل الإنحان في الأرض ، وبين الأصول التي يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافي الرحمة التي يجب أن يتصف بها شرع إلهي . وعليه أن يدعو ليتأمل مصافى أن قتال المسلمين لمشركي العرب كان الداعي إليه كسر شرهم في معاكسة الإصلاح العالمي الذي هموا لتصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافي كل رحمة ، ويسعل عليهم كل وحشية ، فلا يكون موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركهم في مقابل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا الى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود الى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة في تدوينهم .

فالقوم جاء مترتباً على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لا يجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يديقوهم وبأل وحشيتهم . وأما من ناحية أن في العتاب القرآني أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة الى ضروب من التسامح يكسر بها حدة خصومه ، ويفل ما استطاع من غرتهم . فإذا ظهر بعضهم في إبان صحفه ، فلا يبالغ في النكابة بهم تفادياً من أن يظهر بمظهر المتجبر ، فيُضغن عليه نفوساً كثيرة ، ويحملها على الاستماتة في قمه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيراً من رحالات أشهر قبيلة في البلاد العربية كان يقع من باقي أفرادها موقفاً مؤلماً للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلص الانصار والاحلاف للأخذ بالذار ممن قتلهم .

فتجد مدعى النبوة يفكر في هذا الأمر حيداً ، ويتقي حصوله حبه ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلباً فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والعلية .

ولكن مجيء هذا المناب يقلب هذه المداراة رأساً على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهد استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شيء من التسامح قبل أن يشحنوا في أعدائهم . وهذه صراحة تجافي ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشئ حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة وافقة من مصيرها ، متعققة من مآلها ، لا يبقها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفي كل هذا دليل ضمني على أن الاجتماع الاسلامي كان يتولاه ويربه الوحي الالهي فوق العقل البشري ، لأن العقل في مثل هذه الحالة يأتي أن يقف مثل هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصمم نفسه على رموس الاشهاد بأنه فيما تسامح به قد أضر عرض الحياة الدنيا على ما وعد به من ثواب الآخرة .

فإن قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحي الالهي المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذي اتخذ في شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحي لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الاسلامي قادوا على القيام بنفسه ، ومنتسرا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحي لم يضطرب في سيره ، ولم يحترق في تصرف أمره .

وقد عرف أخيراً أن خير التربية هي أن لا تباليح في حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر إليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصرف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ في تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيد في إكسابه الحزم والثبات ما لا يفيد ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعة الاسلامية قد تولاه الوحي على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدّها بكل ما يُسمح به قبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدّها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاق وبال أسرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحي في ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحاً لا يعرف في تاريخ البشرية له مثله ، ألم تناد الأمة الاسلامية في سنين معدودة الى ما لم تبلغه الامم التي سبقتها في قرون كثيرة ؟

محمد فرير ومجربى



# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرناك في مقال السابق أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الانفس والآفاق علوية وسفلية ، وأنه يتفنن في ذلك تفننا عجيبا ، فتارة يقول : « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » ، وتارة يقول : « وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون » ، وتارة يقول : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، وتارة يقسم تلك المعجائب التي غفل الناس عن النظر فيها والتأمل في خوافيها ، فهم يمررون عليها وهم معرضون كما في الآية الكريمة . ولو تأمل الإنسان في ذلك قليلا لامتلأ قلبه إيمانا ونفسه إيقانا ، ولوجد من ذلك قوة صافية لا تشبهها قوة ، ونفعا روحانيا لا يقاربه نعيم ، ولكن الناس محسوسون في سجن الماديات ، هائمون في أودية الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا إلى أين يذهبون « وإن قطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . وقد رأيت كلاما ممتعا في هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف العرق بينهم وبيننا معشر المسلمين الذين ينادي كتابنا بأن في الأرض آيات للموقنين ، ويصل من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك أرباب النفوس الجامعة ، والعقول السائغة ، والقلوب القاسية التي هي كالحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطبا لذلك الإنسان الغافل عن عجائب الكون : « إياك أيها الإنسان لئاهل من جمال القبة الزرقاء ، فلم تراقب شفقها ، ولا ساهرت بدوا ، ولا ساررت نجومها . هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحي ؟ وهل اتفق لك أن حمت فاشتبهت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلاً ومرعى ؟ ألا فاحد ربك الذي براك من لا شيء ، وأتى بك من العدم ، وأخرجك من الظلمة إلى النور » .

ويقول غيره : « ما الأرض إلاجنة أنزلت فيها آيات الجلال ، ومجرد وجودها عليها بينة البينات . ألا يذكر ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنثرون » ، وقوله : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون . يُنبِت لكم الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . فأين ذلك الإنسان الرقيق الوجدان الذي يهيج حبه لله ، النظر في آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما ينير هواطقه ويهيج لواجه . والنظر في آيات الله يوصل الى معرفة عظمة الله ، ويسمى على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحيور . وإن ذلك ليسمى علينا من آلاء الأمكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلى ، ما يفوق كل ما تصو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان ما بين لذة جسانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتضيئ به ، والبدر يطلع ليضيئ به ، والمصافير تغرد لتضج به ، يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم له تغورها ، وتحدثه حديث توريها وتمتيعها ، وبالأشجار فتضحك له أغصانها ، وترقص له أفسانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلافا عرف أطوارهم وأخلاقهم ، فهي تغمض وتحفظ لها في نفسه تذكارات جميلة حتى تعود إليه في أدوارها وأوانها العام التالي » الى أن يقول :

« ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ، حوادث نادرة الطرء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تظفر الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأصبحنا مأخوذين بسناء الشفق إذ تنواري خلف البحار . وحقا إن تلك الأشعة الذهبية التي تنشق من حبين الأفق صباحا ومساء ، كثر ثمين يفوق كسور النصار ، وثروة طائلة تسمو على ثروة الذهب الإريز . هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويمشوا في أحشاء الأرض على أوفر ما يكون من السعة والبهجة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون أرضا ممرامية الأطراف ، وخضيا متسع السطاق ، وفضاء لا نهاية له ، وغيوما متلدة ، وسحابا ممطرا ، ورياحا طافية ، وروفا وامضة ، وروعدا قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة الى مليكة النهار فيأخذهم سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ، فصاعدة في قبة الفضاء ، فائلة الى أفق الغروب ، إذ يمججون لها مصباحا واحدا ينير الفضاء على أنساعه ، ثم تنسدل سحب الظلام وتراخي عليهم سناؤه وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الحاهل ماسيكون ، وإذا بحوم وأقار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متتفة في أبراجها ، جادة في سيرها حسبما تشاء نظاماتها ونواميسها التي رتبها حكمة الحكيم العليم . لامراء أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدي ذلك الإله الخفى الأسرار ، العظيم الافتدار ، الذي كان قد أنام مؤه من قبل . وإذا أطلنا هذه النظرة



الى الانسان والطبيعة وما يكون فيهما من المعجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول البساتين والاوراق والارهار والاشجار والبرور خبزاً ولبناً وصلوا . . . الى آخر ما قال أولئك الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا ينسر استقصاؤه .

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت عظمة ذلك القسم على ما يغير اليه قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ويمكن بعد هذه المقدمة التي هي لب المقصود ، أن نشرع في التفسير ، فنقول :

الواو في قوله : « والشمس » واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : « قد أفلح من زكاه » ، على ما سسمع . والمراد بضماها صوغها مطلقاً ، أو وقت الضمى الذي يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المنضمة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فنكون الدواهي الى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضماها وقد علمت أنه لا داعي لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بأرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسرارها ، ولأنه قليل من أنوارها ، على أنه سيقسم به تعالى في قوله : « وما بناها » الخ ، وهو لا يلتزم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا تزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التي لا نطبق لها شكراً ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فإن الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فإن كل شيء في هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس . وإن شئت فانظر الى الناس في الليل نائمين وكأنهم أموات ، فإذا ظهر أثر المشرق صار ذلك كالصور الذي ينبغ قوة الحياة في الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة في الزيادة والقوة والتكامل حتى تصل الى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن نقل لك ما قاله الورد « إبرى » في هذا الموضوع ، فنقول :

« الشمس هي كرة متأججة بنار أشد وطناً من كل نار على الأرض ، وهي أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا نحو ٥٠٠ ٠٠٠ و ٩٢ ميل ، هذا وإن هي إلا نجمة وليست هي في عداد النجوم الكبرى ، وهناك مشكلة أخرى أعبأ حلها النهائي يقول العلماء والفلكيين ، هي أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تنبع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تنفد مادتها مع توالي المصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لسفهاها ٩٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا وتارنا فقط ، بل هي محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التي تبخر مياه البحر وترفعها غيوما فى الجو ، وتنزلها أمطارا على الأرض ، حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا ، وتسمى أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهبج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط ، وهى التى تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما التعم الحجرى إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو المصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتمش بحاراتها ، والأطيوار تغرد بأوارها وتسبح تسبحا ، وبحاراتها وأنوارها تنزع النسائم وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار وتضج الأنهار ، فنحن مدينون للشمس بما كُلما ومشرنا ، وهى علة وجودنا على هذه الأرض . »

ولنقف هنا اليوم تألين قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه ففنا عذاب النار . وقوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دانه آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فأنى حديث بعد الله وآياته يؤمنون . » « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟

بموقف الرموى

عضو جماعة كبار العلماء

## حول الجهاد

لما أرسل أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد ليقاتل بعض المرتدين من العرب ، كتب له : اعلم أن عليك حيونا من الله وتراك وتراك ، فإذا لقيت العدو فأحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغفل الشهداء من دماهم ، فإن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

وحض منصور بن عمار على القتال وكان بين السامعين امرأة فطرت رقعة كتب فيها : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ، وقد ألقيت ذؤابى فلست أملك والله غيرها ، فبالله اجعلها قيد فرس فار فى سبيل الله ، فمضى الله أن يرحمنى . فارتج المجلس بمسد قراءة هذه الرقعة بالبكاء تأثرا مما فعلت .

نقول : يمثل هذه النفوس محبا للام ، ويمثل هذه الهم تدوين لها الامصار ، وتخصم لها الانظار ، فإن جمعت الى هذا الشعور حب العدل والانصاف والمساواة كما كان عليه المسلمون ، أصبحوا سادة الأرض ، وخلفاء الله فيها .

# السنن

## التحذير من الفتن

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بُورِشُكَ أَنْ يَكُونَ حَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَمٌّ يَقْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَغْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ» . رواه البخاري ومالك وغيرهما .

يتملق بفرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه والقرض منه . (٢) بيان معنى الفتن التي نهى عنها الدين وأمر بالفرار منها . (٣) بيان ما يستتب على العزلة والاحتلاط من منافع ومضار .

(١) إن هذا الحديث وإن كانت عبارته ظاهرة ليس فيها شيء من الإيهام ، إلا في كلمة « شَعَفَ الْجِبَالِ » بالشيء المعجمة والعين المهملة مفتوحتين ، وهو أعلى الجبال وردها ؛ ولكنه يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاتصال بالوحى الإلهي ، والعلم بما سيكون عليه العالم في آخر الزمان من الهرج والمرج ، والاضطراب الذي يذهب بالعنويات لتحل محلها الماديات ، بحيث لا يكون للناس هم إلا في قضاء شهواتهم ، والحصول على لذاتهم ، بكل ما أوتوا من حول وقوة ؛ وتلك حالة تستلزم لا محالة أن تكثر الفتن والاضطرابات ، وتغلب على الانفس طباع الحيوانات المفترسة التي لا هم لها إلا الحصول على فريستها وقضاء لذتها بكل الوسائل .

وقد وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة ذكرها البخاري وغيره في كتاب الفتن ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويُنْثَقِ الشَّح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج » . ومعنى يتقارب الزمان : تذهب بركنه فينقص سرهما فلا يتمكن العاملون من أداء أعمالهم على الوجه المطلوب ، لما يعتريهم من مشاغل الشهوات التي يلهون بها عن أداء ما عليهم من واجبات ، فيضيع عليهم زمنهم وهم لاهون قائلون . ولا مرء في أن ذلك مدعاة للغفلة عن الفضائل الخلقية ، وانصراف عن تحصيل العلوم التي تهذب المجتمع الإنساني ، وتؤلف بين الأرواح والقلوب . ولهذا قد ورد في بعض الروايات تصريح بأن العلم ينقص كما ينقص العمل ، ولا خفاء في أن نقص العمل يستلزم نقص العلم ، لأن العلم يتطلب عملاً جدياً ومجهوداً

كبيراً ، فتن استولت الغفلة على النفوس ، واستحكمت فيها الشهوات ، انصرفت عن الفضائل الخلاقية ، وانغمست في الذنات ، فانقضى الزمان سراعاً كأنه لم يكن ، وضاع لذلك العلم والعمل معا . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الهرج ما هو ، فقال : القتل ، القتل . فمعنى قوله : « يكثر الهرج » . يكثر القتل . وذلك لأن بواغ الشهوات تدفع الناس إلى التراحم عليها ، فينقض بهم ذلك إلى قتل بعضهم بعضاً .

وهذا الإحبار الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيه ، فإن التراحم على الماديات وصل بالناس إلى حد لا يمكن وصفه . فالحديث الذي معنا يأمرنا أن نتقى العن بكل ما نستطيع من قوة ، فإذا لم نستطع فرما منها وابتعدنا عنها ، ولو أدى بنا ذلك إلى شطف العيش والسكنى في رهوس الجبال .

(٢) أما معنى الفتنة في أصل اللغة ، فهو : الاختبار والامتحان . تقول : فتن الصائغ الذهب يمتنه فتنة ، إذا أدخله النار ليعرف جودته من رداءته . وفعل الفتنة فتن يفتن فتناً ، كضرب يضرب ضرباً . ثم استعملت الفتنة فيما يجز إليه الاختبار من مكروه . ثم أطلقت بمد ذلك على كل مكروه كالكفر ، والإثم ، والتحريق ، والمضيضة ، والفجور ، وغير ذلك . فكل هذا يسمى فتنة . وقد وردت الفتنة في القرآن الكريم بهذه المعاني ، قال تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » . فالمراد بفتنوا هـا : حرقوا المؤمنين ، والمخرفون هم أصحاب الأحودود الذين قص الله علينا خبرهم في سورة البروج ، وذلك أن معصم قد آمن بالله وترك عبادة الأوثان ، فلم يرض ذلك ملك زمانهم ، فحرقهم في الأرض حفراً وأوقد فيها النار وألقاهم فيها أحياء . وقال تعالى : « وفتنناك فتونا » أي اختبرناك اختباراً . وقال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك » أي يوقعونك في بلية وشدة في صرفك عن العمل بما أوحى إليك . وقال تعالى : « ما أتم عليه بغاتين » أي بمضلين عن الحق ، إلى غير ذلك .

فإذا فشت المسكرات في أمة من الأمم ، وكثر فيها الفجور ، وهتكت الحرمات ، كان من واجبات الصالحين فيهم أن يقاوموا هذه الشرور بكل ما استطاعوا من بأس وقوة ، فإذا عجزوا عن تقويم المموج كان حقاً عليهم أن يرتحلوا بعيداً عن هذه الشرور والمفاسد كي لا يصيبهم شرها ، أو يحسمهم الله لعذاب فيها سكوا مع المفسدين .

وقد يقال : إن هذا يناق ظاهراً القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى قد رفع العذاب الديوي عن العالم إكراماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه تعالى قال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقال تعالى « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لأمرنا أجل مسمى » . ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لبيبه عليه الصلاة والسلام : لولا أن سبقت كلمتي برفع العذاب عن الناس

بعد رسالتك وتأجيله الى أجل مسمى لكان العذاب الذى حاق بالأمم الماضية من الخسف والامسح والامغراق لازما لا يرفعه عن هؤلاء المجرمين قوة ولا بطش .

والجواب : أن المراد برفع العذاب عن الناس : رفع عذاب الاستئصال والزيادة . أما تعذيبهم بنقص الأموال والأتقى والثروات ، وإذاعة بعضهم بأس بعض ، فذلك غير مرفوع عن الناس الذين طغت عليهم شهواتهم فضدت أخلاقهم . على أن الله تعالى لم يبين لنا الأجل المسمى وما يدري ما أنه قد انتهى ذلك الأجل ، وأن الناس إذا لم ينتهوا عن الفواحش ويكفوا عن الموبقات والفصائح ، ويجعلوا رائداهم في أعمالهم الصدق والعدل ، فإنهم بذلك يعرضون أنفسهم لسخط الله وعقابه الذى كان يعاقب به الأمم الماضية ؟ إن ذلك ممكن لا شك فيه . فعلى الناس أن يتدبروا في ذلك ، ويتعاونوا على إزالة الموبقات والمفاسد من بينهم ، وأن يعفوا عن المظالم التى تذهب بالضعاف ، وأن يتذكروا دائما أنهم مهددون بغضب إله منتقم عادل لا تخفى عليه غاية في الأرض ولا في السماء . فإذا لم ينتهوا فإن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

( ٣ ) عما لا شك فيه أن الحديث الذى معناه والاحاديث التى وردت معناه ، تدل على أن العزلة إنما تكون في حالة الفوضى وانتهاك حرمان الدين ، وطفيان سبل الشهوات على الناس بحيث لا يستطيع دفع شيء منها . أما إذا قدر المرء على إزالة المسكر ، وقدر على هداية الناس بقمه أو لسانه أو جأحه ، فإن الاختلاط أفضل ، بل يكون الاختلاط في هذه الحالة لازما في نظر الدين ؛ لأنه يكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المسكر ، وقد أمر الله المسلمين به في كتابه الكريم ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يذكرون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . فالقادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المسكر ، يجب عليهم أن يخاطبوا الناس ، ويبدلوا قصارى جهدهم في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . فإذا لم يفعلوا حتى عليهم غضب الله وسخطه . قال تعالى « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ولقد وعد الله سبحانه الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر وعدا كريما ، وأعد لهم جزاء حسنا ، بل قد أخبر سبحانه في كتابه العزيز بأنه قد أعجب الأمرين بالمعروف من العذاب الذى حاق بآمتهم ، قال تعالى : « فأخينا الذين يهتدون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا لعذاب بئس مما كانوا يفسقون » .

فانظر كيف أخبر الله تعالى أن هؤلاء الذين أهملوا ذلك الواجب المقدس ، وتركوا أداءهم يأتون المنكر بدون أن يقاوموه ، قد استحقوا لعنته وطردهم من رحمته كما يستحقها الكافرون ،

وذلك منتهى ما تصل إليه عقوبة العاصين ؛ وفيه عظة فائقة وزجر شديد للقاعدين من المسلمين عن أداء ذلك الواجب المقدس الذي جعلهم الله بالقيام به خير أمة أخرجت للناس ، فكيف يرضون أن يكونوا ملعونين نتركه ؟ وكيف تطمئن أنفسهم الى شيوع الفاحشة بينهم وهم راضون ؟ ألا يخافون أن يحق بهم ما حاق بالأمم السابقة ؟ لا ريب في أن الأمر خطير ، وأن الناس عن دينهم غافلون . ولا يقف النهي عن المنكر عند حد من الحدود ، فكل أواصر الدين ونواحيه إذا انتهكت حرمتها فإنه يجب على القادرين على الأمر بالمعروف أن يعالجوا إزالتها بكل ما يستطيعون .

أما ما ذكره صاحب إحياء العلوم من أن بعض السلف الصالح كان يرى العزلة أفضل من الاختلاط ، فذلك إنما يناسب حال زمانه ، حيث كان الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كثيرين . فإذا اعتزل أحد الناس قام غيره بذلك الواجب المقدس .

ولقد أمر الدين الاسلامي المسلمين بالاتحاد وعدم الفرقة ، قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . فيجب عليهم جميعا أن يتحدوا ، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ، ويقوموا بوجباتهم الدينية والخلقية . ومن أول واجباتهم التضامن والاتحاد ، والجهد في سبيل الله ، والدود عن الكرامة والشرف ، ونبتذ الشهوات الفاسدة ، وترك التبذير والإسراف ، والحرص على كل ما يصون أوطانهم . أما الحديث الذي مضى فهو يأمر بالعزلة عند فساد الزمان فسادا مطلقا ، بحيث تصبح قواعد الدين مهجورة عند جميع الناس وليس فيهم من يغار على عرضه ودينه ووطنه ، ولعل ذلك الزمن لم يأت بعد .

عبد الرحمن الجزيري

## مكان المال من المجتمع

قال الله تعالى : « إن ترك حيرا الوصية » : عبر عن المال بالخير ، وهو كذلك متى اكتسب من الوجوه المشروعة ، وبذل في الأغراض الشريفة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحما ، ويؤدي به أمانة ، ويستغنى به عن خلق ربه » .

وقال الشافعي رحمه الله :

لقد طفت في شرق البلاد وغربها      وجرت هذا الدهر باليسر والعسر  
فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى      ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر



# دراسات في القرآن الكريم

- ٣ -

## شبه قد ترد على القارىء

نعم قد يكون مما لا بد منه أن تتوافد الى نفس الناظر فيما أسلفنا من بحث في الآية الكريمة تلك الشبه التي سنوردها :

فلنأخذ الآن يقول : إنه قد اتفهم مما تقدم أن الداعي للتذكير بالعهد المشار إليه في الآية السابقة على التي نحن بصدد شرحها ، هو أن الوفاء به والعمل بمقتضاه يؤدي الى الإذعان برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ما هو الداعي للتذكير بعهد إن وقوا به فأنما يقتضى الاعتراف بربوبية الله وانفراده تعالى بها دون أن يكون له في ذلك شريك ، ولا صلة له بأفعالهم برسالة سيدنا محمد خاتم النبيين ، وبنو إسرائيل معترفون بربوبية الله الخالق العظيم ؟

وإنما لدفع هذه الشبهة نقول : أولاً : أن التذكير بهذا العهد ليس خاصاً ببنو إسرائيل ، بل هو تذكير للناس كافة على اختلاف محلهم وأجناسهم وظاهر أن في الناس المؤمن به والكافر ؛ وعلى ذلك يكون التذكير بهذا تذكيراً بالعام بعد التذكير بالخاص ، كإلزام لبنى إسرائيل ، لما أن ما أم عليه من جحد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإعراض عنها ، ماس لهذا العهد وموهنه

وثانياً : فإن بنى إسرائيل قد كانوا على عقائد وأحوال تتناقى مع الاعتراف بالربوبية ، ومع قدرهم لله حق قدره فإنهم لو ادعوا بالربوبية صحيح الإذعان ، وقَدَرُوا الله حق القدر لما قالوا عزيراً بن الله ، وفي ذلك جهل بالله أى جهل ، ومساس بقدره أى مساس ؛ ولو قدروا الله حق قدره لذكروا سوابق نعمه عليهم وعلى الناس أجمعين ؛ تلك الهمم التي من أجلها تقفبته الرسل بعضهم ببعض لتجديد هداية البشر وإصلاح ما قد يمتري أصول الدين من إفساد أو توهين ، وما قد يطرأ على مبادئه من تحريف أو تشويه ، فإذ كانوا يعامون في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل بعد ما أمسى العالم متخبطاً في ظلام من الفوضى حالك ، وغدا البشر في ثنايا موجبات من الشر متلاطمة . نعم لو قدروا الله حق قدره ما جردوا على تكذيب الرسول محمد وهم يعلمون صدق رسالته ، وكانوا يتوقمونها من حين لآخر ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لما في ذلك من الجرأة على الله ، والاستهانة بوعيده ، الى غير ذلك مما يتنافى مع الوفاء بذلك العهد ،

ومما لو تخلوا عنه لآدى بهم الى الايمان بمحمد والادعان برسالة . وبهذا تدرك في وضوح ما للتذكير بهذا العهد من صلة بالعرض الذى ينصل به العهد الاول ، كما تدرك ما للتذكير به من إفحام لهم وإزام .

هذا ، ولقائل أيضا أن يقول : إذا كان الله قد بين في كتابه المجيد أنه لا تنقطع حجة الناس عليه تعالى إلا أن يرسل اليهم رسلا يبشرون وينفرون ، ويذكرون ويرشدون ، فكيف يعتبر ما أودعه فيهم من عقول تفهم ، وما أودعه في الكائنات من دلائل وآيات تنفهم ، عهداً عليهم وحجة تلزمهم ، يتأبون إن هم بها وفوا ، ويماقون إن هم بها أخلوا ؟

وبإنا دفعنا لذلك نقول : إنه قد كان يصح أن يتحه هذا السؤال لو أن الله لم يكن قد أرسل الى عباده رسلا ، أما وقد أرسل اليهم رسلا يذكرهمهم بآيات الله ، ويدعونهم الى النظر في السماء والأرض وما بينهما ، ليدركوا ما في ذلك من دلائل ربوبيته ، وشواهد وحدانيته ، وآثار قدرته وحكمته ، أما وقد فعل ذلك ، فلم يبق محل لتلك الشبهة .

بقي أنه قد يستدعى ذلك سؤالا آخر ، فلقائل أن يقول . هل يكفى في قطع الحجة على الله وحساب الناس بمقتضى هذا العهد ، أن يرسل اليهم رسولا واحدا ، أو أن الحجة لا تنقطع والعهد لا حساب عليه حتى يتتابع إرسال الرسل ، فيكون في كل فترة من الزمن رسول يجدد للناس أمر دينهم ، وبوقفهم من سبات قد يكون غشيم ؟

وبإنا لدفع هذه الشبهة نقول : إن الذى يتصح من مجموع ما في ذلك من بحوث وأفكار ، هو أن المدار في وجوب الاعتراف بالربوبية ومعرفة الله تعالى والمواحدة على اتخاذ رب سواء ، هو أن يتوفر لدى الشخص أحد أمرين :

( الاول ) أن تبلغه دعوة رسول الى توحيد الله وإفراده بالعبادة والإجلال ، بغض النظر بعد ذلك عن أن يكون الله تعالى قد أرسل رسلا كثيرين ، أو أرسل رسولا واحدا ، ما دامت دعوته قد وصلت على أى وجه من وجوه بلوغها إليهم .

( الثانى ) أن يهيب لمقل المرء داع من نفسه الى النظر والتفكير في شأن الصانع ، ثم يدعوه ذلك الى النظر بالفعل . ومتى توفر للانسان أحد هذين الأمرين ثم هو بعد ذلك يكون قد أهل النظر ولم يصل الى حد التعرف بالله والاعتراف بربوبيته ، ونظر ثم تأدى بالنظر الى اتخاذ غير الله ربا من كوكب أو شئ آخر ، فإنه يكون بذلك مؤاحدا بمقتضى هذا العهد إن هو لم يأخذ به ، ومثابا إن هو وفى بمقتضاه .

وعلى هذا فنقول لبعض العلماء : إن أهل الفترة ناجون ، لا بد أن نسألهم فيه ، فإن هم أرادوا بأهل الفترة من لم تبلغهم دعوة رسول من الرسل ، ولم يصادفهم من الشئون والحوادث ما آثار عقولهم نحو النظر وبمعناها الى التفكير ، كانت نجاتهم عامة بالقياس الى جميع التكليف ،

سواء منها الأصول الاعتقادية مما يتعلق بما يجب للصانع الحكيم ، وما يتعلق بالفروع العملية من واجب ومحذور .

وإن لم أرادوا بهم من بلغتهم دعوة رسول دون أن يواجههم بتفاصيل شريعته ، أو تحركت في نفوسهم دواعي النظر ودفعتهم الى الاعتراف بالصانع الحكيم ، والخالق القدير ، والرب المنعم ، كانت نجاتهم بالنسبة الى الفروع العمالية خاصة ، على معنى أنهم لا يؤخذون بشرهم الخمر ، أو تركهم الصدقة ، مثلا .

ويرى الإمام الأعظم أبو حنيفة أن النظر واجب على كل إنسان وإن لم تبلغه دعوة رسول من الرسل ، ولا يشترط ما شرطناه من أن يعادف الإنسان حادث من الحوادث التي تحرك فيه الداعي الى النظر والتفكير ، بل يرى أن مجرد وجود لانسان وأمام عينيه السموات والأرض ، وأمامه نفسه ، وما في ذلك من آيات وشواهد على وجود الصانع الحكيم ، كاف في وجوب النظر .

غير أن الإمام يرى ، مع إيجابه النظر على كل إنسان وإن لم يتوفر لديه أحد الأمرين المتقدمين أنه إذا أفضى بالنظر نظره الى عدم الاعتراف بالصانع ، يسكون غير مؤاخذ مادام قد فعل ما وجب عليه ، واجتهاده هو الذي أدى به الى اعتقاد غير صحيح .

إلا أن ما نعرفه لذلك الإمام العظيم من بُعد نظر ، ورسوخ في علم ، يحتم علينا أن نحمل هذا على غير الظاهر منه ؛ فلعل مراده من قوله « إنه غير مؤاخذ إن أدى بالمرء اجتهاده الى عدم الاعتقاد بالربوبية » إنما هو الفرض والتقدير ، إذ مثل الإمام أول من يعلم أن آيات الله في أكوانه واضحة جليلة لا يمكن أن يؤدي النظر فيها إلا إلى معرفة الله والاعتراف بربوبيته ؟

علاء الدين محمد بن محمد

## الكرم والتبذير

قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »  
وقال على رضي الله عنه . كن ممحما ولا تكن مبذرا ، وكن مقدرا ولا تكن مقترا .  
وقال سقراط . أفضل السيرة طيب الكسب وتقدير الاتفاق .  
وقال علي : لا تستحي من العطاء القليل فإن الحرمان أقل منه .

## نحوية المسائل الفقهية

### تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

— ٤ —

وصفنا في مقالنا السابق حال الرواية والفنبا في مصر لعهد الصحابة ، وقد كان الى جانب ذلك حركة أخرى تتصل بالفقه اتصالا شديدا ، وربما كانت صورة الفقه فيها أوضح من صورته في غيرها : تلك هي حركة القضاء .

كان أمر القضاء عند المصريين ، قبل الفتح الاسلامي ، منوطا بنواب ماليين أو عسكريين ترسلهم حكومة الروم ، ولم يكن لهم قانون منظم معترف به ، يمكن التحاكم إليه ، والرجوع الى نصوصه ، وإنما كان قانونهم ما يراه القاضي ، الذي لم تكن صلته بالبلاد ومرفقه لأحوال أهلها ، بالقدر الذي ينبغي أن يكون فيمن يتولى مثل هذا الشأن .

فلما فتح المسلمون مصر أنشأ لهم عمرو المهاكم النظامية ، وقسمها الى مجالس دأعة وزمنية ، مؤلفة من أعضاء من الأهليين ذوي نزاهة واستقامة ، وبصر بأحوال البلاد ، وجعل للمتقاضين حق استئناف الأحكام لتتقض أو تبرم (١) .

أما المسلمون فكان لهم قضاء خاص لا تجرى أحكامه إلا عليهم ، فكان لأهل البلاد قضاؤهم الخاص ، وللمسلمين قضاؤهم الخاص ، وكان الخصوم من القبط يلجئون أحيانا الى قضاء المسلمين مرتعين أحكامهم ، فيحكم القاضي المسلم بينهم ، ويحكم عرفهم وأحوالهم ، ويقبل شهادتهم . وأول قاض إسلامي في مصر ، هو كعب بن صنته ، وهو ممن شهد فتح مصر ، وكان حكما في الجاهلية (٢) :

كتب أمير المؤمنين عمرو الى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن صنته على القضاء ، فامتنع كعب من ذلك ، وقال : والله لا يبيحه الله من أمر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ، ثم يمرد أهدا ! ( يقصد أنه تولى هذا الأمر في الجاهلية ، فلا يجب أن يتولاه في الاسلام تورما ) . فقال له عمرو : لا بد من السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فاقض بين الناس حتى أكتب اليه . ف قضى كعب حتى شاور فيه عمرو أمير المؤمنين ، فأعفاه بعد شهرين .

(١) تاريخ مصر لجورجي زيدان ص ٩٢

(٢) تاريخ الولاة والقضاة هكسندى ص ٣٠١ وما بعدها .

ثم تولى القضاء بعده قيس بن أبي العاص من قبيل أمير المؤمنين همر ، ثم ابنه عثمان بن قيس الذي استمر قاضيا حتى مات بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يتم بمصر بعد ذلك قاض حتى قام معاوية ، فولى سليم بن عثر ، وأمره بالنظر في الجراح ، وأن يرفع ذلك الى صاحب الديوان ، فكان الرجل إذا أصيب بجرح أتى الى القاضي ، وأحضر بينته على الذي جرحه ، فيكتب القاضي بذلك الجرح دية على عاقلة الجراح ، ويرفعها الى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتسم من أعطيات عشيرة الجراح ما وجب للمجروح ، وينجم ذلك في ثلاث سنين .

ويظهر أن اختصاص القاضي قبل ذلك لم يكن يشمل هذا النوع من الافضية ، فقد رووا أن سليم بن عثر هذا هو أول قاض نظر في الجراح ، وحكم فيها . ولعل ذلك كان الى الولاية والحكام الإداريين إلخافا بسلطة التنفيذ (١) .

ويظهر أنه كان بجانب القاضي من يبتين وصف الجناية ، ويحددها ، وذلك أشبه بما نعرفه الآن من نظام الطب الشرعي الذي يدخل في اختصاصه تكييف الإصابتة وتحديد الجراح ، فكان القاضي يعتمد على هذا التحديد ، ويقدر دية الجراح على أساسه . قال زيد بن بشر : أدركت رجلا في بيت المال إذا شجّ الرجل أو جرح ، بحث به القاضي الى ذلك الرجل ، فيقول : هذه مؤنوعة (٢) وهذه منقولة (٣) ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فيكتب القاضي بدية ذلك الجرح . . . قال زيد : وكان على ذلك الرجل أرزاق جارية .

ومما حفظ عن سليم بن عثر أيضا أنه كان أول من سجل قضاءه بالكتابة ، قال ابن حجرية : اختصم الى سليم بن عثر في ميراث ، فقضى بين الورثة ، ثم تناكروا ، فعادوا اليه ، فقضى بينهم ، وكتب كتابا بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة بمصر سجل قضائه .

ومن قضاة مصر الذين اشتهروا برأى خاص في العهد الأول ، بشير بن النضر المرني ، كان

(١) يقول محمد بك الخطري فيما كتبه عن القضاء في الدولة الأموية : « ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية ، أما التقصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاية الأمصار » . ويقول ابن خلدون : « إنما كان للقاضي في عصر الخلفاء التصل بين الخصوم فقط ، نعم قد يفوض له الخليفة نظر بعض الأمور العامة ، لا باعتبار أنها داخلية في ولاية القضاء ، ولكن لما يراه في القاضي من الكفاية للقيام بها » اهـ .

من كتاب تاريخ القضاء في الاسلام للاستاذ الشيخ عرنوس ص ٢٥

(٢) المؤنوعة : ما أوضحت عظم الرأس ، أي أظهرته .

(٣) المنقلة : ما يقتل فيها فراش العظم الرقيق ، فوق العظم المعتاد ، لينتجم الجرح .

يقول في قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : الوارث هو الصبي (١) ، أى عليه فى ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه .

ومنهم عبد الرحمن بن حجية ؛ كان يقضى فى الشهود إذا تكاثروا أن يسهم بينهم ؛ فإن كان أحد المدعين أكثر شهودا برحلين أو أكثر كان الحق له ، وإذا كانت السلطة بيد أحدهما ، لجأ بشاهد عدل ، كانت له وإن جاء الآخر بأكثر (٢) .

هذه صورة الفقه فى القضاء ؛ وقد قدمنا قبل ذلك صورة الفقه على يد الرواة والمعتين .  
وينبئ أن يعلم هنا أمران :

أولهما : أن هذه السواحى من النشاط الفقهى كان لها فى البلاد المصرية مركزان : القسطنطية ، والاسكندرية ، لأن المسلمين لهذا العهد ، لم يكونوا قد اختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد ، ولا توزعوا فى القرى والأقاليم وفى ذلك يقول المقررى . « إن الديار المصرية لما افتتحتها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم ، مشحونة بهم ، ونزل الصلابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع القسطنطية ، وبالإسكندرية ، وتركوا ساثر قرى مصر بأيدي القبط ، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى . . . ولم ينتشر المسلمون بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين . . . الخ » .

وما ذكره المقررى هو الغالب الكثير .

الثانى : أن صلة الفقه فى جميع الأمصار بالفقه فى مركز الخلافة كانت وثيقة ، فإن الأمراء والحكام ، والقضاة ، كانوا غالبا يعيرون من قبل الخليفة ، وكانت عقليتهم الفقهية متشابهة أو متقاربة إلى حد بعيد ، وكثيرا ما كانوا يتصلون بالخليفة طالبن رأيه فى قضية من القضايا العامة أو الخاصة ، فتارة بأنبيهم الرئى ، وتارة يفوضهم الخليفة فى العمل بما يرون

(١) اختلف العلماء فى المراد بالوارث فى قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : فقال قنادة والمدنى وعمر بن الخطاب : هو وارث الصبي أن لو مات . وقال غيرهم : الوارث هو الصبي نفسه ، وتأولوا قوله « وعلى الوارث » المولود ، مثل ما على المولود له . وكان محمد ابن جرير يختار هذا القول . وحكى القرطبى فى تفسيره أن من قال هذا القول « بشر بن نصر » . ولا يبعد أن يكون محرفا عن « بشير بن النصر » الذى هنا .

(٢) هذا كله اجتهاد من القاضى ، مرجعه الأخذ بالقرائن ، وشواهد الأحوال ، وترجيح ما يقلب به الظن . قال ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكيمة » فى السياسة الشرعية : « للحاكم أن يحكم بالقرعة ، ويحكم بشاهد الحال ، وشهادة الواحد إذا علم صدقه من غير عيّن . » راجع ص ٧٦ ، ٧٥ من الكتاب .

## الخلاصة :

بعد هذا يمكننا أن نلخص ما تقدم عن الفقه المصري ، لعهد الصحابة رضي الله عنهم ، فيما يلي :

- ( ١ ) كان الفقه يستمد أحكامه من الرواية ، والفتيا ، والقضاء .
  - ( ٢ ) لم يكن للرواية أثر بعيد في الفقه ، وإنما كان الأثر البعيد للقضاء ، ثم للفتيا .
  - ( ٣ ) لم يأخذ الفقه في هذا العهد طائفاً مصرياً خاصاً ، وإنما كان تانصاً في رجاله ، وأحكامه ، غالباً ، لفقه في مركز الخلافة .
  - ( ٤ ) لم ينتشر الفقه الاسلامي في جميع أنحاء البلاد ، وإنما اقتصر غالباً على المراة التي كان بها المسلمون ، فلم يخرج عن كونه فقهاً خاصاً « بالحالية الاسلامية » إلا قليلاً .
  - ( ٥ ) يمكن أن نعد هذه الحلقة في سلسلة تاريخ الفقه المصري ، حلقة التمهيد ، والإعداد ، لما جاء بعد ذلك من العهود .
- « يتبع » محمد محمد المني  
المدرس بكلية الشريعة

## حكمة الشورى

- قال الله تعالى : « وشاورهم في الأمر » .
- وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .
- وقال صلى الله عليه وسلم : « ما خاب من استشار ، ولا بدم من استشار » .
- وقال فيلسوف : لا رأى لمن تقرد برأيه
- وقال المؤمنون : إذا أفكرت من عقلك شيئاً فافدحه بعقل .
- وقيل : الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره .
- وقال حكيم : اجعل شرك الى واحد ، ومشورتك الى ألف .
- وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطئ وقد استشرت ، أحب الى من أن أصيب وقد استبددت .
- قال الحسن البصري الناس ثلاثة : مرحل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ؛ فأما الرجل فذو الرأى والمشورة ؛ وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور ؛ وأما الذى ليس برجل لا رأى له ولا يشاور .

## بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

### فائدة الأربعاء

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

اعتاد كثير من الناس أن يقوموا بعمل فائدة تسمى ( فائدة الأربعاء ) ، فيتوجه من يريد قضاء حاجة من حاجاته أو تصريح كربة ، في يوم الأربعاء قبل الظهر بساعة تقريبا ، الى ضريح سيدى عبد الله القرشى بقنا وبقرا سورة « يس » مرة أو ثلاث مرات بنية قضاء الحاجة ، ثم يخرج متجها الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى ، ويصلى بين الضريحين ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بيده وحذاءه تحت إبطه ويتوجه الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى على هذه الحالة ، ويدعو بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء جميعا وبسيدنا آدم وحواء وبالسيد عبد الرحيم القنوى أن تقضى حاجته ؛ ويمتقدون أن هذه الفائدة على هذا الوجه مرجوة القبول ، ومروية عن السيد عبد الرحيم القنوى . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

#### الجواب :

هذه الفائدة — وإن احتوت على صلاة وقراءة قرآن ودعاء — قد حُدد لها ولاجرائها التى تركبت منها زمان ومكان ، والتركت فيها كيفية معينة : يتجه صاحب الحاجة الى ضريح معين وبقرا فيه سورة « يس » بالنية التى يريد بها ، ثم يمشى فى طريق ضريح آخر حتى يصل الى مكان مخصوص بين الضريحين فيصل فيه ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه وحذاءه تحت إبطه ويتم شوطه الى الضريح المقصود وهو على هذه الحالة ، ثم يدعو هناك بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثانى ؛ وقد افترت هذه العملية فى نفوس الناس ماعنقاد أنها إذا أدبت على هذا الوجه كانت مرحوة النفع ، وإذا لم تؤد على هذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب .

وهذه العملية ، بما قارنها من هذه العقيدة ، وبما فيها من التقريب والالتزامات المذكورة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ولا يشهد بها أصل صحيح ، وذلك فضلا عما يصحبها من مظاهر لا يتفق وجلال الدين وروعة العبادة ؛ فهى بدعة منكرة .

وإن الابتداع فى الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها ، يكون بتحديد زمان أو مكان ، أو كيفية للعبادة التى شرع أصلها ، فما جعل الشارع له كيفية خاصة أو حده له زمانا



أو مكانا كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج ، وجب اتباعه فيما حدده ؛ وما لم يحدد له شيئا من ذلك كالنوافل المطلقة كان التحديد فيه ابتداء وإحداثا في الدين لا يصح عمله ، ولا ينبغي اعتقاده .

أما قراءة القرآن وصلاة الماعلة والتفرع الى الله في المهمات والكرب ، من غير التزام شيء مما ذكر ، ومع مراعاة الآداب الشرعية ، فهي أمور ندب اليها الشرع الشريف ، وصحت فيها الأحاديث .

واللهجة تنصح للمسلمين أن يلتزموا في عقائدهم وعباداتهم وتضرعاتهم الى الله حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئا من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، فإن ذلك أسلم لدينهم ، وأبعد عن مقت الله وخضبه .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . والله أعلم .

\*\*\*

## خدمة المسلم غير المسلم

وجاه الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

هل هناك أي كراهية في أن يستخدم مسلم للمصري ؟

الجواب :

يرى أبو حنيفة رحمه الله أنه يجوز للمسلم أن يكون أجيرا لغير المسلم ، وأن يعمل له بنفسه أو بدابته ، بأجر معين ، إلا إذا كان ذات العمل مما يحرمه الدين الاسلامي فإنه يكون حينئذ حراما .

واللجنة تميل الى هذا الرأي توسمة على الناس ورفقا بهم ، وترى مع هذا أن الاول بالمسلم والافضل له أن يسلك طريقا يتكسب منه سوى خدمة غير المسلمين إذا تيسر له ذلك . والله أعلم .

\*\*\*

## طعام أهل الكتاب

الجنة الزوى . السمك المملح . الهجة المحفوظة .

وجاه الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

الرجاء الاجابة عن أكل وبيع الأصناف المينة أدناه حلال أم حرام على مذهب

الامام الشافعي :

١ — الجبنة الرومي .

٢ — السمك المملح ( التسيخ )

٣ — اللحمية التي تستورد من الخارج داخل علب صفيح ، وتسمى باللغة الانجليزية كورنايف ، لأن بعض الناس يزعمون أنها تدبج على الطريقة الغير الشرعية ، والبعض الآخر يقول عكس ذلك .  
يوسف عفيفي

الجواب :

طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين لقوله تعالى : « أهل لسمك الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .

ولكن إذا تخققنا أن بعض الاطعمة عمل مما لا يحل لنا في شرعنا ، كما إذا عمل الطعام من ميتة أو من لحم خنزير ، فانه يكون حراما علينا ولو أكله أهل الكتاب .

أما السمك المملح فهو حلال من أى نوع كان : رنجة ، ملاحه ، فسيخ ، بكلاء ، نشوقة ، الى غير ذلك من الأصناف . والله أعلم .

\*\*\*

## الحيل لا يقرها الشرع

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي ملخصه .

رجل طلق زوجته ثلاثا الواحدة بعد الأخرى ، ثم عقد عليها بعد ذلك على مذهب الشافعي طبقا لما أفتى به .

وبعد ذلك بمدة قال لها في يوم من الأيام : اعلمي أنه إن وقع عليك مني عین طلاق تكوني محرمة ، وإن رددتك تكوني محرمة ، وإن رددتك تكوني محرمة ، وكان يكرر هذا الكلام دائما في أغلب الأحيان ، وهو يصمم ويحزم بالتنفيذ لو وقع اليين .

وفي يوم من الأيام قال لها : أنت طالق ، فهل هذا اليين يحرمها عليه بالنسبة لما سبق أن قاله ؟ وإذا كانت الاجابة بالنسبة أى أنها لا تحرم (ولو أنه مصمم أن يفعل) فهل تحرم عليه لو ردها بالنسبة لما قاله (وكان مصمما أن يفعل) ؟ وهل لمارد ، أى لها طريقة شرعية لرجوعها الى زوجها ؟ وما هو طريق ردها ؟  
أحمد السيد زيد

## الجواب :

يظهر أن هذا المستفتى أفتاه بعض الشافعية بمسألة العقد الأول ساء على عدم استيفائه بعض الشروط التي يشترطها الشافعية كمدلة الشهود والولي، ورتب على ذلك أن الطلاق الثالث الذي أوقعه متفرقا لا يلزم لأنه أوقعه على غير الزوجة، وبذلك أباح له أن يعقد عليها من جديد .  
ولكن التصرف في المسألة على هذا الوجه باطل لا ينطبق على الشرع الشريف ، لأن العقد الأول قد قلده المتعاقدان مذهب الإمام أبي حنيفة كما هو الشأن في عقود الزواج في مصر، وهو صحيح على هذا المذهب ، وإذن يكون صحيحا محترما في سائر المذاهب ، وترتب عليه جميع الآثار الشرعية ، فيكون طلاق هذه الزوجة ثلاثا متفرقات واقعا عليها ، فأطما لمصبتها ، وتكون محرمة عليه حتى تنكح زوجا غيره .

وبناء على ذلك تقرر اللجنة أن العقد الجديد لا يرى أحدا من الأئمة صحته ، الشافعية وغيرهم في ذلك سواء ، وتنصح اللجنة جهرة المسلمين أن يتجنبوا في دينهم مثل هذه الحيل التي لا تنفق والشرع الشريف ، والتي تحمل أحكام الدين العوبة في يد المحتالين . والله أعلم

محمد عبد اللطيف الفحام

## طرف من كلام العارفين

قال علي رضي الله عنه : إن العقل لأمانة رسم السعودية ، لا لإدراك الربوبية .  
وقال : كل ما يتصور في الأوهام فآله بخلافه .

وقيل إن رجلا سأله قائلا : هل رأيت ربك ؟ فقال : أنا عبد ما لا أرى ؟ فقال الرجل : كيف تراه ؟ فأجاب : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بمحائق الإيمان .  
وسئل صوفي عن الدليل على الله تعالى ، فقال : أغنى الصباح عن المصباح .

وعن ابن مسعود وقد رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ليس الجماعة بكثرة الناس ، من كان معه الحق فهو الجماعة وإن كان وحده .

وقال سفيان الثوري : الجماعة العالم ولو على رأس جبل .

وقال أيضا : إذا رأيت رجلا يحب أن يؤم فأخذه .

## الكلام والمتكلمون

- ٦ -

المعتزلة

نقطة الحديث عن آرائهم :

أسلفنا في الفصل السابق الأصول الخمسة التي اتفق عليها المعتزلة وما تفرع منها من مشاكل هامة ، أما بعد ذلك فقد اختلفوا فيما بينهم اختلافات شتى ، بعضها له نصيب كبير أو صغير من القيمة العلمية ، والبعض الآخر قد بلغ من السخف حدا مضحكا .

فنقسم الأول من أقوال الفرق الثمانية : « والعالم فعل الله بطبيعته » ، أو قول الكمية : « ففعل الرب واقع بغير إرادته » ، إذ أن هذين الرأيين متأثران بالفكرة الفلسفية القائلة بتبعية الباري للعالم دون اختياره لوجوده أو لعدمه ، وأن الصدور عن المبدع الأول طبيعة فيه لا يملك هو نفسه تغييرها ولا تصييرها قاحلة ، ولا يستطيع أن يخضع الموجودات لإرادته ( تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ) ، لأنهم معاولات وجدت عليها كاملة ، فاستحال تخلفها على أي حال .

ونحن لم نعد نعد في حاجة إلى مناقشة هذا الرأي ، إذ أننا أسلفنا مناقشته بالبرهان في فصول نشرناها في هذه المجلة حين عرضنا لفلسفة الاسلام ، فليرجع إليها من شاء .

وكذلك تأثر هذان الرأيان بالفكرة الإغريقية الأخرى القائلة بأن الفرد يُؤَلَّد الفرد بطبع فيه لا يملك أحد تأخيرها . وقد قال بها أرسطو وألح عليها في أكثر من موضع من كتبه ، معلنا أن الكون والفساد متعاقبان على الموجودات تعاقبا آليا متى تحققت شروطه الطبيعية وقع لا محالة . وهذا كان الوالد علة أساسية للولد . وقد نُقل هذا الرأي ضمن ما نُقل من الآراء الفلسفية إلى العربية ، فتأثر به المعتزلة وفلاسفة الاسلام . وقد ظهر بوضوح لا يعرف المواربة في فلسفة ابن رشد حيث جزم بأنه هو وحده الصحيح ، وقرر أن الجوهر السابق هو مانح الوجود للجوهر اللاحق دون احتياج إلى واهب صور أجنبي ، أي أن كل كائن يولد شبيهه دون افتقار إلى فاعل منفصل ، وذلك لأن الجسم المشتمل على صورة في موضوع ، يمكن بواسطة قواه الإيجابية أن يحول المادة إلى الحالة التي يجب أن تكون عليها لكي تتقبل الصورة الجديدة ، وأن يولد الصورة في هذه المادة المتحولة . وإذا فُككون الموجودات ، هو متعاقب على فساد ما قبلها بطريقة فاموسية لا تتخلف البتة .



## الكلام والمتكلمون

ومنها أيضا قول النظامية : « إن الله خلق العالم دفعة ، وإنما التقدم والتأخر في الظهور والكون » . وهذا الرأي متأثر كذلك بالمفكرة الإغريقية التي تقول : « إن جميع أشخاص العالم كامنة في هيولاء ، وإن ظهور هذه الأشخاص ليس إبداءا ، وإنما هو بروز بعد الكون أو انتقال من القوة الى الفعل » ، لأن كل جزء من المادة مشتمل على جميع صور الأشخاص التي يتعاقب بعضها على بعض من هذا الجزء . ففي قطعة الشمع مثلا : صور الثلث والمربع والمستدير وكل ما يمكن أن يصنع منها كامنة فيها . وإذا ، فوجود المادة الأولى يعتبر وجودا للعالم كله دفعة واحدة مادامت صورها جميعها كامنة في هذه المادة .

أما الآراء السخيفة فيها غير ما أسلفناه في ترجمة رحماء المعتزلة قول الحديبية : « إن كل حيوان مكلف » ؛ أو قول الصالحية « بمجواز قيام العلم والقدر والإرادة والسمع والبصر باليتم » . فهذه كلها آراء ليس لها أية قيمة في ميدان العلم الصحيح .

وكما اختلفت فرق المعتزلة في النظريات العلمية ، اختلفت في الآراء السياسية ، ولكن هذا البحث لا يعني الآن .

### الجبهرية :

الجبر عند الجمهور : هو نفي الفعل عن الفرد ونسبته الى الباري . وعند المعتزلة : هو عدم استقلال الفرد بالفعل . فعلى مقتضى التعريف الأول تكون الجبهرية هي الفرق التي صلبت الأفعال من بنى الانسان ونسبتها الى الله ، كالجهمية والنحارية والضرارية . وعلى مقتضى الثانى تكون جميع الفرق التي لم تقل بجمرية الفرد جبهرية . ولهذا عد المعتزلة جميع الصفاتية جبهرية . وأيا ما كان ، فإنه بينما كان المعتزلة يعلنون أن الفرد يخلق جميع أفعاله الاختيارية ، كانت على الطرف المناقض لهم فرق أخرى تنفى عن الفرد كل اختيار وفعل ، وتصرح بأنه كالريشة المملقة في الهواء تحركه الأقدار كيف شاءت ومتى أرادت دون اختيار منه ، ولا تسند اليه الأفعال إلا على حصيل التحرز ، فلا يقال : فعل فلان كذا إلا كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وظلمت الشمس وغربت ، وتغييمت السماء وأمطرت ، وأبنت الأرض وأزهرت . وقد استشهدوا على هذا الرأي بقول القرآن مثلا : « والله خلقكم وما تعملون » على أن تكون « ما » مصدرية ويكون التقدير : والله خلقكم وعملكم ؛ وهو جزم بالتفسير وبسلب الإرادة البشرية سلبا تاما ؛ وقوله : « من يشأ الله يصله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ، « ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء » ، « قل كل من عند الله » ، « إن هي إلا فتنتك تصل بها من تشاء وتهدى من تشاء » .

ولا ريب أن جميع هذه الآيات عندم صريحة في أن الله هو فاعل كل شيء ، وأن الانسان

ليس إلا آلة مسلوطة بالإرادة والقفل ، يُجبرى الإله بها ما يشاؤه من أفعال ، كما يجبرى الإنسان القطع بالسكين والإحراق بالنار دون أن يكون لهاتين الآلتين أدنى تصرف .

ونحن لا ندري كيف كان هؤلاء القوم يفكرون ، وما معنى التكليف والمسئولية والجُراء عندهم ، بل لما إذا هم يحترمون العادل أو الشريف ويحتقرون الظالم أو الوضيع ، مع أنه — لو صح مذهبهم — لما كان للأول فضل في عدالته وشرفه ، ولا على الثاني ذنب في ظلمه ووضاعته ، مادام كلاهما قهورا على فعله وسلوكه خيرا كان أو شرا ؟ ! ولكن السياسة ، ولهاها الله ، هي أساس الدعاية لهذا الرأي ، لأنه لما قام دعاة العباسيين بشن الغارة على أسلاف الأمويين الذين ساءموا في قتال أشقائهم من المسلمين إبان الفتنة ، هرع الأمويون إلى الارتكان إلى القدر المرم الذي شاء هذا القتل ، وصرحوا بأنه لا بد لأولئك المتقاتلين فيها فعولوا ، لأن الأقدار أكرهتهم عليه إكراها . وقد استغل القائلون بهذا الرأي منيلات الآيات التي أسلفناها هنا . غير أن أنصار الدعاية العباسية قد وقفوا على الطرف المناقض من هذا الرأي ، فرحموا أن الفرد مستقل بفعله كل الاستقلال ، مسئول عنه أدق المسئولية ، كما أننا ذلك في مواضعه من الفصول السابقة .

أما فيما عدا هذا الرأي فالجبرية متفقة مع المعتزلة بوجه عام في أهم ما بقي من الآراء ، مثل نفى الصفات ، وإمكان المعرفة بالعقل وحده ، وعدم إمكان رؤية الله في الحياة الآخرة ، وما شاكل ذلك مما أسلفنا آراء المعتزلة فيه . وأولى فرقهم : الجهمية ، وهم أتباع جهم بن صفوان . وثانيتهما النجارية ، وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار . وثالثتهما الضرارية ، وهم أنصار ضرار بن عمرو . وهم كالمعتزلة من حيث إن كل فرقة زادت على سالفها بدعا خاصة بها . وهاك نبذة وجيزة عن كل فرقة منها :

جهم بن صفوان .

هو أبو محمد جهم بن صفوان الترمذي أو السمرقندي ، وهو من موالي بني راسب ، وقد كان صنيعه بنى أمية يدعو إلى حريتهم المغالية ، ويناضل دعاة خصومهم الذين كانوا ينشرون مبدأ حرية الفرد ، كما أشرنا إلى ذلك آنفا .

ولما آذن نجم الأمويين بالافول ، وكان جهم قد انضم إلى حارث بن سريج ذي الراية السوداء ، قتلته سالم بن أخوز في سنة ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م .

ومن أبرز آرائه نعت المذهب العام ، جحوده أبدية الجنة والنار ، وتصريحه بأنه لا يصح وصف الله بصفة وصفت بها المخلوقات كسميع وبصير ومتكلم ، لأن في ذلك مشابهة للحوادث ، ونما يصح أن يوصف فقط بأنه قادر ، فاعل ، خالق ، لأن هذه الأوصاف لا تطلق على أي

موجود آخر غيره - ومن هذه الآراء أيضا إثباته علوما حادثة للبارى يوجد كل منها عند وجود المعلوم . وعلى ذلك رأى بقوله : لانه لو علم ثم خلق ، أفريقي علمه على ما كان أولا يبقى ؟ فإن بقى فهو جهل ، فإن العلم بأن سيوجد غير العلم بأن قد وجد . وإن لم يبق فقد تغير والتغير مخلوق وليس بقديم . وإذا ثبت حدوث العلم ، فلا يخلو إما أن يحدث في ذاته تعالى ، وذلك يؤدي الى التغير في ذاته ، وإن يكون محلا للحوادث ، وإما أن يحدث في محل فيكون المحل موصوفا به ، لا للبارى تعالى ، فتعين أنه لا محل له ، فأثبت علوما حادثة بعدد المعلومات الموجودة (١) .

الحسين بن محمد النحار - وقد انقسمت فرقته الى عدة فروع ، منها : البرعوسية ، والزعفرانية ، والمستدركة . ومن أشهر آرائه الخاصة قوله : إن معنى كون الله صريحا أنه غير مكروه ولا مغلوب . ونحوه - بعد تقييد الرؤية - أن يحول الله القوة التي في القلب الى العين فتدركه بها .

ضرار بن عمر ، وحفص الفرد - هما منشئا فرقة الضرارية ، قد اتفقا على معنى كون الله عالما وقادرا هو أنه ليس جاهلا ولا عاجزا . ولا ريب أن هذه هي سوابق الفلاسفة التي وصفتها بها الباري تخرجها من التألف الذي يلزم الصفات الإيجابية .

### الصفانية :

لما كان القرآن والحديث قد وصفا الباري بصفات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والمطة والحدود ، وعزوا إليه ألقاها في اللغة موضوعة للجوارح الانسانية كالوجه والعين واليد والأذن والقدم وما شاكل ذلك ، فقد اعتقد السلف من المسلمين بالنوع الأول من الصفات ، فقالوا : إنه عالم بصفة العلم ، مريد بصفة الإرادة ، قادر بصفة القدرة . أما النوع الثاني وهو الصفات الظهريّة ، فقد انقسموا فيها الى ثلاث فرق ، ذهبت الفرقة الأولى الى وجوب الايمان بها دون البحث فيها ، وقالوا : « إن التنزيل ندانا بأنه ليس كمثل شيء ، موثقا بأنه لا يشبه شيء من الحوادث ولا يشبه شيئا منها ، إلا أننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ومثل قوله : « خلقت بيدي » ، ومثل قوله : « وجاء ربك » الى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثل شيء ، وذلك قد أثبتناه يقينا (٢) .

وأبرز من عبر عن رأيهم تعبيرا واضحا هو الامام مالك بن أنس ، حيث سئل في معنى قول

(١) انظر صفحة ٩١ من الجزء الأول من « الملل والنحل » للشهرستاني .

(٢) انظر صفحة ٩٦ من الجزء الأول من كتاب الشهرستاني .

القرآن : «الرحمن على العرش استوى» فقال : «الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والایمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

أما الفرقة الثانية فقد رأت تأويل جميع الآيات التي وردت في الصفات الخبرية .  
وأما الفرقة الثالثة فقد جازمت بأخذ جميع الآيات الواردة في الصفات الخبرية على ظاهرها ، فوقعوا في التشبيه والتجسيم ، وساروا فيه الى أقصى حدوده ، وزعم بعضهم أن لله جميع الجوارح ماعدا الفرج والحمية . وزعم البعض الآخر أن له شعرا ولحا ودما ، وأن جسمه يزيد عن سطح العرش بمقدار أربعة أصابع من كل جهة ، الى آخر هذا السخف الذي تأباه العقول المتزنة ، بل العطر السليمة .

وهذه الفرق كلها تسمى بالصفائية لقولها بوجود الصفات . وقد أطلقت على المعتزلة اسم المعطلة لقولها بنفيها . وقد اعتقدت بالكسب المحدود للفرد فتوسطت بين الطرفين المتعارضين : القائل بالحرية المطلقة ، والقائل بالجبر المطلق ، وأطلقت على نفسها اسم أهل السنة ، ولكن حصومها لم يقرروها على احتمارها هذا الاسم دونهم ؟  
الدكتور محمد محمود  
أسناد الفلسفة بكلية أصول الدين

## العلم العلم

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ، فقال : العلم بالله ، والفقه في دينه ، وكررها عليه . فقال الرجل : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم . فقال له : إن العلم ينفعك معه قليل العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل .

وقال وهب : ابذل علمك لمن يطلبه ، وادع إليه من لا يطلبه ، وإلا فتلك مثل من أهدى إليه ناكبة فلم يطمعها ولم يطمعها حتى فسدت .

وقال حكيم : قوت الأجسام المطاعم والمشارب ، وقوت العقل الحكمة والعلم .  
وقال الزهري : تعلم سنة حير من عبادة سنتين ، وثمرة الادب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح ، وأفضل ما أعطى العبد في الدنيا الحكمة ، وفي الآخرة الرحمة .

وقال أبو يوسف : مات لي ابن فأمرت رجلا أن يتولى أمر دفنه ، ولم أدع مجلس أبي حنيفة ، خفت أن يفوتني منه يوم .

تقول : إن هذا هو أعجب مثال للحرص على العلم ، ولكنه ليس بحسن .



# فِي عِلْمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

## الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٧ -

طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشهر فيها العربي بالسيادة المطلقة ، والآفة التي لا تحصى ، وغدت تلك المظاهر التي لمخاضها في العصر الأموي أحلاماً لذيذة ممنعة إذا استعرضها العربي على غيائه هلل وكر ، وما إن يفتح ذراعيه لمعانة ذلك الأمل ، إذا به قد زوى وذبل ، لما يرى من حقائق واقعة ، وشواهد ملموسة .

فلقد جاء العباسيون وعلمت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبعياً أن تلجج ألسنة العباسيين جبهة بالمدح والثناء ، وتؤمن قلوبهم من الأحماق بأنهم حسنة من حسنات الفرس ، وثمرة من ثمار جهادهم ؛ بذلك يجاهر داود بن علي عم المنصور فيقول : « ياهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعة من أهل خراسان ، فأحيانا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجبتنا ، وأظهر بهم دولتنا » .

ويقول أبو جعفر المنصور : « ياهل خراسان : أنتم شيعة وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » . وحينما حضرته الوفاة أوصى ابنه قائلاً : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فاهم أنصارك وشيعةك الذين بذلوا أموالهم في دولك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتعاوَزَ من سيئهم ، وتسكفهم على ما كان منهم ، وتخاف من مات منهم في أهله وولده » .

وكان يقابل ذلك الشعور من جانب العباسيين شعور آخر من جانب الفرس ، ولكنه شعور لا كالشعور السابق ، فلقد تملكهم الزهو ، وسيطر عليهم فرح الانتصار ، وأحسوا بأنهم بناء ذلك المجد ، ومشيديو أركانه ، وبذلك يملن أبو مسلم الخراساني في إحدى خطبه فيقول : « والله ما اخترتم من حيث احتار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم تختارون تيمناً مرة ، وعدوا مرة ، وأموراً مرة ، وأسفياً مرة ، ومقياناً مرة ، ومروانياً مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها غنوة وأنتم صاغرون . . . »

ولم يقف شعور الفرس عند هذا الحد، بل طمع أو مسلم في الخلافة مما أحقد عليه نفس المنصور فقتله ليسلم من شره، وعند ذلك يقول: « وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إثمته الحق عليه ».

وكل أولئك لم يززع مكانة الفرس من نفوس العباسيين، بل ما زال شأنهم يعلو صعودا حتى كان لهم ما فاضت به كتب التاريخ مما لا تقصده في محتنا. والذي يعنينا هنا أن تقرر في غير مواربة ولا التواء، أن المتعصبين على العرب وجدوا تربة خصبة «مشرعة الجباب» فراحوا مسرفين في الدم والقدح، دون أن يصادفوا عتاباً يقف من غلاوتهم، أو يلقوا عقاباً يحد من طغيانهم؛ فترى بشار بن برد حامل هذا الإواء، يطلق لنفسه الممان ما شاء أن يطلق، ويرفع عقيرته مخافرا بخراسان طورا، فيقول:

وجاني مشتر كلهمو      حق، دام لهم ذلك الحق  
ليس من جرم ولكن فاطهم      شرفي العارص قد سد الأفق  
من خراسان ويبقى في الدرا      ولدى المسامة فرعى قد سقى  
وطورا آخر يعضر بالمعجم فيقول

ونبتت قسوما بهم رجئة      يقولون من ذا؟ وكنت العلم  
ألا أيها السائل جاهدنا      ليمرقي، أنا أفك الحكيم  
نمت في الكرام بنى عامر      فروعى وأصل قريش المعجم

ومن عجب أن يقول هذا أمام المهدي وعلى مسمع منته، فلا يعاقبه كما فعل هشام بن يسار! بل يسأله « من أي المعجم أنت؟ فيقول: من أكثرها في الفرسان وأشدّها على الأقران، أهل طخارستان ». وكثيرا ما تبرأ من الولاء العربي ودعا الموالي إلى بيد ولائهم للعرب. فهذا هو صاحب الأغانى يحدث: « أن رجلا من بني زيد شريف قال لبشار: يا بشار: قد أفسدت علينا مواليينا، تدعوم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل! فقال بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب، ولعرعى أركى من صمل الأبرار، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بسسه! ».

فتلك المرأة الجرئة التي تشاهدها في كلام بشار حين يتناول العرب محرما ومنقضا، ويكيل لهم بأوقي مكابيل الدم طاعنا وقادحا، على مرأى من حلفاء العباسيين وأمرائهم، دون أن يحرك أحدا ساكنا فيضرب على يد الباغى ويأخذ بيد المهضوم كما كان ذلك إبان الحكم الأموي، كل هذا يأخذ بيد الناظر السطحي حتى يقف على موطن الداء، ويلبس تهاون العباسيين الذي لم يقف عند هذه التخوم القريبة، بل تجاوزها في الجلاج إلى أعمق وأبعد! وكأنني بالملك وقد استدار

دورته ، وراجع صفحة من تاريخه القديم ، تاريخ الجاهلية الأولى في تلك الفترة التي كانوا يتغنون فيها بمفاخر الأنساب وتقاء الأحساب .

وإن الشواهد على ذلك لا أكثر من أن تحصى ؛ فذلك هو عبد الله بن طاهر - وهو فارسي - يفتخر بنسبه في الفرس ، وبأنهم قتلوا الأمين ، فيقول :

أنا من قد تعرفي نبي سلفي الفرس الهمـاليل  
ويقول : انظر المخلوع كلكه وحـ واليه المقاويل  
فثوى والترب مصحه قال عنه ملكه غبول  
قاد جيشا نحو نائلة ضاق عنه العرض والطول  
من خراسان متمصصهم كليبوت ضما غيل

فالنظر كيف يتفى ابن طاهر بمجده الموروث عن آبائه من الفرس ، والتخليفة هجري من بني هاشم !

ولئن كان من السائع أن يفتخر إنسان بنفسه وبمجنته حتى يبلغ السماء مجدا وشرفا ، ويطاول الجوزاء أنفة وعزا ، فلا يسوع له أن يفتخر بمجره شقيقه بأن قومه قتلوا الأمين وطروا حوا به عن عرش الخلافة ، والمأمون بين الطرب والإعجاب راض عن كل هذا دون أن تأخذه الغيرة لأحبه ! ! وليس هناك من باعث على كل هذا سوى الحرية المطلقة من كل قيد ، وذلك ما أدى بالعباسيين إلى تملت الأمر من يدهم ، وما غلبتهم الفارسيون ولكن كانوا أنفسمهم يغبنون . ولا عجب فقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجيين إلى حد أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح ! !

فن ذلك ما يروي أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو ما رأى بالأمس رأس مجد  
إلى أن يقول

إني من القوم الذين سيومهم قتلت أخاك وشرفتك بمحمد  
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الخضيض الأوهده

لم يرد على أن قال « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا ، وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفي مهدها ربيت » ! !

بذلك وأمثاله أخذ الفرس ، طليقين من كل عقاب ، يعمون في تنقيص العرب والخط من شأنهم ، فيرد العرب قوهم بمثله ، وربما كان أقطع وأفزع .

من ذلك قول فارسي :

بهايل غمر من ذؤابة فارس إذا اقتسبوا ، لا من غربة أو عكسل  
هو راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا ، لا راضة الشاء والابل  
وهكذا نجد ذلك العصر الذي تتحدث عنه مصدر يمن ومنيع خير للأدب العربي ، وإن  
كان معول هدم للعرب أنفسهم ؛ وذلك ما استراه فيما بعد  
أحمد إبراهيم موسى  
تخصص البلاغة والأدب

### ملاحظاتنا على هذه المقالة

إننا ننشر هذه المقالة لا لأننا نعتقد بما جاء فيها ، ولكن لنعقب عليها بما لا بد منه ، فإن  
التشكيك في إخلاص بعض العناصر المكونة للأمة الإسلامية ، يسجل على الإسلام العشل  
في تكوينه أمة اتلافية مالمية ، ويفكك الناس في كل مايجب ، من تلك العناصر المهمة من دين  
وفهم ونظر . وماذا أنت قائل إذا علمت أنهم هم الذين تولوا في الجبر وجود الإسلام مهمة تأصيل  
أصوله ، ووضع علومه ، وتفسير كتابه وجمع سنته وتدوين تاريخه ؟

ألا إن المضي في هذه القفنة الى حدودها المطلقة ، يش على الإسلام شبهة عجز عن شنها عليه  
خصومه في مدى تاريخه كله ، ويعيد لهذه الأمة التزعة القومية ، وهي ما جاء الإسلام ليزالته ،  
وبناء رأي جديد في وحدة البشرية على أنقاضه . فهذا الرأي التجديدي العالي الشأن الذي  
انفرد الإسلام بالدعوة إليه ، وهو في الوقت نفسه من أدل الأدلة على إلهيته ، يحاول المتأذبون  
اليوم انقيادا لشهوة خيالية أن يحطموه ، وهم لا يعلمون أنهم يحطمون معه أقوى دعامة  
للإسلام ، يقوم عليها وجوده ، وتبنى عليها محمته ، وتشاد عليها الدعوة إليه في هذا العصر .

لذلك رأينا أن ننشر هذه المقالة ونعقبها بما نراه من ملاحظات في هذه الناحية ، راجين  
من وراء ذلك الدفاع عن الإسلام نفسه ، الذي وضع لتوحيد النوع البشري أقوم الأصول  
الاجتماعية ، ونجح في ذلك الى حد أن اعتُبر ذلك منه آية خالدة . فنقول :

تمهيد :

أرسل الله خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، كما قال : « وما أرسلناك إلا كافة  
للناس بشيراً ونذيراً » ، فأمن به عرب وفارس وترك وديلم وسودان وحباشان وروم الخ الخ ؛  
وكان هذا الأمر انقلاباً عالمياً ضخماً ، لم تكن تحلم به الشعوب ، ظهرت آثاره في الأمم ،  
فأحدثت فيها انتقالات أدبية واجتماعية غيرت وجه الأرض من حال الى حال آخر .

وكان من الشعوب التي شاع الإسلام فيها ، الفرس ، وهم قوم كانت لهم قدمة في العلوم

والآداب والسياسة ، فسبقوا غيرهم من الشعوب الإسلامية في النظر والتفكير ، والبحث والتمحيص ، وسبقهم أئمة فسروا الكتاب ، وأقطاب حفظوا سنة الرسول ، وأعلام جمعوا لغة العرب ووصفوا علومها وآدابها ، وبرز رجال آخرون منهم في كل مجال من مجالات النشاط العقلي في كل ما يتصل بالدين والدنيا معا . فلم يشمر سائر المسلمين ومنهم العرب ، وكانوا أشد الناس تمسكا بالعمرة القومية في جاهليتهم ، بعمض من ذلك ، لأنهم لو كانوا شعروا بذلك لأسقطوا إمامتهم ، وحقروا زعامتهم . ولكن كيف كانوا يسقطون إلى هذا الحضيض وقد دعا الإسلام من نفوسهم التعويل في مجتمعهم النودجي العالمي على الاختلافات الجنسية والقوية واللونية ؟

ذكر السخاوي في شرح ألفية الحديث للعراق أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قال للزهري : « من يسود أهل مكة ؟ قال : خطأ . قال بما سادهم ؟ قال الزهري : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حققت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن . فقال الزهري : إمامها طائوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهري يمد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربي أم مولى ؟ فكان الزهري يقول : مولى ، إلى أن أتى على ذكر النخعي ، فقال إنه عربي . فقال هشام : الآن فرحت عني ، والله ليسودن الموالى العرب ويحطب لهم على المايه . »

ولما حضرت عمر القاروق الوفاة ، أوصى أن يصلى بالناس صهيب وهو الذي صلى عليه بعد وفاته ، وكان يريد أن يصلى عليه على وعثان فنعما ابن عمر احتراما لوصاة أبيه ، وصهيب هذا أصله رقيق رومي .

كان كل هذا جريا على المبدأ الإسلامي في عدم جواز التفرقة بين الأجناس .

مضى الصدر الأول على هذا ، والصدر الأول هو الحال النموذجية التي يجب أن يكون عليها المسلمون في جميع أحوالهم ، باعتبار أن دينهم عام لجميع الأمم ، وأنهم يؤلفون نواة الأمة العالمية التي يجب أن يكون عليها البشر .

ولكن لما انقضى عهد بني أمية ، وتوطدت أركان الدولة الإسلامية ، وشرع الناس في اقتباس ما يحفظ الاجتماع من العلوم والفنون والصناعات الضرورية لل عمران ، جاء دور الأدب ، والعربية مجال فسيح له ، فكثرت عدد الكتاب والشعراء كثرة لم يوجد مثلها لاية أمة . وهؤلاء كما لا يخفى يجرؤون وراء كل جديد من المعنى يبتكرونه ، وكل طريف من الموضوعات يخلقونه ، فلم يتركوا مجالا يمكن أن يكون موضوعا لشعرهم ونثرهم إلا جالوا فيه . وكان منها موضوع الشعبوية التي نحن بصدد . وكيف يعقل أن يفلت منهم هذا الموضوع ، وجرثومته كانت لا تزال حية في النفوس ، لا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بل بين بعض

العرب وبعضهم الآخر ؟ فقد كانوا يتفاضلون بقبائلهم ، وأشعارهم خاصة بما تقول . فأي مطلع على تاريخ الأدب لا يعرف أن العرب كانوا يضعون من باهلة وسلول وغيرها ؟ ألم يقل السموأل :  
 وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول  
 أو لم يقل جرير :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كها بلغت ولا كلابا

ولم يكن العرب وحدهم على هذا ، ولكن كانت عليه جميع الشعوب أيضا . فهل يعقل وقد جاء عهد الأدب في الإسلام أن لا تثار هذه المسألة بين المتأدين ، وأن لا يتحدثوا بعضهم مادة لأشعارهم ، وكثير من الوصاعين موصوفا لمفترياتهم ؟ وهل كنت تحب أن تخلو من هذه الأفاصيص كتب المحاضرات ، وهي تغمش كل ما تجده بدون نقد ولا تحجيم ، وتغلا منه صحفا لتذيعها طرطا للقارئ ؟

ولما نشأت في مصر للأدب دولة في العهد الأخير ، وجدت من كتب المحاضرات موردا عديدا في هذا الموضوع ، فأخذته بمذاغيره ولم تدر عليه الأسلوب النقدي التحصيلي ، فوقعت في حبال تلك الكتب ، وزادت ما فيها صدقا بما اكتسبته من ألمعية الأدب الحديث ، فلم لا يكون موضوع الشعوية بابا من أبواب الأدب لدى النابتة التي تستمد من حياض أدبائها البارزين ؟ المقال الذي نكتب عليه هنا مثال حي لما تقول .

### مناقشة المقالة التي نحن بسبيلها :

يقول الأستاذ الكاتب : « لقد طويت إسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنحوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشمر فيها العربي بالسيادة المطلقة ١١١ الخ » .

يقول هذا ولا يدري كيف لم ير أن الدولة الأموية نفسها التي يشيد بذكرها ، لم تكن متأثرة بهذه النمرة القومية ، فلم يفرق الناس على عهدها بين العربي والأعجمي ، حتى إنهم لم يمنعوا الأماجم من السيادة الدينية ، وقد بلغت أوجها على عهدها ، كما يتبين لك ذلك مما قدمناه هنا . فهل نحن أكثر منهم فهما لمعنى النخوة العربية ؟

ولست أدري كيف يسوغ لمسلم أن يلفظ بكلمة ( نخوة عربية أو سيادة عربية ) ؟ فهل هي شيء غير نمرة القومية الجاهلية التي نهى الإسلام عن ذكرها ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فصل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟

وقال الأستاذ الكاتب : « جاء العباسيون وقامت دولتهم على كنف الفرس ، فكان طبعها أن تلهج ألسنة العباسيين جبهة بمدحهم والثناء عليهم الخ » ثم استدلل على قوله بما فعله

عم المنصور والمنصور نفسه من الإشادة بذكر أهل (خراسان) . فهل قاب عنه أن خراسان ليست إلا إقليمًا واحدًا من أقاليم المملكة الفارسية المقرامية الأطراف ، وأن أهلها لا يباخون عشر الأمة الفارسية ، فكيف صاغ له أن يفهم من ثناء العباسيين على أهل خراسان ، ثناءهم على الفرس قاطبة ؟ وهل كانت خراسان في نظر أي مسلم من أهل العصر الأول إلا ولاية إسلامية كمنجد والجماعة ونهامة الخ ، وإن كان أهلها فارسيين ؟

وبما يدل على أن شيئًا مما تخيله من طغيان النزعة القومية للفرس لم يحصل ، أن أبا حمزة المنصور قتل أبا مسلم الخراساني ، وهو أرفع رأس كان في خراسان ، فلم يقتطع فيها من أجله عتزان ، أليس ذلك لأن المسألة لم تكن زعة عصبية يتبارى فيها العرب والفرس ، ولكنها كانت جامعة إسلامية لا ترى للحنسيات فيها موضعا ، وهي المعزة الخالدة للإسلام الذي يحاول أن يهدمه بعض أهله اليوم (على غير علم منهم) ولا يستطيعون ؟

ومن عجب أن الأستاذ يستدل بشعر بشار على أنه كان يتنقص العرب في الحين الذي يستشهد بقوله :

نمت في الكرام بنى طامر فروعى وأصل فريش المعجم

فهو كما ترى يستغفر بولائه لبني طامر ، ويمفهم بالكرم ، وفي الوقت نفسه ينقل من الأغاني (ومؤلفها فارسي) أن رجلا قال لبشار : « أفدت علينا موالينا تدهوم الـ إلى الانتفاء منا الخ وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل » ، فقال له بشار : « والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من حمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه »

كأن الأستاذ كان يود أن يسب العربي بشارا بقوله : إنه غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ، فيقاله بشار بالثناء والشكر ، ليدل بذلك على أنه غير متمعيب لنفسه !

على أن بشارا هذا أمر الخليفة المهدي بقتله حين بلغه أنه يميل للزندقة ، فلقى حتفه ، وهو أول من نقل الشعر العربي من سذاجة البداوة ، وأفاض عليه رواء الحضارة .

واستشهد الأستاذ على ما ذهب إليه من طغيان العرة الفارسية بما قاله عبد الله بن طاهر مباهايا نومه ، ومتمدحا بأنهم قتلوا الأمين بن الرشيد :

أنا من قد تمرق نبي سلقى القصر البهايل

وقال مفتخرا بقتل الأمين :

فنوى والترب مضجعه خال عنه ملكه قسول

فاذا افترضنا أن نسبة هذا الشعر لعبد الله بن طاهر غير مشكوك فيها ، وأن المأمون

علم بذلك ولم يحرك ساكنا ، وأن دعبلا الشاعر عجاه واقتخر بقومه فلم يكثر له ، وأن فارسيا  
اقتخر بقومه وتنقمس العرب بقوله :

هم راسة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لاراسة الشاء والابل

إذا افترضنا أن هذا كله صحيح وليس من وضع الوضعين ، ( وقد وضعوا آلاف  
الاحاديث النبوية ، والحكايات الخرافية ، ووضعوا المعلقات ، وزادوا في اللغة ما ليس فيها ) ،  
أفلا يتحجج اللوم فيه الى أمراء المؤمنين أنفسهم ، بل الى الأمة العربية بأسرها ، وقد غضت  
طرفها عنه ، وتركته يتغلغل في كيانها حتى هدم العرب وأسقطهم ، وأدال للفرس منهم ؟ وهل  
هو بهذا يريد أن يذم العرب أم يمدحهم ؟

اللهم إن صح هذا فيكون أول ظاهرة اجتماعية من نوعها في تاريخ البشر . ذلك أن  
تطغى النزعة القومية في شعب من شعوب أمة اثنلافية كالأمة الاسلامية ، فتفتوق على جميع  
تلك الشعوب من طريق الخداع وإضمار سوء النية ، لا من طريق فصائلها الذاتية وبميزاتها  
الشخصية ، ثم يبقى هذا التفوق معترفا به ، ومرضيا عنه ، في أدوار تاريخها كله الى عهدنا هذا ،  
حتى يقوم بعض المشتغلين بالأدب منا فينبه اليه ، فلا يابه بهم أحدا نعم ، لأنك لو سألت أية  
جماعة إسلامية في أية بقعة من الأرض ومن بينهم العرب ، فقلت لهم : من هم سلفكم الصالح  
الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودونوها وبوبوها وشرحوها ولقنوها للشيوخ  
والأئمة ؟ لعدوا لك عشرات من الأسماء في مقدمتهم : الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسعيد  
ابن جبير وسليمان الأحمش وعبد بن سيرين ومجاهد وسليمان بن يسار وعطاء وطلوس ويحيى  
ابن أبي كثير ومكحول وميمون بن مهران والصحاك وزيد بن سالم وعبد بن المنكدر وناقع  
وربيعة الرأي وابن أبي الزناد ووكيع وابن أبي ليلى وسفيان بن عيينة ، الخ الخ ، وكلهم من  
الفرس أو من شعوب شتى .

هذا الانحراف الخطير لدى البائدة الأدبية لدينا ، نشأ من خطأ جليل وقع فيه الأدب  
الكبير الدكتور طه حسين ، ونشره في كتابه ( الشعر الجاهلي ) ، فنلققه طلاب الأدب  
في البلاد الشرقية ومبصوا فيه قلما لا يلون على شيء . فقد قال الدكتور المذكور في كتابه ذلك  
ما موجزه بالأعاطة .

« لم يكبد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبي الفرس قد استعرب وأنقن  
اللغة ، واستوطن الأقطار العربية ، فأخذ هذا الشباب الفارسي الناشئ يشكلم لغة العرب  
ويحاول نظم الشعر ، وتجاوز هذا الى مشاركة العرب في أغراضهم الأدبية والسياسية ، ولم  
يكن هؤلاء الموالي مخلصين للعرب حقا ، وإنما كانوا يستغلون هذه الخصومات السياسية  
ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل صدد العرب .



ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من الممجم الموالي ، وكانوا يستنقلون بسلطان الوزراء من القرس أيضا ، وكانت فائتهم قد استعالت من إثبات سابقة القرس في الملك الى ترويج هذا السلطان الذي اكتسبوه أيام بنى العباس ، وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد الى أهله ، وأن العرب الذين حبل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلا لتلك السيادة . الخ .  
نقول :

الذي يستخلص من هذا الكلام أن هؤلاء الموالي قد عمتهم روح الشر ، فلم يكونوا مخلصين في عملهم ، فهبوا ينظمون الشعر ويتدخلون في السياسة ، ويطلبون العلم ليستعيدوا ما كان لقومهم من سيادة على العرب ، وليشفوا ما في صدورهم من غل عليهم ، وقد نحسوا في ذلك بمالاة الوزراء لهم ، وكان جلهم من بنى جلدتهم .

هذا كلام في نظرنا بعيد عن التحقيق ؛ فإليك رأيت أن هؤلاء الموالي نالوا السيادة العلمية على عهد بنى أمية ، ولم يكن إذ ذاك وزراء من القرس يؤيدونهم ، بل كان الأمر كله بيد العرب ، ولم يشعر العرب أنفسهم ، وهم أهل ذكاه وفطنة ، أن هؤلاء الأئمة الاعلام من القرس الذين توزعوا سيادة الاقطار في العلم كانوا يضررون السوء لهم . ويبعد عن العقل أن أمة يرمتها في يدها الحكم تغيب عن نية شر تضمرها لهم فئة فتخولهم قيادتها العلمية ، وسيادتها الدينية ؛ كما يبعد عن العقل أن تجمع هذه الفئة على هذه النية الفاجرة ولا يفتضح أمرها لهذه الأمة في الاجيال المتعاقبة ، فتبقى على احترامها لهم ، وتبقى على اعتبار أفرادها أئمة لها في الدين الى هذا العهد ، حتى يقوم منا أديب بعد مضي ثلاثة عشر قرنا فيكشف عن دحية أمرهم ، فلم يكثر بما كشفه أحد ، وبعض الناس في احترامهم الى أبعد حد .

إذا فاز أدباؤنا المعاصرون بترسيخ هذا الخيال في العقول ، فبأي عين ينظر الناس الى علومنا الدينية وجل وضعنا ومؤلفينا من الامام ؟ فهم الكثرة الساحقة للفقهاء والمفسرين والمحدثين والاصوليين والمتكلمين ، وكتبهم عليها التعويل في جميع معاهد العلوم الدينية في العالم كله ، في التدريس والتحقيق والفتوى الى يومنا هذا ؟

وإذا عرفت أن العالم كله في العصر الراهن اعترف بعظم شأن النهضة الدينية والعلمية والادبية للمسلمين الاولين ، واعتبروها من الانتقالات الجديرة بالاحلال والاكبار ، فهل كانت هذه النهضة في جلالها وعظمتها قائمة على هذا الاساس المتداعي من الضائرات التي دنستها الضغائن ، والقلوب التي أفسدتها الاحقاد ؟

الهم إن هذا لا يستقيم لعافل ، ولا يمكن أن يعتبر رأيا جديرا بالاحترام . فلنقلع عن هذه الخيالات إن كان بنا الى سمعنا العلمية والعقلية حاجة .  
محمد فرير ومجدي

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٥ —

### الادب المصري

لنا هنا بصدد تفصيل القول ، واستقراء مناحيه ، في أنواع الادب ، وحفظ كل نوع منه من النهوض ، وقسطه من الضعف ، فوضع ذلك معاهد التعليم ، وحجرات الدرس ، إنما هي نظرات يسودها الإجمال ، وتغلب فيها الأحكام العامة ، ليخف تنمها ، ويسهل تناولها على قراء المجلات ، وسوادهم الأغلب ليس من هم فلسفة التعميل ، والتعمق في استقراء الأسباب ، والتدقيق في إفصائها الى المسببات ، إلا على حال تمنى فيها غلبة الظن ، عن نشدان اليقين ، وإن صح أن في القضايا الأدبية يقينيات ينقطع عندها حبل الشك ، ويتم بإيرادها إيمان الباحثين . على أنما على استعداد لأن يجاذب من يتنازعنا الحديث أطراف البحث فيه ، حتى نفتهى الى حد يحسن السكوت عليه ، فالطمأنينة العلمية ، والرجوع الى الحق ، وتحكيم الحجة ، دستور غير مكتوب ، ليس لمن خرج عليه رأى محترم ، ولا مذهب منتهج ، في شريعة العلماء ، وأصحاب الفنون .

في غضون ما أسلفنا من فصول هذه النظرات ، أن التزام عمود الشعر العربي الجاهلي والاسلامى ، شرط أساسى في تقويم الشعر ، واعتباره في نظر الباقدين ، وأن الشعر مع ذلك خاضع لناموس التعديد ، يجوز ويسمو كلما استطاع المواءمة ، بين الصور القديمة ، والصور الحديثة ، وإلباس المعانى المنحددة ، مطارف الأساليب العربية القُصْب ، التي لا تخلق على تناول الأيام ، ولا تبلى على قدم الدهر ، بل :

يزيدها قدم اليالى جنة وتطاول الأيام حسن شباب

ويسقط ويسف ، كلما جد على القديم ، وبدا في ثياب من أكفان الموتى ، وكلما تعرى من ثيابه التقليديّة جملة ، وخطر في زى « كرتقالى » غريب مما ألف ، لعبد مما عرف .

ولا شك أن المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، يعتبر بحق مؤسس دولة الشعر في العصر الحاضر ، اليه انتهى العهد التقليدى البحث ، وبه ابتدأ العهد الذهبى للشعر المصري ، فلا عجب إذا غلبت على شعره النزعة التقليديّة ، وكادت تستبد به مجازاة السلف الكريم من الشعراء ، فانه من عشائهم درج ، وفي مدارسهم تخرج ، وما الحب إلا للحبيب الاول . بيد أنه قد

انتقل بالشعر من المجال الضيق المحدود في الأساليب والمعاني والأغراض ، الى أفق أرحب ، وجو أفسح ، وفيض غير محدود من حزالة الألفاظ ، ونغامة المعاني ، واتساع الأغراض ، وطول النفس ، مما كاده يذ حول السابقين ، ويحمل حول اللاحقين ؛ وما قرأت مطلع قصيدته في رثاء أبيه :

لا فارس اليوم يحصى سرحة الوادي طاح الردى بشهاب الحرب والسادى  
إلا ذكرت به مطلع قصيدة الشريف الرضى في رثاء أبيه :

منابت العشب ، لاحام ، ولا راع مصى الردى بطويل الرمح والساع  
ولا قرأت حماسه ، وذكر مواقفه الحربية ، إلا تحملت أبا فراس الحمداني يتكلم .

ولو نزع غلاف ديوانه ، وعناوين قصائده ، لرده قارئه الى العصور الذهبية للشعر العربي . وعلى الجملة لقد كان البارودي رحمة الله عليه ، عباسيا شعره ، عصريا بزمه .



حاصر البارودي شعراء إسلام ، رفعوا لواء الشعر خفافا ، وتبوءوا من منازل عروشها مُشْرِفة منيفة ، بولتهم إياها ثقافتهم التي جمعت بين القديم والجديد ، عاتوا بالمطرب المرقص من أفانيل البيان ، وكان أبرز هؤلاء ، المرحوم اسماعيل صبرى باشا ، فقد تلقى علومه في قرنسة ، وكان لذلك الأثر البارز في شعره : معانيه وأساليبه وأخيلته ؛ ثم في توجيهه ، إذ جعله جيبا من النوع الرقيق المشاكل لتلك الماطقة الناعمة ، والحاشية الهينة ؛ والذي لا يصلح أحيانا لأنواع من الشعر ؛ وأذكر الظن أن ذلك كان السبب الأول في بعده من الشعراء المقلين ؛ وإن كان على إقلاله من المبدعين ، وفي الصدر من المجددين .

ثم جاء شوقي فلأ الدنيا ، وشغل الناس ، كما ذهب القول في المتنبي ؛ وكان — بحق — أمير الشعراء ، إذ صرب بالسهم الأوفر في كل فن من فنون الشعر ، وقطع ، وقصد ، وكرج ؛ فهو الشاعر الكامل في نظر التقاد ؛ وهو في كل أولئك ، يبلغ من الإجادة فوق الإرادة . وأقسم ما قرأت من قصيدته النبوية ، التي مطلعها :

بـ محسوس يُتَبَيَّنُهُ      كـ لا جفبك يملئه  
ها كادا لمهجته      ومنك الكيد مُنْظَمُهُ

قوله :

بروحى البان يوم وكنا      من المقدور أنعمته  
ويوم طمئنت من عصن      معلّمه مُنْعَمُهُ

قَضَاهُ اللهُ نَظْرَهُ      وَلُطْفُ اللهِ مَبْسِمُهُ  
 رَمَى ، فَاسْتَهْدَتْ كَبْدِي      فِي الرَّأْيِ ، وَأَمْتَهُمُ  
 لَهُ مِنْ أَضْلَى طَاعٍ      وَمِنْ حُبِّ يَسْمُهُ  
 وَمِنْ قَلْبِي وَحَبْنِيهِ      كِتَاسٌ بَاتَ يَهْدُمُهُ  
 غَزَالٌ فِي يَدَيْهِ التَّيْبُهُ ،      بَيْنَ النَّاسِ يَقْسِمُهُ  
 كَأَنَّ أَبَاهُ مَرَّ بِأَحْمَدَ الْهَلْدَى      بِكَلِمَةٍ

إلا قلت : هذا ما أرادت الشعراء أن تقوله فأخطأته ، ونكت الديار ، ووقفت على الإخلال ، وهو القُستقُ المُقشَّر الذي لا يشبع منه ؛ لا شعر عمر بن أبي ربيعة ، كما قال الأولان .

هذا مثل من رقيق شعره ؛ فقرأ بعد ذلك من قصيدته : « الحرية الحراء » ، لتري مثلاً من الجزالة والغمضة ، يذكوك روعة ، ويهرك جلالاً ؛ وتعرف من هذا وذاك ، ومن غير هذا وذاك ، أنك أمام شاعر ، يستطيع إذا شاء أن يسمك غرد البلباب ، وقصف الرعود ، ويريك نسج الربيع في مطارف الروض النضير ، ومواقع القنا والسيوف في الأعناق والنحور .

وجرى في حلبة هؤلاء الفرسان الثلاثة ، مصطلون كانوا يجاذبونهم هُذب الإجابة ، ويجارونهم في مبادئ الإبداع والإحسان ؛ أدركناهم ، وقد ملئوا الوادي السعيد غرداً وصعراً ، يسى شعراً ؛ وكان لهم في مطلع كل موسم جولة ، وفي كل حادث صولة ؛ وكانت دولة الشعر بهم قائمة السوق ، وسوقه بهم دائمة النفوق .

لما تصاعدت دراكا هذه البدور اقوامع الى سماء الآخرة ؛ استيقظ في نفوسنا الأمل في أن البقية الباقية من الشعراء الأحياء في مصر ، وهم محمد الله كثيرون ، سيمشون النغور التي خلت في دولة الشعر ، وأن هذه السكواكب المتلألئة ستسدر في آفاقه ، التي خلأها بدورها ، وأن أولياء الشعر سينشدون فخرين :

بدور سماء ، كلما انقضَّ كوكب      بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

ولكنني أخشى أن أقرر أن شواهد الحال الى اليوم ، لا تعين على تحقيق هذا الأمل ، إلا في شكل مصغر ؛ فلقد فتر الشعر فتوراً يشبه الجود ، ولم ينشط منه إلا النوع القناني ، الذي هو من قبيل الموشحات والأزجال في أغلب الأحوال ، والذي لا يبد من الشعر إلا على ضرب من التساهل ؛ بل لقد نُظمت أخيراً مسابقة ، فاز فيها وشاح واحد ، بحانث ثلاثة من الرجالين . ولقد زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ؟ بهذه الحرب الفروس ، فلم تقرأ فيها من الشعر ، إلا هذه المنظومات المبهلة التي تطلع بها علينا الصفحات الأدبية من الصحف اليومية ، وغنائها وضعفها مما يسى الى الشعر ، أكثر مما يحسن

إليه . وليس معنى هذا أنه ليس في مصر شعراء ، كلا ، فالشعراء المجتودون في مصر كثيرون ،  
 سأعرض لبعضهم فيما يلي إن شاء الله ، غير أن الظاهرة المعبية ، أن هؤلاء الشعراء قد أحبلوا ،  
 واكتفى أكثرهم من الاتصال بالشعر ، بأن يعيد نشر ما سبق إنشاؤه ونشره في المدة التي كانت  
 مزدهرة بالشعراء الزاحلين ، ولولا ما لهم من المسكنة السامية في نفسى لذكرت أسماءهم ، وعناوين  
 قصائدهم ، ولكننى أدع ذلك لوجه الأدب ، وأستخدمة سلاحا في مضايقتهم عند اللزوم .

أما تحليل هذا العنود ، وبسط ما يترجع عندى من أسبابه ، فوعده الحديث الآتى ،  
 فلقد طال بنا هذا الحديث .

كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

## كلمات حول الجود

قال على كرم الله وجهه : السخاء ما كان ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة خياء .  
 وقال ابن عباس رضى الله عنهما لابن أخيه : أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة ،  
 فإذا سألك فاعطه نحن وجهه حين يذله لك .  
 قال شاعر في هذا المعنى :

ما اعتاض بأذى وجهه بسؤاله      عوضا وإن نال الغنى بسؤال  
 فإذا السؤال مع السؤال وزنته      رجح السؤال وخف كل نوال  
 وقال غيره :

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت      من ماء وجهي إذا أفنيت عوصا  
 وقيل موجزا : أجل النوال ، ما وصل قبل السؤال .  
 وقيل : أولى الناس بالنوال ، أزهدهم في السؤال .  
 ومما نسب الى على كرم الله وجهه من الشعر ولا نطق أنه له :

سأمنع مالى كل من جاء طالبا      وأجمله وقفا على القرض والغرض  
 فأما كريم صفت بالمال عرضه      وإما لئيم صنت عن لومه عرضي

في عجز البيت الأخير نطر ، فإن الرصوخ للؤماء قد أوجد في الشرق طائفة تتجر بالهجاء ،  
 وقد استهتروا فيما هم فيه حتى فرضوا على الناس الاتاوات ، فهؤلاء يحرم إعطاؤهم ليقلموا  
 صمام فيه ، وإلا اعتبر معطوهم شركاء لهم في إفساد المجتمع .

# حَيَاتُ خَلِيفَةِ الْأَسْلَامِ

عبد الله بن الزبير

أمة من السطوة في إهاب وجل ، وعقريه موروثه ، ونفس طموح ، وروح وفاب ، وهمة دون غايتها مناط الجوزاء ، أحوج ما يكون شباب الاسلام في عصرنا الحاضر الى التأسي به في عصاميته التي جعلت منه شخصية فاضلت دولة استقام لها الملك على أطراف الاسنة وشما الصوارم ، ولسكها عوامل التربية الاسلامية ، لا يستعصى عليها إعداد الأبطال وقادة الأمم إذا أخذت بزمامها يد صالحة ، واستقيت من منابعها الفيضة بالحياة الزاخرة بمخايف النفوس ودفعها الى الحرم على الموت لتوهب لها الحياة ، بل هي مدرسة المرأة المسلمة في بيتها إذا أخذت بقيادها امرأة كاستماء بنت أبي بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير ، فإذا هي مصنع الرجولة في أكل مهانها وأسمى مبانها .

في صحيح البخاري أن ابن عباس وصف عبد الله بن الزبير فقال : « عفيف الاسلام ، قارئ القرآن ، أبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت الصديق ، وحده صغية بنت عبد المطلب حمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمه أبيه خديجة بنت خويلد . فهو قد أخذ بأطراف الجهد والسيادة في حبه ، وشرف بأعظم الفضائل في نسبه ، وزكيت نفسه فاستشرف الى أريكة الإمامة العظمى حتى إذا كان منها إجماعية قاب قوسين أو أدنى ، غلب القصاص ، وبلغ الكتاب أجله ، ولقي أبو خبيب ربه شهيدا مجاهدا في سبيل الحق والعدل ، فكان مثلا مضروبا للعزة الاسلامية ، والسطوة العربية .

ولد عبد الله بن الزبير حين شب الاسلام واستقامت قناته ، وقويت شوكته ، وأخذ يباذل الوثنية بالسيف ، ويخوض في سبيل الحق غمرات الموت بمجنده الفر البهليل ، فكان أول ما تفتحت حواس عبد الله أن شهدت مواقع العزة والفضال ، وسمع أول ما سمع أثناء غزوات الاسلام واستبسال أبطال الاسلام ، وفي طلبهم أبوه الزبير بن الموام . روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : « كنت يوم الأحزاب تحملت أنا وصهر ابن أبي سلمة في النساء ، فمظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بني قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت يا أبت رأيك يختلف ، قال - أو هل رأيته يا بني ؟ قلت - نعم ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأت بني قريظة فيأتني بحجرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، فقال : هذاك أبي وأمي . »

رأى ذلك عبد الله ورأى غيره ، وحسنه لم تعد الخامسة ، فكان كل أولئك محضاً لحياته منذ تنفس في المهد . يحدّثنا الثقات من كتاب السيرة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما حملت بعبد الله بن الزبير عمك ، قالت : تخرجت وأما ممت فأنيت المدينة وزلت بقاء ، فولدت بقاء ، ثم أثبت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصفته في حجره ، ثم دعا بتمرة فضفها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل في حوفه ريق النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم حكه بالتمرة ودعا له وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الاسلام لمهاجرين بالمدينة . قال أبو هريرة بن عبد البر في كتاب الاستيعاب : « وقد فرح المسلمون بمولده فرحاً شديداً ، وكبروا حينما بشروا به ، لأن اليهود قالت : قد أخذناهم (سعرناهم) فلا يولد لهم بالمدينة ولد » .

ولم يكد عبد الله يبلغ سن الترغيب في تمود العبادة والخير طقلاً يلعب مع لداته ، حتى أمره أبوه الزبير أن يذهب ليبيع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً بركته له ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم تبسم له وبأبىه وهو ابن سبع سنين . وكان عبد الله منذ نشأته جريشاً شجاعاً مقداماً ، لا يهاب ولا يعزع . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم في غلّة من قرين ترعرعوا : عبد الله بن حمفر ، وعبد الله بن الزبير ، وهريرة بن أبي سلمة ، فقيل : لو بأيتمهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ! فأتى بهم إليه ، وكانهم تسكّمكموا ، فاقبض عبد الله ابن الزبير أولهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه ابن أبيه » ، وكان أبوه كما أسلفنا من أشجع وأحرأ أبطال الاسلام ، وهذا سر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه ابن أبيه »

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يمر في إحدى سكك المدينة ، وأطفال فيهم عبد الله بن الزبير يلعبون ، فلما رأوا عمر تفرقوا سوى ابن الزبير فإنه بقي في مكانه لا يرم ، فقال له عمر : « لم تذهب كما ذهب أترابك ؟ » فقال عبد الله : « لم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك يا أمير المؤمنين ، ولم أكن مذنباً فأخافك » . وهكذا ترى شخصية عبد الله وهو في غسار الصبا وكن الطقولة قوية متينة ، نراه شديد المراس ، قوى الشكيمة ، لا يستحدي ولا يلين ، ولا يسمع لغير صوت ضميره ، ولا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يبغض أشد البغض حياة الجود والاستسلام ، وقد نبأه النبي صلى الله عليه وسلم لشأنه في كلمة جامعة روى أبو يعلى والبيهقي : « أن عبد الله بن الزبير حدث أنه عاصراً ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتحم ، فلما فرغ قال يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمد إلى الدم فشربه ، فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الله ما صنعت بالدم ؟ قال جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ؛

قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، قال : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك ، وويل لك من الناس ! لا تمسك النار إلا تحلة القسم . قال بعض التابعين : فكأنوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تجاوز سن عبد الله بن الزبير التاسعة ، كما صرح به الإمام الشافعي في الرسالة ، وتولى جده لأمه أبو بكر الصديق الخلافة ، وتوقف بنو هاشم أول الأمر من بيعته لما كانوا يرون من حقهم فيها ، وانحاز إليهم في ذلك أبو عبد الله الزبير ابن العوام لمكان أمه صفية بنت عبد المطلب من الدوحة الهاشمية . وذكر الرواة أن عمر بن الخطاب ذهب إليهم في عصابة من الانصار فيهم أسيد بن حضير وسامة بن أشيم ، فقالوا لهم : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بالسيف ، فقال عمر : عليكم بالرجل لحذوه ، فوثب إليه سامة بن أشيم فأخذ السيف من يده وانطلقوا به ، فبايع ، ثم بايع بنو هاشم .

لم تسمح سن عبد الله في هذا الوقت بشكيق موقفه من خلافة حذو الصديق وموقف أبيه منها ، ولم يكن الزبير ليحط في حبل الهاشميين بانحيازهم إليه ، ولكنه كان يطلب الجهد لنفسه متربصاً به سوانح الشهنز حتى أتيت له في رهط الثوري أولاً ، وفي خلافة عثمان ثانياً ، وفي هذه المرة تجلت نفسه واضحة ، فقد روى البخاري في صحيحه « أن عثمان بن عفان أصابه رفاف شديد سنة الرفاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش ، قال : استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال : نعم ، قال : ومن ؟ فسكت ، فدخل عليه رجل آخر فقال : استخلف ، فقال عثمان : وقالوا ؟ فقال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فسكت ، فقال : فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال : نعم ، قال : أما والذي نفسي بيده إنه خير مما علمت ، وإن كان لأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! . ويظهر أن غلبة الهاشميين على الزبير في المرة الأولى وقلة أنصاره ، وقرب العهد جعلته بكل أمره إلى علي بن أبي طالب ولم يطلب لنفسه شيئاً ، فلما بلغ عبد الله أشده واستوت رجولته ، وتكثفت مطامحه ، لم يزل بأبيه حتى جعله يبين عن ذات نفسه ، ويقف موقفاً صريحاً يبعد بينه وبين أخواله من الهاشميين ، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب : مازال زبير يُعِدُّ من أهل البيت حتى نشأ عبد الله .

ظلت مخايل النسل والشجاعة في عبد الله بن الزبير تبدو قوية قاهرة ، في بطولته ، وإقدامه وفصاحته ، يشهد بها مواقع النصر للإسلام جدياً صادق اللقاء ، عظيم الإيمان ، ثأت الجنان ، اجتمع مع أبيه في وقعة اليرموك ، وشهد فتح إفريقية ، وكان البشير بالفتح إلى عثمان رضى الله عنه ، وكانت هذه البشارة فتحاً جديداً في حياة عبد الله ، كشفت بها العناية الإلهية عن فضائل اشتملت عليها نفس عبد الله ، هي عدة الأبطال في غمرات الحياة . روى ابن عبد ربه في كتاب المقدم القريب قال : قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع ، فقال له : يا بني أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني أهيئ لك مني لهم أرقام عثمان في الناس خطيباً حمد الله



وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فقال : « الحمد لله الذي أَلَفَ بين قلوبنا ، وجعلنا متعاضدين بعد اليقظة ، الذي لا تجعد دعاؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله ، انتخب هذا صلى الله عليه وسلم فاختاره بملحه ، وأثمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعواناً ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبة ، فأمنوا به ، وعزروه ، ووقروه ، واجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهج الواضح ، والبيع الرافع ، وبقي منهم من بقي لا تأخذه في الله لومة لائم . أيها الناس : رحمكم الله ، إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنا مع وال حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، وكان يسير بنا الأبردين ، ويخفئ بنا في الظهار ، ويتعد الليل جلا ، يسجل الرحلة من المنزل الجذب ، ويطيل القبت في المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربا حتى انتهينا إلى إفريقية ، فقتلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورفاه الابل وقمعة السلاح ، فأقنا أياما نجح كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعونا إلى الإسلام والدخول فيه ، فأعدوا مع ، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقنا عليهم ثلاث عشرة ليلة تتألم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما رئس منهم قام حطينا بحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبقتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون في خورم وملاعهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التي كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيتا واسعا ، بلغ فيه الجنس خمسمائة ألف ، فصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد قررت أعينهم ، وأغنام النمل ، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين ، أبشروه وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحذوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد من القوم المجرمين »

ثم سكنت ، فنهض أبوه الزبير فقبله بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض ، والله سمع عليم ، يا بني ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى سمعت أبا

صالح إبراهيم هرجونه

## التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجري الى عصرنا الحاضر

### الامام الأعظم أبو حنيفة

دواست في حياته الاولى والعلمية

#### ١ — لماذا اشتغل في أول أمره ؟

اشتغل الامام أبو حنيفة في أول أمره تجاراً ، فكان خزازاً يشتري ثياب الخنز ويبيعهما ، وكان له وكلاء يوصلهم الى الجهات لشراء ثياب الخنز ويبيعهما ، وكان ماهراً في التجارة مسوداً فيها ، وعنده رأس مال كبير . أما سيرته في التجارة فكانت قائمة على الأمانة والصدق وحسن المعاملة . وما زال أبو حنيفة يختلف الى السوق للبيع والشراء ، حتى قبض الله تعالى له الامام الشعبي فأرشده الى طلب العلم ، وبجالة العلماء ، لما رآه من كامل استعداده ووفور عقله ، وفرط ذكائه ونجايته ، وشدة يقظته ، وحسن أخلاقه . ولقد أشار الامام أبو حنيفة نفسه الى شيء من هذا فقال : « مررت يوماً على الشعبي وهو جالس ، قدماي وقال لي : الى من تختلف ؟ فقلت الى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلم . فقلت : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال لي : لا تفعل ، عليك بالنظر في العلم وبجالة العلماء ، فأني أرى فيك فطنة وحركة ويقظة . فوقع في قلبي كلامه ، وهزني الى طلب العلم ، فتركت الاختلاف الى السوق واشتغلت بالعلم ، فنفعني الله تعالى بقوله .

#### ٢ — كيف تعلم أبو حنيفة ؟

ولقد كان من نعمات إرشاد الشعبي أبا حنيفة ، أن شرع في طلب العلم ، فأخذ ينظر في علم الكلام ، لأنه كان يمدد من أفضل العلوم لكونه في أصل الدين ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار فيه وفي طرائق الجدل رأساً يشار اليه فيها بالبنان ، ولهذا دخل البصرة نيفاً وعشرين مرة لمجادلة طبقات الخوارج والحشوية وأهل الأهواء وأرباب الخصومات والجدل ، وكان أكثر فرقة بها ، وكان يملك في كل مرة من هذه المرات سنة أو أكثر أو أقل لمنازعة هؤلاء . ثم ألهم أن الصحابة ومن اليهم مع أنهم كانوا على ذلك أقدر وأعلم بحقائق الأمور ، لم ينتصوا مجادلين ولا مازعين ، بل أمسكوا عن ذلك ، وخاضوا في الشريعة وفي تعليم الناس ، لهذا ترك طرائق الجدل واشتغل بما كان يشتغل به سلف الأمة الصالح .

## ٣ — لماذا اشتغل بالفقہ ؟

كان لأبي حنيفة بالمسجد حلقة يدرس فيها علم الكلام ، خاتمه امرأة ذات يوم وسألته هذا السؤال : رجل له امرأة أمة يريد أن يطلقها -سنة- فكيف يطلقها ؟ فلم يهتد لأجواب ، وأمرها أن تسأل « حماد بن أبي سليمان » وكانت حلقة درسه بجوار حلقة درس أبي حنيفة ، ثم تعلمه بالجواب ، فسألت حمادا فأجابها بقوله : يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حبشتين ، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج . فرجعت المرأة إلى أبي حنيفة وأحبرته بنتوى حماد ، فقال أبو حنيفة : لا حاجة لي بالكلام ويكفي ما عرفته منه ، ثم فكر في الفقه ، فكلما قلته وأداره لم يزدد عنده إلا جلالة وحلاوة ، ولم يجد فيه عيبا ، بل إن أمر الدين والدنيا لا يستقيم إلا بعرفته ، لذلك عزم على الاشتغال به ، وتحول إلى حلقة « حماد » فوجد عنده كل ما كان يحتاج إليه ، وكان يسمع منه المسائل فيحفظها ويحفظها أصحابه ، فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بجوارى غير أبي حنيفة ، فصاحبه عشر سموات ، وقيل ثمان عشرة سنة ، ثم أحب أن يعتزله ويستقل بحلقة لنفسه ، وعزم على تنفيذ ذلك . وهنا يحدثنا أبو حنيفة عما حدث بعد هذا قال : فلما دخلت المسجد ورأيت حمادا لم تلعب نفسي أن أعتزله ، فجلست معه . ثم جاءه نعي قريب له مات بالبصرة ، وترك مالا ولا وارث له غيره ، فأمرني أن أجلس مكانه ، فلما خرج وردت على مسائل لم أسمعها منه ، فكنت أجب عنها ، وأكتب جوابي ، فغاب شهرين ثم قدم ، فعرضت عليه المسائل وأجوبتها ، وكانت ستين مسألة ، فوافقني في أربعين ، وخالفني في عشرين ، فأليت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت ، فلم أفارقه حتى مات ، رحمة الله تعالى عليه .

## ٤ — ما هي العلوم التي تعلمها ؟

وعلى الجملة فقد أخذ الإمام أبو حنيفة من العلوم بأوفر نصيب ، وبلغ فيها مبلغا يشار إليه بالأصابع ، ونهايك به أنه سلم إليه علم النظر والقياس وإصابة الرأي حتى قالوا « أبو حنيفة إمام أهل الرأي » . فأما العلوم الشرعية والعربية والآدبية والحكسية ، فكان في كل هذا مجرا لا يجارى ، وإماما لا يجارى . وله مسائل فقهية بنى فيها أقواله على علم العربية ، ومن تأملها يقضى تمكنه من هذا العلم بما يهر العقل . وأما القراءات فقد أفردوا بالتأليف قراءات افرد بها ورووها عنه بالأسانيد ، وكان يحفظ القرآن كله ، وصح عنه أنه كان يقرأ القرآن الكريم كله في رمضان مرات كثيرات ، ويدبر قراءته ليلا ونهارا . وأما الفقه فإذا يقال فيه بعد أن قال الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه : الناس عيال أبي حنيفة في الفقه ؟ وقال أيضا : من أراد أن يعرف الفقه فليزِم أبا حنيفة وأصحابه . وقال أيضا : قلت لماك : كيف رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : رأيت رجلا لو كلمك في السارية أن يجعلها ذهابا لتمام بحجته . وأما السنة : فقد كان فيها

بحرا زائرا لا ساحل له ، وكان في تفسير الحديث آية ، قال الامام أبو يوسف : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ، بصيرا بعله ، وبالتعديل والتجريح من أبي حنيفة . ومما يدل على قول أبي يوسف هذا ، وعلى إحاطة أبي حنيفة بالسنة وتمسكه من رواياتها ، ومعرفة رحاها ، ووقوفه عند حدّها لا يتجاوزها قيد شعرة ، المحاورة التي وقعت بين الامام الأوزاعي وأبي حنيفة ؛ فقد قال الامام سفيان بن عيينة : اجتمع أبو حنيفة والأوزاعي في دار الحماطين بمكة ، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة : ما لكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيء . قال : كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم ، عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يسود إلى شيء من ذلك . فقال الأوزاعي : أحدثك عن الزهري ، عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثني حماد عن ابراهيم ! فقال له أبو حنيفة : كان حماد أفتقه من الزهري ، وكان ابراهيم أفتقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر ؛ وإن كان لابن عمر صحبة ، أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله . فسكت الأوزاعي .

#### ٥ — لماذا اشتغل أبو حنيفة بالتدريس والافتاء ؟

لما توفي حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ، وكان الناس به أغنياء ، احتاج الكوفيون لمن يسد مسده ، ويتولى التدريس مكانه ، غربوا كثيرين فلم يجدوا عندهم من العلم ما يشيهم ، فأجمع رأيهم على أبي حنيفة ، فأجاب داعيهم وقال : ما أحب أن يموت العلم . فاختصوا إليه ، فوجدوا عنده من العلم الغزير ، والفضل الكثير ما لم يجدوه عند غيره ، فزموه وتركوا سواه ، ولم يزل ذكره في ارتفاع ، وتكثر أصحابه وتلاميذه ومريده ، حتى صارت حلقاته أعظم حلقة في المسجد ، وأقبل عليه وحسوه الناس وكبرواهم ، وأكرمهم الأمراء والحكام ، وأثنى عليه الأفاضل .

#### ٦ — ممن أخذ العلم ؟

تلقى أبو حنيفة العلم من كبار أئمة عصره . منهم : عطاء بن أبي رباح ، المتوفى سنة ١١٤ هـ الذي جمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس وغيرهم ، والذي يقول فيه ابن عباس : يأهل مكة : نحبهمون على وعندكم عطاء ؟ ومنهم تافع مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ الذي روى عن مولاه وعن عائشة وأبي هريرة وغيرهم . ومنهم الامام الفقيه الحافظ طاهر الشعبي المتوفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ . وأخذ الفقه عن حماد بن أبي سليمان كما تقدم ، وحماد أخذه عن ابراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ٩٥ هـ ، وأخذ ابراهيم عن خاله علقمة بن قيس النخعي الكوفي المتوفى

سنة ٦٢ ، والذي ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من عمر وعثمان وعلي ، وتفقه بإبن مسعود ، وكان أنبل أصحابه ، وأخذ ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار الفقه من الله تعالى الى نبيه عليه الصلاة والسلام . وقال خلف بن أيوب : صار العلم من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار الى الصحابة ، ثم صار الى التابعين ومنهم أبو حنيفة ، فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليستط .

٧ — تلاميذ أبي حنيفة .

قال بعض الأئمة : لم يظهر لاحد من أئمة الاسلام المشهورين مثل ما ظهر لأبي حنيفة من الأصحاب والتلاميذ ، ولم ينتفع العلماء والناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه في العلوم المختلفة : من تفسير الأحاديث المقتبسة ، والمسائل المستنبطة ، والنوازل ، والقضاء والأحكام ، فخرام الله عن الاسلام والمسلمين والعلم خير الجزاء .

٨ — من هم الصحابة الذين ماصروهم أبو حنيفة ؟

اتفق المحدثون على أن أربعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في عهد أبي حنيفة في الأحياء وإن تنازعوا في روايته عنهم ؛ الصحابي الأول : أنس بن مالك المتوفى سنة ٩١ أو بعدها ؛ الصحابي الثاني : عبد الله بن أبي أوفى المتوفى سنة ٨٦ أو بعدها ؛ الصحابي الثالث : سهل بن سعد الساعدي ، المتوفى سنة ٨٨ أو بعدها ، الصحابي الرابع : أبو الطفيل طاهر آخر الصحابة وفاة .

٩ — هل أبو حنيفة من التابعين ؟

سئل الحافظ العراقي : هل أبو حنيفة من التابعين ؟ فقال : من يكتفى في التابعي بأنه هو الذي رأى الصحابي مجرد رؤية يصد أبا حنيفة من التابعين ، ومن الثابت أنه رأى أنس ابن مالك . وسئل الحافظ ابن حجر هذا السؤال فقال : أدرك أبو حنيفة جماعة من الصحابة ، ورأى بعضهم ، فهو بهذا الاعتبار من التابعين ؛ وقد روى بعض الأحاديث عن الصحابة ، وإلى هذا أشار بقوله : ما جاءنا عن الله ورسوله وللصحابة فملى الرأس والعين ، وما جاءنا من التابعين فهم رجال ونحس رجال ، لأنه ممن زاحم التابعين في الفتوى ؟ السير عفيفي

## الفيلسوف أبو نصر الفارابي

قال ابن أبي أصيبعة (في عيون الأنباء) : إنه هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزاع بن طرخان . وقال ابن خلكان : هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أورنج . وقال ابن النديم : هو أبو نصر محمد بن محمد بن محمد بن طرخان . وقال صاعد في الطبقات : هو أبو نصر محمد بن نصر . ولكن ما لا خلاف فيه أن اسم الفارابي : محمد ، وكنيته أبو نصر .

وذكر ابن حوقل أنه ولد بمدينة ( وسج ) ، وهي على الشاطئ الغربي من نهر سرداريا . والمستشرقون يعتمدون هذا القول . لكن كثيرين من مؤلفي العربية كالقفطي وابن أبي أصيبعة وابن خلكان صرحوا بأن الفارابي من مدينة ( غراب ) . وقال ابن خلكان : إن هذه المدينة تسمى لهذه ( أطرار ) . وقال الأستاذ ( بارتولد ) في الفصل الذي كتبه في دائرة المعارف الإسلامية : « إن الأصطخرى الذي وجد في أوائل القرن العاشر يذكر أن قصبة ولاية غراب كانت تسمى ( قندر ) في شرق نهر سرداريا على نصف فرسخ من مجراه ، وعلى الشاطئ الغربي من هذا النهر على فرسخين دون ( قندر ) توجد ( وسج ) التي هي حصن صغير .

ولما نعرف مولد الفارابي إلا بالتقريب استنتاجاً مما ذكره المؤرخون في وقته . فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي سنة ٣٣٩ هـ ( ٩٥٠ - ٩٥١ م ) وقد ناهز ثمانين سنة ، ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ ( ٨٧٢ - ٨٧٣ ) .

ولا يعرف شيء عن طفولته وقيابه ، إنما يقول المؤرخون : إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار إلى أن وصل بغداد . وهو يعرف اللسان التركي ، وعدة لغات أخرى .

والظاهر أن الفارابي حين وصل إلى بغداد حوالي سنة ٣٩٠ هـ وهو يومئذ يناهز الخمسين ، حضر دروس أبي بشر متى في المنطق ، واتصل بأئمة الحكمة والعلم تكبيلاً لما عنده من العلم ، وتحول إلى حران فأخذ عن يوحنا بن حبلان المنطق ، ثم عاد إلى بغداد وقرأها الفيلسوف وتناول جميع كتب أرسططاليس . ويقال إنه وجد كتاب النفس لأرسططاليس وعليه بخط أبي نصر الفارابي : إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة .

ثم انتقل الفارابي إلى الشام ، ثم توجه إلى مصر ، وعاد إلى الشام واتصل هناك بسيف الدولة ابن حمدان الذي عرف له فصله وأكرمه وفادته ، فمات في كتفه حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من حواصه أو خمسة عشر . ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير

## حياة الفارابي الفلسفية :

لسنا نعرف على وجه يقيني كثيرا عن حياة الفارابي العلمية . فإنه كان رجلا ممن يخلدون الى السكينة والهدوء ، وقد وقف جهاده العمى على التأمل .

ففي مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده : كان الفارابي كثيرا ما يتفرد بنفسه ، ولا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشبك رياض ، ويؤلف كتبه هناك . وكان أكثر كتبه في الرقاع ، ولم يصنف في الكرايس إلا قليلا ، ولذلك كانت أكثر تصانيفه فصولا وتعليقات ، وبعضها مبتورا ناقصا ( ج ١ من ٢٥٦ - ٢٦٠ ) . والفارابي إنما كان يمتثل الناس ويؤثر الوحدة ، لما رأى أن أمر النفس وتقويمها أول ما يجب أن يبتدىء به الانسان ، حتى إذا أحكم تعديلها وتقويمها ، ارتقى منها الى تقويم غيرها ، كما ذكر ذلك في كتاب ( الجمع بين رأيي الحكيمين ) .

قال بعضهم : الحكماء أربعة : اثنان قبل الاسلام ، هما أفلاطون وأرسطو ، واثنان في الاسلام هما أبو نصر الفارابي وأبو علي بن سينا . وكان بين وفاة أبي نصر وولادة أبي علي حوالي ثلاثين سنة ، وكان أبو علي تلميذا لتصانيف الفارابي يعترف أنه لولاها لما اهتدى الى فهم ما بعد الطبيعة . وكما لقب أفلاطون بالحكيم الإلهي ، وأرسططاليس بالمعلم الأول ، لقب الفارابي بالمعلم الثاني ، وابن سينا بالفيلسوف الرئيس .

وآراء العلماء مختلفة في التقدير العلمي للفارابي . فالفيلسوف يقول : « هو فيلسوف المسلمين غير مدافع » . ويقول ابن خلدون : « هو أكبر فلاسفة المسلمين . ولم يكن منهم من بلغ رتبته في فنونه » . والرئيس أبو علي بن سينا بكثبه انتفع ، وبكلامه استطاع وضع تصانيفه » .

ويقول ابن سبعين الفيلسوف الصوفي الأندلسي الذي يقال إنه انتحر بمحاكاة شوقا الى الاتصال بالله سنة ٦٦٩ هـ كتاب له مخطوط ، ما نصه نقلا عن المجموعة التي نشرها الأستاذ ماسينيون :

« وأما الفارابي فقد اضطرب وخالط وتناقض وأشكك في العقل الحيواني ، وزعم أن ذلك تمويه وخرافة ، ثم شك في النفس الناطقة هل غرمتها الرطوبة أو حدثت بمسد . وتنوع اعتقاده في نقاء النفوس بحسب ما ذكر في كتاب الاخلاق وكتاب الملة الفاضلة والسياسة المدنية » .

وقال الأستاذ « كارادى نو » في ترجمته للفارابي بدائرة المعارف الاسلامية :

« مذهب الفارابي هو مذهب الأفلاطونية الجديدة الاسلامية الذي بدأه من قبله الكندي . ووجد في كتب ابن سينا من بعده أكمل عبارة عنه . وقد يكون من الراجح أن الفارابي يخالف الكندي وابن سينا في بعض المواضع ، ولكن من المسير تعيين هذه المواضع . ومن المناسب التحفظ بدل الشك في تفسير ما يتعلق بتفصيل مذهبه والواقع أما لا نعرف من آثاره إلا قليلا . ثم إن أسلوبه لا يخلو من غموض » .

### نظرة إجمالية في فلسفة الفارابي :

إذا نظرنا الى فلسفة الفارابي في جلتها ، وجدناها مذهباً روحانياً متسقاً تمام الاتساق ، وبعبارة أدق : مذهباً عقلياً . فالوجود الحقيقي عنده إنما هو العقل وإن كان ذا مراتب متفاوتة ، والله وحده هو العقل المحض الذي لا تخالطه كثرة .

والموجودات في نظره عبارة عن سلسلة متصلة متدرجة ، والعالم كل منظم ، وأجزاؤه مرتبة ترتيباً بديعاً ، وعناية الله من وراء ذلك محبطة بالاشياء جميعها ( عيون المسائل ص ١٨ ) . والمدينة الفاضلة أتمتع ما كتب كاتب أو فيلسوف ، يشغل فيها صدق الرجل ، وصبره وطول أناة ، وحسن تخرجه وتعليقه .

يلبس الفارابي في المدينة الفاضلة للفارابي جلال الحياة الدنيا وجلال الفناء . فهو يجمع بين العبدة والتاريخ . نراه يمجّد في استنباط الاحكام بحيث لا تتناقض فيها الآراء ولا تصطدم المظنون ، ولا تغيب الحقيقة وراء الأغراض والشهوات والأوهام .

كان الفارابي يصنف كتبه في أيقظ أوقاته ، وفي أتم صورة وأجمل أسلوب . وينحلي من هذه الكتب أنه كان عالماً بالأدب والرياضيات والنحو والبلاغة والمنطق والموسيقى والهندسة والفلك . وكان يعرف التركية والفارسية .

والفارابي لا يني يدور المكرة في رأسه ونفسه ، ثم هو لا يستريح حتى يسممها صوتاً ، لأن ذلك أوكّد للحقائق وأدعى الى التأمل في معانيها والترسيم للإبائتها . له قدرة على نقل المعاني من فضاء التجريد الى حظيرة الموسيقى . وكان هذا في نظره أدعى الى تثبيت المعنى وتوكيده والاستقرار في النفس ، حيث إن هذا أكل وضوحاً وأدوم في الذاكرة والشعور ، ولهذا كان الفارابي موسيقياً بارعاً ، وصاحب مصنفات موسيقية لازالت مرجعاً للوضع والتطبيق .

### تأثير فلسفة الفارابي :

لم يكن لفارابي كثير من التلاميذ ، إلا أنه اشتهر من بين تلاميذه أبو زكريا يحيى بن عدي ( وله مخطوط ينسب له يسمى تهذيب الاخلاق ) ، وهو نصراني يعقوبي ، وقد اشتهر أبو زكريا بترجمة كتب أرسطو .

وزكريا تلحيد أشهر منه ذكراً هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني الذي انف حول عشاء عصره في بغداد في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ( الرابع من الهجرة ) . وقد انتهى إلينا بعض ما كان يدور في مجلسه من مباحثات ، وبعض التعاليم الفلسفية التي كان يلقيها لمستمعيه . وهنأراً أيضاً مدرسة الفارابي تستحيل الى فلسفة لفظية ، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعاني والتدقيق في التمييز بينها . وكانت تبحث الى جانب هذا مسائل



متفرقة من كلام الفلاسفة المتقدمين ، ومن فروع العلوم ، من غير نظام يؤلف بينها . ورأيا مسألة العسر تستأثر بالمكان الأول كما كان الحال عند إخوان الصفا . وكانت هذه الفلسفة الفارابية تعالج عجائب أفعال النفس ، وتنظر في جوهرها العقلي ، وفي المروج بها الى العالم العقلي الاسمي .

شخصية الفارابي :

الفارابي من الفلاسفة القلائل الذين أدركوا القيمة الحقيقية لهذا العالم وحقارة أطماعه المادية ، في الوقت الذي أله فيه غيره من علماء عصره العالم ، وأله الانسان وأطماعه . وكانت لغته لحما لقلبه الزاهد حتى ارتقت نفسه الى درجات الزهد ، وخلع عن قلبه غرائز الآثرة ، ثم أخذ يلتفت الى ما وراءه لعله يرى بصيصا من وراء فلسفته الى ذلك النور الإلهي الذي حل مشكلاته الانبياء في كل المصور المتقدمة ، حتى أصبحت تعاليمه التي خلفها لنا هي التذكير برسالة الانسانية الكبرى التي حملها الانبياء جميعا .

والفارابي نسج وحده في تعدد مناحي التفكير وتنوع المواهب . فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الفلسفية العميقة . قد جمع بين عمق الفكر واستفاضة المعرفة ، وبين سعة العقل وسراوة الأخلاق والقداسة . وكان لكل فكرة في عقله مدار ، ولكل ناحية من نواحي العلم في نفسه مستقر . والفارابي في كتابه المدينة القاضية يكاد يكون عالمًا من علماء النفس ، يشمل بأجزائها فيقارنها ويخالطها ، ويمرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من النواحي انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة . فهو فيلسوف حكيم يبنى علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحى اليه هذه التجربة .

لا نعرف فيما قرأنا حياة أوسع آفاقا من حياته العقلية ، وذهنا أخصب تربة من ذهنه ، وفكرا أشد انطلاقا من القيود من فكره ، لقد ذاق لذة الحياة العقلية ، وتقلب في أعطافها ، فخالط عالم الأفكار فلم يستوحش ناحية من نواحيه ، وما كان عقل الفارابي يأنس إلا بصيابه الأشياء ، وما كان هذا العقل يتقبض إلا عن ظلامها ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار والمعاني .

والخلاصة في شخصية هذا الفيلسوف : أن الحكمة تلقته من كل جهة بفضلها ، وتأثلت فيه أكرم تبعاتها ، حتى استخلص منها أغنى حواهرها ، ثم مما الى رحيق مصاصها ، وأحرز منفس ذخاثرها . كل ذلك في كتابه المدينة القاضية .

تهد نفسه بمحاودة هواه ، لأن الهوى خصم العقل ، وانصرف الى أعمال الحكمة ، فطوى الحياة ما كفا زاهدا فقيرا ، فأنشأه ولعلم ، حتى كتب اسمه في ديوان الخالدين .

عبد الحميد سامي بيومي

## صَفَحَاتُ فَحْمَةِ الْأَفْطَالِ الْفَلَسَفَةِ الْعَصْرَةِ

الدين هو الكوة التي يذبح منها النور للإنسان

هذا ما صرح به الفيلسوف الكبير اجوست سباتييه المدرس بجامعة باريس  
في كتابه ( فلسفة الدين ) — تحليل بيسكولوجي دقيق

« ما هو الإنسان ؟ إنه من الناحية الظاهرية لا يفترق كثيرا عن الحيوانات العليا ، ولكنه بحياته العقلية يتميز عن الحيوانات وينفصل منها يسيرا يسيرا . وهنا تظهر فيه ظواهر ونواميس من نوع جديد . فإن الحياة الفاضلة للعقل تتفتح رويدا رويدا كأنها زهرة إلهية فنطلعنا من الوجود على معناه وجماله ، وفي الوقت نفسه تنضج لضميرنا منطقة الحق والجمال والخير ، ويتحلى له العالم الأدبي كوجود عال هو عالمه الذي ينتسب إليه . فهذه النواميس هي التي تصلح أن تسطر على النواميس الطبيعية ، وأن تقهرها لتوصلنا إلى غايات سامية ، هي التي تحقق وتؤلف الحيوان الإنساني معنى الإنسانية . فالإنسان لا يستحق وصف الإنسانية إلا بقدر ما يطبع هذه النواميس العليا ، وهذه هي نقطة الاتصال التي يشغلها بين هذين العالمين ، وهذا وجه ضرورة الآلام التي بواسطتها يجب أن يتخلص من الحيوانية الأصلية . فانه إذا لم ينجح في أن يعلو عن مستوى الحيوانية ، وقع بفساد حياته إلى حضيض أدنى منها .

« الحياة النفسية تقتضى بأصل تكوينها حركتين ، أولاهما تحدث من الظاهر إلى الباطن حتى تصل إلى مركز الذات الإنسانية ، وثانيتها من الباطن إلى الظاهر ، أي من مركز الذات إلى الخارج .

« الحركة الأولى هي تأثير الأشياء الخارجية على الذات الإنسانية بواسطة الاحساس ، والثانية هي رد فعل الذات على تلك الأشياء بواسطة الإرادة . فهذان التياران الباطنيان يؤلفان الحياة العقلية في مجلتها . من هنا يقين الإنسان التضاد الأساسي الذي تتكون منه الحياة ، والذي يقوى ويشند بدون انقطاع . وفوق هذا فإن الجانب السلمي والجانب الإيجابي للحياة العقلية ليسا متلائمين ، فإن الإحساس يسحق الإرادة ، ونشاط الشخصية وتفتحها وميلها للامتداد والنمو تترجح تحت أعباء الوجود التي تقع عليها من كل جانب . حتى إذا اندفعت موجة الحياة من مركز الذات ، تكسرت على صخور الأشياء الخارجية . فهذا التضاد المستمر ، وهذا الكفاح بين الذات الإنسانية والعالم الخارجي ، هو السبب الأول الأصلي لجميع الآلام البشرية ، وبهذا

تجد نشاط تلك الذات باوتداده على تمسه تشتد حرارته كما تشتد حرارة محو العجلة من شدة الحركة . إذا حدث هذا لمعت شرارة الحياة الباطنية وأصاعت . وهذا هو الصمير ، ويتكرر هذا الاحساس المؤلم للغيبة المتوالية تلحاً الذات للفكر والتأمل وتلك ماهيتها ، وتقدر نفسها ، وتفصل عن الجسد الذي كانت لا تتميز عنه ، وتبدأ في معارضة نفسها بنفسها كأنها مؤلفة من شخصيتين ، شخصية مثالية ، وشخصية عادية . ومن هنا ينشأ عذابها وكفاحها وندمها ، ولكن ينشأ فيها الى جانب ذلك اندفاعها المتجدد ، وترقيها غير المحدود في الحياة العقلية ، بحيث تكون في كل برهة لها درجة تؤديها الى درجة أرق منها . ألسنا نلمح هنا النفحة الإلهية التي يستوجبها لنا هذا الألم ؟ إنه بدون هذا الألم كان لا يمكن أن تتميز الحياة العقلية عن الحياة المادية . ولا غرو فشكل ميلاد لا يكون إلا بألم . والصمير كالطفل لا يولد إلا غارقاً في الدموع . ولما كان الصمير ابن الألم فقد قضى عليه أن لا يسمو إلا به . فهل تصادف أعظم العقول تطلقاً ، وأكثر الضماير حدة ، وأشد صروب الحياة تركيزاً ، إلا لدى آحاد مثل نشاطهم الخارجى بسبب مرض ، أو حرج في حالتهم الاجتماعية ؟ فكيف تستطيع أن تمل وجود ( أفكار باسكال ) و ( مين دو بيران ) و ( يوميات أميل ) بنير هذه العلة ؟ من أين جاء هؤلاء الرجال سمو ضمائرهم الخارق للعادة إن لم يكن من هذه الساحة ، وهي أنهم شعروا شعوراً صميقاً بالتضاد الذي يباه هنا بين العوامل المنصبة على الإنسان ، ورأوا أنها كما توجب عليه الشقاء والبلاء ، تدفعه الى العظمة والسمو .

« استمر » في هذا النظر ، وتلقب كل واحدة من خصائصها وهي تتفتح وتسمو ، تجدها قد نشأت من هذا التضاد الذي رأيته ، فإذا لم يكن هو لم توجد هي . على أنه يسطو عليها حتى يكاد يقتلها بمد ظهورها ، ولا نجد أينما وجهت طرفك إلا هذا التضاد المؤيس .

« والإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه ، لا إذا أدرك أنه محدود ، ولكنه لا يشعر بهذه الحدود إلا بعد أن يجتازها بصره وإرادته ، بحيث أنه أصبح لا يقنع بما يملكه ، ولا يسمد إلا عما لا يستطيع أن ياله . فأراني أريد أن أعرف ، وعقلي منعطش لأن يفهم ويهـلم ، فإذا وصلت الى مكتشفات أولية أسرني ، ولكن وأسفاً لا ألبث حتى يصطدم فكري بغامض فيما حصلت . فالامر لا ينحصر في أنه توجد أشياء لا يعرفها عقلي ، ولكني متحقق أن هناك أشياء لا يستطيع أن يعرفها عقلي قط . فأثني للإنسان أن يقفز الى ما بعد ظله ، أو أن يصعد على كتي نفسه ليرى ما وراء السور الذي لا يستطيع أن يقتحمه . وأنا أريد أن كل ما يمكن إدراكه يكون حقيقياً ، ولكن هل كل ما هو حقيقي يمكن أن أدركه ؟ إذن على أية حال يقول على إن لم يكن الى شعور ما يخول الحياة تدرك نفسها على هذا الوصف ؟

كذلك نجد تناقضاً في خاصة تمنى . فكما أفضى الساعة على الظاهر الى عكسه ، كذلك أرى كل ما أتمنيه متعة وسعادة يتحول الى شقاء وتأم . فليتهم السطحيون والمامة الحظ

والغواصم والتقصير في عدم وصولهم إلى السعادة ، ولكنى أنا لا أتهم إلا التركيب الصميم لكيانى ، فانه بسبب هذا التركيب نفسه تحمل المتعة في ثباياها سبب روالها ، ويستحيل الصنفو فيه إلى كدر ، وتخرج نعمة الألم من وسط اللذة . ( الحجة أيوة العقرب ونحوها )

« لقد أصاب مذهب التشاؤم في هذا الموطن ، فقد ثبت بما لا يُدحض من التجارب بأن التفاؤ في البحث عن السعادة لا نقيحة له إلا زيادة قائلينا للتألم . وهل أُلِمَ بذكر النشاط الأدبي ؟ إنى أريد أن لا أفعل غير الخير ، ولكنى أجد الشر لى ملازماً ، فلا آتى كل ما أُرْتَضيه ، ولا أُرْتضى كل ما أفعله . إنى أشعر بالحرية في إرادتى ، ولكنى أحس بذل الأسر في عملى . وكلما جهدت أن أصل إلى المثل الأعلى في المدالة ، سَحَلْتُ على هذا المثل الأعلى الذى لا أصل إليه أبداً إنى أتم ، وقوى في نفسى الشعور بالإثم ، بحيث تصحح هنا ، وهنا على الخصوص ، المرة النهائية لمحاولاتى عكس ما كنت أعتناه من قبل .

« فن أية ناحية يأتينى الخلاص ؟ كيف السبيل إلى حل هذا التضاد فى ذاتى ، وهو التضاد الذى يحيينى ويميتنى فى آن واحد ؟ من الناس من يعتمدون فى سبيل تخليص الانسان من فاقته وعقباته ، على تقدم العلم وصلاح أحوال الحياة . ولكن كيف لا يرى هؤلاء هنا ، نشوء ينوع جديد من ينابيع القنوط ؟ كيف يقصون أن العلم يتقدمه يزيد فى التناقض الأساسى للحياة ويحمله أقتل مما هو عليه ، بل أنى يخفف من وطأته ؟ فهل حدوث اكتشاف جديد ، أو تحليل ظاهرة جديدة ، يعنى شيئاً غير إضافة ذلك إلى سلسلة المثل الضرورية التى ينسجها العلم ويمدها على أشياء الكون ؟ هل يعنى ترتيب العلم للكائنات وتقرير نظامها وثباتها ، شيئاً غير إثبات سيادة القهر عليها سيادة مطلقة . فالعلم حبرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . فرداً ما شئت من هذا الترقى العلمى ، وأبلغه إلى عشرة أو مائة أو إلى ألف ضعف ، فهل أنت بذلك صانع شيئاً غير مضاعفة سلطان الجبرية العامة التى تخضع لها أرواحنا وينحل دونها نشاطنا الباطنى ؟ وإذا ذلك تنتهى إلى زيادة إدراك التضاد المؤلم بين العلم والضمير ، وبين التوأميس المادية والتوأميس الأدبية ، وبين التكرر والعمل ١ وبقدر ما ينمو أولها وينغلب ، يظهر لنا ثانيهما باطلاً لا حقيقة له . من هنا نشأت هذه النوبة الفلسفية التى انتهى إليها الفكر المعصرى ، من قيام علم يعجز عن توليد أخلاق يمكن أن يعترف بها الناس ، وقيام أخلاق يمكن أن يعترف بها العلم . إننا بهذا التحليل قد وصلنا إلى علة هذا المرض المعجيب الذى يمكن تسميته « بمرض القرن الراهن » ، وهو ضرب من الانحلال الباطنى الذى أصاب العقول المستنيرة على درجات شتى . فهو حرب باطنية تسليح الذات الانسانية ضد نفسها ، وتغلب ينابيع الحياة فيها . فبقدر ما يفكر الانسان فى إيجاد البواعث للحياة والعمل ، يقل نشاطه للعهد والعمل . فاستضاء الفكره على نسبة عكسية مع قوة الارادة ، حتى ليقول أنصار التشاؤم بأن وصول الصمير إلى قوته

وكأنه يبطل فينا حب البقاء والرغبة في العمل . ومن الذى يتجرد اليوم من التألؤم على قدر من الأقدار ؟ ومن الذى لا يشكو اليوم من ثقل وطأة الفكر عليه ، ومن ضعف تأثير الطبيعة فيه ؟ ومن الذى لم يشاهد هذا الازدواج الغريب الذى كاد يكون عاديا ، بين خفة الأخلاق والذكاء المماز ؟ ما هى هذه الشكوى المملة التى تنصاعد من كل ناحية ممثلة فى أحدث كتاب فى الفلسفة ، أو أعلق رواية بالقلوب ، أو أحس قطعة تمثيلية ، إن لم تكن هى الآيين المالىخولى المبعث من حياة يظهر أنها قريبة من الانطفاء ، ومن عالم حقيق آيل الى القضاء ؟ هل يحسن بنا أن نلق عن التمسك بالثقة على البقاء ، أو أن نصبر للموت لنستبقى الحق فى التفكير ؟

د من هذا الشعور بالحرج الشديد ، وبالتضاد فى الحياة الباطنية لنفس يتولد الدين ، فهو الكسوة (١) التى ينبع منها النور المحي للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه . (٢)

محمد فريد وجرى

(١) الكسوة ينتج الكاف وضبا الحرق فى الحائط . (٢) تشر بقية هذا البحث الجليل فى العدد النفس .

## البراءة من الاحمدية الهندية

الموقعان على هذا ، أيوب فضلى قرانيا و خليل يونس ريشطى من أهل ألبانيا : يقران ويعلمان براءتهما من فرقة الاحمدية اللاهوتية والقاديانية ، فقد ظهر لهما بطلان مذهب الاحمدية ، وبطلان ادعاء زعيمها ميرزا غلام أحمد القاديانى الهمدى ، النبوة ، أو أنه المهدي المنتظر ، أو المجدد ، أو المسيح الموعود ، وتاويلاته لآى القرآن الكريم بغير علم ، إشباعا لرغبته ، ودعاية لذاته . وقد لسا أضرار هذه الفرقة بجماعة المسلمين ونمزيقها لوحدتهم وهذا هو الخسران المبين . فالوقعان يستغفران الله تعالى عما فرط منهما بغير علم ، ويعلمان أنهما قد قطعاً كل علاقة وصلة من أى نوع كان بهذه الفرقة وغيرها من التفرق ، طائعين محتارين ، ابتغاء وجه الله ، عن عقيدة وإيمان من قلب خالص ملى بالتقوى وطاعة الله لا يشوبه نفاق ولا رياء . ويسألان الله تعالى أن يوفقهما لما فيه الخير والعمل بكتاب الله وسنة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين من لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم والله على ذلك شهيد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(أيوب فضلى قرانيا) ، ( خليل يونس ريشطى )

## الاسلام والمرأة

لقد أنصف الاسلام المرأة ، ورفع من شأنها ، ووضعها في مكانتها اللائقة بها ، بعد أن كانت مهينة الجناح ، مهزومة الحقوق ، يسيطر الرجل عليها ويمارسها معاملة الأنعام .

فلا تجد نظاما اجتماعيا سابقا على الاسلام أخذ بيد المرأة وفرض لها من الحقوق والواجبات ، مثل ما فرض لها الدين الحنبي ، دين الاسلام ، الذي اختاره الله لخير أمة وخير نبي ، وجعله صالحا لكل زمان ومكان ، تميز الحوادث بجانبه ، وتحمي المصالح إثر أصوله وفروعه ، وترقى الأمم بالأخذ بتهذيبه .

كنت تشترق أو تغرب فلا ترى المرأة إلا سلعة يفتنع بها ، أو متاعا يستمتع به ، ولا حول لها ولا طول ، ولا كلمة تسمع ، ولا رأيا يعتد به ، حقيرة دليقة ، ميته وهي في عداد الأحياء ، مشلوبة الإرادة ، مهذرة الكرامة ، قعيدة البيت لا ترى شمسا ولا قرا ، ولا نشم نسما .

جاءها الاسلام فأخرجها من الظلمات الى النور ، وانتشلها من وهنتها وأعطاها حريتها ، بعد وقت واستعمار في البلاد التي تدعى الآن أنها مصدر المدنية ومبعث الرقي ، فأتم جهلت قدرها ، وأتم سجنها ، وأتم احتقرتها ، والكل اشتط في ظلمها ، وجار في حكمها عليها ، وظلت المرأة هنا وهناك تصيح بالشكوى الى الله ، وتتضرع اليه في أن ينقذها ويخلصها ، وقد وأدوها طفلة ، وعضلها شابة ، وأساءوا عشرتها زوجة ، ومنعواها إرثها ، وحرموها عليها النكاح أيضا .

وبينا الناس كلهم مطبقون على هذه الحال ، إذا برسل يبعث الى الناس كافة ، على فترة من الرسل ، يهيب بالناس الى إقامة دولة العدل ، وإلغاء نير الظلم ، وإزالة كسف الجاهلية ، وتقرير حقوق الضعفاء على الأقوياء حتى يسكنوا الناس سواسية كأستان المشط : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فقال المرأة من هذا الإصلاح العام قسط موفور ، فرفع عنها كل ما ألقاه عليها الظلم والجبل مما ناءت بحمله فرونا طويلة في عهود مختلفة ، وأتم متباينة ، وثنية كانت أو كنيانية أو جاهلية . ففي الأخيرة مثلا : ورثوا النساء كرها . يحیی الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ويقول : ورتها كما ورثت ماله . وبذلك يكون أحق بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا مهر أو زوجها غيره واستوفى مهرها ، أو منعها حقها في النكاح ليرثها اجنت الاسلام هذا الإرث الجائر من أصله : « يا أيها الذين آمنوا لا يحمل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

ثم شرع لها ما حاماها من فائقة المتحكين فيها ، لحرم على الرجال أن يعضواها لتنازل لهم عن ميراثها ، وعن حجب الرجل فئاته الى أن تتخلى له عن ملكها ، وكذا المطلق مطلقته ليأخذ منها ما يريد ويشتهي ، وعن امتناع الزوج الميغض زوجته الحب فراقها عن تسريحها بالإحسان ، وعن إساءة عشرتها حتى تبلغ روحها الحلقوم ، فتفتدى بجرها . « ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن »

وحرم على من له أكثر من واحدة أن يرفع بعضهن على بعض ، وأن لا يمدل بينهما ، فقال تعالى : « وما شرهوهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » :

ونهى أن يرى الرجل امرأته بكل تقيصة توسلا بذلك الى التخلص منها والتزوج غيرها ، متهما إياها بالفاحشة لتعتدى بما دفع لها محاماة عن عرضها وذوداً عن كرامتها ، فسهم الله جل شأنه الى أن هذا العمل ظلم ونفى نأياه القوس الكريمة . « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن فظنرا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه هينا وإنا مينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

وقد اهتمت الشريعة الاسلامية بالمرأة اهتماما كبيرا ، جعلها سيدة مكرمة محترمة ، راعية مسيطرة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومثول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والرجل راع في أهله ومثول عن رعيته ، والخدام راع في مال سيده ومثول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . وفي وضعها بين الامام والرجل لا بين الرجل والخدام تنويه بشرفها وتحقيق لمساكنها وقدرها . عطف الشريعة عليها ، وراعت جانبها ، وقررت كل ما يريحها ويسدها . نظرت بعين ملوها الرحمة والنصفة الى المرأة ، وراعت ما تقوم به من تكثير الدوع وتربيته ، فأزمت الرجل بفقتها والقيام بجميع ما يحتاجه من لوازم الحياة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض : أي في القوة والقدرة على العمل والكسب . « وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

طلبت الشريعة الرجل بالحفاظة على زوجته من مواطن الخافة وأمكنة الهلكة ، وأمرته بتعليمها ما يحب عليها وقاية لها من النار . « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » الآية .

قصت عليه الشريعة الاسلامية السمحة بأن يوقفها صداقها ، وتوعدت من لم يكن طازما على أدائه اليها : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو أكثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فأت ولم يؤد إليها حقها ، لقي الله يوم القيامة وهو زاني »

وطلبت الشريعة من المرأة في نظير ذلك أن تتوقى هجر عراش زوجها ، وألا تاذن في بيته لمن لم يرغبه ، وألا تخرج من بيته بغير إذنه ، إلا إذا دعت ضرورة شرعية كغضبية انهزام البيت ، أو خوف الحجرة ، أو استفتاء لم يوفره لها .

هذا قل من كثرة ما أوجبه الشريعة الإسلامية الفراء للمرأة . فهل آن لأعداء الإسلام أن يتلقوا عنه دروساً حية في الإنصاف والعدالة ، ويتركوا ما رموه أو يرمونه به من المثالب ، باتهامه أنه هضم حقوق المرأة وجعلها في منزلة أدنى من درجتها التي تجدر بها ؟ كما أنهم عدّوا أمر حجبتها عن أعين الأشرار ، وعدم مخالطتها للفسقة الفجار ، أصراً نكراً ، وخطباً فادحاً ، وممولاً يهدم بناء المجتمع البشري ويقوّض دعائم المدنية ، ولو تدبروا قليلاً ونظروا بعين البصيرة ، وفكروا واعتبروا ، لتكشفت لهم الحقيقة ، ولظهر لهم البرهان تلو البرهان أنهم عن الحق صمّون ، وفي الضلال يهيمون .

أوصح الإسلام على الرجل زوجته حقوقاً لخصتها إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله معاوية بن حيدة رضي الله عنه . ما حقّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

انظر معي ياربك الله في النوارث الذي مُنحته المرأة في الإسلام وكانت محرومة منه قبل : فالوارثون إن كانوا ذكورا أو إناثاً في درجة واحدة وزع المال بينهم بالتساوي لعدم وجود ما يدعو لتقديم واحد منهم على آخر ؛ وإن كانوا ذكورا وإناثاً في درجة واحدة فصل الذكر على الأنثى بحمل حظه مثل حظ الأنثيين ، لاسميين : أحدهما أن الذكر يختص بالدفاع والحماية عن البيضة ، والذب والمنع عن الدمار ، وثانيهما أنه ملزم بالاتفاق فوق ما يلزم الأنثى التي هي ككل على الزوج أو غيره . والآب لا يفصل على الأم بالتصنيف لأنه فضل عليها بالجمع بين القرض والتصميم ، فلو فضل عليها بالتصنيف أيضاً لكان في ذلك إجحاف بها وبني عليها . وفي مسائل أخرى تأخذ الأنثى مثل الذكر . وقد يكون نصيبها أكبر منه في بعض المواضع . وهكذا تقرأ باب الفرائض والموارث ، فيأخذك المصنف ، وتنولك الدهشة أمام إنصاف الإسلام للمرأة ، هذا الانصاف العظيم الشأن الذي لم يأت به نظام اجتماعي قبله ، ولم تعرفه أمة من الأمم الفائرة التي كانت تستعبد المرأة وتصادر حرّيتها ، وتمدها من سقط المتاع . وحين ابثق نور الإسلام ، وطلع فجره من الشرق يمزق ستر الكفر ، ويشقق غياهب الباطل ، انتشر نور الحق في أنحاء المعمورة ، وأخذ كل شيء في الوجود حقه ، ونودي في السكك : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

السيد مرتضى الشهابي

بتخصص القضاء الشرعي



## الحمامة قديما وحديثا

مقارنة بين عهدين

في بعض أعداد سابقة من هذه المجلة أبنا لقراءنا ما كان عليه الحمامون في عهد الإمبراطورية الرومانية ثم في عهد البيوتان ، وكيف أن تلك المهنة تطورت حتى بلغت أوج مجدها وسؤدها ، فأثبتت خطباء ملكوا على البلاغة أصتها ، واقتعدوا منها غوارب المجد حتى بلغوا القمة . ولقد طلع من سمو تلك الصناعة في عهد الرومان أن كان لا ينتخب لشغل منصب الولايات في الإمبراطورية إلا من الحمامين ، ومن ذلك الحين صدر أمر بتحديد عدد الحمامين في كل مقاطعة من أطراف الإمبراطورية ، فلا ينتخب لولاية الخزينة العامة إلا منهم ، وإذا قضى الواحد منهم مرة انتخابه عين في وظيفة سامية ، وأصبح معدودا في مصاف أعضاء شوري الدولة .

ومن أشهر القوانين التي وضعت لرفع مستوى الحمامة ، وحياطتها بسياس الإحلال والا كبار ، ذلك القانون الذي سوتى بين رجال الحمامة ورجال الجيش ، ومعلوم أن رجال الجيش في ذلك العهد الروماني كانوا أكبر القوم وأعزهم جاها وأرفعهم شأما . ولعل الباحث على هذه التسوية بين رجل الحمامة ورجال الجيش ، وهم من مكانة الأمة في الدولة ، أن الملك أدرك أنه لافرق بين من يحمي القطار ويصد عن البلاد غوائل العدو ، وبين الحمامين الذين يدافعون عن المظلومين ويستردون اليهم حقوقهم من أيدي الفاسقين بأستهم وأقلامهم وبالع حججهم ، فكانوا خلقاء أن يسوا رجال الجيش الذين يعتبرون أعلى مثل في الإمبراطورية الرومانية للتضحية والبلاء والجهاد والدفاع عن حوزة الوطن .

ولذلك أمر أحد ملوك الرومان أن ينعم على كل حمام يمتثل تلك الصناعة ، بعد أن أدى إلى الأمة خدمات جلي وأسمى إلى بلاده سعيًا يذكر ، بنقب من ألقاب الإشراف في الدولة . وهو لقب ( كلايسم ) ، ومعناه في اصطلاحهم يومئذ ( النبل والشرف )

أما ما يتعلق بأهلية الشخص لمزاولة تلك الصناعة فقد اشترط قانون البلاد لتحقيق تلك الصفة في الحمامي ، أن يكون الحمامي سنه على الأقل سبعة عشر عاما ، وأن يكون قد درس علم الحقوق خمس سنوات ، وأن يؤدي الامتحان في علم الحقوق أمام محاكم الجهة التي يريد الإقامة بها ، أو أمام محامي المدينة ، ولا بد أن يكون حسن السلوك طيب السمعة ، حتى إتهم كانوا يسألون عن سيرته وسلوكه بطريقة علنية في حضرة جمع من الأهاليين من سائر الطبقات ، ويجب أن يسبق ذلك الاجراء الأخير بأن يكون المتخصصون في علم الحقوق من الأساتذة والمشتريين قد شهدوا له بالكفاية وسلاسة الادراك ، وبداهة الحجة ونصوح الحجة .

والمخالفة في قصر صناعة الحمامة على الطبقات الممتازة في كفايتها ، منع كثير من أوشاب الناس ودهائمهم من الاشتغال بها .

كذلك قد أبيع للنساء أن يدافعن عن غيرهن باديء ذي بدء ، وبقيت هذه الإباحة قائمة في الدولة زمنا غير يسير ، لكن حدث أن نمض أولئك النساء دخل قاعة الجلسة على صورة تدعو الى الاستهتار بما يجب أن يكون للقضاء من حرمة ووقار ، فصدر قانون يحظر على المرأة أن ترفع حتى عن نفسها ، غير أن ما بدا يومئذ من اشتزاز بعض الطبقات من هذا الاحراء العتيق جعل هذا الحظر محققا ، فأبيع للمرأة أن ترفع عن نفسها دون غيرها .

وهذا دليل آخر على أن أباطرة الرومان وملوكهم ، أحاطوا صناعة الحمامة بمحاطة التكريم والتحميد ، ولذلك كان آباء الشبان الذين يريدون الاحتراف بالحمامة يرافقونهم أول مرة الى مكان الاجتماع في موكب حافل ، ويقدمونهم الى مجلس الأعيان ليقرر بدوره ، ولتلك الشبان في سلك رجال الحمامة ، وقد بلغ من احتفاظ الرومان بقدسية هذه المهنة واعتبارها مع وظيفة القضاء في كمتى ميراث ، أن يحلف كل محام وكل قاص عند نظر كل قضية على حدثها من القضايا المروضة ، على ألا يقول المحامي إلا الحق ، وعلى ألا يقضى القاضي إلا بالحق ، وكل مهما يقوم بدوره في جلسة القضاء عند نظر كل قضية .

ولقد كانت تقاليد الرومان في بعض جزئياتها يومئذ غريبة ، وإن كانت في هذا العصر قد بدت رغبة يسعى إليها ويعمل على تحقيقها ، فقد كان عدد الحمامين يومئذ محدودا ، وقد رأى المهيمنون على سرافق الدولة تلقاء هذا التحديد ألا يقبل محام في سلك الحمامين إلا إذا حلا مكان عوت أو نحوه ، وكان يؤثر بالتقديم أثناء الحمامين مكافأة لأبائهم واعترافا لهم بما قدموا الى العدالة من أثر مشكور . لكن هذا الاجراء كان مسبوqa بظاهرة وإن بدت غريبة إلا أنها طريفة ، فقد أباحوا أولا للخصوم وأرباب الدعاوى أن يجاروا الحمامين عنهم تحريا لأفضل وحوه الطمأنينة التي يجب أن تنوافر بواعثها في قلوب المتنازعين ، لكن بدا بالنجارب الطويلة أن ذلك الاجراء لم يؤد ثمرته المرجوة له ، بل بالعكس أفضى الى تشعب في الآراء والتواء في الميول ، فعمل على محو تلك الظاهرة وأقر مبدأ تحديد عدد المشتغلين بالحمامة على ما أسلفنا بياها .

وسوف نحاول في أعداد تالية أن نصع أمام حضرات القراء مثلا عليا في قديم الزمان وحاصره لأفضل تراث حلفه أسلافنا ، لسهج عليه من لعدم ، وليكون قدوة صالحة لخلوفنا من بعدنا ، فإلى الغد القريب ؟

عباس ط

and the progress of their language, for which reason an excellent poet reflected so great an honour on his tribe that, as soon as anyone began to be admired for his performances of this kind in a tribe, the other tribes sent publicly to congratulate it on the occasion, and his own tribe made entertainments at which the women assisted, dressed in their nuptial ornaments, singing to the sound of tambourines the happiness of their tribe who had now one to protect their honour, to preserve their genealogies and the purity of their language, and to transmit their actions to posterity, for this was all performed by their poems. Thus they were solely indebted to their poems for knowledge and instructions, moral and economical, and to them they had recourse, as to an oracle, in all doubts and differences. No wonder, then, that a public congratulation was made on this account, which honour they yet were so far from making cheap, that they never did it, except on one of these three occasions which were reckoned great points of felicity, to wit on the birth of a boy, the rise of a poet and the foal of a she-camel of a generous breed.

To keep up emulation among their poets, the tribes had once a year a general assembly at Okaaz, a place famous on that account and where they held a weekly fair. This annual meeting lasted a whole month, during which time they employed themselves not only in trading, but in repeating their poetical compositions, contending and vying with each other for the prize. The poems that were judged to excel, were kept in their king's treasures and hung on the Kaaba, as were the seven celebrated poems called "Al-Mo'allacat"(1).

As to the exercise of arms and horsemanship the Arabs were in a manner obliged to practice and encourage this by reason of the independence of their tribes, whose frequent quarrels made wars almost continual; and they usually ended their disputes in pitched battle (2).

Hospitality was so habitual to the Arabs, and so much esteemed, that the examples of this virtue among them exceed whatever can be cited among other nations. Nor were the Arabs less addicted to liberality after the coming of their Prophet than their ancestors had been (3). Many remarkable instances of this commendable quality among them can be quoted. Sale in his perliminary discourse, affixed to his Translation of the Koran, has contented himself with reproducing the following occurrence: Three men were disputing in the Court of the Kaaba, as to which was the most liberal person among the Arabs. One gave the preference to Abdallah, the son of Jaafar, the uncle of the Prophet Mohammad, another to Kais Ebn Obadah, and the third gave it to Arabah, of the tribe of Aws. After much debate, one that was present, to end the dispute, proposed that each of them should go to his friend and ask him for

(1) Pocock

(2) Idem.

(3) Sale. Prelim. Disc.

### (III)

#### THEIR CHARACTER AND MANNERS

Arabia during the pre-Islamic days was in a very low state of civilisation. Awful superstition and idolatry prevailed everywhere. Gross licentiousness was indulged in. Crimes of infanticide and human sacrifices were common. The various tribes were in constant and perpetual warfare with each other (1). The absence of any stable government had led to the prevalence of anarchism and criminal excesses. The whole peninsula was in a pitiful state of chaos, sin, impurity and wickedness (2). The sacred chapel of antiquity erected by their ancestor Abraham and Ishmael for the worship of the One God, the Almighty, was converted into a temple containing over three hundred idols representing superstitious gods and goddesses. The great and divine religions which the Prophets of yore had brought down from Heaven, had lost their originality, fidelity and purity.

Opposition, persecution and even brutal force were every day's occurrences. It seems that the religion of Islam along with its teachings and morals was revealed at a time, when need for guidance was most felt, as will be dealt with later in this book.

---

### (IV)

#### THEIR ACCOMPLISHMENTS

The accomplishments the Arabs prided themselves on, were: (1) Eloquence and a perfect skill in their own tongue, (2) Expertness in the use of arms and horsemanship, and (3) Hospitality. The first they exercised themselves in by composing orations and poems. Their orations were of two sorts, metrical and prosaic, the one being compared to pearls strung, and the other to loose ones. They endeavoured to excel in both and whoever was able, in an assembly, to persuade the people to a great enterprise, or dissuade them from a dangerous one or gave them other wholesome advice, was honoured with the title of "Khateeb" or orator. Poetry was held in such great esteem among them that it was a great accomplishment and a proof of ingenious extraction, to be able to express oneself in verse with ease and elegance, on any extraordinary occurrence and, even in their common discourse, they made frequent applications to celebrated passages of their famous poets. In their poems were preserved the historical events, the rights of tribes, the memory of great actions

---

(1) Q. Sale

(2) Abul Feda. Ibn Athir. Sale, Muir & c.

Some believed that when the soul separated itself from the body, it took the shape of a bird, called "Hama" or "Sada". If the deceased person was the victim of violent death, the bird remained hovering over the grave crying "Iskouti" i. e. "Give me drink", till his death was avenged, and then it flew away. This belief was forbidden by the Koran. Belief in Spirits and Fairies and Oracles rendered by their idols whom they consulted by means of headless arrows which they called "Azlam", was universal. Each tribe had its particular idols and particular temples. The hierophants attending these temples received rich offerings from the devotees and often there arose sanguinary conflicts among the worshippers of different temples. But the celebrated temple of the Kaaba at Mecca, the Chapel of Abraham and Ishmael, was considered sacred by all. The Jews and Sabians sent offerings there. The custody of the Kaaba was the object of great jealousy among the tribes, as it conferred on the custodians the most honourable functions and privileges. At the time of the birth of Mohammad the custody of the Kaaba was in the hands of his family, the Hashimites.

As for the Christian religion at the advent of Mohammad, though it flourished and had a large number of followers among the Arabs, yet its true and pure doctrines were exceedingly and abominably corrupted. (1) Some of the Christians believed the soul died with the body, and was to be raised again with it on the last day. (2) Others substituted the Virgin Mary for God or worshipped her as such. These who believed in the divinity of the Virgin Mary were named the Mariamites (3). This conception is condemned in the Koran.

Reviewing the religious aspect of the Arabs before Islam, Sir William Muir says "After five centuries of Christian Evangelization, we can point to but a sprinkling here and there of Christians, the Banu Harith of Najran, the Banu Hanifa of Yamama, some of Banu Tay of Tayma and hardly any more. Judaism, vastly more powerful had exhibited a spasmodic effort of proselytism under Zul Nowas, but as an active and converting agent, the Jewish faith was no longer operative. In fine, viewed thus in a religious aspect, the surface of Arabia had been now and then gently rippled by the feeble efforts of Christianity, the sterner influences of Judaism had been occasionally visible in a deeper and more troubled current; but the tide of indigenous idolatry and of Ishmaelitic superstition, setting from every quarter with an unbroken and unebbing surge towards the Kaaba, gave ample evidence that the faith and worship of Mecca held the Arab mind in a thralldom, vigorous and undisputed." (4)

(1) Sale, Prelim. Disc.

(2) Eusebius Hist.

(3) Ephron

(4) Sir William Muir: The Life of Mohammad, Vol. I, Int.

them, large numbers of them emigrated to other localities. It was usual for them on such emigrations to take with them some of the stones of the revered holy land of Mecca, and to set them up in their new abodes and to pay them devotion. But this devotion ended at last in rank idolatry, the Ishmaelites forgetting the religion of their fathers so far as to pay divine worship to rude pieces of stone. As to the worship of the stars, the Arabs might be easily led into it from their observing the changes of weather happening at the rising and setting of certain of them which after a long course of experience induced them to ascribe a divine power to those stars, and to think themselves indebted to them for their rain, they used to say that their rain came from such or such a star. The Koran particularly takes notice of this superstition.

Magian religion or fire-worship, was introduced by the Persian Zoroastrians through their frequent intercourse with the Arabs.

Judaism was introduced among the idolatrous Arabs by the Jews who fled in great numbers into Arabia from the fearful destruction of their country by the Romans. They made proselytes among several tribes and in time became very powerful, and possessed of several towns and fortresses in the Arabian Peninsula. But over a century at least before, the Jewish religion was not unknown to the Arabs. Abu Carb Assad who was king of Yemen about 700 years before Islam, is said to have introduced Judaism among the idolatrous Himyarites. Some of his successors also embraced the same religion, one of whom, Youssef, surnamed Zul Nowas, was remarkable for his zeal and terrible persecution of all who would not turn Jew, putting them to death by various tortures, the most common of which was throwing them into a glowing pit of fire, whence he acquired the sinister title of "Lord of the Pit". This persecution is also referred to in the Koran (1).

Christianity had likewise made good progress among the Arabs before Islam. The persecutions and disorders which darkened the eastern church soon after the beginning of the third century, obliged great numbers of Christians to seek shelter in Arabia, that country of liberty. These were for the most part of the Jacobite Community, a sect that was widely distributed throughout Egypt, Arabia and Mesopotamia.

The above mentioned were the principal religions that prevailed among the Arabs, though the chief religion was gross idolatry. Some of the pagan Arabs believed neither in a creation of Divine origin nor in a resurrection, attributing the existence of things and their dissolution to nature.

---

(1) Koran chap. 85

intercession with God. They did not consider the idols to be direct agents, though they offered sacrifices and offerings to them, as well as to God, who was often put off with the lesser portion. Thus when they planted fruit trees, or sowed a field, they divided their cultivation by a line into two parts, setting aside one part for their idols and the other for God, if any of the fruits happened to fall from the idols' parts, into God's they made restitution, but if from God's part into the idols' they made no restitution. Also when they watered the idols' land, if the water broke over the channels made for that purpose, and ran on God's part, they dammed it up again, but if the water ran into the idols' part, they let it run on, saying they (the idols) wanted what was God's but he wanted nothing. In the same manner, if the offering designed for God happened to be better than that designed for the idols, they made an exchange, but not otherwise. It was from this gross idolatry or worship of inferior deities, or "the companions of God" as the Arabs used to call them, that the Prophet Mohammad reclaimed his nation by establishing among them the undivided worship of the true God (2).

There were seven celebrated temples, dedicated to the seven planets, adored by the whole nation, though each tribe had chosen one planet as the peculiar object of its worship. The tribe of Humyar worshipped in general the sun, the tribe of Misam the Bull's eye, the tribes of Lakhm and Jodaam, Jupiter, the tribe of Keis, Sirius or the Dog star, that of Assad, Mercury, the tribe of Tay worshipped Canopus, while the temple of Mecca was dedicated to Saturn. For the worship of angels and intelligences there were other celebrated, peculiar idols, ten of which are mentioned in the Koran, they are Al-Lat, Al-Uzza and Manata which were called "Oodesses" and "Daughters of God". Al-Lat was the idol of the tribe of Thakif, Al-Uzza was the deity of Ghaffan, Manata was the favourite idol of Kuzaah and Huzail. There were two other celebrated idols, namely Al Jibt and Taghout which are also referred to in the Koran. They were of the chief idols of the tribe of Koreish. Special mention is also made in the Koran of five idols, namely Wadd, Suwaa, Yagoutha, Yaouka and Nassra. These were common idols among the pagan Arabians. Besides the idols referred to above the Arabs worshipped a great number of others. Almost every housekeeper had his household god. There was a famous idol called Hobbai which was supposed by the Arabs to supply them with rain, a very important consideration in their dry land. Therefore it was an object of common worship among them. It had by accident lost a hand which the Koreish repaired with one of gold. A great number of idols were no more than large rude stones, the worship of which was first introduced by the prosperity of Ishmael, for when they increased in number and the territory of Mecca grew too narrow for

(1) G. Sale.

(2) O. Sale.

a short period during which the Persians held the reins of government) till the time of the Khalifa Abu Bakr, when Al Mondhir el Maghrour, the last of them, lost his throne and life in battle with Khalid Ibn el Walid the Muslim conqueror of Syria. This kingdom lasted 620 years.

The kingdom of Hidjaz, as already observed, was founded by Jorham, the son of Kahtan, and remained in the hands of this family until the time of Ishmael. The latter married the daughter of Modar, one of the Jorhamite kings, and she bore him twelve sons, one of whom, Kidar by name, inherited the crown from his uncle. The descendants of Kidar expelled the Jorhamite tribe who, retiring to Johamah, was after various fortunes at last destroyed by an inundation (1). Finally the government of Hidjaz was shared by the heads of tribes almost in the same way as the Arabs of the desert are governed at present.

Mecca was in the hands of an aristocracy that controlled affairs of state until the time of the Prophet Mohammad, to whose tribe the custody of the famous pantheon of Kaaba was transferred.

Thus have the Arabs preserved their liberty and independence, of which few nations can show so glorious and unbroken a record, even from the very Deluge, for though great armies have been sent against them, all attempts to subdue them have failed (2).

Neither the Assyrian nor the Median Empires ever found a footing in Arabia, and the Persian rulers never succeeded in making her tributary and were so far from being her masters, that Combyses, on his expedition against Egypt, was obliged to ask permission to pass through her territories.

When Alexander the Great conquered Egypt, the Arabians held him in so little awe that they alone of all the neighbouring nations, sent no ambassadors to him at any time. This want of respect and the desire of possessing so rich a country, made him form a design against it, and had he not died before he could put it into execution, this people might possibly have convinced him that he was not invincible (3).

## ( II )

### THEIR RELIGION

The religion of the Arabs before Islam was in the main gross idolatry, the Sabian religion or idolatry being the most widely extended among the whole nation, though there were also considerable numbers of christians, Jews and Magians among them. The Sabians believed in God. However, they worshipped also stars and planets and angels as well as images, they honoured them as deities and they begged for their

---

(1) Pocock, p. 74

(2) and (3) G. Sale,



Many tribes had to abandon their dwellings on this occasion, and from the scattered tribes rose two other kingdoms, known as Ghassan and Hira. According to the story of the inundation referred to above, Abd, Shams, surnamed Saba, one of the famous Kings of the tribe of Himyar having built the city of Saba, (first named after him and afterwards called Marat), constructed a vast reservoir to store up the water of the mountain torrents for the use of the inhabitants in the years of drought. The dam was so firmly built that there seemed no probability of its bursting. The water rose to the height of twenty fathoms and was kept in on every side by masonry so solid that many of the inhabitants of the province had their houses built on its walls. Each family had a certain portion of this water distributed by aqueducts. But at last (according to tradition), God being highly displeased at their great pride and insolence, and resolving to humble and disperse them, caused a mighty flood to break down by night and carry away the whole city, with the neighbouring towns and people (1).

The tribes which remained in Yemen after this terrible occurrence still continued under the rule of the original princes till about 70 years before the birth of Mohammad, when the King of Ethiopia sent over forces to assist the Christians of Yemen against the cruel persecution of their King Zul Nowas, a bigoted jew. They attacked him so closely that he forced his horse into the sea, and so lost his life, and the country was then governed by four Ethiopian Princes in turn till Seif Ibn Zai Yazan, of the tribe of Himyar, having obtained assistance from Khosrou Anushirwan, King of Persia, assistance which had been denied him by the Emperor Heraclius, recovered the throne and drove out the Ethiopians, but was himself slain by some of the enemy who had been left behind.

The Persians appointed the succeeding princes till Yemen fell into the hands of the Prophet Mohammad, to whom Bazan, the last of them, submitted embracing Islam at the same time (2). The kingdom of the Himyarites is said to have lasted 2000 years.

It has already been observed that two kingdoms were founded by those who left their country on account of the inundation of Arem. They were neither from Arabia properly so called. One was the kingdom of Ghassan. The founders of this kingdom were of the tribe of Azd, settled in Syria Damascena, near a spring called Ghassan, whence they took their name. This kingdom, according to Abulfeda, lasted 600 years, until the Khalifa Omar subjected the whole of Syria to the rule of Islam.

The other kingdom was that of Hira which was founded in Chaldaea of Irak. This kingdom was better known as the kingdom of Mondhirs of the tribe of Lakhm. These princes retained their throne (except for

---

(1) Abulfeda

(2) Ed. Pocock.

Whether townsmen or tent-dwellers, the Arabs have always been divided into tribes and clans, each having its own habits, customs, mental outlook and peculiarities and being more or less distinct from the other in mode of worship, in culture and development. This diversity of culture was mainly due to diversity of origin. Various races had inhabited the peninsula in various ages. Many of these had passed away, but their failure or success to add lustre to the Arab race, was ever fresh in the memory of successive generations, and on this tradition the early history of the nation was based.

The most famous tribes of the ancient Arabs were those of Aad, Thamoud and Amalik. The destruction of the first two tribes by God for refusing to acknowledge the missions of his prophets to them or to obey them, is frequently referred to in the Koran as instances of God's Judgment on obstinate unbelievers and a warning to the Quraishites, the tribe of Muhammad, who were his most powerful and inveterate enemies.

According to tradition, the Adites appeared at one to have been a powerful and conquering people. They are said to have invaded Babylonia 2000 years B.C. (1). The Thamudites were people who lived in houses carved in the rock. The ruins of these habitations are described in Sir Henry Layard's "Early Travels". The tribe of Amalik rendered itself so powerful that before the time of the prophet Joseph it conquered the middle of Lower Egypt and furnished several of her Kings, known to history as the "Shepherd Kings" (2). After they had possessed the throne of Egypt for some generations, they were expelled by the inhabitants and finally were destroyed utterly by the Israelites (3).

The Arabs of to-day are descended from two stocks (1) Kahtan (Biblical Joktan), son of Eber and (2) Adnan, descended in a direct line from Ishmael, the son of Abraham and Hagar. The former are considered as pure Arabs, the latter as naturalized Arabs. The posterity of Ishmael had intermarried and settled among the Kahtanic Arabs and had become amalgamated with them into one nation.

The Arabians were for some centuries governed by descendants of Kahtan, Yarab one of his sons, founding the kingdoms of Yemen in the south and Jorham, another, that of Hidjaz in the north.

The descendants of Yarab, known as the kings of Himyar, continued to reign undisturbed over Yemen until the time of Alexander the Great. The first great calamity that befell the tribes who settled there, was the inundation of Arem which happened about 340 B.C., one of the leading events in the history of Arabia.

---

(1) George Sale's translation of the Koran, Preliminary Discourse.

(2) Sir Henry Layard's "Early Travels".

(3) G. Sale.

مخطوطات  
الكبيسي  
بمطبعة  
الملك فيصل

٣٨٥

٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عاصم  
مطبعة  
الملك فيصل

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

الأمور المخارقة للنواميس الطبيعية في وقعة بدر

تخناز المصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأدب ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير في حل الشكوك التي شهدتها على الأذقان للرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر الحمدي ، صاحب الدعوى في جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنًا وأحل أثرًا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما ناقه الناس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانتفاق القمر ، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأني توجيهه إلى غير ما فهم منه ؛ ولكن أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم في أقل من ربع قرن . وقد أموز أمثالها في الأمم للقرون المديدة ، والآمال الطويلة .

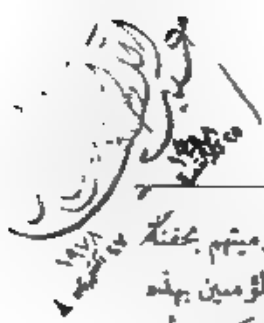
وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرم فيما نكتبه في هذه السيرة ، على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تحليلها بالأسباب المادية ، حتى ولو بشيء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالمين في التثبت ، والمحافظين على إقامة السننور العلمي ، ثقة منا بأن بحنا لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التي كان لها شأن عظيم في كسر شرية أنصار الجاهلية ، والطائفة من خيالاتهم وكبرياتهم ، ولم ألتزم بما صاحب هذه المعركة من الأمور المخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتني التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المخصوصة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لتبين وجه إعجازها ، أتت على الآيات التي وردت في شأنها من الكتاب الكريم ، قال الله تعالى في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذنة ، فأتقوا الله

لعلكم تشكرون ، الى قوله تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكربتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » . يدكر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم في موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبید طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القول الى رسوله فقال . ليس لك من أمر تدبير العباد شيء ، فامض لما يوجهك الله اليه ، فانه هو الذي يدير أمر خلقه ، فلما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فانهم ظالمون .

وقال تعالى في سورة الأنفال مشيرا الى وقعة بدر : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ( قافلة التجارة أو جيش المشركين ) ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليقبح الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يمشيكم الناس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الى قوله : « فلم تغفلوا ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليس المؤمن من بلاء حسنا إلا الله صحيح عليم . ذلكم ، وأن الله موهن كيد الكافرين . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أي بكتابته ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويريل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بأن يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما حمل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله الناس يشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليديقكم نعمة الأمن ، وأزل لكم من السماء ماء ليروي طمأنكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برمطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم الى الملائكة أني معكم فثبتوا المؤمنين في الحرب ، سألني في قلوب الكافرين الرعب ، الخ . وقد عدتم من وقعة بدر فتخزون بعدد من قتلتموه ،



والحقيقة أنكم لم تقتلوه ، ولكن الله هو الذي قتلهم ، وما رميت إلا نجد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شأته الوجوه ، ولكن الله هو الذي رمى ، وقد امنح الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أي إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر ( الكلام مسوق على سبيل التهكم ) ، وإن تعلقوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمহারبة المؤمنين فعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغني عنكم فتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذي يتأمل في هذه الآيات يدرك منها أمورا لا يمكن التردد فيها :

( أولا ) أن المسلمين في وقعة بدر كانوا قليلين وناقصي العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم في كثرة عدده واكتمال عدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا ( أذلة ) ، والافسان لا يشعر بالنذل إلا في حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم في الوحي ودخلهم الشك في مصدره .

( ثانيا ) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الاعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إلى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم حاديا لا يتطلب العون الإلهي المباشر ، لكان في ذكر المدد الملوكي هنا ، توهين للدعوة الاسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

( ثالثا ) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مسعوه منعا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوه ولكن الله قتلهم ، وما رميت إلا رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالا منهم حادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حشوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا ( شأته الوجوه ) ، فردهم الله عن إسعاد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تركوا وشأنهم بدون تأييد سماوي ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن مهيجا في تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك لعرب الجاهلية ، لكان تأثيره في قلوب سامعيه عكسيا ، أي أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الاسلام ، وبوقر في صدور الناس أنه يعتمد على الابهام ، وتجييس الحوادث ، لكسب الأخوان والانصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فإن هذه الواقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر في تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالاسلام ، ما عجزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الواقع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدوا من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء في أشعارهم . قال أبو تمام الطائي في بانيته المشهورة

التي مدح بها المعتصم ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على إمبراطور الرومان تيوفيل سنة (٢٢٣) للهجرة .

ما بين أيامك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب



وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الإعجاز في هذه الواقعة يتجلى بمرجعيات من نوع آخر . ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التي لقريش ، لم يأخذوا أهمتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والنأهب لمثل هذا الشأن غير النأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضي أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم نشريدها وأسر من يقع في اليد منها ، فإن مكافئة جيش يستدعي التذرع له بجميع ما للحروب من أهـب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات لقطع والحفر والتحطيم ، وأهـب لتموين والزحف والحصار والمواصلات . وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله في التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبي حين تقديمهم أنهم قد يدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن يشاؤوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبي صلى الله عليه وسلم وحمل على ملاقاته ، وهذا الاقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد في جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

إذا لم يكن قائد هذه النصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحي ، لما أقدم على الترحيل تحت إمرته في الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجيهة :

(أولها) تفوق العدو في العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر في عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه ثقة أمل في الظفر إلا إذا كان لديها من العناد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لحصينتها .

(ثانيا) تفوق العدو في الأسلحة ، وهي العوامل الفاصلة في الحروب كما لا يخفى .

(ثالثا) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه في عوامل القلب .

فالقائد الذي يدفع بجيشه في أتون الحرب مع تحقيقه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لسكأني أنظر الى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرها تحادك وتكذب رسوئك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني به » ، قلنا إن القائد الذي يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف في جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مخاضرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذي كان يدفع عمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يظلمون إليه الرجعي بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوي أن يهاجمه في عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التي كانت معه لا تسمح له بالشروع في حرب استئصال ؛ ولا هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا حاد ولم يلق ملجأ ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك في إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه في هذه المعركة التي لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يصدق وعد ربه في الأخرى ، فدفع أصحابه الى منازلها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال في كتابه الكريم : « فلا تخسبن الله مخلف وعده ورسوله » . خفق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيده حجه ، وقوى عزيمته ، وجعله فائحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة .

#### رد شبهة في هذا الموضع .

قد يقول معترض : ليس في انتصار محمد في وقعة بدر ما يصح أن يجعل في عداد المعجزات النبوية . فإذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين في تلك الموقعة ، فهناك مامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة في بوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فإذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يتقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد عدا ، لاقى هم الأحوال ولم يُبَلَّ ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم في الكربية بغير مبالاة بما يصيب أحسادهم ، وتعلمهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال الجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا اتوا الى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة أراء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ماله من المتعد المادية .

نقول : إن هذه الشبهة في ظاهرها قوية ، لاستنادها الى أصول بيسكولوجية ، ولكنها في الواقع شعيرة خيالية ، وقائمة على افتراضات تحككية ، فإن الأصول النفسانية التي تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على اثنين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبي عهد بالاسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله في المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من مازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال الممدودين عدد ليس بالقليل . فمناصر الاستئانة في القتال التي يفترض المشتبه وجودها في جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذي يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شيء ، حتى حامل الذمرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضهم نفسه أحلامهم ، وتحقير آباؤهم .

ولو أضفت الى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيه بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما الى زيادة عدد حامياتها ، وإما الى الافلاخ عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل فكان من أسس الأمور بمحاشتهم أن يستسلموا في إبادة هذه الطائفة التي قامت عقبة في سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، في مدينة مبنية ، لموتوا في حجرات دورها جياها عارين ، ولكنهم تخبروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسألة الجملات التي تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرنا كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستئانة في القتال ، وإذا أضفت الى ذلك تفوقه في العدد والمُدَد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عهدها لحرب زبون ، يمتز آية من الآيات في تلك البيئة التي كان أمم ما يحرك الحسم فيها الى حدود التضحية ، حامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدافع عن العقائد ، والدياد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التي كانت لا تنقطع ساحلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة في مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها في هذا الركن المنعزل من الأرض .

فإن أصر المعارض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طغرة الى حد تضحية النفس في سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التي نحن بصدها ، وأدل على المدد الإلهي منها . فعلى أي أساس صحيح يستطيع البيسكولوجي أن يعال انتصار المسلمين على عدوم في بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر

محمد فريد وجدي

للانحجار فيها



# التقن

## سورة الشمس وضحاها

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبق الكلام على قوله تعالى « والشمس وضحاها » . أما قوله « والقمر إذا تلاها » فنقول فيه : اختلف المفسرون في تلو القمر للشمس على أقوال ، وأظهرها ما قبل من أن المراد ظهوره عقب غروبها ، وذلك عندما يكون بدرا ليلة أربعة عشر . ونقسم به في هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائع ، وحسنه البارع . ولك أن تقول : إنه تلاها في الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك ، فكأنه شمس ليلية تجلت بمد غروب الشمس البهارة . ويقول قائلون : إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فإن نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بمد الشمس من السكواك ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس في عام كامل ، فكذلك القمر يدور حول الأرض في كل شهر مرة . أما ظهوره هلالا ناقصا فبدرا كاملا ، فلنكون نوره مستفادا من نور الشمس وليس ذاتيا له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبه إليها قريبا وبعدا . ولذلك ينكشف بالكلية عند ما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر السم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التي تورث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : « والنهار إذا جلاها » :

يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نورها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس في النهار ، فلا إسناد مجازي كصام نهاره . وقيل إن الصمير يعود على الأرض ، أى جلى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بنظام الليل ، فالصمير عائد على معلوم غير محمول . ومثل ذلك قول من قال إن الصمير يعود على الدنيا . وقيل إن الصمير يعود على الظلمة المملومة من المقام . والمراد فتحيتها على هذا القول إذ أنها والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الصائر وجوز بعضهم أن يكون الصمير المرفوع المستتر في جلالها عائدا عليه تعالى ، كأنه

قبل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيه . فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكل حالاته . ولكنه بعيد غير متبادر .

ثم قال تعالى : « والليل إذا يغشاها » :

أي الشمس ، أي يغطي ضوءها . والكلام في الضمير المنصوب على نحو ما سمعت في سابقه ، والاولى عوده الى الشمس لا للأرض ولا للعالم على ما علمت . وجيء بصيغة المضارع في « يغشاها » إحضارا للصورة العجيبة التي تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس الى علام الغيوب . وحقا إن غشيان الليل للنهار لم أبهر الآيات ، وأعظم النعم المتواترات ؛ وكذلك مجيء النهار بعده . فسبحان الحكيم العظيم « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تفكرون » . وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من في القبور ! وما أشبه حالهم عند الانتباه وقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم ! « فهل من مدكر »

ولا بأس أن تقول لك : إن الأولى في إذا أن تكون منصوبة على الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مصاف مقدر بعد واو القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن هذا الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلي برهانه .

ثم قال تعالى : « والسماء وما بناها » :

أي من بناها . وإيثار ما على من لإرادة وصف العظمة في من بناها ، والجلال في من سواها . وإذا أريد ذلك كان المقام لما ، لالمن ، كما هو مقرر في محله ، فكانه قيل : والقادر العظيم الذي بناها . على أن ما قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيرا . والمراد ببناها إيجادها .

هذا ثم تقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملا فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويفض إجلالا وإعظاما . انقضت العصور وتولت الدهور ولشعر معجبون مسحورون بحيال القبة الزرقاء وجلالها ، يتناولون الى إدراكها بالغيايل ، ويستزلونها الى الأرض بالقرايح ، فلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئا إلا مشوبا بالأوهام ، وشها بالأحلام . والفضل الأكبر في تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة في شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذي عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الآلاف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة ، وأكثر من سرعة النور الذي يسير في الدقيقة ٩٢ مليونا من الأميال . فهو الذي عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التي نوه بشأنها عز وجل في مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يدكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا هذا نار » . « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون » ، « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم ينتقون » .

ولنقف هنا اليوم سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يا من لا شريك له      طوبى لمن عاش بين الناس بهواك  
والله ما أنست روحى ولا فرحت      فى الدهر ما بقيت إلا بذكرك  
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا      من غرط لطفك ربى كيف ينساك

يوسف الرجبى

عضو جماعة كبار العلماء

## فضيلة الجود

قال حكيم : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك العباد .

يروى أنه قيل للأسكندر : لم لا تكثر الأموال كما كانت تعمل الملوك ؟ فقال : كنوزى هم أصحابى أكثر الأموال فيهم لافى البيوت .

تقول يطابق هذا القول ما ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : أحسن الكنوز محبة القلوب .

والى هذا يشير الشاعر بقوله :

وما مال من أعطى الكرام ينقص      ولكنه عند الكرام ودائع  
وأحسن منه قول الامام الشافعى رضى الله عنه :

وأحسن الى الأحرار تملك رقابهم      وخير تجارات الكرام اكتسابها  
وقال البسقي :

من جاد بالمال مال الناس طائفة      اليه والمال للانسان فتان  
من كان للخير مناعا فليس له      على الحقيقة إخوان وخلاف

# الشيعة

## الظلم والشح

عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أحلهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران ( ١ ) بيان معنى الظلم وآثاره الضارة في الشريعة الإسلامية ( ٢ ) بيان معنى الشح وآثاره الضارة بين الناس .

( ١ ) كل الناس يعرفون معنى الظلم ، ويدركون معنى العدوان على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة ، فإذا اعتدى أحد على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه ، أو سلبه حقا من حقوقه فقد ظلمه ، ومن يفعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، وكان عرضة لهلاك في الدنيا والآخرة .

لقد نهى الله عن الظلم في غير موضع من القرآن الكريم ، ولعن الظالمين وهددهم بأشد أنواع الجزاء ، ومن ذلك قوله تعالى : ( ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رهوسهم لا يرتد إليهم طرفهم . واقتدبتهم هواء ) . فلينتظر الظالمون الذين يفعلون من الجزاء الديوى على ما كسبت أيديهم عقاب الله تعالى يوم القيامة ، وإن عقابه لشديد ، وإن أخذه لأليم . ومعنى تشخص فيه الأبصار لا تقر فيه أبصارهم من شدة الهول والفرع . ومعنى مهطعين ، مسرعين إلى من يدعوم . كما هو شأن الأسير الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ومعنى مقنعي رهوسهم . راضى رهوسهم من شدة الهول . ومعنى لا يرتد إليهم طرفهم ، لا يرجع إليهم نظرم فينظروا إلى أنفسهم . ومعنى واقتدبتهم هواء ، قلوبهم لا تمشي شيئا من شدة الفرع والهول .

والغرض من هذه الآية الكريمة تمثيل الحالة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فبين الله سبحانه أن حرمة الظلم يقرب عليها يوم القيامة من العذاب والفرع ما سيصعق له الظالمون الذين يفتككون حرمان الضعفاء بقوتهم ، ويستعذبون التشكيل بصاد الله بدون أن يحسبوا الخالقهم حسابا ، فبين سبحانه أن هؤلاء الظالمين سيستولون عليهم فزع العذاب وهول الموقف ، فيذهب بعقولهم ، ويتملك مظهر ذلك الفرع حواسهم ، فتشخص أبصارهم

بحيث لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم كما يشاءون ، كما هو شأن الوهان الفزع الذي تتاجنه الكوارث ، وترعبه النائبات .

ومما لا ريب فيه أن هذه الآية الكريمة قد بينت ما سيلقيه الظالمون من هول وفزع أحسن بيان . وإن فيها لمعة وعبرة للطاغين الذين تغرهم شهوة الجأء والسلطان فيسلبون الناس حقوقهم ويؤذونهم في أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وحقوقهم ، وهم ناعمون متلذذون بسلطانهم الزائل . وما ربك بتافل عما يعمل الظالمون .

أما الأحاديث الواردة في التحذير عن الظلم ، وتخويف الظالمين ، فهي كثيرة لا تقف عند حد . ومنها هذا الحديث الذي نشره . فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتقى شر الظلم ، ونتحاشاه ، لأن شره مستطير ، ولا بد أن ينتقم الله من الظالمين في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا من ظلمهم ، ويجمعوا عن غيهم ، ويردوا الحقوق لأربابها .

ومن ذلك ما رواه مسلم وغيره من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعلى ظالم ، فإذا أخذه لم يفلته » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، وقد جاء في آخر هذا الحديث ذكر قوله تعالى : ( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « صفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم ، وكل ظالم مارق » رواه الطبراني . وقوله صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه » : رواه أحمد بإسناد حسن . وجاء في بعض روايات الصحيح : « اتقوا دعوة المظلوم ولو كافرا » إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الصحيحة الدالة على أن الدين الإسلامي قد حث الناس على ترك الظلم ، ونهاهم نهيا شديدا عن إيذاء بعضهم بعضا في أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وأمرهم بإقامة العدل والاحسان فيما بينهم ، فلا يعتدى قوى على ضعيف ، ولا يجور ذو سلطان على الناس بما أناء الله من جاه ومنصب ، ومن لم يتق أسر الله تعالى فانه لا بد أن يكون نصيبه الهلاك في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

إن هذا القدر الذي ذكرناه من شناعة الظلم في نظر الشريعة الإسلامية ظاهر قد لا يخفى على أحد من الناس ، ولكن الذي يجب على المسلمين أن يتنبهوا له ، ويحاربوه بكل ما لديهم من قوة ، هو ما يمتهم إلى الوقوع في مثل هذه المخطورات الموقفة التي قضت على كثير من من قوتهم المادية ، والأدبية ، وأورتهم ذلا بعد عز ، ومهانة بعد شرف وكرامة . فمن أم

الوسائل الباعثة على ارتكاب جريمة الظلم تحكم سلطات الشهوات على الأنفس ، والرغبة في الحصول على أكبر قسط ممكن من تلك الشهوات الفاحشة التي تنقضي مرامها ، ثم تترك وراءها حشرات لا تنقضي ولا تنفد ، وشقاء لا ينقطع ، وعذابا أليما . فترى ذوى الجاه والسلطان تزين لهم بطاقة السوء حب صناع النمام والوشايات ، فيبشرون المؤمنين الضالعين الأبرياء طاهري القلوب سليمي الصدور ، وبذيقوهم من أنواع الظلم والحيف ما قد يقضى على أرواحهم وأموالهم وكرامتهم ، ويسلبهم حقوقهم الطبيعية وهم غافلون .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى في باب الأموال ، فكل من أتبع له أن يستول على مال الغير بأية وسيلة من الوسائل لا يتأخر عن ذلك بدون مبالاة بأوامر ربه ونواهي . ألم ينه الله تعالى نهيا شديدا عن الفس والغيابة ونطفيف الكيل والميزان ؟ ألم يقل سبحانه : ( ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون ) ؟ ألم يقل سبحانه : ( ولا تأكلوا أموالكم بيسكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ) ؟ ألم يقل : ( الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ) ؟ ألم يقل صلى الله عليه وسلم : ( كل لحم نبت من حرام ، فالنار أولى به ) ؟ ألم يقل : ( من غشنا فليس منا ) ؟ إلى غير ذلك من النهي الشديد الجازم عن الظلم في باب الأموال . فها بال المسلمين يظلم بعضهم بعضا ، ويفس بعضهم بعضا . ألا إن ذلك هو الخسران المبين .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى في شهوة العرج ، فلا يبالون بانتهاك الحرمات ولا يحسبون للمسددي على الأعراض حسبا ، فلا زاجر يحرّم ، ولا دين يحول بينهم وبين ارتكاب جريمة الزنا ، وما في معناه من الرذائل الخلقية التي تمحو الفصائل كأنهم هم لا يعمرون للانسانية معنى . وأشنع من هذا وذاك ما يرتكبه بعض قساة القلوب من قتل الأنفس البريئة التي حرم الله قتلها وأعد للقاتل عذابا أليما . قال تعالى : ( ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ) .

يفعل المسلمون ذلك ، ويتركون دينهم وراءهم ظهريا ، كأنهم لم يسموا قول النبي صلى الله عليه وسلم : ( كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله ) . ألا فليعلم المسلمون أن ارتكاب هذه الجرائم ، واقتراف هذه المظالم هي السبب في انحطاطهم وتأخرهم ، ولا ينفعهم إلا أن يرجعوا إلى الله ربهم ، ويمملوا صالحا ، لعلهم يفلحون .

٢ — أما معنى الشح ، فهو الإمساك عن الإنفاق حيث يجب البذل ، سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال ، والتنفقة على الزوج والأولاد ونحوهم مما يجب على المكلف تقفهم ، ومثل ذلك الإنفاق على إحياء نفس يتوقف على ذلك الإنفاق إحيائها ، أو كان واجبا تقتضيه المروءة بأن ينفق ما ياسب حاله ، فلا يليق أن يكون ذا مال كثير ويعيش عيشة البؤساء ،

أو يضيق على أولاده وأهله ، فيحرمهم من أنعم الله تعالى ، أو يسقط كرامته في البيئة التي يعيش فيها ، فيصبح بذلك عرضة لتعقير الناس إياه ، وغير ذلك من الأمور التي تخل بالروية . فإذا حفظ الإنسان نفسه من هذا لا يكون بحيلة في نظر الدين . أما كونه كريماً فذلك تابع لحالته المالية ، وتفاوت أنظار الناس في تقدير الكرم ، والذي يحفظ الإنسان من شر الشح هو العمل بقوله تعالى : ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) .

أما شر مضار الشح وأكبر آفاته ، فهو فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواد من بينهم ، وحلول المداوة والبغضاء محل ذلك ، لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ، ولا تسمح نفسه ببديل شيء من ماله ولو يسيراً لمساعدة الضعفاء ، فتنتلج قلوبهم ضغناً عليه ، وتثور أنفسهم حسداً عليه ، فإذا فشا الشح في أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التي يترتب عليها سفك الدماء ، واستحلال المحارم . لذلك يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم ( وإياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة ففعلوها ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ) من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد ، فمضى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا . أمرهم عن الكف عن معونة الناس . وقيل الشح الحرص على ما عند غيره . والبخل الحرص على ما عندك . فذلك صريح في أن الشح خطر اجتماعي كبير ، يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها ، لأن الإنسان بحسب تصكوبه الطبيعي ، وفطرته التي فطره الله عليها محتاج إلى التعاون مع غيره في هذه الحياة فلا يمكنه أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مرآحها منفرداً . بل لابد له من ذلك في الاستناد إلى غيره والتعاون معه في كل أموره من وقت وجوده إلى أن يوارى في التراب . وكلما اشتد ضعف الإنسان اشتدت حاجته إلى غيره ، فتراه في حال طفولته محتاجاً إلى غيره في كل شيء . فإذا ما نشأ وترعرع استقل في بعض أموره ، ولكنه لم تنقطع حاجته في البعض الآخر .

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الإنساني ، وبقاء العمران ، والشح ينافي التعاون والترأحم بين الناس . وهبات أن تجد الرحمة إلى نفس الشحيح سبيلاً ، لأن الشح يدموه إلى أن يقاطع أرحامه وأقرب الناس إليه ، فضلاً عن البعيدين عنه ، ويدعوه إلى القسوة والغلظة ، فلا يثبت مكرهاً ، ولا يمين ضميراً ، ولو توقفت حياته على معونته . يدعوه إلى أن يكسب المال من أي طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام ، يدعو إلى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شيء من ماله ولو كان من أبنائه وأهله ، وقد يفضي به ذلك الحقد إلى ارتكاب الخنايا وسفك الدماء . فلا ريب في أن الشح من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الإنساني . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إياهم إنا نعوذ بك من البخل والكسل وأردل العمر وعذاب القبر . وقتنة الحيا والممات . رواه مسلم

عبد الرحمن الجزيري

## الكلام والمتكلمون

- ٧ -

الإمام الغزالي

أسلوبه :

يلاحظ الذين يدرسون الغزالي أن أسلوبه يختلف كل الاختلاف مع الفلاسفة الآخرين أمثال ابن سينا ومن هم على شاكلته . فبينما يرى القارىء أن أسلوب ابن سينا مثلاً موجز محدود ، يلاحظ على العكس أن أسلوب أبي حامد مذهب مصب تنساب فيه العبارات والمترادفات انسياب الماء في الغدران ، وتتتابع جملة في شيء عظيم من الرشاقة . ويرى الأستاذ كارادى فو أن الغزالي اجتمعت لديه صفات الخطيب والعالم المتسابق والواعظ الدينى ، فهو يفيض بالأولى ، ويحمل بالثانية ، ويأسر النفوس بالثالثة ، إذ هو يفتش عن أحب الجمل الى القلوب ، ويجمع أشد النصوص تأثيراً في العقول ، ويستخدم المجازات والسكاسيات حتى لا تشتغل الأرواح والعقول بغير ما يقول . وفوق ذلك فهو يمبر عن المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة ، ويصور الموقف الواحد بصور متباينة . وقد جزم هذا العالم المستشرق في كتابه « الغزالي » بأنه لم يعرف فيمن قرأ من العلماء أسلوباً أرق وأخصب من أسلوب الغزالي ، وهو يأسف أشد الأسف ، لأن لغته الفرنسية لا تقسع لهذا الأسلوب ، ويعتذر إذا لم يوفق الى الإجابة والانتقان في نقل ما نقله عن هذا العالم القدير . وقد أنى الأستاذ كارادى فو على هذا الأسلوب في كتابه الآخر « مفكرو الاسلام » ثناء طامراً تقتطف منه ما يلي :

« إن أسلوب الغزالي مذهب سهل لدين واضح ، وأنه إذ يستعين بالصور الخيالية ولا ينفذ الطرف عن الجوانب العملى يستهوى القارىء ولا يتعبه . إن عقله متزن ، فهو إذا اقتبس من السنة ، فعل ذلك بدون إنقال أو إفراط . إنه يقسم ويقرع ببنية ووصوح ، وبدون تصنع أو مباحاة . ولما كان نفسانياً ، فلم يتهور في الدقة المغالية . وبهذا يمكن تشبيهه ببعض آباء الكنيسة الإغريقية ولا سيما القديس « جان كريسوستوم » أى ( ذو الفم الذهبى ) وهو صاحب الأسلوب الجذاب السهل الساطع ، ولكن ينبغى القول بأن الغزالي أدخل منه في باب النظر » (١)

(١) انظر صفحة ١٦٠ من الجزء الرابع من كتاب « مفكرو الاسلام » .



## رأيه في العلوم :

بقيت نقطة واحدة ينبغي أن نعلن رأي الفزالي فيها قبل مغادرة هذا المقام ، وهي رأيه في العلوم المختلفة التي كانت ذاتمة في عصره . ويتلخص هذا الرأي فيما يلي :

تنقسم العلوم عنده الى قسمين : شرعية وغير شرعية . فأما الشرعية فكلها خير ، وكذلك أدواتها الضرورية لها كالنحو والبلاغة والتاريخ وكل ما يحتاج إليه في شرح الكتاب الكريم أو السنة التراء . وأما العلوم الغير الشرعية ، فبعضها خير مباح ، بل مفروض أحيانا وذلك كالطب والحساب مثلا . والبعض الآخر شر محظور كالسحر والكهانة ، أما الشر غير مباح ، وشره محظور .

## منزله بين المتكلمين ورأيه في علم الكلام :

نفا أبو حامد في أحد العصور الاسلامية فضالا بين الفرق ، وزاوا بين النحل كما أثرنا الى ذلك آنفا ، فلما شب وجد العقول مضطربة والألباب حائرة ، وسمع حوله آراء متضاربة في علم الكلام . فالبعض يحرمه وينزله من دركات الأمام الى الدركة التي تلى الشرك بالله . وقد عُزِيَ هذا الرأي من السابقين الى الفزالي الى الأئمة : مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وصفيان الثوري وغيرهم من أئمة السلف . فروى عن الإمام الشافعي أنه قال : « إن أكبر الكبائر الشرك بالله ثم علم الكلام . ولو علم الناس مافي هذا العلم من هوى ضار ، لفروا منه فرارهم من الأسد » .

وأثر عن الإمام أحمد أنه اعتبر جميع المتكلمين زنادقة . أما مالك فقد روى عنه أنه قال : « ألا ترون أن المتكلم كلما لاقى من هو أفصح منه وأقدر على التدليل اعتق رأيه . وبهذا يكون قادرا على تبديل دينه في كل يوم » .

أما البعض الآخر من المسلمين ، فكان لا يبيح علم الكلام لحسب ، بل كان يحمله واجبا لضرورة الاحتياج الشديد إليه في الدين . وقد أخذ هذا الفريق يدفع عن علم الكلام مستدلا بالآيات القرآنية كقول القرآن مثلا : « قل هاأنا برهاصكم إن كنتم صادقين » وقوله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » وغير ذلك من الآيات الحاتة على استعمال الحجة والبرهان .

وقد استدلوا كذلك على صحة ماذهبوا إليه بمحاذلة وقعت بين الإمام علي وجمع غفير من الخوارج ، وانتهت باهتداء أئتين من بينهم الى تعاليم السنة السمعة .

نفا أبو حامد في وسط هذه المعارك الطاحنة ، وبين هذه الآراء المتضاربة فلم يكن نصيرا لاحدها على الآخر دون تأمل ولا تفكير ، بل عكف على دراسة هذه المشكلة ، وأنهم فيها للنظر

طويلا، فخرج منها بأن بعض المحرمات محظورات لذاته كالخمر والخنزير، والبعض الآخر الأصل فيه الإباحة ولكنه ينتقل إلى الحظر عند ما يظهر شره وضرره. وعلم الكلام من هذا النوع الأخير مباح، بل ضروري وواجب في بعض الظروف. فإذا ركب الإنسان فيه هواء، وغلبه الماء انتقل إلى الحظر وأصبح الاستمرار فيه إثمًا، بل كبيرة من الكبائر. وتعرف هذه الحالة بالإحساس بنزع الإيمان واضطراب أسسه. فإذا وصل المنكلم إلى هذه الحالة وجب عليه الإفلاع عن علم الكلام، لأنه لا يضمن - إذا استمر - أن يعود إليه إيمانه الأول أو يفوز بإيمان آخر متين مؤسس على الحجة والبرهان. وإذا نظرنا إلى الواقع المشاهد، رأينا أن إثم الكلام أكبر من نفعه، إذ أنه أضل أكثر ممن هدى، لأنه في الحالة الأولى هادم، وفي الحالة الثانية ليس إلا مساعدا على بناء كان يمكن أن يستغنى عنه فيه. وإذا، فهو ليس أساسا من أسس الإيمان، وإنما هو يضئ بعض نواحيه لمن احتاج إلى الإضاءة حسب.

وبناء على كل ذلك، فالخاصة يجب أن يتعلموا الكلام ليدفعوا به مهاجمات الملاحدة والنادقة. أما العامة، فإذا كانوا في بلد ساد فيه الإيمان، فينبغي ألا يعلموا عن الكلام أكثر من أنه خطر على الدين؛ وأما إذا كانوا في بلد انتشرت فيه الشبه إلى حد يخطئ منه على الأطفال، فيجب أن يدرس فيه الكلام حتى للحاهير ليحصنوا به ألقاظم ضد تلك الشبه، ولكنهم لا ينبغي لهم أن يتعدوا النوع الذي ذكرناه من علم الكلام في كتابنا « الرسالة القدسية ». أما الخاصة فلا بأس بأن يدرسوا منه ما في كتابنا: « الاقتصاد في الاعتقاد ». فمن لم يكفه ما في هذا الكتاب، فليتنظر حتى يلهمه الله الحقيقة أو فيسكون مصيره أن يهوى في الشك أو في الجحود.

#### مذهبه في المسائل الإسلامية العامة :

يرى أبو حامد أنه يجب على كل مسلم أن يعرف أن من الواجب في حق الله القدم والبقاء ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، والوحدانية. وتسمى الصفات السلبية، لأنها تطلب عن الله ما لا يليق به كالحدوث والفناء وبقيّة أضدادها. وكذلك يجب في حقه كونه حيا، عالما، مریدا، قادرا، صميحا، بصيرا، متكلما.

وعند كلامه على هذه الصفات اجتهد في أن يتجنب كل المناقشات الصارة التي حدثت بين الصفائية والمعتزلة حول صفات المعاني، ولعله اكتفى في هذا الموضوع بما أورده فيه ردا على الفلاسفة في كتاب « التهاوت » لأنه يعتمد غالبا في كتب التوحيد إلى البراهين العقلية أو العقلية البسيطة الخالية من التعمق، وهو يسلك عين هذه الطريقة حين يعرض لرؤية الله في الآخرة ولمسألة كسب العبد المراد لله والمقدور له بدرجة تجعل كل حركاته وسكناته مشمولة بهذه

القدرة وتلك الإرادة الإلهيتين ثبوتاً تاماً . وبيان هذا عنده أن الله خلق التصميم والشيء المصمم عليه وأوجد الأول في الإنسان وجعله مقدوراً له ومكتسباً . فالمنسوب إلى الله الاختراع وإلى العبد الاكتساب . وكذلك أوجد الاختيار والشيء المختار ، والمتحرك والشيء المتحرك إليه . فالاختيار والتحرك ، والمختار والمتحرك إليه ، مخلوقة لله على سبيل الاختراع ، ومقدورة للعبد على سبيل الاكتساب .

أما جميع السمعيات من : صراط وميزان وجنة وطعام وشراب ومنتعة ، فهي عنده حقيقة ، ولكنه يضيف إليها بعض التأويلات كأن يقول مثلاً : إن الصراط حقيقي ، ولكن وصفه بأنه أرق من الشجرة مجاز ، لأنه يشبه الخط الهندسائي المستقيم الممتد بين النور والظلمة ، أو أن يقول : إن نعم الجنة ليس مقصوراً على المتع المادية ، بل إن فيها متعة روحية عظيمة تفوق المتع المادية كثيراً ، إلى آخر ما جاء في تعليقاته على السمعيات التي يخيل إلى المطلع عليها للوهلة الأولى أن الإسلام دين مادي لا ينشغل إلا بالذات الجسمية كما فهم بعض الأوروبيين في هذا العصر ، وكما فهم — على ما يظهر — بعض معاصري الغزالي أو السابقين عليه من الفلاسفة والتمثليين (١) .

### نضاله مع الفلاسفة :

ليس الغزالي أول المتكلمين المسلمين الذين ناضلوا الفلاسفة ، إذ يرجع هذا النضال إلى مبدأ ظهور الفكر الإغريقية في البيئات الإسلامية . وقد أشرنا إلى ذلك اتصال في العام الماضي في عرض حديثنا عن المدرسة الأشعرية ، فليرجع إليه من شاء . وقد كان هذا النضال يتمثل حيناً في محاورات عامة في الميادين والأسواق ، وحيناً في مناظرات أمام الخلفاء والأمراء وطوراً في رسائل يبعث بها بعضهم إلى بعض ، أو كتب ينسخونها ويعرضونها في المكتبات العامة . وفي الحق أن هذا النضال كان له ما يبرره من الناحيتين ، لأن الفلاسفة كانوا يرون أن المتكلمين الشديدي المحافظة يضمنون بمحودم حاحزاً حصيناً بين العقل والدين من جهة وبين العقل والرقى الطبيعي من جهة أخرى ، ولأن المتكلمين كانوا يمتقدون أن في هذه الحرية الواسعة التي يستبيحها الفلاسفة لأنفسهم في النظر وفي تلك الثقة القوية التي يمنحون عقولهم إيها خطراً داهماً على الدين ، لأن العقل في رأيهم قاصر عن إدراك كل أسرار الدين . وفوق ذلك فهو قد يضل وينحدر كما هو ديدنه ، فتسكون هنا الطامة الكبرى على الدين ومعتنقيه . ويرى « البارون كارادي غو » أن الذي روع المتكلمين هو أنهم رأوا الفلاسفة يحطون من شأن الوحي ويسوون به الفلسفة الإغريقية بل يقدمونها عليه .

(١) التمثليون هم من قالوا بأن كل ما ورد في القرآن والحديث من متع مادية لا يخرج عن كونه تمثيلاً لافهام العامة لأنه لو كان حقاً ، لخط من شأن الإسلام لثقله الشهوات فيه .

ولما كان صوت الفلسفة في العهد الذي شب فيه الغزالي قد حقت بموت ابن سينا ولم يبق لها من أنصار إلا بضعة أفراد خاملين من تلاميذ هذا الحكيم كان من الطبيعي أن ينجم أكثر فضائل أبي حامد وألغته إلى ذلك الفيلسوف العظيم ، لأن روح الفلسفة الحققة الجديرة بالدراسة والنقد كانت حالة في كتب ابن سينا . فمن أراد أن ينال من هذه الروح فلا سبيل له إلا هذه المؤلفات . وهكذا فعل الغزالي ، فكان لنقده في كتاب « التهافت » تلك القيمة التي هزت ابن رشد فيما بعد وجمته على الدفاع عن الفلاسفة بذلك الأسلوب العنيف الحاد في كتاب « تهافت التهافت » .

الدكتور محمد مغرب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## ورذيلة الجهل

روى عن سهل بن عبد الله التستري الصوفي أنه قال : ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل.

ف قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟

فقال نعم ، الجهل بالجهل ، مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل ، وقيل : من الجهل صحبة الجاهل ، ومن الجاهل محاولة ذوي المجال . خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . الجاهل يطلب المال ، والمافل يطلب الكمال . الجهل بالمفاضل من أقبح الرذائل .

وكان سفيان الثوري يقول : تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً ، فلأن يذم الزمان لكم ، أحسن من أن يذم بكم ، أي لأن يذم الزمان لإصاعة أهله لكم ، وعدم تقديرهم قدركم ، خير من أن يذم بكم فيقال هذا زمان فسد أهله ، ماضوا عن سواء السبيل ، ويضربون الأمثال بأهملكم

## بَابُ الاسْتِئْثَاءِ وَالْفَتَاوَى

### في الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

تزوجت من ابنة عمي وبعد دحولي بها ومعاشرتها وصل الى علمي أنني رضعت من جدتي لأبي ( أم عمي ) بعد أن توفيت والدتي وكان الرضاع بعد القطام والاستغناء عن الابن بالطعام مع ملاحظة الشك في الرضاع هل هو في مدة حولين أم لا ؟  
والذي أخبرني بكل هذا هو جدتي المرضعة لي الآن . فهل الرضاع هذا بعد الاستغناء بالطعام والقطام يحرم ولو كان في الحولين ؟ وهل يثبت التحريم بشهادة امرأة واحدة أو لا بد من شهادة عدلين ؟

محمد الشيخ

### الجواب :

إن هذا الرضاع فيه ثلاث اعتبارات تحمله لا يحرم إجماعاً .  
فأولاً — أنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة ، وهذا يحمله غير محرم عند الحنفية والمالكية والشافعية .  
وثانياً — أنه قد شك في حصوله في الزمن الشرعي المقدر للرضاع ، وهذا يحمله غير محرم عند الحنفية والحنابلة والشافعية .  
وثالثاً — أنه قد حصل بعد الاستغناء بالطعام ، وهذا يحمله غير محرم عند المالكية ووافقهم على ذلك الحنفية في أحد قولين قويين .  
وعليه ، ترى اللجنة أن هذا الرضاع لا قيمة له ، ولا بأس على الزوج أن يستمر على زوجيته بهذه الزوجة عند المذاهب الأربعة . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النحام

## صَفَتْ فَحَنَّةُ الْأَفْطَالِ الْفَلَسَفَةَ الْعَصِيَّةَ

لم كان الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للإنسان ؟

بيان ذلك للفيلسوف أجوست سيأتيه نفسه

انتهبنا من ترجمة المبحث الفلسفي الحليل لموضوع الدين من كتاب ( فلسفة الدين ) للعلامة أجوست سيأتيه ، مدرس الفلسفة بجامعة باريس ، الى قوله : « الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للإنسان من خلال الصغور المطبقة عليه » ، ونعمد اليوم الى ترجمة ما ساقه من الأدلة الفلسفية على ذلك ، قال :

« لم يكن الدين هو السكوة التي ينبع منها النور للإنسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج والتمسك بالباطل ، لأنه يحمل إليه حلا نظريا لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذي يؤتينا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القبيل العملي ، لا من طريق معلومات جديدة . أي بإعادتنا الى الأصل الذي تنصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبي من إحياء الثقة في قوسنا بذلك الأصل الذي نشأت منه الحياة ، وبالعاقبة التي تنتهي إليها . ومع ذلك فإن هذا العمل المسعى لا يفرضه الدين علينا من طريق الأوامر ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فإن التمسك بالحياة ليس بشيء غير غريزة حفظ الذات في العالم الطبيعي ، وهو يؤثر في العالم العقلي على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة . ذلك أنها عمياء وجبرية في الكائنات الحية ، ولكنها تصطبغ بالوعي والارادة في الحياة الأدبية . وهي باستعانتها هذه تظهر على صورة الدين في النوع البشري .

« هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث في الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعي الشخصي ، وهو الشعور بتبعية الانسان للكائن العام . فمن الذي في وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ما قدّر علينا قد بث فيما خارجا عنا وفي غيبتنا غسب ، بواسطة التواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا في ناحية من الأرض في زمان ما موقرين عروثات وقوى لم تستشر فيها ولم تحترها ، ليس هذا غسب ، ولكننا لمدم وجدنانا علة وجودنا في أنفسنا ، وفي أي مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميعة لثباتنا ولحياتنا ، خارج أنفسنا في الكائن الأول نفسه . فلاجل أن يكون الانسان متدينا يجب عليه قبل كل شيء أن يعترف

وأن يرضى ، في ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصي للأصل الابدئى الذى نشأ منه وارتباطه به ، وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكاملا معه . فهذا الشعور بتبعيتنا بهنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى للمقيدة بوجود الخالق . وهذه المقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدتها الأقصى من الكمال ، ولكن موضوعها لا يزال ضميرنا قط . وقد أثبتت هذه المقيدة فى روحنا ، بل فرضت علينا فرضا قبل إجابة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول . وعلى هذا يمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهى : إن الشعور بتبعيتنا هو للشعور بوجود الله فينا . هذا هو ينبوع الممبق الذى تنجرت منه عقيدة وجود الله عندما بقوة لا يمكن دفعها ، ولكنها نمت معها هى والدين فى آن واحد ، وبتأثير الدين نفسه .

« ومع هذا يجب أن نقدر بأى نعم قيل فكر الانسان هذه التبعية حيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ناز على الأشياء الخارجية ومازعاها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة لفكره هى أن يفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لا أن يجمع لها . فن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة بأسكال : « ليس الانسان إلا قسبة واهية ، فهو أضعف شئ فى الوجود ، ولكنه قسبة مفكرة . فإذا كان الوجود يستطع تحطيمها ، فلما مع ذلك أسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة من هذا كله » ؟ فى أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الانسان . إن المنظمة السامية لمقل حيال مجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا تعامل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوحد . فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام أصلا مشتركا وغاية واحدة . وديكارت لم يتحذع فيما قرره ، بأن محاولة الفكر الانسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته (١) . ودائرة حياتى العقلية التى

(١) يشوه هنا بالأصل الذى ارتأه ديكارت الفيلسوف الفرنسى أساسا لفلسفته وهو إثبات الناطق وجوده ، ولا بدليل لا يقبل النقص ، ثم التدرج الى إثبات ما عداها بعد الشك فيها وتقليبها على كل وجه .

ودليله على إثبات وجوده هو : أنه يفكر ، إذن هو موجود ، لأن ما ليس بموجود لا يفكر . فإذا تم له ذلك ، نظر فيما حوله شاكا فيه حتى يشته بدليل محسوس قال : « لأجل إن يصل الانسان الى الحقيقة يجب عليه أن يخرج مرة واحدة فى حياته من جميع الآراء التى أخذها عن غيره ، وبناء معلومات لنفسه من جديد مبتدئا من الأسس التى تقوم عليها » .

انفصلت من المازعة بين شعوري الدائى والحوادث العالمية ، عادت فالتأملت بواسطة حد ثالث اندرج فيه الاثنان الآخريان ، وهذا الحد الثالث هو احساسى بسميتها جميعا لله .



« أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين في روع الانسان ، بعيد المدى في الفلسفة والتعريد ، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة ؟ ماذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى في عهود الثقافة العلمية العالية ، قبل يُستطاع أن يُفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الانسانية ؟ »

« إن الدين يُدّلون بهذا الاعتراض يُثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الانسان وحوادث الوجود في أول عهد الانسان بالظهور كما هو في آخره ، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفي غاية الشقاء . وقاب عنهم أن هذا التضاد ليس ثمرة من ثمرات المطلق ، حتى إن الانسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه ينحى الى الأحوال التى تساور المنوحش ، وفي الانقلابات الطبيعية التى تحدث بين يديه ، وفي أخطار الغابات وبوائقها ، كما تنجلى لنا نحن في ارتباطات أفكارنا أمام مساتير الوجود وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس ، ولكن الهزة الدينية التى ترجع الانسان وتزله ، هى في حقيقتها واحدة لا تختلف . وبأسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالحرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به . لم يقل : « إن الصمت الأبدى لهذا الفضاء الذى لا نهاية له يرعبنى » . وتلبيد ( كنت ) وهو محصور في اليأس داخل الحدود التى لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو تلبيذ شوننهوور الذى تأدى الى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والارادة ، ألم يكونا مُبهطين (١) تحت آصار الشعور بالمعجز الأشد إيلا ما للنفس ؟ وعبد ما كانا يقلعان عن المظر لأجل أن يحسبهما العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم ، تكون تهيبة (٢) على شفاهما هى مقدمة للدعاء ؟ »



« وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال ، لأن يقبوعه الذى يتغير هو منه فضلا عن أنه لا يستد (٣) ولا ينضب في صميم الروح ، فإنه على تقيض ذلك يتسع ويمتد وتفسر مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة . والدين يتوقمون لقضوه يحسبون من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة . والأزمات الدورية التى تنتابه ويُخشى

(١) مبهطين من أبهظ ، الذين يعنى نقل عليه وقدحه . ومثله يهظه بفتحتي . (٢) تهذ الرجب ، أخرج قلبه يهد منه حزما وألما . (٣) استمد بمعنى المد .



أن تأتى عليه بتغييرها لتقاليد وصوره ، لا تدل على ضعفه ، ولكنها تثبت حصوبته وخاصة التجدد فيه . ولم يشاهد في مدى التاريخ كله أن روح البشرية تجردت منه . فعلى هذه الدوحة الدينية التي تصمد عمارتها الإلهية على الدوام ، إذا أدرك أوراقها الجفاف لطوره فصل حديد ، فلا تسقط إلا مدفوعة من أعقابها بأوراق غصيبة (١) . فالمقائد الدينية لا تموت ، ولكنها تنطور وتتحيل ، فليقل أنصار الدين عن الهلع عليه ، وحصومه عن الفرح بوشك رواله . وما عليه الفريقان من الرجاء والخوف يدل على جهلهم بالأصل الذي يستمد منه الوجود ، وبالقاعدة التي يقوم عليها صرحه . فإذا بحثوا عنه في سويداء قلوبهم لوحدوه حيا في وجودهم الباطن بقدر ما تظهر لهم صورته التقليدية في الخارج مهددة بالزوال . فإن تسبب النفس ، ونوشها للنهوض ، أو ما ليخوليتها وهي في أشد الضيق ، هي ظواهر أدخلت في الحياة الدينية ، من تلك التقوى المفرضة أو الآلية . إن هنالك لمحات يكون فيها الخروج على الجماعة المصحوب بتألم وبحث ودعاء ، أقرب إلى ينبوع الحياة من الجود العقلي على أن يؤخذ وكسبة غير أهل لفهم العقائد فهي تحتفظ بها آثارا مصبرة . فعل الدين يحتقرون الدين أن يحاولوا معرفة ماهيته أولا ، وأن يدركوا أنه هو الروح الباطن المبارك الذي بواسطته تنطور الحياة الانسانية وتفتح لها مخرجا إلى الحياة المثالية ، وأن كل رزق إنساني يصدر منه وينتهي إليه ، وأن الفن والأدب والعلم نفسه تتصوح زهراتها وتذبل إذا لم يتمدها هذا الروح العالي وينعشها ، وأن النفس المجردة من الدين تخنق لحرمانها من النفس ، فالإنسان في الواقع لا يوجد إلا إذا أوجد نفسه ، ولأجل هذا يجب عليه أن يخرج من ظلمات هذا العالم وعلاقته إلى النور وإلى الحرية . فابذلت الانسانية في الظهور فيه إلا فالدن ، وبه أيضا تثبت له وتبلغ إلى كمالها المنشود ،

محمد فرير ومجدي

(١) غصيبة أى غصة .

## الباقيات الصالحات

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها أن تقسم شاة . فقالت يا نبي الله ما بقى إلا عبقها . فقال عليه السلام : كلها بقى غير عبقها .

وهذا المعنى أخذه شاعر فقال :

يبكى على الأذهب من ماله وإنما يبقى الذي يذهب

إنما يبقى إذا ذهب في سبيل الله ، وإغاثة المحتاجين من عباده ، لا أن يكون قد ذهب أمرافا وبدارا .

## تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

### تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

— ٥ —

#### المدرسة الثانية :

وصفنا فيما مضى حال الفقه الإسلامي في مصر على عهد الصعابة ، واتبينا إلى أن هذا العهد كان بمثابة الإعداد والنهضة لما بعده من المهود في تاريخ الفقه ، فهم رضى الله عنهم ، قد غرسوا الأصول ، ووضعوا الأسس ، ثم تركوا لمن جاء بعدهم تنمية الفراس ، وتتميم البناء .

وتريد بالمدرسة الثانية هؤلاء العلماء من الرواة والمفتين والقضاة والفقهاء ، الذين تعلموا تصحابة مباشرة ، أو بواسطة قريبة ، واشتغلوا بالفقه مادة ، وتخرجوا ، وتطبيقا ، وفتيا ، حتى أسلموه إلى رجال المذاهب المعروفة في منتصف القرن الثاني من الهجرة .

فمنهم : يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة ، ومحمد بن عبد الله ، وصبر بن الحارث ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، وعبد الله بن طيبة ، وبكير بن عبد الله الأشجع ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد وغيرهم .

وقد اشتهر من هؤلاء العلماء أربعة كان لهم ، أكثر من غيرهم ، أثر واضح في الفقه والرواية والفتيا ، وهم : يزيد بن أبي حبيب ، وعبيد الله بن طيبة ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد .

#### ١ - يزيد بن أبي حبيب :

فأما يزيد بن أبي حبيب ، فهو بربري الأصل ، أبوه من أهل دنقلة ، ونشأ بمصر مولد للأزد ، وكان حليفا مائلا مهييا كثير الفقه والحديث ، وهو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر ابن عبد العزيز الفتيا في مصر . يزيد ، وعبد الله بن أبي جعفر ، وهما موليان ، وجعفر بن ربيعة وهو عراقي ، ولذلك أنف العرب أن تكون الفتيا إلى الموالى ، فأجابهم عمر بقوله « وما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأفسها سعدا وأنتم لا تسمون » ١٩ .

وقد قدمنا أن يزيد أول من نشر الفقه بمصر ، ونكلم في الحلال والحرام ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون في الترغيب والترهيب والملاحم والفتن ، وكان ليريد مقام محفوظ ، ومثلة

سامية بين المصريين والولاة ، وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة ، فأول من يبايع من المصريين عبيد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال ابن طهية : مرض يزيد فعاده الخوثر بن سهل أمير مصر فقال : يا أبا رجاء ، ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ؟ فأعرض عنه يزيد ولم يكلمه ، فقام عنه ، فنظر إليه يزيد وقال : تقتل كل يوم خلقا ونسألى من دم البراغيث (١)

وقد لقي يزيد من الصحابة عدا الله بن الحارث بن حزم ، وروى عن سالم ، ونافع ، وعكرمة ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وقال الليث بن سعد : يزيد سيدنا وطالنا (٢)

ولم تقف شهرة يزيد عند الفقه والحديث ، بل كان طالما بالفتن والحروب وما يتصل بالتاريخ والفتوح ، وقد اعتمد عليه عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر» ، والكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» ، والطبرى فى تاريخه ، وغيرهم (٣) ، وكان من تلاميذه ابن طهية ، والليث بن سعد ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ

## ٢ - ابن طهية :

وأما ابن طهية فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن طهية (٤) الخضرى العافى ، كان أبوه من رجال الحديث بمصر ، فورث عنه عبد الله حبه الحديث ، وكان شغوفاً بتحصيله ، وروايته ، والرحلة فى طلبه .

روى عن عطاء ، وعمرو بن دينار ، والأعرج ، وخلف ، وروى عنه الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

ورجال الحديث يختلفون فيه ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يصغوه ، فمن وثقه أحمد ابن حنبل ، وكثيراً ما يروى عنه فى مسنده ، وعن ضعفه البخارى والنسائى (٥)

ويقول ابن خلكان : إن ابن طهية كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقبل له فى ذلك ، فقال : ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرءونه على ويقومون ، ولو سألتنى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى (٦)

ولم تقف شهرته عند الحديث فقط ، فقد كان فقيهاً ، (٧) وتولى القضاء بمصر تسع سنين (٨) وأكثر ما ورد فى تاريخ مصر مروى عن طريقه .

ولد ابن طهية سنة ٩٩ هـ ، وتوفى سنة ١٦٤ هـ

(١) تاريخ التفرغ لمطهرى بكه ص ١٥٨ (٢) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ (٣) أنظر كتاب

« فى الادب العربى الإسلامى » ص ٤٢ (٤) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ : عبد الله بن مقبة بن طهية

(٥) لجر الإسلام ٢٣٥ (٦) ابن خلكان ٢٤٩ ج ١ (٧) حسن المحاضرة ١٣٤ ج ١

(٨) لجر الإسلام ص ٢٣٦

### ٣ - ابن وهب :

أبو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ولده ، ولد بعد انقضاء الربع الأول من القرن الثاني ، وكان المسلمون في ذلك العهد قد أخذوا يفكرون في التدوين ، فكتب مالك موطأه في المدينة ، وكتب الأوراعي مذهبه في الشام ، وصنف ابن اسحاق في المغازي .

شهد ابن وهب هذه الحركة ، وكان كثير الرحلة والتغرب في طلب العلم والحديث ، فأتى مالكا بالمدينة ، وأخذ عنه ، وذهب الى العراق وأخذ عن علمائه . ثم ألّف كتابه « الجامع في الحديث » ، واختاره من مائة ألف حديث كان يرويها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جرح منها في حديث واحد (١) ، ورتب هذا الجامع على كتب : كتاب كذا . كتاب كذا الخ ، وكان هذا الكتاب الجامع مفقودا الى عهد قريب ، ثم عثر على نسخة في مدينة أدفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في جميع المكاتب والمتاحف بالعالم إن لم يكن أقدمها جميعا ، وهو مكتوب على ورق البردي الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها الى القرن الثالث الهجري (٢) .

ومن الغريب أنه كان يروي عن ابن طيبة مع ما اشتهر عنه من الدقة والفتنة في الرواية . فأنت ترى أنه من أوائل المعتقلين بجميع الحديث في الاسلام ، وكان الى جانب ذلك فقيها بارعا ، جيد الفقه ، قال ابن خلكان ، إن مالكا كان يكتب الى ابن وهب « الى عبد الله بن وهب المفتي » ولم يكن يفعل هذا مع غيره ، وقال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة .

ويعد المالكية من فقهاءهم ، وقد عده السيوطي بين المتهندين المصريين ، وقال عنه إنه تفقه بمالك والليث بن سعد ، وإنما ذكرناه في رجال هذه المدرسة لأنه من أوائل المشتغلين بالحديث كما علمت .

### ٤ - الليث بن سعد :

هو أشهر رجال هذه المدرسة ، بل هو قرين مالك والشافعي وغيرهما من أصحاب المذاهب ، بل قال عنه الشافعي إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، والشافعي تلميذ مالك ، فشهادته في هذا خطيرة !

ويروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث بن سعد فرت به مسألة ، فقال رجل من الغبراء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب

(١) الكواكب النيرة ٤٥ (٢) كتاب « في الادب المصري » ٣٩

للرجل : بل كان مالك يسمع الحديث فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو . ما رأينا أحدا قط أفقه من الحديث ، وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكا والحديث اجتمعا كان مالك عند الحديث شبه أبيكم ، ولباع الحديث مالكا فيمن يريد .

وقد نفا هذا الإمام العظيم عصر في 'واخر القرن الأول للهجرة ، وتنقف على علمائها الأعلام ، وملوف في الآفاق طالبا العلم والحديث ، ولقي كثيرا من التابعين وأحد منهم ، ومن تلاميذه عبد الله بن المبارك ، وهاشم بن لقاسم ، وبونس بن محمد ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب وغيرهم .

وكان الحديث الى جانب العلم والفقه كريما ثريا ، يتخذ لاصحابه العالودج ويضع فيها الدنانير فمن أكل أكثر من صاحبه قاله دنانير أكثر .

وكان يأخذ بنصيبه من زينة الدنيا غير مترمت ، ولا رافض ما أحل الله له : كتب إليه مالك يقول « بلغني أنك تأكل الدقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشي في الأسواق » فأجابه الحديث « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟

وقد رفعت منزله العلمية ، وثروته المالية ، ونفسه الكريمة الى مصاف العظماء في زمانه حتى قبل إن القاضي والوالي كانا من تحت أسرته ومشورته لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه ، وكان إذا رايه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل ، وقد أراده المنصور على أن يوليّه إمرة مصر فامتنع ، وتوفي الحديث سنة ١٧٥ هـ .

وكان يبه وبين مالك بن أنس مراسلات ومساجلات فقهية تدل على براعته الفقهية ، وربما كشفت بعض النواحي من مذهبه الذي اندثر ، ولم يبق منه إلا الأقوال مبثورة في لفظون الكتب .

وسنحاول الكشف عن ذلك إن شاء الله في حديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المصطفى

المدرس بكلية الشريعة

## أغرس تستثمر

قال حكيم : من غرس العلم اجتنى النهاة ، ومن غرس الزهد اجتنى العزة ، ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة ، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة ، ومن غرس الوفاق اجتنى المهادنة ، ومن غرس الكبر اجتنى المقت ، ومن غرس الحسرس اجتنى القتل ، ومن غرس الطمع اجتنى الكد .

والنباهة في الفقرة الأولى معناها الشرف والشهرة .

# حَيَاةُ خَلِيفَةِ الْأَسْلَامِ

عبد الله بن الزبير

موقفه من الخلافة الإسلامية

في سيرة عبد الله بن الزبير مواطن لاختبار معدن الرجولة جدير بشباب المسلمين ان يعمقوا النظر فيها حتى يتخذوا لهم منها أسوة وإماما ، وحتى يصنعوا على ضوئها مثلهم العليا في هذا العصر الذي لا يدين إلا للقوى الحازمة ، والمزائم الصادقة ، وسيرة عبد الله تحجب الى عقولنا أيام المحن ، وإن كرهناها غرائزنا وهو أطفنا ، لأنها مصانف بطولية التي تنس تاريخ الأمم على قواعد المحمد والمزة .

ولد عبد الله بن الزبير ، وشب ، واكتهل ، وعاش ما عاش في أيام نضال كان الموت فيها أهون ما يلقي الرجل ، ولم يكن عبد الله ليحجم عن غوص عيلى الأحداث ، وقد نهى بين آذنيها ، وترعرع في لججها ، يشهد أهوالها ، ويقنم عباها بما يحمل بين حنايا نفسه من مميزات البطولة التي تعدد لمستقبل حامل بعظام لا يقوم لها إلا آحاد من الناس يأنون في أجيال متعاقبة ، تصريهم الحياة مثلا لخصائص الرجولة في الإنسانية الحية القوية .

ومن الطبيعي أن يكون عبد الله وغيا أشد الوفاء الى عهد عثمان رضى الله عنه ، لأن ذلك العهد هو المدرسة الأولى التي شهد فيها أبو خبيب سوغ نفسه وعبقريتها ، وكانت منها أولى خطواته الى تحقيق ما يطمح اليه من عليا الأمور وسامياتها ، فقد كانت سفارته بشرى فتح أفريقية الى عثمان ، وحطبه التي قام بها يقص قصة الفتح ، ويصف جند المسلمين على جبهة من مشيعة المهاجرين والانصار ، فيهم أبوه ، مطلع شمس ما كانت تنطوى عليه نفسه من بطولة جيتاشة بالآمال .

لم تكدر بوادر الفتنة العثمانية تلوح في أفق المجتمع الاسلامى حتى كان عبد الله بن الزبير قائدا أبطال الشباب في الدفاع عن الخليفة ، ولما اشتد الحصار اخترط سيفه وأخذ يباب عثمان يقاتل عنه على رغم ما كان يرى من تباعد أبيه عن حزب الخلافة في ذلك الوقت ، وعلى رغم ما كان يسمع من خالته أم المؤمنين طائشة رضى الله عنها من نقد سياسة عثمان وحاشيته ، ولكن ابن الزبير لم يكن بالشاب الذي ينقاد طيعا لغيره ، بل كان الرجل المعتد بنفسه ، المستقل بتفكيره ، يبنى على حاضره مستقبل حياته .



وكان له على أبيه سلطان قوى جعله يأتى بجانبه عن خولته الهاشمية ، وينحاز الى جانب  
الامويين ، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضى الله عنه : « ما زال الزبير وحلامنا أهل  
البيت ، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا » ، وقد أقر الزبير نفسه بهذا السلطان عليه ، فقد  
روى صاحب العقيد : أن رجلا سأل الزبير بعد مقتل عثمان رضى الله عنه فقال له : ما بالك  
يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : مطلوب مغلوب ، يغلبني ابني ، ويطلبني ذنبي . وبهذا السلطان  
غلب على خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأخرجها لحرب على حزبه ، وقد كان بعض  
أكابر الصحابة يشعرون بهذا السلطان له عليها ، روى أبو صمر بن عبد البر في الاستيعاب :  
« أن عائشة رضى الله عنها قالت : إذا مر ابن عمر فداروني ، فلما مر ابن عمر قالوا : هذا  
ابن عمر ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيرى ؟ قال : رأيت رجلا قد  
غلب عليك ، وظننت أنك لا تخلفيه — يعنى ابن الزبير — قالت عائشة : أما إنك لو نهيتنى  
ما خرجت ، وهذا السلطان قدمته على أبيه في الصلاة فصلى أبوه خلفه ، فقيل له في ذلك ؟  
فقال : « أما صلاتي خاف اني ، فأنما قدمته عائشة أم المؤمنين » وبهذا السلطان قاد الرجال  
في وقعة الجمل ، ثم صارت اليه القيادة العامة بعد رجوع أبيه عن الحرب ، روى أن ابن الزبير  
دخل على عائشة رضى الله عنهما فقال لها : « يا أمه ، ما شهدت موطناً في الشرك ولا في الاسلام  
إلا ولي فيه رأى وبصيرة غير هذا المواطن ، فانه لا رأى لي فيه ولا بصيرة » ثم قال لأبيه  
عبد الله « عليك بحربك » ، أما أنا فراجع الى بيتي » فقال عبد الله : الآن حين التقت حلقتنا  
البطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا نفضل رءوسنا منها ! فقال الزبير لانه : لا نعد هذا  
منى جينا ، فوالله ما قررت عن أحد في جاهلية ولا إسلام ، قال : فما يردك ؟ قال : يردني ما إن  
علمته كسرك ، فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير ، وكان حرياً بهذا ، فهو من أشجع الناس  
وأصبرهم على لاواه الحرب ، وكان أحب الناس الى خالته عائشة ، روى ابن حجر في الإصابة :  
أن عبد الله أخذ من وسط القنلى يوم الجمل وفيه بصع وأربعون حراصة ، فأعطت عائشة  
البشير الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف .

انتهت هذه الحروب ، واستقر الأمر لمعاوية رحمه الله تعالى ، وقد أراد في آخر حياته أخذ  
البيعة لابنه يزيد من بعده ، ولم يكن يخشى أحداً أكثر ما كان يخشى عبادة الاسلام والحسن  
والحسين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، ويستوحى دهامه وسياسته ، ورأى أن يقدم المدينة  
ليروض هؤلاء النفر ، فأرسل الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ،  
وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، ثم تكلم  
معاوية فقال : « أما بعد : فإني قد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أحلي ، وأوشكت أن أدمي  
فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، وأتم عبادة قريش وخيارها وأبناء  
خيارها ، ولم يعنني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيي فيهما وشديد

عجبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله ، فتكلم القوم بكلام لم يثنج صدر معاوية ، وكان بما قال عبد الله بن الزبير : « أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تقتلونها بما كرتها السفية ، وأفسدوها المرصية ، مع شرف الأماة وكرم الأبناء ، فأتى الله يامعاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن همة رسول الله ، وعلى خلف حسنا وحسنا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فأتى الله يامعاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

أعرض معاوية عن البيعة ليريد خشية أن تعاد عليه حذقة ، وارتحل عن المدينة متحينا الفرصة المواتية ، وليس له ثم إلا هؤلاء البفر الذين يفسدون اسمه في مكانه من الخلافة ، ولم يزل يقتل في غارب الأحداث ، ويروض الناس ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ، ويدانى الأباعد ، حتى استوثق من أكثر الناس ، وكان بدهائه يعلم أن عبد الله بن الزبير أصلب القوم عودا ، وأصمهم مراسا ، وأبعدم غاية ، وأوسمهم طموحا ، وأشددم إسكارا أبيمة يزيد ، وقد وصف له سعيد بن العاص عامله على المدينة موقف ابن الزبير في كتاب بحث به اليه فقال : « أما الذي ظاهر بدهائه وإياه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير » ولم يكن معاوية فالتى يستهين برجل في إهاب أبي خبيب ، فكتب إلى سعيد يقول له : « أما الذي يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنت فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحذروه أشد الحذر » وقد تولى أمره بنفسه يروضه ويعجم عوده ، فقال له : ما ترى في بيعة يزيد ؟ قال عبد الله : يا أمير المؤمنين إنى أكاديك ولا أناجيك ، إن أحاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تدم ، فإن النظر قبل التقدم والتفكر قبل التدم فضحك معاوية وقال : « أنت ثمل رواع ، كلما خرجت من جحر المبحرت في آخر ، ثملت الشعاعة عند الكبر ، في دون ما تشعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .

قدر العبادلة لابن الزبير صراحته الخازمة ، فأسدوا اليه أمرهم ، وفوضوا له التكلم بلسانهم عند ما رأوا تصميم معاوية على تمهيد رثبه ، فاحتموا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه ، فقال : على ألا نخالفوني ، فقلوا : لك ذلك ! ثم أتوا معاوية فرحب بهم وقال لهم « قد علمت نظرى لكم وتمطى عليكم ، وصلى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن محكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فكتبوا ، وتكلم ابن الزبير فقال : « تخيرك بين إحدى ثلاث ، أبها أخذت فهي لك رغبة ، وفيها حيار ، إن شئت فاصنع فيها ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم : قبضه الله ولم يستخلف ، فدفع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر . عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك ولده ومن رهطه الأدين من كان لها أهلا ، وإن شئت فاصنع عمر : صيرها إلى ستة نفر من



قريش ، يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفهم من لو وليها لكان لها أهلا ، فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير .

تمت البيعة ليزيد على كره جمهرة من شباب قريش يقودهم عبد الله بن الزبير ، فتوجه الى مكة ، ونحمن بالبيت الحرام ، ووجه إليه يزيد الجيوش لمحارته ، ولكن القدر كان أسرع الى أجل يزيد ، فاضطرب أمر بني أمية ، واستشرى أمر عبد الله بن الزبير ، وبايعه الناس ، وكاد الأمر يتم له ، لولا أن عبد الله أرادها خلافة واحدة ، وأرادها منافسوه من آل مروان ملكا عضوضا ، وأرادها عبد الله ثمرية علوية ، وأرادها مزاحموه معاوية ثمرية ، روى المؤرخون أن حصين بن غير الذي خلف مسلم بن عقبة في محاربة عبد الله بن الزبير لما بلغه موت يزيد قال لعبد الله : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام ، لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز قد رصبوا بك ، فتعال أبايكم الساعة ، ويهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة ، ونخرج معي الى الشام فأني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز ، فقال عبد الله : والله لا أفعل ، ولا آمن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتك حرمة ، قال حصين : بلى ، فافعل على ألا يختلف عليك اثنان ، فأبى عبد الله ، فقال حصين : فعل الله بك وبمن يزعم أنك سيد ، والله لا تفلح أبدا .

ويحدثنا التاريخ أن أخاه مصعب بن الزبير لما فرغ من فتنه المختار بن عبد الثقفي قدم عليه ومعه وجوه أهل العراق الذين أيدوه وثبتوا رايته بالعراق ، وكنه في الإحسان إليهم ، فقال « يا أمير المؤمنين ، قد جئت بك بوجوه أهل العراق ، ولم أدع لهم نظيرا ، فاعطهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيتهم من مال الله ، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم » فقال رجل من القوم : أتدرى يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذلك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

ملقتها عرضا وعلقت رجلا      غيري وعلقت أخرى ذلك الرجل

ثم انصرف القوم من عنده خائبين وقد فسدت قلوبهم ، وراسلوا عبد الملك بن مروان ، فخرج إليهم بعد أن ملأ أيديهم بالأموال وهزم جيوش عبد الله وقتل مصعبا ، وهل يبعد هذا الموقف عن موقف علي بن أبي طالب وقد سأله أخوه عقيل بن أبي طالب شيئا من مال فتعنه وانحاز الى معاوية ، فاعقد عليه وعلى أهل بيته ، وقدما أخذ الباحثون على عبد الله بن الزبير هذه الخلال التي تند من خلال الرجال الكهين يريدون أن يشيدوا ملكا ويقيموا دولة في غير أزمان النبوة ؟

صالح إبراهيم هرجوم

## عمر بن عبد العزيز

- ٦ -

### عبادته :

لقد كان عمر تقيا متعبدا ، ورعا زاهدا ، وكان مع ذلك إماما عادلا رشيدا ، محبا للرعية مشفقا عليها ، لم تغضله عبادة ربه عن عباد ربه ، ولم تحمل بينه وبين ما يصلحهم من جليل الأمور ودقيقها ، كما أنه لم تقمعه به أعباء الخلافة وما تقتضيه سياسة الملك ، من كد ونصب ، مما عليه من تأني وطاعة ؛ فكان يصرف النهار وبعض الليل أحيانا فيما يعود على الأمة بالخير ، فإذا فرغ من ذلك فنت آداء من الليل ساجدا قائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ولم ينس عبادة التذكير لما فيها من قوة اليقين ، وكمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، والصلة بين العبد وربّه .

حرص طوال حياته على تأنيب نفسه قبل أن تؤنب ، وعلى حسابها قبل أن تحاسب ، وعلى تذكيرها قبل أن تذكر .

### محاورته مع مسلمة بن عبد الملك .

حينما احتصر عمر بن عبد العزيز ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد أفقرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إلى وإلى نظرائي من قومك لكفوك مؤوتهم ، وكان ذلك خيرا لهم وأحسن . فلما سمع مقالته هذه قال : اجلسوني : فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتك يا مسلمة ، أما قولك إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم . وإنما ما قلت في الوصية فإني وصي فيهم الله الذي رزق الكتاب وهو يتولى العالحين . وإنما وأد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فيسبغ به الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أطاعه بالمال على معصية الله ، ادع لي بني ، فأتوه ، فلما رأهم تفرقت عيابه بالدموع ، وقال : بنفسى فتية تركتهم طالة لا شيء لهم ، يا بني ، إني قد تركت لكم خيرا كثيرا لا تمرؤن بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا الحكم حقا فيه ، يا بني ، إني قد مثلت بين الأمرين . أما أن تستغفروا فيدخل أروكم النار ، أو تستغفروا ويدخل الجنة ، فأرى أن تستغفروا وأدخل الجنة خير لي من أن تستغفروا وأدخل النار ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله . فاستجاب الله دعاءه في أولاده فما احتاج أحد منهم ولا افتقر .

### صفات الادبية المالية :

كان حليماً ذا أناة ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ، يعفو عن ظلمه ، ويحس الى من أساء اليه ، ويقضى بالحق ولو على نفسه ، فكان له ابن من فاطمة بنت عبد الملك ، فخرج يوماً يلعب مع الصبية فشجه غلام ، فاحتمله الحاضرون ومن شجه ، وأدخلوها على فاطمة ، فسمع عمر الحيلة وهو في بيت آسر ، فخرج وجاءت امرأة وقالت هو ابني وهو يقيم ، فقال عمر أله عطاء ؟ قالت لا ، قال اكتبوه في القرية ، قالت فاطمة فعمل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى ، فقال لها عمر : إنكم أفزعتموه .

ودخل المسجد ذات ليلة في الظلمة ، فمثر برجل قائم ، فرفع ذلك الرجل رأسه وقال له أعنوني أنت ؟ قال : لا ، فهم حارسه اضربه ، فقال له عمر إنما سألني أعنوني أنت فقلت لا .

### نمذة من أدبيته :

كان يتضرع الى الله في كل شيء بما يسأله ، فدخل الكعبة يوماً وقال : اللهم إنك وعدت الأمان دحال بينك ، وأنت خير متزول به في بيته ، اللهم اجعل أمان ما تؤمنني به أن تكفيني مؤونة الدنيا ، وكل هول دون الجنة ، حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

ووقف على عرفات يوماً وقال : اللهم إنك دعوت الى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتكم اللهم ، فاجعل منفعة ما تنقضي به أن تؤتيني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وأن تقيني عذاب النار .

وإذا زلت به نعمة قال : اللهم لا تمنني في الدنيا عطاء يبعدني من رحمتك في الآخرة . وكان يخشى الشيطان ويقول : يا رب خلقتني وأمرتني وهبتني ورغبتني في ثواب ما أمرتني به ، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه ، وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى وعجى دعى ، إن أم نفاعشة شحنى ، وإن أم نطاعة تبطى ، لا يفعل إن غفلت ، ولا يلنى إن نسيت ينصب لى في الشهوات ، وينعرض لى في الشهات ، وإلا تصرف عنى كيدته يستدلى ، اللهم فاقهر سلطاناه على سلطانك عليه ، حتى تحسنه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المصومين بك يا أرحم الراحمين .

### نساؤه :

تزوج من النساء أربعاً : هن أم ليس بنت علي بن الحارث ، وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار ، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان ، ولم تلد له غير إبراهيم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وقد ولدت له إسحق ويعقوب وموسى ، وأما عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأمهم أم ولد .

## نشأة أولاده:

نشأتم تنشئة دينية، ولم يتركهم وشأنهم، بل ههد إلى مهل مولاه تاديبهم، وكتب إليه: «أما بعد: فإني احترتكم على علم مني بكم لتأديب أولادي، فصرفتهم اليك عن غيرك من موالى وذوى الخاصة بي، فخدمهم بالخفاء فهو أضمن لإقدامهم، وترك الصحبة، فإن طاعتها تكسب التفتة، وقلة الضحك، فإن كثرت تيمت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملامى التى بدؤها من الشيطان، وواقبتها سحق الرحمن، فانه يلقى عن النقات من أهل العلم أن حضور المعازف، واستماع الآفانى، والالهي بها، يثبت النفاق في القلب كما يثبت العشب الماء، ولعمري لتوق ذلك بترك حضور تلك المواطن أكر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما يفتن به، وليفتن كل غلام منهم بحزم القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله، وخرج إلى الغرض حافيا، فإذا رمى سبعة أرساق انصرف إلى القائلة فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول يا بني: قتلوا فإن الشياطين لا تقبل»

كان من أولاده واحد يدعى عبد الملك: نهج منهج أبيه في الصلاح والتقوى، فكسب له أبوه من المدينة بعد توليه الخلافة يقول: «إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب إلى من رشذك وصلاحك، إلا أن يكون والى عصاة من المسلمين، أو من أهل العهد، يكون لهم في صلاحه ما لا يكون لهم في غيره، أو يكون عليهم من فساد ما لا يكون لهم من غيره فأمن أباك على ما قوى عليه، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزا عن العمل فيما ألهم الله به عليه وعليك في ذلك، ولا تفتن فيما ألهم الله به عليك فيما عسيت أن تفرط به أباك فيما ليس فيه إثم أمك كان بين ظهري إخوته يفضل عليه الكبير، ويدنى دونه الصغير، وإن كان الله «وله الحمد» قد رزقني من والدى حسبا جميلا كنت به راضيا، أرى أفضل برة ولده على حق حتى ولدت وولدت طائفة من إخوانك، ولا أخرجكم من المنزل الذي أنا فيه، فمن كان راغبا في الجنة وهاربا من النار فالآن التوبة مقبولة، والذنوب مغفورة، قبل تقاد الأجل وانقضاء العمل، وغراغ من الله للمتقين، ليدينهم بأعمالهم في موضع لا تقبل فيه القسوة، ولا تنفع فيه المعصرة، تبر فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله وويل يومئذ لمن عصى الله، فإن ابتلاك الله بغنى فاقصد في غناك، وأد فرائض الله فيها، وإياك أن تفتخر بقولك، أو تعجب بنفسك، أو يخييل اليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يورق مثل غناك، فإذا أنت أخطأت باب الشكر، وتركت منازل أهل الفقر، وكنت ممن طغى للغنى وتمحل طيباته في الحياة الدنيا، فإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم أمر

نفسه ، ويعمل في الذي خلق له من عبادة ربه ، إذا لتواكل الناس الخير ، ورفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقل الراعظون والساعون لله بالصبيحة في الأرض ، فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ولما قرأ عبد الملك كتاب أبيه سر منه ، ومحل بالذي فيه ، وافق أن مات في حياة أبيه وبعد أن شيع عمر جثته إلى مرقه الأخير ، وفرغ من دفنه ، استوى قائما فأحاط الناس به ، فقال : « والله يا بني ، لقد كنت بارا بأبيك ، والله ما زلت مذ وهبك الله لي مسرورا بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا ، ولا أرحى لحظي من الله فيك ، منذ وضعتك في المنزل الذي صيرك الله فيه ، فرحك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك الله بأحسن عملك ، ورحم الله لكل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو قائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلفنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين »

وحزن عمر على ابنه عبد الملك حزنا عميقا ، وشاطره ذلك رعيته ، وبالغوا فيه ، حتى نأحوا عليه ، فنهاهم عمر عن ذلك بقوله : « إن الله تعالى أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن أخالف محبته . إن الله عز وجل لم يجعل لمحسن ولا لمسيء في الدنيا خلافا ، ولم يرض بما أنجب أهلها ثوابا لأهل طاعته ، ولا يلائها عقوبة لأهل معصيته ، فكل ما فيها من محبوب متروك ، وكل ما فيها من مكروه مضمحل ، لذلك خلقت وكتب على أهلها الفناء ، فأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها ، فاتقوا الله واعملوا ليوم لا يحزى فيه والده عن ولده ، ولا مولود هو بغير عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الفرور »

محمد مصطفى شادي

## جلال العلم

لما حج هرون الرشيد ، وشخص بعد الحج إلى المدينة ، أراد أن يسمع الحديث عن مالك ابن أنس ، فاستقدمه إليه ، فاعتذر الإمام محتجا بأن العلم يؤتى إليه ، ولا يأتي هو إلى طالبيه . فقبل أمير المؤمنين أن يذهب بنفسه إليه ، ولكنه طلب أن يدخل المجلس من الناس . فاعتذر مالك محتجا بأن العلم إذا منع عنه العامة لم ينتفع به الخاصة . فقبل الرشيد عذره ، وأذن للناس فدخلوا .

نقول : لا نذكر أن عالما في العالم كله بلغ هذا المبلغ في تعظيم العلم .

## التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجري الى عصرنا الحاضر

### الامام الاعظم أبو حنيفة

علام بنى مذهب أبي حنيفة؟ كيف دونت أصوله؟ نقد هذا المذهب والرد عليه.

#### (١) ما هي الأصول التي بنى عليها أبو حنيفة مذهب؟

١ — من آثار أبي حنيفة وتجديده ، أنه أول من دون الفقه ورثه أبواباً ، ولم يسبقه أحد في ذلك ، لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم ، فلما رأى أبو حنيفة الفقه منتثراً جملة أبواباً مبوبة ، وكتباً مرتبة على نحو ما نراه في كتب الفقه الآن ، فكان في هذا تسبيح وحده ، ومجدداً غير مدافع ، وكان مقامه في الفقه لا يلحق كما شهد له بذلك أبناء جلدته خصوصاً مالك والشافعي ، بل كان كما قال القائل :

إمام رست للفقه في أرض صدره      حبال جبال الأرض في جنبها قف

٢ — ولقد اتفق الجمهور من العلماء على أن أصول الشريعة الإسلامية هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وإن خالف بعضهم في الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ ، وألحق بعضهم بهذه الأصول الأربعة أدلة أخرى ، ولضعف مداركها وشذوذ القول فيها لا نعرض لها هنا .

٣ — فما هي الأسس التي بُنى عليها المذهب الحنفي ، أي الأسس التي اتفق عليها الجمهور ، أو أسس المخالفين له ؟

لقد أجاب الامام أبو حنيفة نفسه عن هذا السؤال ، كما وصل إلينا من طرق كثيرة ، فقال رضي الله عنه :

« إني آخذ بكتاب الله تعالى ، فإن لم أجِد في كتاب الله تعالى ، فبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم أجِد في سنة رسوله ، أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت منهم ، وما أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فأما إذا انتهى الأمر وجاء إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وعطاء وسعيد بن المسيب وابن جبير ، وعد رجالاً . . . فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا » .

وقال الامام الحسن بن زياد صاحب أبي حنيفة : قال الامام أبو حنيفة : « ليس لأحد أن

يقول برأيه مع كتاب الله تعالى ، ومع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومع ما أجمع عليه الصحابة ، وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقوالهم أقرب إلى كتاب الله تعالى ، وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نجتهد ، وما جاوز ذلك فلا جتهاد بالرأى في وسع الفقهاء لمن عرف الاختلاف وقاس ، وعلى هذا كانوا . وقال زهير بن معاوية : كنت عند الإمام أبي حنيفة والأيض بن الأعز يقايسه في مسألة يدبرونها بينهم ، فصاح رجل من ناحية المسعد . غلغته من أهل المدينة . ما هذه المقايسات ، دعوها فأول من قاس إبليس ، فأقبل عليه أبو حنيفة وقال له : « يا هذا وصمت الكلام في غير موضعه ، إبليس بقياسه رد على الله سبحانه وتعالى أمره ، قال الله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشر من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه : خلقتني من نار وخلقته من طين » (١) . فاستكبر ورد على الله تعالى بقياسه أمره ، وكل من رد على الله تعالى أمره فهو كافر ، وهذا القياس الذي نعمن فيه فطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لأننا رددنا إلى أمر الله تعالى في كتابه ، أو إلى سنة رسوله أو إلى اتفاق الصحابة والتابعين ، فنجتهد في ذلك حتى نرده إلى الكتاب أو السنة أو الإجماع ، فاتبعنا في ردتنا إلى الكتاب والسنة والإجماع أمر الله تعالى . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » . فنحن ندور حول الانباع ، فنعمل بأمر الله تعالى ، وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردّه ، فكيف يسوينا ؟ فقال الرجل : فطلعت يا أبا حنيفة وثبت ، فنور الله قلبك كما نور قلبي .

ففي هذه النصوص يتبين أن الإمام أبا حنيفة بنى مذهبه على أصول الشرع الأربعة التي اتفق عليها جمهور العلماء ، ولم يشذ في شئ عن هذا الاتفاق كما شذت بعضهم ، وعلى ذلك فلا وجه للعمليات التي حملها عليه خصومه بغير حق لينالوا منه ، لأنه لم يخرج في مذهبه عما اتفق عليه جمهور علماء المسلمين وأعظمهم ، وإن ذكرناه بالمدح والثناء جديدة بأن يحتفل بها في كل عام ، إن لم تتكرر على الدوام .

أعد ذكر نعمان لما إن ذكره هو المسك ما كررته بتوضوح

(٢) ما هو المهاج الذي أثبت عليه أبو حنيفة أصول مذهبه ؟

في مستند الخوارزمي وغيره أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه اجتمع معه ألف من أصحابه أخذوا عنه ، وطاوعوه في وضع مسائل المذهب ، وفي إعداد الجواب عنها ، وأجل هؤلاء

الاصحاب وأفضلهم أرمعون قد بلغوا حد الاحتداد ، فقر بهم وأدانهم وقال لهم : إني ألتج هذا الفقه وأمرجته لكم ، فأعبنوني ، فكان إذا وقعت واقعة شاورهم وناظرهم وحاورهم وسألهم ، فيسمع ما عندهم من الأخبار والآثار فيها ، ويقول ما عنده ، ويناظرهم شهرا أو أكثر حتى يستقر آخر الأقوال ، فيثبته صاحبه أبو يوسف ، حتى أثبت أصول المذهب على هذا المهاج ، شوري بين أصحابه . وكان أكثرهم من صفوة العلماء المبرزين الذين بلغوا بعلمهم درجة الاجتهاد ، وما كانوا يعملون إلا لله تعالى وخدمة الدين والعلم والمجتمع ، ولم يكن للمادة عليهم من سلطان .

### ( ٣ ) لقد مذهب أبي حنيفة :

وجه بعض العلماء الى مذهب أبي حنيفة انتقادات وملاحظات بالعصا في مسألتين :  
المسألة الأولى : إن أدلة المذهب ضعيفة .

المسألة الثانية : إن أبا حنيفة يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص .

فاما الزم والادعاء بأن أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفة ، فغير صحيح بل هو تعصب على الامام وافتراء عليه ، فهذا كتاب تخريج أحاديث الهداية للحافظ الزيلعي ، وكتب المذهب بين أيدينا ، وكل ما فيها من أدلة بدور بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف الذي كثرت طرقه حتى ألحق بالحسن . وقد قال جمهور المحدثين بالاحتجاج بالحديث الضعيف إذا كثرت طرقه ، وألحقوه بالصحيح تارة وبالحسن تارة أخرى ؛ وهذا النوع من الضعيف يوجد كثيرا في كتاب السنن الكبرى للبيهقي التي ألفها بقصد الاحتجاج لمذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ولأقوال أصحابه ، فإنه إذا لم يجد حديثا صحيحا أو حسنا لقول الامام الشافعي أو لقول أحد من أتباعه يروي الحديث الضعيف من طريق كذا وكذا ، ويكتفي بذلك ويقول : وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، فعلى فرض وجود ضعف في بعض أدلة أقوال الامام أبي حنيفة وأقوال أصحابه فإنه لا خصوصية له في ذلك ، فإن هذا أمر يشارك في الاستدلال به جميع الأئمة كما سيأتي ، والحق أحق أن يتبع .

وقال الإمام الشمراني : لقد من الله تعالى على بمطالعة مسانيد الإمام أبي حنيفة من نسخة صحيحة عليها خط الحافظ الزيلعي والحافظ الدمياطي وغيرهما ، فوجدته رضي الله عنه لا يروي حديثا إلا عن خيار التابعين الثقات العدول الذين هم من خير القرون بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ومجاهد والحسن البصري وأضرابهم ، فكل الرواة الذين بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ثقات عدول ليس فيهم كذاب بل هم أعلام أخيار ، وناهيك بمداهة من أخذ عنه الإمام الأعظم وأرقضه لأحكام دينه مع شدة ورع الإمام وتحرزه وشغفته على الأمة الحميدة ، على أنه ما من راو من رواة المحدثين والمجتهدين



إلا وهو يعمل الجرح لو أضيف اليه كما يقبل التعديل ، وذلك لعدم المعصية ، ولكن العلماء رضى الله تعالى عنهم أسماء الشريعة فقدموا التعديل غالبا على الجرح لثلاث مذهب غالب الشريعة ، وقالوا إحسان الظن بالرواة المستورين أولى ، مع أن جمهور المحدثين قالوا : إن مجرد الكلام في شخص لا يسقط مروءته ، وقد خرّج الشيخان خلق كثير من تكلم الناس فيهم إيثارا لأئمة أدلة الشريعة ليحوز الناس فضل العمل بها ، وليكون في ذلك فضل كثير للأئمة ؛ كما أن في ضمن تضعيفهم للحديث أيضا رحمة للأئمة بتخفيف الأمر بالعمل بها وإن لم يقصد الحفاظ ذلك ، فاهم لو لم يصغوا شيئا من الأحاديث ومحموها لعجز غالب العامة عن العمل بها ، فليس لنا ترك حديث من تكلم الناس فيه بمجرد الكلام ؛ وإنما لنا ترك ما اتفرد به ، وكان مخالفا للثقات ، ولو أننا فتحنا باب التردد لسلكوا تكلم فيه بعض الناس لذهب معظم أحاديث الشريعة . جميع أدلة الأئمة المجتهدين لا تخرج عن الشريعة ، وإذا قل أحد الحفاظ بضعف شيء من أدلة مذهب أبي حنيفة فذلك محمول حرما على ضعف الرجال البارزين في السند بعد موت الإمام الأعظم إذا رَوَوْا ذلك عن طريق غير طريق الإمام ؛ أما كل حديث وجدناه في مسائل الإمام فهو حديث صحيح ، لأنه لو لم يكن صحيحا لما استدل به ، وكفى صحة للحديث استدلال مجتهد به ، ويجب العمل به ولو لم يروه غيره ، ولا يقدح في صحته وجود كذاب أو منهم يكذب في سنده النازل عن الإمام .

ويحتمل أن يكون مراد القائل بأن في أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفا إنما هو في أدلة مذاهب أصحابه التي ولدوها بعده ، وفهموها من كلامه لجهل هذا بحقيقة المذهب ؛ فإن مذهب الإنسان هو ما قاله ولم يرجع عنه إلى أن مات لا ما فهم من كلامه ؛ وهذا الجهل يقع فيه كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فيقولون مذهب أصحاب الإمام مذهب له ، مع أن الإمام ليس له في تلك المسألة كلام ؛ وكل هذا من فلة الورع في الدين وسوء التصرف . فادلة مذهب أبي حنيفة صحيحة لا ريب فيها ، وإن جميع ما استدل به لمذهبه أخذه عن خيار التابعين كجاهد وعكرمة والأشود وعلقمة وأضرابهم ، فلا يتصور في أدلته ضعف بوجه من الوجوه ؛ وإن قيل بضعف حديث مستدل به ، فذلك الضعف إنما هو من حيث الراوى النازل في السند بعد موت الإمام ، فلا يقدح ذلك فيما أخذه الإمام لمن استصحب النظر في الرواة وهو صاعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك أدلة أتباعه وأئمة مذهبه ، فلم يستدل أحدهم بحديث ضعيف وإنما يستدل بصحيح أو حسن أو ضعيف كثرت طرقة ، وذلك أمر يشارك في الاستدلال به جميع الأئمة ، ولا خصوصية لأصحاب أبي حنيفة في ذلك ، على أن الأدلة التي لم يأخذ بها كل إمام يسيرة جدا ، وبقي الأدلة اتفقوا كلهم على الأخذ بها .

فالمدين يقولون بضعف في بعض أدلة مذهب أبي حنيفة لا يفهمون كلام الإمام ، ولا يعرفون

مدارك مذهبه التي هي في غاية الدقة ، ولا أدل على هذا من قول الامام الشعرائي : دخل على شخص من طلبية العلم ، فأخرج لي بعض الكراريس وقال : انظر في هذه ، فوجدت فيها جملة من المسائل المنقولة عن الإمام أبي حنيفة ، ووجدته قد شرع في ردها . فقلت له : مثلك لا يفهم كلام هذا الإمام ؟ فقال : إنما أخذتها عن الفخر الرازي ، فقلت له : والفخر الرازي بالنسبة للإمام أبي حنيفة كأحد الرعية مع السلطان الأعظم ، ولا ينبغي لأحد من الرعية الطعن على إمامه إلا بحق واضح . ثم قال : ولقد كان لي صاحب عزيز على ، فذكر الإمام أبا حنيفة بسوء ، وقال لا أقدر أسمع له ولا في فنيته عن ذلك وأقمته ما فيه من صرر ، وقال الإمام الخوارج : مذهب الامام الأعظم هو آخر المذاهب اقراضا كما كان أول المذاهب المدونة ؛ ولا عبرة بمن يعترض على بعض أقواله من الناس فإنه جاهل بمداركه . فالدعوى بأن أدلة مذهب أبي حنيفة ضعيفة غير صحيحة ولا دليل عليها ولا يدعيها إلا من لم يفهم كلام أبي حنيفة ، ولا يعرف مدارك مذهبه الحقيقية ، أما أن أبا حنيفة يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص فسلتكم منه بمد إن شاء الله تعالى ؟

السيد محمدي

## العامل بغير علم

قال الحسن البصري : لقيت قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وروي عن أوائلتنا قولهم : العامل بغير علم كالسائر على غير طريق .

نقول : إننا شديدو العجب من صدور هذه الحكم العالية من قوم كانوا في أمسهم لا يعرفون ما هو العلم ، ولا يشعرون أنهم في حاجة إليه . وأن مدح العلم إيذان من المادح بأنه يعرف قيمته ، ولكن أعظم من المدح ، وأبعد غورا في تقدير قدره ، أن يعرف القائل أن العامل بغير علم يهتدى به ، كأن ما يسببه عمله من الفساد أكثر مما يوحده من الإصلاح . وهذا القول يحتم طلب العلم ما لا يحتمه أي ضرب من ضروب التحصيل عليه .

# دراسة في القرآن الكريم

## كيف نشأ تفسير القرآن الكريم

وتراجم مشاهير المفسرين

لا بد للباحث في هذا الموضوع من أن يتجه إليه من ناحية أصله وأساسه ، أي قبل أن يكون تفسير القرآن الكريم « علماً مدوناً » ، حتى يستطيع أن يصل الى : كيف نشأ ، وكيف دُوّن ، ومن هو أول من دونه . والمواضع التي ساعدت على ذلك ؟ إحداهما موضوع ناحيتان رئيسيتان : إحداهما تفسير القرآن الكريم قبل أن يصير « علماً مدوناً » ، والثانية بعد أن صار كذلك . والناحية الأولى ترجع الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصل ذلك وأساسه ، إذ هو الذي أنزل عليه القرآن ، فهو أعلم الناس إطلاقاً به . وهو في الوقت نفسه مكلف ببيان ما ينحى على الناس من معانيه مصداقاً لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، فالسنة تبين القرآن من ناحية عمومته وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، ومنطوقه ومفهومه ، وغير ذلك مما أفاض فيه علماء أصول الفقه . بل قد أثبتوا أن السنة لا تقتصر على بيان عمومته ومطلقه الخ ، وإنما هي تخصص عمومته ، وتقيد مطلقه ، وتبين مجمله ، وتوضح مشكله . وأثبتوا أكثر من ذلك . قالوا إن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، وإن منعه بعضهم . كالإمام الشافعي رضي الله عنه .

أما غريب القرآن الكريم . فغير محتاج بالنسبة لاكثرهم الى بيان ، لأن غريب القرآن هو غريب اللغة ، وهم أصحابها وفروسان ميدانها ، وأبناء مجديتها . وإنما قلنا بالنسبة لاكثرهم . لأنه ثبت أن بعضهم توقف في معنى غريب القرآن وسأل عنه . فمن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سألتوني عن غريب القرآن فأنصروه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهرا بن ميمنا بن عباس يسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما معتم الشعراء يقول كذا وكذا ؟ وسأل رجل ابن عباس عن قول الله جل شأنه : « وثيابك فطير » قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان التقي :

فاني بحمد الله لا ثوب غادر لست ولا من سوءة أتقنع

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول الله جل وعز : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ما السنة . قال : النعاس . قال زهير بن أبي سلمى :

لا سنة في طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا في أمره فسد

ومثل عكرمة عن قوله تعالى : « ذوانا أمان » ، قال : ذوانا ظل وأغصان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدمو على فتن النصوص حماما

تدعو أبا قرحين صادف طائرا ذا مخيلين من الصقور قطاما

وغير ذلك .

كما أن بعض الصحابة يفهم من اللفظ المعنى الموضوع له فيحمله عليه ، ولا يتجه إلى المعاني الثانوية من المجاز وغيره ، مع أن المعنى الأصلي قد يكون غير مراد إطلاقا ، مثال ذلك ما وقع لعدي ابن حاتم رضى الله عنه حينما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر » ، إذ عهد إلى عقل أبيض وآخر أسود ، ووضعهما تحت الوسادة ، وأكل وشرب حتى ميز بينهما على ضوء النهار ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فبين له معنى الخطيط الأبيض والأسود ، أعنى المعنى المراد من القرآن نقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك سواد الليل ويباض النهار » .

أما الحديث الوارد عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهو : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد عده إيهن جبريل » ، فمحمول عند العلماء على تفسير مغيبات القرآن ، مما لا سبيل إليه إلا شوقيف من الله تعالى ، ولا يحمل على إطلاقه الذي قد يستفاد منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحفظ في تفسير القرآن ، فلم يفسر إلا آيات معدودات جاءه جبريل ببيانها ، وإلا لزم تخصيص العموم في قوله تعالى . « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ولزم أيضا تخرج أصحابه رضوان الله عليهم من تفسيره والخوض في ممانيه ، ولم يتخرجوا من ذلك .

وأما الحديث الذي رواه ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، فمحمول على تفسير القرآن بحسان يعلم المفسر أن الحق غيرها ، أو على معنى أن الرأى هو المسمى ، أى أنه يفسر القرآن تفسيراً يوافق هواه دون استناد إلى أقوال أئمة السلف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الطبقة العليا في الفضل ، والمستقرون العلم والحكمة منه صلى الله عليه وسلم ، فهم أصحاب الشأن الأول في تفسير القرآن الكريم وغيره ، مما يتصل بالدين وأحكامه .

وقد كانوا رضوان الله عليهم متفاوتين في العلم بمعاني القرآن . شأن أفراد كل طبقة ، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مكث سنتين يريد أن يسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعه إلا مهابته ، ثم سأله فقال له : هما حفصة وعائشة ، ومعلوم أن القرآن قد نزل منحّيا على حسب الوقائع والحوادث ، فهو يقرر أحكامها ، فقد تحدث حادثة في بيت تنزل بسببها آية ، فصاحب الحادثة يكون أعلم بها من غيره ، ثم يعلم ذلك الغير بطريق النقل والسماع .

وقد تخرج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفسر القرآن ، فنهى أسبقهم في الإسلام إطلاقا ، وأفضلهم وأجلهم ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه . فقد روى ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تفسير حرف ( أي كلمة ) من القرآن فقال : أي السماء تظلمني ، وأي أرض تقلني ، وأين أذهب ، وكيف أصنع ، إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أريد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عديم يفسرون القرآن ، وهم أثبوا على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم .

أما صدر المعسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ويتلوه عبد الله ابن عباس ، وهو مجرد للأمر كله . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فمن علي ابن أبي طالب ، وكان علي رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ به ، وكان يقول : ابن عباس كأعما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، وكان ابن مسعود يقول نعم ترجان القرآن عبد الله بن عباس ، إلا أن الإجماع مع هذا يكاد يكون منقادا على إمامة علي في هذا الشأن . وروى طاهر بن واثلة قال : شهدت على بن أبي طالب رضي الله عنه بخطب فسمعته يقول في خطبته : سلوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا أحدثكم به سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بهار ، أم في سهل نزلت أم في جبل . فقام إليه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري الملقب بابن الكواء ، فقال يا أمير المؤمنين ( ما القاريات فزروا ؟ ) ففسرها .

ولما قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني ببلغه المعنى لآتيته ، قال له رجل أما لقيت علي بن أبي طالب ؟ فقال بلى قد لقيته . وعن ابن مسعود أنه قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر ونظن ، وإن عليا رضي الله عنه عنده من الظاهر والباطن .

والسبب في شهرة عبد الله بن عباس في التفسير دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة ، لكن

أحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه ، وبليه طريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة ١٢٠ هـ .

وبلى عليا وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما في التفسير ابن مسعود وأبى بن كعب وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين — كل هؤلاء مفسرون قبل أن يصير التفسير علما مدونا كما أسلفنا في صدر هذا المقال . وسنأتى على تراجمهم كفسرين في مقالات تالية إن شاء الله تعالى والله الموفق ؟

عبد مهيمن

## فضيلة الحياة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياة » .  
وقال أمير المؤمنين علي رضى الله عنه : « من كساء الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .  
وقال أديب : لا يزال الوجه كريما ما بقي حياؤه ، كما لا يزال الفصن نظيرا ما بقي لحاؤه ( اللحاء بكسر اللام قشر خشب الفجر ) .  
أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

يعيش المرء ما استحيا كريما      ويبقى المود ما بقي اللحاء  
وما في أن يعيش المرء خيرا      إذا ما المرء طارقه الحياء

نقول : رحم الله هذا الأديب الذي كان يعيش في زمان تعرف فيه للحياة قيمة ! فإذا كان قائلًا لو عاش في هذا الزمان ، ورأى أن الدين يمشون كراما معظمين بين الدهماء هم المجردون من الحياء ، الجريشون على الأعراض يتلمونها ، والأحساب يمجدونها . وليس الذنب في ذلك ذنبهم ، ولكنه ذنب ضفاف النفوس من أهل هذا الحيل الذين يريدون أن يمجدوا بما لم يفعلوا ، ويخافون أن يذموا بما فعلوا . فهؤلاء هم الذين يشعرون الوقوع ، ويمدونهم بالمال والجاء . ولو كان لهم من الفعل ما يحفظه لهم المجتمع لما خشوا بأس هؤلاء المتقولين ، وكان المجتمع هو الذي يرد عنهم بأسهم ، ويشكل بهم أشد تشكيل .

فإذا ذكرت أهل الحياء في هذا الدور من الفتنة الخلقية ، فحدث عن المهملين المنسيين ولا حرج . ولكن لا يبقى إلّا ريثما ينتهى دوره ، ثم يمود الحق إلى نصابه .

## اختلاف الناس

في عدد أيام الشهور القمرية

بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم ( شهر اعيد لا ينقصان ) :

في شرح الإمام النووي على صحيح الحفاظ مسلم رضى الله عنه بالجزم السادس وجه ١٤٣ بالهامش ، قال حدثنا يحيى بن يحيى ، قال أخبرنا يزيد بن زريع عن خالد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شهر اعيد لا ينقصان » . رمضان وذو الحجة . ثم قال : وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، قال حدثنا معتمر بن سليمان عن اسحق بن سويد ، وخالد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبي بكرة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « شهر اعيد لا ينقصان » ، في حديث خالد — شهر اعيد رمضان وذو الحجة — ( يعني أن إسحاق بن سويد لم يذكر في حديثه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة رمضان وذو الحجة ولم يسمهما ) .

قال النووي الأصح أن معناه لا ينقص أجرهما والثواب المرتب عليهما وإن نقص عددهما وقيل معناه لا ينقصان جميعا في سنة واحدة غالبا ، وقال الخطابي لا ينقص ثواب ذي الحجة عن ثواب رمضان لأن فيه المتناسك . وهو ضعيف ، والاول هو الصواب المعتمد . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقوله صلى الله عليه وسلم : من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، فكل هذه الفصائل تحصل سواء تم عدد رمضان أم نقص والله أعلم .

وكل هذا جاء من اختلاف الناس في عدد أيام الشهور القمرية ٢٩ يوما أو ٣٠ ، وفي إمكان رؤية الهلال في بلد وتغير رؤيته في غيره . وقد دلت حسابات المراصد الفلكية أن الشهر القمري القانوى تحققت مدته من مقالة الخسوفات القديمة والحديثة ، وهى التى تعود الى دورتها السابقة تماما بعد مضى ٢٢٣ دورة من دورات القمر القانوية ، وذلك يتم في مدة ١٨ سنة شمسية و ١٠ أيام و ٢١ ساعة و ٤٤ دقيقة و ٤٤ ثانية أى ٢٩ ١٢ ٤٤ ٤٤ ، أى ٥٣٠٩ ٢٩ يوما ومنها حسبت مدة الأيام بين الهلالين فكانت ٢٢٨ ٤٤ ١٢ ٢٩ ، أى ٥٣٠٩ ٢٩ يوما والطريقة المتبعة من قديم في حساب الآلهة هى جعل الشهور العربية بموجب ذلك شهر ٣٠

يوما وشهر ٢٩

ومن البيانات الآتى ينضح أن شهر رمضان إذا اعتبرت أيامه بالرؤية ٢٩ يوما لا ٣٠ وتم  
بأيامه الماضى من السنة ٢٦٥ يوما فإن شهر ذى الحجة غير ممكن أن يكون بعد ذلك عدد  
أيامه ٢٩ يوما فقط لأن الأهلة الاثنى عشر يجب أن تكون مدتها ٧٧٠٨ و ٣٥٤ يوما .  
وبذلك يقتضى أن شهر الحجة وهو شهر العيد الثانى يكون ٣٠ يوما لتتم الدورة القاونية  
٧٧٠٨ و ٣٥٤ يوما فلا ينقصان شهرا العيد .

يوم	كسر	يوم	كسر	يوم	كسر	يوم	كسر
٢٠٦	٧١٦٣	٢٠٧	٧١٦٣	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦	٢٤٧٢	٥٩	٠٦١٨	٥٩	٠٦١٨
٢٩	٥٣٠٩	٣٠	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٦٥	٧٧٨١	٢٦٦	٧٧٨١	٨٨	٥٩٢٧	٨٨	٥٩٢٧
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥	٣٠٩٠	١١٨	١٢٣٦	١١٨	١٢٣٦
٢٩	٥٣٠٩	٣٠	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥	٢٣٩٩	١٤٧	٦٥٢٥	١٤٨	٦٥٢٥
٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩	٢٩	٥٣٠٩
٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤	٧٧٠٨	١٧٧	١٨٥٤	١٧٧	١٨٥٤
				٢٩	٥٣٠٩	٣٠	٥٣٠٩
				٢٠٦	٧١٦٣	٢٠٧	٧١٦٣

والذى يظهر بجلاء - والملم عند الله - أن الاشارة فى الحديث الشريف تمنص على تنبئه صلى الله  
عليه وسلم عما يقر عليه قرار الارصاد الفلكية لحساب اليرين كما قال تعالى : ( الشمس والقمر  
بحسبان ) وإذا كانت تسمية الشهرين هى من تفسير الراوى ( خالد ) وليست من متن الحديث كما  
خلت منه رواية إسحاق بن سويد . كما وإن شهر العيد هو شهر شوال لا رمضان والعلامة  
فى شوال واضحة ٢٩٥ يوما أما الاجتهاد فى تمام شهر رمضان إذ هو عند الحيقائين يتم به  
الماضى من أيام السنة ٢٦٦ وبحساب الرصد ٢٦٥ يوما ونصف وررع .

ولم نجد أثرا لإدخال الاجر والثواب فى هذين الحدين ؟

محمد عفتى



## الحرب ضد بنت الحان

جاءنا من لوزان حيث المكتب الدولي لمكافحة المسكرات عن طريق جمعية منع المسكرات بمصر النشرة الآتية تبين ما حدث من إجراءات في بعض الممالك الأوروبية ضد انتشار الخمر :

في النرويج : حُرمت سلطات مدينة ( أوسلو ) بيع الخمر فيما عدا المطاعم ، ثم ألغيت هذا التحريم الآن ، فالتفتت جمعيات منع المسكرات استمراره ، وقد جاء في أحد الملتزمات المرفوعة : إن الهدوء والأمن والنظام من دعائم الحياة الاجتماعية المثلى ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا غرسنا في نفوس الشعب مقت الشراب ، وقد طلب المستر « جاكسون » رئيس الاتحاد النرويجي لمنع المسكرات إلى الجمعيات مواصلة كفاحها . كما أذاع الاتحاد المحلي لمدينة أوسلو نداه بهذا المعنى .

في الدانمارك : منع بيع الكحول ، ولكن مسموح بالبيرة التي لا تتحوى أكثر من ٢ ٪ من الكحول ، وصرح أخيراً ببيع أنواع من البيرة القوية ، فكانت العاقبة وخيمة ، ونجبل للعيان نتائج السكر الممبنة ، ومما يزيد الأمر شناعة وخطورة أن إطفاء الأنوار إحسارى ولا يتخفى ما يتهدد الأمن العام من حصراء معاقرة بنت الحان . وقد صرح المستر « لارسن ليدت » لجمعيات منع المسكرات بمواصلة عملها وعقد اجتماعاتها الخاصة بيد أنه يحظر عليها الاجتماعات العامة ، ومما يجدر بالذكر أن أكثر الجمعيات نشطت نشاطها الطبيعي في كثير من البقاع .

في السويد : بالرغم من الصعوبات الراحة تمكنت جمعيات منع المسكرات من إحياء يومها السنوي تاريخ ١٩ مايو فكان يوماً مشهوداً بحق . إذ عقد فيه ٧٠٠ اجتماع وقد شهد الاجتماع الذي عقد في الهواء الطلق بمدينة استوكهولم خمسة آلاف شخص ، ومما يجمل ذكره أن الخطباء في كل مكان رددوا نغمة واحدة هي « أن الوقت الحالى يتطلب منا كل ما نملك من قوة جسمانية وخلقية » .

في سويسرة : وجه الجنرال ( جوزان ) القائد العام للجيش السويسرى إلى شباب سويسرة النداء الآتى : —

إن أرض الوطن وديعة في يد شباب ، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبد إلا إذا سلم الشباب من غائلة الخمر .

فائق الله أيها الشاب في وطنك وفي نفسك ، واعلم يقيناً أيها السويسرى الشاب أن في يدك

وحذك الخاتم الذى استطع به بلادك ، فلا تلطخ جبهة الوطن ، ولا تطبعه لطابع المذلة والعار  
ولن يكفل لك ذلك إلا مجانة الجر ، فاعلم هذا الشرف بقوة عزيمتك القائد العام  
الجنرال جويزان

في استراليا : أخذ اتحاد منع المسكرات على طاقته إنشاء مشارب للبن وعصير التفواكه  
( بدلاً من بارات الجر ) ، فرحبت السلطات العسكرية بهذا العرض الجليل ، ولكن مشروعا كهذا  
المشروع لا يبرز في حيز الوجود بأقل من عشرة آلاف جنيه ، ومع أن هذا المبلغ لا يستهان به  
فقد أغلقت روح العزم والنصحية على كل المقبات ، وأصحب المشروع قلب قوسين أو أدنى  
من الظهور .

في فنلندة : أوضح ذلك المستر ( فاجر هولم ) وزير الشؤون الاجتماعية في خطاب قال فيه :  
« اتخذت إجراءات شديدة لمنع المسكرات أثناء الحرب ، وصوغت هذه الاحراءات بعد انتهائها  
فاغلقت جميع المحال التي تحتكر بيع الخمر . ثم فتحت ثانية في النام من شهر ابريل . وهقب  
الوزير قائلا : اتضح لنا الآن أن أعصابنا التي تمالكناها تماالسا يدهو الى الانهيار أثناء الحرب  
فقدت توازنها الآن من حراء استهلاك المشروبات الذي ارتفع ارتفاعا محسوسا وأعلن عن  
نفسه بكثير من حوادث السكر المزرية ، لهذا أرى من اللازم إغلاق جميع المحلات على ألا تعود  
قبل منتصف مايو .

وقد طلبت جميعات منع المسكرات إيقاف بيع المشروبات الروحية لأجل غير مسمى ، فاعتذر  
الوزير قائلا : إن الرأى العام قد لا يعضد مثل هذا الاحراء ، لأنه يجب أن يلاحظ أن لاحتكار  
بيع الخمر شأنا كبيرا في ماليتنا ، ولكما مع هذا البرما خطة أخرى تخفض مستوى الاستهلاك  
يرفع أثمان الخمر ، فالمشروب الذى كان يساوى اللتر منه ٣٦ مارك ( ١٥ قرشا ) من بضع سنين  
لا يقل ثمنه الآن من ٨٠ مارك ( ٣٦ قرشا ) .

وأوحى الوزير الى رجال الصحافة أن يشدوا من أزر جميعات منع المسكرات ، ثم وجه النصيح  
الى الجمعيات نفسها أن تلم شملها لتستفيد من مجهودها المتشقت بتعدددها ، وأشار الى أنه من الكثير  
جدا ومن المرهق للحكومة أن تعد ثمانية وعشرين هيئة باعانات مالية ، وأشار الى أن عشرة  
جرائد خاصة بمنع المسكرات تصدر في فنلندة وحدها ، وأظهر أسفه لأن واحدة من هذه  
الجرائد لا تحظى بقارئ من الشعب غير أعضاء الجمعيات .

واختتم قائلا : بأنه يرحو أن تتسع دائرة هذا الجهاد المحدود في القريب العاجل ليكون  
أشمل نفعاً وأعم فائدة وأكثر جدوى .  
سكرتير الجمعية

محمد رضا



## طنافس فاخرة للآزهر

مكرمة من المكارم الملكية

لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاروق الأول حفظه الله ، ما أثر خالدة في تأييد الدين ، والتنويه بمكانته . فقد حرص ، بحرس الله ذاته ، على تأدية فرائضه ، والقيام بواجباته نحوه ، فأشعر الشعب المصري ، بل الشعوب الإسلامية قاطبة ، أن الدين حرمة يجب أن نصان ، وأن له مكانة يجب أن نحترم ، وأن مهمته من المجتمع الانساني بمنزلة مهمة الروح من الجسد ، إذا زايلته فسد ، وتحللت عناصره فشر مذر .

إن هذه الاصول المقررة كُتبت كثيرا في الصحف الدورية والكتب ، وخطب بها على المنابر في كل صقع من أصقاع الأرض ، ولكن تأثير كل ذلك لم يبلغ ما بلغه تأثير رعاية الفاروق للدين ، وتنويه بكرامته ، من طريق عملي لا كلامي ، وهو في ميمة العبا ، وريق الشيبية .

قام كثير من الملوك لهذا الدين بالخدم الحلية ، وتباروا في ذلك ، وبذلوا في سبيله الأموال الطائلة ، ولكنهم لم يبلغوا من التأثير بأعمالهم ما بلغه جلالة الفاروق ، لأنهم قاموا بما قاموا به أيام كان العمل للدين من أعظم المفاخر ، والتقصير في حقه من أشد الكبائر ، وأيام كان الناس لا يصرون إلا من الدين ولا يردون إلا موارد ، ولكن ملكنا المفدى جاء في عهد اعتبر الابتعاد فيه عن الدين الملية ، والتجاهل له مدنية ، فرفع عن العقول هذا الوم القاتل ، وأزال من النفوس هذا الجهل الفاضح ، بما سلكه في تأييد حجة الدين من سيرة لم تنفق إلا للأفذاذ من المملكين في خلال العصور ، وخلائق لم تؤثر إلا عن كبار القلوب من صاغة الأمم ، فكان بعمله هذا رافعا كابوسا كان رائسا على كثير من الصدور ، فاستطاعت أن تستنشق الهواء طلقا ، وأن تواجه الحقيقة سافرة . وما هي إلا أيام حتى انضج للغاوين أنهم كانوا في خيالاتهم مأفونين ، وفي علمهم السطحى والهمين ، وأن الدين ضرورى للاجتماع ضرورة أقوى روائطه ، بل هو روحه الذى يديره ، لأنه يتحكم في الأخلاق ، وهي كما تعلم مساك الاجتماع وقوامه ، إذا ضغفت انحلت عراه ، وزايله ترابطه ، وفنى في أم أخرى .

هذه الحقيقة قالها الدين منذ وجد ، وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا ، فعمل جلالة الفاروق لإمادة سلطان الدين في العهد الأخير ، يفوق كثيرا ما فعله سابقوه من السلاطين والملوك في هذه السبل .

لقد جلس هرون الرشيد مرة الى الامام مالك ليسمع منه ، فاعتبر ذلك من أجل ما أثاره من احترام الدين وأهله ، ووضع في أرفع مكان من تاريخه ، ولا يزال يتناقله الكتاب

والمؤرخون ، أفلا يعتبر جلوس صاحب الجلالة الفاروق للاستماع الى الامام المراغى أربع مرات في كل رمضان ، واتخاذ ذلك تقليدا ملكيا يحتفل به كل عام ، في حشد يحضره أركان الدولة وأقطابها ، من الأعمال المجيدة التي يسجلها التاريخ في أرفع مكان من صحائمه الخالدة ؟

وقد أحيأ جلالته سنة لطل العمل بها منذ أكثر من ألف سنة ، وتعد من الأعمال النذرة التي لها من التأثير الأدبي أكثر مما لاي عمل غيره ، ألا وهي صلته بالناس إماما .

لا حرم إنه ليس في وسع الفيلسوف الذي وقف قلعه على تسجيل تطورات النفوس ، أن يسجل لمثل عصرى ما هو أبعد مدى في تهذيب نفسية الشعوب من هذا العمل الخليل .

وإن من بين نقيبة جلالة الفاروق أن يكون شيخ الدين في عهده المبارك حضرة صاحب الفضيلة الإمام المراغى ، ذلك الرجل الصليح الذي يستطيع أن يكون عند طن جلالته في توثيقه نحو الإصلاح الدينى علما وعملا واضطلاما بكبريات الشئون ، لجأت جميع هذه المساعي الكريمة في إحاض العاطفة الدينية متوازنة يؤيد بعضها بعضا .

وإن مجلة الأزهر ترحو أن تحلى صفحتها اليوم بنام وغبية شريفة لجلالة الملك المعظم ، وهي عمل طنافس قيمة يفرش بها أرض الجامع الأزهر محط رجال العلم والعلماء منذ ألف سنة .

فقد أصدر حفظه الله ، وأطال أيامه ، أمره الى سعادة ناظر خاصته أن يستصنع طنافس من أنفس ما تصنعه المصانع المصرية لفرش أرض الجامع الأزهر ، وكان ذلك في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، تحول هذا الأمر الى وزارة التجارة لتتولى الإشراف فنيا على تنفيذه . فتم هذا العمل العظيم وسلم للجامع الأزهر ليودعه بمخزنه ويثا يتم الترتيب اللازم لتسلمه نهائيا وفرشه بالمسجد . وقد أحصى مقدار ما صنع من هذه الطنافس بالآمتار المربعة فبلغت ( ٣٨٩٣٠٧ ) وهي مساحة واسعة لم يسمع بفرش مثلها في تاريخ المساجد وأما كى العادة . وقد بلغت ثقاتها ٦٠٣٤ جنيها و ١٥٠ مليم .

إن هذا العمل الكريم الذى يدل على أشرف صفات النفس وهي السخاء ، يدل في الوقت نفسه على تعظيم شعائر الله ، وإكبار شأن المصلين المحبين . وقد مدح الله في كتابه العاملين على ذلك فقال : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

فليبينى جلالة الملك المعظم ما وفقه الله له من هذه الأعمال الجليلة ، فإن يعصا يرفع القدر ويخلد الذكر ، فما ظنك بمجملتها ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

محمد فرير ومبرى

## صفحة من الصوفية الشرقية

### تصاليح بوذا

المثل العليا في سياسة النفس ومجاهدة الشهوات في نظره

بوذا : هو المصلح تدين البرهمي الهندي في القرن الخامس قبل المسيح ، ولمذهبه من الاتباع في الهند والصين واليابان ما يقرب من أربعمائة مليون نسمة . والدعوة اليه لا تزال قوية في تلك الاصقاع ، وقد رأينا أن لم بحقيقة مذهبه تنويرا لعقول الباحثين في الأديان الشرقية ، فنقول :

#### أصله ونشأته وتاريخ حياته :

بوذا : لقب له ، ومعناه العارف ، ويلقب أيضا بشيكهاموني ، ومعناه رسول المعرفة . واسمه شيرهانبا أي المصلح ، وجوتاما اسم أسرته ، وأحيانا يطلق عليه اسم أسرته . ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٩٦٠ سنة في أسرة ملكية بأمانة نيبال ، وكان وليا للعهد ، فنشأ مترفا في السمع ، راغدا في العيش ، متوسعا في الثراء ، بعيدا عن منغصات الحياة ، حتى إذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، تم زواجه في أعظم حفل عرف في التاريخ ، وطابت له حياته الزوجية ، وظل متعيا في ظل هذه السعادة الواقعة ، يقطف من ثمارها الدانية ، ويرفل في هنائه المريض ، في قصر من أعظم وأجل قصور الهند التاريخية ، وحوله الأوفياء من رجال حاشيته . ولكنه لم يلبث على هذه الحال طويلا حتى تحول نعيمه الى التفكير والتأمل في النوع الانساني ، وما هو فرصة له من الآلام والمصائب والموت ، فأخذ يفكر في وسيلة تنقذه من ذلك ، أو تخفف عليه من وقته .

فقال : إنه كان في طريقه يوما إلى التزهة في موكبه الرسمي ، فإذا يوجل قد أكلت الأمراض لحه وشعبه ، وهو مشرف على الموت يستغيث ، فوقع بصره عليه ، فسأل من حوله عن هذا الحيوان الغريب الذي لم يتفق له رؤية مثله قط ، ولم يصدق أن إنسانا يكون به هذا الشكل ، فقليل له إنه مريض . هنالك سأل نفسه ما الذي دفع هذا الإنسان إلى هذه الآلام ؟ وما حقيقة هذه الأجسام ؟ وما هي النفس ؟ وما السبيل لمعرفة النفس ؟ وما هي الغاية من الحياة ؟ فاستغرق في هذه الأفكار ، وما هي إلا فترة وجيزة من الزمن حتى ترك كل شيء ، وهرج زوجته وأسرته وولايته ، وخرج إلى حيث لا يسكن أحد ، ولا يشغله عن تفكيره شيء ، خرج إلى الغابات والأحراش هائما على وجهه ، طالبا للحقيقة ، راغبا عن الدنيا ، زاهدا في ملاذها ،

ممنيا بالتأملات ، راضيا نفسه على خشونة الحياة ، وهو في التاسعة والعشرين من عمره . أقام على هذا الاعتكاف ست سنين ، حتى أحس بأن نوطا من المعرفة أشرق في نفسه ، وقذف بنور في قلبه ، لاحظ أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها الأحزان ، وتجعل كل إنسان في نقص دائم ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام ، التي لم سيلها في هذه الحياة ، الذات والأمانى التي تتبعها الرغبات . فالذات في أعقابها آلام ، وإن تطلعت النفس إليها ، وفي الحرمان منها آلام أيضا ، فلولا الذات ما كانت الآلام ، ولولا استهواء الأمانى ، ما كانت آلام الحرمان ، فلا بد إذا لدرء هذه الآلام من القضاء على أصلها ، وذلك بالقضاء على الذات وعلى تمنيتها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض المرء نفسه على هجرها جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة على نفسه ، فكان الركن الذى أقام عليه بوذا مذهبه الخلقى هو أن يجاهد الإنسان نفسه ، ويروض إرادته على ترك الذات ، والصبر على الحرمان منها .

فنهض يدعو اليه ، فأرسا محبته في القلوب ، بقوله وعمله ، ومبشرا به بين العالمين ، غير مبال بالصعوبات والعقبات التي كان يلاقيها في سبيل الدعوة ، فالتف حوله شيب وشباب ، وصار له أعضاء وأنصار ، يدعون الى مذهبه ، وأخذوا يجربون الألفاظ هداة مرشدين ، واستمر عددهم ينمو ، ودعوتهم تذيب ، ومذهبهم في الحياة ينتشر ، وبوذا من ورثهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات في الثمانين من عمره .

#### أوصافه :

وصل بوذا الى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والموازنة الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة ، وكان على جانب عظيم من طيب النفس ، وحسن الخلق ، ولطف المعاشرة ، وكانت نفسه معتزكا حاضيا الوطيس ، بين توازن الجسم ، وما أخذ به نفسه من الرياضة ، حتى انتهى أمره بالانتصار المؤزر عليها .

#### تعاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها :

قال : إن الأمور التي تهدى الإنسان الى الصراط المستقيم ، ليفوز بحياة سعيدة خالية من شوائب الآلام ودواعيها ، هي رياضة النفس وتربيتها ، فاختار بوذا الوصول الى تلك الغاية السامية أمورا إذا التزمها الشخص ، لا يحيد عن الجادة المستقيمة ، في كل شأن من شئون حياته ، وهي على الترتيب الآتى :

١ — أن يتجه الإنسان في أى أمر يريد انجها محييا مستقيا خاليا من كل سلطان للشهوة واللذة عليه . وهذا ( الاتجاه ) يؤدي الى :

٢ — تفكير صحيح مستقيم ، لا تؤثر فيه زعجات الأهواء ، ولا جوح الشهوات ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام . وهذا التفكير يفضى الى :

٣ — ثورانية تجمله يستطيع الوصول الى حقائق الامور ، من غير أن يرمى نظره أى حجاب من حجب الذات والاهواء .

٤ — ولا شك أن الامور الثلاثة المذكورة يترتب عليها أمر رابع ، وهو : اطمئنان العقل والقلب الى فكرة خاصة ، من بين ما يمرض لها من الامكار والآراء ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم الممنوى .

٥ — والمتنم للامور الاربعة السابقة : هو اللفظ المستقيم ، بأن يكون منطق المرء مطابقا لاعتقاده ، وهو الإقرار باللسان ، هما فى الجنان .

٦ — والامر السادس الذى لا بد منه لسلوك الطريق الوسط هو : مطابقة العمل للملم ، فكل منهما مؤكد للآخر أو متمم له . وهذا يؤدي الى :

٧ — الجهد الصحيح لى تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم الحق ، ومنع كل ماله صلة بالذات .

٨ — يترتب على الاصول السالفة : الحياة الصحيحة المستقيمة وهى المطلوبة .  
وجام القول أن لب الفصائل عند بوذا هو مجاهدة الذات ، ورياسة النفس على تركها جملة ، والفتناء فى سبيل الناية ، وهى : المعرفة .

ومنشأ الرذائل عنده الذات والانهماك فيها ، وذلك يرجع الى ثلاثة أمور مرتبة ، وهى :

١ — الاستسلام للملاذ . وهذا يؤدي الى :

٢ — سوء النية فى طلب الاشياء .

٣ — ويترتب عليه الضباوة وعدم إدراك الامور على الوجه الصحيح .

ولاجل التربية العملية الحقيقية للنفس والاستيلاء على الارادة ، نهى بوذا أتباعه من الامور الآتية :

١ — لا تقض على حياة حى ، فالبسوديون لا يقتلون الحيوانات المؤذية وغير المؤذية مطلقا ، ولا يذبحون القرابين ولا يأكلون اللحم ، فهم نباتيون تديبا .

٢ — لا تأت أمرا يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرما .

٣ — لا تسرق ولا تفتصب ولا تطمع فى مال لا تستحقه .

٤ — لا تكذب ولا تقل قولا غير صحيح فيذهب بك فى الدرك الاسفل من النار .

٥ — لا تتناول مسكرا تما .

٦ — لا تأكل طعاما نضج في غير أوانه .

٧ — لا تكل رأسك بالزهور ولا تنخذ طيبا تاما .

٨ — لا ترقص ولا تحضر حفلة غنائية .

٩ — لا تقطن قراشا وثيرا .

١٠ — لا تأخذ ذهبيا ولا فضة .

هذه هي التعليمات البردية ، وهي سبيل السعادة في نظر أتباعه ومريديه ، ولكن هل يمكن القيام عليها ؟ إننا كلما درسنا الأديان المختلفة زدنا اعتقادا بأن الدين عند الله الاسلام ، فهو أحسن طريقا ، وأقوم مذهبا ، وأجمع للفضائل من كل ماعداه ، في يسر وهوادة لا تدع للمتنكب عنه عذرا ؟

أبو الحسنات محمد محيي الدين الهنري

« طاغور »

## ما قيل في المؤاخاة

قال لقمان . إذا أردت مؤاخاة رجل فانظر فان كانت محاسنه أكثر فارتبطه .

تقول : هذا كلام حكيم ، فان أى إنسان لا يحلو من النقص ، فمن كان يرجو أن يصادف إنسانا لا زلة له ، طال انتظاره ، وعز مطلبه ، وماش هممه ولا صديق له .

وقال حكيم : ليكون اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الإخوان قديمهم .

وقيل : لا تستبدل أخا مستفادا بأخ قديم ، فإنه قد لا يستقيم لك ، وتكون قد فقدت الأول . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله :

تقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما القلب إلا للحبيب الأول  
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبدا لأول منزل

وقال حكيم . الصديق الآلوف ، لا يباع بالآلوف .

وقال مسلم بن يسار : ما من حمل إلا وأخاف أن يكون دخله ما أفسده إلا الحب في الله .

مرضت مرضا فلم أجد شيئا أوثق في نفسي من قوم كنت أحبهم لا أحبهم إلا الله .



## التشريع الاسلامي وأثره

الحال في المجتمع

في عدد فاطم من هذه المجلة عرضنا لجانب غير يسير من مباحة الشريعة الإسلامية ، وبلغها أقصى درجات الكمال في المسيرة لمرافق الناس وحاجاتهم ، وبيننا كيف أنها أحسكت روابط هذا المجتمع بما آتته آحاده من الوصايا الحكيمة ، وما قررته له من الأحكام المادلة ، فما من حدث تتمم عن الأيام والأيام إلا وله في الشريعة المطهرة مرد وعليه منها شاهد ودليل .

فالتشريع الإسلامي الذي يحكم روابط المجتمع ويضع قواعد منيعة لحماية الأسر والجماعات والأمم من الانحلال ، ثم يضع أحكاما للفرد بين المجموع فيحكم صلتها بالآخر ويحبب له مكارم الأخلاق ، لأن الأخلاق في واقع أمرها حياة كل اجتماع وزاده ، وقوته وعناقه ، هذا التشريع خليق بالبقاء وجدير بأن تدوم له أحكامه ما دامت الكائنات .

عنى التشريع الإسلامي بأقامة الأخلاق على المبادئ المبيلة التي تتمثل فيها حياة الفرد وحياة الأمة كاملة . وقد نعت الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتدعيم الأخلاق بما يصلح لتدعيمها من العقائد الصحيحة ، فكان أثره فيها معجزا من كل وجه .

فالشريعة تحض على السخاء والكرم والشكر على المعروف ، وتبين كيف يحذر الإنسان ربه وتبين طاقية حسن الظن بالله والناس ، وتحمل إلينا بإسان صاحبها صلى الله عليه وسلم إن كمال الدين في النصيحة وإن المستشار أمين . وإن الدال على الخير كفاعله ، وإن الدرجات العلا في فضاء حوائج الناس ، وإن العدل أساس الملك ، وإن من أحب الله أحب الله والعباد ، وما إلى تلك المبادئ السامية المنصلة بالنفوس الخيرة مما لا بدخل تحت حد ولا يحيط به حصر ، والتحدث عن تلك المبادئ وما إليها كثير الشعب ، متنوع المشارب ، لا تستنفده محو أو أسفار ، ولا يقوم بتحليلها حيل أو أجيال ، وإنما يفشده كل فرد في حيله في الأفق الذي يعبس فيه ، وإلا فأين تشريع وضعت أصوله على لأرض ، وأحكمت مراميه بين أهل عصره وجيله ، في مبادئه وأحكامه ، من تلك المبادئ السامية التي تخضع لها النفوس بما يلقى إليها من روح الإيمان والقبول . ويهديها إلى أسمى معارج الكمال حين يتعنث التشريع الإسلامي عن الحذر من الله والناس ، فيقول سبحانه وتعالى : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم .

ومحدثنا السنة المطهرة فيما ورد على لسان صاحب الشريعة فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . ( الناس كإبل مائة

لا يجرد الرجل فيها راحلة) والحديث يقصد الى أن مائة الإبل قد لا تجرد فيها راحلة، وهي القوية في سيرها السهلة في خطاها، فلا يجرد راكبها في سيرها عشاء ولا اضطراباً في أعصابه ولا خفقاناً في قلبه، فهي نادرة الوجود في مائة من الإبل، وكذلك الانسان الكامل بخلائقه ومعموره في الناس يكون صادقا فيهم قاضيا لحاجتهم لا يحمل في صدره لاحد إحنة ولا موجدة، ولا تغيره سفاسف الأمور ولا سحائم الصدور، ويحدثنا عمرو بن القنوء الخزاعي رضى الله عنه فيما أخرجه الامام أبو داود في صحيحه فيقول: «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يبعثني بهال الى أبي سفيان يقسمه في قريش بمكة بعد الفتح، فقال: التمس صاحباً نجاء في عمرو بن أمية الضمري فقال: بلغني أنك تريد الخروج وتلتبس صاحباً. قلت أحل قال فأتاك صاحب. قال فبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت قد وجدت صاحباً فقال من؟ قلت عمرو بن أمية الضمري. قال إذا هبطت بلاد قومه فاحذره. فإنه قد قال القائل أخوك البكري، فلا تأمنه. فخرجنا حتى إذا كنت بالأبواء قال إني أريد حاجة الى قومي بوذان، فتلبت لي. قلت راشداً فلما ولي تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم، فشددت على بعيري أوضعه حتى خرجت، حتى إذا كنت بالأصافر إذا هو يعارضني في رهط، فأوضعت فسبقتة. فلما رأيته قد فته انصرفوا. وجاءني فقال قد كانت لي الى قومي حاجة. قلت أحل. ومضينا حتى قدمنا مكة. فدفعت المال الى أبي سفيان» اهـ.

فصرخ الحديث يدل على أن الحذر من الاصدقاء والاقرباء وذوى المنازل المختلفة عند الرجل خليفة من خلائق الرجل المؤمن ؟

عباس ط

## فضل الكتابة

قال رجل من الانصار لعنبي صلى الله عليه وسلم: إني لاسمع الحديث ولا أحفظه يا رسول الله. فقال له النبي: استعن بيمينك، أي اكتبه.

وقال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة.

وقال الشعبي: إذا سمعت شيئاً فاكته ولو في الخائط.

نقول: انظر كيف قلب الاسلام أوضاع الجاهلية في عشية وضحاها، فبعد أن كان العرب مشهورين بالامية حتى أطلق عليهم القراكن كلمة الاميين، أصبحوا يتواصون بالكتابة حتى على الخائط لمن لم يجرد ورقاً.

# معركة لاداء المدينة

## في الإسلام والمسلمين

مات الشرق بموت ( دارا ) وعادت اليه الحياة بواسطة محمد  
النهضة الآوربية أوجدتها المدنية الإسلامية  
( سيباستيان شارلتي )

أدهش المفكرين من أهل المدنية الحاضرة سرعة نمو المدنية الإسلامية وإشراقها بإشراق  
أخذ بالابصار والعقول ، حتى فرضت زمامتها على العالم كله ، مما لم يمهده له من قبل في تاريخ التطور  
البشرى ، وخاصة إذا كانت حامل لواء هذه المدنية شعباً لم تعرف له أصالة فيها . فكان  
الكثيرون من كتاب الغرب ، لأجل أن يعرفوا من تسعة لتلخيص هذا الأمر الجليل ، يفتلون التنويه  
بعظمة المدنية الإسلامية . وإلى هؤلاء وجه الكلام المسيو سيباستيان شارلتي Sébastien  
Charlty في حريده ( ديسيش دو تولوز ) الفرنسية فقال :

« إننا كثيراً ما نظلم المدنية الإسلامية العظيمة ، ولا نذكر أنه لما قدم سفير هارون الرشيد  
إلى الأمبراطور شارلمان في ساعة حائط ، كان إعجابه بها بالغاً ، ونحن لا نعمل لأنفسنا هذا الأمر بأنه  
يشبه في أيامنا هذه أن يقدم أحد رواد المجاهيل إلى ملك زنجي فونوغراف ، ويسمعه من  
أناشيده »

« لقد بالغ الناس في تقدير الصفات العقلية العالية للعرب الفاتحين ، مما أصبح لا يمكن  
تصديقه اليوم . وقد حُلّت هذه المسألة على الوجه الآتي : وهو أن عرب البلاد العربية والبدو  
من أهل القبائل لم يدم دولتهم إلا قرواً واحداً وهي دولة الأمويين . فلما جاءت الدولة العباسية  
سنة ( ٧٥٠ ) انسحب هؤلاء البدويون بعد أن أتموا حملهم الحربي ، وطادوا سيرتهم الأولى  
من الحياة المتنقلة .

« ولقد اعتاد الناس كلما ذكروا تاريخ المسلمين أن يذكروا العرب ، والواقع أن الذين  
كان يطلق عليهم هذا الاسم لم يكونوا عرباً ، ولكنهم كانوا أهل المدن المصرية والسكندانية  
والسورية ، أي المتمدنين القدماء من أهل الشرق الخالد الذين كانوا قد قبلوا الإسلام ديناً لهم ،  
وحققوا اللغة العربية .

« في ذلك الزمان شرع هؤلاء المتمدنون العريقون في المدنية ، الذين مر عليهم عهد المدنية اليونانية ، في ترجمة كنوز المكتبات اليونانية الى اللغة العربية ، وبواسطتهم ولدت المدنية الاسلامية . فلم تكن هذه المدنية والحالة هذه من عمل العرب ، ولكنها كانت من عمل أولئك الذين كان يطلق عليهم في القرون الوسطى اسم سارازان ( Sarrasins ) (١) وهم الورثة المباثرون لمصر وكالديانيا ( بابل ) .

« إننا نرى بأعيننا بدائع ألف ليلة وليلة ، والفن الاساني العربي في العمارة ، ولكن يجب أن يكون الانسان متضلعا في العلوم لكي يفهم أن هؤلاء الذين اكتشفوا علم المثلثات والجبر ، والذين رفقوا علم الفلك ترقية عظيمة جدا في مرادهم المزودة بأدق الآلات ، ونهصوا بعلم الطب في مستشفياتهم نهضة قوية ، وألفوا علم الكيمياء من معلومات كانت منشورة لا تجمعها جامعة ، فملوا ذلك كله لأنهم اعتمدوا في معارفهم على الأسلوب التحريبي .

« أما في عالم تطبيق العلوم الطبيعية ، إذا أردنا أن لا نقول شيئا عن تميزهم في الزراعة وصناعاتي النعدين والفسج ، فإن العرب أورثونا البوصلة وبارود المدافع ، وهذا الاكتشاف الضخم وهو عمل الورق ، قد أدى الى الحصول على الكتب بثمان زهيد .

« وقد قيل لنا إن نهضتنا ، كما يدل اسمها عليها ، كانت وليدة الآداب اليونانية والرومانية . وهذا كذب تقي (٢) . والحقيقة أنه وليد المدنية العربية التي جلبتها الى بلادنا الحروب الصليبية . وقد علم من عرض تاريخ المدينيات الاسانية ، وهو تاريخ هذا العالم الأرضي ، أنه قد وجدت مدينيات قديمة ذات أصول شرقية ، تلتها المدنية اليونانية الرومانية ، ثم المدنية العربية طوال عهد القرون الوسطى ، ثم عقيبتها مدينتنا الراهنة . وقد جحدنا فضل المدنية العربية علينا كما جحد اليونانيون قبلنا فضل المدنية المصرية . ولكن أمر هذا الجحد لا يهم كثيرا لأننا لم نضع من حقيقة هذا التاريخ شيئا .

« الاسلام في القرن العشرين أصبح على وشك انقلاب عظيم ، وإن تحفزاته لنهز الكرة الأرضية ، ومعنى هذا أن الامبراطورية الاسلامية تحاول أن تبعث فجأة ، والعلاج الذي يراه الشرقيون لتحقيق ذلك هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طغرة بواسطة قرارات حكومية إجبارية ، فهم يريدون أن يكونونا مع بقائهم على ما هم عليه . ولذلك تراهم يترصون بالمدنية الغربية الدوائر . وهم على حق في ذلك إطلاقا . فإن مدينتنا سقييد كما بادت المدنية اليونانية الرومانية . ولما كنهم يتخيلون موتها فجأة ، وهنأهم وهون . فإن الشرق مات قبل الآن بموت ( دارا ) (٣)

(١) هذه الكلمة مشتقة من فعل شرق ( بتشديد الراء ) وكان يطلقه أهل أوروبا على المسلمين حين رحلوا لنج بلادهم . (٢) يريد بهذا التفسير أن الحامل عليه كان النصب قدس . (٣) دارا ملك الفرس الذي حارب الاسكندر في القرن رابع قبل الميلاد وقهره واستغرق مملكته لاسبعة سنة ( ٣٣٠ ق ) .

وماد غي ظهور محمد ، ولكن بين موته وحياته مضت ألف سنة فيجب ، علينا أن نتذكر هذا الرقم لنطعن به أنفسنا ؟

### شارل سيبيانيه

( مجلة الأهرار ) : إن ما كتبه المسيو سيبيانيان وقال إنه اقتبسه من كتاب ( أخلاق وعادات إسلامية ) للاستاذ أ. ف. جوتييه ، إن كان قصد منه الغرض من قيمة الإسلام في تطوير العقلية الإنسانية من طريق الطفرة ، فهو لم يؤد إلى ما قصده منه ، لأن هذا الدين لم يقل : إنه جاء لترقية أمة معينة ، ولعنتها لنأتي بالمحب المعقاب طفرة ، حتى يكون في تذييله بأن الذي قام بالمدينة الإسلامية هم رجال دخلوا فيه من أجاس شتى ، كانوا قبل أن يحى مستعدين للارتقاء بما صقلته المدنية اليونانية الرومانية من عقولهم ، وما لطفته من شعورهم ، نقض لهذا الوعد . ولكن الإسلام قال : إنه جاء للبشر كافة ليفك عن أعناقهم أغلال التقاليد الضارة ، ويجلو عن بصائرهم غشاوات العقائد الباطلة ، ليحيوا حياة صحيحة ، يحققون بها ما الطفرة الانسانية أهل لتحقيقه من الوصول إلى المثل العليا في العلم والعمل . وهو لم يسند قيادة العالم في هذا السمت لأمة من الأمم ، ولكنه ترك المجال حرا للمتنافسين فيه من كل جنس وبيئة .

فإذا صح ما ذكره المسيو سيبيانيان من أن الذين قاموا بالمدينة الإسلامية هم أقوام من أعرق الأشرقيين في الممالك التي افتتحها المسلمون ، وليسوا هم العرب أنفسهم ، لم يحط ذلك من قيمة الإسلام ، ولم يناقض أصلا من الأصول التي قررها ، أما قال الله في آية محكمة من كتابه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ؟ » أولم يقل رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو لعمل صالح ؟ » .

ولكن المسيو سيبيانيان غاب عنه أن العرب وإن كانوا لم يبرزوا في العلوم والفنون التي ابنت عليها المدنية ، وقامت على أركانها ، بسبب ما كانوا عليه من البعد عنها ، فانهم ساهموا في إيجاد هذه المدنية مساهمة لا تقل عن مساهمة الذين باشروها بأنفسهم ، ذلك أنهم مهدوا الطريق لوجردها ، وأمدوها بالأموال لتوسيع نطاقها ، واسبقاء حيايتها ، والاستفادة من ثمراتها .

يقول المسيو سيبيانيان . إن حمل العرب اقتصر على فتوح البلدان ، ثم السعوا من الميدان ، فنولاه الذين أسلموا من أبناء قدماء المصريين والبابليين . وهذا قول بعيد عن التحقيق ، ألم يكن من العرب أمراء المؤمنين ، وكثير من علماء الدين ، وحكام الأقاليم ، والقضاة والمفتين ؟ فهل كان نقلة العلوم الذين يدكرهم يستطيعون أن يقوموا بما قاموا به من نشر الكتب العلمية

وترجتها ، لو كانت هذه الهيئة الحاكمة لا ترضى عنه ولا تساعد عليه ؟ أنسى ما استفاض في تاريخ المسلمين أن أسراء المؤمنين ووزراءهم كانوا هم الذين أوجدوا هذه الحركة العلمية ، وسخروا المترجمين لترجمة المؤلفات اليونانية والسكندانية وغيرها ، وبذلوا لهم من الأموال ما لا يكاد يصدقه العقل ، وشجعوهم تشجيعا لم يؤثر عن قادة الأمم قبلهم ؟ فهل كان يحيل له أن هذه النهضة تقوم لها قائمة لولا هذه الأموال الطائلة التي بذلت في سبيلها ؟

فإن كان قيامها من الممكنات فلم لم تقم نفسها قبل محيى الاسلام ؟

إن العرب والبدو الذين يذكر أنهم قد قصروا عملهم على الفتوحات والتبسط في الأرض ، كانوا يستطيعون أن يعملوا ما عمله المنحون قبلهم ، من هدم المعابد والهيكل ، وإحراق ما بها من ذخائر المؤلفات ؛ أملا يكون تركهم لها قائمة وترك ما فيها لاهلها ، من المفاسد التي لم يسجل مثلها لامة فاتحة ، وهم يملكون أن في تلك الهيكل والكائنات من أعمال الخائز الشيء الكثير ، فعمفوا عنه كله وتركوه لاهله ، وأمنوهم على إقامة شعائرهم . ومن أغرب ما يؤثر عنهم من روح التسامح الديني أنهم تركوا للشعوب التي فتحوا بلادها كل مقدساتها حتى التماثيل التي كانوا يقدسونها .

فهل هذه الروح العالية من التسامح التي كان لا يعرفها أهل ذلك العصر ، واحترام أهلها حتى الذين بقوا منهم على يهوديتهم ونصرانيتهم أو مجوسيتهم من المترجمين ، قليلة الأثر في بعث المهتم على نقل تلك العلوم وزيادة مادتها ؟

إذا كان المسيو سياستيان يبحث عن علة بسيكولوجية ، لسرعة تطور العقلية الاسلامية وتبريزها في العلوم الطبيعية ، ويرضيه منها ما نقلناه عنه هنا ، أليس في تسامح العرب الى هذا الحد في معاملة الأجانب عن دينهم ، والابقاء على معابدهم وهاياكلهم ، وما فيها من الأصنام والأنصاب ، مجال فسيح للبحث عن علة هذا التسامح في نفسية شعب كان جاهليا بالأمس لا يقيم للتسامح وزنا ؟ الاسلام لا يهجم أن يقوم بما أهاب بالناس للقيام به من نشر العلم وبناء المدنية الفاضلة هذا الشعب أو ذلك ، لأنه دين الانسانية فاطمة ، ولديه أبناء آدم كلهم سواء ، ولا يهم العالم أن يعرف أى عنصر من العناصر الاسلامية قوى بناء مدنيته الناهرة ، ولكن يهجم أن يتحقق أن الدين الإسلامى هو الذى دعا إليها ، وبعث المهتم لا يحددها ، لينحصر به ما أرجف به المخفون من أنه دين بدوى محض ، لا ينتظر منه عمل في تشييد أية مدنية ، بل هو مسوق لأن يهدم أية حصاره يصادفها في طريقه . وقد قال بهذا الضلال البعيد كتاب كثيرون ، فالتى بهم هؤلاء اليوم أن يدرك هؤلاء أنهم في تأكيدهم ما ادعوه مبطلون .

أما إذا كان مرمى المسيو سياستيان أن يؤم قراءه أن أمر المدنية الاسلامية التي أصبح تاريخها يهر العقول ، لم يقم به العرب الأفحاح ، ولكن أولئك الذين دخلوا في دينهم من آحاد

الأمم التي كانت متمدنة ، فتابعوا طريقهم في استئثار عقولهم وفنونهم ، فَنُسب ما حملوه للإسلام وليس الإسلام منه في شيء ، قلنا إذا كان المسيو سياستيان يرى إلى هذا فهو على خطأ عظيم ، لأن ما قلناه في صدر هذا المقال يكنى في إبطاله ، وتزيد عليه هنا : أن هؤلاء الذين يصنفهم المسيو سياستيان بأنهم صاغة المدنية الإسلامية ، كانوا موجودين حيث كانوا قبل البعثة الحمدية ويمدها ، فكانوا قابعين في أكمار بيوتهم لا يستطيعون أن يأتوا عملا ، فلم لم يقوموا ببعض ما قاموا به والإسلام بأسط رواقه عليهم ؟ أليس لأنهم كانوا ممنوعين عن ذلك ، وكانوا لا يجدون من المحيطين بهم مشجعا عليه ؟ بل كان كثير منهم يرى رأى قادتهم في أن التبصر في البحوث مخالف للدين ، وأنه يحجر إلى النار ؟

فلا يجوز للمسيو سياستيان وهو يعلم كل هذا بالضرورة أن يفتله في سبيل تمليل ظهور العقلية الإسلامية سامية كل السموة طفرة . وما أظنه قد بلغ مراده من هذا التعليل ، فقد يعترض عليه معترض قائلا :

إذا كنت تعلم ما ظهر به المسلمون في أئتمرن الثاني من التطور العقلي بأنهم كانوا أبناء وأحفاد أقوام عاشوا في المدنية آمادا طويلة ، وتمرس عقولهم بالمعارف والمطريات أحيالا متعاقبة ، فهم تعلم تطور عقلية أصحاب النبي وآدائهم في جميع أحوالهم ، وعدلهم في حريمهم وسلمهم ، ورحمتهم برعاياهم بعرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم ؟ ثم تعلم هذا الانقلاب الضخم في شعب كان جاهليا جافيا بالأمس ، لا يعرف غير سلطان القوة ، ولا عدلا إلا ما تخليه عاداته القومية ، ولا رحمة إلا ما يتفق وأوامره التقليدية ، فانقلب شعبا ، مديبا لطيفا ، لا يعرف لغير الحق سلطانا ، ولا سوى العدل المطلق ميزانا ، رحيا بالضعفاء إلى حدود الأيتار ، عاطفا على المقهورين إلى مستوى المساواة . فهل كانوا تمرسوا في جاهليتهم بهذه الخلال التي يستحيل أن يتعلم بها شعب من طريق الطفرة ، بل لا بد لأجل أن تصبح من طبيعة الجماعة أن تمرس بها أحيالا طويلا .

فالإسلام الذي هو أصل هذا الخير كله هو الذي يجب أن يُنوء به ، وأن يُشاد بذكره ، وأن يُستنزل عجب الناس من اشتغاله على جميع عناصر الترقى البشري حتى لا يعقل أن يوجد في التعاليم البشرية أجمع منه وأشمل لهذه العناصر التي تتولى اليوم النوع البشري في جميع مجالات النشاط العقلي والمادي .

#### نهضة الإسلام في القرن العشرين .

قال المسيو سياستيان في هذا الموطن : إن المسلمين يتحركون للنهوض ، وإن دحاحات حركاتهم تهز السكرة الأرضية ، والملاج الذي يأخذون به أنفسهم هو أن يأخذوا بإخذ التربين طفرة بأوامر حكومية . وهم يترصون بالمدنية الأوروبية الثلاثية والانحلال الخ .

نقول : أما أن المسلمين يتحركون قنهور ، وأن رجاء حركاتهم تهرى العالم الأرضى كله فصحيح ، فانك لا تكاد تجد ركبا من أركان الأرض لا يشغل أهله من أمر القنهور شاغل مسنوع لأفكارهم ، ولكمهم لا يرحون ذلك من طريق هلاك المزاحم لهم ، أى ليعلموا لهم الجودونه ، وهم مقيمون على ما هم عليه من الحالة النفسية والخلقية . فهم يعرفون أنهم ما تدهوروا الى الحد الذى وصلوا اليه إلا لتركهم تعاليم الاسلام الاصلاحية ، ويرون بأعينهم أن الغربين لم يبلغوا الى ما بلغوا اليه إلا بالقيام على أصول وآداب قرآنية . وهذا هو السبب الذى يدفعهم لأن يأخذوا بإخذ الغربين من طريق الاكراه الحسكوى .

فاذا كانوا يرون بعد هذا أن المدينة الغربية محكوم عليها بالتلاشى ، فليس ذلك لما يتسرب اليها من العلل من ناحية هذه الأصول المرقية ، ولكن من ناحية ما التاقت به من الميوس الأدبية ، وما اندس الى صميم اجتماعها من العوامل المنككة . وهم يعلمون أن تلاشيها لن يجىء فجأة ، وأنها فى تلاشيها ستترك صدوما فى العالم البشرى يصعب رؤها على المدينة التى تخلفها إلا بعد بذل مجهودات عنيفة .

مات الشرق بموت ( دارا ) وحى بمجىء محمد .

هذه أحق وأجل عبارة تؤثرها عن كاتب أوروبى ، وهى من قبيل الاعتراف بالحق لصاحبه . ولو نظرت نظرا علميا لوحدت الأمر كما قال : فإن الأمة الممثلة لعظمة الشرق كانت فى ذلك العهد الأمة الفارسية ، وقد أدا دال دولتها الاسكندر ، واحتل بلادها ، ولما مات أصحابها ما أصاب سائر الممالك التى دوخها العاهل المقدونى ، والتاقت من عوامل التحلل والتدهور مما تلتاقت به كل بلاد تصدعت أركانها ، وتأكلت وطائدها ، فعاشت كما شاءت الحوادث ، لا كما شاءت المسادى . وكل ما قام فى الشرق من دولة بعدها لم تقم بقواها الذاتية ، وبروحها المدبر ، ولكن قامت على أنقاض دولة سبقتها فى الوجود ثم بادت .

ولما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بدشت دولة الشرق بمبعثه ، ظهرت وليدة ، ثم تزعمت ونمت ، وشدت وازدهرت ، بروح خاصة حلت بها ، حاصلة على جميع مميزات الأرواح التى كتب لها البقاء ، تحوّلها العوامل المدبرة ، ونحفها الأصول المقررة ، وتترأى لها المنسل العليا . فأدت للعالم رسالة لم تؤد له مثلها دولة فى مدى تاريخ الانسانية كله

فان كانت هذه الأمة تتحفز قنهور اليوم ، فانها إنما تفعل محفورة ببواعثها الذاتية ، وقواها المعنوية ، غير مبطنة شرا بأحد ، على السمت نفسه الذى اتبعته فى وجودها الأول

محمد فربر ومبرى



### الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية .

ثم طبع المجلد الثالث من المعلمة الاندلسية التي وضعها الكاتب الكبير الامير شكيب أرسلان ، وهي تاريخ مفصل للاندلس ضمنه ربة تحقيقاته الشخصية ، ومشاهداته العيانة ، وأصاف إليها ما وقف عليه في عشرات من الكتب التي وقعت له بين عربية وأفريقية . وقد تناول هذا المجلد الكلام على شرق الاندلس ومملكة بلنسية ومرسية وجغرافيتهما وأحوالهما وأهلها ، ووصف مدن الاندلس وحصونها وتراجم رجالها وملوكها ، ودول الاندلس وملوك الطوائف الخ وهو كتاب جدير بالقراءة والاقتناء ، ليس له نظير في المطبوعات العربية . وثمة عشرون قرشا غير أجرة البريد

### كيف تنجح في الحياة .

ثمائة حكمة لمشهورى الفلاسفة والعظماء .

جمع هذه الحكم ورتبها الاستاد الفاضل أحمد افندي أبو الخضر ملمي ، وهو كتاب طريف لا يسأم مطالعه ، ينتقل به من حكمة الى حكمة بدون تكلف ، وكل منها كما لا يخفى زبدة تجربة عملية ، أو إلهام قلب متمطش للحقيقة . فالكتاب يمثل خلاصة مستنقطة لأكبر العقول التي ظهرت بين طوائف الناس منذ زمان طويل الى اليوم .

من أطرف ما نثره عن هذا الكتاب ، أنه افتنحه بقول للميلسوف تولوستوى هودواه لأكثر الناس في هذا العصر لو اتبعوه ، وهو : « إنا نأكل ثلاثة أصناف ما تتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لا عدد لها نصرم حبل حياتنا قبل أوانها »

إنا نوصي باقتناء هذا الكتاب وإدمان النظر فيه ، وحمل الإباء على مطالعته ، ووضعه على متناول الأيدي من الكفاة ، فانه خير ما تنغذى به العقول والأرواح . ثمة سبعة قروش .

### مناهل العرفان في علوم القرآن .

هذا كتاب حافل بالملم قصد به مؤلفه حضرة صاحب النصيلة الاستاد المفصل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني أن يصح كتابا جامعاً لعلوم القرآن الكريم ، جمع فيه كل ما يتعلق بهذا المطلب الخطير جمع عالم نحوي ، وألم بما اعتري كل بحث من شبهات المشبهين ، وقاويل الملحدين ، جاء عملاً جمع بين القديم والحديث جمعا يمسر أن تصادفه في كتاب واحد في أهم موضوع من المواضيع الاسلامية .

وإنا لنكتفي اليوم بهذه الإشارة راجين أن تتاح لنا فرصة تحليله وتحليله دقيقا خدمة للعلم ، وليس هذا بكثير عليه .

### جماع العلم :

لحضرة الأستاذ الجليل صاحب التفضيلة للشيخ احمد محمد شاكر اختيارات ممتعة يتحف بها قراءه الكثيرين من حين لآخر . وقد أتحفنا هذه الدفعة بكتيب جيم الفائدة ، فزير المادة ، وهو كما قال عنه : « درة كريمة من درر الشافعي ، وطرفة من أبدع طرفه . حكي فيه مناظرات بينه وبين بعض أهل العلم في عصره في أصول الاستدلال ، أو إن شئت . في بعض مسائل من أصول الفقه ، وأكثر ما يدور الجدل فيه في الاحتجاج بالأخبار ، وحجة الإجماع وحقيقته ، والأمر والنهي ، ونحو ذلك » .

وهذا أبلغ ما يقال في تقريب هذا الكتاب ، وفي التعويض على مطالعته ، وهل ينتظر أحد أن يحدثه أعلم من الشافعي في هذه الموضوعات ؟  
التشريع الاسلامي : تاريخه وفلسفته .

هذا كتاب وضعه مؤلفه حضرة الأستاذ الجليل جلال الحبي خطيب جامع عطاء وإمام جامع الأزبك ببغداد ، وهو كما يدل عليه اسمه يبحث في حكمة التشريع الإلهي . وهو موضوع تتطال إليه الأعناق ، والشريعة الاسلامية بحر طام بالأصول الشرعية التي تعتبر مشلا عليا لسكل شريعة عالة . والأستاذ مؤلف هذا الكتاب ذو عقلية عصرية جمع بين التال والطريف من المعلومات . فترجو لكتابه الرواج الذي يستحقه . وقد طبع في مطبعة السعادة بجوار الحافظة .

### الأمراض الاجتماعية وعلاجها :

هذا مؤلف جديد لحضرة الأستاذ الجليل علي فكري الذي كان أميناً أول ورئيس المغيرين لدار الكتب المصرية ، وهو مشهور بمؤلفاته الكثيرة القيمة التي يغدو بها المطبوعات العربية بين آن وآخر خدمة للعقول والقلوب في العصر الحاضر .

كتابه الذي نحن بصده اليوم يحاول فيه محاربة أربعة أدواء قتالة انتشرت في كل صقع وأصابت أهله بالويلات الجسام ، وهي الزنا والمقامرة وتعامل الحمر والتعامل بالربا الفاحش . ولست في حاجة لأن أقول إن الأستاذ علي فكري من الأفراد القلائل الذين منحوا حب الخير لذاته ، فهو إن كتب فلا يفعل إلا مسوقا لمعطفة إنسانية شريفة ، فيجىء ما يكتبه نصحا مؤثرا يقع من القلوب موقع القبول ، وهو واسع المجال في خاصة التبيين ، فلا يترك مما يتصل بما يعالجه من الموضوعات مناسبة حتى يلم بها ، فيجد القاري نفسه بين دين وأدب وتاريخ وفسكاهة فلا يسأم المطالعة ، ولا يرجئها . وهذه منزلة لا يحظى بها جميع المؤلفين وخاصة الذين يتصدون لمعالجة القلوب .

فنشكر لحضرة الأستاذ الموقر صنيعة ، ونرجو له المزيد من التوفيق .

"Read, in the name of the Lord who created, created man of congealed blood. Read thou. For thy Lord is the most Beneficent, who hath taught the use of the pen, who taught man that which he knoweth not" (1). Then the Prophet repeated the words with a trembling heart. And he returned to Khadija (namely from Mount Hira) and said "Wrap me up, wrap me up." And he was wrapped up in a garment until his fear was dispelled. And he told Khadija what had occurred, and that he was becoming either a soothsayer or one smitten with madness. She replied, "God forbid. He will surely not let such a thing happen. For you speak the truth, you are faithful in trust, you hear the afflictions of the people, you spend in good works what you gain in trade, you are hospitable and you assist your fellow-men. Have you seen aught terrible?" Muhammad replied "Yes." And he told her what he had seen. Whereupon Khadija said "Rejoice, O dear husband and be cheerful. He, in Whose hands stands Khadija's life, bears witness to the truth of this fact, that thou wilt be the prophet to this people." Then she arose and went to her cousin Waraqa, son of Noulal, who was old and blind and who knew the scriptures of the Jews and Christians, and is stated to have translated them into Arabic. When she told him of what she had heard, he cried out "Holy! Holy! Verily, this is the *Namus* (the Holy Spirit) who came to Moses. He will be the prophet of his people. Tell him this and bid him be of brave heart." And when the two men met subsequently in the street, the blind old student of the Jewish and Christian Scriptures spoke of his faith and trust. "I swear by Him, in Whose hand Waraqa's life is," said the old man, "God has chosen thee to be the prophet of this people. They will call thee a liar, they will persecute thee, they will banish thee, they will fight against thee. Oh, that I could live to those days. I would fight for thee." And he kissed him on his forehead (2).

The first vision was followed by a considerable period, during which Muhammad suffered much mental depression. During this period, the commentators state, the Prophet was seized with so much melancholy that he wished to throw himself when the Angel of God recalled him to his duty to mankind. The Angel spoke to the grieved heart of hope and trust, of the bright future, when he should see the people of the earth crowding into the one true faith. His destiny was unfolded to him when, wrapt in profound meditation, melancholy and sad, he felt himself called by a voice from heaven to arise and preach. "(O thou who art wrapped in thy mantle, rise and warn and glorify thy Lord" (3). And he arose and engaged himself in the work to which he was called. Khadija was the first to accept his mission. She was to believe in the revelation, to abandon the idolatry of her people and to join him in purity of heart in offering up prayers to the Almighty God.

(1) Koran: 96: 1-4

(2) Ibn Hisham, Ibn El Athir, *Miskhat-ul-Masabeeh* etc.

(3) Koran 74 : 1-3

and social desolation, rival creeds and sects tearing each other to pieces, wrangling over the body of the God they pretended to worship, carrying their hatred to the valleys and deserts of Hidjaz and rending the townships of Arabia with their quarrels and bitterness" (1).

---



## THE BEGINNING OF MOHAMMADAN REVELATION

Sir. William Muir, in his "Life of Mahomet" remarks: "The idolatry and moral debasement of his people, pressed heavily upon him and the dim and imperfect shadows of Judaism and Christianity excited doubts without satisfying them, and his mind was perplexed with uncertainty as to what was the true religion."

Mohammad had been wont, for years after his marriage, to seclude himself in a cave in Mount Hira, a few miles from Mecca. To this cave he used to betake himself for prayer and meditation, sometimes alone and at others with his family. There he often spent whole nights in deep thought and profound communion with the unseen, yet all-pervading God of the Universe. It was during one of those retirements and in the still hours of the night, when no human sympathy was near, that Mohammad believed that an angel came to him, to tell him that he was the Apostle of God, sent to reclaim a fallen people to the knowledge and service of their God.

Renowned compilers of authentic traditions of Islam agree in the following account of the first revelations received by the Prophet.

It was in true dreams that Mohammad received the first revelations. "He never dreamt, but it came to pass as regularly as the dawn of the day" (2). After this, Mohammad continued to seclude himself in the cave of Mount Hira and to worship there day and night. He would, whenever he wished, return to his family at Mecca and then go back again, taking with him the necessities of life. Thus he continued to return to Khadija, from time to time, until one day the revelation came down to him and the angel appeared to him and said "Read," but as Mohammad was an illiterate man, having never received any instruction in reading or writing he said to the Angel "I am not a reader". The Angel took hold of him and squeezed him as much as he could bear, and then said again "Read," and the Prophet said, "I am not a reader." Then the Angel again seized the Prophet and squeezed him for the third time and said

---

(1) Sayed Ameer Ali.

(2) Mishkat - ul - Masabeeh.

stone was thus deposited in its place, and the rebuilding of the temple was completed without further interruption (1). It is related that, about this period, a certain Osman, son of Howarith, supported by Byzantine gold, made an attempt to convert the territory of Hidjaz into a Roman dependency, but the attempt failed, chiefly through the instrumentality of Mohammad (2).

These are nearly all the public acts related by historians, in which Mohammad had taken part within the 15 years after his marriage with Khadija. As for his private life he is described to have been ever helpful to the needy and the helpless. His uncle Abu Talib had fallen into distress through his endeavours to maintain the old position of his family, and Mohammad, being rather rich at this time by his alliance with Khadija, tried to discharge part of the debt of gratitude and obligation which he owed to his uncle, by undertaking the bringing up and education of his son Ali, and a year later he adopted Akil, another of his uncle's sons.

Khadija had born Mohammad three sons and four daughters, all of whom died in childhood, but in loving Ali he found much consolation

About this time Mohammad set a good example of humanity which created a salutary effect upon his people. His wife Khadija, to gratify her husband, made him a present of a young slave, named "Zaid" son of Haritha, who had been brought as a capture to Mecca and sold to Khadija. When Haritha heard that Mohammad possessed Zaid, he came to Mecca and offered a large sum for his ransom. Whereupon Mohammad said, "Let Zaid come hither, and if he chooses to go with you". addressing the boy's father, "take him without ransom, but if it be his choice to stay with me, why should I not keep him?" And Zaid, being brought into Mohammad's presence, declared that he would stay with his master who treated him, as if he were his only son. Mohammad no sooner heard this, than he took Zaid by the hand and led him to the black stone of Kaaba where he publicly adopted him as his son and constituted him his heir, to which the father acquiesced who then returned home well satisfied. Henceforward Zaid was called the son of Mohammad (3).

Mohammad was now approaching his 40th year and his mind was ever engaged in profound contemplation and reflection. "Before him lay his country, bleeding and torn by fratricidal wars and intolerable dissensions, his people, sunk in barbarism, addicted to the observation of rites and superstitions, were, with all their desert virtues, lawless and cruel. His two visits to Syria had opened to him a scene of unutterable moral

---

(1) Sale.

(2) Ibid.

(3) Sale.

naturally caused feelings of pity and sorrow in the heart of the sensitive youth. Such were to him scenes of social misery and religious degradation, characteristic of a depraved age.

When Mohammad was 25 years old, he travelled once more to Syria as the factor of a noble and rich Koreishite widow named Khadija, and having proved himself faithful in the commercial interests of that lady, was soon rewarded with her hand in marriage. This marriage proved fortunate and singularly happy. Khadija was much the senior of her husband, but in spite of the disparity of age between them, the tenderest devotion on both sides existed. This marriage gave him the loving heart of a woman who was ever ready to console him in his despair and to keep alive within him the feeble, flickering flame of hope, when no man believed in him — not even himself — and the world appeared gloomy in his eyes. (1)

Till he reached the 30th year of his age, Mohammad was almost a stranger to the outside world. Since the death of his grandfather, authority in Mecca was divided among the ten senators who constituted the governing body of the Arabian Commonwealth. There was no such accord among them as to ensure the safety of individual rights and property. Though family relations afforded some degree of protection to citizens, yet strangers were frequently exposed to persecution and oppression. In many cases they were robbed, not only of their goods, but even of their wives and daughters. At the instigation of the faithful Mohammad, an old league, called the Federation of "Fûdûl", i.e. favours, was revived with the object of repressing lawlessness and defending every weak individual whether Meccan or stranger, free or slave, against any wrong or oppression, to which he might be the victim, within the territories of Mecca.

When Mohammad reached the 35th year of his age, he settled by his judgment a grave dispute which almost threatened to plunge the whole of Arabia into a fresh series of her oft-recurring wars. In rebuilding the sacred temple of the Kaaba, in 605 A.D., the question arose as to who should have the honour of raising the black stone, the most holy relic of that temple, into its proper place. Each tribe claimed that honour. The senior citizen advised the disputants to accept for their umpire in this difficulty the man who would be the first to enter from a certain gate. The proposal was agreed upon, and the first man who entered the gate, was Mohammad. "The Ameen" Mohammed gave them an advice which served to satisfy all the contending parties. He ordered the stone to be placed on a piece of cloth, and each tribe to share the honour of lifting it up, by taking hold of a part of the cloth. The

---

(1) Hugh's Dictionary of Islam.

## BOOK II

# THE LIFE OF PROPHET MOHAMMAD

### I

#### BIRTH AND EARLY YEARS

Mohammad, literally, the highly praised, is the chief name of the great Arabian Prophet and founder of the religion of Islam, wrongly called after him Mohammadanism. He was born at Mecca, the chief town of Arabia, in the year 570 A.D. He was the posthumous son of Abdullah who belonged to the family of Hashim, the noblest family of the Koreish section of the Arabian race. His grandfather Abdul Muttalib who was directly descended from Ishmael held the high office of custodian of the Kaaba, the common Pantheon of pagan Arabia, and was virtual head of the Meccan Commonwealth.

The birth of Mohammad is stated to have been attended by many remarkable portents. (1)

Before the child completed the 6th year of his age, his mother died and the doubly orphaned Mohammad was under the charge of his grandfather Abdul Muttalib who took the most tender care of him. But the old chief died two years afterwards. On his death-bed he confided to his son Abu Talib the charge of the little orphan. When Mohammad was twelve years old, he accompanied his uncle Abu Talib on a mercantile journey to Syria and they proceeded as far as Busra. The journey lasted for some months. It was at Busra that the Christian monk Bahira met Mohammad, and he is related to have said to Abu Talib "Return with this boy and guard him against the hatred of the Jews, for a great career awaits this your nephew". After this travel, the youth of Mohammad seems to have been passed uneventfully, but all authorities agree in ascribing to him such correctness of manners and purity of morals, as were rare among the people of Mecca. The fair character and the honourable bearing of the unobtrusive youth won the approbation of the citizens of Mecca, and by common consent he received the title of "Al Amin", the faithful (2).

In his early years, Mohammad was not free from the cares of life. He had to watch the flocks of his uncle, who like the rest of the Hashimites, had lost the greater part of his riches.

From youth to manhood he led an almost solitary life. The lawlessness, rife among the Meccans, the sudden outbursts of causeless and sanguinary quarrels among the tribes frequenting the fair of Okaz (the Arabian Olympia), the immorality and scepticism of the Koreishites,

---

(1) Ibn Athir, Ibn Hisham etc.

(2) Hugh's Dictionary of Islam, pp. 366 - 369.



## THE CITY OF MECCA

---

Mecca is the chief city of Arabia. It derives its wealth from the prodigious concourse of people who assemble there yearly as pilgrims from all parts of the world where Islam flourishes. Advantage is taken of this to hold a great fair for all kinds of merchandise. The possession of the temple of Kaaba gave Mecca special sanctity and predominance over all the other cities of the peninsula. The soil about Mecca is so barren that it produces nothing but what grows in the desert. Having, therefore, no corn or grain of their own growing, the Meccans are obliged to bring it from other places, and Hashim, Muhammad's great grandfather, then prince of his tribe, in order to secure an adequate supply of provisions for his tribe, appointed two caravans to set out yearly for that purpose, the one in summer and the other in winter.

These caravans of purveyors are referred to in the Koran. Thus, Mecca from the earliest time was the centre, not only of the religious associations of pagan Arabia, but also of its commercial activity.

During the period prior to the birth of Mohammad, the government of Mecca was an Oligarchy composed of the leading members of the house of Kossay, the Prophet's ancestor. The governing body consisted of ten senators who were styled Sherifs. These decemvirs occupied the first place in the state, and their offices were hereditary in favour of the eldest member of each family. Their functions were (1) The guardianship of the keys of the temple of the Kaaba, (2) the administration of the water supplied by the wells in Mecca and its neighbourhood, (3) the civil and criminal magistracy, (4) the control of foreign affairs, (5) the custody of the standard under which the nation marched against its enemies, (6) the administration of the poor-tax derived from the alms of the nation and employed in providing food for the poor pilgrims, (7) the presidency of the national assembly, (8) the guardianship of the council chamber, which office conferred upon its holders the right of convoking the assembly, (9) the administration of the public finances and (10) the guardianship of the divining arrows, by which the judgment of the gods and goddesses was obtained. At the same time it was an established custom that the oldest member exercised the greatest influence, and bore the title of chief and lord par excellence. At the time of the Prophet, his uncle Abbas was the senior member of these Senators (1).

---

(1) Sayed Amir Ali "The Spirit of Islam."



## V THE BRANCHES OF KNOWLEDGE CULTIVATED BY THE ARABS BEFORE ISLAM

The chief branches of knowledge the Arabs cultivated before the rise of Islam, were their history and the genealogical descent of families; such a knowledge of the stars as to be able to foretell the changes of weather; and the interpretation of dreams (1).

They used to pride themselves very much on the nobility of their families, and so many disputes arose in respect of this, that it is in no way surprising that they took great pains in recording the genealogies of their families.

Their knowledge of the stars was procured through long experience and not from regular study of astronomy (2). The stars or planets, by which they most usually forecast the wheather, were called "Al-An'waa" or "the houses of the moon". They are 28 in number and divide the Zodiac into as many parts, through one of which the moon passes every night. As some of them set in the morning, others rise opposite to them, which happens every thirteenth night, and from their rising and setting, the Arabs by long experience observed, what changes happened in the air, and at length came to ascribe to them divine power, saying that their rain came from such or such a star. This expression the Prophet condemned, and he absolutely forbade them to use it in the old sense, unless they meant no more by it, than that God has so ordained that, when the moon was in such or such a "house" or at the setting or rising of such a star, it should rain or be windy, or be hot or cold.

The early Arabs, therefore, seem to have made no further progress in astronomy, although they afterwards cultivated this science so successfully that they where able to observe the influence of stars on the weather, and to give them names; and it was only natural that they should do this, when we consider their pastoral mode of life, spent for the greater part under the open sky (3). The names they ascribed to the stars, generally were connected with cattle or flocks and they were so nice in distinguishing them, that no language has so many names for stars and heavenly bodies as Arabic, for though they have since borrowed the names of several constallations from the Greeks, yet far greater numbers are of their own finding and much more ancient, particularly those of the more conspicuous stars and those of the lesser constellations which are contained within the greater, and were not observed or named by the Greeks (4).

(1) Al Shahrstani.

(2) Abul Farag.

(3) O. Sale, Prelim. Disc.

(4) Ibid.

assistance, that they might see what each one gave, and form a judgment accordingly. This was agreed to, and Abdallah's champion, going to him, found him with his foot in the stirrup, just mounting his camel for a journey, and thus accosted him "Son of the uncle of the Apostle of God, I am travelling and in necessity" Upon which, Abdallah alighted and bade him take the camel, with all that was upon it, but desired him not to part with a sword which happened to be fixed to the saddle, because it had belonged to Ali, the son of Abu-Talib. So he took the camel and found on it some vests of silk and 4000 pieces of gold; but the thing of greatest value was the sword. The second went to Kais Ebn Saad, whose servant told him, that his master was asleep, and desired to know his business. The friend answered that he came to ask Kais's assistance, being in want on the road. Whereupon the servant said that he had rather supply his necessity than wake his master, and gave him a purse of 7000 pieces of gold, assuring him that it was all the money then in the house. He also directed him to go to those who had the charge of the camels with a certain token, and take a camel and a slave and return home with them. When Kais awoke and his servant informed him of what he had done, he gave him his freedom and asked him, why he did not call him, "For", said he, "I would have given him more". The third man went to Arabah and met him coming out of his house to go to prayers and leaning on two slaves, because his eyesight failed him. The friend no sooner made known his case than Arabah let go the slaves, and, clapping his hands together, loudly lamented his misfortune in having no money, but desired him to take the two slaves which the man refused to do, till Arabah protested, that if he did not accept them, he would give them their freedom and, leaving the slaves, groped his way along by the wall. On the return of the disputants, judgment was unanimously, and with great justice given by all who were present, that Arabah was the most generous of the three.

Nor were these the only good qualities of the Arabs. They are commended by ancient historians for being most exact to their word (1) and for being respectful to their seniors, and they have always been celebrated for their quickness of apprehension and the vivacity of their wit, especially those of the desert (2).

---

(1). Herodotus.

(2). D. Herbelot.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش بيدر

قد نمر على المجتمعات في هذه حياتها حوادث تؤثر في وجودها من ناحية ترابط آحادها ونعاسك أجزائها ، ولكنها لا تبلى ، مهما عظم شأنها ، ما يمدده النضج الاجتماعي الذي يتم بعد مكابذتها للأطوار التي يستعملها الاجتماع في أدواره المقررة في قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجري مكة ، ومؤمني قبيلتي الأوس والخزرج الذين ألف بين آحادها دين لم يكن للعرب في وثنيهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بخله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأغلبها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجدت تلك العوامل واستمدت الآثار لتأثر بها ، وهي لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فينمذّر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشؤون ليس في اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا نسكن في تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة من قلمي لا يتوقف على الاندماج في جماعة . وقد طاش المسيحيون بمسح عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين في بلاد متباعدة ، وبقي اليهود أكثر من ألفي سنة معتقدين في الأرض ليس لهم دولة . فكان لابد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع في الطائفة التي اتخذته ديناً لها ، ومن خضوعها لأغلبها آماداً طويلة .

فإذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التي تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذي تتبعه الطبيعة في تأليف الجماعات ، فأني له أن يوجد لها الزمان الكافي لترسيخ نتائجها في تسمية الجماعة ، وهو شرط لابد من توافره في حياة الجماعات ؟

الهم إن هذا من المحالات العلية ، وهو في البلاد العربية التي لا يوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا ما يكفي لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبلية من يوم وجدت إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لا لتقص في قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تألقها . فانتداب عهد صلى الله عليه وسلم للإتيان بحال في تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفرادهم ، ولم يطف في رأس عبقرى من عباقرة من يوم وُحد العالم إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرارته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر في الوسائل التي تدرع بها عهد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحي ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وجهه إلى همة إليه ، أن جعل لطاقمة التي اتبعته غاية سامية تسمى الوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هي ، وتكتفي من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصي وكيانها القومي ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبديد أو تقنى في جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التي عينها النبي للجماعة التي يرأسها أن تكون نواة الدين الذي تُمرع لاصلاح جميع الأديان ، وأنت تُحمي الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفي في تكوين أمة ، ولا في إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروفا الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة في حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بإنشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة منها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجادها من غير طريق العوامل التي توجبه ؟

سده العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادي ، والتبادل الثقافي ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التي تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعي في توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها عدد في البيئة التي ظهر فيها لما كان في عمله إنجاز ، ولما كان أمكن الحضم لتبليغ نجاحه بالملل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدركم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة في شروط ملائمة ؟ ولكن النبي لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحواثل الطبيعية والانسانية .

وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضي فكانتا ، كانتا فتيتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور ، تقلنا العالم كله من حال الى حال آخر ، لا صورتين وهيتين لم نلبثنا أن انحلتا بعد وفاة موجدتهما ولم تتركنا أثرًا .

فإذا كان في تكوينهما على خلاف السن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتناعي أمامه حائرًا ، فإن في بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانياً ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يصممها البناء حيث أراد ، لاحقاً بعضها ببعض بالملأط ، فيشيد منها قصرًا على النظام الذي وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات ماقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمساك الذي يجمع بينها مؤلف من رُبط معنوية تترك في تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هذه العوامل مئات الألوف من الآحاد في وحدة لا انفصام لها ، اعتري هذه القمام التشكك ، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطراباً لا اختياراً في آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتتفاعل جميع أعضائه في اتجاه واحد ، وعلى قرار واحد ، لا يسأل عضو عضواً لم تحرك .

فتخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين الى هذا الضرب من التكامل مع تخالف آحادها في أخلاقهم وعقلياتهم وتقسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فإذا رأيت أمماً قائمة ولم يصادف قادتها أثر من الحوائل ، فاذك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعي يجري على أدوار متعاقبة ، في آماد طويلة ، تنفقها الطبيعة في التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا يصيبها في قالب واحد ، فهذا عمل ، ولكن بإخصائها لنظام تعاوني يحول تصادمها الضار الى تكامل مفيد للجماعة كما هو مشاهد في كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعي البطيء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من نباتات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التنافس الى وحدة اجتماعية يسودها التكامل والترافد من غير الطريق التدريجي التي تسلكها الطبيعة في إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهي لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الواضح بحيث أن الله نبه العقول الى إعجازه ، ونوه عنه بمبارة تفنن من عظم شأنه ، فقال تعالى : « هو الذي أبدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنقذت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

تأمل في قوله تعالى : « لو أنقذت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم » ، نجد فيه إشارة صريحة يدرکها أولو العلم اليوم على النحو الذي ذكرناه هنا . فإن الذي يؤلف القلوب ، ويوحد

بين مطالبها ، وبوجهها وجهة واحدة ، هي العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المنغريات المادية التي تزول آثارها يزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز في عمل النبي صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتألف الى أبعاد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها النفس . ودحوها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فضلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتبيها النفس لقبول آثارها ، والقيام على أساسها (١) . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعافدة المناصر ، محكمة الأواصر ، متكاملة الطبقات ، مترعة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشتيمها غشمة المنقلب ، وسيطرة المنحكم ، ومحجب القوى المنتصر ، وبني الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فإذا ألانث النبوة الحديد ، وغرقت الماء من الصباغيد (٢) ، وأحييت الموتى بعد أن اخترتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجريئة . فهذه الآيات تشكك فيها الباحثون ، وأسكرها الماديون ، ولكن الآيات الحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، مثولها فى تاريخ الأحيال السابقة ، تشهد بأن روحا رايها حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه . ذلك العامل الخفى الذى أحفينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفقه محمد صلى الله عليه وسلم فى روع جماعته (٣) ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالها كأنها ولدت مفعورة عليه .

هذا التحليل قد يحد فيه بعض الخصوم قرجة يتفحصون منها للفض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت الى الايمان ، فقد أمكن تعليلها بملحة طبيعية ، لأن الايمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثة المتأصلة ، فيسوقها الى الأغراض التى 'نوحه' إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها الى أى الجهات أراد .

(١) أساس جمع أسس ( بفتح ) وهى بمعنى الاس ( مثله ) والاساس . وجمع الاس أساس ( بكسر الاول ) . وجمع الاساس أسس ( بفتح ) . (٢) الصخرة الصبيخود هى التى لا تسلم منها السائل . (٣) الروع ( بضم واو ) : القلب والذهن والعقل . والروع ( بفتح ) : الفزع .

تقول : مهلا مهلا ، فإن في طي هذه المسألة أمرا يعتبر في أرفع درجات الاعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا ( الإيمان ) ، فعل المخلص قبل أن يمضي قدما في التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبي أن يثبت في قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورنوه من عقائدهم ، وما جندوا عليه من وساوسهم ، وأن يتفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا في سويداء قلوبهم ، ولا نفس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايح ما كانوا عليه من ناحية من النواحي ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولأمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

كانوا معادين للألهة ، فجاءهم بالتوحيد .

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .

كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل .

كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .

كانوا قائمين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فغفرم لتنور عالم الروح .

كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .

كانوا يأخذون بالظنون ، فأصرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .

كانوا راضين بالجهل ، فحضرهم على طلب العلم .

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالإيمان الذي يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لا يسها من الأصول التي صارت بتوالي توارثها في الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر إليه نظرا إلى الأمور العادية ، فنعمل به ما نريد أن نعمله ، ونغضى غير مكترئين له . لأن مثل هذا ( الإيمان ) الذي يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال ، لا يمكن أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوي في أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ، وما نشاهده في الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد يج صوت الهداة والمرشدين في كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعويين لا ( إيمان ) لهم بهؤلاء الدعاة .

تقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور الى مسألتنا الأولى وهي الإيمان . فما الذي قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه في القلوب هذا الإيمان الراسخ الذي تمكن به من صب نفسية أمة برمتها في قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟ قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فمليكم أن تصبروا لنا كيف وصل محمد الى بث ( الإيمان ) بنبوته في هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك الى التحكم في تكييفها ، حتى حولها من حال الى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل الى زمامة العالم كله في سنين معدودة ؟ المسألة خطيرة ، خطيرة الى أبعد حدود اليأس . وهي في هذا المأزق لتصبح أقرب الى الحل منها وهي على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تذكره إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسية لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فصيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذي يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالاً ، لا يعقل أن يكون إلا الى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ، ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة محل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قوية ، تتأدى في سنين قليلة الى سيادة الأرض ، ناشرة حولها صممة زكية ، وصينا ممدوياً ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يوسف فيه من قيود العبودية ، ويروح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحققة تثمر ثمراتها في الجماعات التي تحمل بها ، دون أن تستطيع أية قوة صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .  
نعم إن النبوات تلاقى عقبات كاداء في طريقها ، ولكنها تتغلب عليها في النهاية كما قال الله تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لسكناات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين »

#### الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الاعجاز ( بإيمان ) راسخ بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم ، بمد أن ظهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش في صميم روهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه مادة إلا بعد تطورات متعاقبة في آماد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق في علمه من الانقلابات العالمية التي كان العالم في أشد الحاجة إليها . بقي علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت في الأدوار التي سبقت إليها تحت هداية الوحي ، وقروامة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولي التوفيق ؟

محمد فريد وجدي



# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تలాها ، والنهار إذا تجلاها ، والليل إذا يشأها » :

قلنا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلغت الأنظار الى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومريد حكمته ، فتراه يقول : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » ، ويقول : « وهو الذي جعل لكم الليل والنهار والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً » ، ويقول : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون » ، ويقول : « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُنصِراً » . وهذا كثير جداً في القرآن الشريف . يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقتها ، وينبه العقول من غفلتها ، الى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى أدنى الى الانسان من النفس .

ولذا ذكر لك بعض ما قال العلماء في هذا المقام ، نحاول بذلك تثبيت إيمانك ، وتتميم إيمانك ، فنقول .

انظر الى هاتين الآيتين « الليل والنهار » وما تضمنتهما من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً يفتش العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى إليه الحيوانات الى بيوتها ، والخيول الى أوكارها ، لتستريح فيه ، وتستريح من كد السعي والتمسك ، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها ، واستعدت الى معاشها وتصرفها ، جاء فلق الصباح سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومرفها تمزيقاً ، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف الانسان في معاشه ومصلحه ، وخرجت الطيور من أوكارها . فباله من تدير حكيم ، وعمل عظيم ! ولكن تكرر كل يوم أسقط وقعه في القلوب فلم تفعل به النفوس ، لأن كل ما كثرت مشاهدته ضعف التأثير والانشغاف اليه ، فسبحان من لا ضعف في قدرته ، ولا قصور في حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي

من يشاء . بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يُسمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الانسان في الماء الى خلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » !

ثم تأمل بعد ذلك - رعاك الله - حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لا إقامة دولتي الليل والنهار ، ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في مما يشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟

ثم تأمل الحكمة في غروبهما ، فانه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى النوم ، وجوم الحواس . ومن البين أنه لولا الغروب لسكنت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات ، فصارت تطلع وقتنا بمنزلة السراج يرفع لاهل البيت ليقضوا حوائجهم ، ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة الى نوره ليقروا ويهدوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادها ، متعاقبين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى الى هذا المعنى مبها عليه ، لافتنا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون » . وقال في السورة الأخرى : « تبارك الذي جعل في السماء رجلاً ، وجعل فيها سراجاً وقرأ منيراً . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يحلف الآخر ، بل يغشى أحدهما صاحبه قبضه حتى يزله عن سلطانه أيضاً .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لا إقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لغابت مصالح الفصول الباقية فيه ، فلو كان صيفاً كله لغابت منافع الشتاء ، ولو كان شتاءً لغابت منافع الصيف ، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله . ففي الشتاء تنجى الحرارة في بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الطواهر ، ويستكشف الهواء ، ويكثر السحاب والمطر ، والثلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلتته حرارة الصيف من الأبدان . وفي الربيع تنحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ، فيظهر النور والحر بالبحر ، وتنحرك الحيوان للتناسل . وفي الصيف يمتد الهواء ويسخن جداً ، فتتضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء ، وتغيب البرودة وتهرب الى الأجواف ، ولهذا



تبرد الميوز والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون ؛ فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وازارت البرودة فيه . فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان ، وصفا الهواء ويرد ، فأنكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخاً بين عموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد الشديد فيمظم أذاها ؛ أما إذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدرج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن التالفين !

وتأمل حكمته تعالى في سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فإنه لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تمسده لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم ، فيمسخ هؤلاء هؤلاء . فانقضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها في أول النهار ، فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم . ولتقف هنا اليوم ، وموعدا العدد الآتي إن شاء الله ، والمقام مقام إطناب ، سالكن في ذلك مسلك القرآن ، مشدين قول القائل :

وحدثني يا سعد عنهم فردني شعوا فردني من حديثك يا سعد  
هوام هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

يوسف الرجوى

عضو جماعة كبار العلماء

## هل يفسد الزمان؟

اعتاد الناس إذا رأوا شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وفاحشة فاشية ، أن يقولوا : قد فسد الزمان . والزمان لا يفسد ولكن يفسد أهله ، كما هو ظاهر لا يحتاج الى دليل ، فإذا تطلبوا الرشد فليصلحوا أنفسهم وإلا حقت عليهم السكامة التي حقت على الأمم البائدة . وقد أدرك هذه الحقيقة الأصمعي قبل أكثر من ألف سنة فقال :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يعددان ولكن يفسد الناس

# الْعَشْرَةُ

## العدل

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يقكّه إلا العدل » . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالاً . (٢) بيان معنى العدل . (٣) آكار العدل بين الناس ، وفضل من عدل .

(١) الغرض من هذا الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من المظالم والاستهانة بالحقوق المنوطة بهم ، وإلا كانوا من الظالمين الذين يستحقون العقوبات التي ذكرناها في المقال الذي قبل هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة إلخ » ليس الغرض منه تحديد هذا العدد كما هو معروف من الأحاديث الأخرى ؛ فقد وردت أحاديث صحيحة تدل على وجوب العدل مع كل مرءوس ولو كان واحداً ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ومسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيته ، والخدام راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخاري ومسلم . فهذا الحديث صريح في أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال ، سواء كان مع نفسه أو مع غيره ولو كان واحداً . وسيأتي في تعريف معنى العدل بيان هذا . وإنما اقتصر الحديث الذي معنا على ذكر العشرة لأن هذا العدد كان أقل عدد يرأسه أمير غالباً عند العرب . وقد ورد ما يدل على ذلك في الأحاديث الصحيحة . فمن ذلك ما روى البخاري معناه في حديث طعام أبي بكر الذي كان أعده ليمض فقراء أهل الصفة فأكلوا منه ولم ينقص شيئاً ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده وفود من قبائل العرب ، فأمر أبا بكر بإحضاره وقدمه لمؤلاة الوفود وأجلس عليه كل عشرة مع رئيسهم ، فأكلوا جميعاً حتى شبعوا . وهكذا ، فقد كان عدد العشرة هو أقل عدد يستحق أن يكون له رئيس .

أما قوله : « إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً » فعناه أنه يؤتى به وهو مقيد بقيد من حديد في عنقه أو في يده . يقال : غله غُلًّا بالضم ، إذا وضع في رقبته أو في يده غُلًّا من حديد . وقد يقال إن هذا بظاهره يتناقى الأحاديث التي تدل على أن الإمام العادل يكون محملاً بمنية الله تعالى ومشمولاً برحمته من أول الأمر ، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وأول هؤلاء السبعة الإمام العادل ، فكيف يتفق هذا مع ظاهر هذا الحديث الذي يفيد أن كل أمير عشرة يؤتى به مغلول اليدين والعنق ، وفي ذلك من الإهانة والتعذيب ما لا يخفى ؟

والجواب : أن معنى الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من الظلم ، وحثهم على العدل . فالذي يؤتى به مغلولاً إنما هو الظالمون .

ومعنى « لا يفكه إلا العدل » : أن العادلين آمنون من هذه الإهانة ، بل هم منعمون من أول أمرهم لأنهم متصفون بالعدل ، وما دام العدل ملازماً لهم فهم منفكون عن كل ما يصيب الظالمين من جزاء . فالعدل وقاية لهم من كل ما يحس الظالمين من عقاب ، ووسيلة للنعم الخالد وحسن الجزاء .

أما معنى العدل فهو معروف بين الناس ، وهو ضد الجور والظلم ، ولكن علماء الأخلاق بحثوا في معنى العدل بحثاً دقيقاً ، فقالوا : إنه صفة من صفات النفس الخلقية الفاضلة التي يترتب عليها أداء الحقوق المشروعة لمستحقيها كاملة ، بحيث لا يظلم أحد في شيء من الأشياء التي أقرها له الدين وجعلها مقصورة عليه . وهذه الصفة الخلقية الفاضلة تظهر آثارها في ثلاث قوى نفسية : وهي القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العقلية . ولهذا عرفوا العدل بأنه التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في هذه القوى ، فحي اعتدلت هذه القوى كان صاحبها عادلاً . مثال التوسط في الشهوات هو أن يقف معها عند الحد الذي أمر به الدين والعقل ، فلا تحمله شهوته على الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم ، ولا تذهب به إلى ما يضره في حلقه أو دينه أو بدنه ؛ ولا تحمله على ما نهاه عنه الدين من حقد وحسد وغير ذلك . فمن فوسط في هذه الشهوة سواء كانت شهوة جاه أو مال ، أو منصب أو لذة من اللذات البدنية ، واقتصر على ما هو مشروع منها ، فقد ملك زمام العدل مع نفسه ومع الناس . أما إذا طغت عليه شهوته حملته على الخروج عما أمره الله به ، وزينت له الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وحقوقهم العامة أو الخاصة ، فقد باء بأقبح الآثام وكان من الظالمين الطاغين . هذا هو نتيجة الإفراط في الشهوات ، ويسمى عند علماء الأخلاق خلاعة أو مجنوناً .

وأما الإفراط في ترك الشهوات الطبيعية التي خلقها الله تعالى لمصالح وحكم ، كإهمال الجسم من الغذاء الحلال الضروري والنظافة وغيرها ، فانه يترتب عليه السقم الذي يحول بين المرء

وبين أداء وظيفته المطلوبة منه للمجتمع الانساني . ومثل ذلك إهمال شهوة الفرج وإماتها ، وهي مودعة في النوع الانساني لغرض التناسل وتكثير سواد الأمة ، وإعدادها لقيام بها هو مطلوب منها ، الى غير ذلك من المصالح العامة والخاصة التي تقتضيها الشهوات الطبيعية في الانسان . فمن أفرط في شهوته كانت ظالما ، ومن فرط فيها كان جامدا ، ومن توسط كان عادلا .

ومثال التوسط في الغضب ، هو أن يضبط نفسه ولا يطبع غضبه في الخروج عما يقتضيه العقل والدين ، فلا يغضب إلا إذا انتهكت الحرمات العامة أو الخاصة : بأن يتعدى أحد على دينه أو عرضه أو ماله أو نفسه ، أو رأى منكرا من المنكرات التي نهى الله تعالى ورسوله عنها . فالغضب لذلك ممدوح ، ولا بد منه لبقاء النوع الانساني . والتوسط في الغضب يسمى شجاعة ؛ والشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور . ومن كان كذلك فإنه يملك نفسه ويصرفها عن إيذاء الناس وظلمهم ، والتعدي على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ويحمله على إعطاء كل ذي حق حقه ، ويدفع عن نفسه وعن دينه وعرضه عدوان الناس ؛ وبذلك ينجو من طار الجبن ، وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه .

أما الإفراط في الغضب فإنه يترتب عليه أسوأ الآثار وأشنعها ، فإن الذي يحمله غضبه على الخروج عن الدفاع عن هذه الأمور التي أمر الله بصيانتها والدفاع عنها ، يكون ظالما لعماله ، لأنه لا يبالي بأن يؤدي الناس في أموالهم وأعراضهم ، بل وفي أنفسهم ، تشغيا وانتقاما بدون مبرر ، وذلك شر وبيل لا يقره الدين ولا العقل ، ولا يرضاه الله ورسوله .

وأما ترك الغضب فإنه يترتب عليه الجبن وعدم المبالاة بالتعدي على الأعراض والأنفس والأموال ، وذلك خروج عما يقتضيه العقل والدين .

ومثال التوسط في القوة العقلية ، هو أن يقف الانسان مع عقله وتفكيره موقف المتدبر للأمور على ما هي عليه ، المتأمل في أسرار الكون ونظمه وما جاءت به الفرائع الإلهية من حكم واعتقاد . فمن وقف مع عقله هذا الموقف كان متوسطا بين البلادة والغرور . ويشتمل ذلك على ثلاثة أمور : حكمة الاعتقاد ، وحكمة العمل ، وحكمة الأخلاق . وأما حكمة الاعتقاد ، فأولها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به . وهذا متوسط بين رديتين : الأولى نفي الألوهية رأسا ، أو اعتقاد إلهين أحدهما معطل كما تقول التنوية . وأما حكمة العمل فهي أداء الواجبات بلا إفراط أو تفريط ، وهذا متوسط بين ترك العمل رأسا ، والمبالغة فيه ، كما إذا ترك التمتع بما أباحه الله له من حلال طيب . وأما حكمة الأخلاق فهي كالوجود المتوسط بين الإسراف والشح .

فهذا يصح ما ذكره علماء الأخلاق من الفلسفة في تعريف العدل . وقد عرفت أن العدل

معروف بين الناس ؛ وأن كل إنسان يشعر بما يحق له من ظلم وإن تفاوتت مدارك الناس في تقدير الظلم والعدل . فالرئيس الذي يتصرف في دماء الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم العامة والخاصة ، لا يجهل معنى العدل والظلم ، وليس في حاجة الى معرفة هذه الدقائق . وإذا سألته لماذا يظلم هذا لا يعدم مبررا يبرر به ظلمه . ولكن الواقع أن العدل والظلم لا يتخيان على أحد ، وأن الرئيس العادل أو الظالم لا ينجي أمرهما وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

(٣) أما آثار العدل بين الناس ، فهي سعادة المجتمع ، وصلاح أفراده في كل شأن من شئونه . فحق العدل الرئيس القائم على مصالح جماعة من الناس ، وحارب العوامل التي تحول بينه وبين إقامة العدل ، فإنه يكون قد ظفر بالسعادة هو ورعيته التي يحولها بدون نزاع . ولهذا كان قوام الدين الاسلامي في صدر الاسلام ، على رجاله الذين يقومون بالعدل وينوون به في كل صغيرة وكبيرة . فكان الرئيس منهم ينسى شخصه وولده وأعز شيء عليه في سبيل إقامة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه . ولو شئنا أن نذكر أمثلة لتلك من عدل حكام المسلمين الأولين لطلال بنا المقام كثيرا ؛ ولكن لا بأس من أن نورد شيئا من ذلك حتى أن يكون فيه عظة وعبرة للمسلمين الذين نالون حظا من الرئاسة .

فمن ذلك ما روى عن الحسن قال : جرى الى عمر رضى الله عنه بحال فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، فجاءت ، فقالت : يا أمير المؤمنين أشدك حق أنقبائك من هذا المال ، وقد أوصى الله بالآقرين . فقال : يا بنية : حق أنقبائي في مالي ، وأما هذا فال مسلمين ، فحشيت أبك ، ونصحت أقبائك ، قومي ! فقامت والله تخرج ذليها .

ومن ذلك ما روى من أنه رضى الله عنه جمع عماله ، وجمع رؤساء القبائل معهم ، ثم قال لهم : إني والله ما أرسل حمالي إليكم ليضربوا وجوهكم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسفكم ، ويحفظوا أدياءكم وأمرائكم ، ويقسموا بينكم قبضكم ، فمن فعل معه سوى ذلك فليرفعه الي ، فوالذي نفس عمر بيده إذن لأقتنه منه ألف فوطب عمرو ابن العاص أحد الأصماء فقال : يا أمير المؤمنين : أفرئت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأذنب بعض رعيته إنك لمعنه منه ؟ قال : إى والذي نفس عمر بيده إذن لأقتنه منه ألف وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تسموهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تذلوهم الفياض فتضيومهم ( الفياض جمع غيبة ، والغيبة مكان يجتمع فيه الماء ثم يقل فينبث فيه الشجر ) . وكان رضى الله عنه يباشر أحوال رعيته بنفسه ليقم بينهم العدل بقدر ما يستطيع . وكان يؤثر رعيته على نفسه وولده عند زول الشدائد والأحز .

وما نحن بقادرون على أن نذكر في هذا المقام ما كان عليه عمر رضي الله عنه من عدل

شامل لجميع أفراد الرعية . ولكن كان من آثار هذا العدل أن قامت الدولة الإسلامية في عهده على أساس ثابت قد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فقوى الإسلام في عهده ، وانهارت الدولتان اللتان كانتا تسودان العالم يومئذ ، وهما الفرس والرومان .

وبالجمل ، فالدين الإسلامي قد أسس المسلمين بإقامة العدل بينهم أمرا صريحا ، وهدد الظالمين تهديدا شديدا ، ولعنهم لعنا كبيرا ، قال تعالى : « إِنْ أَفْضَى اللَّهُ بِالْإِنْسَانِ بِالْإِحْسَانِ ، وَإِنْ أَفْضَى الْقُرْبَى ، وَبَنَى عَنْ الْقَضَاءِ وَالْمَنْكَرِ وَالْبَغْيِ » . والله يهدي المسلمين إلى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

### الحزم والعزم

يروى عن يزرجهير الوزير الفارسي المشهور أنه قال : إن الحازم إذا أشكل عليه الرأي ، غتره من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها ، وكذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص رأيه . وقال شهاب الدين : كن ذا عزيمة فإن عزائم الرجال تحرك الأسباب .

وقال شاعر :

إذا كنت ذارأي فكُن ذا عزيمة      فإن فساد الرأي ألف يترددا  
وأضاف إليه بعضهم :

إذا كنت ذا عزم فأتقِ هذه طاحلا      فإن فساد العزم ألف يتقيدا  
ووصف أديب عضد الدولة الوزير فقال : وحه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب .

وقال شاعر بمدح ملكا :

عزماته مثل السيوف حوارجا      لو لم يكن للصارمات فلول  
والعزيمة لا تستحق المدح إلا إذا كانت في نصرة حق وإلا كانت عدوانا .



# تاريخ الفقه الإسلامي

## تاريخ الفقه الإسلامي في مصر

- ٦ -

### مذهب الإمام الليث :

ترجمنا في مقالنا السابق لجماعة من علماء القرن الثاني الذين اشتغلوا بالفقه والحديث في مصر رواية وتأليفا وفتيا ، وكان من هؤلاء الذين ترجمنا لهم الامام المصري الأكبر : الليث بن سعد القهبي .

ونريد اليوم أن نعرض لمذهب هذا الامام الجليل من ناحيتين : ناحية العوامل التي أدت الى ضياعه ، وناحية الطامع القهبي الذي كان يتميز به .

### ١ - الأسباب التي أدت الى ضياعه :

لقد قال الامام الشافعي رضى الله عنه في الليث كلمة تتضمن أهم الأسباب التي أدت الى ضياع مذهبه : « هو أفتق من مالك إلا أنه ضيحه أصحابه » . والمنتهج لتاريخ الفقه الإسلامي يعرف أن أصحاب المذاهب لم يضعوا بأنفسهم أسس مذاهبهم بحيث تكون قواعد كلية يترسبها الاتباع ، ويطبّقون أحكامها على المسائل الجزئية ، كما يظن كثير من الناس ؛ ولكن الأمر على عكس ذلك ؛ فالاتباع هم الذين وضعوا القواعد وأسسوا الأسس معتمدين على فتاوى إمامهم ومسائله ، فكثير من الاصطلاحات المذهبية يعرفه الاتباع ولا يعرفه الامام نفسه . ومثلهم في ذلك مثل واضعي النحو والبلاغة : لم يكن العرب الناطقون بالكلام البليغ ، المتفق مع القواعد النحوية والصرفية يعرفون أن هذا فاعل أو أن هذا مفعول ، أو أن هذا مجرد أو مزيد ، أو جامد أو مشق ، أو أن هذا الفصل لكّال الاتصال ، وهذا الوصل لكّال الانقطاع ، ولا أن في هذه العبارة استمارة بالكساية أو استمارة تخيلية ، وهكذا ؛ وإنما هذه أشياء وصحت بعد استقراء الكلام البليغ فجعلت مقاييس للكلام . فكذلك الأئمة المختدون ، كل منهم يفتى برأيه وما ينضج له ملاحظا معنى في نفسه ، ومذكرا له ، يصرح به حيناً ، ويضمره حيناً ، فإذا جاء تلاميذه وتابعوه أرجعوا أقواله وآراءه الى قواعد ودوائر يرمونها للمذهب أخذاً من مجموعة أقوال الامام نفسه ، وربما نافشوه في بعض هذه الأقوال ، أو عقّبوا

عليه في بعض ما رأى من الآراء ، ولا نكاد نجد مذهباً يخرج في جلته عن هذه الطريقة ، إذا استثنينا مذهب الإمام الشافعي الذي وضع بنفسه رسالته المعروفة ، وصنعها كثيراً من قواعد مذهبه .

وبهذا يظهر أن الجانب الأكبر من المسؤولية في ضياع مذهب من المذاهب ، واقع على عاتق الأصحاب والأتباع الذين لم يخدموا المذهب على الطريقة التي وصفنا ، فأدى ذلك إلى بقاءه أقوالاً مبسطة ، وآراء متناثرة ، ومسائل مبثوثة في تضاعيف الكتب من غير بيان لأصلها الذي بنيت عليه ، ومصدرها الذي أخذت منه ، كما هو الشأن في مذهب الإمام الليث رضي الله عنه . على أن الليث لم يرزق بأصحاب من الطراز الأول كما رزق أبو حنيفة بصاحبه : أبي يوسف ومجد ، وكما رزق مالك بأمثال ابن القاسم وأشهب ، وكما رزق الشافعي بأمثال البويطي والمرقي والربيع .

وأكثر الأئمة دوتوا لهم كتباً ، فمالك ألف في المدينة ، وأبو حنيفة وأصحابه ألفوا في العراق ، والشافعي ألف بمصر ، والأوزاعي ألف في الشام ، ولم يؤلف الليث .

وهناك سبب آخر : ذلك أن الحركة الفقهية كانت قائمة على أشدها في الحجاز والعراق والشام ، لأنها كانت حواضر الخلفاء ، ومبسط العلم ، ومقصد الراحلين في طلب العلم ، ومحط أنظار المسلمين ، أما مصر فلم تكن إلى هذا العهد بالبلد التي توحد دينها ولغتها ونظامها ، بل لم يكن المسلمون قد انتشروا بعد في قراها وأقاليمها ، ولم يكن من أهل البلاد من أقبلوا على هذا العلم يدرسونه ويثبثونه إلا قليلاً منهم لا نفى جهوده المفرقة في هذا الشأن الخطير ، ولذلك لم يجد الليث من يتعصب له ، ويهتم بفقهه . ولعل السياسة أيضاً لعبت في ذلك دوراً ، فإن الليث كان رجلاً مهيباً مسموع الكلمة ، يخافه الأمراء ويخشون حسن سلطته بالخلفاء ، وكثيراً ما كتب إلى الخليفة في عامل من عماله فصرفه عن عمله ، بل إنه كان قريباً من منصب الإمارة قرباً جعل بعض المؤرخين يخطئ فيزعم أنه ولي مصر فعلاً حيناً من الزمن ، وهذا القرب ، أو شعير أدق ، هذه الإدارة بمنصب الإمارة ، جعلته موضع دسائس وشائبات ، وجعلت أحد خصومه يكتب إلى الخليفة أبي جعفر المنصور ليقول له :

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكمتها في السر وحدى  
أمير المؤمنين تلاف مصرًا فإن أميرها ليث بن سعد

ولسنا نزم أن ذلك وأمثاله أصاب من نفس الخليفة موقعاً ، أو أُنْجِ أثراً ، ولكننا نقول : إن هذه المرة التي تمتع بها الليث في حياته قد جعلت كثيراً من أهل العلم يُغضون عن خدمة مذهبه من حيث لا يقصدون ، وجعلت كثيراً من الأمراء والولاة يتخفون من ذكره بعد موته كما كانوا يتهيبونه في حياته ، إن لم نقل جعلتهم يصدون عنه ويصرفون عن مذهبه .

وهانحن أولاء نرى الى عهد قريب كيف كانت هيبة الامام محمد عبده وحسن صلته بكبار الرجال سببا في كثير مما أصابه في حياته ، ثم سببا في ضياع كثير من آرائه وأفكاره ؛ ولولا أن الله قبض له تلميذه المخلص المغفور له العلامة السيد رشيد رضا عن أكثر أفكاره بين أعدائه الكارهين وأصدقائه المفرطين ، حسدا أو كسلا .

ولقد كان يحتمل أن تفتر هذه التهمة التي اعترضت مذهب الليث لو كان له أصحاب وتلاميذ مخلصون عنوانه ، واهتموا بمذهبه ، ولو لم تبد في الأفق طلائع المذاهب الفقهية الجديدة الواردة على مصر من الحجاز والمصرق ، والمصريون دائما عشاق ما يرد اليهم ، لا يطرهم زاهرا ، ولا يسلمهم شامرا . . .

هذه هي أهم الأسباب التي ضيقت مذهب الامام الليث ، وتحالفت على كتابه ، وحرمان العلم والفقه الاسلامى منه .

على أن في السكتب المطبوعة وغيرها من فقه الامام الليث طائفة صالحة لو عنت بها هيئة علمية ناشطة لا ستخرجت منها خيرا كثيرا ، ولكننا لم نعرف بعد نظام التعاون العلمى ، وإنشاء الهيئات التي تتخصص لموضوع واحد فتنتج فيه ، وتكتشف له ، كما يفعل علماء الآثار ، مع أن آباءنا الأقدمين هم الذين علموه لأوربا ، وأنشأوه على غير مثال .



تنظر بعد ذلك في الطابع الذي يمتاز به فقه الامام الليث :

هل كان الليث من رجال الرأي أو من رجال الحديث ؟

كان بين مالك والليث رضى الله عنهما مراسلات ومحاورات ، وكانت هذه المراسلات والمحاورات من أبداع ما عرف في التاريخ الاسلامى بين عالم وعالم ، جمعت بين حسن الأدب ، وجمال الأسلوب ، ونزاهة النقد ، والهدوء في المناقشة والجدال ؛ ولو كنا بصدد دراسة أدبية لجلينا هذا الجمال الأدبى ، فلرأى الناس فيه آية من آيات الإبداع ينبغي أن تكون في عصرنا الحاضر من المثل العليا للعلماء والمتأديين ، ولكننا نريد أن نستعاض من هذه المناقشات الهادئة المتزنة طريقة الامام الليث بحسب ؛ ومعروف أن العلماء في ذلك الوقت كانوا بين مدرستين : مدرسة الرأي ، ومدرسة الحديث ، وإن كانت كل مدرسة من هاتين تشعب الى مدارس تتقارب أحيانا وتباعد أحيانا ، فمن أي المدرستين كان الليث ؟ أكان من مدرسة الحديث التي كان رجالها يتمسكون بالنصوص التي تروى ولا يحيدون عن ظواهرها ، ويرون ضعيف الحديث خيرا من جيد الرأي ، أم كان من رجال الرأي الذين يقيسون وينظرون ويتشددون في قبول الأحاديث ؟

لقد كان مالك يأخذ عليه أنه يفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه أهل المدينة ، ويقول له في أدب وتلطف : « إنه يحق عليه الخوف على نفسه ، لا اعتماد من قبله على ما يفتيهم به ، ولأن الناس سمع لأهل المدينة التي كانت إليها المحجرة ، وبها نزل القرآن ، وفي أصحابها بث رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ، وفيهم يقول الله عز وجل : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

فيجيبه الليث بمثل هذا الأسلوب الهادئ : « لقد أصبت بالمدي الذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب ، وما أحد أحداً ينسب إليه العلم أكره لقواد القتيا ، ولا أشد تفصيلا لعملاء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لغتياهم فيما اتفقوا عليه مني . . . ولكن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فحندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتفوا شيئا علموه ؛ وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجهدون رأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا فاعلين عنهم ، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لأقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسرهم القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم أو اتهموا فيه بعده إلا علموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا زاه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا في أشياء كثيرة ، ثم اختلف التابعون ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم . . . وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كان به بعضنا فرمما كتب إليه في الشيء الواحد على فضل علمه ورأيه بثلاثة أنواع يتقضى بعضها بعضا ، ولا يشمر بالذي مضى من رأيه في ذلك ، فهو الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه » .

فأليت إذا من رجال الحديث كما لك ، ولكنه لا يرى ما يراه من الاعتماد بعمل أهل المدينة إلا فيما أجمع عليه المتقدمون منهم ؛ أما فيما عدا ذلك فقد انبث في الأمصار أصحاب مضت لهم فيها سنة وعمل مستندان من غير شك إلى سنة من الرسول وعمل كما استند أهل المدينة ؛ ولئن كان أبو بكر وعمر وعثمان في المدينة ، ولهم يعرف أهلها وعملهم صلة وعهد ، لقد كانوا أيضا يكتبون إلى أجناد المسلمين حتى في الأمر اليسير حذرا من الاختلاف بكتاب

الله وسنة نبيه ، فالأمر إذاً بين أهل المدينة وغيرهم من الأصحاب على سواء ، وكل ما ينفي على الفقيه ، أن ينقد وينظر ، ويقارن ويتبصر ، ليخرج من معتك الآراء والفناوى والروايات الى ما هو أشبه بالحق ، وأقرب الى الصواب .

هذا هو المعنى الذى أراد الله أن يقنع به مالكا ، رضى الله عنهما . ولعلنا نأتى فى مقالنا الآتى إن شاء الله بشواهد من جزئيات الفقه تشهد له وتدل عليه .

محمد محمد المرنى  
المدرس بكلية الشريعة

## فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، ولا يعقل أنه يوجد مقام أرفع من هذا المقام . وقد صدق الحسن البصرى رضى الله عنه حيث قال : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة . وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : احتمال الصبر عند البلية ، أسلم من إطفائها بالمشقة .

نقول : هذا كلام يوم أن من ابتلى بنازلة وجب عليه أن يصبر عليها ، وأن لا يعمل لتفهمها ، وليس هذا مراد على بن الحسين ، وإنما مراده أن يعلم الناس أن الصبر صفة يجب أن يحرص عليها كما كانت شديدة على النفس ، فقد تكون أخف عليها من التوفر على دفع البلية نفسها . وإنما يطلب الصبر فى المواطن التى لا يجدى فيها غيره ، فالصبر فى وطيس الحرب من الضرورات وإلا انقلب الدفاع الى هزيمة منكرة ، والهزيمة يقبها الوقوع فى أسر العدو . ويحسن الصبر فى المرض ، لا بترك العلاج ، ولكن ترك الجزع الذى تكون نتيجته زيادة إعداد البنية لقبول أفاعيل الداء .

فالصبر معناه توطيد الحالة المنوية فنفس المصمود لبلايا التى لا مقر منها فى الحياة ، لا استعصار البلادة إزاء كل بلية وتركها تفعل ما تشاء .

# صَفِيحَةُ الْفَحْمَةِ الْأَفْطَالِيَّةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ

## الديانة صلاة القلب

مترجمة من كتاب فلسفة الدين لفيلسوف أجوست سبانييه

أستاذ الفلسفة بجامعة باريس (١)

« إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفا . فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة ، تنشئها الروح المكروية بينها وبين القدرة الخفية التي أشعر هي أنها تابعة لها ، وأن مقدوراتها نمت مشيئتها . فالصلة هي الدين في حالة العمل ، أي هي الدين الحق . فالصلة هي التي تميز الظاهرة الدينية من كل الظواهر التي تشبهها أو تحاورها ، كالشعور بالأدب ، والشعور بالجمال . فإذا كان الدين حاجة عملية للإنسان فتوفيقها لا تكون إلا عملية كذلك . غاية نظرية لا تكون كافية في هذا الموطن . لأن الدين لا يكون شيئا يعتد به إذا لم يكن عملا حيويا بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجائها إلى أصلها الذي تنزلت منه . وهذا العمل هو الصلاة . وهي كما أعنيها ليست التلطف بكلمات ، أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الإنسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها اسما . حيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين . وعلى العكس حيث تتبع هذه الصلاة وتحرك الروح حتى في غيبة أي شكل من الأشكال وأي مذهب مقرر ، فهناك دين حتى بمصاه الصحيح . وبناء على هذا فإن إيراد تاريخ الصلاة يعتبر أحسن تاريخ لتولد الدين في النفس الانسانية . وقد رأيت أن هذا التاريخ قد بدأ بالصلاة في أحسن أشكالها ، وانتهى بالصلاة على أكل حالاتها على شفتي عيسى ، وهي لم تكن تسمى إلا الخضوع لله والثقة باراته الأبوية ( يطبق هذا الكلام على قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ) .

ولهذا التعريف التعبيري للدين مزية إصلاح تعريف ( شلاير ماكر (٢) ) وتكميله . لأنه يوفق بين العنصرين المتضادين اللذين يؤلفان العاطفة الدينية ، وهما العنصر المتفعل والعنصر الفاعل ، أي الشعور بالتبعية والشعور بالحسرة . فالصلة بنبوعها من شعورنا بالعاقبة والقهر تخلفنا

(١) راجع ما ترجم من كتابه بالصفحات من ٣٧٦ إلى ٣٧٩ ومن ٤٠٤ إلى ٤٠٧ من هذا الجلد .

(٢) ( Scheremfcher ) شلاير ماكر - فيلسوف ألمانى مشهور ( ١٧٦٨ - ١٨٣٤ ) .

منهما لأنها تقتضي الخضوع والإيمان ، فاما الخضوع فهو يجعلنا نلتم بقبيعتنا ونرضى بها ، وأما الإيمان فيحول تبعيتنا الى حرية . ومن ناحية أخرى فإن هذين العنصرين يقابلان قطبي الحياة الدينية ، لأن الانسان في كل تقوى حقيقية يسجد أمام القدرة العليا التي تحيط به ، ثم ينهض حاصلًا على شعور بالخلاص من الأسر ، وبالوفاق مع الله جل وعز . ولكن (شلاير ماكر) قد أخطأ بمدم اعتماده إلا على ناحية التسليم لحسب ، ولم يستطع بمد ذلك أن يخاص من مذهب وحدة الوجود ليصل الى باحة الحرية ، ولا أن يجد أي ارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأدبية . وعلى هذا فالدين عمل حر تقدر ما هو شعور بالنهية . وهذه طبيعة الصلاة وخاصتها في تحويلها كل شيء عن حالته . فالشعور الساقط الذي كان اعترافى عقب هزيمتي ، انتلب شمورا بالفرح لا تنصاري . وكل حالة من الحالات تستحيل الى ضدها ، بحيث إن الانسان المتدين يعيش في طاعة حرة ، وفي حرية طائعة ، في وقت واحد .

« فإذا كان الدين في أكثر الأحيان قد استعمل قوة القهر ، وأداة للاستعداد ، فقد كان أيضا في أكثر الأحيان على الأقل أصلا لجميع الحريات . فالقوة التي تستطيع أن تدينني هي نفسها تستطيع أن تقيمني ، لأنها تمر بروحي . والإله الذي أعبدته سيصير لي في النهاية الإله الساطع الذي يدفع عني كل مخافة ، ويضعني فوق جميع التهديدات المادية . فتحقيق وجود الله في روعي على علم مني بذلك ، هو الخلاص الحقيقي لثباتي ولحياتي .

« لقد عرفت الآن لماذا الديانة الطبيعية تنصر عن أن تكون ديانة . ذلك لأنها تحرم الانسان من الصلاة ، فتدفع الله والانسان بعيدين أحدهما عن الآخر ، فلا تكون بينهما صلة صميمية ، ولا مخاطبة باطنية ، ولا مبادلة بينهما ، ولا عمل إلهي في الانسان ، ولا رجوع من الانسان الى الله . وإذا تعمقت في جوهر هذه الديانة وحدثها حزنا من الفلسفة ، ولدت على عهد سلطان المذهب العقلي (الراسيوناليسم) (١) ، والعمل النقدي ، والتعقل الشخصي ، فهي تجريد فلسفي ، ولم تكن شيئا أكثر من هذا . وأصولها الثلاثة هي وجود الله ، وخلود الروح ، وأداء الواجب ، ليست إلا مواد تُغلية لأرواح فيها ، بقيت في طاع البوتقة التي ذابت فيها جميع الديانات المادية . فهذه الديانة التي تزعم أنها طبيعية لم يصادفها أحد في الطبيعة ، ومعنى هذا أنها لا طبيعية ولا دينية . ولما كانت صناعية وميتة ، فلم تكد تترك شيئا يلحظ فيه أنه من الخصائص الدينية . وقد ظهر في زمن من الأزمان أن من مزايها مناعتها ضد النقد العلمي ، ولكن بامتحناتها ظهر أنها أقل مقاومة للنقد العلمي من أي دين آخر . والعلة التي أوجدتها هي التي تنوئ الآن هدمها ، وأصولها قد أصبحت لليوم أشد تعرضا لخطر الدحض أمام الفكر الراهن ، من أصول الأديان التي كانت ترجو أن تحمل مهلا .

(١) الراسيوناليسم Rationalisme مذهب فلسفي يسخر الوحي ، ويدعي تبديل كل شيء بالعقل ، وأن الآراء تنوئ من العقل مباشرة لا من التجربة .

## نتيجة ما تقدم :

« علام كنا نبحت عندما بدأنا هذه الأفكار ؟ كنا نريد من هذا البحث أن تفهم الضرورة التي تولد الدين في قلب الإنسان ، وتطبع ألقاظ الصلاة على شفثيه . يلوحي أن الضرورة في تلك الساعة نصير أظهر ما تكون لضميري ، وعلى حال لا يمكن دفعها . لأن أشعر أنها تأتي من مصدر أبعد من نفسي ، ومن ثقافة أعلى من ثقافتى ، ومن عادة أرفع من عاداتى وعادات أسلافى . فلا أجل اكتشاف أصلها وجب علينا الصعود الى مصدر الحياة العقلية ، والوصول الى ذلك التصاد الأساسى الذى تتألف منه وتنمو فيه ولا يلث حتى يزول : فالديانة هى الصلاة الباطنية والغلاص . وهى من نوازم الإنسان الى حد أنه لا يستطيع أن يقتلها من قلبه ، إلا إذا حكم على نفسه أن ينفصل عن نفسه ، وأن يلائق فى ذاته كل خصائص الانسانية .

« هنا قد يعترض علينا ممترض فيقول : إذا كان الأمر كما تقولون فكيف يوجد هذا العدد الكبير من رجال غير متدينين وملحدين ؟

« ونحن نجيبه بقولنا : أليس من الوم أن نطن وجود عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدين ؟ إن الناس ليغلطون ، وخاصة فى بلادنا ، بين الجهافة الظاهرة لصورة من صور الدين ، أو لعقيدة من عقائده ، أو لمذهب من مذاهبه ، أو لتقليد من تقاليده ، وبين الإلحاد واللا دينية ؛ وهذا خطأ كبير . فكم رجل من هؤلاء الثائرين لا يتبع ديناً من الأديان تديناً ، بل منهم من قطعوا علاقتهم بالصور الدينية العامة ، عندما أحسوا ببقطة روح دينية فى نفوسهم أعلى وأكثر تجرداً من المصالح المادية من الأديان الموجودة بين أيديهم . ومحداتانى الى عدد من هذه الأرواح التي يقال عنها إنها مجردة من العقيدة ، وقد يخيل إليها هى أيضا أنها غير متدينة ، وجدت دائماً أن الناس لا يستمدون من هؤلاء إلا بما يسكرون بدون نظر الى ما شبتوتونه . فالرجل الذى يعلن بأنه كافر ، هو فى الحقيقة ليس بكافر إلا بالاله الذى يعتقد به غيره . فهو ينكر إله قسيسه أو كاهنه ، وإله طقوسه أو إله جيرانه ؛ ولكن تأمله جيداً تجد أن له إلهاً لا تدركه الابصار فى صميم روحه ، يعبد به باسم خاص به ، ويجود بنفسه كل يوم فى سبيله . وإذا لم يكن هذا الإله مالياً ، كان وأسفاً إلهاً منحنطاً غليظاً . فيستحيل على الإنسان أن يعيش بدون أن يخرج عن نفسه ، وأن لا يهبها لشيء من الأشياء . وليس شئ أكثر محالاً من اعتبار أن هناك تمازجاً بين الاعتقاد بإله لا تدركه الابصار ، حاضر وقصال على الدوام ، وبين الحياة العليا للعقل الذى يعمل القوى فى الخفاء يوجد العقيدة بالله فينا . فبأيها السدل وبأيها الرحمة التي نخدمهما ونسمى لتحقيقهما جميع الأرواح الخيرة ، وبأيها الحقيقة التي يبحث عنها الفلاسفة والعلماء ، وبأيها الجمال الجذاب الذى يترامى لنا سم يفر على الدوام ، ويتعقبه ويعبده الفنانون : ماذا أنتر جيماً إذا لم تكونى وجوها متعددة لهذا الهيكل الباطن القائم



في صميم كل ضمير إنساني ، الهيكمل الذي ينوحه به كل إنسان الى الإله الذي ليس له اسم ، مهتديا إليه أحسن ما لديه من روحه ومن حياته .

لا يوجد في الواقع إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد : ذلك هو الصنف الفسحل (١) الذي يتخذ من فسُولته سلافا وسنارا في آن واحد لحياة قوامها الآثرة الوحشية المتفشرة . إذاً لا توجد لا دينية حقيقية إلا تلك الحالة النفسية القاحلة المحرقة التي يتولد منها على الدوام السخر والازدراء ، ذلك المذهب الذي يهزأ أصحابه بكل شيء . ويزدرونه ، وهو المذهب الذي صممه (جول لومتر) بالاستهزائية . وفي هذا أي تأكيد مؤثر لجميع ما قلناه . فصحيح إذن أن من يهزأ بالعقيدة في الله يجب أن يبدأ بالاستهزاء بنفسه . وصحيح أيضا أن في العيش مع الآثرة والمادية ، لا يمكن أن يوجد سبب كاف للاستمرار في الحياة . وصحيح كذلك أنه لأجل نقاء الشخصية وعدم انطوائها في الظلام الدامس ، يجب أن يتضاعف الشعور بالذات في باطن الشخصية ، أريد بذلك أن أقول : يجب أن يتضاعف بالشعور بوجود الله .

و إذا كان الأمر كذلك فاني لا أتردد في القول بأنني لا أريد أن أعتزل العالم في فكرة خالصة من جميع العلاقات وجميع الواجبات ، فان تكافلا أخويا ارتبطنى قبل أن أوجد على هذه الأرض . فانا واحد من أفراد القافلة الانسانية ، ولن أنفصل عنها ، وسأسير في طريقها ، وسأشاطرها آلامها وآمالها ، وسأقول لها : « إن إلهك هو إلهي ، وإيمانك هو إيماني » ، وسأجتاز مع هذه السيارة الكبيرة المسكينة (٢) الصحارى والقفار ، وإن لم أن أكون ضحية السراب الذي يخادعها ، فسأنجيه معها نحو الأفق الذي ينالني فيه ذلك الكوكب العجيب الذي يهديها ويمنحها . جملة القول : أني متدين لأنني إنسان ولا أستطيع أن أفر من الانسانية .

### رأينا في هذا البحث الخطير

عربنا هذا البحث الفلسفي الخطير للاستاذ الكبير ( اجوست سباتييه ) مدروس الفلسفة في جامعة باريس ، وهو كما رأى القراء يرمي الى إثبات أن الدين فطري في النفس البشرية ، وأنها لا معدى لها منه ، وأن الانسانية لا يكون لها معنى إذا تجردت منه . وهذا يوافق ما قرره الاسلام من كل وجه . ولا يخفى ما مثل هذا البحث من الآثار في تأييد دين الفطرة في هذا العهد الذي امتلأت فيه الصدور بالشكوك ، وطمست الشبهات حتى أخذت يحسُنُّ العقول (٣) .

(١) الفسحل : الرجل الرذل الذي لاسروده له ولاجلد ، وذلك : فعل يشل فساة ومسولة ، على وزن كرم .

(٢) السيارة : القافلة ، وأصلها القوم يسرون . قال الله تعالى : « يلتقط بعض السيارة » أي بعض القوم يسرون .

(٣) الخنثى : موضع جبل الخنثى من التنى .

وقد حرصنا على توفية مبدأ الترجمة الحرفية حقه ، رغمًا عما في البحث من تسامح في التعبير ألفته الفلاسفة الغربية وجرت عليه ، وهو ديدتنا في كل ما نقله عن الترجمة ، ليقين منه رأيهم الصحيح ، ويتضح صريح ما يكتبون .

وهنا يحسن أن ننبه القارئ إلى أن كتاب الأستاذ أجوست سباتيه واحد من بضعة مؤلفات قال عنها المقاد إنه يرجع إليها الفصل في إيقاظ العاطفة الدينية في القرن العشرين .

على أني ألاحظ على الأستاذ المؤلف إسرافه في تقدير عدد المندينين ، وفي الخلط بين الإله الحق وإله الهوى الذي يخضع له الأكثرون ، ولكنهم لا يعتبرونه إلهًا . فقل هذا الإطلاق لو سمح به في الشر فلا يُسمح به في تحقيق فلسفي محقق كالذي نحن بصدده .

يقول الأستاذ سباتيه : إن من الوهم أن نظن أنه يوجد عدد كبير من الناس غير مننديين وملحدون ، ويضرب لنا مثلاً بمن يكفرون بالله طقوئهم أو إله جيرانهم ، ولهم إله لا ندركه الأبصار في صميم أرواحهم بوجودهم بأنفسهم في سبيله .

هذا حسن ولا نجادل فيه ، وفي رأينا أن هؤلاء أفذاذ فيمن يصرحون بأنهم لا دينيون ، ولكن أكثرهم لا يعلنون سريرتهم ويقولون معدودين من الملل التي نشأوا فيها ، مكتفين بالترفع مما وقع فيه العامة من التجسيد والتشبيه ، وعازيه إلى جهلهم وطمئنتهم ، ومتراضين بحيداهم عن القصد أن يزول عندما ينتشر فيهم العلم ، وتثير بصائرهم الفلسفة .

أما الذين اتخذوا لهم إلهًا متحطًا غليظًا ، فلا يصح أن يوصفوا بالندين ، لأنهم يعرفون جيدًا أن هذا الإله المنحط القليظ هو هوام ، فإذا كانوا وهبوه أنفسهم فهم يعترفون بأن ذلك سيوصلهم إلى سوء المنقلب . وهذه الحالة ليست من الندين في شيء ، ولا تؤدي إلى ما يؤدي إليه الإخبات والخشوع ، والشعور بالنسبة لقيوم السموات والأرض .

وقول الأستاذ : « لا يوجد في الحقيقة إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد ، هو الصنف القليل الذي يتخذ من فسولته سلاحًا وستارًا في آن واحد لحياة قوامها الآخرة الوحشية المنفسرة » ، فهو صحيح ، ولكنني أحالف الأستاذ في ذهابه إلى أنه قليل العدد . نعم ، إنه كان كذلك في القرون الماضية ، أيام كان الدين السلطان المطلق على القلوب والعقول ، أي إلى ما قبل نحو ثلاثة قرون ، ولكنه بعد ذلك بدأ يكثر تحت قيادة علماء حاكروا المعتقدات إلى المقررات العلمية ، وأثبتوا عجائتها لها من كل وجه ، ونفروا ما كتموه بين العامة ، فأنكروه أولاً وتقرروا منه ، ثم أنفوه وأساغوه ، ثم هاموا به وتدھوا فيه ، حتى أصبح اليوم دين أكثر المتمدنين . فإذا كما نبحث عن الدين الآن ، فمن نعمد إلى كيار العقول أمثال أجوست سباتيه من أقطاب المفكرين ، لا إلى الأوساط الذين تشبهوا بالبدائي المادية وجدوا عليها ، متابعين في ذلك ما كتبه خصوم الدين في القرون الثلاثة الأخيرة .

ولا أخفى القراء أني مهما أظهرت إعجابي بالتحليل النفساني الذي قام به الأستاذ اجوست سبانييه ، وأندت به أن التدين هو معنى الانسانية ولا إنسانية بدونه ، فاني لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأتي النفوس من ناحية المستور الذي سنه وأصبح العمل به ضربة لا زب على العقول .

ذلك أن العلم قد غرس في النفسية البشرية في المهد الحديث ، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس ، لا يمكن أن يؤدي إلى اليقين الذي تثلج عليه الصدور ، وتطمئن إليه القلوب . فهما تأدي الإنسان بواسطة التحليلات المدققة إلى نتائج ، فانها لا تخرج عن كونها من المعقولات التي يموزها الدليل المحسوس . ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملي إلا إذا وصلت إلى درجة اليقين ، ونحن في هذه الحالة النفسية للمعاصرين ، الذين يتطلبون الدليل المحسوس ، ولا شيء غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين في هذا المهد يحتاج إلى هذا الدليل المحسوس .

ليس الحصول على الدليل المحسوس في الشئون الاعتقادية في هذا العصر من الصعوبة في الدرجة التي يتوهمها الأكثرون ، فيكنى فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العملية ، لا من طريق الأدلة الحسية ، واكتسبت بالجرى عليها صمة المقررات البقلية وما هي منها في شيء .

هذه العقيدة السلبية هي أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الانسانية ، ولا شيء فوقه أو وراءه يدبره وينحكم فيه ، فهو قديم بمادته وقواه ، وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه ، وأن كل ما يقبل عن خضوعه لقوى أرفع منه ، وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية ، فهو راء لا يجوز الالتفات إليه .

يشترل من هذه العقيدة أصول تناسبها ، وهو أن لا روح مستقلة للإنسان ، ولا بقاء له بعد هذه الحياة في عالم أرفع من هذا العالم ، وأن الفضيلة والرذيلة أصران اعتباريان ، وأن الحياة البشرية قائمة على ما تقوم عليه الحياة الحيوانية من الصيال والفضال ، وأن المنزل الأعلى للإنسان أن يصل إلى درجة السوبرمان ، أي الإنسان الحاصل على أقصى ما يمكن الوصول إليه من السكمال ، السكمال المقر عند الماديين ، وهو بلوغ قواه البدنية ، وخصائصه العقلية ، وإرادته الشخصية ، إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه على مقتضى الاعتبارات المادية ، لا الاعتبارات الروحية ، التي هي في نظرم من بقايا الأوهام الجاهلية .

فهذه العقيدة السلبية التي أقامت صرحها الفلسفة المادية ، وأحكمت بناءها في مدى الثلاثة القرون الأخيرة ، قد صادفت في هذا العهد الأخير من الاستكشافات العلمية ما هدمها من أعماق قواعدها ، بل ما نسفها نسفا وذراها في الهواء . ونصب مكانها حكم التعاليم الروحية مؤيدا بأقوى الأدلة الحسية ، على ما تحب الفلسفة العملية ، ويتطله أهل العصر الراهن من الحجاج المادية .

في رأي أن تنبيه الفرزة الدينية في هذا العصر يقتضى أولاً تحطيم هذه البنيّة الإلحادية في عقول الناس ، فقد أوت منها على درجات شتى في الصميم ، باعتبار أنها مصاصة التفكير الحديث الخالص من سلطان القديم . ولا يكفى في تحطيم الفطرة الانسانية من ظلمات هذه المادية ما يَفْصِلُه الأستاذ أجوست سباتيه من التصاد بين الشعور الباطنى للإنسان ، وما عليه الوجود الخارجى من عدم المبالاة به . فأتنا نشاهد اليوم أن هذا الشعور بالتضاد وبفداحة تكاليف الحياة قد زادت الماديين مضياً في إلحادهم ، بل اتخذوا من شدة وطأة هذه التكاليف دليلاً محسوساً على نقي العناية الإلهية التى يدّين بها المؤمنون . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن جحدوا على مام عليه ، ونشطوا لنشر آرائهم على صور شتى ، شوا فيها من سموم الإلحاد ما قدّر سحر البيان عليه .

فالدواء كل الدواء في نظرى ، هو هدم تلك العقيدة الإلحادية الثابتة في أعين ثنايا الصدور ، وهدمها لا يحتاج الى جهد عنيف ، فإن حوادث غارقة للنواميس طرأت منذ نحو تسعين سنة ، اضطرت أعلى علماء الكون عقولاً أن يسعثوا في علة حدوثها ، فعمثوا على حدود العالم الروحاني الذى طالما كذّب به الماديون ، وبنوا على تكذيبهم به كل ما أسوء من النظريات المادية ، ونعمقوه من البحوث الإلحادية .

وفي رأي أن تدريس هذه البحوث يجب أن يبدأ به في المدارس الدينية ، فإن ما ثبت علمياً اليوم من هذه الدراسات الروحية هو من أقوى أسلحتها في محاربة المادية . ولا يحيط ذلك من قدر هذه المدارس بمد أن اعترف بها العلم الرسمي نفسه . فقد قررت جامعات أمريكية تدريس هذه البحوث منذ بضع سنين ، وقررت جامعة كامبردج الانجليزية ، وهي من أشهر الجامعات العالمية ، تدريسها في شهر مايو من هذه السنة ( ١٩٤٠ ) ، وستبدأ الدراسة فيها في أكتوبر المقبل . وهذا فتح ديني خطير لم يسجل تاريخ البشرية له ضريباً . وقد أعلنه لقراء العربية في جريدة الأهرام في شهر يونيو الماضي .

وقد نشرت الجرائد الانجليزية هذا الخبر ، وعززته المجلة الروحية (La Revue Spirite) فقالت عنه في عدد شهر مايو من هذه السنة : « فتح جديد قد كسبناه » بعد تمهيد :

« مما يجب أن يسجل هنا عما حدث في جامعة كامبردج ، هو أننا نحن فيه أن العلم الوضعي قد خطا خطوة جديدة ودخل الى مجال سبق لعلماء ممتازين أن دوسوه ومحسوه . ومما يجب تكراره في كل مناسبة أن اليوم الذى يعترف فيه العلم بالعالم الروحاني ، يخطو فيه بالانسانية الى درجة من الرقى لا يتصورها العقل الآن . . . ونحن في فرحنا لما حدث ، وأملنا العظيم فيه ، نبعث بأفكارنا المشحمة الى الدين قاموا بوضع هذا الكرسي الجديد للدراسة الروحية بجامعة كامبردج » .

العقبات التي تحول دون تدريس هذا العلم بالمدارس الدينية :

لما ظهرت هذه البحوث في أمريكا سنة ( ١٨٤٧ ) أولاً ، ثم انتقلت الى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، تولاهما بالبحث علماء أعلام ، وقرروا أنهم حيال عالم روحاني حاصل بالدهشات تجب دراسته بصبر وثبت عظيمين ، وغُلِّ فيه (١) عدد لا يحصى من خفاف العقول ، وأخذوا يجربون فيه تجارب للحصول على أساء شخصية ، وليس لهم من صفة التخصيص العلمي ، والتثبت العقلي ، ما يقيمهم المزال (٢) ، فأساءوا الى سمعة هذه المباحث الخطيرة أيما إساءة ، فتخليها البعيدون عنها أن الفرض منها استحصار الأرواح وسؤالها عن توافه الأمور . هنا كان الجبال فسيحاً أمام المشعوذين والمخرفين ، الذين يستغلون سرعة تصديق الناس ، فكانوا عقبة كأداء أمام تقدم البحوث العلمية في هذه السبيل .

ولكن العلماء دأبوا على ما هم فيه بصرف النظر عن كل ما حدث حولهم ، وأجروا تجاربهم في بيوتهم الخاصة وجامعاتهم ومعاملهم ، فتأدوا الى اكتشافات بعيدة في عالم الروح يجب أن تصاف لحساب الدين ليستغلها المشغولون بنشره بالأدلة المحسوسة .

هذه العقبات قد ذلت الآن بكثرة عدد العلماء الذين ألفوا فيه ، وبكثرة جريتهم التي قصروها على أنفسهم ، وبتقرير عدة جامعات لتدريس هذه البحوث وزيادة مادتها ، وفي مقدمتها جامعة كامبردج كما رأيت .

طريق إدن قد أصبحت مهددة أمام المجددين . محمد فرير ومري

(١) غل يغلا على وزن ضرب : دخل تطفلا

(٢) المزال : جم الزلة وهو المكان الذي يزل فيه . وأصل الزل السقوط

## الكلام والصمت

قال على كرم الله وجهه : بكثرة الصمت تكون الهيبة .

وروي أن قوماً تحدثوا عند الأوزاعي العالم المشهور وفيهم أعرابي لم يتكلم ، فقال له بعضهم : لم لم تتكلم ؟ فقال : إن الحظ للسامع في أذنه ، وإن الحظ في لسانه لغيره . يريد أن من يستمع لغيره يحظى بما يسمعه ، ولا حظ لمن يتكلم إذ ينتقل لسانه . وقال الامام السُّخَمي : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام .

هذا كلام فني ، فإن من يعرف كيف يتكلم يجب أن يعرف كيف يسكت ، فقد يضع المحسن بتوسمه في الكلام ، ما يكسبه من إحسانه فيما هو بسبيله .

## الكلام والمتكلمون

- ٨ -

الامام الع — زالى

تنمية الحديث عن فضله مع الفلاسفة :

هاجم الغزالي الفلاسفة مهاجمة عنيفة في كتابه « المنتقى من الضلال » ، و « تهافت الفلاسفة » . وقد قسمهم في الأول الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول الدهريون ، وهم عنده طائفة من الأفقيمين ححدوا الصانع المسدور ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نقطة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة

واقسم الثاني الطبيعيون ، وهم في رايه قوم أكثروا بحجهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوانات والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم ، « طلع على غايات الأمور ومتاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء . طالع لا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنيه الحيوان ، لا سيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحجهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المراجع تأثير عظيم في قوام قنوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطال مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فحدوا الآخرة ، ونكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للعصية عقاب ، فاعمل عنهم اللجاج ، واتهمكوا في الشهوات انهماك الانعام . وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر . وهؤلاء ححدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته .

واقسم الثالث الإلهيون ، وهم في نظره المتأخرون منهم ، مثل سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون هو أستاذ أرسططاليس ، وأرسططاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخسر لهم ما لم يكن خيرا من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجئا من علومهم ، وهم بحجبتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فصاحتهم ما أغنوا به غيرهم ، ( وكفى الله المؤمنين القتال ) بتقاتلهم ، ثم رد أرسططاليس

على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استقى أيضا من ردائل كفرهم بقايا لم يوفق للتزاع منها ، فوجب نكته بده وتكفيره متبعية من منطسفة الاسلاميين كإبن سينا والفارابى وأمثالها . على أنه لم يتم نقل علم أرسططاليس أحد من المنطسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرها ليس يخلو من تحبيط وتحليب يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل (١) .

وأم ما يلفت النظر في هذه المصوم ، هو أن الغزالي وفقى الى ما لم يوفق إليه الفارابى من معرفة الفرق بين فلسفى أفلاطون وأرسطو ، ومن الإيقان بأهما كالأخصمين في مذهبيهما ، وأنه قد وقع بينهما نصال في أصول المذهبين ، على عكس ما تصور الفارابى من أن العلسفتين متفتتان موضع كتاه « الجمع بين فلسفى الحكيميين : أفلاطون وأرسطو » . ولعل السبب في تخلص الغزالي من هذه الخدعة هو أن التقريب الذى اصطنعه أتباع « الأفلاطونية الحديثة » بين هذين الفيلسوفين لم يصح عنده ، فصرح بأن خصومة قامت بينهما ، ولكن ينبغي أن نعلل أيضا أن أباحامد قد أساء فهم سقراط وأفلاطون كل الإساءة ، بل إن انخداعه في مذهبيهما أكثر خطورة من انخداع الفارابى في مذهب أرسطو ، لأن سقراط لم يأخذ عليه الى الآن أحد من مؤرخى الفاسفة المحترمين أية هفوة في آرائه عن الإلهية وخلود النفس والحياة الأخرى . وكذلك أفلاطون - إذا استنبينا مسألة التناسخ - لم يؤخذ عليه شىء في مذهبه الإلهى ، على عكس أرسطو الذى شهدت كنهه الحقيقية بقوله الذى لا شك فيه بأن العالم لا صانع له ، وبأن الإله لم يزد على كونه أول المحركات ، وبأنه لا يعلم شىئا عن العالم مطلقا ، وبأن النفس لا تحيا ألتة حياة شخصية ، وبأن القول بشعورها أو تعقلها أو حياتها بعيدة عن الجسم ضرب من الخيال العابت ، الى آخر ما قرره في كتبه ورد عليه فيه تلاميذه ومعاصروه وزعماء الأفلاطونية الحديثة .

أما طريقته في كتاب « التهافت » فهى تختلف كثيرا عن طريقته في « المقذ » ، إذ أنه في هذا الأخير يعرض للمذاهب عرضا موجزا سطحيا لا يروى ظمأ ولا ينقع غلة ، بينما هو يتناول في « التهافت » النظريات التى هى في رأيه خاطئة ، فيبسطها بمصاحبة ولباقة قل أن يوفق الى مثلها صاحب النظرية نفسه ، ثم يسرد براهينها في وصوصح وجلاء ، فإذا انتهى من كل هذا ووصح النظارية موضع المموسات ، أخذ يوجه الى صميمها من سهام النقد ما يهدم به حججها أو يضمعها على أقل تقدير . وبهذا يتم له ما يريد من إنطالها ، أو من زرع الثقة فيها . ويعلق الأستاذ « كرادى فو » على هذه الطريقة بما يفيد أن الغزالي قد بسط بعض نظريات إبن سينا بسطا لم يتم به مؤلفها نفسه ، وبأنه إذا تعقب كتب الشيخ الرئيس لم يجد فيها أكثر من عناصر

(١) انظر صنفى ١٠ و ١١ من كتاب « النقد من الضلال » لغزالي .

أولية لكثير من هذه النظريات التي بسطها الغزالي في كتبه ونسها الى صاحبها بعد أن وضحاها في شيء من الدقة . ومن العجيب أن ابن رشد قد طعن عليه في هذا المسجع ، ورماه بأنه لم يحسن بسط هذه النظريات ، وبأن السبب في عدم هذا الإحسان إما أن يكون الجهل أو عدم التزامه . ولعل في نقد ابن رشد شيئاً من التحامل .

هاجم أبو حامد الفلاسفة في عشرين مسألة ، منها ست عشرة فيما وراء الطبيعة ، وأربع في الطبيعة ، وهي تتلخص فيما يلي :

(١) قولهم بعدم العالم . (٢) قولهم بأبدية العالم والزمان والحركة . (٣) تضليلهم في قولهم بأن الله فاعل العالم ومسانمه . (٤) عجزهم عن الاستدلال على وجود الصانع للعالم . (٥) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الله واحد . (٦) اتفاقهم على استحالة إثبات العلم والقدرة والارادة للمبدأ الأول . (٧) قولهم بأن الأول لا يجوز أن يشارك غيره بحسب ويقارقه بفصل . (٨) قولهم : إن وجود الأول بسيط . (٩) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الأول ليس بحسب . (١٠) عجزهم عن إقامة الدليل على أن للأول مبدأ وعلة . (١١) عجزهم عن إثبات أن الأول يعلم غيره ويعلم الأنواع والأجناس بسوء كل من إثبات ما يرى . (١٢) عجزهم عن إقامة الدليل على أن البارئ يعلم ذاته . (١٣) قولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات . (١٤) قولهم : إن الأفلاك حيوانات مطيعة لله تعالى بحركاتها الدورية . (١٥) قولهم بأن للأفلاك قوى تحركها ، وغايات تنجها إليها . (١٦) قولهم بأن النفوس الفلكية مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم . (١٧) قولهم بضرورة اقتران المسببات بالأسباب . (١٨) عجزهم عن إقامة البرهان العقلي على أن نفس الإنسان جوهر روحي قائم بنفسه . (١٩) قولهم بأن النفس الانسانية يستحيل عليها العدم بعد وجودها وأنها سرمدية . (٢٠) إسماعيلهم لبعث الأجساد .

على أن المباحث إذا نظر في أصول هذه المسائل العشرين ، وفي الموضوعات التي تعالجها ، استطاع أن ينفذها فيجولها — كما فعل « البارون كارادى فو » — الى بضع مسائل ، مثل : ( أ ) أزلية العالم وأبديته . ( ب ) علم الله بالجزئيات ، وهي تتناول بالمجاورة مسألة الصفات . ( ج ) مسألة الأفلاك ، وهي قليلة الأهمية . ( د ) النفس البشرية وكل ما يتعلق بها . ( هـ ) نظرية الأسباب والمسببات .

فأما النظرية الأولى ، وهي نظرية أزلية العالم ، فقد وردت كما ورد غيرها من النظريات في كتب فلاسفة المسلمين صريحة واضحة ، كما يتبين ذلك من كتب العارفي وابن سينا وابن رشد . ومن أقوى الأدلة التي ساقها الفلاسفة ، وأكثرها أثراً في الحياة العقلية ، لافي الشرق وحده ، بل في أوروبا في القرون الوسطى ، هو قول ابن سينا لخصومه القائلين بحدوث العالم ما معناه : إن كنتم تقولون بحدوث العالم ، فإنكم لا شك تعترفون بأن كل حادث كان قبل



حدوده ممكنة . ولما كان الامكان صفة وجودية ، ولما كانت الصفة الوجودية لا تقوم بذاتها ، فقد وجب أن يكون هناك موصوف وجودي سابق على هذا الحادث ليقوم به الإمكان ، وهذا الموصوف السابق على الحادث هو الهبولى . وإدأ ، فلهبولى سابقة على كل حادث ممكن . غير أن الغزالي قد أجاب على هذا الإشكال بأن الإمكان ذهنى لا يحتاج ألينة الى موجود خارجى يقوم به ، لأن جميع المفاهيم الذهنية كالإمكان والوجوب وما أشبهها أمور اعتبارية لا حقائق خارجية حتى تحتاج الى موجود ثبوتى تقوم به .

وكما أنكر الغزالي سابقة الهبولى على الحوادث الممكنة ، أنكر كذلك كل أزلية عدا أزلية البارى ، ورد على الفلاسفة فيما زعموه من أن هذه الأزلية ضرورة لا يحصى عنها لنفى وقوع التغير فى ذات البارى ، أو سيورتها عللا للرجح الحادث ، أو انقلاب حقيقة الحادث الى الإمكان بعد الاستعالة ، أو غير ذلك مما يترتب على القول بمحدوث العالم ، ولكنه قبل أن يرد عليهم أوضح نظريتهم إيضاحا تاما كما هو ديدنه دائما . وقد ورد هذا الإيضاح ومناقشته ببسط واف فى صفحتى ٨٥٧ من كتاب « تهافت الفلاسفة » فارجع اليه إذا شئت .

ومن أبدع ما رد به أبو حامد على الفلاسفة فى نظرية أزلية الزمان ، قوله لم ما معناه : إنكم صرحتم بأنه لا يوجد وراء هذا العالم لا ملاء ولا خلاه ، ولما كان هذا العالم عندكم محدودا ، فقد وجب أن يكون المكان فى رأيكم متناهيا متناهيه مادام لا يوجد بعده لا ملاء ولا خلاه . وإذا كان قد ثبت تنهى المكان فلا معنى لأن لا يثبت تنهى الزمان .

ومن هذه الاعتراضات التى ساقها الغزالي الى خصومه ما يأتى :

إنى لا أدري كيف تقولون بلا نهائية الزمان مع حزمكم باتهاء الاسباب الى سبب أول تصومونه صانع العالم . فإذا كان الزمان عندكم يتسلسل الى غير النهاية ، فلم لا تتسلسل الاسباب أيضا الى غير نهاية ؟ لا ريب أن الدهريين الذين يقولون بأزلية العالم وينكرون صانعه بنانا هم أكثر منكم تمسحا مع المطلق ، إذ ما قبيحة القول بالصانع لعالم أزلى لم يسبقه عدم ، ولم يتقدمه هذا الصانع إلا تمقلا فقط ؟

ومن المهاجمات رده القيم الذى وجهه الى ابن سينا ، إذ قرر هذا الأخير فى إشاراته أن سلسلة الاسباب العامة ممكنة الوجود ، لأنها مؤلفة من حلقات ممكنة ، والمؤلف من الممكن ممكن . ولهذا كان لا بد من طرف خارج عن هذه السلسلة ، وهو واجب الوجود . فقال له أبو حامد : إنكم لا شك تعترفون بأن اليوم واليلة متناهيان ، ولا يبعدون أن الزمان مكون من الهبالى والأيام على نحو ما تكونت سلسلة الاسباب من حلقاتها ؛ فعلى طريقتهن فى التفكير ، كان يلزمكم أن تقولوا : إن المؤلف من المتناهى متناه كما جزمتم بأن المؤلف من الممكن ممكن .

أما مسألة إنكار الفلاسفة على البارى العلم بالجزئيات ، وقول ابن سينا : إنه يعلمها بطريقة

كلية حسب ، لأن علمه بالافراد وأعمالهم قصص في حقه ، إذ الافراد مشخصة ، والمشتخصات لا تكون موضوعا إلا للعلم المؤسس على الحواس ؛ ولما كان علم الله غير مؤسس على الحواس ، فقد تنزه عن الاطاعة بالافراد المشخصة ؛ وكذلك أعمال الافراد هي متغيرة متحولة ، وتغير المعلوم يقتضى تغير العلم ، وتغير العلم يقتضى تغير العالم ، والتغير على الباري محال ، فقد وحب أن ينتزه علم الباري عن الجزئيات المتغيرة . وقد آثرنا أن نكتفي في هذه المسألة بما أسلفناه فيها حين عرضنا لفلسفة ابن سينا في مقالات سابقة نحبنا للإفادة .

أما مسألة ارتباط الأسباب بالمسببات ، وضرورة وجود الثانية ، التي وجدت الأولى مستحكمة لشروطها ، وعدم وجود المسببات من غير أسباب ، وهي المسألة التي أجمع عليها الفلاسفة ، فقد أنكرها أبو حامد كما أنكرها الأشعرية من قبله ، ورد فيها على الفلاسفة ردودا طويلة جاء فيها أن أولئك الحكماء ليس لهم على صحة دعوائهم دليل غير مشاهدة وقوع هذه المسببات ، وهذه المشاهدة تثبت أن المسببات وقعت عند وجود الأسباب ولا تثبت أنها وقعت بها . والفرق بين الحالتين جلي ، لأن الشمس مثلا تلتقي أشعتها على وجه القصار وقماشه ، فيسود الأول ويبيض الثاني . وهو يمترض عليهم أيضا بقصة ابراهيم وعدم تأثير النار في جسمه ، وما شاكل ذلك ؛ ولكن قد فاته في هذه المسألة أن الفلاسفة يوجبون لتأثير الأسباب في مسبباتها استحكال الشروط الطبيعية . وعلى هذا يكون اعتراض أبي حامد ضعيفا ، لأن الفلاسفة لا يسلّمون بإمكان نجاة ابراهيم من النار إلا لعلل خاضعة للناموس الطبيعي ، كإطفاء النار ، أو إطفاء جسد ابراهيم بما يحفظه منها .

لم تقتصر مهاجمة أبي حامد للفلاسفة على النظريات التي اعتقد بطلانها ، بل هاجمهم في نظريات هو مؤمن بصحتها ، ولكنه أراد أن يثبت بحججهم عن التدليل على صحة ما يدعون . ومن ذلك مسألة جوهرية النفس البشرية ، فإنه هاجمهم فيها مع إيمانه بصحة آرائهم ، واعترافيه بهذا الإيمان في قوله : « وليس شيء مما ذكره يجب إنكاره في الشرع ، فإنها أمور مشاهدة أجرى الله تعالى العادة بها ، وإنما زيد أن نترض الآن على دعوائهم معرفة كون النفس جوهرًا قائما بنفسه يبراهين العقل . ولما نعتراض اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى ، ويرى أن الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما سبى في تفصيل الحظر والذكر أن الشرع مصدق له ، ولكننا نسكّر دعوائهم دلالة مجرد العقل والاستقناء عن الشرع فيه فنطالبهم بالأدلة (١) » .

ومن هذه المسائل التي صادمهم فيها وهو مؤمن بصحتها ، مسائل : وحدة الباري ، وكونه صانع العالم ومشته ، وكونه يعلم ذاته ، وكونه ليس بجسم ، وما شاكل ذلك مما لو حاولنا الإتيان عليه لطال بنا البحث .

الدكتور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٧١ من كتاب « التهافت » فنزالي .

# دراسة في القرآن الحكيم

## الاصول العامة والمبادئ الشاملة في كتاب الله

نحوها الى جزئيات معينة

يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ » :

إن مدار المعنى في هذه الآية وتفسيره فهما صحيحا ، إنما هو على فهم كلمة « أَشْيَاءَ » . وإن المفسرين يحملون هذا اللفظ على أمرين : الأول : التكليف الشاقة التي لا يطبقونها ؛ والثاني : أمور خفية وحوادث جزئية وقعت بالفعل تتعلق بأشخاص بأعيانهم .

هذا هو ما يحملون عليه الأشياء التي نهت الآية للكرعة عن السؤال عنها ، لما في إبدائها بسبب السؤال من تمساة لسائلين . وعلى ذلك يصير المعنى : إن السؤال عن تلك التكليف الشاقة مستتبع لا يجابها لتجاوز السائلين للاستسلام لما يلقى عليهم من قبل الرسول دون بحث في كيفية أو كية ، كما أن السؤال عن تلك الأمور الخفية والحوادث الجزئية مستتبع لا يبدؤها ، وفي إبدائها تمساة وفضيحة .

ثم إنهم يستندون في الحل على النوع الأول ، إلى ما روى عن علي رضي الله عنه ، أنه قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إِنْ أَتَى كَتَبَ عَلَيْكَ الْحَجَّ » فقام رجل فقال : أَيْ كُلِّ حَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى أَتَاهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَبِحُكِّ ! وَمَا يُؤْمِنُكَ أَنْ أَقُولَ : نَعَمْ ؟ وَلَوْ قُلْتَ نَعَمْ لَوَجِبْتَ ، وَلَوْ وَجِبْتَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ لَكُفَرْتُمْ ، فَارْكَبْ مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَكْتُمُونَ مَسَائِلَهُمْ وَاخْتِلَافَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ . فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ نَقَضُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ أَمْرٍ ظَنَنْتُمْ بِهِ » .

ويستندون في الحل على النوع الثاني ، إلى ما روى عن أنس رضي الله عنه : « إِنْ سَأَلَ النَّاسُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشْيَاءَ حَتَّى أَحْفَوْهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ ، فَقَامَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَغْضَبًا لِحَمْدِ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ مَا تَسْأَلُونِي مِنْ شَيْءٍ فِي مَقَامِي هَذَا إِلَّا بَيَّنَّتُهُ لَكُمْ »

فكان ممن سأله رجل من فريض يقال له عبد الله بن حذافة ، فقال : يابني الله : من أبي ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : أبوك حذافة . ثم قام آخر فقال : أين أبي ؟ فقال : أبوك في النار . هذا مجمل ما يذكره المفسرون في بيان الأشياء المنهى عن السؤال عنها . وقد قلنا : إن معنى الآية ينفي على ما يحمل عليه لفظة أشياء .

وإنما قبل أن نعرض لبيان ما نحن مقتنعون بأنه الصواب في الآية ، لا بد لنا أن نحدد لذلك ببيان ما في هذا الذي ذكره من خطأ أو صحت .

ولنبدا القول في النوع الثاني ، وهو الحوادث المعية الواقعة فعلا لأشخاص معينين ، ككون حذافة أباً لعبد الله ، وككون أبي السائل الآخر في السار . واليك البيان :

إن مما لا يصح أن يكون مراداً للقرآن هو أمثال تلك الحوادث الجزئية ؛ وذلك لأن قوله تعالى في الآية : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم » واضح في أن ما نهوا عن السؤال عنه إنما هو من قبيل ما يكون للوحي به علاقة ، وواضح أنه لا ينبغي محال أن يكون للوحي علاقة بتلك الأمور الجزئية ، وتلك الحوادث المتعلقة بشئون خاصة لأشخاص معينين ، إذ أن مثل هذا أزل من أن يكون من مقاصد الوحي ، وأصغر من أن يكون من غاياته ؛ فالوحي أممي من ذلك مقصداً ، والقرآن أجل وأبعد من ذلك غاية . فما أزل القرآن إلا ليقرر مبادئ عامة الخير ، شاملة النظام ، كإصلاح البشر أبيضه وأسوده ، أو ليبين أصلاً كلياً غير مقصور النفع والترقية على أمة دون أمة ؛ ولا يختص التهذيب بشعب دون آخر . على العموم فالقرآن إنما نزل على النبي الكريم ليضع للنظام البشري قواعد وأصولاً ، لا لبيان جزئيات لأشخاص بأعيانهم . القرآن إنما جاء لهداية والإرشاد ، والتهذيب ومكارم الأخلاق ، لا لبيان من هو أبو فلان ؟ أو ما هو مقر فلان ؟ مما لا علاقة له بمقاصد القرآن التي هي مبادئ وقوانين ، وغاياته التي هي كليات وقواعد . وقد قلنا : إن من الجنابة على عظمة القرآن وجلاله أن يجذب وهو خصب روي ، ويخفض وهو شاخ حي . من الجنابة على كتاب الله أن يحد ويقصر وهو المديد المتناول ، ويضيق وهو الواسع الشامل .

من ذلك تعلم أنه لا يصح أن يكون ذلك مراداً من الآية الكريمة ؛ وما روي في هذا الصدد لم يرو أن الآية قد نزلت بسببه ، فليكن ذلك الذي روي - إن صح - حادثاً مستقلاً لا علاقة له بوحي ولا بتزيل .

وأما النوع الأول مما حملوا عليه الأشياء المنهى عن السؤال عنها ، وهو الأمور التكليفية ، فلما أخذ على المفسرين فيه هو أنهم قد تركوه مجرلاً دون أن يفصلوه ويحددوه ، إذ هو محتمل أن يكون من قبيل الأمور التي لم يكن قد نزل فيها وحى يبين أنها من قبيل المكروه

والمحذور، أو من قبيل المطلوب المرغوب، فيكون السؤال فيه طلباً لبيان حكم الله حتى لا يسيروا فيه إلا على وفق ما شرع الله؛ ومحمّل أن يكون من قبيل الأمور التي نزل فيها وحى ولكن كانت نصوصه محتملة أكثر من معنى، فيكون سؤالهم فيها طلباً لتحديد المراد وتعيينه من بين ما احتمله النص من المعاني.

هذان معنيان يحتملهما النوع الأول الذي حملوا عليه لفظ الأشياء في الآية. فإنهم كانوا يريدون الأول فذلك ما لا يصح أن يكون مراداً للآية، فقد علمت أن سيداً ماهرين الخطاب قد كانت له في ذلك النوع مواقف عدة، وما كانت قط تلك المواقف داعية مؤاخذه له، بل كانت على التقيض من ذلك مبعث حمد له وثناء، وموجب تقدير وإكبار؛ فلقد طلب إلى الرسول أن يكون في الحجاب تشريع، كما سأل أن يكون في الخمر بيان حاسم، إلى غير ذلك من مواقف قد عدت من مفاخره، وحسبت له في مناقبه. وأى مؤاخذه على الناس في أن يمتنعوا عن السير في حمل من الأعمال إلا على وفق ما يشرعه الله لهم من حظر وتحريم، أو طلب ونهي، تخرجاً منهم أن يسايروا مقتضى تفكيرهم، خوفاً من أغلب الهوى واستيلاء الأغراض؟ وعلى هذا، فلم يبق إلا حمل الأشياء في الآية على ما يكون من قبيل ما نزلت فيه من قبل الله نصوص محتملة لأكثر من معنى؛ ويكون سؤالهم على هذا طلباً لتحديد المراد من ذلك النص المحتمل، وتعيين المعنى المقصود منه حتى لا يبقى صالحاً للدلالة إلا على معنى واحد. وهذا هو ما أردت أن أحمل الآية عليه، وأفسرها به، وإليك بيان ذلك، وبالله التوفيق.

إن من المعلوم أن نصوص الشريعة الإسلامية منقسمة من حيث دلالتها إلى قسمين: قسم لا يحتمل أكثر من معنى واحد، وليس له دلالة إلا عليه؛ وقسم يحتمل أكثر من معنى واحد؛ ويسمى الأول في الاصطلاح الأصولي "قطعي" الدلالة، ويسمى الثاني "ظني" الدلالة. ومن جملة النصوص الشرعية على هذين النوعين نذكر في يقين أن ذلك مقصود للشارع الحكيم، وأن ذلك القصد لا محالة يكون لغزى خطير وحكمة سامية؛ وما ذلك الغزى ولا تلك الحكمة إلا أن الله قد أراد أن يدفع عن عباده الخرج فيما شرع لهم، ويرد عنهم المشقة فيما كلفهم به، رحمة منه وفضلاً، وحكمة وعدلاً. ذلك أن الإسلام هو الدين المنزل على خاتم النبيين، المرسل للناس كافة أسودهم وأبيضهم، فهو لذلك دين خالد على الزمان، عام لجميع البشر؛ فلم كانت نصوصه كلها من قبيل ما لا يحتمل إلا معنى واحداً لكان في ذلك حمل للناس على اختلاف أقاليمهم وأمكناتهم، وعلى اختلاف تقاليد معاشهم التابعة لطبائع بقعهم وأنظمتهم، وفي مختلف الأزمان ومظاهر العمران، على طريق واحد في جميع التكاليف، وفي ذلك من الخرج والمشقة مالا يحتمل. ويرى في مقابل ذلك أن في تعدد السبيل أمام العاملين يسراً ورخاء، فيما المرء بهذا السبيل فيتركه إلى سبيل آخر، وفي كلا الأمرين هو شاعر أنه محتمل لربه مطيع، بدلاً من أن يضطره العجز لترك الجادة إلى المخالفة والمعصيان. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون تحقيق المصلحة التي لأجلها التشريع أو دفع المضرة مرتبطاً في وقت السؤال بأشق الوجوه التي يحتملها النص ، فيصير بالتحديد والتعيين لو أجبوا إلى السؤال هو الدين الذي لا يعدل عنه إلى سواء ، وفي ذلك الحرج والمشقة التي قد تقضى بهم إلى الترك والكفران .

هذا ، ويجب ألا يغيب عنا في هذا المقام أن النصوص التي تحتل أكثر من معنى ، لا تكون إلا في نوع التكليف الذي يرتبط بتحقيق المصلحة أو دفع المضرة فيه بالوجوه التي يحتملها النص ، بحيث يكون الوصول إلى ما قصد بالتكليف من تحصيل خير أو دفع شر غير مقصور على طريق واحد ، بل تتمدد الطرق الموصلة إليه . وأما ما ترتبط الغاية فيه من التكليف بطريق واحد فهذا هو ما يدل عليه بالنصوص القطعية الدلالة ، أعني التي لا تحتل إلا معنى واحداً . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : « يأياها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » الآية : لا تطلبوا من الرسول تحديد نص محتمل ، ولا تحاولوا تعيين معنى من معان صلح النص للدلالة عليها ، فإنكم إن طلبتم ذلك — والوقت وقت وحى وتفسير — فليس بجائز إذ ذاك أن يعتذر الرسول عن الإجابة بعدم العلم ، بل لا بد من التحديد والتعيين ، وفي ذلك ضياع لهذا المقصد الأسمى ، وذهاب بذلك الحكمة المالية ، من رد المشقة عن عباده فيها شرع لهم ، ودفع الحرج عنهم فيما كلفهم به ، وتيسير الدين وتسهيل الأخذ بأحكامه ؛ أي : دعوا المحكم من آيات الله كما أزل عكبا ، ودعوا المتشابه منها كما أزل متشابها ، فإن ذلك من المصمود المقصود رحمة بكم وتيسيرا لكم . وعلى هذا فيكون المقصود بالأشياء التي نهى الله عن السؤال عنها هي المتشابه من آياته ونصوص أحكامه ، أي ما يحتمل منها الدلالة على أكثر من معنى كما قد منا ، ويكون المقصود بالنهي هو حماية ذلك المتشابه ، وصيانة هذا المحتمل عن التحديد والتعيين حتى لا يوقعهم ذلك في الحرج والمشقة التي قد تقضى بهم إلى ترك التكليف ، فيتورطون فيما تورط فيه من قبلهم من الآثم السابقة ، من غفائة وعصيان ، وترك وكفران ، كما حدثنا به الآية الكريمة التي نحن بصددنا الآن : « قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » ، وكما حدثنا القرآن في موضع آخر عن نبي إسرائيل ، اسمع قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... » الآيات ، فلقد أراد الله بذلك أن يضع أمام أعيننا صورة من صور الغابرين ، ومثلا من أمثلة المتقدمين ، ليرينا إلى أي حد بلغ التكليف من المشقة ، بمحاولتهم التحديد ، وإيمانهم في التمين ، وقد كان بدون ذلك يسيراً سهلاً . فهذا متعلق الأمر في الآية قد أطلق إطلاقاً دون تحديد بلون أو تحديد بسم أو شيء مما حاولوا الاستفسار عنه من رسولهم ؛ فلو أنهم بمجرد أمرهم بذلك ذبحوا بقرة ما على وفق الإطلاق في الآية ، لكانوا محققين للأمر ، ولكانوا عمتلين مستجيبين ؛ لو أنهم ذبحوا بقرة في أي سن : غرض أو بكر ، وعلى أي لون : صفراء أو حمراء ، وبأي حال : ساعة أو طامة ، لكانوا بذلك

طائعين، ولكنهم بالغوا في تحديد المحتمل، وتعيين المتشابه، فحدد لهم باندر الجنس وجودا، وأعرضه مثالا، حتى كادوا لا يفعلون.

هذا، وإليك إذا نظرت الحديث الذي ساقوه للاستدلال به فيما حملوا عليه الآية، وجدته يشهد لهذا الذي فسرنا به الآية شهادة واضحة جلية. انظر قوله عليه السلام: «إن الله كتب عليكم الحج»، تعجب هذه العبارة كما ترى محتملة أمرين: محتملة أن يكون الحج قد فرض مرة في العمر، وأن يكون قد فرض في كل عام مرة، وتعجب سؤال السائل قد حاول به تحديد أحد المعنيين، وتعجب أن يحصل ما قد قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد كان يصح أن مقتضى الظرف الحاضر يحتمل المصلحة في هذا الوقت مرتبطة بأشق الوجهين، فيبين به النص المحتمل، ويعين به المتشابه، ويصير الحج مفروضا في كل عام، وفي ذلك من الحرج والمشقة ما يكاد يقطع مهما بالمعجز عن الامتنال، والوقوع في المخالعة والكفران، فلتتركوا الأوامر والنواهي على الحال التي أودعها إليكم بها.

وعلى العموم، فإن من الواضح الخلى أن من بالغ الحكمة وعظيم المنة، أن يكون بين نصوص الاسلام تلك النصوص المحتملة المتشابهة، لما في ذلك من رفع المشقة ودفع الحرج. أما أولا: فتباعد الطرق أمام العالمين؛ وأما ثانيا: فبعدم تعيين أشق الوجهين مرادا من النص، مما قد كان يقتضيه الأمر وقت السؤال، بأن يكون حصول المصلحة أو دفع المفصلة لا يتان في عهد السؤال إلا بأشق الوجهين.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن لفتت الى أن الله تعالى قد نوه بتلك الحكمة السامية، وأشاد بتلك المنة الخلية: اقرأ في أول سورة آل عمران قوله عز من قائل: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات»، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا... الآية، فإن المراد بالحكم في تلك الآية هو قطعي الدلالة، أي الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا، والمراد بالمتشابه هو ظني الدلالة، أي الذي يحتمل أكثر من معنى واحد. وإنما كان ظني الدلالة متشابهة لأن المعاني التي يحتملها متشابهة في دلالة عليها واتهامها منه؛ وكان قطعي الدلالة محكما لأن الحكم هو المقتضى الذي يمنعه إتيانه من التحلل والفساد. ولما كان قطعي الدلالة ليس فيه هوى مذهب، ولا شهوة والفرس قلبه سبيل، وتأويل دوى الهوى له إلى أهوائهم، وتوجيهه نحو أغراضهم، لما كان ذلك فيه غير ممكن لأنه لا يحتمل إلا معنى واحدا، كان بذلك متقنا محكما؛ وإنما كان قطعي الدلالة كذلك أمّا هكتاب، لأن الأم هي مرجع أبنائها إذ يرفعون، وما لهم بعد ما يترددون فيجيئون ويذهبون، واليه يرجعون إذ يضلون.

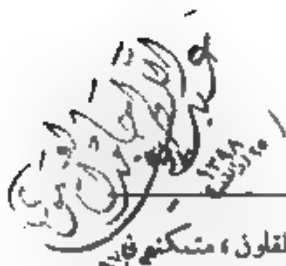
ولما كان محكم النصوص إنما تبني به أصول الدين وقواعده ، وكان التشابه المحتمل أكثر من معنى يجب في تأويله ألا يحمل على معنى يتجاوز تلك الأصول ، بل يجب أن يكون ما يحمل عليه في داخل تلك الأصول ، لما كان كذلك كان المحكم بمنابة الأم ، والتشابه بمنابة الإبناء ، فالمحكم هو المآل والمرد للمعنى الذى يحمل عليه التشابه ، فأى معنى مما يحتمله التشابه لا يصح أن يحمل عليه حتى يرد الى تلك الأصول ، فإن جاوزها انقطع نسب عنها وكان من غير الدين ، وإن لم يتجاوزها فهو من الدين ، وذو نسب الى تلك الأصول عريق ، ومن ذلك يصير من المفهوم الجلى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » ، إذ المعنى على ذلك . أن الذين أغلقت قلوبهم بالشك ، وازدحمت قلوبهم بكراهية الحق ، وولموا بالبعد منه والميل عنه ، من شأنهم أن يهلوا المحكم من النصوص لأنها لا تنفذ فيها للهوى ، وليست محل اختلاف وتردد من ذلك ، وأن يقصروا أنفسهم على اتباع التشابه يؤولونه الى أهوائهم ، ويحولونه الى أغراضهم ، وإن تجاوزوا به الأصول ونأوا به عن المحكم ينتفون بذلك فتنة الناس ، إذ يكون من شبههم التى يصلون بها أن ما يلقونه على الناس لم يحيثوا به من عند أنفسهم ، بل يزعمون أنه مأخوذ من نصوص الكتاب ، تلك النصوص ذات الاحتمال ، فى حين أنهم لم يرجعوا بها الى المحكم ، مفررين بذلك ومضللين ، وأنهم لو ردوه الى الله والى الرسول ، لو ردوه الى المحكم من آيات الله لأدرك معناه الحق ، وعرف المراد الصحيح منه ، ثم إن هؤلاء الزائغين ينتفون الى ذلك مبتغى آخر هو تأويله ، أى رده الى مآل يوافق شهواتهم ويسير أغراضهم ، دون تقيد بمحكم ، ولا رجوع الى أصل .

وعلى الجملة ، فالآية الكريمة تحدد مقصد الزائغين من قصر أنفسهم على اتباع التشابه دون رجوع به الى المحكم ، وتقيد بالأصول ، تحده بأمرين : الأول . هو فتنة الناس وتضليلهم بإيهامهم أن ما جاء به إنما هو من كتاب الله ، والثانى : هو إيمانه حيث شاءوا ، والرجوع به الى ما يهون ويشتهون .

ولما كان عدم رد التشابه الى المحكم عند تأويله ، وأن يمال الى الهوى حيث يكون ، من لوازمه أن ما حملوه عليه من معنى جاروا به أهواءهم إنما هو معنى من عند أنفسهم ، فقد رد عليهم الله ذلك ، إذ قال : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، فهو يريد أن يقول : إن هؤلاء الزائغين ليسوا هم الذين يعلمون تأويل هذا النوع من الآيات ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك ، وقد وضع المحكم مآلا للتشابه ومرجأ له فى تأويله حتى لا يعول على معنى مما يحمل عليه إلا المعنى الذى لا يتجاوز تلك الأصول ، ولا يتعدى تلك المحكمات .

وإنك ترى أنه ، بعد وضوح ذلك على ما قررناه ، أن قوله تعالى : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » قد أصبح واضحا جليا . فإن المراد حينئذ أن الذين





## دراسات في القرآن الكريم

لا يعلمون ما يعلمون إلا علم حق و يقين ، فهم بذلك ثابتون على ما علموا لا يتقلقلون ، متسكنون في  
منه لا يتزعزعون ، لا جرم يعرفون ربهم وما يجب له من شأن معرفة صحيحة ، وأنه محاسبهم  
كل أحد حسابا دقيقا ، وأنه مجاز كل إنسان بما حمل : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن  
يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأنه لا يمييه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأن بيده ملكوت  
كل شيء ، ويعلمون كذلك الدنيا على حقيقتها ، فلم تقتنهم زهرتها ، ولم تفرم زحارها ، فهم  
بهذا يقولون : آمنا يا ربنا بحكم كتابك ومتشابهه ، فإن المحكم والمتشابه كلاهما من عندك ؛  
فكان عليهم الحق بربهم حتى كفروه حق قدره ، وبالدنيا حتى أنزلوها من أنفسهم منزلة تليق  
بها ، ما نألمهم من أن يوجهوا المتشابه نحو أهوائهم ، ورثولوه وفق أغراضهم ، تاركين  
الحكم وراءهم ظهريا .

هذا هو ما ينبغي أن تفسر به تلك الآية ، أما ما يذكره المفسرون فيها من معان يدل على  
عدم محبتها أنهم كلما خاطبوا من ناحية تمزقت من ناحية أخرى ؛ وإلا فقل لي يربك كيف ينقهم  
أن القرآن الذي أنزله الله هداية للناس وإرشادا ، وتنظيما لحياتهم ، وتحقيقا لسعادتهم وترقيتهم ،  
كيف ينقهم أن يكون ذلك فيه غير المفهوم كما يقولون ، إذ يرون أن المتشابه هو ما استأثر  
الله بعلمه ؟ قل لي يربك : أي فائدة من أن يكون في الكتاب الذي أنزل لهذه الأغراض السامية  
غير المفهوم ، وهو لا يحقق غاية من تلك الغايات ؟ وأي عقل ذلك الذي يسبغ أن يتزل الله  
كلما غير مفهوم ، مع أن ذلك هو البعث بسببه ، والسفه الذي نض عن بعض المخلوقين  
فضلا عن الخالق العظيم !

اللهم إن هذا ما لا ينبغي أن يقال في جانب الله ذي العلم الغامض والحكمة البالغة ،  
وما لا ينبغي أن يحس به كتاب الله الذي من أخص أوصافه أنه المبين وأنه المفصل .

هذا ، وإننا لم يكن من فرضنا تفسير تلك الآية ، آية هو الذي أنزل عليك الكتاب ...  
ولكن فرضنا لهذا الإجمال فيها للمناسبة التي بينها وبين الآية التي نحن بصدد بيانها ، وقد تسع  
لي فرصة أخرى لشرحها شرحا مفصلا .

بقي أنه لا يصح أن يكون أحد من علماء الإسلام بعد العلم بأن شريعتنا شريعة شاملة  
في الزمان ، فهي الشريعة الناقية على مدى الأيام حتى ينتهي الليل والنهار ؛ وشاملة في المكان  
فهي لجميع الناس أسودم وأحرم ، هريهم وجمعهم ، لا يصح أن يكون من علماء الإسلام  
بعد العلم بذلك من يجمل أن شريعة ذلك شأنها لا يكون من الضروري لها أن تحتوى أمرين  
ها من مقتضياتها المحتومة . أما أول هذين الأمرين ، فهو أن يكون من نصوصها ذلك النوع  
الذي يبناه من النصوص وهو المتشابه ، أي الذي يحتمل أكثر من معنى واحد وهو ظني  
الدلالة كما بينا ذلك سابقا ، حتى لا يحمل الناس في مختلف المصور ، ولكل عصر مقتضيات ،

وفي مختلف البقع والامكنة ، ولكل مكان ما يناسبه من نماذج العيش وأساليب الحياة ، حتى لا يحمل الناس والامر كذلك على السير في سبيل واحد ، لما في ذلك ما لا يخفى من الحرج والإرهاق . وأما ثانی الامرین ، فهو وجود التشريع ضمن مبادئ عامة وقوانين شاملة ، بأن تناط الأحكام بأوصاف ومعان يدور معها الحكم وجوداً وعدماً ، حتى يعطى كل ما تلده الأيام من حوادث حكمه ، بأن يتبين ما في الحادث من وصف ومعنى أهو مناط حظر ومحريم أم مناط طلب وتحريم ، فما كان من المعقول أن يجتمع في عهد الرسول كل حوادث الدنيا حتى ينص على حكم كل حادث على حدة .

وإني بهذه المناسبة لحريص أن أرد على الذين قد فهموا خطأ أن القياس الفقهي دليل زائد على الكتاب والسنة ، وأبين أنهم في فهمهم هذا جد غلطيين ، إذ القياس الفقهي ليس شيئاً وراء تبين ما في الحادث من مناط ليعلم أن ما ارتبط بذلك المنطق من حكم هو الحكم لذلك الحادث . وساتبع ذلك في العدد القادم ببحث مستفيض كنت قد كتبت به بمناسبة ما كتبه بعض المعارضين لهذا البحث باعتباروا القياس دليلاً غير الوحي من كتاب وسنة . وفقاً لله للإخلاص حتى نهتدي به إلى الحق والخير ، إنه جميع قريب ؟

« يتبع »

عاصم مجسمه

## وصايا حربية

أوصى هارون الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سرية حربية له فقال : أنت تاجر الله لمبادءه ، فكن كالمضارب السكيس إن وجد ربما اتجر ، وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تبرز السلامة ، وكن من احتياكك على عدوك أشد خوفاً من احتيال عدوك عليك .

هذه من خير الوصايا الحربية . والقصد منها عدم الاسراف في سفك دماء رجاله لغير ما داع موجب ، والتمويل على حسن التدبير لحركاته ، فقد يحتمل على العدو ويخيل إليه أنه يصيب بذلك منه مقتلاً ، فيقع في شر من الشرك الذي نصبه ، فان للعدو عقلاً ونظراً كما له هو عقل ونظر . فإذا افترض أن عدوه لن يصل إلى تقدير سائر حركاته ، كان مدعياً لنفسه من التفوق العقلي ما ليس له عليه دليل ، وهذه الحالة كثيراً ما أودت بالجيوش الجرارة ، وكانت سبباً في إذلال أُمم هزوة .

وقد شرح محارب مجرب هذه الحقيقة على نحو ما فصلنا فقال : احترس من تدبيرك على عدوك ، كاحتراسك من تدييره عليك ، قرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط في الذي احترس ، وجرح بالسلاح الذي شهر .

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٦ —

الشعر المعصرى أيضا

أسلفت أن الشعر المعصرى قد وقف أو كاد ، بعد أن ذهب الرعيل الأول من رجاله إلى جوار الله ، ووقفت عند تمثيل هذا الوقوف ، وعرض أهم أسبابه . ولما لم أكن منفردا بهذا الرأى فى الشعر المعصرى ، فأنى أذكر أولاً ما أورده النقاد المعاصرون من تمثيل هذا الوقوف :

يرى قادة النقاد المعاصرين ، أن السبب فى وقوف الشعر بعد شوق وحافظ وأضرابهما من الشعراء الراحلين ، إنما مرده إلى ضعف امتزاج الثقافتين : الغربية والعربية ، اللتين تتكون منهما الثقافة المعصرية ، فشوق وأضراجه ، أمكنهم أن يقطعوا الأدب القديم بالأدب الأجنبى ، إلى حد ، فنجحوا فى مجازاة الثقافة المعصرية بنجاحهم المهودى ، والبارودى — وإن لم يجددوا فى الشعر على هذا الوجه — إلا أن نجاحه إنما أتى من رجوعه بالشعر إلى العصر البعيد الرافى ، فترسم آثار أبى نواس ، وأبى فراس ، والمتننى ، والشريف الرضى ، من حيث الانغراض والمعانى ، وحسولة اللفظ . فأما من جاء بعد هؤلاء من الشعراء ، فهم بين رجلين : شاعر على النمط القديم ، لا يلائم شعره الذوق المعصرى ، وآخر ممن فى تقليد الشعر الأفرنجى ، فى معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته ، ينبو عن شعره الذوق الشرقى ، لأن لكل من الثقافتين مزاجا خاصا ، وملايضا خاصا ، والثقافة الأفرنجية أكثر ما تعنى بالحياة الواقعية ، مع مجازاة الزمن ، والنظر إلى المستقبل ، والثقافة العربية محافظة فى الاجتماع والمباحة ، وعنايتها بالمضى أكثر من عنايتها بالحاضر والمستقبل .

وهندى أن هذا السبب — على قومه وفصل اعتباره — إنما يصلح لتعليل لعدم نجاح الشعراء المعاصرين نجاح شوق وأضراجه ، وبقي تعللهم من مجازاة البارودى غير معطل ، فأنى ناقدنا منصفا لا يستطيع أن ينكر شاعرية المخفور له الشاعر البدوى محمد عبد المطلب ، الذى كان عربى الثقافة ، وكان يجادب أولئك القصور أبراد التبريز والإجادة فى شتى المواقف الشعرية فى عصرنا الحاضر . كما لا يستطيع ناقد أن يجحد شاعرية الشاعرين العظيمين : حسن القايتى ، وأحمد محرم ، وكلاهما عربى الثقافة ، ولئن شدا فانيهما شيئا من اللغة الأجنبية ، إن ديباجة شعره لترده إلى أساليب العصر الأموى ، لا العصر العباسى .

لا جرم أن امتزاج الثقافات ، طار بالشعر المباسى الى القروية ، ولكن عدم هذا الامتزاج أو قلته ، لم يقصر بالشعر الأموى عن مساماته ، بل عن سبقه في ميدان الإبداع كما سبقه في الحياة ؛ ولم يقصر بشعراء الأندلس عن التبريز في الشعر الرقيق ، وإن وقفوا دون شعراء الشرق في الجزالة ، وقوة الأسر في الغالب .

ولا يزال عندما الأزهر ودار العلوم ، وثقافتهما تكاد تكون عريية بمحنة ، لم تطلع عليها الثقافة الأجنبية ، ولكن جودهما - مع ذلك - بالشعراء المجيدين زور في هذا العهد الأخير . وعلى الجلة فتعليل وقوف الشعر ، بضعف امتزاج المنصرين المكونين للثقافة الحاضرة ، هو التزام من القاد المعاصرين لمذهبهم ، وهو طرح الأسلوب الشعرى القديم من الحساب ، لأنه أصبح لا يلائم الذوق المصرى كما سبق ؛ ولكن رجال المدرسة القديمة لا يزالون على أن التزام عمود الشعر العربى شرط أساسى في قبول الشعر ، وأن الشعر يهز من عواطفهم ، ويحرك من مشاعرهم ، بمقدار قربه من النهج القديم أسلوبا وخيالاً ، وإن كانوا يفضلون التجديد القوى المتولد عن الهضم الكامل لروائع الثقافة الأجنبية ، كما حصل في العصر المباسى .

ورحم الله أباه عبادة البحترى ، إذ يقول - وقد عيب عليه أنه لم يسر على المنطق في شعره :

كلفنمونا حدود منطقكم      والشعر ينفى عن صدقه كذه  
ولم يكن ذو القروح يلج بالمدح      طق : ما نوعه ، وما سببه  
والشعر لمسح ، تكلى إشارته      وليس بالهذر طولت خطبه

لقد اصطلحت على الشعر في عهده الحاضر أحداث عدة ، ليس أهمها عدم امتزاج الثقافتين ، وإن كان منها . فإن هذا الامتزاج إنما هو ضرورى ، أو قريب من الضرورى ، في نقد الشعر ، وليس ضرورياً في إنشائه ؛ وعلى حد التعبير الحديث : في الأدب الوصفى ، لا فى الأدب الإنشائى . ولعل أهم هذه الأحداث ، هو تلك الموجة المادية الجارفة ، التى احتاحت الشرق العربى ، وفي مقدمته مصر ، وافدة من الغرب ، على أثر الحرب الكبرى ، وتحلى العلوم الطبيعية فيها بجلبها ، أظهر من الحقائق الواقعية ، ما هو أروع من الخيال ؛ وصرف وجوه الناس عن ذلك الهدوء الروحى الذى كانت تنعم النفوس فى أحيائه ، وتسبح فى آفاقه الفسيح البواسم ، الى تلك السوق المصطنعة الزاخرة بضروب الملذات الجسمية المفرية ، التى أغتتهم بنعيمها المحقق ، عن ارتياد مسارج النعم فى أخيلة الشعراء ؛ ومضى ضعف الخيال ، أو فقد ، انهدم الركن الأول من أركان الشعر العربى منذ كان الشعر العربى ؛ ولا عجب أن يزدهر النثر ويقوى ، ويشتم هذه القروية التى سما إليها على أنقاض شقيقه الشعر ، فلم يزل النثر القفى منذ كان ، يرتكز على عماد من العقل والمنطق ، رفعت من ذراه هذه الحصار الطاغية ، التى سخرت الأرض والسماء ، والهواء والماء . بيد أن اندفاع تيار الطبيعية ، وطينانه هذا الطغيان ، الذى كان أول

فرائسه الآمن ، قوام كل أمر ، وملاك كل سعادة ، أمداد الى نفسى بواعث الأمل ، فى أن  
الجنة العالمية القاسية التى تخوض الأمم غمارها اليوم ، هى النهاية الفاجعة لتفشل الحضارة  
الراهنه ، وهى الهضبة التى ستتكرر على صفورها أمواج الطبيعة الكافرة الفاجرة ، وهى  
المرشد الناصح المهيّب بهذا العالم المضطرب المذعور ، أن يشد الآمن فى السماء ، بعد أن أعياه  
فى الأرض ، حتى فى عالم الخيال . أجل ، إن نتيجة هذا الهم الشامل ، وهذا البلاء النازل ،  
هو الإيمان الكامل ؛ وفى هذا الإيمان ضمان لمودة المدينة الفاضلة : مدينة الحق ، والعدل ،  
والجمال .



يل هذا السبب فى الأهمية ، ضعف الوازع الشعرى فى نفوس غول الشعراء الاحياء من  
المدرسة القديمة والحديثة معا ؛ ولهذا الضعف أسباب ، منها خلل الميدان من أعلام الشعر ،  
وحامل لوائه ، الذين كان فى منافستهم ، والوقوف بجانبهم ، تمراد نثار ، ومجال عظمه ، لغيرهم  
من الشعراء ؛ ومنها فوضى النشر ، وامتلاء السوق بالمشاعرين ، واختلاط الأمر على القراء ،  
فى تخيير الشاعر من المنشاعر ؛ ورحم الله صحيفة كان نشرها للقصيد ، إجازة كالأجارات العليا  
فى أيامنا هذه ، يستحق بها منشئها أن يسلك فى نظام الشعراء ، تلك صحيفة المؤيد ، سقى الله  
أطلالها الدواوس ، وحيّا أهلامها الطوامس . . .

ومنها ، بطء التقرب بين عملى المدرستين : القديمة والحديثة ، فالمجددون يقابلون بهتور ،  
أو ينقد عنيف ، ما تجود به قرأتهم شعراء المدرسة القديمة ، وهؤلاء يسيثون الظن بكل نقد  
يصدر عن أولئك ، وليس مع التنافر وسوء الظن تعاون ولا اطمئنان .

وليس بأقل من السببين الآتين ، أثر الإذاعة ، وإثارةها — بحكم موقعها من السواد  
الغالب فى الأمة — أقرب أنواع الشعر من أفهام العامة ، وإعراضها إعراضا تاما عن جزله  
ومحكمه ؛ وليس أقتل لنشاط الشاعر من إهمال آثاره الفكرية ، فى حين يستبد بالخط من  
لا يساميه شعراء ، ولا يدانيه نفرا .

هذا ، الى ما أسلفنا فى غضون هذه النظرات ، هو ما وصل بالشعر الى هذا الموقف ،  
الذى أصبح فيه جدرا بأن ينشد ، وأن ننشد معه :

أبن امرؤ القيس والقوافى      إذ مال من تحت النسيب  
استنيط العرب فى الموائى      بصدك ، واستعرب النسيب

عبد الجواد رمضان

# حياة حلال بن الحسن

عبد الله بن الزبير

صرامته في الحق — فصاحته — شجاعته

قلنا في المقال السابق إن عبد الله بن الزبير كاد يتم له أمر الخلافة وتجتمع عليه الأمة لولا خلال عدها بعض المؤرخين نقصا في استمداده لهذا المنصب الخطير ، وعددناها تساميا منه من مزلق السرف ومضال السياسة الجائرة ، فلا يضيره أن يكون أراد بالناس سياسة جده الصديق وعادل الفاروق ، ولم تكن له رعية الصديق ولا جند الفاروق . وإذا كان أبو خبيب قد أثنى من قبل أطماع الناس وفساد ضارم فانه قد ساعد على نفسه بما فتح من ثغر بينه وبين أفرانه من الهاشميين ، بدأت بالمنافسة التي أذكتها المعاصرة ، وقد أخذت تشتد وتقوى حتى تحولت الى خصومة ظاهرة تؤثرها المفارقة ، ويزيد أوارها المتربصون من الأمويين . روى إبراهيم بن عبد البهيقي في كتاب « المحاسن والمساوي » : أن عبد الله بن عباس دخل المسجد بعد مسير الحسين بن علي الى العراق ، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استعلام بالسكلام ، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير وقال : « أصبحت والله كما قال الأول :

يا لك من منجزة بمعمر      خلا لك الجو فيضى واصفرى  
وتقرى ما شئت أن تنقرى      قد رفع القمع فاذا تحذرى

خلت الحجاز من الحسين بن علي ، وأقبلت تهدير في حوائبها . فغضب ابن الزبير وقال : « والله لكانك ترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك » . فقال ابن عباس : « إنما يرى من كان في حال شك ، وأنا من ذلك على يقين » . فقال : « وبأى شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر مني ؟ » قال ابن عباس : « لانا أحق ممن يدل بحقه ، وبأى شيء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ » فقال ابن الزبير : « تحقق عندي أني أحق بها منكم لشرقي عليكم قديما وحديثا » . فقال ابن عباس : « أنت أشرف أم من قد شرفت به ؟ » فقال ابن الزبير : « إن من شرفت به زادتني شرفا الى شرف قد كان لي قديما وحديثا » . قال ابن عباس : « أفنتي الزيادة أم منك ؟ » قال : « بل منك » . فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت ، والله لا نحبسوننا يا بني هاشم أبدا » . قال

ابن عباس : « صدقت ، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى » . فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة » . قال : « إنما أصفح من أقر ، وأما من هرت فلا ، والفضل لأهل القمبل » . قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : « عندنا أهل البيت ، لا تصرفه عن أهله فتظلم ، ولا تضعه في غير أهله فتندم » . قال ابن الزبير : « أملت من أهله ؟ » قال : « بلى إن نبذت الحميد ، ولزمت الجدد » .

زادت هذه الغصومة شدة على مر الزمن ، ودفعت الهاشميين الى الامتناع عن بيعه ابن الزبير وإظهار الطعن عليه ، فشردهم ، وحبس زعماءهم ، ونفى قادتهم . قال صاحب المقد : « ولما توطد لابن الزبير أمره ، ومكك الحرمين ، والعراقين ، أظهر بعض بنى هاشم الطعن عليه ، وذلك بعد موت الحسن والحسين ، فعدا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجاعة من بنى هاشم الى بيعته فأبوا عليه ، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر ، ثم قال لهم : لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار ! فأبوا عليه ، حبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بنى هاشم في سجن حارم ؛ وفي ذلك يقول له كثير عزة وكان شيعيا :

تخبر من لا قيت أنك مائد بل العائد المظلوم في سجن حارم  
سمى النبي المصطفى وابن حمة وفكك أغلال وقاضى مغارم

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : « إن ابن الزبير أخرج محمد بن الحنفية ونفى ابن عباس الى الطائف ، وقد كان لهذا النزاع أثر سوء في فشل ابن الزبير وتفرق كثير من أصحابه عنه » . أما شجاعة عبد الله بن الزبير ورباطة جأشه وفصاحة منطقته وبراعة بيانه ، فعن البحر حدث ولا حرج . ذكر ابن عبد ربه في كتاب المقد : « أن عبد الله لما بلغه قتل مصعب سعد المنبر فجلس عليه ثم سكث ، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة ، فقال رجل من قريش لرجل الى جنبه : ماله لا يتكلم ؟ فو الله إنه للخطيب اللبيب ! فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشهد عليه ذلك ، وغير ملوم . ثم تكلم عبد الله فقال : « الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، والدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء . أما بعد فإنه لم يزد من كان الباطل معه ولو كان معه الآثام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ولو كان فردا . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فإن لعراق الحميم لوعة يجدها حبيبه ثم يرعوى ذوو الألباب الى الصبر وكريم الاجر ، وأما الذى أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطعام الصم الآذان أهل العراق وباعوه ناقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن حمة وكانوا الخيار الصالحين أما والله لا نموت حتفا كما يموت بنو مروان ، ولكن قمعا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ! ألا إنما الدنيا طارية من الملك الأعلى الذى لا يبدي ذكره ،

ولا يذل سلطانه ، فإن تقبل الدنيا على لم آخذها مأخذ الأشر البطر ، وإن تدبر على لم أهلك عليها بكاء الخرق المهن .

خرج العراقي بمقتل مصعب عن طاعة عبد الله ، وكانت الشام قد استتمت طاعتها لعبد الملك ابن مروان ، ولم يبق مع عبد الله غير الحرمين على ما قبيها من دخن ممن يوالى الهاشميين ؛ فلما رأى عبد الله ذلك جمع خاصته من القرشيين ليستشيرهم ، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل من بني غزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما يزيد على أن نموت ، وإنما هي إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فمأخذ الأمان لأنفسنا ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله : لقد كنت طاهدت الله أن لا يبايعني أحد فأقبله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أما فاني أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وإنى لناخذنى الحفيظة أن أسلك في مثل هذه الحالة ! وقال له رجل آخر : أكتب الى عبد الله بن مروان ، فقال له : كيف أكتب ؟ من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبدا ! أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الخضراء أحب إلى من ذلك ! فقال أخوه عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة ، قال : من هو ؟ قال : حسن بن علي ، خلع نفسه وبيع معاوية . فرفع عبد الله رجله وضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقال : قلبي إذا مثل قلبك ! والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنيا ، وإن ضربة بسيف في عز ، خير من لطفة في ذل !

هذا موقف ليس في حاجة الى التعليق على ما فيه من شجاعة ، وشرف نفس ، وقوة قلب ، واستهانة بالموت في سبيل الكرامة والعقيدة . وليس غريب على ابن أسماء الصديقية وابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنة ما هو أعجب وأسمى ، وهو ما نجب أن نطيل التأمل فيه ، ونود بمجدهم الأنف لو أن كل مسلم ولا سيما الشباب أطال التأمل فيه وجعله مثله الأعلى في تكوين رجولته ، وتعلم منه كيف تكون الحياة العزيزة . وكذلك نود لو أن كل امرأة مسلمة جعلته شعارها في تربية بناتها تربية صادقة الرجولة حتى يكون منهم لوطن الاسلامى هذه قوية في هذا العصر النائر الكليب .

روى أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب وجمهرة المؤرخين عن عروة بن الزبير وغيره ، قال : « لما كان قبل قتل عبد الله بن الزبير بمشرة أيام ، دخل على أمه أسماء وهي شاكية ، فقال لها : كيف تمجدينك يا أمه ؟ قالت : ما أجدين إلا شاكية ، فقال لها : إن في الموت راحة ، فقالت : لعلك تمنيت لي ، ما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك ، إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بمدوك فتقر عيني ! قال عروة : فالتفت إلى عبد الله فضحك ، فلما كان في اليوم



الذي قتل فيه ، دخل عليها في المسجد ، فقالت له : يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها علي  
تسلك الدل مخافة القتل ، فوالله لضربة سيف في عز خبير من ضربة سوط في الدل ! فقال  
عبد الله : يا أماء أما ترين ؟ خذني الناس ، وخذني أهل بيتي ، فقالت : لا يلعبن بك صبيان  
بني أمية ، عش كريما ، ومت كريما ! ثم قبل رأسها وودعها ، وضمتها إلى نفسها ، فخرج  
من عندها وصعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إن الموت قد اغتصاكم  
سحابه ، وأحذق بكم وبأبه ، واجتمع بعد تفرق ، وارجعن بعد تمشق ، ورجسن نحوكم بعده ،  
وهو مفرغ عليكم ودقه ، وقاد اليكم البلايا تنبها المنايا ، طجعلوا السيوف لها غرضا ،  
واستمبنوا عليها بالصبر » ثم قال لعبد الله بن صفوان وكانت صفية : قد أفلتت بي يمتي ،  
وجعلت في سعة ، فخذ لنفسك أمانا ، فقال ابن صفوان : مه ؟ والله ما أعطيتك إياها حتى  
رايتك أهلا لها ، وما رايت أحدا أولى بها منك ، فلا تضرب فتيان بني أمية هذه الصلعة  
أبدا ! ثم دخل ابن الزبير بيته فنام ، لحاه ابن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن ،  
فقالت الجارية : هو نائم ، فقال ابن صفوان : أولية نوم هذه ؟ ! أيقظيه ! فلم تعمل ، فقام  
ثم استأذن ، فقالت : هو نائم ، فأنصرف ثم رجع آخر الليل وقد هم القوم على المسجد ،  
فخرج ابن الزبير فقال : والله ما نمت منذ عقلت الصلاة فومي هذه الليلة وليلة الجمل ، ثم دعا  
بالسواك فاستاك متكنا ، ثم توشأ متكنا ولبس ثيابه ، ثم قال : أنظرنني حتى أودع أم عبد الله  
فلم يبق شيء ، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ، فدخل عليها وقد كف  
نصرها ، فسلم ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عبد الله ، فنهضت ، ثم قالت : يا بني لا ترض  
الدنية ، فإن الموت لا بد منه ! قال : إني أخاف أن يمتلوا بي ، قالت : إن الكبش إذا ذبح  
لم يخف السلخ !

ثم خرج وقد جعل له مصراع عند الكعبة فكان تحت ، فقال له رجل من قريش :  
ألا تفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شيء نحفظ أخاك إلا من نفسه ،  
والله لو وجدوكم تحت أسيار الكعبة لقتلوكم ، وهل حرمة المسجد إلا حرمة البيت ؟ ثم غثل :  
ولست بمحتاج الحياة بسببة ولا مرتق من خشية الموت ستلما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ،  
لأحد أبواب المسجد ، فقال لأصحابه : اكسروا أحماد سيوفكم ، ولا تقبلوا عني ، فإني  
في الرعب الأول ، ففعلوا ، ثم حمل وحملوا معه ، وكان يضرب بسيفين ، فقال رجل يقال له  
حليوب لأهل الشام : أما تستطيعون إذا والاكم ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم ؟ قالوا :  
ويمكنك أنت أن تأخذ بيدك ؟ قال : نعم ، قالوا : فنامك ، فأقبل وهو يريد أن يحتضنه ،  
فاستقبله ابن الزبير بضربة قطع بها يده . فقال حليوب : حسن ! فقال ابن الزبير : امسبر

خلبوب ! ثم دخل عليه أهل حصن من باب بنى شيعة ، فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا : أهل حصن ، فقد عليهم حتى أخرجهم وهو يرتجز :

لو كان قرني واحدا كُفيتَه      أوردته الموت وقد ذكيتَه

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر ، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ، ثم انصرف وهو يقول :

لا عهد لي بغارة مثل السيل      لا ينجل قناتها حتى الليل

فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا وهو منصرف فضربه بين عينيه ، فانسكس رأسه وهو يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى قلوبنا      ولكن على أقدامنا يقطر الدم

فلما علم أصحاب الحجاج بمقتله كبروا ، فقال عبد الله بن عمر : ما هذا ؟ قالوا : أهل الشام يكبرون لقتل عبد الله بن الزبير ، فقال ابن عمر : الذين كبروا المولود خير من الذين كبروا لقتله . وروى أن عبد الله بن عباس قال لقائده : جنبت خشية ابن الزبير ، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها ، فقال : ما هذا ؟ فقال : خشية ابن الزبير ، فوقف ودعاه ، وقال : « لئن علمت رجلا لك لظالما وقتت عليهما في صلاتك » ثم قال لأصحابه : « أما والله ما عرفته . لا صوتا قواما » . وروى ابن القاسم عن مالك أنه كان يقول : « ابن الزبير كان أفضل من مروان ، وكان أولى بالامر من مروان ومن ابنه » .

وقال مجاهد : « كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه صمود ، وكان يواصل من الجمعة إلى الجمعة ، وما كان باب من العبادة إلا تكلف ، ولقد جاء سيل بالبيت فرأيت بطوف سباحة » . وقال عمرو بن دينار : « ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير » .

صادق إبراهيم هرموز

## فضيلة العفو

كان المأمون بن هارون الرشيد غاية في العفو حتى إنه قال : لو علم الناس حيي للعفو لتقربوا إلى بالجرائم .

وقال هو أيضا : والله إنني استلذت العفو استلذا إذا أظن أن الله لا يأخرنى عليه .

نقول : العفو من كرائم الخصال ، وقد حض الله عليه ، ولكن في الحال التي يغلب الظن فيها أنه يكون أنفع للمذنب وللناس من العقوبة . أما إذا كان العفو مجرد هوى للنفس يصمه الإنسان حيث يفسد الأخلاق ، ويشيم الرذيلة ، ويزعج الأمن ، انقلب العفو إلى جريمة .

# التجديد والمجددون في الاسلام

من القرن الاول الهجري الى عصرنا الحاضر

## الامام الاعظم أبو حنيفة

دراسات في مذهبه

### ١ — هل كان يستعمل أبو حنيفة الرأي ويقدم القياس على النص ؟

زعم بعض المتعصبين أن الإمام الأعظم كان يستعمل الرأي ويقدم القياس على النص ؛ ولو فهموا مدارك مذهب أبي حنيفة ، وحقيقة الرأي ، ما قالوا هذا القول غير الصحيح ، بل كان إفراطهم وتجاوزهم الحد في دم أبي حنيفة ينقلب إلى مدحه والثناء عليه ؛ فليس الرأي مذموم ولا القياس إلا إذا لم يكن مندرجا تحت أصل من أصول الشريعة ، ولم يصادف قاعدة من قواعدها ؛ وكل كلام شهد له الشريعة بالصحة ، أو وافق الأصول ، أو اندرج تحت القواعد ، فهو من السنة وليس من الرأي المذموم . جاء في السنن الكبرى للبيهقي في باب القضاء : أن الرأي المذموم هو كل ما لا يكون معها بأصل . وعلى ذلك يحمل كل ما ورد في ذم الرأي . وأبو حنيفة في دينه وورعه لا يعقل أن يتخطى دائرة هذا الأصل . والمعروف عنه بالدليل أنه لم يكن يقدم رأيا أو قياسا على نص . ولا أدل على هذا من قوله : إنه يأخذ أولا بما في القرآن الكريم ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى القرآن أو السنة من أقوالهم ، ولا يخرج عنهم ، فإذا لم يجد لاحد منهم قولاً اجتهد رأيه في دائرة أصول الشرع ؛ حتى إنه قال : عجبٌ للناس ! ! يقولون إنني أفقي بالرأي ، ما أفقي إلا بالآثر .

ويقول ابن حزم : جميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأي .

ويقول الامام أبو جعفر البلخي : فهذا الذي روينا — وهو تأخير القياس عن الكتاب والسنة وأفضية الصحابة — هو النقل الصحيح من أبي حنيفة .

ويقول الامام الجلال السيوطي : إن الامام أبا حنيفة كان يقدم الحديث على القياس ، بل كان يقدم الآثار على القياس فضلا عن الاحاديث ، وأفضية الصحابة كلها من قسم الآثار ؛ فكان لا يقيس إلا إذا لم يجد دليلا لمسألة في كتاب ولا سنة ولا في أفضية الصحابة

ويقول الامام أبو مطيع : كنت جالسا مع الامام أبي حنيفة في جامع الكوفة ، فدخل عليه سفيان الثوري وجعفر الصادق وغيرهما من الفقهاء ، فقالوا لأبي حنيفة : بلغنا أنك تكثر من القياس في الدين وأول من قال إبطيس . فناظرهم الإمام يوم الجمعة من بكرة النهار إلى قرب الزوال ، وعرض عليهم مذهبه ، وقال : إني أقدم العمل بالكتاب ثم بالسنة ثم بما اتفق عليه الصحابة ، فإذا اختلفوا رُفِستُ حينئذ . فقالوا له : أنت سيد العلماء ، فاعف عما مضى من قيمتنا فيك بغير علم .

أما ما روى عن الإمام أبي حنيفة من قوله : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب منا » ، وفوله : « هذا الذي نحن فيه ربي لا نجبر عليه أحدا ولا نقول يجب على أحد قول » ، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به نقله » ، فالمراد بهذا الرأي ما هو واضح مما تقدم من أنه لا يجتهد رأيه إلا عند فقد النص ، حتى قال هو نفسه : « هذا القياس الذي نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لئلا نرده إلى الكتاب أو السنة أو اتفاق الصحابة ثم نجتهد الرأي بعد ذلك عند فقد النص » . وقد قال الإمام الشمراني : لم يرل الأئمة كلهم ومقلدوم يقيسون في الأحكام إلى وقتنا هذا من غير ذكر حيث لم يجدوا دليلا نصا في المسألة ، بل جعلوا القياس أحد أدلة الشريعة كما قال الامام الشافعي : « إذا لم نجد دليلا في المسألة قسناها على الأصول » .

فلا خصوصية للإمام أبي حنيفة في اعتراض بعض المتعصبين عليه من هذه الناحية ، ثم إن صح الدليل بعده في تلك المسألة فانه معذور ، وفيما إذا وجد حديثا ولم يصح عنده فقاس في تلك المسألة على أصل صحيح ، لأن القياس على الأصول أقوى عند بعضهم من خبر الآحاد الصحيح فكيف بالصحيح ؟ وقد كان الامام أبو حنيفة يشترط في الحديث المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العمل به أن يرويه عن الصحابي جمع عن مثلهم ، وهكذا اعتقاد كل منصف في الامام الأعظم .

ويحتمل أن الذي أضاف إلى الإمام أبي حنيفة أنه يقدم القياس على النص ظهر بذلك في كلام بعض مقلديه الذين يجحدون على القياس المنقول عن إمامهم ولا يحالونه كما عليه غالب المقلدين ويقولون : إن الإمام لم يأخذ بهذا الحديث ، فلما رأى الممتز ذلك في كلام بعض المقلدين ظن أن ذلك مذهب للإمام فعزاه إليه لجهله بحقيقة المذهب .

على أن غالب قياسات الإمام أبي حنيفة من القياس الجلي الذي يعرف به موافقة الفرع للأصل بحيث ينفى احتمال افتراقهما . على أن كل ممتز على الإمام أبي حنيفة كما قال الامام الشمراني جاهل بمدارك الامام ، وكما قال : لقد تقبعت المسائل التي قدم فيها المقلدون من الحنفية القياس على النص فوجدتها قليلة جدا ، وبقيت المذهب كله فيه تقديم النص على القياس ، ولا

خصوصية لمذهب أبي حنيفة في ذلك . وهذا هو الامام الليث بن سعد يقول : « أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة عما اجتهد فيها برأيه » . وقد روى ابن أبي العوام عن نصر بن يحيى البلخي قال : قلت لأحمد بن حنبل : ما الذي تقيم على أبي حنيفة ؟ قال : الرأي . قلت : فهذا مالك ألم يتكلم بالرأي ؟ قال : بلى ولكن رأى أبي حنيفة خلد في الكتب . قلت : فقد خلد رأى مالك في الكتب أيضا . قال : أبو حنيفة أكثر رأيا منه . قلت : فهلا تكلمتم في هذا محضه وهذا بمحضه ؟ فسكت .

فإن كان أبو حنيفة استعمل الرأي على الوجه المتقدم ، فهذا مالك وهذا الشافعي تكلم كل منهما بالرأي على الوجه المذكور أيضا ؛ فمطمئنة الأدلة التي أخذ بها الامام أبو حنيفة هي التي أخذ بها كل إمام ، وما انفرد بعضهم عن صاحبه إلا ببعض أحاديث ، وكلهم في ذلك الشريعة يسبحون . فالعقل من أقبل على أقوال أبي حنيفة وأقوال جميع الأئمة وعمل بها بانفراح صدر لأنها لا تخرج عن مرتبة الشريعة الثنتين هما : التخفيف والتشديد . ولقد قال الامام الشافعي : لقد بلغنا كل أقوال الإمام أبي حنيفة فما رأيت فيها قولاً إلا وهو مستند إلى صريح آية أو حديث أو أثر أو مفهوم أو إلى قياس على أصل صحيح ، وما رأيت استدلالاً بحديث ضعيف ، وإنما يستدل به إذا كثرت طرقه ، ولا خصوصية له بذلك بل يوافقه جميع الأئمة ؛ وقد ثبت مدح الامام مالك ومدح الامام الشافعي لأبي حنيفة ، فلا عبرة باعتراض غيرها على بعض أقواله .

#### ٢ — أبو حنيفة علم المحدثين — مدرسة الرأي وأئمتها :

على أنما لو سلمنا أن أبا حنيفة كان يجعل للرأي والقياس — في حدود الشرع — اعتباراً ، ويحاربها المكان الأرفع ، فلا خصوصية له في ذلك . وهذا شأن المجددين — والاسلام دين تجديد وإصلاح ونهضة ، ينص الحديث السابق نشره — الذين لا يعرفون الجود ، ويستقدون أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وما من حادثة تحصل إلا ويمكن تطبيقها على قواعدها ومبادئها العامة ، وإيجاد حكم لها فيها مهما كانت هذه الحادثة ، ولا تستخدم شريعة الله تعالى بأفضل من هذا . ولم ينفرد أبو حنيفة باعتبار الرأي والقياس وإتقانها المكان الأسمى ، فقد ورد عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم من اجتهاد الرأي والقياس على الأصول عند عدم النص ما يطول ذكره ، ونقل عن كثير من كبارهم وأعيانهم قضائاً أقنوا فيها برأيهم ، كأبي بكر وعمر ، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وغيرهم . والمتبع لما ورد عن السلف يرى أن الذي كان يحمل لواء مدرسة الرأي عند فقد النص : هو ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فكان إذا أعياء أن يجد في القرآن والسنة نسطراً هل كان فيه لأبي بكر قضاء ، فإن وجد قضى به ، وإن لم يجد دماراً وس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به . وجاء في المبسوط للشيخ د أن صر كان يستشير الصحابة مع فتبه حتى إذا وقعت إليه حادثة قال : ادعوا لي علياً ،

وإدعوا إلى زياد... فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه». وأشهر من سار على طريقة عصر «عبد الله بن مسعود» ومعلوم أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود، وأن مدرسة العراق أو مدرسة الرشي توجت بأبي حنيفة، وإذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعي، وإبراهيم أخذ عن علقمة بن قيس، وعلقمة أخذ عن عبد الله بن مسعود، وعبد الله أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان صلى الله عليه وسلم يحتج برأيه حيث لا يكون وحى، كما ترى هذا في مسألة أسرى بدر، لأنه لو كان صلى الله عليه وسلم حكم فيها بمقتضى الوحي ما عوتب في هؤلاء الأسرى. ففسح العلم والتربية في الاسلام، ومصدر التشريع والحكمة، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال المزني: الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم، وأجمعوا على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتخيل عليها.

وقال الحافظ ابن عبد البر: لا خلاف بين فقهاء الأمصار في إثبات القياس في الأحكام إلا من شذ، وعن حفظ عنه أنه قال ونفق يحتجوا برأيه وقايسا على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً من التابعين:

أولاً — من أهل المدينة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبان بن عثمان ابن عفان، وابن شهاب، وأبو الزناد، والإمام مالك بن أنس وأصحابه، وابن أبي ذئب، وابن دينار، وابن الماجشون، والقاسم بن عبد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وربيعة الرأي. ثانياً — ومن أهل مكة والمين: عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وعمر بن دينار، وابن جريج، ويحيى بن أبي كثير، وابن عيينة، ومسلم بن خالد، والإمام الشافعي.

ثالثاً — ومن أهل الكوفة: علقمة، والأسود، وشريح القاضي، ومسروق، وإبراهيم النخعي، والعمري، وسعيد بن جبيرة، وحماد بن أبي سليمان، وابن المبارك، وسائر الكوفيين. رابعاً — ومن أهل البصرة: الحسن، وابن سيرين، وإبراهيم بن معاوية، وعثمان البتي، وسوار القاضي.

خامساً — ومن أهل الشام: مكحول، والأوزاعي.

سادساً — ومن أهل مصر: الليث بن سعد، وابن وهب، وابن القاسم، وأشب، وابن عبد الحكم، وسائر أصحاب الإمام مالك، وأصحاب الإمام الشافعي: المزني والبويطي والربيع، وغير هؤلاء من علماء الأمصار.

فعلم مما تقدم أن الامام أبا حنيفة لم يقدم الرأي على النص ، ولم يتفرد بالقول بالقياس على الأصول ، بل على ذلك كثير من الصحابة والمابعين وفقهاء الأمصار ؛ وسقط قول من عاب الامام أبا حنيفة بذلك جهودا منه وعدم إدراكه لمذاهب مذهب ؛ وما كان أبو حنيفة جامدا ، ولكنه كان تعلم المجتهدين ، وحاملا لواء التجديد ، وحير من يعمل للشرعة الاسلامية لجمعها حديثة دائما ، صالحة لكل زمان ومكان ، ساذجة حاجات البشر وجميع حوادث الحياة المتجددة في كل يوم ؟

السيرة عفيفي

## اختيار الاخوان

قال الفضيل بن عياض : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه .  
هذه كلمة يفهمها من كان له قلب ، فإن لمعرفة الناس واجبات لا يصح التقصير فيها ، وإلا انقلب ودم الى عداوة . فمن كثر معارفه كان منهم في شغل دائم لا يكاد يفرغ لعمل صالح يؤديه لولمه ولنفسه ولاهله . لأنه لا يتخلو أن يكون منهم مريض ، يجب أن يعوده ، ومائد من سفر ، ينبغي أن يهتئ بالسلامة ، ومصاب بكارثة ، لا بد من مواساته ، ومحتاج لمعونة ، يفرض عليه أن يكون عند ظنه به ، الى غير هذه الأصول مما لا يمكن حصره ، فإذا قام بهذا كله لم يبق له وقت ينظر فيه للمصلحة عامة ولا خاصة . ولا سبب للتورط في هذه المصائب إلا حب الظهور ، وهو داء دوي يؤدي الى عكس المراد منه . فكيف لا يكون من سخافة العقل النجاشي فيه ؟

أليس الامام عبد الله بن المبارك أكيس الناس حين أجاب من سأل . ألا تستوحش من ملازمتك لكاتبك وتركك الناس ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا أجالس الله تعالى والملائكة والأنبياء والخلفاء والعلماء والأولياء والشهداء ، أمقرون أن أدمع بحالسة هؤلاء وأجالسكم ؟ ومن بنى على الأساس الذي وضعه الفضيل بن عياض ، حفص بن حميد ، حيث قال : من لم ينقص كل يوم صديقا لا يفلح أبدا .

والقصد في هذا أن لا ينقطع الانسان عن الناس ، وأن لا ينهمك بهم ، وأن يتخذ بين ذلك سبيلا .

## حكم إقامة القبور في المساجد

### وبناء المساجد على القبور

فتوى من حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية

أصدرت دار الافتاء في الديار المصرية الفتوى الآتية في شهر جمادى الآخرة الماضي :

كتبت وزارة الأوقاف ما يأتي : « يوجد بوسط مسجد عز الدين إيبك قبران ورد ذكرهما في الغلط التوفيقية ، وتقام الشعائر أمامهما وخلفهما ، وقد طلب رئيس خدم هذا المسجد إلى محافظة مصر دفنه في أحد هذين القبرين ، لأن جده الذي جدد بناء المسجد مدفون بأحدهما . فترجو التفضل ببيان الحكم الشرعي في ذلك » .

الجواب :

إنه قد أفنى شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه لا يجوز أن يدفن في المسجد ميت لا صغير ولا كبير ولا جليل ولا غيره ، فإن المساجد لا يجوز تشبيها بالمقابر .

وقال في فتوى أخرى : إنه لا يجوز دفن ميت في مسجد ، فإن كان المسجد قبل الدفن غير ، إما بتسوية القبر ، وإما بنيشه إن كان جديدا الخ ١ هـ

وذلك لأن الدفن في المسجد إخراج لجزء من المسجد مما جعل له من صلاة المكنوبات وتوابعها من الغل والذكر وتدريس العلم ، وذلك غير جائز شرعا ؛ ولأن اتخاذ قبر في المسجد على الوجه الوارد في السؤال يؤدي إلى الصلاة إلى هذا القبر أو عنده ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم « ص ١٥٨ » ما نصه : إن النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم تواترت بالنهاى عن الصلاة عند القبور مطلقا ، وعن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها . ١ هـ

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن أبي هريرة القنوي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : نص الامام أحمد وغيره على أنه إذا دفن الميت في المسجد نبش . وقال ابن القيم أيضا . لا يجتمع في دين الاسلام قبر ومسجد ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم السابق .



وقال الامام النووي في شرح المذهب ج ٥ ص ٣١٦ ما نصه :

اتفقت نصوص الشافعي والاصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر ، سواء كان الميت مشهورا بالصلاح أو غيره ، لمعوم الأحاديث قال الشافعي والاصحاب : وتكره الصلاة الى القبور سواء كان الميت صالحا أو غيره .

قال الحافظ أبو موسى : قال الامام الزعفراني رحمه الله . ولا يصلي الى قبر ولا عنده تبركا به ولا إعظاما له ، للأحاديث . ١ هـ

وقد نص الحنفية على كراهة صلاة الجيزة في المسجد لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على جنازة في المسجد فلا أجر له » .

وعلى صاحب الهداية هذه الكراهة بعلمين . إحداهما أن المسعد بنى لأداء المكتوبات ، يعني وتوابعها من الوافل والتذكر وتدريس العلم . وإذا كانت صلاة الجيزة في المسجد مكروهة للعلة المذكورة كراهة تحریم — كما هو إحدى الروايتين ، وهي التي احتارها العلامة قاسم وغيره — كان الدفن في المسجد أولى بالخطر ، لأن الدفن في المسجد فيه إخراج الجزء المدفون فيه مما جعل له المسجد من صلاة المكتوبات وتوابعها . وهذا مما لا شك في عدم جوازه شرعا . والله أعلم .

## الباقيات الصالحات

في مدينة المنصورة هي أهل بالسكان والطلبة يطلق عليه « حوض البستان » لا يوجد فيه مسجد تقام فيه الشعائر الدينية .

وقد لاحظ جماعة من فضلاء المنصورة هذا النقص ، فانتدبوا لإي كاله ، وألغوا جمعية لهذا الغرض برئاسة الأستاذ علي محمود شرف أمموها « جمعية تشييد مسجد حوض البستان وملحقته الصحية » وجعلت في تصميم المشروع ملحقة صحية هي حمام ومغسل ، ترفيها للطبقات الفقيرة . وقد أهابت الجمعية بسرارة المنصورة فابوا نداءها وتبرعوا بالأرض وبالمال ومواد البناء . ولكن إتمام المشروع لا يزال في حاجة الى مال ، ولذلك فهم يهينون بطلاب الباقيات الصالحات أن ينفجوا الجمعية بشئ مما تسمح به نفوسهم الخيرة ، والله لا يصيب أجر المحسنين .

## تاريخ علم التفسير

ونماذج من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم

أثبتنا في المقال السابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن الكريم ، ولكنه ليس تفسيراً بالمعنى المعروف عند المتأخرين ، أى الذى يكون مرجعه قواعد اللغة والبلاغة وغيرها ، بل هو بيان لمراد الله سبحانه وتعالى من حيث التفسير وتقديم الأحكام ، وبيان ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومنطوقه ومفهومه ، وحلاله وحرامه ، وبيان ما فيه من أخلاق سامية ، ونظم اجتماعية عالية ؛ ومرجعه صلى الله عليه وسلم فى ذلك كله الوحي ؛ فلذلك قال بعض الأصوليين فى مباحث الاجتهاد : إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس له أن يجتهد فى الأحكام ، لأن غاية الاجتهاد ظن الحكم ، أى استفادة الحكم من الدليل على سبيل الظن ، والرسول صلى الله عليه وسلم يمكنه معرفة الحكم عن طريق العلم واليقين بالوحي . وغالقه بعضهم ، بل الجمهور على أن له أن يجتهد ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى » .

ولم فى هذا الموضوع حذل وحجاج وأدلة واستدلالات ليست موضوعنا ، بل الذى أردنا أن نقرره هو أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ليس تفسيراً بالمعنى الذى نعده من كتب المفسرين ، فلا إعراب ولا استئناف بياني ونحوى ، ولا نكات بلاغية ، ولا ما شابه ذلك مما سنعرض له عند تفسير الطنقات ، وإنما هو بيان للأحكام والتعذير من مخالفتها ، وشرح لمكارم الأخلاق والترغيب فيها ، وبيان ما فى القصص من جلال وروعة وعبرة لأولى الأنصار .

نماذج من تفسيره صلى الله عليه وسلم :

١ — عن الأشعث بن قيس رضى الله عنه قال : « كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم بينتك أو يمينة ، فقلت : إذا يحلف يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صبر ليقطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها طاهر لى الله وهو عليه غضبان » فأزل الله تصديق ذلك : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أؤاثك لأخلاق لهم فى الآخرة » الى آخر الآية .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرون بهذه الآية الكريمة من تصدى ليين ، فيعود عنه مخافة الله تعالى . فن ذلك ما وقع لامرأتين كانتا تخزان فى بيت نقرجت إحداهما فادعت على الأخرى شيئاً ، فرفع أمرها الى ابن عباس ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو يعلني الناس يدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله واقراءوا عليها » إن الذين يشتركون بمهد الله وأيمانهم « الآية » فذكروها فاعترفت .

٢ — عن عائشة رضي الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله — إلى قوله أولو الألباب » قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاعذروهم » .

٣ — قول الله تعالى : « وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » : روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسحه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مرم واضحا . ثم يقول أبو هريرة : واقراءوا إن شئتم » وإني أعيدنها « الآية » .

٤ — قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » : روى أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا ، وكان أحب أمواله إليه ( بيرح ) ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية : « لن تنالوا البر » قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالي إلى بيرح ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فصمها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئح ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت » ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين . قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ؟ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وفي بني عمه » .

٥ — قول الله تعالى : « ولتقسمن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » : روى عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فذكية وأردف أسامة بن زيد ووراءه يعقود سعد بن عباد في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، ( وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي ) ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين ، والمشركين صدة الأوثان ، واليهود ، والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلس كجاجة الدابة خثر عبد الله بن أبي وجهه بردائه ثم قال : لا أفتبروا علينا ! فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم وقف فترل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا ، فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك ناقصص عليه ! فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فأنشأنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يقتادون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم

يخففهم حتى سكنوا . ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد ابن عباد ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حبيب ؟ يريد عبد الله ابن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله أعف عنه واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، وقد اصطاح أهل هذه البصرة على أن يتوجوه فيصحبوه بالعصاة ، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله ، شرب بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يفتون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى . فذلك قول الله تعالى : « ولتسمعن » الآية .

٦ — قول الله تعالى : « وإن حتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » : روى الإمام البخاري بسنده عن ابن شهاب قال : « أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى « وإن حتم أن لا تقسطوا في اليتامى » فقالت : هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعصبه ماله وجماله ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيهما مثل ما يعطيهما غيره ، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة : « وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله « ويستفتونك في النساء » . قالت عائشة : وقول الله تعالى في آية أخرى : « وترغبون أن تنكحوه » رغبة أحدكم عن يمينه حين تكون فلية المال والجمال ، قالت : فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال » .

٧ — قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » : روى البخاري بسنده عن عروة قال : « خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شريح من الحرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فقال الأنصاري يا رسول الله أن كان ابن عمك ! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذرة ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، واستوى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه في شريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا زلت في ذلك » .

هذه نماذج من تفسير القرآن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وسنواصل كتابة هذه النماذج ، ثم نعلق عليها ونقارن بينها وبين تفسير الطقات . والله الموفق ؟

## رجاء في دولة رئيس الوزراء

من فضيلة شيخ علماء الاسكندرية

تشرف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو الميوت شيخ علماء الاسكندرية ، بمقابلة حضرة صاحب الدولة حسن صبري باشا رئيس مجلس الوزراء ، فكاشف دولته بما يري جوده الباس على عهده من العناية بالأعراس والآداب العامة ، فوجد أن هذا الإصلاح من أوليات مقاصده ، ففكر لدولته هذه العناية ، ورفع الى دولته الكتاب التالي :

« نصيحتنا لدولة الوزير الأكبر ، أن يرقب الله في كل ما يعمل ، وأن يسترشد فيه بذوى الضمائر والقيم ، وأن يؤثر مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وأن يرقب الحوادث من كسب في حذر ويقظة ، فانها تمر كالبرق لا تمل ولا تمهل ، وأن يمثل لنفسه دائماً شهداء التاريخ الذين جادوا بالنفاس والأعلاق في سبيل القيد عن كرامة البلاد ، وحقوق الوطن .

« ثم الدين والأخلاق يادولة الوزير المصلح ، فإنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بالاعتصام بالدين ، والحفاظ على تقاليده وشعائره ، ولا يفسد أمرها إلا بالتفريط في دينها ، والتورط في أخلاقها ، وعكوفها على لغاتها وشهوراتها ، خصوصاً في الظروف التي تتجه فيها القلوب ، وتصرف فيها الى الله سبحانه وتعالى ؛ وأما — أطاها الله من سخطه ونقمته — وهي ما هي من الجور والقمط ، والهلل والكرب ، ومصيرها المعلق بحيط الهباء — لاهية عن دينها ، منحلة في أخلاقها ؛ فانظر — يارعاك الله — الى الملاهي والمسارح والمقاصف ، وأندية القمار ، وحانات الخمر ، وبيوت الفساد والشرور ، تجدها مكتظة عامرة ، ذاخرة بالشباب الضائع ، بالمسئى والإمكار .

« ولقد نعلم يادولة الوزير أنك نشأت في الصلاح والتقوى ، وأنه ليعز عليك أن ترى أمتك على هذا المثال في وقت ترى فيه الأمم الأخرى قضت على كثير من الشرور والآثام ؛ وكلية حازمة منك يادولة الوزير بصفتك حاكماً عسكرياً ، تنقد البلاد والعباد من هذه البوائق المهلكة للأفئس والأموال والشرف ، حتى يتأذن الله فانفراج هذه الجائحة العاتية . إن يكن ذلك صلح حال هذه الأمة ، وحسن مصيرها ، وإلا يكن — لا قدر الله — كنا من الهلاك الآتئين .

فإما الى صداحة تطرب الورى وإما الى نواحة في المآثم

« وفقك الله ، وأتممك بالحسن ، في ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح ، ملك مصر المعظم ، فاروق الاول ، نصره الله وأعزه ، وأيد ملكه ، » محمود أبو الميوت

شيخ علماء الاسكندرية

## من آداب الشريعة وأخلاقها

ما من ظاهرة من ظاهرات هذا المجتمع تشع عليه نورا ومهجة ، وغلا مناحيه خيرا وبركة ، إلا كان لها مرد من الشريعة ، ومصدر من الدين .

ولقد عنيت الشريعة فيما عنيت بتطهير المجتمع من أرجاسه ، فقامت حدوداً للفضائل إذا عولجت بالاخلاص في العمل أثمرت ثمرتها المرجوة لها .

فبينما تحظر على الناس ربح التداير والتقاطع والتناحر ، وتجنّبهم مزالق المحظورات الخلقية ، إذا بها تدعو الى حماية الفرد والجماعة والأمة من غوائل الانقسام ، وتدعو الى الاتحاد والتعاقد . فهي تدعو الى البر بالآبوين ، و بر الأبناء ، وصلة الرحم ، و بر الاتباع ، ورحمة البنين والأرملة ، وتدعو الى رعاية حقوق الجار ، وحقوق المسلم على المسلم .

فيروى الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » . و يروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً قال يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التيمي جالسا ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم » . رواه البخاري وأبو داود والترمذي . و يروى البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذني فيقعدني على نغذه ويقعد الحسن على نغذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : اللهم ارحمهما فاني أرحمهما » . و روت عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أمراؤى الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فأتقبلهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو أملاك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ » رواه الشيخان .

ثم تتسلسل الفضائل التشريعية التي لا بد منها لحاية المجتمع ، فتشيد الشريعة المطهرة بالبر بذي الأرحام ، ثم تتأكد صلتها وتتوثق توثقا يقوم على تركيزه في النفوس والأخلاق ، ذلك النماذج الوثيق الذي جاء في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأله في أثره ، فليصل رحمه » رواه الثلاثة .

ويأتي بر الاتباع ، والمراد بهم الخول والمماليك . يروي أبو داود والترمذي في صحيحيهما عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : « كنت أضرب غلاما لي فسمعت صوتا من خلق : اعلم أبا مسعود ، مرتين ، لله أقدر عليك منك عليه » فالتفت فإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله قال : أما لو لم تعمل لتفتك النار ، أو لمستك النار .  
فذلك المبادئ الرحيمة التي وردت بلسان صاحب الشريعة المطهرة ، شاهد عدل على أن خلود تلك الشريعة وقيامها على أسس صالحة ومناهج من الخير قديمة ، آية الآيات على ملابتها لكل زمن ، ومسايرتها لكل جيل .

ولم تكن تلك الشريعة في سمو مبادئها معنية بتلك الأخلاقيات التي تخلع على المجتمع أسل المناهج وأنبال الأشكال ، ونحوه بسياج منبوع من الأخلاق الفاضلة لحسب ، بل هي معنية أيضا بتنظيم الأسرة وحماية الفرد ، ورعاية ما لكل على أخيه من الحقوق المفروضة ، فقد عنيت الشريعة بنظام الأسرة ، وهي أول حجر في بناء المجتمع ، فشرعت فيها شرعت قيود السكاح في الزيجة ، وشروطه وأحكامه وأركانه ، ثم مواعن السكاح الشرعية ، وبيان المحلات والمحرمات من النساء ، ثم الولاية على السكاح ، ثم في الوكالة بالسكاح ، ثم في الكفاءة ، ثم في المهر ، ثم في وحب المهر . ثم عن الحالات التي يجب للزوجة فيها نصف المهر ، والتي لا تستحق فيها شيئا منه ، ثم من شروط المهر وقضه وما للمرأة من التصرف فيه ، ثم في ضمان المهر وهلاكه واستهلاكه واستحقاقه ، ثم في قصايا المهر ، ثم في نكاح المسلم للكنانيات ، وفي النكاح الغير الصحيح والسكاح الموقوف ، وهكذا مما يتصل بتنظيم حياة الأسرة وإقامتها على أسس السعادة والرخاء ، مما سوف نعالج بيانه في أعداد تالية ، إن شاء الله ؟

عيسى ط

# مَعْرِضُ لَدَاءِ الْمَسِيحِ

## فِي الْإِسْلَامِ وَالْيَسَامِينِ

(الانتشار الاسلامي بين مختلف الشعوب لا يمكن وقفه)  
(وأثر الجامعة الأزهرية فيه)

جاء في جريدة (لا سومور فودوا المويسرية) Le Semeur Vaudois تحت عنوان  
(على ذكر خريطة) (١) ما يأتي :

« يعلم الناس أن للإسلام قوة انتشار عظيمة. وقد عالج هذا الموضوع مجلات وجرائد كثيرة جدا . ونحن ننشر هنا للتدليل على صحة هذا الأمر خريطة ذات دلالة قوية في هذا الموضوع ظهرت في عدد شهر فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة (ليفانجياش دانسلاند) . وهي مقولة من كتاب الأستاذ (بول شمتر) المطبوع عند جولدمان بمدينة ليزج . وهي توضح طريقة ، ووفرة جميع الممالك التي أصبحت إسلامية محضة ، وجميع البقاع العالمية التي انتشرت فيها مبادئه ، وخاصة ما كان منها في أفريقيا وآسيا .

« وقد ظهر مقال للأستاذ (مينولف كوسترس) في مجلة (داتش ريدشو) فيه تفاصيل عن هذه الحركة الانتشارية ، جاء فيه : « إنه من مائة وثلاثين مليوناً من الأفريقيين أصبح سبعون مليوناً يسرون تحت لواء النبي . وقد أصبح جميع شمال أفريقيا إسلامياً . وقد كان عدد المسلمين في مستعمرة (داتش أوستافريقيا) مائتين وخمسين ألفاً قبل الحرب الماضية ، فأصبحوا الآن ثلاثة ملايين ! وتأثير الإسلام يمتد حتى جنوب أفريقيا . والسبب في ذلك أن الجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهي مركز الدعوة إلى الإسلام ، ترسل مندوبين غيورين إلى جميع الأقطار الأفريقية . وتصدر جرائد كثيرة في البلدان الكبيرة ، وترسل إلى تلك البقاع حاملة رسالة الكفاح ضد المسيحية ، والتفاعة النصرانية إلى وسط تلك القارة الكبيرة . » انتهى مقاله الأستاذ مينولف كوسترس .

(١) لفر الأستاذ شمير Shmirtz كتاباً أسماه (الاسلام في الهند) ذكر فيه ما يصادفه الاسلام من الانتشار العظيم وسامة في هذا العصر في أفريقيا وآسيا حتى يسكاد لا يدع فيها مكاناً لغيره . وقد نشر خريطة لول الممالك الاسلامية بها بلون أود يتضح بها أن هاتين القارتين تسكدان تصبجان إسلاميتين صرفاً .



« وقد بين الأستاذ د. ج. ريشتر، وهو عالم إحصائي في هذه الشؤون في فصل مفيد جدا نشره عن التطورات البعيدة المدى التي حدثت في العالم الاسلامي جاء فيه قوله : « إن التطور الاسلامي قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تثقيمه بأكبر ما يمكن من الانتباه » انتهى .

هذا ما جاء في جريده ( لوسومور فودوا ) السويسرية ، وهو موضوع كما يعرف القراء ليس بمحدث العهد ، فقد كتب جميع المبعوثين الدينيين الأجانب عنه بحوثا ضافية ، أشهرها ما نشره الكاردينال لافيغري Lavigeri الفرنسي في أواخر القرون التاسع عشر ، فقد شكاهم الشكوى من فشل الدعوات النصرانية في القارة الافريقية ، وقال إن الدراويش السطاة ، والتجار الذين يجوبون تلك الافطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويماهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

وقد أيد الكاردينال لافيغري مبعوثون كثيرون ، ولا يخفى أن هؤلاء يتذرعون للتعجب في ملتهم بالمال الوفير ، وبالمسائل التعليمية والتطبية ، ولكن كل ذلك لم يجدهم نفعا . حتى قالوا إن من يصبأ الى ملتهم من المتوحشين لا يلبث أن يهرب الى المسلمين ، وإن كان لا يجد لديهم بعض ما يجده عند أولئك الهامة من العيش الرفيد .

ينصح الأستاذ ريشتر في البحث الذي نشره عن تطور العالم الاسلامي ، المهتمين بأمر الدعوة الدينية ، أن يقتبعوا ما انتباه عظيم حركة ذلك التطور ، وماذا يفيدهم ذلك التمتع الدقيق ؟ أليس الأولى أن يدرسوا الملة الحقيقية في هذا التهاافت على الاسلام من أمم وشعوب وقبائل مريقة في الوثنية ، عجزت جميع المفريات المادية عن تحويلها عنها ، ومجحت دعوة مجردة من جميع المسولات لنشر هذا الدين ؟

أما وقد أغفلوا ذلك فحسن نتولى بيان هذه الملة خدمة لعلم والفلسفة والدين ، فنقول : تلك الملة هي أن الاسلام دين سهل ترتاح له النفس ويستقيفه العقل بدون شرح ولا تعمق في التدليل ، يجد فيه كل من السادج والمتقف تلجأ في الصدور ، وسكسا في القلب ، يهب على الأول من ناحية ملائمته للفطرة الانسانية ، ومناسبته لفرائز الجيلية ، وعلى الثاني من جهة ما يفيض عليه من نور يكشف له من معضلات الدين ، ومعضلات الاعتقاد ، ما كان يحبك في صدره ولا يجد له مصرفا ، ويرى على صدره ولا يصادف منه مخروبا ، فلا يعود يشعر بمخرج في نفسه يقيمه ويقمده ولا يرى عنه تمسدا . وهذا ما أشار اليه الحق حل شأنه بقوله . « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وقوله تعالى : « يأتيها الناس قد جاءتهم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

هذا الشفاء للصدور هو الذي يحمل النفوس على الترامي على الاسلام لأول مرة فتها به ،

حتى يمكن أن يقال إنه لا يحتاج الى دعوة غير التعريف به . وقد فتح الله مغاليق قلوب أهل الجاهلية الجاهلاء بهذا القرآن وحده ، فله ينسب هذا الانتشار الذي صادفه الاسلام لأول ظهوره مما ليس له منيل في تاريخ العالم ، ولا يزال يفتح به الدعاة اليه القلوب الصُلُف التي يتصدون لها ، وكان إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو قوما الى الاسلام قرأ عليهم آيات من القرآن ، فلا يلبثون أن يمدوا اليه أيديهم يعاهدونه على الايمان .

فهذا التأثير العظيم ، لهذا الكتاب الكريم ، لا يجوز أن يغفل البحث في مصدره ، وخاصة في هذا العصر ، عصر التحليلات المعقدة ، والمقارنات المدققة . أما التفكير في صدره فما لا سبيل اليه . فلقد عملت على هذا الصدد جماعات وأمم في خلال تاريخه فلم يستطيعوا أن يضمفوا من ثوبه ، بل زادوه قوة على قوته . وقد أبأ الله المسلمين بأن كل صد لهذا الدين محكوم عليه بالفشل مهما كان مصدره ، ومهما كانت الوسائل التي تبذل فيه ، فقال تعالى : « يتفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون » وقد صدق هذا الوعيد مرات لا تحصى في ظروف تاريخية معروفة . وقد تحقق في هذا العصر على أوضح ما يكون . فإن دعاة الملل يعرفون ملايين الحنبيات ليضمفوا بها من مريان هذا الدين فلم يحصلوا على طائل ، فأنفقوا أموالهم وبأوا بالفشل كما قال وعد الله بذلك وأيده في آيات أخرى منها : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

ولو كان الاسلام ديناً يمكن صد تبارده لا يمكن ذلك في مثل هذا العهد الذي طمت فيه الشكوك ، وعمت فيه الشبهات ، ونسى الناس فيه أنفسهم ، من الصوضاء الفاتنة المصعة ، التي تحدثها هذه المدنية الساحرة . وإنك لتراء على عكس ما كان متوقعا ، تراء يخوض غمرات هذه الفتنة العمياء فيفتح فيها الى القلوب طريقا . ألسنت ترى خفوف الناس في كل بلد من بلاده الى تأليف الجمعيات للتذكير بآياته والإلهام الى بيناته ، وانتداب الأفراد الى إصدار المجلات لنشر فضائله ، والاشادة بذكر دلائله ؟ وقد تعدت هذه الحركة مواطنه الى البلاد الأجنبية فكثير الباحثون فيه ، والمعجبون به ، مما نلم به في كل عدد يصدر من هذه المجلة نقلا عن المصادر العلمية الوثيقة .

فإذا كان هذا كله والفتنة متغلبة ، والشبهات متوثبة ، والنفوس منصرفة ، والمقول معقولة ، فما ظنك حين تنجذب هذه الكيسف عن الصدور ، وتزول هذه الغشاوات عن العيون ، وينشط الناس لتتور الحقائق وتتبعها ، وتعرف الأباطيل واجتنابها ؟ عند ذاك ترى ما لا يخفى لك ببال من تدافع الناس بالمناكب دخولا الى حظيرة هذا الدين ، وفي الوقت نفسه تعرف أن نوراً من هذه الشبهات التي كست تشكرو منها كانت سبباً مباشراً في تجلية حقائق هذا الدين ، فكانتها كانت محكاه .

محمد فرير ومجدي



enemies, or by their bitter persecution of him. And despite all opposition and increased persecution the new faith gained ground. The national fair at Okaz near Mecca attracted many a wild Arab of the desert and many a trading citizen of distant towns. These listened to the teachings of the Prophet, to his admonitions and to his denunciations of their sacred idols and of their superstitions. They carried back all that they had heard to their distant homes and thus the advent of the Arabian Prophet was made known to almost all parts of the Peninsula.

The Meccans, however, were more than ever furious at the Prophet's increasing preaching against their religion. They asked his uncle Abu Talib, to stop him. But Abu Talib could not do anything, except that he re-assured them. At length, as the Prophet persisted in his ardent denunciations against their ungodliness and impiety, they turned him from the Kaaba where he latterly used to sit to preach, and subsequently went in a body to Abu Talib. They urged the old venerable chief to prevent his nephew from abusing their gods any longer or uttering any ill words against their ancestors. They warned Abu Talib that if he would not do that he would be excluded from the communion of his people and driven to side with Mohammad, and the matter would be settled by fight, until one of the two parties were exterminated <sup>(1)</sup>. Abu Talib neither wished to separate himself from his people, nor forsake his nephew, for the idolaters to revenge themselves upon. He spoke to the Prophet very softly and begged of him to abandon his affair. To this suggestion the Prophet firmly replied 'O my uncle, if they placed the sun in my right hand and the moon in my left hand, to cause me to renounce my task, verily I would not desist therefrom, until God made manifest His cause, or I perished in the attempt.' <sup>(2)</sup> The Prophet, overcome by the thought that his uncle and protector was willing to desert him, turned to depart. But Abu Talib called him loudly to come back, and he came. 'Say whatever thou pleasest, for by the Lord I shall not desert thee, nay, never.' The Koreishites again attempted in vain to cause Abu Talib to abandon his nephew. The venerable chief declared his intention to protect his nephew against any menace or violence. He appealed to the sense of honour of the two families of the sons of Hashim and the sons of Muttalib, both families being kinsmen of the Prophet, to protect their member from falling a victim to the hatred of rival parties. All the members of the two families nobly responded to the appeal of Abu Talib, except Abu Lahab, one of the Prophet's uncles, who took part with the persecutors.

At this period, Omar, son of Khattab, adopted Islam. In him the new faith gained a valuable adherent, and an important factor in the future development and propagation of Islam.

(1) Abul Fida; Ibn Athir.

(2) Sale, W. Muir, Abul Fida etc.

will bear the risk of his unbelief.' 'Those who remain unbelievers will gain nothing by their obstinacy, except the hatred of their Lord. Have you considered your false deities whom you worship beside God? Show me what thing on earth they have created; or have they any share in the heaven? Surely I am sent to you with truth, to bear you good news and give you warning, and there is not a people, but a warner from God was sent to them. If you give the lie to my message, it is no wonder that you do so; other nations before you have also given the lie to their respective apostles, though they brought them clear arguments, scripture and illuminating books (1). As to Allah, the True God, know ye that it is He Who made for you the night, that you may rest therein, and the day to see, most surely Allah is Gracious to men but most men, are ungrateful. Allah, your Lord is the Creator of every thing, there is no Deity but He; why are you then turned away? Allah is He Who made the earth a resting-place for you and the heaven and horizon, and He formed you, then made goodly your forms, and He furnished you with wholesome provisions, that is Allah, your Lord, blessed then is Allah, the Lord of the Worlds. I am forbidden to worship those idols whom you adore besides God, because clear arguments have come to me from my Lord, and I am commanded to submit to Him alone, the Lord of the Universe. He it is Who created you from dust, then from a minute life-germ, then from a clot, then He brings you forth as a child, then He causes you to attain maturity, and some of you may get old and some are caused to die young, so that all of you will reach a pre-appointed age. Do you now understand? Allah is He Who gives life and brings death, so when He decrees an affair, He only says to it, Be, and it is.' (2)

#### IV

### THE ARABS SACRED IDOLS

As to the sacred idols, so much honoured and esteemed by the pagan Arabs, the Prophet openly declared that 'they are naught but empty names which you (the idolaters) and your fathers have invented.'

From beginning to end the Prophet in all his recitations of the Koran never spoke respectfully of the invented gods or goddesses adopted by the heathen Arabs. There is nothing in all the trustworthy sources of Islam to confirm the allegations made by Western biographers to the contrary.

When the Prophet thus spoke reproachfully of the sacred gods of the Koreishites, the latter redoubled their persecution. But the Prophet, nevertheless, continued his preaching, undaunted by the hostility of his

---

(1) The Koran XXXV

(2) Koran XI.

Koran for a people who understand: a herald of good news and a warner; but most of you turn aside, so you hear not"(1). On other occasions he used to address the polytheists thus: "I am only a mortal like you; it is revealed to me that your Deity is one; therefore worship Him alone and ask His forgiveness; and woe to those who associate false deities with the True God..."

Despite all the exhortations of the Prophet, the Koreishites persisted in asking him for a sign. They insisted that unless some sign be sent down to him from his Lord, they would not believe "Why", the infidels used to ask, "had not Mohammad been sent with miracles, like previous prophets?" "Because", replied the Prophet, "miracles had proved inadequate to convince. Noah had been sent with signs, and with what effect? Where was the lost tribe of Thamud? They had refused to receive the preaching of the Prophet Saleh, unless he showed them a sign and caused the rock to bring forth a living camel. He did what they asked. In scorn they had cut the camel's feet and then daring the prophet to fulfil his threats of judgment, were found dead in their beds next morning, stricken by the angel of the Lord. There are some seventeen places in the Koran, in which the Arabian Prophet is challenged to work a sign, and he answers them all to the same or similar effect: "God have the power of working miracles, and had not been believed; he who could not know even himself adequately, could not know what God had hidden; that there were greater miracles in nature than any which could be wrought outside of it; that the Koran itself was a great, everlasting miracle". The Koran, the Prophet used to assert to the infidels, is a book whose blessings shall be intercepted, a warning for the whole world; it is a collection of all that is best in any other religion and all that is best in sacred books, it is a complete guidance and explains everything necessary; it is a reminder of what is imprinted on human nature and is free from every discrepancy and from error and falsehood. It is a book of true guidance and light to all. Again when the Prophet was urged for a sign, he used to address the idolaters thus, 'O men, you are they who stand in need of Allah, and Allah is He Who is Self-sufficient, the Praised One If He please, He will take you off and bring a new generation. And this is not difficult for Him to do. A burdened soul cannot bear the burden of another(2).' In another instance the Prophet used to appeal to the unbelievers' sense of judgment by reciting to them other passages of the Word of God. 'Surely Allah is the Knower of what is unseen in the heavens and the earth, surely He is Cognisant of what is in all hearts. He it is Who made you free creatures of the earth, therefore who ever disbelieves

---

(1) Koran XXI: 1-4

(2) Koran XXXV

religion and embraced a new one. The king summoned the poor fugitives and enquired of them what was the religion which they had adopted, in preference to their old faith. Jaafar, son of Abu Talib and Brother of Ali, acted as spokesman for the exiles. He spoke thus "O king, we were plunged in the depth of ignorance and barbarism, we adored idols, we lived in unchastity, we ate dead bodies and we spoke abominations, we disregarded every feeling of humanity and any sense of duty towards our neighbours, and we knew no law, but that of the strong, when God raised among us a man, of whose birth, truthfulness, honesty and purity we were aware, and he called us to profess the unity of God and taught us to associate nothing with him, he forbade us the worship of idols and enjoined us to speak the truth, to be faithful to our trusts, to be merciful and to regard the rights of neighbourhood, he forbade us to speak evil of women, or to eat the substance of orphans, he ordered us to fly from vice and to abstain from evil, to offer prayers, to give alms, to observe the fast. We have believed in him, we have accepted his teachings and his injunctions to worship God alone and to associate naught with Him. Hence our people have persecuted us, trying to make us to forego the worship of God and return to the worship of idols of wood and stone and other abominations. They have tortured us and injured us until, finding no safety among them, we have come to your kingdom, trusting you will give us protection against their persecution(1).

After hearing the above speech, the hospitable king ordered the deputies to return to their people in safety and not to interfere with their fugitives. Thus the emigrants passed the period of exile in peace and comfort. Whilst the followers of the Prophet sought safety in foreign lands against the persecution of their people, he continued his warnings to the Koreishites more strenuously than ever. Again they came to him with offers of riches and honour which he firmly and utterly refused. "I am neither" said the Prophet, "desirous of riches nor ambitious of dignity or dominion. I am a messenger of God to give you good tidings and to admonish you. If you accept the message I bring you, God will be favourable to you, both in this world and in the next, if you reject my admonitions, I shall be patient and will let God judge between us". But they mocked at him and urged him for miracles to prove his mission. "God has not sent me" he used to answer, "to work wonders, he has sent me to preach to you". Thus disclaiming all power of wonder working, the Prophet ever rested the truth of his divine mission upon his wise teachings. He addressed himself to the inner consciousness of man, to his common sense and to his own better judgment. "Listen", he used to address them, I bring you a revelation from the Beneficent, the Merciful God, a book of which the verses are made plain, an Arabic

---

(1) — Ibn Hisham.

dominion we shall make you our king, and if the demon which possesses you cannot be subdued, we will bring you doctors and give them riches till they cure you' When Othba had finished his discourse, the Prophet said, 'Now listen to me O father of Walid' 'I listen,' he replied The Prophet recited to him the first eight verses of chapter 41 of the Koran which may be interpreted as follows "In the name of Allah, the Beneficent, the Merciful, Here is a revelation from the Merciful, a book, the verses whereof are distinctly explained, an Arabic Koran, for the instruction of a people who understand, it is a herald of good tidings and a warner, but most of those who hear it, turn aside, so that they hear not, and they say (to the Prophet); our hearts are veiled from the doctrine, to which thou invitest us, and there is a heaviness in our ears and a curtain hangs between us and thee, wherefore act thou as thou shalt think fit, for we shall act according to our own sentiments. Say verily I am only a mortal like you. It is revealed unto me, that your God is One God, therefore take the right way to Him, and ask His forgiveness, and woe be to the idolaters, who give not the appointed alms and believe not in the life to come(1). But as to those who believe and do good, they shall receive an everlasting reward(2)."

When the Prophet had finished his recitation, he said to Othba: "This is my reply to your proposition; now take what course you find best"(3).

Persecution by the Koreishites grew fiercer and fiercer every day and the sufferings of the Prophet's disciples became unbearable. He had heard of the righteousness, tolerance and hospitality of the neighbouring Christian king of Abyssinia. He recommended such of his disciples who were without protection, to seek refuge in the kingdom of that pious king, Al Nagashi (Negus). Some of the unprotected adherents of Islam, to the number of 15, promptly availed themselves of the advice and sailed to Abyssinia. Here they met with a very kind reception from the Negus. This is called the first flight in the history of Islam and occurred in the 5th year of the Prophet Mohammad's mission (615 A.C.). These emigrants were soon followed by many more of their fellow-sufferers, until the number reached eighty three men and eighteen women(4).

The hostile Koreishites, furious at the escape of their victims, sent deputies to the king of Abyssinia to request him to deliver up the refugees, that they might be put to death, as they had abjured their old

---

(1) — The Arabs used to regard hospitality as a virtue, but alms-giving was considered a weakness among them. A future life was generally considered a mere fable

(2.) — Koran Chapter 41

(3.) — Ibn Hisham.

(4.) — Q. Sale.

their deeds in this world shall be weighed before the Eternal Judge, when the children who had been buried alive shall be asked, for what crime they were put to death<sup>(1)</sup>.

As the number of believers increased and the cause of the Prophet was strengthened by the conversions of many powerful citizens, the Prophet's preaching aroused a serious revolutionary movement. He condemned the idols the Arabs worshipped and taught the unity of God. The Koreishites were now alarmed. Their power and prestige were at stake. They were the custodians of the idols which the Prophet had threatened to destroy; they were the ministers of the worship which he denounced; in fact their existence and living wholly depended upon the maintenance of the old institutions. Again the tone of the Prophet in his teachings was intensely democratic. He taught that in the sight of his Lord all beings were equal, the only distinction, recognised among them being the weight of their piety<sup>(2)</sup>. The Koreishites would have none of this leveling of distinctions, as it reflected upon their long inherited privileges. Accordingly they organized a system of persecution in order to suppress the movement before it became firmly established. They decided that each family should take upon itself the task of stamping out the new faith on the spot. Each household tortured its own members or adherents or slaves who were supposed to have connected themselves with the new religion. With the exception of the Prophet who was protected by Abu Talib and his kinsmen, Abu Bakr and a few others who were either distinguished by their rank or possessed some influence among the Koreishites, all other proselytes were subjected to different sorts of torture. Some of them were thrown into prison, starved and then flogged. The hill of Ramada and the place called Bata became thus scenes of cruel torture<sup>(3)</sup>.

One day the Koreishites sought to approach the Prophet to induce him to discontinue his teachings of the new religion which had sown discord among their people. Otha, son of Rabia, was delegated to see the Prophet and speak to him. 'O son of my brother,' said Otha on meeting the Prophet, 'You are distinguished by your qualities, yet you have sown discord among our people and cast dissension in our families, you denounced our gods and goddesses and you charge our ancestors with impiety. Now we are come to make a proposition to you and ask you to think well before you reject it.' 'I am listening to you, O father of Walid,' said the Prophet. 'O son of my brother', began Otha, 'If by this affair you intend to acquire riches, honours and dignity, we are willing to collect for you a fortune larger than is possessed by any one of us, we shall make you our chief and will do naught without you; if you desire

(1) It was the custom of heathen Arabs to bury their children alive from fear of want. This custom was forbidden by the Koran: 17: 33.

(2) Koran: 49: 13

(3) Sir William Muir



Hitherto he had preached quietly and unobtrusively. He now determined to appeal publicly to the Meccans to abandon their idolatry. For this he arranged a gathering on a neighbouring hill, and there spoke to them of their folly in the sight of God, in offering worship to pieces of stone which they called their gods. He invited them to abandon their old impious worship and adopt the faith of love and truth and purity. He warned them of the fate that had overtaken in the past, races who had not heeded the preaching of former prophets. But the gathering had departed without listening to the warning given them by the Prophet. Having thus failed to induce his fellow-citizens to listen to him, he turned his attention to the strangers arriving at the city on commerce or pilgrimage. But the Koreishites made attempts to frustrate his efforts. They hastened themselves to first meet the strangers on the different routes, to warn them against holding any communication with the Prophet whom they represented as a dangerous magician. When the pilgrims or traders returned to their homes, they carried with them the news of the advent of the bold preacher who was inviting the Arabians loudly — at the risk of his own life — to abandon the worship of their dear idols. Now the Prophet and his followers became subject to some persecution and indignity. The hostile Koreishites prevented the Prophet from offering his prayers at the sacred temple of the Kaaba, they pursued him wherever he went, they covered him and his disciples with dirt and filth, when engaged in their devotions. They scattered thorns in the places which he frequented for devotion and meditation. Amidst all these trials the Prophet did not waver. He was full of confidence in his mission. On several occasions he was put in imminent danger of losing his life (1). At this time Hamza, the youngest son of Abdul Muttalib adopted Islam. Hamza was a man of distinguished bravery, an intrepid warrior, generous and true, whose heroism earned for him the title of the "Lion of God". He became a devoted adherent of Islam and eventually laid down his life in the cause.

The Prophet continued his preachings to the Arabs in a most gentle and reasonable manner. He called the nation, so accustomed to iniquity and wrong doings, to abandon their abominations. In burning words which excited the hearts of his hearers, he warned them of the punishment which God had inflicted upon the ancient tribes of Aad and Thamud (2) who obstinately disobeyed the teachings of His messengers to them. He adjured them by the wonderful sights of nature, by the noon day brightness, by the night when it spreads her veil, by the day when it appears in glory, to listen to his warning before a similar destruction befell them. He spoke to them of the day of reckoning, when

---

(1) Sir William Muir's Life of Muhammed.

(2) Vide Book I.

III

## MOHAMMAD'S MISSION

At the beginning of his mission, Mohammad, hereinafter called the Prophet, opened his soul only to those who were attached to him and tried to free them from the gross practices of their forefathers. After Khadija, Ali his cousin, was the next disciple. The Prophet used often to go into the desert around Mecca with his wife and young cousin, that they might together offer their heart-felt thanks to the God of all nations for His manifold blessings. Once they were surprised by Abu Talib, the father of Ali. And he said to the Prophet. "O son of my brother, what is this religion thou art following?" "It is the religion of God, of His Angels, of His Apostles and our ancestor Abraham," answered the Prophet. "God has sent me to His servants, to direct them towards the truth and thou, O my uncle, art the most worthy of all. It is meet that I should thus call upon thee and it is meet that thou shouldst accept the truth and help in spreading it." "Son of my brother," replied Abu Talib, "I cannot abjure the religion of my fathers, but by the Supreme God, whilst I am alive, none shall dare to injure thee." Then turning towards Ali, his son, the venerable chief asked what religion was his. "O father," answered Ali, "I believe in God and His Prophet and go with him." "Well my son" said Abu Talib, "He will not call thee to aught, save what is good, wherefore thou art free to cling to him."

After Ali, Zaid, Mohammad's adopted son, became a convert to the new faith. He was followed by Abu Bakr, a leading member of the Koreish tribe and an honest wealthy merchant who enjoyed great consideration among his compatriots. He was but two years younger than the Prophet. His adoption of the new faith was of great moral effect. Soon after, five notables presented themselves before the Prophet and accepted Islam. Several proselytes also came from lower classes of the Arabs to adopt the new religion. For three weary long years, the Prophet laboured very quietly to deliver his people from the worship of idols. Polytheism was deeply rooted among the people. It offered attractions which the new faith in its purity did not possess. The Koreishites had personal material interests in the old worship, and their prestige was dependent upon its maintenance, the Prophet had to contend with the idolatrous worship of its followers and to oppose the ruling oligarchy which governed its destinies.

After three years of constant but quiet struggle, only thirty followers were secured. An important change now occurred in the relations of the Prophet with the citizens of Mecca. His compatriots had begun to doubt his sanity, thought him crazy or possessed by an evil spirit.

# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية  
تصدرها شبكة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء التاسع	رمضان سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
--------------	----------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد زكي عبد الوهاب

محمد زكي عبد الوهاب

الاشتراكات هي من

الإدارة

داخل القطر ... .. ٢٠٠  
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠  
خارج القطر ... .. ٣٠٠

ميدان الأزهر

تيلون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

تم الجزء الواحد ٢٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارجه

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٠ )

## فهرس

### الجزء التاسع - المجلد الثاني عشر

سنة

جلالة الملك يصل الجمعة في الأزهر

خطبة الجمعة ... .. بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكرم ... (ج)	٥١٣
كلمة الأزهر ... .. » » » » وكيل الأزهر (و)	٥١٥
كلمة رمضان ... .. » » » » الأكبر ... (ح)	٥١٦
الصلاة الجامعة لأجل السلام ... ..	٥١٧
السيرة الحميدة - وقعة أحد ... .. بقلم حضرة الأستاذ مدير المجلة ...	٥١٨
السنة - الرقية ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزوي	٥١٩
رمضان ... .. » » » » أبو الوفاء المرائي	٥٢٠
تاريخ الفقه الإسلامي في مصر ... .. » » » » عبد محمد المدني ...	٥٢١
الأصول العامة في كتاب الله ... .. » » » » حامد محسن	٥٢٢
السلام والمتكلمون - الحركة الفكرية ... .. حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب	٥٢٣
عبد الله بن عمرو ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون	٥٢٤
الحسن بن الهيثم ... .. حضرة الأستاذ عبد الحميد سامي ...	٥٢٥
شهر الصيام ... .. » » » » مدير المجلة ...	٥٢٦
نظرات في الأدب العربي ... .. فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان	٥٢٧
الشعوبية ... .. » » » » أحمد إبراهيم موسى	٥٢٨
الصدقة حاجة اجتماعية ... .. » » » » محمد فهدى عبد اللطيف	٥٢٩
الدعوة إلى الإسلام ... .. » » » » إبراهيم أبو الخشب	٥٣٠
من أخلاق الشريعة وآدابها ... .. » » » » عباس طه ...	٥٣١
معرض الآراء - المرأة العربية في الحريم ... .. حضرة الأستاذ مدير المجلة ...	٥٣٢
تقاريف ... ..	٥٣٣

## جلالة الملك المعظم يصلى الجمعة بالجامع الازهر

فضيلة الاستاذ الامام الشيخ الراجي يخطب ويؤم المصلين

كانت يوم الجمعة الموافق اليوم الثانى من رءمضان سنة ١٣٥٩ يوما مشهودا فى الجامع الازهر المعمور ، إذ اقتضت إرادة حضرة صاحب الجلالة الملكية تأدية صلاة الجمعة فيه ، وقد فرشت أرضه بالطنافس الوثيرة التى تفضل جلالة قاصر أن تمنع خصيصا له فى المعامل المصرية . وقد حسب مقدار ما صنع منها بالآمنار المربعة قبلت ٣٨٩٣ مترا ، وبلغت نفقاتها ٦٠٣٤ جنيهها . فزاد ذلك فى نخامة المسجد وأكبهته .

قبل آذان الجمعة بدقائق شرف الركاب الملكى ميدان الازهر ، وكان غاصا بمجاهير من الشعب ، فهتفوا لمقدم جلالاته هتافا عاليا ، ودخل المسجد وكان حافلا برحال العلم والوزراء وكبار الموظفين والوجهاء والطلبة ، فوقفوا تبجيلا لجلالته .

ولما تم التأذين صعد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام المنبر ، بصحبه وقاره المهود ، وفاه بخطبة ما فرغ يمثلا خطيب أعواد المنابر منذ زمان طويل ، خرج بها فضيلته عن الترام التسجيع ، وأرسلها عربية خالصة ضمنها أثر القرآن فى أهله الاولين ، فأحيام بعد الموت ، وأعزم بعد الله ، وآتام خلافة الله وزعامة الارض ، ثم ذكر ما أنبأ به القرآن من أخذ الله الامم بما تكتسب أيديهم من المظالم ، وبما يجنونه على الأصول الأولية التى جعلها الله قواعد للحياة الفاضلة ، وأتى بالآيات الدالة على ذلك .

ثم قرر فضيلته أنه كما حاق بالأمم السابقة عذاب الله حين انحرفت عن سبيله ، كذلك أصاب المسلمين ما أصاب السابقين حين انحرفوا عن وصاياه وتعاليمه .

ثم اختتم فضيلته خطبته بقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما قوم > يغيروا ما بأنفسهم » وقوله تعالى : « اعلوا أن الله يحيى الارض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

جمعت هذه الخطبة من أدواء الأم ودواها ، ومن آيات الكتاب الدالة عليها ، ما لم تجمعمه خطبة منبرية ، وألقيت روح موقنة بما تقول ، بصيرة بما يجرى فى العالم من أحداث خطيرة ، فكان أثرها صمقا فى النفوس ، وحلها اللاسلكى الى كل بيت وإلى جميع الاقطار الاسلامية ، فكانت أوسع مدى من أية خطبة أقيت فى الاسلام الى اليوم .

وبعد أن أمّ فضيلة الأستاذ الامام المصلين وتمت الصلاة ، صافح جلالة الملك فضيلته إيجاباً بهذه الخطبة الجامعة ، فكان حمل جلالته معبراً عما خالج قلوب جميع المصلين .

ثم صعد حمزة صاحب الفصيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الفحام وكيل الأزهر المنبر ، وألقى بين يدي جلالة الملك المعظم كلمة شكر قيمة على أيادي جلالته ، وما أثر المغفور له والده العظيم على الأزهر والأزهريين ، مما طار صيته في الآفاق ، وقابله المسلمون كافة في جميع بقاع الأرض بالشكران ، وذكر أن من أحدث تلك الأيادي ما تفضل به جلالته من فرش الأزهر كله بالسجاد الفاخر . وقد كتبنا عن هذا السجاد كلاماً مطولاً في العدد السابع من مجة الأزهر . فمر جلالة الملك مما سمع ، وصافح فضيلة الأستاذ الوكيل إيذاً بقبوله الكريم .

ونحن نأتي هنا على نصي الخطبتين :

## خطبة الجمعة

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونستغفرك ونسئد بك ؛ ونشهد أنك الواحد الاحد ، الفرد الصمد ، بديع السموات والأرض ، خلقها بقدرتك على أكل صورة وأتم نظام ، ودبرتها بحكمتك أحسن تدبير ، وأودعت فيها من الأسرار ما هو عبرة للعالمين ، وعظة للمتدبرين ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونشهد أن محمداً عبداً ورسولك ، اصطفيته من بين خلقك ، وبعثته رحمة للعالمين ، وخاتماً للنبيين ، صلوات الله عليه وعلى إخوانه النبيين ، وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

عباد الله : ترك فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن لحق بالرفيق الأعلى ، هدياً بالغا ، ونورا ساطعا ، وواعظا ناطقا ، وحكمة بية ، وحجة قائمة ، لا يضل ولا يشقى من اتبعه ، ولا يوشد ولا يسعد من حاد عنه ؛ هو كتاب الله الكريم ، وذكره الحكيم ، الفارق بين الحق والباطل ، والهادي الى الصراط المستقيم ، ألا وهو القرآن .

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، ويذكر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا .

حافظ عليه أقوام سلفوا ، فهموه حق الفهم ، فلك عليهم قلوبهم ومشاعرهم ، وصار قلوبهم ، فالتزموا حدوده ، وحفظوا عهوده ، وأقاموا أحكامه ، وطهرت قلوبهم ، وزكت نفوسهم ، وصمت أرواحهم ، واتصلوا بالملك الأعلى ، وهم على الأرض يقيمون ، وكانوا رسل رحمة ، وأئمة رشد ، وقضاة عدل ، وأمرأه هدى .

لم يتعدوا حدود الله ، ولم يخالفوا أوامر الله ، ولم يهنوا الى أصابعهم في سبيل الله ، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا بقضاء الله .

نصروا الله ورسوله فنصرهم الله ، وقنموا بما أصابوا من الدنيا فكانوا سعداء بها .

أحيام الله بعد الموت ، وأعزم بعد الدقة ، وأكثر بعد القوة ، واستخلفهم في الأرض ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وعلّمهم من بعد خوفهم أمنا ؛ فداووا جراح الانسانية ، وأقاموا دعائم المدنية ؛ لكنّها مدنية فاضلة ، لا تصم فيها نصيب ، ولتنفس فيها نصيب ، والله فيها نصيب ، والرحمة فيها أكل قسط ، وأوفى حظ .

هكذا تحقق فيهم وعد الله إذ يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وحبوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليجنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

مصي هؤلاء السادة الذين أنعم الله عليهم وهداهم ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأعرضوا عن الله ، فأعرض الله عنهم ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ؛ سلط الله عليهم أعداءهم ، ومكن لهم فيهم ؛ ساموم سوء العذاب ، وأزولوم من عليا درجات مجدهم ، فتبدلت حالهم من العز إلى القل ، ومن السعادة إلى الشقاء والحزن ، ومن الوحدة والتناصر إلى الفرقة والتخادل .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى . وكذلك نحجز من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، وللعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

عباد الله : خلق الله الإنسان وهو العليم بفرائضه ، الخبير بطبائعه ، البصير بما يصلحه وبما يفسده ، وكان من أطاعه الإلهية أن علمه وأرشده ، ونصب له الأدلة ، وأرسل إليه الرسل تترى ، مبشرين ومنسافرين ، ومؤيدين وناصحين ، وأنزل معهم الكتب آيات بينات ، ودلائل واضحات ، ذكر الناس فيها بأحوال الماضين ، وسير الأولين ، وما أصابهم من نكال وعذاب بما نقضوا من الميثاق ، ونبدوا من الهدى والارشاد .

« قد دخلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحميد . وما ظنناهم ولكن ظنلوا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب . وكذلك أخذ بك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

عباد الله انعرفت الأمم السابقة عن هدى الله فتزل عليهم عقاب الله ؛ وأعرض المسلمون عن هدى الله وعن عظات القرآن البالغة وهدية الحكيم ، وأعرضوا عن تدبر أسرار الله التي تكشف الأيام على نواقبها ما فيها من حكمة بالغة ونظام حكيم ، فنالوا ما نال الأمم السابقة من جزاء عادل .



« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ »

عباد الله : الطريق واضح ، والمنهج بين ؛ هودوا الى هدى القرآن ، وسير السلف الصالح ، لحافظوا عليه وتدبروه ، وراقبوا الله والتزموا طاعته .

« إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » « اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

عن مالك رضى الله عنه أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمُورَيْنِ لَنْ تَضِلَّوْا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابُ اللَّهِ ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

## كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ الفحام وكيل الأزهر

مولاي صاحب الجلالة :

لقد حباكم الله قوة الإيمان بالله ، والاعتقاد عليه ، والثقة العظمى بمعوته ، وأشرب قلوبكم الطاهر الرحمة ، وحب الخير ، والرغبة في الأمن والسلام يفرقان على العالم ، ويشملان بني الإنسان ، فأعمالكم ماثلة أمامنا ، وأيديكم البيضاء تنطق علينا بالحق .

لقد صهرتم بيوت الله بالصلاة تقيمونها ، واستمعتم في مساجد الله الى الأحاديث الدينية تلقى في شهر رمضان ، والله تعالى يقول : « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ » ، ويقول جل شأنه : « فِي بُيُوتِ أَذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ ، يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَجَالِ لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وها أنتم يا مولاي وقد غشى الناس من الطغيان ما غشهم ، وحق بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قد فرغتم الى الله تطلبون رحمته ، وأقمتم صلاة جامعة ، ودعوتهم العالم الاسلامي الى إقامتها ومناجاة الله فيها كي يكشف عن العالم لأواءه ، وأن يرد الى النفوس الأمن والطمانينة والسلم العام .

ولقد وصل الى علمكم الشريف أن فريقا من طلاب الأزهر يحتتمون في حلقات الدرس بالجلوس على حصير خشن لا يناسب مجد الأزهر القديم ، ولا يلائم نظامه الحديث ، ولا يقي الطلاب من مضار المكث في المساجد ، فدعيتكم طائفة الخير أن ترفعوا مكانة العلم ، وأن تكرموا العلماء وتزفوا على الطلبة ، فأمرتم أن يفرش الأزهر بالسجاد المصري الثمين ، فكان أن صنع ما يحتاجه المسجد على تمقنكم الخاصة .

واليوم يا مولاي ، وفي عهدكم الزاهر ، ويرمايتكم السامية ، يرتفع شأن العلم ، وتعلو مكانة العلماء ، وينعم الطلاب بالجلوس على فراش وثير ، يحفظ لهم كرامتهم وصحتهم ، ويساعدكم على مواصلة الدرس .

يا صاحب الجلالة : ليس بدعا أن تتأمل فيكم هذه الخلال السامية ، وأن يكون من سجاياكم عواطف النبل والخير ، والفرع الى الله في الملمات .

فلقد كان صاحب الجلالة المغفور له والذكى العظيم راسخ العقيدة ، يدين حقا بأن لا صلاح

للمسلمين إلا باستمساكهم بدينهم القويم ، فكنت تراء لذلك دائم المطف على الأزهر ، دائب التفكير في إصلاحه وإنهائه ، ولعلنا نغنى أن يراه منارا عالميا عاليًا يشع منه نور الاسلام فيملا بقاع الارض هداية وعلا .

يا صاحب الجلالة : لا يدري الأزهر نأى لسان يفكركم ، أبلسان العلماء وقد رفعت من مكاتبتهم ، وأسبغت عليهم ما يحفظ لهم كرامتهم ، أم لسان المنقطعين لطلب العلم وقد رفعت عنهم ، ورعيت صحتهم ، أم لسان الواعدين الى الأزهر من البلدان البائية وقد مددتهم بفيض فضلك ، وأعتنتهم في غربتهم على القيام بما زحوا من بلادهم لأجله ، أم لسان الدين وقد أحيت فينا سفة ، فكنت الامام المصلح ، والقادة الصالحة ، إذ تقدمت شعبك الى مساجد الله تستمع لتفسير كتاب الله ، وإذ فزعت الى الصلاة ومناجاة رب العزة تطلب نجدة ، فأيقظت في أمك روح الدين ، واتمسك بحبله المتين ، والاحجوه الى الله في المهمات ، وحين يطفى المدوان .

هذا يا مولاي الى ما اتصفتم به من عزيمة صادقة ، وبقظة شديدة ، وقيام بوسائل الحيلة والتأهب للفتنة الحديثة .

يا صاحب الجلالة : إن الأزهر ليشعر حقا أنه عاجز عن الوفاء بما يجب لكم من شكر وثناء ، فهو يضرع الى الله تعالى أن يشد أزركم ، ويؤيدكم بروح من عنده ، وأن يجعل على يديكم إصلاح كلمة الله ورفعة دينه ، إنه سميع مجيب .

## كلمة رمضان لفضيلة الاستاذ الامام

جري حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ عبد مصطفى المراغي على عادة عظيمة الوقع في النفوس ، بمبعدة الأثر في العقول ، وهي أن يفتح شهر الصيام ، بكلمة من كلماته القوية في الأهرام . وقد جرينا نحن على نقلها عنها ، فإلى القراء كلمة هذا الامام الموحزة ، علاجاً مركزاً لادواء القلوب ، ينفع الله به المؤمنين ، ويظهر به أثر الدين على عباده المخلصين :

في هذا الوقت الذي تتلاطم فيه أمواج الشرور ، وتشتعل فيه نار الحقد ، وتخفى فيه طائفة الانسانية ، وتشتد غرارة السباع الضارية ، لا منجاة للناس إلا بالرجوع الى الله سبحانه والاستعانة به .

الله سبحانه هو القادر على أن يسلط عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، وهو القادر على أن يبسط رحمته وينزل رضاه ، وقد حل اليوم شهر من شهوره المباركة ، وجاءت أيام من الأيام التي يتحلى فيها على عباده بالرضا إذا أطاعوه ، فلندخل في أيام هذا الشهر متجردين من الماعص ، مطهرين أنفسنا من دنس الشرك ، ومن دنس الغل والحسد والحقد ، ومن رذيلة التواكل والتفرق والإهمال ، متحلين بالأخلاق الفاضلة الكريمة ، من الصبر والرضا ، والجهد والعمل ، والتفكير في ذات الله وآثاره ، والتفكير في حقوق الدين وحقوق الوطن ، وفي مستقبل الاسلام والمسلمين ، متحلين بالوحدة والناصر ، طارحين وراءنا ذلك الماعص الثقيل المملوء بالحوادث المفجعة المحزنة ، ناظرين الى مستقبل سعيد لائق بنا ، مهتدين بهدى الله ، مستبشرين بنور الله .

جامع ذلك كله تقوى الله ، وقد أشار اليها سبحانه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ومن التقوى طرح الانانية ، والنزوح الى خير الجماعة ، والعمل وقت العمل في سبيل إسعاد الدين وإسعاد الوطن .

« اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . فقد فتح بهذا باب الرحمة ، وفتح باب الأمل ، والذي يحى الأرض بعد موتها ، يحى الأمم بعد موتها ، ويسعدنا بعد شقاها ، ويمزها بعد ذلها ، وينصرها إن نصرته ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وإني أتقدم الى جميع إخواننا المسلمين في سائر البلاد والأقطار ، مهتماً بحلول شهر رمضان المبارك ، صائلاً مولانا عز وجل ، وهو التقدير العزيز ، أن يأخذ بيدنا جميعاً الى سواء السبيل ، وأن يفر لنا ما اكتسبنا من سوء ، ويعمنا برحمته ، إنه جميع السواء .

## أقامة الصلاة الجامعة لاجل السلام

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغي مؤم المصلين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأوفد حضرة صاحب المعالي أحمد حسين باشا رئيس ديوان جلالته ، الى حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، بالرسالة المسكية الكريمة التالية :

« فاروقى الأول ملك مصر بمون الله .

« بما فطر عليه من حب السلام والوثام بين الأمم ، يدعو المسلمين في مصر والسودان ، وإخوانه المسلمين في سائر الأمصار ، الى صلاة جامعة تقام ليلة النصف من شهر شعبان الحاضر المبارك ، بين صلاة المغرب والعشاء ، تتلوها توجهات الى الله سبحانه وتعالى ، ودعوات بأن يرسل رحمته على العالم ، ويميد اليه قريباً عهد سلام ووفق ، يداوى جراح الانسانية ، ويعلى قدر المدنية ، وأن يبق بلاد المسلمين من كل شر ، ويعلى قدر الاسلام والمسلمين » .

\*\*\*

وقد أذيت هذه الرسالة بالراديو لا يبلغها للعالم الاسلامى بالوجة القصيرة وبالوجة المتوسطة .

\*\*\*

### تصریح لفضيلة الأستاذ الامام عن هذه الصلاة

وقد أفضى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام لمدنوب جريدة المقطم عقب صدور هذا الامر الكريم بما يلى :

« إن النداء المسكى السامى الكريم ، يدل على عاطفة كريمة نحو العالم جميعه ، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى حب السلام بين الأمم ، وعلى كراهة شديدة لما يجرى فى العالم الآن من التخريب والتدمير والتقنيل .

« واتجاه جلالة الملك المعظم الى المسلمين جميعهم فى بقاع الأرض ، والعبارة الكريمة التى احتارها ، من نداء المسلمين بوصف الإخاء الاسلامى ، يبينان بأعلى بيان مقدار عناية جلالته بالمسلمين جميعهم ، وحبهم جميعهم حب الأخ لأخيه ، أتباعاً لقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »

« والرجاء عظيم في أن يقدر العالم جميعه هذه العاطفة الكريمة حق قدرها ، وتستيقظ في الأمم عاطفة الإخاء الانسانية حتى تنتهي الأحوال المكدره ، ويحل الصفاء والسلام في العالم » انتهى .

وقد أدى حضرة صاحب الجلالة الصلاة الجامعة بعد المغرب من ليلة النصف من شعبان في مسجد الفتح ، وقد أم المصلين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام . وبعد صلاة الركعتين التي نص عليهما فقهاء الحنفية والمالكية ، دعا فضيلته الدعاء الذي سيأتي بعد .

وقد تولى فضيلة مدير المعاجد إذاعة لاسلكية تضمنت كيفية أداء هذه الصلاة والدعاء المأثور فيها ، وفاقا لما تضمنته الرغبة الملكية السامية .

وهذا نص الدعاء البليغ الجامع الذي طاه به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام عقب الصلاة :

« لا إله إلا الله الخليم الكريم ، رب العرش العظيم ، محمد هو الحقيق بالشاء ، ونضرع اليه وهو المقصود بالدعاء ، ونصلى على خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار .

« إلهي أنت أكرم من قصد اليه المصطرون ، وأتمل فيما لديه الراغبون ، نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرجته ، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها ، يا أرحم الراحمين .

« إلهي أسرف الناس في العميان ، وتعمدوا في الطغيان ، فإن تعدبهم فإنهم عبادك ، وإن تنفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، لكننا نلجأ الى عزتك ، ونستجير برحمتك ، ونطلب مفوك ، ونستمنح رضاك .

« إلهي نسألك أن ترفع عن العالم غضبك ، وأن ترسل عليه رحمتك ، وأن تعيد اليه عهد سلام يدأوى جراحه ، ويكشف ملواه ، وأن توقف فيه بنفحة من الصفحات الإلهية عاطفة الإنسانية ، وتزيل عنه أحقادها التي أكلت القلوب ، وغطت على العقول ، وأظلمات النفوس الى الدماء ، وحبيت اليها الخراب والدمار .

« إلهي أسألك أن تصون بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه ، وأن تعيد الى الاسلام عزه ومجده ، وأن ترد الناس الى الحق والعدل ، وتأخذ بيدهم الى الصراط المستقيم .

« إلهي أسألك أن تقي مصرنا العزيزة من الضر ، وأن تحفظ لنا ملبكنا المحبوب فاروقا الأول ، وأن ترماه برعايتك التي لا يخلد من شملته ، ولا يضام من أظلمته ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السيرة المحمدية

## تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة الأحد — درس عمل في وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم بيد شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرفهم ، وصحوا بمار لا يحويه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكاتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القاعون على تمثيل الدين الذي يقدسونه ، وحماية البيت الذي يحجونه . وكان أشد ما يحفزهم للتفكير في حل جماعة المسلمين ، والاستبسال في مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم في طريق تجارتهم إلى الشام ، يوصدون في وجوههم بابا من الرق ، لو ظل موصدا أصبح مقامهم في مكة من المحال ، واضطروا إلى أن يعيشوا معيشة البدو الرحل ، ييمون منابت السكلا حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يمشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهي حياة لم يألفوها ، بله أنها تضطرم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيصرع إليه المسلمون ، ويكون في ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذي جعلهم يلمسون هذا المصير الختم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم إلى الشام من طريق يثرب ، هولوا على اتخاذ طريق آخر إليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق بحميتها فريق من أشداء قريش ، معهم صفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب ابن عبد العزى ، وم من صناديد قريش ، فبلغ خبرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القردة بنجد ، فتقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حمايتها فأمين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ، فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلقد هم قليلا لئرى ماذا حدث في جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

الاحمال الإسلامية بعد وقعة بدر :

( غزوة بني قينقاع ) — لما حل النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، كان بحوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم

لما آتوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضتهم هذا الأمر وأخذوا في معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار . فدعا النبي رؤساءهم وحذرم عاقبة البغي . فقالوا له : « يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب » ، ولو لقينا لتمعن أنا نحن الناس . فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : « ستطلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فتنين التتقا ( يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر ) ، فتة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كفره ، يرونهم مثليهم رأيي المين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » . فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا في بينهم . فحاصرم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقبل رسول الله طلبهم ، وجلبوا قاصدين الشام .

( غزوة السويق ) — لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه في معركة بدر ، هاج هاجمه وأقسم أن لا يس رأسه ماء حتى يغزو مجدا ، وسوئلت له حمية الجاهلية أن يخرج في مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بني النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله خرقوا تخلا بمجوار المدينة ، وصادقوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم في مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أكرهه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخفون أنقلهم بالقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

( زواج علي بن أبي طالب بفاطمة الزهراء ) — في هذه السنة وهي الثانية ، تزوج علي ، وهرمه إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنها خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين .

( غزوة بني غطفان ) — دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفي ربيع الأول منها أجمع بنو ثعلبة ومحارب من غطفان على الإحارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله في أربعمائة وخمسين رجلا . فلقية رجل منهم يقال له دعشور ، فلما وعى منه الاسلام ، ماد إلى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

( غزوة بخران ) — نعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بني سليم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم في ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرة .

( سد طريق المراق على تجارة قريش ) — لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق المراق تحت قيادة أبي سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حاتمها .



(غزوة أحد) -- عود على بدء -- درس مهمل في وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آتس القرشيون أن طرق التجارة استتدت في وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة في التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق في الأرض لطلب الرزق ، فآزروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبي سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم (١) ، وأبو طاهر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته ، وخرج معهم جماعات من أغراب كنانة ونهامة ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم ، استشار أصحابه في البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو في الخروج إليهم ، فرأى أكثرهم أن الخروج إليهم أمثل ، فصار سحرا على رأس ألف رجل حتى إذا بلغ (الشوط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، مكس عبد الله بن أبي شيبة المصافقين على عقبيه ، ونكس معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين من كانوا قريبي عهد بالاسلام تحاذل هذه الجماعة ، تولاهما الطور ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فمضهما الله من ذلك . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وتحدث بعض المسلمين في وجوب قتال المخذلين ، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى : « وما لكم في المنافقين فئتين (أي ما لكم افترقتم في أمرهم إلى رأيين) ، والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهتدوا من أضل الله ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشعب من أحد ، وهو جبل في الشمال الشرق من المدينة ، جاعلين ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة ، ونزل المشركون بطن الوادي ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان ابن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين لجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيالة المشركين ثلاث مرات وفي كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من الببال ، ثم انفتت المشاة وحمل الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الاناشيد يحمسن الرجال ، فلم تجدم حماسهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وماهى إلا ساعة حتى شعر المشركون بالطور وولوا الأدبار ، ونسأؤهم يبكين ويولولن ، وبهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

فلما رأى الرماة الدين وضعهم النبي صلى الله عليه وسلم لحاية ظهور المسلمين ما آلت إليه

(١) الأحابيش : قوم من قريش وكنانة وحزبة وخزاعة اجتمعوا في الحبشة (بهم فكون فسكر) وهو جبل بأسفل مسكة ، ونحالفوا على التناصر والتعاون .

الحال من النصر ، مالوا الى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن في ذلك مخالفة لأمر الرسول ، فمضوه ونزل أكثرهم ، وبقي هو وقليل من المنتبذين . فلما آانس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع الى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وآتى المسلمين من وراءهم ، فلما رأوا ذلك اشتل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ، وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، ففسر الفشل عند ذلك الى قلوب المؤمنين ، وانقسموا الى طائفتين .

قالت أولاهما . إذا كان محمدا قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع الى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمدا قد قتل فلا خير بعده فلقنا في سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طاحنة الأنصاري ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فثرت كنياته وهو يقول . وجيى لوحبك فداء . وكان كلما مر رسول الله رجل قال له انتر كنياتك لأبي طلحة . وماونه سعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبي أبو دجانة ممالك بن خرشة جاعلا نفسه متراسلا له وهو منحني عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقعد رسول الله أبي بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفرا وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبي في واحدة منها فأنقى عليه ، وخدشت ركبته ، فأخذ على يده ، ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباطه (وهي السن التي بين الثانية والثاب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبي بلتعة فقتله ، وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشج وجهه ، وحرحت وجنتاه بسبب دخول حلقى المخفر فيهما من ضربة وجهها اليه ابن قشة من الجاهليين . وحاء أبو عبيدة فمالجها ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثيابه . وصار النبي وبين يديه بعض أصحابه يريد الشعب ، فلما انتهى اليه أقبلت اليه ابنته طامة وأخذت تفسل وجهه وتضمده .

قتل في هذه الوقعة من المسلمين نيف وسبعون ، منهم عم النبي حمزة . وكان أكثرهم جراحة المناخلون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده . ومثل المشركون يقتل المسلمين ، حتى إن هنداً زوج أبي سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين سعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، وموعدهم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون في قتالكم مثله لم آمرها ولم تسوفى . ثم قتل المشركون وراجعين الى مكة .

ما يجب أن يستخرج من المعبر من هذه الوقعة :

إن هذه الوقعة في عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت الى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل

فيها لا يجدها تشبه الهزائم الحربية في شيء . فإن المجهود في الهزائم أنها تقتضى ألب بولي المهزوم الأدبار ، وأن يتعمقه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضاً آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائياً ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تسع العدو المنتصر المنهزمين إلى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلاً أم مدينة ، واحتوى عليه وأقام فيه حامية لمنع هودم إلى معاكسته .

ولكن الذي أكتسبه عقب هذه الوقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبي وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يجعله شيء من إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يلاحظ أن قائد المشركين سعد الجبل وخطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا في مباراة رياضية ، لا في وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط في تاريخ الحروب وخاصة القديمة منها ، إذ كانت إلى التفاني الحيواني أقرب منها إلى التنازع الانساني .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلواً من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم ماثنا خيال تحت إمرة قادة الحرب في الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان في وسعه على الأقل أن يحيط النبي صلى الله عليه وسلم بخيائه فيمنعه الرجوع إلى المدينة . وقد ثبت أن النبي لم يمد من ساحة القتال في أكثر من بضعة عشر رجلاً وأربع عشرة امرأة أفنى عون من الله لنبيه أظهر من هذا في مثل هذه الهنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بمدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشاً في ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أي شيء فعلتم ، لا مجدداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بشئ ما صنعتهم ! ارجعوا .

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فخرج إليهم في عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم في الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذي صدر إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحشونهم بإذنه ( أي تقتلونهم ) ، حتى إذا قتلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ( جواب الشرط محذوف هنا تقديره : طابقكم بالهزيمة ) ، مكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

# الشيعة

## الرقية وأخذ الاجر على قراءة القرآن

عن أبي سعيد « أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا في سفرة سافروها حتى زلوا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يصيغوم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسموا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتهم هؤلاء الرهط الذين قد زلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شيء . فأتوهم ، فقالوا : يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ فسمينا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فهل عند أحد منكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لراق ، ولكن والله لقد استغنيناكم فلم نصيغفونا ، فإنا أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق فجعل يتنفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين حتى لكانما نسيط من عقال ، فانطلق يعشى ما به قلبه . قال : فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى لا تفعلوا حتى تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان فننظر ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ، فقال : وما يدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسموا واضربوا إلى ممك منكم . رواه البخارى في كتاب الطب . يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : ( ١ ) شرحه إجمالاً . ( ٢ ) هل يجوز الرقية بالقرآن وغيره ؟ ( ٣ ) هل يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن والرقية به ؟ ( ٤ ) وإذا كانت تجوز فهل لها ذلك الأثر الذى يعتقده الناس .

( ١ ) لعل معنى هذا الحديث ظاهر لا خفاء فيه إلا فى بعض ألفاظه ، وإليك بيانها :

« يصيغوم » معناه : يترلونهم ضيوفاً عليهم . يقال : ضيف الرجل بالتشديد تضييقاً : أنزله به ضيقاً . « والرهط » : أقله ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة ، وقد يطلق الرهط على أكثر من ذلك ، وهو هنا ثلاثون كما صرح بذلك فى بعض الروايات ، حتى صرح أيضاً بأن عدد الجمل الذى أخذوه ثلاثون شاة نخس كل واحد منهم شاة . « والقطيع » : هو الشيء المقتطع سواء كان من غنم أو غيرها ، والمراد به هنا الغنم كما ذكرنا . « فجعل يتنفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين » : ينبغى أن يكون التنفل بعد القراءة لا فى أثناءها . وقد قيل : إن حكمة ذلك أن بركة القراءة تحصل فى الجوارح التى يمر عليها الريق فتحصل البركة فى الريق



أيضا ، فإذا أصاب محل الألم كان له أثره في البرء . « ونقط من عقال » : المشهور في اللغة أن نشط بالفتح وكسر والفتحين معناه عقد ، وأنشط معناه حل . فالمناسب هنا أن يقال أنشط لأن معناه حل من عقال ، أي حل . ولكن الرواية نشط بضم النون وكسر الفين معناه حل من عقال ، وهذا لغة فيه . « وقلبة » بتحريك حروفه كلها معناه : علة ، وصحبت العلة قلبة لأن الذي يصاب بها يقلب من جنب إلى جنب لمعرفة محل العلة وموطن الداء . « وما يدريك أنها رقية » : الغرض من هذا اللفظ تعظيم ذلك الأثر الذي ترتب على قراءة فاتحة ، لأن « ما أدراك » كلمة تقال عند التعجب من الشيء ؛ ونستعمل في تعظيم ذلك الشيء أيضا ، وهو المناسب هنا كما بينا .

« والرقية » نضم الراء وسكون القاف : تجمع على رقى بضم الراء ، يقال رقى يرقى رُقْية ، ورقيت فلانا أرقيه بمعنى عودته من شر ما يؤذيه .

( ٢ ) اختلف العلماء في جواز الرقية بالمعنى الذي ذكرناه ، فمنهم من قال إنها لا يجوز لأن الدين الاسلامي مبني على قواعد كونية ، وأسباب معقولة مرتبطة بمسبباتها الطبيعية ، فلا يجوز للناس أن يتحولوا عن هذه الأسباب إلى الرقية والتعاويذ والتأائم ونحو ذلك ، ويذروا ما خلق لهم ربهم من المفاتيح الطبية ، والأدوية النافعة لكل داء من الأدوية . وهذا الفريق الذي ينكر جواز استعمال الرقية ونحوها يقول : إنه قد ورد في السنة ما يؤيد رأيه هذا ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن ولا تغفلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » . رواه أحمد . ومعنى « لا تغفلوا فيه » لا تزيدوا فيه ما ليس منه ، سواء كان في تلاوته أو في غيرها . ومعنى « ولا تجفوا عنه » لا تتحولوا عن المبالغة في احترامه . فهذا الحديث صريح في النهي عن الأكل بالقرآن سواء كان على سبيل الرقية أو غيرها . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن واسألوا الله به ، فإن من بعدكم قوما يقرءون القرآن يسألون به الناس » . رواه أحمد والترمذي . ومن ذلك ما رواه ابن ماجه عن أبي بن كعب ، قال : « علمت رجلا القرآن فأهدي لي قوسا ، فذكرت ذلك لنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوسا من نار » . ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبادة ابن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن أبي العاص « لا تتخذ مؤذنا يأخذ على أذانه أجرا » . فهذا الأحاديث وأمثالها تدل على أن كتاب الله تعالى قد أزل على الناس للهداية وسلك السبل القويمة التي توصل إلى صلاح المجتمع الانساني ، والقضاء على كل ما يخالف العقل والسنن الطبيعية . فيجب على المسلمين أن يمسكوا به ، وأن يفقهوا معانيه على وجهها الصحيح ، وأن يتدبروه كما أمرهم الله به فلا يتخذوه سلعة لا يجديهم نفعا ويتركوا قواعده الخلقية والعمرانية ، والاجتماعية التي اشتمل عليها ، فإن ذلك خسران لا شك فيه .

هذا هو رأى القائلين بعدم جواز الرقية .

( ٣ ) أما أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، فقد عرفت من الأحاديث التي أسلفناها حجة القائلين بالمنع .

أما الفريق الآخر الذى يقول بالجواز ، فإنه يقف بإزاء ذلك الكلام موقف المستمسك بالأحاديث الصحيحة التى وردت فى هذا المقام ، فيقول للفريق الأول . ومادا تصنعون بحديث البخارى الذى معنا وأمثاله من الأحاديث الصحيحة التى لا توارىها الأحاديث التى عولتم عليها فى الصحة والمناة ؟ وقد أحاب بعضهم عن ذلك بأن حديث البخارى وأمثاله من الأحاديث التى تدل على جواز أخذ الأجرة على القرآن ، وعلى جواز الرقية بالقرآن ، منسوخة بهذه الأحاديث . ولكن هذا الجواب غير سديد ، لأنه لا دليل على النسخ مطلقا . على أن الأحاديث الدالة على عدم جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن يمكن تأويلها : فقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول « لا تأكلوا بالقرآن » ، معناه . لا تطلبوا ولا تسألوا به الناس ، أما إذا أعطيتهم من غير مسألة فذلك جائز لا مانع منه . والحديث الثانى صريح فى أن المنهى عنه إنما هو سؤال الناس بالقرآن . وحديث أبى الدى رواه ابن ماجة وإن كان صريحا فى النهى عن أخذ القوس فى نظير تعليم القرآن أجرة ، ولكن يمكن حمله على خصوص هذه الحادثة .

هذا ما يقوله المحدثون وشراح الأحاديث . ويجعل بنا أن نذكر أيضا آراء الفقهاء فى هذا المقام ، ثم نبين ما عساه أن يكون الصواب :

فأما الفقهاء ، فإن الحنفية يقولون : إن الإجارة على الطاعات غير صحيحة . وهذا هو أصل مذهبهم ، لأن كل طاعة عندم يختص بها المسلم لا يصح الاستتجار عليها ، وكل قرينة تقع من العامل إنما تقع به لاعتباره ، فلو لم يكن أهلا لأدائها فلا يصح أن يأخذ عليها أجرا من غيره . ويستدلون على هذا الأصل بالأحاديث التى ذكرناها . أما حديث أخذ الأجرة على الرقية الذى معنا وأمثاله فإنه ورد فى حالة خاصة وهى إكرام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليست المسألة قاعدة عامة يمكن اتخاذها حجة ، وإلا كانت قراءة فاتحة على من بلغ دواء طاما ، والواقع غير ذلك ، فإن سورة الفاتحة قد اشتملت على عقائد وحكم ودعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وغير ذلك من العلوم والمعارف التى لا يمكن استقصاؤها ولم تكن يوما من الأيام دواء لمن يبلغ . وعلى فرض أنها دواء لذلك فالشرط فى إعطائها أن يكون الرافى بها له حالة خاصة تقربه من الله عز وجل كهؤلاء الأصحاب الذين أخلصوا لله ورسوله ؛ فهى بمنزلة دواء يستجيبه الله منهم . وهذا هو رأى المتقدمين من الحنفية . أما المتأخرون منهم فقد أجازوا أخذ الأجرة على بعض الطاعات للضرورة كتعليم القرآن ، وتعليم العلم ، والأذان والإمامة ، والوعظ . هذا هو رأى الحنفية .

أما المالكية فانهم يقولون إن قراءة القرآن والأذكار والتهايل ونحوها يختلف في أخذ الأجرة عليها ؛ والمنقول عن الامام مالك رضى الله عنه ، أن هذه الأشياء لا يصح أخذ الأجرة عليها . فالرقية بالقرآن ونحوه يختلف فيها عندم .

أما الحنابلة فانهم يقولون : إنه يجوز أخذ الأجرة على الطاعات وتعليم القرآن ونحوه لا بعنوان كونها أجرة ، بل بعنوان كونها صلة ينفع بها في نظير حبسه على أدائها . ووافقهم الشافعية في بعض الأمور ، فقالوا تصح الأجرة على الإمامة في مقابل إتمام نفسه بالحضور الى موضع معين ، لا على أداء الصلاة نفسها . ومثل الإمامة في ذلك الخطبة . وأجازوا أخذ الأجرة على قراءة القرآن وعلى الأذان والإقامة ونحوهما .  
هذا هو ملخص آراء المذاهب في هذا الموضوع .

(٤) والذي ينبغي أن يعلم ها هنا أن العلماء اتفقوا على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : الشرط الأول : أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته . الشرط الثاني : أن تكون باللسان العربي . الشرط الثالث وهو أهمها : أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، وأن المريض قد يشفى بإذن الله تعالى لا بهذه الرقية . ويدل على هذا ما رواه البخاري نفسه في هذا الباب من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرقى نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات .

هذه الشروط ذكرها شراح الحديث كالحافظ ابن حجر وغيره . وقد نقل عن ابن التين « أن الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى إذا كان على لسان الأبرار من خلق الله مفيد قد يستجيبه الله تعالى ، ولكن قد عز هذا النوع فلم يوجد من المقرين من يستجاب له على هذا النحو . ومن الأسف أن الناس قد فزعوا الى تلك الرقى المنهى عنها . ومن يفعل ذلك بغير اللسان العربي المفهوم كان متهما بالشرك » .

هذا ما ذكره الفقهاء والمحدثون في مسألة الرقية ونحوها . ولكن الناس في زماننا هذا قد غفلوا عن معاني الأحاديث الصحيحة ، وتركوا آراء علماء المذاهب ، واندفعوا خلف المضللين الذين يتشبهون بظاهر الأحاديث فيصرفون الناس عن التمسك بالوسائل المشروعة طمعاً في أموالهم ، فكثرت لذلك الدجالون ، وساعدتهم على تصليل الجبهة سوء فهم بعض الفقهاء لمعاني الأحاديث والفتنة . وبإلتيهم فهموا منها ما قد يتبادر الى أذهان الصالحين من أن تلاوة القرآن ونحوه من الدعوات الصالحة يجب أن تكون خالصة لوجه الكريم ، لا أنها سلطة من السلع التي تبتر بها أموال الناس بالباطل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟  
عبد الرحمن الجزيري

## رمضان

كان الكتاب حين يكتبون عن رمضان يدرون أحاديثهم في الكثير الغالب حول ناحيته الدينية ، فيتحدثون عنه لماذا فرض ، ومتى فرض ، وهل كتب صيامه على المسلمين خاصة ، أو كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ، وهل كان افتراضه لجبرد الامساك عن الطعام والشراب ونحوها ، أو أن هناك غايات سامية وواء ذلك ، كتطهير النفس وتهذيب الروح وعلاج البدن مما عساه يلم بالنفس والروح والبدن من أورار وأفذار ، وأمراض وأوضار . كانوا يدرون أحاديثهم حول هذه الناحية ، ثم يفيضون فيها ، ويفعلون ناحية من نواحي الحديث في رمضان كانت جذيرة بأن تقناؤها أقلامهم ، ليس لما فيها من طرافة نجس ، بل لما فيها من مغزى سام ، وتقدير لطيف لشهر رمضان ومكانته في نفوس المسلمين : تلك هي ناحية العادات الاجتماعية التي أحدثها رمضان بين العادات الحسنة للمسلمين . ويؤسفني أن أقول « المسلمين السابقين » لأنهم أصحاب الفضل في غرسها ، والعناية بها ، والحفاظ عليها ؛ أما مسلمو اليوم فهذه من كلف نفسه إحداث عادة حسنة ، بل هيئات من كلف نفسه الإبقاء على عادة من تلك العادات التي عني بها أسلافه تقديرا لهذا الشهر وإكراما له .

ولعل من أحسن العادات الحسنة أو أحسنها ، عادة العناية بالفقراء والترفيه عنهم ، والاحتفال بهم في هذا الشهر ، فكنت ترى قصور الأغنياء ، بل بيوت المتوسطين تلمس بالفقراء رمضان كله ، يشركونهم في فضل الله عليهم ، طيبة بذلك نفوس الأغنياء ، مبتهجة قلوبهم ، يفرح الفقراء من فطورهم ، ويتسحرون من سحورهم ، لا يستأثر الأغنياء دونهم بطيب ، ولا يتمتعون بشهى . ولقد بلغ من عناية المسلمين الأولين بتلك العادة والاهتمام بشأنها في ذريتهم وأهلبيهم ، أن وقفوا ضياعهم ودورهم على الاتفاق على الفقراء في شهر رمضان ، وقلما تجد بين الواقفين المسلمين من فاته هذا الغرض .

لهذا كنت لا تجد بين الفقراء والأغنياء ما تجده اليوم من قل وحقد وحسد وبغضاء ، ينظر كل منهم الى الآخر نظره الى المدو ، ينتظر عليه الفرس ، ويتربص به الدوائر ، بل كنت تجد بينهم التواد والتراحم ، والتماطف والتواصل ، يتمنى الفقير للثنى المزيد من فضل الله ، ويتمنى الثنى للفقير العطف واللون من الله .

ولقد كان من العادات الحسنة أيضا إحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن ، تلك العادة التي كانت شائعة في سائر الأسر تقريبا ، حتى لقد كان من العار أن يخلو قصر أو دار من فقيه لهذا الغرض ، وكانت الأسر تتنافس في اختيار الفقهاء ممن حسن صوته وذاع صيته ، ولا زلنا نذكر مما كان



يقال ، أن فلانا الفقيه أحيا رمضان في أسرة فلان بكذا جنبها ، وخلعة من جيد « الجوخ والشاهي » ، وأن فلانا الفقيه اختص بأسرة فلان ، وما إلى ذلك من حديث الفقهاء . وليس من التكرار أن أقول : إن من أوقاف الأغنياء أوقافا خاصة بالفقهاء في شهر رمضان .

هذا وإن من العادات الاجتماعية ذات الأثر البعيد بين المسلمين ، عادة التزاور في شهر رمضان ، فكنت تجد الدور تملأ بزوارها ، تحالطهم البقاشة ، ويعلمون البشر ، ويسودم الصفاء ، يثذكرون فيما بينهم شئون دينهم ، ولا ينسون شئون دنياهم ، يحاولون تفسير آية بما يسمعون ، ويتساءلون عن حكم فقهي لما يمرض في رمضان من حوادث ، كحوادث الإختار والإسك ، والصلاة ، وزكاة الفطر ، ونحو ذلك . وما أكثر ما يمرض في رمضان من حوادث . ويتشاورون في حل مشكلة من المشكلات التي تعترض أفرادهم ، يتحققون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « مثل المؤمنین فی نوادم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ، يحرمون ما حرم الله من ورق وزرد ونحوهما مما ابتدع وانبع ، يظنون كذلك رمضان كله ، حتى إذا أقبل العيد جددوا زياراتهم مسلمين مهنتين .

هذه بعض مادات السلف الصالح ، فأين أنتم يا شباب الجيل ؟ ! يا منفقى المصر ! يا حائل نواء المدينة ! أين أنتم من تلك العادات ، وأين ما ابتدعتم منها ؟ ! والله إن الحديث عنكم لمشج وغر ، وإن المقارنة بينكم يا منفقون وبين أسلافكم - الجهلاء كاترمون - لتدخل بالحكم عليكم بما لا يسركم ولا يرضيكم .

يا شباب الجيل ! نبشوني كيف استقبلكم لرمضان ، وكيف معاملتكم للفقراء ، وما هي عابنكم بالقرآن ، وكيف تقصون ليلاليه وأيامه ؟ أنسمعون بالجواب ؟ ألا تسمعوا قول الله تعالى : « تغلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقىون عيابه ، إلا من تاب وآمن وحمل صالحا فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ولا يُظلمون شيئا » .

يا شباب الجيل ! لطالما أوضعتم في الفتنة ، واضطجعت في مراقدة الضلال ! فهل فيما يجري في العالم من خطوب وأهوال نذير لكم ، فتقلعوا عما أنتم فيه ، وتحاسبوا أنفسكم ، وتندبروا أعمالكم ، وتفتشوا بالجد من أموركم ، وتحاولوا أن تبيدوا سير أسلافكم في يوم وتقوام ، وتوازنوا بين أعمالكم وأعمالهم ، لتعلموا أيكم خير لنفسه وأمره ووطنه ؟ !

إن في رمضان لفرصة للتوبة والإنيابة ، وإنه خير الأوقات لاستجابة الدعاء واستئزال الرحمة ، فطهروا أنفسكم فيه بالأعمال الصالحة ، ثم ادعوه مخلصين أن يصلح أحوالكم ويحببكم وأمتكم غضب الله وسخطه ، ويباعد بينكم وبين ما يتزل بغيركم من دمار ووبار ، ويحفظ على أمتكم أمنها وسلامتها ، ويرد عنها كيد الكائدين ، وطمع الطامعين ؟

أبر الوفا المرافى

## تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

- ٧ -

في مذهب الإمام الليث :

لم يؤم الإمام الليث فيما حاج به مالكاً رضى الله عنهما الى إهدار حمل أهل المدينة ، وإنما رى الى عدم إهدار آراء الأصحاب الذين ضربوا في أنحاء المملكة الإسلامية طويلاً وعرضاً ، وابتشوا في معسكرات المسلمين ودواوينهم في سائر البلاد المفتوحة والمفتنطة ، ولا بسوا الأحوال والظروف التي أحاطت بهم ملابساً قريية ، ولم يقطعوا الصلة بالخلفاء وكبار الصحابة ، بل وثقوها بالمشاورات والمراسلات والرّحل ، وهم بمد هذا كله ، وقبل هذا كله ، مثل محتذى ، بما لهم من علم وفضل ، وإخلاص لله ، وغيرة على شريعته .

ولم يكن مالك رضى الله عنه بالذي يغيب عنه ذلك ، أو يجارى فيه ، ولكنه أراد توحيد الناس على حمل أهل المدينة الذين استقر قرار الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، فذلك أجدى على المسلمين من تشيع الخلاف ، وتوسيع الجدل ، وتكثير صور الفقه بلا مبرر .

فذلك رضى الله عنه يرى بهذا الدافع الشريف أن المصلحة العامة للمسلمين تتحقق في العمل بما حمل به أهل المدينة ، لأن في ذلك جمعا للناس على حمل إن لم يكن هو حمل الرسول في جملته وتفصيله ، فهو حمل قد أقره وسكت عليه ، أو هو على أدنى فرض أقرب العمل من حمل الرسول .

والليث رضى الله عنه يسلم لمالك فضل أهل المدينة وتسبقهم ، ويقره ويشكر له هذا الدافع الشريف ، ولكنه يرى ألا يقيّد المسلمون في جميع بقاع الأرض بعمل أهل بلد واحد في كل أحوالهم ، وكأنه يرى أن إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لعمل من الأعمال لا يتضمن حكماً بأن هذا العمل وحده هو الصحيح المقبول في نظر الشرع ، فقد يكون غيره أيضاً صحيحاً مقبولاً ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو اطلع عليه لأقره أيضاً ، فعمل أهل المدينة ، حتى بعد التسليم بأقراره من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يهدر حمل سوام ، ولا ينبغي أن يكون ملزماً للمسلمين .

وقد ورد في رسالة الليث الى صاحبه أمثلة فقهية كثيرة يؤيد بها ما ذهب اليه ، في حوار هادئ ، وجدال مهذب :

١ — مَثَلُ له بمسألة الجمع ليلة المطر ، فقد أنكر الليث أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، فجاب عليه مالك هذا الإنكار ، فاحتج الليث بأن مطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، ومع ذلك لم يجمع إمام في الشام قط ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وهرو بن العاص ، ومعاذ ابن جبل الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أعلحكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » ، وقال فيه : « يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برؤفة (١) » ، ولم يجمع هرو بن عبد العزيز بالشام بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بمخاضة ساكنة .

هكذا مثل الليث لصاحبه ، وأحب أن يقف القارئ معي أمام هذا المثال متديرا : إن الليث ثبت أن أهل الشام وفيهم من فيهم لم يجمعوا قط في ليلة مطر ، ولا ينكر ، ولا يسمعه أن ينكر ، أن أهل المدينة يجمعون ، فهو إذا يقرر أن الجمع وعدم الجمع كلاهما يستند الى عمل من الصحابة ، فما الذي دماه الى أن ينكر أن يجمع أحد بين الصلاتين ليلة المطر ؟ أولا يقوم العذر لماك إذا جاب عليه هذا الإنكار ؟ ولكن في المسألة باطنا غير هذا الظاهر هو الذي حمل الليث على الإنكار حين أنكر ، وعلى الإصرار حين روجع : ذلك أنه لمع العلة في إباحة الجمع ليلة المطر ، وهي التخفيف ، ثم نظر فوجد مطر المدينة قليلا بمعنى أنه ليس في كل البيات مِلْحًا سَكوبا ، فإذا سكب المطر ليلة وأصبح كان ذلك بين أهل المدينة غربيا ، ووجدوا فيه مشقة لم يألوهها ، ولم يعدوا لها ، أما في الشام فالمطر أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، كما يقول الليث ، وقد ألف أهل الشام سحره وتُسْكابه ، وأعدوا له ما ينفي عنهم مشقته ويدفع غوائله ، فلذلك أباح لأهل المدينة ما لم يبيع لأهل الشام ، لأن المطر يشق على أهل المدينة الذين لم يألوه ، بما لا يشق على أهل الشام . وهذا — فيما أرى — أحد المواضع التي تأثر الفقه فيها بالإقليم والمناخ ، أو بمباراة أدق ، أحد المواضع التي تفيد مراعاة الفقه لطروف الإقليم والمناخ .

٢ — ومن أمثلة الليث أيضا : مسألة القضاء بشاهد وعين صاحب الحق ، كان يُقضى بذلك في المدينة ، ويقول الليث : إنه لم يقض بذلك أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام ، وبمحمص ، وبمصر ، وبالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ولقد ولي عمر بن عبد العزيز ، وهو من هو في إحياء السنن ، والجد في إقامة الدين ، والإصابة في الرأي ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه وزيق ابن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد وعين صاحب الحق ، فكتب إليه هرو

(١) الرؤفة : المخلوة وما أشرف من الأرض .

ابن عبد العزيز : إنا كما تقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقضى إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين .

وهذا المثال واضح ، والدليل فيه جيد ، وهو يؤيد الفكرة التي ذهبنا إليها في التعقيب على المثال الأول ، من مراعاة الفقه لاختلاف أحوال الناس والأقاليم ، فإذا اطمأن القاضي إلى يمين رجل يعرف به التقوى والورع في زمان لم يكثر فيه الخداع ، وبلد لم يعمد فيه الفجور ، فليس له أن يلتزم ذلك في كل زمان ، وفي كل بلد ، وفي كل قضاء .

٣ - ومثل الليث لما لك أيضا بمسألة مؤخر للصدقات : أهل المدينة يقضون بأن المرأة متى شاءت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصر والشام لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، متى إذاً من المسائل التي يرجع فيها إلى عرف المتقاضين ، ولا ينبغي أن يصار فيها إلى عرف بعينه فيلزم الناس جميعا به .

ولم يقف الليث عند هذا الحد في محاورته لما لك ، بل انقلب في رسالته مهاجما بعد أن كان مدافعا ، فأخذ ينتقد على مالك بعض أقواله ، ويناقشه فيها ، فكان مما أورده عليه من ذلك :

( ١ ) أن مالكا يقول في الخطيبين في المال : إنه لا يجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما يجب فيه الصدقة ، مع أن عمر بن الخطاب كتب أنه يجب عليهما الصدقة وبتراذان بالسوية ، وقد كان يعمل بذلك في ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره فيما أخذت لنا - هكذا يقول الليث - والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه . فهو في هذا يأخذ عليه أنه قال بشيء يخالف عمل أهل المدينة الذي سجله كتاب عمر بن الخطاب ، وقضاء عمر بن عبد العزيز وغيره .

( ٢ ) ثم يذكر له نقدا آخر يتصل برواية الحديث فيقول : « إنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط أثير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدّثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والامة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أمريقية لا يختلف فيه انسان ، فلم يكن ينبغي لك - وإن كنت سمعته من رجل يوثق - أن تخالف الامة أجمعين » .

تلك أمثلة من دفع الليث عن مذهبه وتقدم المذهب مالك ، وكلها تدور حول ما تمسك به الليث من أن ما عليه أهل كل بلد له حجة وأصل ، وأنه لا مصلحة للناس في جمعهم على عمل أهل المدينة .

ونحب قبل أن نترك هذا الفصل أن نلخص لقراء مذهب مالك في الاحتجاج بعمل أهل المدينة ومن خالفه في ذلك : فعمل أهل المدينة أنواع ثلاثة :

(١) حمل أجمعوا عليه لم يخالفهم فيه غيرهم ، وهذا حجة عند الجميع بلا خلاف ، واليـث من بينهم ، وفي كلامه تصريح بذلك حيث يقول في رسالته : « ولا نجد أحدا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني » .

(٢) حمل يخالفهم فيه غيرهم .

(٣) حمل فيه اختلاف بين أهل المدينة أنفسهم .

فالأخيران هما محل النزاع ، وينبغي ألا يضيف عن البال أن العمل الذي هو حجة عند المالكية بلا خلاف هو العمل الثقل ، كأن ينقل أهل المدينة تعيين المنبر السوي ، أو محل وقوفه أو زوله ، أو نحو ذلك ، أما العمل الاجتهادي الذي هو عن رأي ونظر وتفقه فهو محل نزاع حتى بين المالكية ؟ « يتبع »

محمد محمد المنفى

المدرس بكلية الشريعة

## الانس بالوحدة

للأدباء مجال مستملح في الغلو ، وليس الغلو بمستملح إلا في الأدب ، حتى قيل : إن أعذبه أكذبه . وقد افتقر الشعراء في مدح الميزة عن الناس ، ونحن نورد أحسن ما قالوه في ذلك في معرض الإطراف الشعرى فحسب : قال عبد المحسن الصوري :

أنت بوحدتي حتى لواني رأيت الانس لاستوحشت منه  
ولم تدع التجارب لي صديقا أميل إليه إلا ملت عنه  
وقال ابن فارس الغوي :

إذا ازدجت هموم القلب قلنا عسى يوما يكون له انقراج  
ندعى هرتي وأنيس نفسي دقاتي وممشوق السراج  
وقال غيره :

عفا الله عن هذا الزمان فانه زمان عقوق لازمان حقوق  
وكل رفيق فيه غير موافق وكل صديق فيه غير صدوق

# دراسات في القرآن الكريم

## الاصول العامة والمبادئ الشاملة في كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

هذا هو البحث الذي قد استخدمنا كلامنا في الآية التي كنا نعدد الكناية فيها بمناسبة بيان المحكم والمتشابه ، أو بمباراة أخرى : قطعي الدلالة وظنيها ، والذي وعدنا به القارئ في المقال السابق ، وقد كانت كتابة هذا البحث بمناسبة عرض بعض الكنايين في بحوث له للقياس والرأي ، واليكيم منه :

ألقى بعض الباحثين محاضرات تحت عنوان « الامام الشافعي واضع علم أصول الفقه » ، وكان مما عرض له في تلك المحاضرات بيان متمد التشريع الاسلامي ومستمده ، فكان مما قاله في هذا : « كان التشريع الاسلامي في عهد الرسول يعتمد الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يعتمد رأي النبي ورأي أصحابه » . ورأينا بعد هذا كاتباً آخر في جريدة السياسة يناقش هذا الباحث في جملة القياس والرأي من مستمدات التشريع الاسلامي ، وجمل يفرق في ذم القياس والرأي ، وانظرنا بعد قراءة تلك المناقشة أن يكتب الأستاذ الباحث بمناسبة تلك المناقشة تفصيلاً لما قد يكون بالمباراة من إجمال كان هو مثار الشبهة ومنشا الغموض ، ولكن الأستاذ الى الآن لم يكتب شيئاً في ذلك ؛ ولما كان هذا البحث ذا مساس بأصل شرعي خطير ، كان واجباً مؤكداً وحتماً مقضياً على كل من لديه حق في هذا البحث أن يرسل من نوره على هذا الموضوع حتى يقين للناس واضحا جليا ، وليعلموا أن الأستاذ الباحث كان غير مصيب حين أسرف في ذم الرأي والقياس ، وحين حاول إبطال كونه مدركا شرعيا وطريقا لاستنباط الأحكام لما يجده من حوادث لم يكن على حكمها في الشريعة نص خاص أو عام ، وليعلموا كذلك أن ما يتبادر الى الفهم من عبارة الأستاذ المحاضر ، سواء أكان مرادا له أم غير مراد ، من أن نتيجة الرأي والقياس شيء غير الوحي ، ليس هو الحق في التشريع الاسلامي ، بل الحق والواقع غيره . وتو أن الأستاذ الباحث كان قد ناقش الأستاذ المحاضر في هذا الموضوع من ناحية غير ذم الرأي والقياس لكان قد أصاب ، ولما كان لنا العذر في ألا نعرض لهذا الموضوع ؛ فلا بد لنا إذاً أن نبسط هذا البحث حتى يقين فيه ما نعرفه من حق يقضي علينا الواجب الديني بنشره على الناس :

الحق أن معتمد التشريع الاسلامي ليس إلا شيئاً واحداً ، ذلك الشيء الواحد هو الوحي من الله الى رسوله الكريم ، سواء في ذلك عهد الرسول ، والعهد الذي بعده ، والعهد الذي بعده ، وهكذا الى يوم القيامة ؛ غير أن الوحي كان يظهر تارة في ثوب قرآني من كلام الله المعجز ، ويظهر تارة أخرى في ثوب من فعل الرسول أو قوله ، وهو ما يسمى في اصطلاح الفقهاء والأصوليين بالسنة ، كما يسمى الأول بالكتاب ، فليس شيء آخر وراء الوحي الذي يلبس صرة ثوب الكتاب وأخرى ثوب السنة يكون مصدراً ومعتمداً للتشريع الاسلامي .

أما الإجماع فهو غير خارج عن هذين الأصلين ، إذ المقرر عند الأصوليين ، كما هو الواقع ، أن الإجماع لا يكون إلا مبنياً على مستند من الكتاب أو السنة ، وليس هناك إجماع قط يتكون بدون اعتناد الى أحد الأصلين .

أما القياس لحقيقته وحاصله هو أن الواقعة حين تحدث ولم يكن قد سبق للمجتهد حكم عليها ، وليس بين النصوص ما يبين حكمها من خاص أو عام ، فإنه ينظر ما في تلك الحادثة من معان ، وأنها هو القوي الغالب ، حتى إذا أدرك من بينها معنى كان قد علم من قبل أن الشارع قد ربط به حكماً فإنه حينئذ يرى ذلك الحكم حكماً لتلك الحادثة . وهذا الحكم في واقع الأمر هو لتلك الحادثة من يوم نزل الوحي على الرسول بالحكم على أصل هذا الفرع ، غاية ما هناك أن المجتهد لم يتبين ذلك إلا حين وقوع الحادثة ونظره إياها . فأنت ترى أن المجتهد لم يستأنف تشريعا ، ولم يفتي حكماً ، بل كل ما له في ذلك هو إظهار أن تلك الجزئية تنظمها مادة من مواد الوحي ، وتكملها قاعدة من قواعد الشريعة . هكذا شأن الاجتهاد ، وهكذا شأن القياس ، سواء كان القائل هو الرسول إن جرينا على القول باجتهاده ، أم كان ذلك من أحد أصحابه ، أم من غيرهم من أئمة المسلمين ، كإبي حنيفة والشافعي ، فما يحمل اجتهادهم إلا تطبيق مواد الوحي ، وإظهار قبول قواعد الشريعة لما حد من حوادث ، إذ تلك القواعد قد وضعت على وجه صالح لانتظام كل ما يحدث للناس من أقضية ، وما يحد لهم من شئون ؛ وهذا من لوازم كون الاسلام شريعة ختامية أبدية صالحة لأقامة العدل والتنظام بين جميع شعوب الأرض على اختلاف أمكنتها وأسباب معائشها ، وعلى تباين أوانها وألسنتها في متتابع المصور والأزمان .

وعليه فآل القياس على الحقيقة ونهايته ، هي جعل الجزئية المنظورة مشمولة لمعى نص من النصوص ، حيث إن ذلك النص لم يشملها بلفظه .

واليك مثلاً يوضح لك أمر القياس ، ويتبين به أن المجتهد حين يرى في حادثة رأياً ليس مشروطاً ولكن مظهر حكم الله فيها ومتبينه :

فأذكر إذ عرض على الامام الشافعي بيع التفاح بالتفاح متفاضلاً أو مؤجلاً ، فإنه حين يقيسه على البر ويسويه به في الحكم ، وهو تحريم بيعه بمثله إلا مثلاً بمثل هذا بيد ، لقوله عليه السلام

« لا تبيعوا البر بالبر إلا يدا بيد مثلاً بمنزل » فالشافعي لم يحرم بيع التفاح إلا حين نظر فوجد من المعاني في تلك الثمرة كونها مطعوماً ، وكان قد علم قبل ذلك لطريق من طرق معرفة العلة المقرر في علم الأصول أن الشارع رتب حكم التحريم في البر على كونه مطعوماً ، وربطه به بمقتضى النص الآنف الذكر ، فلما رأى أن العلة والباعث على تحريم البيع في البر على هذا الوجه هي كونه مطعوماً ، وأصبح مآل النص ( حديث الرسول السالف الذكر ) « لا تبيعوا مطعوماً مطعوماً مطعوماً إلا يدا بيد مثلاً بمنزل » كان لا شك بيع التفاح بالتفاح داخل تحت هذا المعنى ومشمولاً له . لحكم بيع التفاح بالتفاح متفاضلاً أو مؤجلاً قد قرره الشريعة من يوم قال الرسول « لا تبيعوا البر بالبر إلخ » ، ولكن الشافعي لم يقينه إلا يوم نظر تلك الحادثة ، فسوى التفاح بالبر في الحكم لما وجد علة حكم الأصل وهو البر ، في الفرع وهو التفاح .

في هناك طرق أخرى لاستسقاط الأحكام الشرعية كالاستصحاب والمصالح المرسلة ، والواقع أن المصالح المرسلة مهما اختلفت عبارة القوم في تحديدها وتصويرها فهي راجعة إلى القياس ، وكل ما هنالك من تفاوت أن ما اصطلعوا على تسميته بالقياس قد اشترطوا فيه أن يكون المعنى الذي يشترك فيه المقيس والمقيس عليه ، ويسوى المجتهد بسببه في الحكم بينهما ، معنى يكون الشارع قد اعتبره بخصوصه في خصوص حكم المقيس عليه ، كما في المثال السالف الذكر ، فإن الإمام الشافعي يرى أن الشارع قد اعتبر ذلك الأمر بخصوصه وهو كون الشيء مطعوماً علة ذلك الحكم الخصوص وهو تحريم بيع البر بالبر على هذا الوجه ، فأما إذا كان المعنى المناسب الذي يمثل به الحكم لم يشهد باعتباره بخصوصه شاهد شرعي خاص ولكن فهم من جملة تصرفات الشارع اعتبار جنسه في جنس الحكم ، متى نوع القياس للاشتراك في مثل هذه العلة بالمصالح المرسلة في اصطلاح الأصوليين .

وإليك مثلاً لهذا : قام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن الكريم بعد وفاة الرسول ، وبعد أن تردد فيه الخليفة الأول لرسول الله « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه ، وجعل عمر الفاروق يحاول إقناعه بذلك حتى أقنعه ، وبعد أن تردد في ذلك زيد بن ثابت حين كلفه الخليفة بذلك ، حتى لقد تحدث هن نفسه بأنه لو كاف ثقل جبل لكان أهون عليه مما كلفه به الشيخان ، وأنه ما زال به الفاروق والصديق حتى شرح الله صدره لذلك ؛ ترى أما إذا نظرنا في هذا العمل نجد أن الصحابة لم يستندوا فيه إلى نص ؛ لذلك كانت حجة أبي بكر في تردده حين عرض عليه عمر ذلك كما كانت حجة زيد بن ثابت : « كيف أقدم على حمل لم يقدم عليه رسول الله ؟ » ثم هم إلى هنا لم يقيسوه على أصل خاص لعله اعتبرها بخصوصها الشارع ، ولكن لما كان مفهومها من جملة الشريعة وروح التشريع وجوب المحافظة على أصل الإسلام وسد ذريعة الاختلاف فيه ، فهم استندوا إلى ذلك الأصل فيما قاموا به من جمع القرآن الكريم .



ومن قبيل الاستدلال بالمصالح المرسلة أيضا ، ما ذهب إليه الإمام مالك وشيوخ مذهبه من جواز سجن المتهم وضربه ، وإن كان السجن والضرب نوعين من العذاب ، وهو لم يمهّد بالشريعة إلا في الحدود ، ولكن لما رأى الإمام مالك أن أموال الناس قد يتعذر استخلاصها من أيدي السراق والغصاب لعدم البيئة لأنهم حين يقدمون على تلك الجرائم يتحرون التفتدي من أن يؤخذوا ببينة ، لما رأى ذلك أجاز هذا التمهيد حين كان الوسيلة لتعصيل الأموال وردها إلى أربابها ، فترام وإن لم يستندوا في ذلك إلى نص ولا قاسوا على أصل خاص ، ولكن لما كان مفهومها من جهة الشريعة وروح الاسلام نظيب منفعة المجتمع على منفعة الفرد ، وإيثاق المصلحة العامة على الخاصة ، فهم استندوا إلى ذلك الأصل في جواز إساءة الفرد لاستتباب مصلحة المجتمع . فأنت ترى أن المجتهد حين سلك هذا النوع من الاستدلال لم يحد عن طريق القياس ، بل كل الذي حصلت به المخالفة لقياس المشهور أنه في هذا النوع من الاستدلال قد استند إلى علة هي وإن لم يشهد لها أصل من الشريعة خاص ، قد شهد لها عمومات الشريعة ، ووجه نصراتها .

وأما الاستحسان ، فهما اختلفت عبارة القوم في رسمه أو تمحيده ، فكلها ترجع إلى أن الاستحسان عبارة عن أن يخالف المجتهد مقتضى دليل عام في مسألة من متاولات ذلك الدليل فيمطبها حكما غير الحكم الذي هو لها بمقتضى هذا الدليل ، ولناظرها لاعتبار عام في تلك المسألة بخصوصها . أو قل : الاستحسان بمباراة أخصر من هذه : هو تخصيص دليل بدليل آخر .

وإليك مثلا يوضح هذا : أجاز الفقهاء أن يدخل الشخص الحمام دون تقدير للأجرة ، وبغير تعيين لمدة المكث فيه ، وبغير تقدير لما يستفده من الماء في تنظيف جسمه ، ومقتضى الأدلة الشرعية فساد عقد الإجارة والبيع إذا جهل أحد العوضين أو إذا جهلا معا ، فكان مقتضى هذا عدم جواز دخول الحمام من غير تعيين ولا تقدير ، ولكن لما كان عرف كل بلد في مثل هذا يكاد يكون محمدا لتلك الأعراف ومقدرا لها ، فإن حصل بعد ذلك تفاوت بين تقديرى المتعاقدين لم يكن إلا في زور يسير ، فلم تحتم تفاوض الداحل مع صاحب الحمام في تقدير ذلك كله ففتحنا بذلك بابا لمفاوضات ربما أدت إلى تخافض في القول ، وإلى مشادات ليتها كانت في شيء . كثير ، بل هي في غير ذى قيمة ، بل في تخافض يسير لا يجمل مثله بكرامة أخوين في وطن ، إن لم يكن في دين ، مع منافاته لما يندب إليه الاسلام من تسامح بين المتعاملين ، وفي هذا تضيق لباب العامة ، وخلق للعشقة والحرص ، والخرج من أول مقاصد الإسلام إزائه واستقصاله .

فانظر تر أن المستحسن لم يشرع استنادا لاستحسان نفسه ، ولا اعتمادا على نظر عقله ، ولكنه في استحصانه قد استند إلى مادة الوحي وما أمثلته من أصول وأسننه من قوانين . وما كان الاستحسان الذي يفرض به المجتهد في مثل هذا إلا منبعا عن شعوره بقوة ووضوح

micahara  
Jameh  
back - auv

في الأصل الشرعي الذي استند إليه في التخصيص والاستثناء ، وإحساسه بتزياع الشبه عنه ، كما ترى في هذا المثال الذي أسلفناه . وبهذا ترى أن المستدل بطريق المصالح المرسلة لم يخرج عن كونه قائما ، وقد علمت حقيقة القياس كما ترى ، وأن المستحسن لم يجد عن مقتضى أصل من أصول الشريعة .

هذه حقيقة اجتهاد الفقهاء ، وذلك مآل الرأي والقياس في الاسلام : لم يكن المجتهد والذي رأى وفسر إلا مطبقا لمادة الوحي ، ومفصلا لتواعد الشريعة ، ليبين انظامها لما يحدث للناس من أفضية ، وما يجد لهم من شئون ، وأن ما تناصر عنه لمعظ القاعدة الشرعية لم يتقاصر عنه معناه ، وكيف لا يكون كذلك ويكون كما يفهم بعض الناس من أن الاجتهاد والرأي ليسا مستمدين من الوحي بل هو تشريع من عند صاحبهما ، ولو كان كما يفهم هذا البعض لكان القائل والمستحسن مبتدعا ، وهل البدعة إلا أن يشرع الانسان من عند نفسه ؟ ولقد عرفنا رسول الله مكان البدعة وأنه النار وبئس المصير « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » ، لو كان كما يفهم بعض الناس ، ما كنت ترى الإمام الشافعي حين خالف الامامين أبا حنيفة ومالك في الأخذ بالاستحسان لا يزيد في رده له عن أن يقول : « من استحسّن فقد شرع » ، فاكتمى في الرد ببيان أن الاستحسان مفض الى تشريع المرء من عند نفسه . أما أن تشريع المرء من نفسه منكر وباطل ، أما أنه لا يهديه من المسلمين أحد لنفسه ، أما أنه شأن الله وحده ، فذلك ما قد فرغوا منه ، وليس بين المسلمين من يخالف فيه ، فلذا عرفت بعد هذا أن الامام الشافعي ممن يحتجون بالقياس ويعتبرونه دليلا شرعيا ، عرفت أن القائل ليس مشرعا من نفسه بل مستمد من الوحي ، كما أن المستحسن كذلك في نظر الامامين أبي حنيفة ومالك ، وكما هو الواقع .

نعم لو كان كما يفهم بعض الناس ما عفى القرآن في كثير من آياته بدم الدين حلوا وحرّموا من عند أنفسهم ، ولا بالغ في تخطئهم وتسفيهم ، فعرّفهم أن التحليل والتحرّم شأن الله وحده ، إذ هو الذي يعلم مواطن الضرر ومواقع المصلحة ، وما ينظم شئون الناس من شرائع وقوانين .

ولا بد لي أن أسوق لكم آية من تلك الآيات حتى تعرفوا منها ذلك واضحا :

« قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ » وما عاين الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ، إن الله ذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون :

أكتب هذا بمناسبة ما رأيته وفهمته من محاضرة ذلك الباحث ، مع انتهاء لفهمي إلى حد كبير ، إذ لا أزال أظن أن يكون مراد الأستاذ في محاضراته هو هذا الذي فصلته .

أما ما جاء بالمقال الذي نشرته جريدة السياسة من الإغراق في ذم الرأي والقياس ، والإمعان في حظره ، فذلك مالا يتفق مع ما روى عن رسول الله ، ولا مع ما مضى عليه عمل أئمة المسلمين من أصحاب رسول الله ومن بعدهم ، كما أنه لا يتفق بمد ذلك كله مع طبيعة الاسلام وحقيقته . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه حين أرسل معاذاً قاضياً الى اليمن قال له : بم تقضى إذا لم تجد حكماً في كتاب الله ولا في سنة رسوله ؟ قال : قال له معاذ : تقيس الأمر بالأمر لما وجدناه أقرب حملنا به ، فقال له الرسول الكريم : أصبت » . ومثل هذا ما جاء في العهد الذي كتبه الفاروق عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري ، فقد قال له فيه : « اعرف الاشياء والنظائر وقس الأمور برأيك » . وإذا نحن تصفحنا عمل أصحاب الرسول وخطابهم الراشدين وفقهائهم المجتهدين ، وجدنا أخذهم بالقياس واعتمادهم عليه في الاستدلال قد تكرر منهم ، وتمددت حوادثه حتى شاع بينهم ، وذاع أمره فيهم ، دون أن يبدي أحد منهم إنكاراً ، أو يبدو على وجه واحد منهم علامة لضرر أو استكره مما تقضى العادة في مثله تقاطع العلم باعتماد القياس والأخذ بمقتضاه ، وهام أولاء الأئمة الأربعة الذين لم يبق بين المسلمين اليوم سوى مذهبهم قد أجمعوا على الأخذ به ووجوب العمل بمقتضاه ، لا بل قد اعتمدوا ما هو دونه من المصالح المرسلة والاستحسان . وعلى العموم فإننا إذا بحثنا آراء المسلمين في القياس وجدناهم مجمعين على حجته والعمل به ، وعلى أنه أصل من الأصول الشرعية ، ولا تجد بينهم من يخالف في ذلك إلا فريقاً من الشيعة . وإنا بعد أن عرفنا ما للشيعة من شذوذ في الاسلام فإنه لا يبقى خلاف تلك التفرقة منهم قيمة ينخس بها ذلك الإجماع .

أفبعد هذا وبعد ما مضى على العمل بالقياس أربعة عشر قرناً من فقهاء الشريعة وأئمة الاسلام ، يصح للأستاذ الباحث أن يكتب فيحاول منع القياس ، ويخرج في مقال كتبه في ساعة أو ساعتين على أعلام الشريعة وأئمة المسلمين ، الذين أفنوا أعمارهم في بحث الشريعة وتعرف مقاصد الاسلام ، فما أقدموا على الأخذ بالقياس إلا بعد إمعان نظر وطول تحميم وتدقيق غير مشغولين عن هذا بشأن آخر من شئون الحياة ؟ اللهم إن هذا غير ما ينبغي لمن يقدم على بحث ديني كهذا . على أننا إذا أغصينا عن ذلك كله وفرضناه غير واقع فهناك ناحية ليس لهاغلر إليها مناص من القول بضرورة كون القياس أصلاً أسسته الشريعة ، وعلمنا بناء الاسلام : تلك الناحية هي أننا قاطعون بأن شريعة الاسلام هي الشريعة الختامية ، وهي الأبدية الى نهاية هذه الحياة ، وقاطعون أنها صالحة لإقامة النظام ونشر السلام بين جميع الأوساط ، وفي كل مكان ، ومتسعة لما يحدث للناس من أفضية ، وما يجد لهم من شئون ، فتعطى كل حادثة حكمها مهما اختلفت العالم من تفسير ، وطراً عليه من تطورات ، ثم إما قاطعون الى جانب هذا بأن نصوص الشريعة غير متناولة بلقطها لجميع ما يحدث من الوقائع ، وإذا كان الأمر كذلك فليس من سبيل الى أن تنظم أصول الشريعة جميع الحوادث فتعطى كل حادثة حكمها سوى القياس .

وإذا فما أمر الشريعة إلا إحدى اثنتين . إما نحن قائلون بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وحيثئذ فلا بد لتعميم نصوصها لجميع ما يحدث من القياس ، وإما نحن قائلون بعدم القياس ، ومن لوازم هذا ألا تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وليس هناك من ثالثة . أفلا يتق الله بعد هذا من يحاول الإقدام على نظر في الدين وبحث في الشريعة ؟ ولو اتقى الله الباحثون في الدين والناظرون في الاسلام ، ومحصوا نظره ، وحرروا بحوثهم ، لما منى الاسلام بما منى به من تخليط وتليس ، وعيب وتشويه ؛ فإلهم اهدها سبيلك الحق بك جميع الدماء !

وبعد ، فلنعد الى نظرة أخرى في أجزاء الآية بعد ما بينا المقصد الذي ترمى اليه والاصل الذي أسسته لحماية تلك الحكمة البالغة ، التي هي بقاء المحتمل من النصوص على احتماله دون توحيد لمعناه ، ولا تحديد للمراد منه ، دفعا للهرج ، وتحقيقا للرحمة .

وإن أول ما يطلعننا من روائع القرآن إذا بدأنا النظر في أجزاء الآية ، هو التعبير عن المنادى باسم موصول « يا أيها الذين آمنوا » دون أن يقول : يا أيها الناس ، أو يا عبادي ، أو نحو ذلك مما كان يصح التعبير به . وإليك إذا استعرضت استعمال الاسم الموصول على أي وضع من أوضاعه مستندا إليه أو مستندا ، أو متعلقا من متعلقات الجملة وقيدوها ، وجدت أمره يدور في جميع ذلك على شيء واحد هو قصد المتكلم أن يحمل من الصلة مقويا لتحقيق ما يرمى اليه . وإذا تبينت هذا المعنى فيما مضى وجدته يطالعك في بهاء وجلالة ، ألا ترى أن الغرض من الآية هو النهي عن المساءلة في النصوص المحتملة إبقاء على الحكمة من ذلك ؟ فهو لهذا قد تادام بعنوان الإيمان ، لما أن الإيمان داع حي ، ودافع قوي على الاستجابة والامتثال .

وإن ثاني ذلك ، ما تدركه من دقة وبلاغة في أن قدم إحدى الشرطيتين على الأخرى ، بأن قدم قوله : « إن تبدلكن تسوكن » على قوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكن » ، إذ السر في ذلك أنه ليس من شك في أن الناهي عن شيء يعني كل العناية بكل وسيلة لتحقيق الانتهاء ، وليس من شك في أن من أول وسائل الانتهاء هو بيان ما في النهي من أضرار ومساوئ للنتيجه ، فلو جاء في وصف المنهي عنه بما يفرى المنهي ففعله لكان عابثا ومناقضا معاً ، فلو كانت العبارة هكذا « لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكن » لكان عابثا وتناقضا من وجهين . أما أولا فلأنه ليس للسائل من غاية فوق أن يوضح له ما سأل عنه ، وما داموا إنهم سألوا يوضح لهم ما سألوا عنه ، فلا جرم أنهم يسارعون الى السؤال ويتبادون فيه ، فكيف يتحقق مع هذا غرض الناهي ؟

وأما ثانيا ، فلأنه إذا عرف السائل أن مصدر الجواب والايضاح وثيق ، كان ذلك أكثر إغراء بالسؤال ، ولا شك أن الوحي هو أوثق مصادر الايضاح والتحديد ؛ لذلك كان لا بد

من تقديم الشرطية الأولى على الثانية لما في الأولى من أن في الإبداء أضرارا ومساءات مما هو أهون على الغرض وأبلغ في تحقيقه .

وإنك لتزداد إيمانا بإعجاز القرآن حين تنظر فتجد أن الشرطية الثانية بعد أن كانت لو وضعت أولا تكون مغرية بالسؤال ، صارت بعد أن وضعت ثانيا من أقوى عوامل التنفير عن مقارفة المسمى عنه ، فانه مادام في الإبداء السوء وما يكرهون كما هو مقتضى الشرطية الأولى ، فقد صار استتباع السؤال للإبداء المسمى من أقوى الدوافع والمغرات عن السؤال . وثالث ذلك ، أنه لما كان من صور التكليف التي كان يصح أن يكلف الله بها عباده هي أن يجعل التكليف كلها متوحدة بحيث يكون لكل فعل من أفعال العباد حكم لا يتحمل غيره ، بأن تكون جميع النصوص محددة المعنى لا تخمدل إلا معنى واحد ، لما كان كذلك كان عدم توحيد الأحكام عفوا من الله عن الناس ، إذ لم يخرجهم ولم يشق عليهم بمحملهم جميعا على سلوك طريق واحد مع اختلاف مناهج الحياة فيهم ، ومع تباين أزماتهم وأمكنتهم ، لهذا كانت عبارة الآية الكريمة « عفا الله عنها » : أي عفا الله عن الأشياء التي حاول الناس بسؤالهم فيها أن يوحدا معاني نصوصها ، ولم يجزهم على محاولتهم ذلك مع أنهم كانوا حقيقين أن يجزوا بتحقيقه عليهم ما حاولوه من تعمير يسر ، وتصويب سهل ، وتضييق واسع ، لما في تلك المحاولة من الغفلة عن حكمة الله فيما أنزل من نصوص محتملة ، دفعا للحرج ورحمة بالعباد ، ولما في تلك المحاولة أيضا من إشعار بالتلكؤ في الاستجابة والتساؤل في الامتنال كفعل بني إسرائيل فيما طلب اليهم من ذبح البقرة . وبذلك يتضح لك سر إثارة وصق الغفران والحلم على سائر صفاته تعالى في قوله « والله غفور حلیم » ، إذ أن ترك جزائهم بتوحيد التكليف بعد محاولتهم ذلك بالسؤال ، غفران لهم وحلم عليهم .

هذا ، ولما كان من أبلغ الحكم وأسمهاها ، ومن أعظم المسم وأوطاها ، أن يكون في نصوص الأحكام نصوص متشابهة ومحملة أكثر من معنى واحد حتى يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف أقطار الأئمة ... لما كان كذلك ترى القرآن قد اشدت في حماية هذا الأصل والذود عنه بالتنفير عما قد يفضى الى جنسه ؛ لذلك تراه بعد أن نهى عن السؤال صونا لذلك الأصل ، تراه قد سلك للتنفير عما يسه سبيلا آخر ، فبين حافة السؤال فيمن سبقهم من الأمم ، فقال : « قد سألتهم قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » : أي أن من قبلكم قد سألوا أن يحكم لهم المتشابه ، ويحدد لهم المحتمل ، ويشخص المطلق ، فأدى بهم ذلك الى الحرج والمضايقة ، حتى انتهى الامر بكفرهم تلك الأحكام وتركهم لها . فما أسمى حكمة الله فينا ، وما أعظم نعمته علينا ! رب قد أحضرت اليك عملي ، فوفقني للخير ، واهدني للصواب ؟ هاهنا محبسهم

## الكلام والمتكلمون

- ٩ -

### الحركة الفكرية بعد الغزالي

#### متقاسفو المتكلمين :

وأينا حين عرضنا لدراسة الغزالي أن هذا الإمام كان له من تأليفه طائفتان جوهريتان : الأولى هي القضاء على كبرياء العقل البشري وتقته بنفسه ، وهذا لا يتم إلا بمهاجمة الفلاسفة وتحطيم آرائهم ومذاهبهم بعد إثبات خطئها أو ضعفها على الأقل ، والغاية الثانية هي بمث الروح الدينية من مرقدها بعد أن طغى عليها سلطان العقل الذي مكنته الفلسفة الإغريقية من التباهي بمعظمته وجبروته . وقد أوضح أبو حامد هاتين الغايتين بكتابه الذين عنون أحدهما بـ « تهافت الفلاسفة » وسُمي الثاني : « إحياء علوم الدين » . وهو من غير شك لم يضع هذين العنوانين عبثاً ولا عن طريق المصادفة ، وإنما قصد بالاول إخفات صوت النظر ، وبالثاني إحياء صوت الإيمان التسليمي . فلننظر الآن الى أي حد نجح الغزالي في هذه المحاولة التي قام بها لنصر العقيدة على العقل :

لما كانت الأمة الإسلامية مكونة من عامة يصلحون للإيمان التسليمي ، ومن خاصة لابد لإيمانهم من سند عقلي من جهة ، وكانت النهضة العربية لا تزال تطبع العصر بطابعها من جهة ثانية ، لم ينجح الغزالي في أول الأمر في دعوته ، ولم يستطع أن يفرض الإيمان التسليمي على الخاصة ، ولا أن يمحصرهم في دائرة علم الكلام المباح ، بل لم يلبث أن هب من خاصة المسلمين جماعة صبغوا علم الكلام بصبغة النظر المحض ، ومزجوا آراء الإسلام بالفلسفة ، وأفاضوا في بسط آراء المعتزلة والفلاسفة ، وحاولوا مناقشتها والرد عليها في مؤلفات ضخمة بلغت مجلداتها العشرات . ومن هؤلاء المنفلسين أبو حفص عمر النسفي ، وأبو الفتح محمد الشهرستاني ، ونفرد الدين الرازي ، وعبد الله بن عمر البيضاوي ، وعبد الدين الإيجي الشيرازي ، وسعد الدين التفتازاني ، والسيد الجرجاني ، وأثير الدين الأهرى ، وغيرهم . وإليك كلمة وجيزة عن كل واحد من هؤلاء العلماء :

#### (١) عمر النسفي :

حياته ومنهجه : هو أبو حفص عمر نجم الدين ، وقد ولد في بسف في سنة ٤٦١ هـ ( سنة ١٠٦٨ م ) ، وكان من أكابر علماء عصره في مذهب الحنفية . وتوفي في سنة ٥٣٧ هـ

(سنة ١١٤٢ م) . وأهم مؤلفاته : كتاب العقائد النسفية الذى يعتبر بحق رمزا أعلى للعقيدة الإسلامية . وقد طبعه « كورتون » فى « لدرا » سنة ١٨٤٣ ، وطبع فى الاسنانه ثم فى مصر . وله عدة شروح وتعليقات تخص منها بالذكر أدقها وأجملها فى رأينا ، وهو شرح سعد الدين التفتازانى . وأول ما يحاول شراح هذا الكتاب إثباته هو تبين أن خطة الغزالي قد نزع من علم الكلام حليته الضرورية له ، وهى النظر العقلى ، وأن هذه الحلية قد بدأت تمود إليه على أيدي النسفى وشراحه ومن تحا نحوه .

يمتاز هذا الكتاب بجزء جديدة ، وهى مخالفته طريقة الكتب النظرية القديمة التى كانت تبدأ بحوثها بمقدمات منطق أرسطو ، وفرفوريوس حسب منهج الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى فلاسفة الإسلام فساروا عليه .

خالف النسفى فى كتاب العقائد هذه الطريقة القديمة ، فبدأ بمقدمته ببيان علمى ، له قيمته فى العصر الحديث ، وهو يتلخص فى أن موضوع العلم هو حقائق الأشياء ، وأن هذه الحقائق ثابتة لا سبيل إلى الشك فيها رغم إرادة المرتابين ، وأن فى مقدرة العلم الإنسانى الاستيلاء عليها ، وأن وسائل الاستيلاء هى : الحواس ، والعقل ، والخبر الصادق ، وأن الإلهام لا يصلح لأن يكون وسيلة من وسائل المعرفة ، فكان هذا التقرير من جابه صدمة قاسية انحوت إلى تماليم الصوفية ، وعلى رأسهم الغزالي الذى أعلن أن الإلهام هو أمثل وسائل المعرفة وأصدقها : « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، واعلم بها متحقق ، خلافاً لسوفسطائية وأسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل . فالحواس خمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . وبكل حاسة منها يوقف على ما وضعت هى له . . . وأما العقل فهو سبب للمسلم أيضاً ، وما ثبت منه بالبدية فهو ضرورى كالعلم بأن كل شيء أعظم من جزئه ، وما ثبت بالاستدلال فهو اكتسابى . والإلهام ليس من أسباب المعرفة لصحة الشيء عند أهل الحق » (١) .

يتألف هذا الكتاب بعد المقدمة من ثمان وخمسين فقرة ، تتناول كل واحدة منها مشكلة من المشاكل التى هى موضع خلاف بين الفلاسفة والمنكلمين ، أو بين أهل السنة والمعتزلة ، أو خبراً سمعياً انعقد عليه إجماع السلف .

الفقرة الأولى : طالبت مشكلة حدوث العالم ، فقررت أنه بجميع أحواله محدث ، وهملت ذلك بأن العالم أعيان وأعراض ، وعرفت الأعيان بأنها ما قام بذاته ، والأعراض بأنها ما قام بغيره ، ثم قررت أن الأولى إما مركبة ، وهى الأجسام ، وإما بسيطة ، وهى الجواهر . وهذه

(١) انظر صفحة ٦٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية .

الفقرة مشتملة على ثلاث مشاكل : الأولى تقرير حدوث العالم ، والثانية تألقه من جواهر وأعراض ، والثالثة القول بالذر أو الجزء الذي لا يتجزأ .

والفقرة الثانية عنيت باثبات أن محدث العالم هو الله ، وأنه هو الواحد الأزلي الحي القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، السميع البصير المريد . وهذه هي الصفات الإيجابية . ثم ذكر المؤلف بعد ذلك الصفات السلبية التي يجب تزيه الله عنها ، وهي أنه ليس بعرض ولا جسم ، ولا جوهر ولا مصور ، ولا محدود ولا معدود ، ولا متبعض ولا متجزئ\* ، ولا متركب ولا متناه ، ولا يوصف بالمائية ولا بالكيفية ، ولا يتمكن في مكان ، ولا يجري عليه زمان ، ولا يشبهه شيء ، ولا يخرج عن علمه وقدرته شيء . وقد اختتم هذه الفقرة باثبات صفات المعاني وادعائه — كما قال الأشعري من قبل — أنها : لا هو ولا غيره . ذلك التعبير الذي اضطر إليه المتكلمون حينما أخرجهم الفلاسفة وصيقوا عليهم الخناق بقولهم : إن كانت الصفات عين الباري ، فهي ليست صفات ، وبهذا يكون قادرا بذاته ، عالما بذاته ، وإن كانت غيره ، فقد استكمل غيره ، وإن كانت أبعاضه ، فقد تألف . فلم يجد المتكلمون في وسعهم إلا أن يقرروا أنها لا هو ولا غيره .

وقد عرضت الفقرة الثالثة للقرآن ، فقررت أنه كلام الله الغير المخلوق ، وأنه مكتوب في المصاحف ، مقروء بالأسن ، مسموع بالأذان ، ولكنه ليس حالا في شيء من هذا كله .

اعتبر الباحثون الغربيون هذه الفقرات الثلاث أم ما في هذا الكتاب ، لأنها تتعلق بالاصول الأساسية للعقيدة ، أما ما يليها وهو من الفقرة الرابعة الى الثامنة والثلاثين ، فقد عني فيه المؤلف بالخلق وتعلق الإرادة الإلهية به ، ورؤية الله في العالم الآخر ، وبعيم القبر وعذابه وسؤال الملوك ، ثم بالبعث ، ثم بحكم صرتكب الكبيرة الذي كان موضع الخلاف بين المعتزلة والسلف منذ بدء الحركة الفكرية الاسلامية . ورأى المؤلف فيها أن الكبيرة لا تمحو صفة الايمان من المؤمن ، وأن المؤمنين لا يخلدون في النار من أجل الكبائر ، ثم عالج بعد ذلك مسألة الاسلام والايمان ، وأثبت أن الايمان لا يزيد ولا ينقص ، ثم مسائل النبوة والخلافة والإمامة .

أما آخر الكتاب — وهو من الفقرة التاسعة والثلاثين الى الثامنة والخمسين — فهو يتعلق بأحكام غير منسجمة مثل أحكام صلاة الجنازة ، وانتفاع الميت بدعاء الأحياء له ، وصدقاتهم عليه ، ومثل الحديث عن المشرة المبشرين بالجنة والحوارين ، ومثل حظر الاعتقاد بالنبؤات ، ومثل علامات الساعة ، ومثل القول بعدم عصمة الأئمة المجتهدين ، وغير ذلك .

بأن مما تشهد أن النسق لم يزد الفلسفة كما فعل الغزالي ، وأن كتابه — على الرغم من أنه كتاب توحيد — لم يخل من كثير من التعبيرات الفلسفية العالية ، وأنه قد احترى هو



وشروحه المختلفة على الفروق بين الأعيان والجواهر والزمان والمكان عند الفلاسفة والمتكلمين ، وشمل كذلك اختلافات لطيفة من وجهات النظر بين الفريقين ، بعضها مبنى على أسس إفريقية محضة ، والبعض الآخر مبنى على مبادئ قد بحثت في المصور الإسلامية بحثاً دقيقاً . ولهذا أخطأ أولئك المؤلفون في الأولى وأصابوا في الثانية .

ومن خصائص هذا الكتاب وشروحه أيضاً ، أنها حملت على المنكرين والمرتابين حملات عقلية شجواء ، ويرى أحد المستشرقين أن هذه الحملات هي أحد الفروق بين هؤلاء المؤلفين ، وبين الغزالي الذي ازوى في ركن من أركان التنسك .

ولا يمكن أن تكون هذه الملاحظة صحيحة إلا إذا حملناها على موقف الغزالي بازاء المرتابين الذين أنكروا المعرفة البصيرية ، وإلا فكيف نفرض من فضاله المصيف الذي طاش به كتاب « التهاوت » ضد الفلاسفة ، والذي تناول أهم آرائهم بالنقد والتعريح .

ويلاحظ « البارون كارادى فو » فرقا آخر بين النسبي وشراحه من جهة ، والغزالي من جهة أخرى ، وهي أن الغزالي هاجم الفلاسفة باسم الدين ، أما هؤلاء المؤلفون فقد هاجموا باسم العقل ؛ وثمرة الخلاف هي أن الغزالي حاول إهانة العقل ، وهؤلاء اعترفوا بأهميته وضرورة تدخله في البحث . ولا ريب أن هذا الاعتراف من جانبهم يجعل لبعوثهم قيمة في نظر العلماء المحدثين .

#### ( ٢ ) الشهرستاني :

حياته : ولد أبو الفتح الشهرستاني في سنة ٤٧٩ هـ ( سنة ١٠٨٦ م ) في شهرستان بخراسان . وقد درس في نيسابور ، وهناك اطلع على مذهب الأشاعرة فاعتنقه . وفي سنة ١١١٦ م أدى فريضة الحج ، ثم انجبه إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام ، ثم عاد إلى بلده وأقام بها حتى توفي في سنة ٥٤٨ هـ ( سنة ١١٥٣ م ) .

منتجاته : يعتبر كتابه « الملل والنحل » عرضاً عاماً لأكثر مذاهب الفرق الإسلامية ، ولبعض المذاهب الفلسفية الأخرى من إفريقية وفارسية وعربية . وقد أسلفنا رأينا في هذا الكتاب حين عرضنا لمصادر الفلسفة الإسلامية في الفصل الذي أفردناه للكتب المترجمة ؛ وكل ما نقوله عن هذا الكتاب بعد الذي أسلفناه عنه ، هو أنه طبعه « كوريتون » في سنة ١٨٤٠ م وترجمه إلى الألمانية « هاربروكير » في سنة ١٨٥٠ م . ولشهرستاني كتابان آخران ، هما « نهاية الإقدام » و « مصارعة الفلاسفة » ، الأول في التوحيد ، والثاني في مناقشة بعض الآراء الفلسفية .

## (٣) البيضاوى .

حياته : لا تعرف المصادر التى بين أيدينا الآن تاريخ مولد عبد الله بن صهر البيضاوى ، وإنما تحدثنا فقط أنه ولد فى « بيضا » إحدى مدن الفرس . وكان والده قاضيا بتلك المقاطعة ، ثم تولى هو القضاء بعد أبيه فى شيراز ، ثم انتقل بعد ذلك الى تبريز ، وظل فيها إلى أن توفى فى سنة ٦٨٥ هـ ( سنة ١٢٨٦ م ) .

مؤلفاته : أشهر مؤلفاته كتبه الآتية : ( ١ ) « أوار التنزيل وأسرار التأويل » فى تفسير القرآن . وقد فضل عامة المسلمين هذا الكتاب على غيره من التفسير ، ولكن الخاصة الذين ينظرون الى الأمور نظرة نقد وتمحيص ، يرون أنه إما سطحى ، وإما مفرط فى الإيجاز حين يعرض للمسائل التى تستوجب البحث والنقاش . وفوق ذلك فهو متأثر بكتاب الكشف للزمخشري تأثرا يكاد يدرجه فى عداد المقلدين . وما لم يقتبس من الكشف ، فهو كذلك ليس من ابتداعاته ، وإنما اقتبس بلا تصرف من مؤلفين آخرين . وقد استطاع الباحثون الغربيون أن يظهروا للعيان الفرق بين هذا المؤلف وبين عباقرة المفسرين الآخرين كالزمخشري والرازي رغم تقدم هذا الكتاب بين جماهير المسلمين على « الكشف » و « مفاتيح الغيب » . ( ب ) « توالى الأنوار » وهو فى وراء الطبيعة . ( ج ) « مصباح الأرواح » وهو فى علم الكلام . ( د ) « منهاج الوصول » وهو فى فقه الشافعية . ( هـ ) « نظام التواريخ » وهو فى تاريخ الفرس ، وقد كتبه باللغة الفارسية .

## (٤) آثير الدين الأبهري :

حياته ومنتحاته : هو آثير الدين مفضل بن صهر الأبهري ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه توفى فى سنة ٦٦٣ هـ ( سنة ١٢٦٤ م ) .

أما مؤلفاته فأشهرها اثنان ، وهما فى الفلسفة المدرسية ، ولهما عدة شروح . وكثيرا ما يرجع اليهما العلماء فى بحوثهم ، والطلاب فى استدكاراتهم . فأولهما : « هداية الحسكة » وهو ثلاثة أقسام : المنطق والطبيعيات والإلهيات ؛ وثانيهما كتاب إيساغوجى وهو « إيزاجوج » تأليف « فرغوريوس » مع شىء من التصريف . ومن أشهر شروحه كتاب شمس الدين أحمد القنارى ، وقد شرحه أيضا زكريا الانصارى المنوفى فى سنة ٩٣٦ هـ ( ١٥٢٠ م ) . وعلق عليه الحفناوى المنوفى فى سنة ١١٧٨ هـ ( سنة ١٧٦٤ م ) ، ولا يعرف بعد ذلك للأبهري إلا ثلاث رسائل صغيرة فى الفلك .

المركز محمد محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

# حياة رجال الإسلام

## عبد الله بن عمرو

هذه شخصية من رجالات الإسلام ، وعلماء الصدر الأول ، وتلاميذ مدرسة النبوة ، تمثل ناحية جديدة من نواحي الحياة الفكرية الإسلامية ، تلك هي ناحية اتصال الثقافة الأجنبية بالثقافة الإسلامية ؛ ولسنا نفهم ، ولا أحد يرضى عن عقله يفهم من كلمة الثقافة الأجنبية وقتئذ معناها الواسع الذي يفهمه قارئ العصر الحاضر ، وإنما الذي تفهمه وتقصد من كلمة الثقافة الأجنبية ، ما تعطيه الحياة في بيئة الجزيرة العربية مشرق شمس الإسلام ومطلع نوره ، على عهد البعثة المحمدية ، فقد كانت هناك جاليات من اليهود لها كتابها وثقافتها الخاصة ، تحتل جزءاً عظيماً من جزيرة العرب تعيش فيه بأسلوبها الخاص ، وقد صار هذا الجزء بعد مجيء الإسلام مركز النهضة ، ومصدر الحياة الفكرية الإسلامية ، وكانت هناك جماعات من العرب وغيرهم يدينون بالنصرانية ، لهم علومهم ومعارفهم الخاصة ، ينبشون في كثير من مواطن الجزيرة العربية .

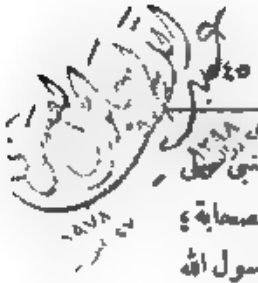
ومن الطبيعي ألا تقف هذه الجماعات يهودية ونصرانية جامدة إزاء حدث الإسلام الأعظم الذي هز الكرة الأرضية هزة تفضت عنها آثار الجود ، وقد صور القرآن الكريم اتصال القوى بين هذه الجماعات وبين أهل الإسلام تصويراً رائعاً ، يشرح في وضوح نظرة هؤلاء إلى من يسكنونهم من أبناء البلاد ، وما في تلك النظرة من تحقير واستصغار ، ويشرح لنا موقفهم المعيد إزاء الإسلام وشريعته . ومن الغريب أن هؤلاء المميزين بثقافتهم ودياناتهم لم يكونوا ينشطون في سبيل نشر ثقافتهم والداوة لدياناتهم ، بل كانوا حرصاً أشد الحرص على ألا يعلم أحد من الناس عنهم ، ولا يعينهم أن يدين أحد غيرهم بدينهم ، إبقاء لهذا الغمير الذي يدلون به على سوامم ، وقد صادف هذا الجود طبيعة صدوفة عند العرب ، متصرفاً لتوافه الأمور ، لا تبحث عن دين أو ثقافة ، فإذا وجدنا منهم حينئذ من يقرأ ويكتب فقد وجدنا الغد الذي لا يساميه أحد من أقرانه ، وإذا وجدنا من يتجاوز القراءة والسكينة بالعربية إلى غيرها من لغات الأمم المجاورة أو الجاليات المخالطة ، فقد وجدنا علامة افتتاح العقل العربي لحياة جديدة ؛ ولكن هل كان من ذلك شيء يمثل ظاهرة عامة في الأمة ؟ لو حاول الباحث أن يتلصص هذا النحر لأعياء أن يجد شيئاً له قيمة اجتماعية تشعر بالتحول أو الاستعداد إلا بمعجزة إلهية ، وهذا ما قام به الإسلام بانقلابه المظير . ومهما يكن فإن الشخص الذي يعنى

في مثل تلك البيئة حتى من العلم والثقافة لا بد أن يكون على استعداد فكري صالح للحياة التي أنشأها الاسلام ، وهذا ما نجد شيئا منه في حياة عبد الله بن عمرو .

كان عبد الله بن عمرو أسبق الى هداية الاسلام من أبيه عمرو بن العاص . وأصحاب الطبقات يذكرون أن أباه أسلم سنة ثمان للهجرة ، قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين ، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظر اليهم قال : « قدرتمكم مكة بأفلاذ كبدها » . وأخرج البخاري عن الشعبي أنه « لم يكن بين مولد عبد الله ومولده أبيه إلا اثنتا عشرة سنة » . وهذا من نواهد التاريخ .

أسلم عبد الله بن عمرو في استواء رجولته واكتمال عقله ، وكان فيما يظهر - قبل إسلامه من القلائد الذين انحطوا حدود بيتهم ، فغنوا بشيء من المعارف الفكرية ، وكتبوا وقرءوا ، ولم يقتصر عبد الله بن عمرو في معارفه البدائية على لغة قومه ، بل تعلم غيرها من لغات الجاليات الأجنبية التي كانت تعايض العرب في حوزتهم ، فابن قتيبة يحددنا في كتاب المعارف « أنه كان يقرأ بالسريانية » . وكان يقرأ التوراة ، طارفا بما فيها ، ففي صحيح البخاري عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأمينين » ، أنت عبيد ورسولي ، صميتك المشوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذنا صما ، وقلوبا غلفا » . قال عطاء . ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا .

وقد كانت لهذه الميزة التي كان لها خطرها في ذلك العهد ، أكبر الآثار في توجيه حياة عبد الله بن عمرو ، وتكييفها تكييفاً يتفق مع استعداد الفطري ، فقد اتجه عبد الله الى حياة العلم ، وصرف نفسه اليها دون غيرها من جوانب الحياة الاسلامية المتكاثرة . لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذنه أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب ؟ قال : نعم ، فاني لا أقول إلا حقا » . وفي حديث أبي هريرة « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو فانه كان يمي بقلبه وأعي بقلبي ، وكان يكتب وأنا لا أكتب » . وروى الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو قال : « رأيت فيما يرى النائم كأنني إحدى يدي عصا وفي الأخرى عصا وأنا ألقهما ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال . تقرأ السكتابين : التوراة والقرآن ، وكان يقرأهما » .



جعل الله قرّة عين عبد الله بن عمرو في العلم والميادة ، فكان من أعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بحديثه وسننه وأفضيته ، وكان عنده منها ما ليس عند غيره من علماء الصحابة ، وحسبنا شهادة أبي هريرة السابقة ، وهي من رواية البخاري : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ... » . وأبو هريرة يقول فيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمرو بن الخطاب كافي طبقات ابن سعد : « أنت أعلمنا يا أبا هريرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه » . وروى المقرئ عن حيوة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شكي بن مائع الأصمعي وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : حمد إلى كتابين كان شئى معهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله في كذا ، وقال رسول الله كذا ، والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة ، فأخذها ورأى بهما بين الخولة والرباب » ( مركبين عظيمين من سفن الجسر ) . وفي استيعاب ابن عبد البر : روى شئى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل . وفي طبقات ابن سعد عن مجاهد قال « رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألت عنها ، فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد » .

وقد كان عبد الله بن عمرو أحد علماء الصحابة الذين قامت عليهم النهضة الفكرية في الأقطار الإسلامية . فالتاريخ يحدّثنا أنه رحل في كنف أبيه إلى مصر حينما أتمره معاوية عليها ، وأنام عبد الله بها يفتخر علمه على تلاميذه الذين دونوا هذا العلم وحفظوه ونشروه . قال صاحب حجر الإسلام : « كان من الصحابة الذين بمصر علماء علموا بها وأسسوا مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدون ما يسمع ، وكان مع هذا كثير الإطلاع في غير الحديث ، وقد خرج مع أبيه إلى مصر عندما ولاه إياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة صمرا استعمل ابنه عبد الله عليها فأقره معاوية ثم عزله ، وبعد بحق مؤسس المدرسة المصرية ، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث » . والمتأمل في آثار الفكر الإسلامي في مصر أول عهد بها بالنهضة يلحح الصبغة الروائية تغلب عليه ، ويرى غلبة القصص والعناية بروايات التاريخ ، وأحاديث الفتن ، وهذا في الواقع من أثر ثقافة عبد الله بن عمرو الذي أحاط خبراً بكثير من أحاديث التوراة وقصصها .

أما عبادة عبد الله بن عمرو فقد روت لنا منها صحاح السنة مواقف تجعل عبد الله رأساً من رموس العباد الصالحين في الأمة المحمدية ، فضلاً عما كانت سبباً له من التشريع الحكيم الذي رفع الله به الخرج عن هذه الأمة ، روى البخاري في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن

قال : « حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال . فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . فشددت فشدد علي ، قلت : يا رسول الله إلى أجد قوة ، قال : نعم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزدد عليه ، قلت : وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام ؟ قال : نصف الدهر . فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم » .

وفي هذا الحديث ضروب من الفقه وأسرار التشريع المرتكز على رعاية المصالح ودرء المفاسد ، والاختذ من الحياة بحظ الاحتقانة القوية ، فهو :

أولاً — يصور لنا صلة الفرد بالمجتمع ، ويبين أن هذا الفرد ليس ملكا مطلقا لنفسه يتصرف فيها كما يشاء ، حتى لو كان هذا التصرف في أبواب الخير الخاص ، ويشرح لنا حق الجماعة على الفرد باعتباره عضوا فيها وأحد مقوماتها ، فلا يجوز له أن يتصرف في نفسه تصرفا يؤدي إلى نقص حيوية الأمة ، وإضعاف نشاطها ، وهذا كله واضح من إياه النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن عمرو مواصلة الصوم ، ولم يبال صلوات الله عليه بقول عبد الله : إلى أجد قوة ، بل قال له : لا تفعل ، وقد جاء صريحا في طريق آخر حكمة هذا النبي : روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : « إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت : نعم ، قال : إنك إذا فعلت هجمت له العين ، ونفثت له النفس ، لا صام من صام الدهر » ! ومعنى هجمت له العين : فارت ودخلت وضعف إبصارها من قلة الغذاء ، ومعنى نفثت له النفس : ثعبت وكلت ، فلا تستطيع القيام بواجبها في الحياة ، وأداء ما عليها من الحقوق .

وثانيا — فيه تصوير مقام رافة النبي صلى الله عليه وسلم ورجته بأمنه ، وحرصه على برها وحيوها ، تصديقا لقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وثالثا — فيه بيان حق أهل الرجل عليه ، وأن الانصراف عنهم إلى مداومة العبادة يوحشهم ، وربما كان سببا لقطع صلتهم به ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من هدم بناء الأسرة وتعطيل النسل ، وإهمال التربية إذا وجدت ، فلا تتوافر لها عوامل المراقبة والتربية الصالحة التي تجعلها عضوا حاملا في الأمة ، فوق ما يكتنف ذلك من إشاعة روح الجفوة والترمت في أفراد الأسرة مما يكبت فيها روح التوثب والعمل النشط .

ورابعا — فيه بيان حق الضيف ، والترغيب في مشاركته طعامه وشرابه ، لتندفع عنه

طبيعة الحياء التي تكون عادة عند أكثر الناس إذا كانوا في بيوت غيرهم ، فإذا أحجم صاحب البيت عن مؤاكلة ضيفه اتخذت نفس المضيف وانقلمت ، وحرمت قسطها من ضيافتها .  
 وخامساً — في قول عبد الله بن عمرو : « يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم » تحقيقاً لمعزة نبوية ، وتبييناً لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .  
 صادق إبراهيم هرجوري

## من الحكم الحربية

قال حكيم : إن حازماً واحداً في الحرب خير من ألف فارس ، لأن الفارس يقتل عشرة أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشاً بتيديره .  
 نقول : يشير هذا الحكيم إلى عظم خطر الفنون الحربية ، فقد ينتصر جيش قليل العدد على جيش جرار بتدير خطة يضمها قائده لا يجد خصمه أمامها محيداً عن التسليم . ولقد عرف المسلمون الأولون هذا الأمر فولوا قيادتهم الذين يعرفون بالتهر في أساليب الحرب . وقد أحسن أبو الطيب في مجلبة هذا الركن الركين في علم الكفاح فقال :

الرأي قبل شجاعة الشحمان	هو أول وهي الهل الثاني
وربما طعن الفتي أقرانه	بالرأي قبل تطلعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم	أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت	أيدي الحكمة عوالي المُرَّان

المران على وزن رمان : معناه الرماح الصلبة اللدنه واحدها مُرَّانة . وإنما سميت الرماح مرّاً لأن خشبها من شجر المُرَّان ، وهو باسق ، وأوراقه كأوراق التوت ، وله ثمرة أجري يؤكل .

## الحسن بن الهيثم

كان القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) من أزهى العصور فى تاريخ العرب ، حيث كان قد تم نقل ما نقل من اليونانية والهندية والفارسية الى العربية من كتب الفلسفة والطب والعلم . وكان العلماء الإسلاميون قد بدءوا فى شرحها والتعليق عليها وتصحيح أخطائها . وكان قد ظهر أساطين أعلام منهم فى هذه العلوم ، منهم فى الفلسفة الكندى والفارابى ، وفى الطب أبو بكر الرازى ، وفى الكيمياء جابر بن حيان ، وفى الرياضيات أبو عبد الله محمد ابن موسى الخوارزمى ، وثابت بن قرة ونوشاكر ، وفى الفلك أبو معشر البلخى وحنين ابن اسحاق وأحمد بن كيثم القرطائى وسهل بن بشر ومحمد بن جابر الحارثى المشهور بالبثانى ، وغيرهم كثيرون لهم مؤلفات قيمة نقل أكثرها الى اللاتينية ، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوروبا لدراسة هذه العلوم فى تلك العصور .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ( الخامس من الهجرة ) ولد الحسن بن الهيثم سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، وكان أول أمره بالبصرة .

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته مصرا صاخبا بحركة الحركة العلمية المتدفقة ، فبدأ فى صبر وأناة مرحلة من حياته كانت بغيتها فيها الإلمام بنواحي النشاط العلمى فى ذلك العصر ، وأخذ يدرس كل ما وصلت إليه يده من كتب المتقدمين والمتأخرين ، لا فى العلوم الرياضية وفروعها لحسب ، بل فى الطب وفى الفلسفة من منطق وطبيعى وما بعد الطبيعة أيضا .

ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب ، وإنما عنى بتلخيصها ، وبالتصنيف فيها ، وكان يبنى من ذلك ثلاثة أمور ، نقلها ابن أبى أصيبعة من خطه قال : « وأنا — ما مدت لى الحياة — بادل جهدى ، وهستفرغ قوتى فى مثل ذلك ، متوخيا منه أمورا ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياته وبعد مماتى ؛ والآخر أنى جعلت ذلك ارتياصا لى بهذه الأمور ، فى إثبات ما تصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم ؛ والثالث أنى سيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم » .

بلغت شهرة ابن الهيثم مصر ، وكان صاحبها فى ذلك العهد الحاكم بأمر الله العاطمى ، وكان قد بلغه قوله : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فأرسل إليه الحاكم أموالا وهدايا ، ورغبه فى الحضور الى مصر ، وخرج لاستقباله عند قدومه وأكرم مثواه ، ثم طالبه بما قال فى أمر النيل . فسار ابن الهيثم ومعه جماعة من البنائين متتبعا مجرى النيل حتى وصل الى أسوان وتجاوزها الى موضع الشلالات ، فلم يجد



الأمر متفقاً وفكرته الهندسية ، فماد إلى القاهرة واعتذر إلى الحاكم بخطاً تقديره ، فقبل الحاكم عذره ، واضطره لقبول منصب في الدولة وهو كاره له ، ولما أراد التخلص منه للانقطاع إلى البحث والعلم لم يجد مندوحة إلا النظار بالجنون والاحتجاب في داره . فلما مات الحاكم ماد إلى الظهور ، وأقام بالقاهرة إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل ، بحسب رواية القفطي .

#### الناحية العلمية من ابن الهيثم :

من المعروف أن الطريقة العلمية الحديثة لم تنشأ إلا بعد عصر البحث في أوروبا ، وينسب الفضل في نشأتها إلى « فرنسيس باكون » أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم في القرن السابع عشر . فهو أول من أوضح أن الطريقة الصحيحة في البحث هي الاعتماد على الأمور الواقعة ومشاهدتها ، والمضي في جمع الحوادث وتبويبها وترتيبها حتى يمكن بالاستقراء الوصول إلى المعلومات الصحيحة عنها .

هذه الطريقة في البحث التي تعد من مبتكرات العصر الحديث ، هي الطريقة التي أدرك ابن الهيثم أنها المثلى . فقد رأى ضرورة الأحذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ في بعض البحوث بالتمثيل ؛ وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على مثل ما هو متبع في المحوثة العلمية الحديثة .

ومن هنا ندرك أن ابن الهيثم سبق باكون في بناء الأسلوب العلمي بنحو ستة قرون . وقد بين ابن الهيثم طريقته هذه في كتابه « المناظر » فقال : نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ، وتصنف أحوال المبصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير بظاهر لا يشبه من كيفية الإحساس ، ثم تترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونحمل غرضنا في جميع ما نستقرره وتصنفه ، استعمال المدلل لا اتباع الهوى ، وننتهز في سائر ما نجهزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .

ثم قال في موضع آخر :

« ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف ، وتنحصر بها مواد الشبهات . »

ثم قال :

« وما نحن مع جميع ذلك براء بما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية ، ولكنا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية ، ومن الله نستمد العون في جميع الأمور . »

كان أكثر نشاط ابن الهيثم محصوراً في الرياضيات وتطبيقاتها ، وكان إلى جانب هذا كثير الاشتغال بمؤلفات أرسطو وجالينوس .

ومما تحسن ملاحظته أن ابن الهيثم كان يبتنى من وراء طلبه للعلوم الحق الذي يقربه إلى الله ، حتى إننا نجد بزرع في تفكيره نزعة دينية ، بل له مشاركة في علم الكلام ، فهو يرد على الرازي في الإلهيات والنسوات ، وله كتاب في إثبات النبوات ، وهو يرد على ابن الراوندي وعلى المعتزلة في أمر الصفات ، وفي الوعد والوعيد ، وغير ذلك .

والبحث عن هذا الحق هو الغاية التي كان يقصدها ابن الهيثم من وراء الفلسفة ، وعنده أن الفلسفة ينبغي أن تكون أساساً تقوم عليه العلوم جميعاً .

وحاء في مذكرات الأستاذ مصطفى بك نظيف : أن علماء الرياضة والفلك في عصر ابن الهيثم كانوا يقولون إن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكساً عن سطحه ، فأبطل ابن الهيثم هذه النظرية القديمة ، وأقام على أنقاضها نظرية جديدة : هي أن ضوء القمر هو ضوء ثانوي أو عرضي يشرق من سطح القمر المستضيء بالضوء الداني المشرق من الشمس ، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد إذا وضع بالقرب من جسم مضئ بذاته ، وليس هو ضوءاً منعكساً بالمعنى الخاص بالانعكاس .

وابن الهيثم لا يكتفى بوصف الآلة أو الجهاز ، بل يأتي شرح مسهب مفصل لكيفية صنع الجهاز . لجهازه في الانعكاس وجهازه في الانعطاف يختلف كل منهما اختلافاً جوهرياً عن نظيره الذي ذكره بطليموس .

وصنع مثل هذه الأجهزة في عصر لم يكن مزوداً بالعدد الميكانيكية المعروفة الآن ذات المقاييس والأبعاد والتدرجات المضبوطة ، يدل على أنه قد اجتمعت فيه الصفات التي تؤهله لأن يكون واحداً من العلماء الذين اجتمعت فيهم المصدرة الرياضية الرفيعة ، مع الكفاية العملية الممتازة .

يضاف إلى ذلك أن لابن الهيثم مجوثاً في علم الضوء لم يسبقه إليها أحد ، إذ كانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ، ولا منظم ينظمها . فإن اعتبر نيوتن رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر ، فإن الهيثم رائد علم الضوء في القرن الحادي عشر .

أما فيما يتعلق بتصانيفه في علوم الرياضيات وتوابعها ، فقد بلغت ثلاثة وأربعين كتاباً . وأما كتبه في العلوم التعليمية فقد وصلت إلى خمسة وعشرين كتاباً ( ابن أبي أصيبعة ) .

أشهر هذه المؤلفات كتاب المناظر الذي افصح أخيراً أن كتاب التذخيرة اللاتيني ترجمة له ، وكتاب الأصول الهندسية والمعدنية ، وكتاب الجامع في أصول الحساب .

## شخصية ابن الهيثم :

هو رجل اضطلع رسالة علمية جديدة قام بها خير قيام ، أثبت فيها صحة نظرياته الهندسية والرياضية ، وقوض أركان النظريات القديمة التي ارتآها بطليموس وجرى عليها رجال العلم في الزمن القديم .

وكان ابن الهيثم مستقلا في تفكيره ، قويا في استقرائه ، محيطا بما عرف من علم الطبيعة الى زمانه ؛ وكان قوى الخلق لا يثبط عزيمته الإخفاق ، فكان لا يكبو حتى ينهض ، كتيار اليم يعلو ويؤخر عبابه إذا اعترضت الأسداد مجراه .

وكان ابن الهيثم يؤيد رأيه بشواهد مستمدة من الطبيعة ، وكان يعتبر كل ضروب النشاط الانساني ضروبا من الفنون ، فهناك فن التفكير ومن الطبيعة وفن الدين . وكل هذا يؤدي الى أن الحياة تقسمها فن .

وهذا يبين لنا بالاختصار المبعج الذي مهجه ابن الهيثم في دراساته الكثيرة ، وهو أنه جمع في بحوثه ومصنفاته بين عقل الفيلسوف ، وبصيرة الصوفي ، وتثبت العالم .

عبد الحميد سامي بيومي

## مقابلة الاساءة بالاحسان

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : « نائب أخاك بالاحسان إليه ، واردد شره بالإينعام عليه » . وقال الجاحظ : « من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدييره » . والذي نراه أن الجاحظ قد تعجل في حكمه ، فإن هنالك حالات من الاساءة يغني فيها الاحسان ما لا تغني العقوبة ، وقد يبارك في أثرها حتى تحمل المسمي على تقويم خلقه . والمدار على تحرى هذه الحالات ، والتفرقة بينها وبين ما يعتبر مخالفة لتدبير الله .

على أن الاساءة إليك غير الاساءة على الإطلاق ، فأنت حر في أن تغفو ممن ظلمك ، وأن تمنح ممن شتمك ، كما أنك حر في أن تمنطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، مادام قصدك أن تؤدبه ، ولكنك لست حرا في أن تغفو ممن أساء الى أهله ، ولا الى الجماعة ، ولا الى من لا تملك إرادته ، ولا تعرف أبصالح الاحسان من شأنه أم يضره .

## شهر الصيام

قد يصل هذا العدد الى أيدى قرائنا وهم في أول يوم من شهر الصيام ، واول ما يشوقهم من العنوانات الماثلة في فهرسته قد يكون الكلام عن الصيام الذي هم فيه . والكلام عن الصيام أصبح شائكا حتى لدى غير المسلمين ، لأنه أغنى مأملا طبيا لعلاج به أمراض خطيرة ، لايسد مسده فيها غيره . ومن يعلم أن أكثر الأمراض المعضلة يأتي من طريق التغذية ، يدرك ما ينبغي على الإمساك عنه من قيمة صحية .

وإنما كان التغذي سببا للأمراض ، لأن الناس لا يصرون فيه عن علم ، ولكن من العادة والجهل والنهم . والقاعدة العامة عندهم أنه مادام التغذي سببا لاستدامة الحياة والقوة ، فلا كثر منه يعتبر استكثارا من أسباب الحياة والقوة ، إلا أن يصل الى حد الإفراط ، ولكن ليس للإفراط عندهم معيار غير ما يفتحه من أعراض الكثرة (١) ، ويغيب عنهم أنه قد يكون إفراط ولا يكون شعور مصجل بأعراض الكثرة .

ونحن لاحل أن نأتي على أفضل ما نعلمه من حكمة قرض الصيام على المسلمين ، لا نرى بدا من التوسع في فلسفة التغذي ، فإن هذه الحكمة ثابرة في أطوارها ، فنقول :

الانسان في حاجة الى مقادير معينة من الأطعمة المختلفة ، وهي على نوعين :

(١) أطعمة معوضة لما يذتر من مادة الجسم ، كالعضلات والأعصاب والعظام والدم ، وهي كالقمح والبقول والخضر والفاكهة .

(٢) وأطعمة مولدة لحرارة الفريزية الضرورية للحياة ، وهي السبب المباشر في دوامها كالسكر والدهنيات والدهن (بالفتح) .

فاذا تغذى الانسان ، وهو مادة يجمل غذاءه خليطا من هذه الصنوف ، هضمت هذه المواد في معدته وأمعائه ، وانتقلت الى الرئين فالقلب ، ومنه الى الشرايين لتطوف بجميع أجزاء الجسم ، وتملأ كل خلية فيه حظها منه .

فاذا كانت الاغذية بقدر حاجة الجسم ، استوعبتها الخلايا الجذائية ، وبقي الدم نقيا كما كان ، وإن كانت تزيد عن حاجته ، بقيت في الدم ، وكيف تستطيع البقاء فيه وهو ليس بحاجة الى المزيد ؟ فتتحول الى مواد سمية ، يصيب الجسم منها بلاء عظيم ، بعد أن تكبد الأعضاء التي

(١) الكثرة : البيلة ، وأعراض ثقيلة تمرى الانسان من الاستلاء من الطعام .

وظيفتها تخليصه من السموم ، في حمايته منها ، وتضمحل من كثرة العمل ، وتنضب عصاراتها ، وتمعز عن أداء وظيفتها ، فتعرض الحياة للخطر ، إما بطروء أدواء خطيرة على الأعضاء الرئيسية بسبب عجزها عن القيام بأعبائها ، وتراكم السموم عليها وتصلبها ، وإما بفساد الدم ، وانسحائه بمواد غريبة عنه ، وعدم صلاحيته لأداء مهمته .

هذه هي النظرية العلمية في تولد الأمراض وفساد الصحة ، وهي تخالف النظرية المامية ، فهم يتخللون أن على الإنسان أن يأكل ما يشتهي ، وعلى المعدة أن تهضم ما ينفعه ، وأن تلفظ ما يضره ، ورأى العامة في الأمراض أنها إما تصيبهم من برد أو من أسباب أخرى لا يعرفونها .

فإذا حدثت منهم عن ضرر الإفراط في الغذاء ، ضربوا لك الأمثال بأفراد من المصابين بالنهم يعرفونهم وتعرفهم ، ولفتوا نظرك لقونهم وبدانهم ، وخلوهم من الأمراض ، وينيب عنهم أن هؤلاء ممرضون للصق من طريق القجاة ، وغير منهم الذين إذا أمرفوا على أنفسهم وجدوا جزاء إسرافهم معجلاً ، فيضطرون للاعتدال . فقد تبين أن الناس من هذه الناحية على ضرين ، أحدهما يلاقى جزاء إفراطاته على الفور ، فيمرض ويشقى ، ويتكرر عليه ذلك حتى يستبدل أو يموت ، والثاني لا يحس من تجاوز الحد بأذى ، فيصر على ما هو عليه ، حاصلًا على ظاهر من الصحة والضلالة ، حتى يفاحك نعيه ، فنقول : كنت مع البارحة ، وكان أحسن ما يكون صحة وقوة ، في الذي دهاه بعد أن افترقنا ١٢

ولست تبعات الإفراط في الطعام بقاصرة على الناحية المادية من الإنسان ، ولكنها تقع عليه في ماحيته العقلية والنفسية أيضاً ، فإن امتلاء المعدة بالأطعمة تستدعي قوة عصبية عظيمة تعين المعدة على هضمها ، فتصرف قوى أعصابه إلى معدته ، فلا يكاد يصلح في أثناء الهضم لعمل عقلي ، وقد يستمر الهضم أربع ساعات بعد كل وجبة فتضيق عليه اثنتا عشرة ساعة من يومه سدى ، والإنسان عادة لا ينقطع في تلك الساعات عن العمل العقلي ، ولكنه لا يتقنه ، وقد عُرف ذلك منذ العهد الأقدم ، فقالوا : إن البطنة تذهب القطنة .

هذا غير ما تسببه البطنة وارتباكاتها العقلية من سوء الخلق ، وضيق الصدر ، والتبرم بكل شيء ، حتى يكاد أحدهم أن يمزق ثيابه لأقل بادرة ، وإذا دام استيقظ تقيل الأعضاء ، متناهب النفس ، متكاسلاً ، مثائباً ، كأه خارج من كابوس ، لا من نوم مجدّد لما اضطلع من قوى بذنه .

لتخليص الإنسان من هذه الشرور الحادثة بالجسم والنفس كل يوم ، نصح الله لعباده أن لا يسرفوا في التغذي ، فقال تعالى : « وكفوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حسب الإنسان من الطعام قيات يُقمن عليه » ، وقال : « ما ملأ ابن آدم وطاء شراً من بطنه » .

ولذلك أيضا فرض الله على عباده الصيام في كل سنة شهرا . والصيام واحد من الأسس الخمسة التي بنى عليها الاسلام ، وهو بهذا الاعتبار عبادة ، القصد منها تقرب الانسان من بارئته كالصلاة والحج ، فان كانت الصلاة قد جُمِعت لأحكام الصلة بينه وبين ربه ، والحج لتحقيق التجرد من جميع الملائق الدنيوية ، والرجاء الى الله خالعا من جميع الاعتبارات والتعلقات ، فان الصيام قد شرع لتصفية النفس من كدور المادة ، وتنقيتها من أدرانها ، بالإقلال من تناولها إلا ما يقيم الحياة ، والإخفاف من أعبائها إلا ما لا يحصى عنه لانتفاء الأعراض . فإين تكون أنت من هذا إذا قلبت حقيقته فجعلته وسيلة للإكثار مما يتعين الإقلال منه ، وذريعة للوقوع في شرور التخم والوحم التي تبعدك عن التمتع بصحة نفسك ، بئله الزلي من ربك ؟ ولا يجوز أن نخفل هنا القول أن لعدم التمتع بالطعام فائدة روحية لها أكبر تأثير في أخلاق الانسان وتعديل مزاجه ، لا يمكن الحصول عليها بوسيلة أخرى من وسائل الترويض والتربية . ذلك . أن المعدة إذا لم يلق لها إلا القدر الضروري لحفظ الحياة ، قويت على هضم بوسائلها الذاتية ، دون أن تضطر شطرا كبيرا من القوى العصبية للبدن أن يعينها على التخلص منه ، فتتفرغ هذه القوى لأداء مهامها الفكرية والعقلية والشعورية ، فيحصل صاحبها بسبب هذا التفرغ على ثمراتها الأدبية ، فيفتح له التفكير مجالات للمظر والتأمل ، ويحني العقل من هذه المحالات ما يزيد به مادته العملية ، ويستفيد الشعور الانساني من هذه الاعمال ما يرفع به مستوى أدبه انفسى ، واتزانه الخلقى . وما جُمِعت كل هذه القوى عبثا ، ولكن لتعمل فيه ، ويتأدى هوت تحت تأثيرها الى درجات متتامة من السمو الفكرى والعقلى والأدبى . ولولا هذه القوى وفعلها فيه في خلال العصور لما ارتقى الانسان مما كان عليه قيد أمة .

الآن يمكنك أن تقدر ما يجنيه الانسان على نفسه وعلى بقى نوعه بتعطيله القوى العصبية عن العمل فيه ، بسبب صرفها الى هضم ما يلقيه في معدته من المواد الغذائية التي تزيد عن حاجته . إن انصراف هذه القوى الثمينة في الهضم ، يُصعب على الانسان عملها الأدبى ، ويتركه تحت تأثير غرائزه الحيوانية ، فيعيش كما عليه عليه من المبول التي لا تنفق ومعه الروحى ، ولا تلتئم وكيانه العلوى ، وتحرمه من القدر الخلقى الذى يقابل به الحوادث ويتغلب عليها ، ويصبر به على العوادي الطبيعية لا حتى تتجلى لحسب ، ولكن حتى يستفيد من كل ما عليها عليه دروسا يدفع بها أمثالها عن نفسه ومنى نوعه ، ويتأمل تحت ضوءها في كل ما يحيط به ليزيد به مادة علمه ، وعدد وسائله .

أما المحروم من نعمة هذه القوى فينبأ من كل بادرة فشل ، ويضجر من كل سائغة خيبة ، ويضيق ذرعا بأصغر الحوادث ، ويشعر بالظور أمام أقل عقبة تلوح له ، ويحس بالإعياء إزاء أدنى عمل عقلى فلا يهتم بمحاولته ، وهذه الحالات تضطره للتسلح بما ياسبها من العصب والجلب ،

وقد تتنطبق المباح أمام عينه فلا يفرج عنه إلا مشادة أول محتك به ، وإبلاغ النزاع الى غايته القصوى ، حتى اذا استنفدت بقية قواه العصبية ، سكن جيشان صدره وحمد أوانام ، واستيقظ متأهبا لتمثيل أدوار أخرى .

في هذه الحالة لا يكون لصاحبنا نصيب من الحياة الانسانية ، وقد لا يُرزق بمن ينبيه الى أن ما به ناشئ من ضعف قواه العصبية المعقدة لمزاجه ، وأقوى أسباب إضعاف هذه القوى التملؤ من الطعام بدون انقطاع .

فهل تستطيع أن تتخيل أن لهذه الحالة علاجاً حيراً من الصيام ؟

وهناك أمر آخر أعظم شأناً من كل هذا ، وهو حرمان الانسان بواسطة التملؤ الغذائي من التعرض للنفحات الالهية ، والإلهامات الملوية ، فاذا كان الانسان بهذا التملؤ يكتسب من الرغوات الخلقية ما يكاد يخرجه عن دائرة الانسانية ، فكيف يرجى أن يتصل بالملأ الأعلى وهو على هذه الحالة ، وتلك حضرة لا يقبل فيها إلا ذوو الهمم الزاخرة الى السكال ، والقلوب التواقفة الى عالم الجلال ، ممن أدركوا أن الحياة إذا لم تكن غايتها هذه الرتبة العملية ، كانت عبثاً ثقيلًا على صاحبها ، تنتهى كما بدأت في آلام وتباريح ليس لها حد تقف عنده : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة سنكا ونحشره يوم القيامة أسمى . قال رب لم حشرتني أسمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك ، أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفس . وكذلك مجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وهل يتأتى لمن وصفنا حالتهم أن يذكروا آيات الله ويعملوا بها ، أو أن يؤمنوا بها ولا يسرفوا على أنفسهم ؟

لندارك الانسان من الوقوع في هذه الحالة السيئة من الحياة البهيمية ، شرع الله الصيام ، فالصيام رياضة نفسية ، يتمكن بها الانسان أن يستولى على زمام ميوله الجسدانية ، فيعدل من نظرها ، ويقنع من تمسكها ، ويوجهها الى وجهة الصلاح ، فيحيا حياة طيبة ، ويعرُج بها يكتسبه فيها من القوى الروحية الى عالم القدس ، فيتملق منه بسبب يرفعه من عالم الحيوانية ، وهو لا يرفعه اليه حتى يصل به الى أبعد غايات الانسانية .

لبلوغ هذا النشأ البعيد ، شرع الصيام ، لا ليكون سببا في التوسع في المأكول ، فنقتصر حكمته على أن يشمر الانسان بألم الجوع بضع ساعات .

إن ما ذكرناه من الحكم البالغة للصيام قد أدركه السكلة من رجال هذا الدين ، فأنخذوه وسيلة للاتصال بالملأ الأعلى ، فخلصوا من السعادات الروحية ، وهم أحياء ، ما لا يدور في خلد المترفين الذين استعبدوا أنفسهم للملاد ، فجنّت على عقولهم وأجسادهم شر الجسائيات ؟

محمد قدير ومجدي

## نظرات في الادب العربي

جاهليه وإسلاميه

— ٧ —

مناهج الشعراء

درج الشعراء القدامى ، على أن يستوحى الشاعر خياله ، ويترجم خواطره الخاصة ، فيما يقرضه من الشعر ، فلا ينظر الى شعر غيره ، ولا يترجم خطأ ، إلا حين يريد معارضته ، ومساماته ، كما فعل كثير منهم في مختلف عصور الأدب ، وإذا أخذ شاعر من شاعر ، فأنما يأخذ معنى سبق اليه الاول ، في لبيت ونحوه ، أو بعض الالفاظ والتراكيب ، كما هو متعارف معلوم .

ولكن شعراء العصر الحاضر ، قد استحدثوا نوعا غير المعارضة ، واستخدموه بأسراف فيما فرضوا من الشعر ، وهو أن يعيد الشاعر — إذا أراد أن ينظم قصيدة في غرض من الأغراض — الى ديوان أحد الشعراء المتقدمين ، فينسخ قصيدة من قصائده ، يتخذها إمامه في نظم قصيدته ، ويهتدى بمعانيها وألفاظها الى ما يريد من المعاني ، وينفذ من قافيتها ومن أسلوبها إضافة تختلف قوة وضعفا ، وخفاء ووضوحا ، على حسب قوة التأخر وضعفه . وقد نبه النقاد المعاصرون على ما وقع لكثير من شعراء العصر الحاضر من هذا النوع ، بما تعرفه جبهة الأدباء ، مما زحرت به المؤلفات الحديثة ، وتناولته الصحف والمجلات بالشرح والتفصيل .

وشوق — على جلالة قدره — قد سار في هذا الطريق غير مرة ، وأكثر قصائده التي نسجها على هذا المنوال ، عرض له جبهة من كبار النقاد ، وردوه الى مراجعهم ، واتخذوه في أكثر الأحيان سبيلا الى الموازنة بين الشاعرين ، وخرجوا من ذلك الى مدح الشاعر ، أو لومه ، كل على حسب ما تملى عليه صلاته به ، وعواطفه نحوه .

ومن القصائد التي لم يتعرض لها ناقد — فيما أعلم — قصيدته في رثاء المنصور له شيخ الشعراء : إسماعيل صبرى باشا ، التي جاء في مطلعها :

أجل — وإن طال الزمان — موافى      أخلى يدك من الخليل الوافى  
داع الى حقيق ، أهاب بخاشع      كسيت التذير على هدى وعفاف

فقد تهتدى فيها بقصيدة حكيم الشعراء أبي العلاء المعرى ، التي رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوى الملقب بالطاهر ، وعزى ولديه : الرضى ، والمرضى أبا القاسم ، والتي جاء في مطلعها :



أودى — فليت الحادثات كف ، ملّ المصيف وعنهبر المستاف  
 الطاهر الآباء ، والأبناء ، والـ أنواب ، والآراب ، والآلاف  
 وأذكر أنني كنت ممن شهد حفل الأرمين لشيوخ الشعراء ، وأعجب بروعة قصيدة  
 أمير الشعراء ، التي ساعد على تجليها إلقاء العالم الشاعر الجليل : علي الجارم بك ، وإجماعاً حملي  
 على أن أودّ على المرحوم الشاعر الكاتب يوسف يكن بك ، نقدّه لما في مقال نشرته له المتظم  
 ونشرت الرد عليه ، واستشهدت على قوة القصيدة بأبيات ، منها قوله :

رُفِئَتْ رَبّاً الوادى بواحد أَيْكِيهَا      ونجرت نكّل القدير العاق  
 فَقَدَتْ بَنَاناً كالربيع بجيدة      وشيّ الرياض ، وصنعة الأنواف  
 إِنَّ قَاتَهُ نَسْبُ « الرضى » فربما      جرياً رَغَايةً مُسَوِّدٍ وطراف  
 أَوْ كَانَ كُودُ أَبِي الرضى أبوة      فلقد أماد يباث عد صاف  
 شرفُ العصامين مُصنَعُ نفوسهم      من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟  
 قل للشير الى أبيه وتجدّه :      أعلت للقمرين من أسلاف ؟  
 لو أنّ « عُمُرانا » نَجَارُكُ لم تُسَدَّ      حتى يشار إليك في الأعراف

ولم يخطر ببالي ، ولا مرّ بخاطر من قرأ كلتي من الأدباء وأثنى بالخير ، أو فند ما فيها  
 ولم يرّه ، آنذ ، قصيدة المعري ، وكانت بقعة رحمة الردّ على ، حتى عثرت في بعض  
 دراساتي لسقط الرند على هذه القصيدة ، فرأيت فيها — إلى جانب الوزن ، والثقافية ،  
 والرضى ، وكثير من ألفاظها وقوافيها — قوله :

أنتم ذوو النفس القصير ، فطولكم      بادر على الحكماء والأشراف  
 والراح إن قيل : ابنة العنب ، اكتفت      بأبر من الأسماء والأوصاف  
 ويُخَالُ موسى جدّكم — لجلاله      في النفس — صاحب سورة الأعراف

فعرفت أن أمير الشعراء رحمه الله ، ليس أبا عذر هذا المعنى ، كما كنت أعتقد ، وإنما  
 أخذه من الحكم ، ثم تصرف فيه هذا التصرف الذي لا يخلو من براعة ، وفضل حيلة ،  
 تكفلان له ما تبوّأته شاعريته الفذة ، من مقام كريم . فالمرى يتكلم في موسى بن حمفر  
 الصادق وهو أبو علي الرضا ، ومعنى بيته الأخير « يُخَالُ جدّكم موسى — لشرف ذاته ،  
 وفضائل نفسه — مثل موسى النبي عليه السلام ، المذكور في سورة الأعراف ، في قوله تعالى :  
 « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأعلمناها بعشر » الى سائر الآيات فيها . وشوقى — بعد أن أغنى  
 المرثى عن شرف النسب القصير الذي أحرزه الرضى ، وقائه ، بشرف العصامية ، وأيد دعواه  
 بقوله : أعلت للقمرين من أسلاف — نقل الكلام عن موسى جد المدوح ، الى موسى  
 ( ابن عمران ) وتحتّى أن موسى الرسول لم يحرز الكرامة بنوّه لعمران ، وإنما أحرزها

باصطفاء الله له بالرسالة ؛ ولا أكذبُ الله ، أنى لم أقهم صلة هذا البيت على وضعه هذا ، بما سبقه من الآيات ، إلا على وجه يشيع الضعف في مطاويه ؛ فلقد تملّنا في الأزهر أن الرسالة وهابية لا كسبية ، فليست من صنع نفس موسى ، ولا يستحق بها شرف العصامين ؛ وعندى أن أمير الشعراء كان في غنى ، أى غنى ، عن هذا البيت ؛ لو لم يطلع هوى تقليده للمعري ، على وحيه الشعري ؛ وإنما أتكلم على قدر عقلى ، وفوق كل ذى علم عليم .



قال أمير الشعراء :

ذهبَ الدِّيحَ السَّحْجَ مِنْهُ تَحْيِيَّهُ      طَهَّرَ الْمُكَفَّنَ ، طِيبَ الْأَلْفِافِ  
كَمْ بَلَّ يَدِيْجِ صَدْرُهُ لِفَكَاهِ      أَتَرَاهُ يَحْبِسُهَا مِنَ الْأَضْيَافِ ؟ (١)

الى أن قال :

أُخِذْتُ عَلَى الْفُلْكِ الْمُدَارِ ، فَلَمْ يَدُرْ      وَعَلَى الْمَيَابِ فَقَرَّتْ فِي الرُّجَائِ  
نَظَرِي فِي الْبَيْتِ الثَّانِي إِلَى قَوْلِ الْمَعْرِيِّ :  
إِنْ زَادَ الْمَوْفَى كَسَامُ فِي الْبَلَى      أَكْفَالُ أَبْلَجٍ مَحْكُومِ الْأَضْيَافِ  
وَتَوَلَّى فِي الْبَيْتِ الثَّلَاثِ مَا بَسَطَ الْحَكِيمُ فِي قَوْلِهِ :

رَغَتِ الرُّعُودُ ، وَتَلَّكَ هَدْيَةٌ وَاحِدٌ      جَبَلٌ هَوَى مِنْ آلِ عَبْدِ مَنْفٍ  
بَخَلْتُ ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةً فَقَدِيرُهُ      سَمِعَ الْغَامُ بِدَمْعِهِ الدَّرَافِ  
وَيُقَالُ إِنْ الْبَحْرَ فَاغَى ، وَإِنَّمَا      سَتَعُودُ سَيْفًا لُجَّةَ الرُّجَائِ (٢)

وقال الأمير :

يَا رَاكِبَ الْخُسْدَانِ ، خُلْ زَمَانَهَا      لَيْسَ السَّبِيلُ عَلَى الدَّلِيلِ بِخَفِ  
دَانِ الْمَطَى النَّاسُ ، غَيْرَ مَطِيَّةٍ      لِحَقٍّ ، لَا عَجَلٍ ، وَلَا مِيجَانِ  
لَا فِي الْجِيَادِ ، وَلَا النِّيَابِ ، وَإِنَّمَا      خَلَقْتَ بِغَيْرِ حَوَافِرٍ وَخُفَافِ  
تَنْتَابُ بِالرُّكْبَانِ مِزْلَةَ الْهَدَى      وَتَوْفُّمُ دَارِ الْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ  
قَدْ بَلَغْتَ رَبَّ الْمَدَائِنِ ، وَانْتَهتْ      حَيْثُ انْتَهَيْتَ بِصَاحِبِ الْأَحْقَافِ

(١) ملت المرحوم إملاء القلم ، ويقال له : القلمحة بكسر القاف وضمة المعجمة مع فتح الباء والماء ، وهي وجع الحلق كما به يدج . ( لسان العرب ) . ومنه تعرف أنه لو استندل بصدوره : حلقه ، لكان أشبه بالصواب .

(٢) تولى المرنى في لية كانت السماء ترعد فيها ( رحمت السماء ترعد بين وصفها وعدا وزعودا ، وأرعدت : صوتت للأطوار ) ولا يخفى بمع رقاء الرعود هنا . وللسيف بالكسر : شاطئ البحر ، والقبة صمغ ماء البحر ، والرجاف من فموت البحر ، والضمير في أنها لسان والقصة ، والواجب السانط والملاقاة .

ولا ريب أن مفتاح هذه الأبيات ، هو قول الحكيم :

هملّا استماس من السرير جواده      وثّاباً كل قنطرة ونيف  
هيهات اصادم للنساي صكرا      لا يفتنى بالسكر والإيجاف  
هذا ، ومن روائع قصيدة المرمي قوله :

تكبيرتان رحيال فبرك لفتى      محسوبات بعمرة وطواف  
ومن الفواهد الأزهرية قوله :

والطير أغرية عليه بأمرها      فتشخ الثمارة وما كات لصف (١)  
ومن روائع الشوقية ، قوله .

ما أنت يا دنيا ، أرؤيا نائم      أم ليل عرس ، أم بساط سلاف ؟  
كهاؤك الرخايف ، إلا أنه      مست حواشيه تقييح كراف  
ما زلت أصعب فيك خلقا نابيا      حتى ظفرت بخلافك المنافي  
وقوله :

لا يوم للأفوام حتى ينهوا      بقوادم من أمهم وخواف

وأما بعد ، فقد كان من الدروس التي ألقيتها على الفرقة النهائية في كلية اللغة العربية ، هذا العام : الموازنة بين قصيدة الخنصري : يا ليل الصب متى غده ، وقصيدة أمير الشعراء في معارضتها ، وراعى ما شهدته من ثورة الطلبة ووجومهم ، عندما آتسوا من الميل الى ترجيع ركفة الخنصري ، وزولا منهم على أثر المواقف الخاصة ، وعمدا على حكم النظر العلمي ، وكانت صدمة من حيبة الأمل في انساع صدورهم للنقد ، وانتفاعهم بما علموا ، فهرتني على أن أطيّل القول ، وأشد في النصيحة ، وأعيد ما كنت أظنهم في غير حاجة الى إعادته ، من أن السكالك وحده ، وأنه لا يقدح في عظمة شوقي ، أن يفتابه الضعف حيناً ، على حين أنه يتسهم في الإجابة أحياناً ، وأن عواطفني نحو شوقي ، أرسخ وأقوى ، على أضعف حاله عندي ، الى غير ذلك من وجوه الاقتناع ، فاعلى غير محتاج في موقف مع القراء الكرام اليوم ، الى مثل ما احتجت اليه في موقف مع طلبة أمس . ولم يزر بزهير بن أبي سلمى ، والنايفة الذبياني ما قاله العقاد القدامى من أنهما كما يظران في أشعارهما الى شعر أستاذهما . أوس بن حجر ، حتى كانوا يقولون :

١ — السراء بالهبة المفتوحة - جبال في أرض اليمن ، ولصاف كهذا : جبل طي ، وقتبع ، جمع قنطرة  
الغبان التي تكسر حناها في الطيران ، والحق أن كل الطيور في الحزن على الزنى ، مثل الأثرية ، وإن لم تنس  
حفاذا ، ولم تقل شعرا . وقد نسب الى شاعر النربان ومعه التقيد بقصيدة على روى القنات ، في أبيات بديعة  
قبل هذا البيت .

إن زهيراً كان ينوكتاً في شعره ، على شعر أوس ، وذكر ابن قتيبة أبياتاً لأوس ، استغلبها زهير ، والنابعة لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، منها قوله :

لعمرك أنا والأحاليف هؤلاء لى حِقْبَةُ أظفارها لم تقلم  
أخذه زهير ، فقال :

لدى أسد شاكى السلاح مقذوف له لبس أظفاره لم تقلم  
وأخذه النابعة ، فقال .

وبنو قُصَيْنٍ لا محالة أهم آتوك غير مقصى الأظفار  
ولا يحامرنى رب فى أن الأفضل للشاعر ، أن يتزع فى نظمه ، عن وحى خياله ، ويستغنى بفيض خراطمه الخاصة ، وشعوره المستقل ، عن المطر الى أشعار الأقدمين ؛ ولعل هذه فصية يقل فيها الخلاف ؟  
كلية اللغة العربية      عبر الجواهر رمضان

## من ثمرات الورع

روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدفعون عن أنفسهم أربعة أشياء :  
الإمامة ، والوديعة ، والوصية ، والفتوى .

كان الصحابة يهربون من تولى هذه الأشياء الأربعة ، ومن العجب أنها صارت مطمح الأنظار بمدح ، ذلك لأن الصحابة طلبوا الدين لذاته ، وغيرهم طلبوا الدين للاستعلاء على الناس بسلطانه . وأعجب من هذا أن الناس يرون هذا الرأى ، ويعرفون المتزاحمين على هذه الخطط بسيماهم ، فيغضون عن ذلتهم هذه ، ويتغابون عنها ، ويعصون فى معاملتهم على ما توجبه وظائفهم ، فيزدادون مضياً فى تكالبيهم ، ويضطر الناشئون لتقليدهم ، للوصول الى أغراضهم ، على طريقة أسلافهم ، ما دام الوازع معدوماً ، وما دام الناس يشجعونهم عليه .

هذا أثر من آثار تراخى عرى التكامل بين أفراد الجماعة ، وهو نذير شؤم على المجموع لا على طائفة منحرفة من طوائفها . قال تعالى : « واتقوا فئة لا تصين الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » . فى هذه الآية زجر شديد عن التغابى عن الخراف الطوائف والأفراد فى المجتمع الواحد . وما دامت الحياة المشتركة تقتضى التكافل فلا محل للاغضاء عن الزلات بمد ما ثبت أن عقوباتهم تم الجماعة ، ولا تخص الجباة .

## في عالم الأدب العربي

### الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

- ٨ -

وإذا كان الخلفاء الماسيون قد قدروا الفرس حق قدرهم ، وأزولهم من أنفسهم أسمى المنازل ، وعرفوا لهم تلك اليد العظيمة في إقامة دولتهم ، فلم ينسوا عربيتهم ، لذلك تراهم لم يترددوا في القضاء على منيرى الفتنة ضدّهم ولو كانوا من أحب الناس لديهم وأقربهم إليهم ؛ فهذا هو أبو مسلم الخراساني الذي تمهد الدولة العباسية في منبتها ، وتولاها بحذقه وبراعته حتى قوى منها العود ، وأبى الفرس ، وآتت أطيب الأكل ، فإن كل ذلك لم يشفع له أمام تنكيل المصور به والقضاء عليه حينما استشعر منه روح الكبرياء والمناوأة ؛ وهؤلاء هم البرامكة الذين شغلوا مكانا من قلب الرشيد غير يسير ، فقد أتى على بنيانهم من القواعد ، ومزق شملهم شر محرّق لما جاوزوا الحدود ، وخرجوا على المألوف ؛ ومثل هذا ما فعله المأمون بالعزل ابن سهل ؛ أو ما أقدمهم على هذا العمل إلا شعورهم بتساوي المسلمين في الحقوق والواجبات مهما كانت أجناسهم .

ومما يدل على أن الفرس كانوا يكبرون المروية ، أن كثيرا منهم كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا عربيا ؛ فهذا أبو مسلم الخراساني انتحل لنفسه نسبا عربيا ، فزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ويحكى صاحب الأغاني أن إسحاق الموصلي تناظر مع ابن جامع بمحضرة الرشيد ، فسبه ابن جامع ، فضى إسحاق إلى خازم بن خزيمعة العربي فتولاه وانتمى إليه ، فقبل ذلك منه ، فقال إسحاق :

إذا كانت الأحرار أصلي ومنصي      ودافع ضيبي خازم وابن خازم  
عطست بأنف شامخ وتناولت      هداى الثريا قاعدا غير قائم

فذلك يدل على أن من الفرس من كان يتطلب الشرف من طريق الانتساب إلى العرب .  
يروى الأغاني : أنه كان لعل بن الخليل صديق فارسي ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ، ثم عاد إلى الكوفة وادعى أنه من تميم ، فقال بهجوه :

روح بنسبة المولى      ويصبح يدي المريا  
فلا هذا ولا هذا      ك يدرك إذا طلبا

ويحكى الأغانى أيضا أن والبة بن الحباب كان يدعى النسب إلى العرب ، فقال فيه أبو العتاهية :

أوالب أنت في العرب كمثل الخبيص في الرطب  
هلم إلى الموالى الصبيد في سمعة وفي رطب  
فأنت بنا لعمر الله أشبه منك بالعرب

وهذا كله لا يحول بيننا وبين أن نقول : إن الشموبية قد بلغت أقصى غاياتها في القرن الثالث الهجرى ، لما قدمنا من أن شعور الفرس بأنهم أقاموا الدولة ، وشعور العباسيين بأنهم مدينون للفرس ، قد هدأت إلى يخضون العرب أن يلصقوا بهم ما شاءت لهم أهواؤهم وزخاتهم من ذم وقذح ، كما أنه أتاح لمنصبى العرب أن يردوا هذا القذح بعثله أو بأفدح منه .

هذا ولا نحب أن يفهم القارئ أن كل الفرس وكل العرب كانوا على غرار واحد ، يفيض بعضهم بعضا ، فالحق أن الكثرة الساحقة في الآتين كانوا متشبعين بروح الاسلام من عدم الاعتداد بالجنسية ، فإن مرأ ذكر الجنسية عرضا عرف الفرس العرب فضلهم ومكانتهم وأسبقيتهم في الاسلام ، واعترف العرب للفرس بحضارتهم المريقة وثقافتهم القديمة اللتين أفادتا العرب كثيرا ، وخطت بهم خطوات واسعة نحو الرقى والكمال .

فهذا هو عبد الله بن المقفع الفارسى يمدح العرب ويطربهم ، ويحماهم بأنهم أعقل الأمم وأجدرها بالبقاء .

فقد روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخزى عن شبيب بن شبة قال : « كننا وقوقا بالمرتبذ - موضع بالبصرة كان مألوف الإشراف - إذ أقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم إلى نيزوز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها المعجيب ، فموتتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد النقل ، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله من شيء تناووه ، فقبلنا وملنا ، فلما استقر بنا المكان قال لنا : أي الأمم أعقل ؟ فظفر بعصا إلى بعض قفلا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ، فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيرا من الأرض ، ووجدوا عظماء من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبت فيهم عقد الأمر ، فما استنطوا شيئا بمقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم ، فلنا . فاروم ، قال : أصحاب صنعة ، قلنا : فالصين ، قال : أصحاب طرفة ، قلنا : فالهند ، قال : أصحاب فلسفة ، قلنا : السودان ، قال : شر خلق الله ، قلنا : الترك ، قال : كلاب مخنلسة ، قلنا : الخزر ، قال : بقرة سائمة ، قلنا : فقتل ، قال : للعرب ، قال : فضحكنا ، قال : أما أنى ما أردت موافقتكم ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يغوتنى حظى من المعرفة ، وإن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وقتم ، وسكان شعر وأدم . »

على أنك لا تكاد تعثر فى العصر العباسى على قرين لابن المقفع يلف لفه ، ويشايحه فى طريقته

من امتداح العرب وتنقيص الفرس أصله ومنيته ، سوى ابن قتيبة ؛ بل القى لا تلقى غناء في وجدانه أن طغمة من الأماجم في العصر العباسي أخذوا ينقصون العرب ، ويهجنون محامد التي بها يفخرون ويعتزون ، ومنهم من ألّف كتباً في مناقب المعجم ، واخترعوا القصص العديدة التي تطوح بكل شيء يعتر به العرب .

وقد تصدى فرد على هذه المئاب الجاحظ في بيانه وتبيينه ؛ وألف ابن قتيبة كتاب (العرب) رد فيه على من وضع شأن العرب ، وذكر ما اختصت به العرب من الفضائل .

هذا ، ولم يكن وكر الشعوبية بلاد الشرق لحسب ، بل تعدتها الى بلاد الأندلس في الغرب . فهذا هو أبو عامر بن غرسية ، فقد أنشأ رسالة يفضل فيها المعجم على العرب ، فرد عليه كثير من فقهاء الأندلس وأدبائها ، وقد نقل هذه الردود صاحب كتاب « ألف باء » .

وقبل أن نختم هذا البحث لا بد لنا أن نفر الى أمرين ، أما أولهما : فان الشعوبية كغيرها من الرعاط كانت من المصاويل التي أخصبت ، ناحية من الأدب العربي ؛ وذلك ما قصدنا إليه وحده دون أن نعرض لها من الوجهة المعية إلا نورا يسيرا استدعاه ذلك القصد .

وأما ثانيهما : فانه لا بد لنا أن نقف موقف الحاكم المنصف بين الخصمين ، فنقول : إن الأمثلة التي سردناها شرها ونظمها لا تخلو عن هوى في النفس من الطرفين ، وإن كلا منهما كان مسرط مغاليا فيما يلصقه بخصمه من شين ونقص ، مما جعل التاريخ يعيد نفسه فيعرض على الأذهان صورة من صور الجاهلية الممثلة في الفرقة والاختلاف ، المسرقة في الهجو والسباب .

ولئن كان للجاهليين عذرهم فما عذر هؤلاء وقد جاء الاسلام معقبا على كل هذا ، داعيا الى الوحدة والامتناع بمحبه المتين ، نافرنا الى الشعوب على سواء ، جاعلا مناط الرفعة والكرامة تقوى الله وطاعته ؛ فالناس بذلك يتفاوتون ، وعلى أساسه يمازجون ؟

أحمد إبراهيم موسى

مخصص البلاغة والأدب

## لا غنى عن الناس

سمع عمر أمير المؤمنين رجلا يقول : اللهم أغني عن الناس . فقال له الفاروق : أراك تسأل الموت . قل : اللهم أغني عن شرار الناس . وقال رجل لابن عباس : ادع الله أن يغني عن الناس . فقال له ابن عباس : إن حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأصابع ، فمضى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ؟ ولكن قل : أغني عن شرار الناس .

إن في هذين القولين الحكمة ، فبما أكثر الذين يعتدون في الدماء !

# كتاب ابن القيم في الأخلاق والآداب

## الصدقة حاجة اجتماعية

في رأى ابن المقفع

الإنسان في الحياة المادية زميل الإنسان ومعاونه ، وعشيرته ومؤانسه ؛ ومهما بلغ الإنسان من الرخاء والسعة والاعتماد بالنفس فهو في حاجة ملحة إلى من يبادلته الرأى ، ويكشف له عن نوازه ، ويغضى إليه بذات نفسه ، تلك غريزة كائنة في الطبيعة الإنسانية . وقد يماثلوا : الإنسان مدنى بالطبع ، أى أن به ميلا إلى التألف والتعاطف ، وحاجة إلى التعارف والتفاهم ؛ وعلى هذا قامت شتى الروابط في المجتمع الإنسانى ، وكانت الضرورة الداعية لاتخاذ الأوداء والخلعاء ، واصطفاء الأصدقاء والأحلاء .

ولبلقاء العرب ولحكايتهم في الصداقة والصديق أقوال كثيرة ، ولكنها تنف مبثثة تقع موقع الحكمة ، وتجري مجرى المثل ، وقد يظهر فيها التعارب ، وربما بلغت في الأداء غاية الإيجاز والرمز ؛ ولعل ابن المقفع هو أول من اهتم بهذه الناحية الخلقية فأفرد لها في التدوين ، ونظمها في باب تمكن مذكراته والوقوف عليه ، في كتابي الأدب الصغير والأدب الكبير .

لقد كانت عنة أخلاقية هزت كيان المجتمع الاسلامى في عهد ابن المقفع ، وهو سقوط أسرة مالكة وقيام أخرى ، وكان هو في صميم هذه الهنة يرى الشر يكشف له عن ناجذيه في كل خطوة ، والبطن يتهدده في كل فرصة ؛ ولقد حاول جاهداً أن يعيش على الحفر والمسألة لعله يسلم ، ولكن هيهات ! فقد طاحت به الوقعة في النهاية ؛ فلا غرو إذا ما رأينا الرجل يحفل كثيراً بالحماية للأخلاق السكرية ، فيشد إصلاحها ، ويمظ الناس في الأخذ بأسبابها ؛ ولا غرو إذا ما رأينا يبالغ كثيراً في الحث على اختيار الصديق ، والتسلك بما تقتضيه معاملة الأصدقاء من الخلال الشريفة : كالوفاء والإيثار ، والبذل والمسامحة ، والحفظ والراية ، وما إلى ذلك من الصفات التي هي جماع الأخلاق الطيبة .

وما كل ما كتبه ابن المقفع في الصداقة والصديق من ابتداعه ، ولا هو من فيض تجربته واختراعه ، ولكنه تلقف كثيراً من حكمة الهند ، وآداب الفرس ، وتجربة العرب ، وصنع من كل ذلك سمطاً منتظماً لو تدبرته رأيت المثل الأعلى في بابه . وفي تقدمته للأدب الصغير يقول : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على حمارة



القلوب وصقاها وتجليه أبصارها ، وإحياء التفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق ، إن شاء الله .

ولم لك تعرف أن الرجل كان من الكتاب المثاليين ، أي أنه كان يصور الأمور على ما يجب أن تكون لا كما هي كائنه ؛ ولقد كان يذهب في الصداقة ومعاملة الأصدقاء مذهباً مثالياً يسمو على طاقة البشر ، ويرى طبيعة الإنسان المتقلبة ؛ ومن هذه الناحية تهجم بعض الباحثين على ابن المقفع ، وقال : إنه يفرض فروصاً لا يمكن أن نحتملها طبيعة الإنسان ، وإنه ليذهب في كلامه إلى الخيال أكثر مما يقصد إلى الحقيقة . وليس هذا على ما أرى مبالغ ولا نقص ، فإن الرجل كان يفتع القول بالعمل ، ويؤيد الرأي بالتنفيذ . لقد كان ابن المقفع يقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك » ، وأنت قد تقول : ولكن أين هو الإنسان الذي يبلغ في الصداقة إلى حد البذل والإيثار ؟ وأين هو الرجل الذي تدفعه رجولته فيسعى من أجل صاحبه روحه وماله ؟ وأنا أقول لك : لا تعجب فقد كان ابن المقفع نفسه هو ذلك الرجل ، وما كان الكاتب الكبير في رعاية الصداقة إلا آية الوفاء وحجة النداء . ولقد روى في سيرته أن كان جالساً مع صديقه وختنه عبد الحميد الكاتب ، فدخل عليهما الجنيد يطلبون عبد الحميد للاقتصاص منه عند الخليفة ، فقالوا : أيكم عبد الحميد ؟ فقال ابن المقفع : أنا ، وقال عبد الحميد : بل أنا ، وهم الجنيد يأخذ ابن المقفع في صاحبه لولا أن أسرع عبد الحميد فقال : تمهلوا وتدبروا فإن لكل مناصات تميزه ، وأنا من ممتاى كذا وكذا عما تعرفونه ، فأخذوه ! ولولا ذلك لذهب ابن المقفع فداء صاحبه وهو قريح العين !!

فالرجل كما ترى كان إماماً في الأخذ برأيه ، وما كان من الدين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وليست الصداقة عنده بالأوصاف والأقوال البليغة يهول بها على الناس ، على أنها لا تقع موقفاً من نفسه ، ولكنها تضحية بالروح والمال ، وخلق كريم يخدم فيه القلب واليد واللسان ، ولذا فهو يحذر من آفة القول مع ترك العمل فيقول : « وليرفك إخوانك — والعامة إن استعلت — أنك إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل ، فإن فصل الفعل على القول زينة ، وفصل القول على الفعل حار وجة ، وإن إحكام هذه الخلقة من غرائب الخلال » (١) .

وابن المقفع يبتدى فيقسم الناس إلى أربعة أقسام : الأصدقاء ، والمعارف ، والعامة ، والأعداء ، ثم يقرر لكل منهم حقه في المعاملة والسلوك فيقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، وليرفكك رفدك ومحضك ، وللعامة بشرتك ومحضك ، ولعدوك عدلك وإصافك ، واضن على كل أحد بدينك وعرضك » (٢) .

« واعلم أن من عدوك من يعمل في هلاكك ، ومنهم من يعمل في صلاحك ، ومنهم من يعمل في البعد منك ، فاعرفهم على منازلهم ، (١) وإن كنت مكافئاً بالعداوة فأياك أن تكافئ عداوة السر بالعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة ، فإن ذلك هو الظلم والاعتداء ، واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ، كالخيانة لا تكافأ بالخيانة ، والسرقة لا تكافأ بالسرقة (٢) » .

« والبس للناس لباسين ليس للعاقل بدمنهما ، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما : لباس انقباض وانحجاز من الناس ، تلبسه العامة ، فلا يلفونك إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستمداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك ، فتلقاهم بذات صدرك ، وتقضى إليهم بمصون حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ، وأهل هذه الطبقة - الذين هم أهلها - قليل من قليل حقاً ، لأن ذا الرأي لا يدخل أحداً من قمم هذا المدخل إلا بعد الاختيار والتكشيف والثقة بصديق النصيحة ووفاء العهد (٣) » .

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) الادب الكبير ص ٩٥ . (٢) الادب الكبير ص ٩١ . (٣) الادب الكبير ص ٧٧ ، ٧٨ .

## فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لئى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والمجاهدة .

وقال الحسن البصري : وجدت الدنيا والآخرة في صبر ساعة .

وقد أجاد أبو الفتح البستي في قوله :

ولم أر مثل الشكر حنة فارس ولم أر مثل الصبر جنة لايس

وقال غيره :

وليس الفنى من خور الخطبُ صبره ولكن من خار في صبره الخطبُ

نقول : لا يصح أن يفهم من هذا أن الإنسان يجب عليه متى ابتلى بكارثة أن يصبر لها

جامداً حتى تزول ، ولكن أن يعمل لإزالتها في صبر وثبات حتى لا يعزب عنه رأيه بالطلع . وقد أمر الله بالصبر في القتال ، فهل يتوهم أحد بعد هذا أن الصبر استسلام ووجود ؟

## الدعوة الى الاسلام

منذ أيام غير طويلة ، طالعت في إحدى الصحف مقالا لكاتب اجتماعي ، يتهم فيه علماء الدين ، والقائمين بالدعوة إليه خاصة ، بأنهم يشتمون الناس على ما هو أشبه بما يسمى « بالفوضى الدينية » ، إذ يوجبون بكل راغب في « الاسلام » مهما كان تفكيره واعتقاده ، وعلمه وإدراكه ، غير مبالين بفرضه من هذه الرغبة ، مع أن كثيرا منهم قد لا يكون له قصد سوى الارتزاق من هذا المال الذي منأه به « الواعظون » ، أو الصدقات التي قد ينفقه بها المأثرون ، من فضل ثرائهم ، وأنه ربما كان فيهم مع ذلك من يريد بدينه « الجديد » أن يخلص من زوجته التي لم يجد في نصرانيتها ، أو يهوديته ، ما يساعده على أن يطلقها ، أو يفارقها بالمعروف (١) ثم أهلب بالمرتعين في نهاية المطاف أن يصموا حدا لهذه المسألة . . .

والذي يقرأ هذه الكلمة ، لا يشك في أنها تنطوي في جملتها على شيء من التجنى على رجال الدين ، والقائمين بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة . .

لقد كانت النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرم كل الحرص على « هداية الناس » حتى لا تكون مثنة (١) ويكون الدين كله لله . وكان يبالغ في هذا الحرص ، إلى أن ينال من راحته ونومه ، ولم يخفف من هذا الكد المتواصل ، إلا بعد أن زاده الله علما في ذلك بأمثال قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، وبحمل الرجس على الدين لا يعقلون » ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » . وكان حقا على أصحابه ، أن يكونوا على قدمه مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة . وحضهم على الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى أنه قال : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » .

ولكنه لم يقصد بهذه الهداية أن يقود المسلم غيره للدين قيادة عمياء ، غالية من الدراية والنظر ، ولكنها هداية النور والعلم ، في هداية وثقت - وليس أدل على ذلك من قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . . » فلما قد رحمت دستوروا للدعوة إلى الله ، لا تصل إليه أمة بلغت من الحضارة والمدنية ، ونضوج العقل ، ودقة التفكير ، شأوا غاليا ، ودرجة سامقة ، إذ تضمنت النجدة وإطاعة الملهوف ، وإيواء المستجير ، ودفع الخوف عنه ، وزادت عليه الدعوة إلى الله من طريق التروى والتعقل ، في جو من الأمن والطمأنينة ، ليكون إيمانه صادرا عن تثبت واستدلال .

وكل نبي من الأنبياء يفاخر باتباعه يوم القيامة، ثم يكون أشد هؤلاء مفاخرة، وأكثرهم مباحاة، نبينا - عليه أفضل الصلاة والسلام - لا لكثرة سواد، وزيادة عدد خصب، ولكن لأن فيهم العلماء الذين نشروا اللواء بعده، وذاذوا عن حياض هذا الدين، ودعوا إليه بالتي هي أحسن.

وتجد القرآن الكريم، يعنى بالنظر والتفكير، والتدبر والمعرفة، والتأمل في مصنوعات الله، ويقدم ذلك كله على ما سواه: «أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت؟»، «قل سيروا في الأرض ثم انظروا»، «أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض؟»، «قل انظروا ماذا في السموات والأرض...»، ولعل في هذه الآيات وأمثالها، ما يدلنا على عناية هذا الدين بالنكرة والمدأ، أكثر من عنايته بالأرقام والأعداد، فهو يريد أن يكون فكرة في النفوس، وعقيدة في القلوب، حتى يكون الله ورسوله أحب مما سواها وكفى: «قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوابي يأتى الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين». على أن هؤلاء الذين يقصدهم حضرة الكاتب، ممن يطعمون وراء المنفعة، ويمسرون في أعقاب الأغراض، ممن يؤمنون وجه النهار، ويكفرون آخره، لا يقبم الدين لهم وزنا، وهم أشبه عنده بالمنافقين الذين كانوا يؤمنون، ليأخذوا من أسلاب الحرب، وغنائم القتال «فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون...»

ولكن هل يستطيع المكفون بقول من يطلبون الدخول في الاسلام أن يطلعوا على ضمايرهم، ليقفوا على خبيثة نفوسهم، ويرفضوا طلب المحتالين منهم؟ ذلك ما لا سبيل إليه. وفيه هذا التشديد كله في بيئة انتشر فيها دعاة ينفرون الناس بالمال لقبول دعوتهم، ويمدونهم بضروب المساعدات والرمایات؟ فإذا لم يكن إزاء هذه الحركة النشطة شيء من النسخ في قبول طالبي الدخول في الاسلام، اعتبر ذلك مناصداً عن الدين، وأحجم الكثيرون عن الإقبال عليه تحاميا من التشهير. على أنه لو أحصى عدد الذين يسلمون لأغراض مادية لما بلغوا عشر معدار الذين يطلبون الاسلام رغبة فيه.

وبعد: فهذه كلمة توجب التفكير على الذين يعالجون هذا الموضوع دون تعمق فيه، فإن الكلام في انتشار الأديان والدعوة إليها شئون اجتماعية يصعبها طواهر نفسية لا يحسن إدارتها نظرات سطحية، واليت فيها دون إطالة الروية، وإنعام النظر البعيد.

براهيم على أبو القصب  
المدرس بمعهد القاهرة

## من اخلاق الشريعة وآدابها

أصلنا للقراء شطرا من الكلام عن آداب الشريعة وأخلاقها ، وكيف أنها تحكم المجتمع بأمثل الطرائق وأمثل الأنماط والمناهج ، وتخلع على هذا الوجود ناموسا كان وما يزال مردا لغير ومثابة للطمانينة والامن والمداية ، وكيف أنها تواصت بين أطوائها بالمبادئ العامة لقوانين البشر بل لقوانين الوجود كله في أمر معاشه ومعاده في أدق صوره وأبلغ مرامييه .

فهي توصي بالرحمة لخلق الله جميعا ، وتفيض في تلك الرحمة إفاضة دونها كل إفاضة ، ذلك لأن الرحمة بين الناس بل بين الكائنات ، المظهر الأول لبقاء هذا المجتمع قائما يؤدي كل جزء من أجزائه رسالة الى الجزء الآخر بأمانة وحزم وإخلاص .

فيروى الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضى الله عنه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا في ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . وأخرج الترمذى في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق صاحب هذه الحبرة يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شق » . وجاء شيخ كبير يريد النبي صلى الله عليه وسلم فأبطأ القوم عنه أن يؤسموا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » . روى هذه الثلاثة أبو داود والترمذى . وروى الترمذى في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكرم شاب شيخنا لسنه إلا قبض الله له من بكرمه عند سنه » . وروى الشيخان في صحيحيهما عن العمان ابن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتماطهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويروى أبو داود رضى الله عنه في صحيحه في باب المزاح نوعا من الأخلاق المثالية تدل على مبلغ عناية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالامن والطمانينة تعمّر القلب وتغلا النفس بهجة وتشبثا حتى في المزاح الذي قد يند عن طرائق الحياة الجديدة أحيانا بما ينساق إليه بعض الفطر والطائع صادرا عن حسن طوية وسلامة تحبزة ، فيروى أبو داود في هذا الصدد فيقول .

« وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفر معه ، فأخذ بعضهم من أخيه حبلاً وهو قائم فاستيقظ ففرغ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروغ مسلماً » .

ومثل هذه القصة في المراح قصة أخرى يرويها أبو داود في صحيحه ، فقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأنطلقت لحاجتي فرأيت حمرة ( نوع من العصفير ) معها فرخان ، فأخذت فرخيهما ، فجاءت الحمرة فجعلت تهرش ( تصيح حزناً على فرخيهما ) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من لعل هذه بولدها ؟! ردوا ولدها إليها ! »

ومثل هذه القصص قصة أخرى هي أمثلة عالية للحلق الكريم ، وآية رائعة للقلب الرحيم ، فهي بعد حفز للأقوياء على الرحمة بالضعفاء ، بما ادحر الله لهم من متوبة ، وما كتب لهم من باقيات صالحات . فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فإلى خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : نعم في كل ذات كبد وحيلة أجر » .

فبينما تلك الشريعة السمحة تفيض أيما إفاضة في توصي الناس بالرحمة الشاملة إبقاء على ذلك الرباط الوثيق أن تحل عراه وأن ينهار مبناه ، إذا بها توصي بعد ذلك بالبر بالفقير والمحتاج عليه والتوكل له إذا نزل به مكروب أو حلت بساحته فاقة ، ويشمل ذلك اليتيم والأرملة والجار الضعيف ، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي في شأن الرحمة باليتيم والمنوبة عليها . فقد روى هؤلاء الأربعة عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وقال بأصبعيه السبابة والوسطى .

والشأن في الأرملة التي لا زوج لها شأن هؤلاء في بذل الرحمة والمصونة ، والرفق بها ، والعطف عليها ، فقد حكى العلامة ابن رشد أن الأرملة إذا كان فيها نوع من الجمال يرغب فيها الأزواج ويحبهم إليها ، ثم عفت نفسها عنهم وحبت ذاتها على يتامها ، كان لها أجر الصابرين . وذلك بدهى الظهور لأن انفعالها بأطفالها وسهرها على راحتهم مع تغير حال واشتغال بال وكثرة بلبال مما يضاعف لها في ذلك الأجر .

هذا وأسرار الشريعة الإسلامية لا تحصى . وسنحاول قدر الجهد أن نضع بين يدي القراء من هذا النوع ما يتيسر لنا على النتائج . وإلى العدد القريب ؟

محسني ط

# معروضات العرب والمسلمين

## في الإسلام والمسلمين

حالة المرأة العربية في الحرم

للأوربيين ولوع بالكتابة عن المرأة الإسلامية ، وكثيرا ما شطت أفلامهم طلبا للإغراب ، واستنزال عجب القراء ، فاثوا بما يشبه ما دُون في حكايات ألف ليلة . ولم إذا كتبوا عن المرأة العربية حيث المحاب الكثيف ، والعزلة النامة عن الرجال ، حادوا بما لا يوجد إلا في عالم الخيال . وقد انتشرت هذه الكتابات منذ قرون ، وزادها الكتاب المحدثون توكيدا ، فأصبحت هذه الخيالات حقائق يتعذر إزالتها من الأذهان . فإذا اتفق لأحدنا وقابل أوروبيا أقبل من بلاده حديثا ، وجدده دهشا مما يجد من التناقض بين الصورة الذهنية التي علقها عن الشرق والشرفيين ، وبين ما عليه حالهم في الواقع ، ولكن الذين يزورون الشرق عدد قليل ، وأكثرهم من التجار والمستثمرين ، وهؤلاء لا تأثير لهم على الرأي العام في بلادهم لأنهم لا يكتبون ، ومن يجرى إلى بلادنا من كتابهم تشويقهم الآثار والمعاديات ، أكثر ما تشوقهم الأخلاق والمعاديات ، فلا يعيروننا إلا نظرات سطحية . وبذلك بقي للشرق الإسلامي معتبرا دار عذاب للمرأة تعاني فيه الويل والشبور .

وقد وقفنا على مقال شرقي جريئة (جورنال دو حنيف) السويسرية ، تحت العنوان المتقدم ، آنسنا فيه اعتدالا ، قرأنا أن نعر به لقراء هذه المجلة ليعلموا بعض ما يقال عنهم ، وسنلاحظ على ما يقتضيه الملاحظة منه .

قال :

« المرأة العربية في الطبقة الثرية ليست بتمسك الحظ في حريمها ، فهي لا تتألم من التثدد في جسمها ، وإن شدة حبها للاطلاع على كل ما يمس عاداتنا وأزيائنا النسوية لا يقابل منها رغبة في التحرر والخلاص مما هي فيه . فهي كطامة جاهلة كل الجهل ، طيبة القلب عطوف ، لا تدري مما هو خارج عملها سوى أسرتها شيئا ، وكل معلوماتها تنحصر في دائرة حليها ومسائل الحبل والإجهاض ، وهي تشعر بضجر لا تستطيع تخديده ، ولا تعرف كنهه . »  
« ينذر أن يكون للمعري الثرى من أهالي شمال أفريقيا أكثر من زوجتين ، ويكثر

أن لا يكون له غير زوجة واحدة ، تكون سيرته معها مادية ، أعنى ليست على أسلوب الوحشية الظالمة البهيمية التي تخيلها قصاصون ليسوا على شيء من العادات العربية البيتية . وقد اعتاد العربي أن لا يفضى بشيء مما يجري في داخل داره . ويرى أنه لا يصح أن يُسأل عن أحوال امرأته . فهذا الأمر لا يجوز الإلمام به إلا إذا رأى هو أن يتكلم فيه . فإذا اتفق أن امرأته محتضرة ، فلا يذكر ذلك لأحد ، محتفظاً باتزانه العادي ، وبأسلوبه السكلاوى المشبع بالفاية القصوى من الأدب . وهذا التحفظ منه في هذا الموطن مادةٌ يجري عليها ، ولا يدل على عدم التأثير مما هو سبيله . وللنساء العربيات ككل نساء العالم أرواح يختلفون في صفاتهم الطيبة والردئية .

« أما حالة هؤلاء النسوة فنلوح لمن مادية لا شبه فيها . أما اللاتي يتألم منها هن اللاتي يردن أن يذفن لذة الحرية التي لا تصلح لها ينتهن ، ولا يصلحن هن لها ، والعربيات وإن كن على جانب عظيم من الذكاء ، فإن تقوسهن قد ألهمت العادات التي نشأت عليها ، وإن كانت توبينهن الحديثة قد جعلتهن كالمنحطات عن مكانتهن . وقد عرفتُ شابتين عربيتين كلتاهما حاصلة على الدكتوراه في علم الحقوق ، دخلتا الحرم بالزواج بعد عودتهما من جامعة باريس عن طيب نفس ، ولم تخرجا منه . وليس هذا بالأمر النادر .

« فعلى المرأة الأوروبية التي يسعها الحظ بأن تقبل في الحريمات ، باعتبار أنها صديقة لأهلها ، أن ترى من الواجب عليها أن لا تحاول جذب أخواتها العربيات الى قول فكرة التحرير . فهذه قد تكون غلظة سيكولوجية واجتماعية . ولكن يجب عليها أن تعتبر صواحباتها المسلمات الجيلات اللاتي يشبهن ملكات بيزانطة ، مخالقات لها في القصور . فيجب أن نعاشرهن ، وأن نحترم أسلوب حياتهن ، دون أن نسمى في بذور بذور الآراء التي لم تستعد عقولهن لقبولها .

« أما أعظم ما يمكن أن يعمل لمن فهو العناية بأمر صحتهن ، وإشراك الأزواج في هذه العناية . ذلك لأنهن مصابات بفقر الدم بسبب معيشتهن في الظل ، ولأن دورهن الفخمة مجاور فناء قذرا ملوئا بالفضلات ، تقيم فيه خادما قذرات ، وأطفال مصابون بالقمل . وليس لهذه السيدات حديقة يمكن أن يستنشقن فيها الهواء بعيدين عن الأنظار . فإذا أصبن بمرض تولت علاجهن المعاهر ، وهن اللاتي يقمن بصناعة التطبيب في القبيلة ، وبعض محترفات مبهجلات ، وليس لملاحهن أساس علمي ، بل هو مستمد من فنون الشعوذة . أما الطبيب من جنس الرجال فلا يقبل في هذه الدور إلا نادرا ، ولا يلحق أهل المريض أن يسعوا به الى المستشفى إلا حين لا يرجي له شفاء .



« فالمرأة الأوروبية تستطيع أن تؤدي لهذه الأسر خدمات جليلة بالتوسط في إدخال مبادئ العناية الصحية إليها ، ذلك أجدى عليها من بث الآراء الاجتماعية فيها .

« وقد اعتاد النساء المسلمات أن لا يقبلن الاخذ بالوسائل الصحية ، فيما يتصل بالأمراض النسوية ، إلا من نساء بشرط أن يكن متزوجات . ويمكن بواسطة العلاج بالحقن مكافحة أمراض كثيرة ، وآفات حمة ، مثل الزهري الذي يفتك بمدد عظيم من الجنس العربي ويدلسه !

« فإذا برت الأوروبية مرضى هذه الأسر بهذه الوسائل السهلة وبدون ألم ، فوجئت بشكر عظيم من هؤلاء النسوة ، وذكرن ذلك طوال حياتهن . وتجدهن لا يدخرن شيئاً في سبيل الإعراب عن سرورهن ليثبتن فرط شكرهن . فبأيها الممرضات من الجنس الأبيض ، هل تنتظرن من مرضاكم المتمذبات مثل هذه الفرة ؟ ( د . ج )



( محلة الأزهر ) : إن هذه المقالة على خلوها من التحقير وتعمد التشهير ، لا تخلو من المبالغة والإغراب ، فإن الادعاء بأن العربيات المحجبات كلهن مصابات بفقر الدم ، يشبه قول خصوم الحجاب هنا : إن جميع المحجبات مبتليات بهذا الداء ؛ والواقع يدل على خلاف هذا الاتهام . فإن تلك النسوة إن كن محجبات فهن لسن بمحبوبات ، وكل من زار البلاد المغربية يعرف ذلك كل المعرفة . ولكن كتاب الفرنجة يعادون الحجاب ولا يقصرون في اتهامه بكل نقیصة ، ويقدمون لدينا من يأخذون إخدم ، ويزيدون عليهم في مناوآته .

واليوم وقد أسفر النساء ، ونتج عن سقوطهن ما نتج من الاستخفاف بالآداب ، والافراق في التبرج ، قلب أنصارهن بالأمس لمن ظهر المجن ، وأخذوا يشهرون بهن في كل ناد ، حتى أخذوا يصيغون وجوب إقامة شرطة للأدب !

كل هذا ولما يمحض على سقوطهن قصير سنين معدودة ، فما ظلك حين يتغلغل فيه ، ويرتكب الطائشات منهن من ضروب الاستهتار في التبرج ما لا قبل للشعور الاجتماعي على قبوله ؟ عند ذلك يطأ على الشرق داء جديد يدعونه تهتك النساء ، يضاف الى سائر علله ، وهو أشدها فتكاً ، وأصعبها مراساً ، وأفعلها في إفساد نفسية الجماعات ، وتمكينك مراها ، والإسراع بها الى الهلاك .

فإذا كان يتعذر اليوم إعادة الحجاب ، فهل يعز على السلطات المختصة أن تمنح من التبرج المقنن ، وأن تصد من ضروب التهتك المميب ؟ هل تستطيع تلك الجهات أن تصنع لتقصير الثياب وتضييقها حداً ؟ هل يتسنى لها أن تمنع كشف الرأس والصدر والذراعين والساقين في الطرقات ؟

إذا أمكن ذلك وأما في شك من إمكانه ، لاستعداد الفطنة ونحكما ، فإن ترك حبل الأمور على غواربها ، والاكتفاء بالشكوى منها ، لا تكون له نتيجة غير تطور الداء الى حالات يستعصى معها على العلاج ، ولا يدرى إلا الله ما يؤدي إليه من الأزمات الخلقية والمعضلات الاجتماعية .

ويساغ الأستاذ ( د . ج ) في حكاية بأن الزهرى شائع بين العرب ، وهو يريد حرب بلاد المغرب . فما أصدق المثل العربي في هذا الموطن وهو : رمتني بدائها وانسلت !

إن هذا الداء لم يكن معروفا ببلاد الشرق قبل حلول الأجانب به ، فهم الذين جلبوه فيما جلبوه معهم من فوائد المدنية ومضارها ، حتى أنه قد نسب إليهم فسماه الناس بالداء الأجنبي . فإذا كان يكثر في عرب المغرب كما يقول الكتائب ، ولم يقدم لنا دليلا على ما يقول ، فإن هذا الداء قد يجيء من طريق العدوى ، ولا يشترط أن يكون المصاب قد التفت به من الوقوع في الأثم المسبب له . فقد يشرب الإنسان من كوب ماء في مقهى يكون قد شرب منه قبله مصاب بالزهرى ، فإذا كان في قم الشارب البرى أو في لسانه جرح ، تلتصق بميكروب هذا المرض الممضال ، فسرت ميكروباته في دمه وأحدثت به الزهرى . وهذا المصاب الجديد يمدى أهله به ، وهؤلاء يعدون غيرهم من هذا الطريق ، فينتشر فيهم ، والجميع يتساوون في الجهل به ، وفي الخجل من الاعتراف به لطبيب ، فيتطور لديهم ، ويبلغ أشد درجاته .

وقد فطن الانجليز لهذه الحالة النفسية لدى المصابين به ، فأسسوا مصحات تتعهد أن يترددون عليها كتمان أسرهم ، وتعالجهم منه بحيث لا يشعر بهم أقرب الناس إليهم . كل ذلك تشجيعا للمصابين على المبادرة بالتخلص من هذا الداء الويل .

فلو فطن الشرقيون لأسيس مثل هذه الدور ، خفت وطأة هذه الآفة الخطيئة التي لا تقتصر عواذها على الشخص وحده ، ولكن على ذريته أيضا الى يوم يبعثون .

أقول هذا وأما موقن بأن خير علاج لهذه الإباحة إعادة سلطان العقائد الأولية الى النفوس ، فهي وحدها التي تتحكم فيها ، وتحد من سطوة الشهوات عليها . وفي العلم والفلسفة أسلحة ماضية لا يثبت هذه العقائد ، لا تقوى عليها الشبهات الإلحادية . وهذا العلاج وإن كانت ثمرته بطيئة إلا أنها تكون دائمة ، ولا ترقب من القوة الوارعة ضعفا لعود أقوى وأكلب مما كانت عليه ، كما حدث ذلك في كل أدوار التاريخ .

محمد فريز وجبري

## تاريخ الفن المصري القديم :

هذا كتاب أصدرته دار الهلال على عاتقها من طبع ملحقات سنوية في موضوعات حيوية ، تحسن إدارتها انتخاها ، وتبدع في تحليلها بالصور ، وفي إتقان طبعها . وقد وصلنا منها أخيرا سفر نفيس جم الفوائد في فن العمارة . ومن يعرف أن المصريين القدماء قد بلغوا من هذا الفن أوجه الأعلى ، يدرك أن الكتاب الذي يبحث فيه يجب أن يكون ذا قيمة مالية ؛ ومن يستطيع أن يبلغ هذه الدرجة غير الرجال الذين وقفوا حياتهم على دراسة هذه الآثار القيمة لأول وأكبر مدينة قامت في العالم ؟ لذلك وقع اختيار دار الهلال على واحد من أولئك الاختصاصيين وهو الأستاذ القدير عزم كمال ، الأمين المساعد بالمتحف المصري ، فعمدت إليه بوصف كتاب في هذا الموضوع . لجاء سفرنا فلما يقع في مائتين وعشرين صفحة محلى بعشرات من صور التماثيل والهيكل ، لا بدع صغيرة ولا كبيرة مما تنوق النفس الى معرفته في هذا الموضوع إلا أني به في أسهل وأبلغ عبارة . فنشكر لدار الهلال هذا الاختيار الموفق ، ونشفي على إحسان الأستاذ المؤلف فيما تصدى له ، ونرجوه المزيد .

### بردة محفوظ :

البردة قصيدة مشهورة مدح بها الأستاذ البوصيري من أهل القرن السابع الهجري خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، ففسج على منواله شعراء كثيرون الى عصرنا هذا ، كان منهم المرحومان البارودي باشا ، وشوقي بك ، واليوم يقدم الى القراء الأستاذ الشاعر المطبوع احمد محفوظ بردة جديدة سبعت فيها القراء لغة الجديد ، في عبارات منتحلة ، وألفاظ منتخبة ، وشاعرة موفقة . قدم لها معالي الدكتور هيكمل باشا وزير المعارف فأحسن البناء على ناطقها ، وإنا نشاكره هذا البناء ، كافأ الله شاعرنا بما يستحقه في هذه وتلك .

## على هامش التاريخ المصري القديم :

عرفنا حضرة صاحب السعادة عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ محاميا مدبرها ، وكاتبها سياسيا مبدعا ، وما كنا نعرفه مؤرخا محققا إلا حين حظينا بقراءة كتابه المنع ( على هامش التاريخ المصري القديم ) ، فقد فاجأنا به على غير انتظار ، فسكانت مباغتة طريفة وقعت منا أحسن وقع ، حفزتنا الى الاكباب على قراءته ، وإذا به ثمرة يافعة لدراسات طويلة شاقة في تاريخ مصر القديم ، بدل الباشا الأستاذ فيها سنين كثيرة ، ضفها برحلات الى مواطن الآثار في صعيد مصر ، فكان أثر هذا الجهد المتواصل ظهور هذا العمل التاريخي الضخم .

إن سعادة الأستاذ وهو يكتب هذا السفر الجليل كان يتوخى فيه غرضين : أولهما العلم

لذاته ، وقد وفاه حقه الى حد بعيد يحصله في مقدمة الدراسات المحصنة التي لا يحتاج معها مطالعه الى المزيد ؛ وثانيهما باعتبار أن التاريخ خير ما يبنى في نفوس السابئة الشعور بالهزة القومية ، وهي كما لا يخفى من أكبر العوامل في بث الحمم لابلأغ المجتمع أرقى ما يمكن أن يصل إليه من الشرف والسؤدد . فقد قال سعادته :

« الآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فإذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محمٍ للشعور بالهزة القومية ، وأقوى مانح للفضائل الوطنية والاجتماعية » .

ثم قال سعادته :

« إن الناشئ في إنجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في غيرها من البلاد الراقية ، ينشأ وتاريخ بلاده يسايره في كل سنة من سنى تعليمه ، فلا يكاد يفادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطسعت بطابع ما في هذا التاريخ من عظمة وجل . ومن هذا الانطباع يتولد حب لخاص للوطن ، وتتولد رغبة في محاكاة أبطاله ، وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية ، وتترتب أو تقوى فضائل الإقدام ، وسمو النفس ، ومجالة المخاطر ، والميل الى مايب الاحدوة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها ، سواء أكان تاريخ مجد وبسطة في الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القدوى أول حامل في تربية الفضائل النفسية ، وإبرار صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم في ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئاً عنها فليس هذا الغنى سوى صورة مشوهة تختلط فيها المحرقات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصري روحه ، وينعذر عليه أن يتحدث الى النفوس حديثاً يقومها ويرى الفضائل فيها » .

في سبيل تحقيق هذين المقصدين الشريخين ، تصدى سعادة الأستاذ صاحب البلاغ لشر مؤلفه الذي نحن بسبيل الكلام عنه .

لقد جمع هذا الكتاب جميع المغربات على القراءة والاطلاع : فهو مدج بقلم عرّف منذ هو ثلاثين سنة بالإبداع في البيان ، ومبوب أحسن تبويب بحيث تتداعى فصوله تداعياً منطقياً ، وعلى بعشرات من الصور واللوحات المتقنة الصنع وبعضها بالألوان ، ومطبوع أتقن طبع في مطبعة دار الكتب المصرية على ورق غاية في الجودة .

فنشكر لسعادة المؤلف هديته النفيسة ، راجين له حياة طيبة ، ومزيداً من التوفيق .

The next battle between the Koreishites and the Moslems, was the battle of Ohod, a hill about four miles to the north of Medina. The idolaters, to revenge their loss at Badr, made tremendous preparations for a new attack upon the Moslems. The next year, they collected an army 3000 strong, of whom 700 were armed with coats of mail, and 200 horses. These forces advanced, under the conduct of Abu Sofian, and encamped at a village, six miles from Medina, where they gave themselves up to spoiling the fields and flocks of the Medinites. The Prophet, being much inferior to his enemies in number, at first determined to keep himself within the town and to receive them there, but afterwards, the advice of some of his companions prevailing, he marched out against them, at the head of 1000 men, of whom 100 were armed with coats of mail, but he had no more than one horse, besides his own, in his whole army. With these forces he halted at Mount Ohod. He was soon abandoned by Abdulla Ibn Obay, the leader of the Hypocrites, with 300 of his followers. Thus, the small force of the Prophet was reduced to 700. At Mount Ohod the Moslem troops passed the night, and in the morning, after offering their prayers, they advanced into the plain. The Prophet contrived to have the hill at his back, and the better to secure his men from being surrounded, he placed fifty archers on the height in the rear, behind the troops, and gave them strict orders, not to leave their posts whatever might happen. When they came to engage, the Prophet had superiority at first, but afterward, through the fault of his archers, who left their position for the sake of plunder, and suffered the enemies' horsemen to surround the Moslems and to attack them in the rear, he lost the day, and was very near losing his life. He was struck down by a shower of stones, and wounded in the face by two arrows, and one of his front teeth was broken. Of the Moslems 70 men were killed, among whom was Hamza the Prophet's uncle; of the infidels 22 men were lost (1).

The Koreishites were too exhausted to follow up their advantage, either by attacking Medina or by driving the Moslems from the heights of Ohod. They retreated from the Medinite territories, after barbarously mutilating the corpses of their dead enemies.

The moral effect of this disastrous battle was such as to encourage some neighbouring nomad tribes, to make forays upon the Medinite territories; but most of these were repressed.

The Jews also were not slow to involve in trouble the Prophet and his follower. They tried to create disaffection among his people, and libelled him and his adherents. They mispronounced the words of the Koran, so as to give them an offensive meaning. They also caused their poets who were superior in culture and intelligence, to use their influence

---

(1) Ibn Hisham.

Towards the second year of the "Hijrah" the infidels of Mecca began a series of hostile acts against the Moslems of Medina. They sent men in parties, to commit depredations on the fruit-trees of the Moslems of Medina and to carry away their flocks. Now came the moment of severest trial to Islam. It became the duty of the Prophet, to take serious measures to guard against any plot rising from within or a sudden attack from without. He put Medina in a state of military discipline. He had to send frequent reconnoitring parties, to guard against any sudden onslaught. No sooner did the Prophet organise his state, than a large well-equipped army of the Meccans was afield. A force, consisting of one thousand men, marched under Abu Gahl, a great enemy of Islam, towards Medina, to attack the city. The Moslems received timely notice of their enemies' intention. A body of three hundred adherents, of whom two thirds were citizens of Medina, were gathered, to forestall the idolaters by occupying the valley of Badr, situated near the sea between Mecca and Medina. When the Prophet saw the army of the infidels approaching the vally, he prayed that the little band of Moslems might not be destroyed.

The army of the Meccans advanced into the open space which separated the Moslems from the idolaters. According to Arab usage, the battle was begun by single combats. The engagement then became general. The result of the battle was, that the Meccans were driven back with great loss. Several of their chiefs were slain, and Abu Gahl fell a victim. A large number of idolaters remained prisoners in the hands of the Moslems. They were, contrary to all usage and traditions of the Arabs, treated with the greatest humanity. The Prophet gave strict orders, that sympathy should be shown them in their misfortune, and that they should be treated with kindness (1). These instructions were faithfully obeyed by the Moslems, to whose care the prisoners were confided. Dealing with this event, Sir William Muir quotes one of the prisoners saying "Blessing be on the men of Medina, they made us ride, while they themselves walked, they gave us wheaten bread to eat, when there was little of it, contenting themselves with dates (2)."

The remarkable circumstances which led to the victory of Badr, and the results which followed from it, made a deep impression on the minds of the Moslems. They firmly believed, that the angels of heaven had battled on their side against their enemies. The division of the spoils created some dissension between the Moslem warriors. For the moment the Prophet divided it equally amongst all. Subsequently, a Koran revelation laid down a rule, for future division of the spoils. According to this rule, a fifth was reserved for the public treasury for the support of the poor and indigent, and the distribution of the remaining four fifths was left to the discretion of the Chief of the State.

---

(1) Al Wakidi, Ibn Hisham, Ibn Athir, etc.

(2) Sir William Muir: *The Life of Mohammed*.

with our own people, to our assistance and good offices, the Jews of the various branches, and all others domiciled in Medina shall form with the Moslems one composite nation, they shall practise their religion as freely as the Moslems. The allies of the Jews shall enjoy the same security and freedom. The guilty shall be pursued and punished. The Jews shall join the Moslems in defending Medina against all enemies. The interior of Medina shall be a sacred place for all who accept this charter. All true Moslems shall hold in abhorrence every man guilty of crime, injustice or disorder; no one shall uphold the culpable, though he be his nearest kin (1)."

After dealing with the interior management of the State, the charter concluded as follows: "All future disputes arising among those who accept this charter, shall be referred, under God, to the Prophet (2)."

Thus this charter put an end to the state of anarchy that prevailed among the Arabs. It constituted the Prophet Mohammad as chief magistrate of the nation.

The party of the Ansars or helpers, included some lukewarm converts who retained an ill-concealed predilection for idolatry. These were headed by Abdulla Ibn Obay, a man with some claims to distinction. They ostensibly joined Islam, but in secret were disaffected. They often were a source of considerable danger to the new-born Commonwealth and required unceasing watchfulness on the part of the Prophet. Towards them he always showed the greatest patience and forbearance, hoping in the end to win them over to the faith, which expectations were fully justified by the result. With the death of Abdulla Ibn Obay, his party which were known as the party of the 'Munafiquim' (the hypocrites) disappeared.

The Jews who constituted the third party of the Medinites were however, the most serious element of danger. No kindness or generous treatment, on the part of the Prophet, would seem to satisfy them. They soon broke off, and ranged themselves with the enemies of the new faith. They did not hesitate to declare openly, that they preferred idolatry, with its attendant evils, to the faith of Islam. Thus, the Prophet had to keep an eye on his enemies outside Medina, on the one hand, and those within the city on the other. The Meccans who had sworn Mohammad's death, were well acquainted, thanks to the party of the Hypocrites and of the Jews at Medina, with the real forces of the Moslems. They also knew that the Jews had accepted Mohammad's alliance only from motives of temporary expediency, and that they would break away from him to join the idolaters, as soon as the latter showed themselves in the vicinity of Medina. The safety of the State required the proscription of the traitors who were secretly giving information to the common enemy. About six men were executed for high treason of this nature.

---

(1) Sir W. Muir, G. Sale.

(2) Sir W. Muir, G. Sale.

to Yathrib, attended by a great number of his disciples who met them at Koba. They entered the city on the morning of a Friday, the 16th Rabi' I (corresponding to the 2nd day of July 622).

Thus was accomplished the Hijrah, or the flight of Mohammad as called in European annals, from which the Islamic calendar dates.

---

V.

## THE PROPHET AT MEDINA

When the Prophet Mohammad and his companions settled at Yathrib, this city changed its name, and henceforth was called 'Al Medina Al Munawara,' the illuminated city, or more shortly, Medina, the city. It is situated about eleven days' journey to the north of Mecca. At that time it was ruled by two Kaitanite tribes, namely, Aws and Khazraj. These two tribes, however, were constantly quarrelling among themselves. It was only about the time when the Prophet announced his mission at Mecca, that these tribes, after long years of continuous warfare, entered on a period of comparative peace. When the Prophet settled at Medina, the tribes of Aws and Khazraj, forgetting entirely their old feuds, were united together in the bond of Islam. Their old divisions were soon effaced, and the 'Ansar', the helpers of the Prophet, became the common designation of all Medinites who had helped the Prophet in his cause. Those who emigrated with him from Mecca received the title of 'Muhajereen' or 'the emigrants'. The Prophet, in order to unite both classes in closer bonds, established between them a brotherhood which linked them together as children of the same parents, with the Prophet as their guardian.

The first step the Prophet took, after his settlement at Medina, was to build a mosque for the worship of God, according to principles of Islam. Also houses for the accommodation of the emigrants were soon erected.

Medina and its suburbs being at this time inhabited by three distinct parties, the Emigrants, the Helpers and the Jews, the Prophet in order to weld them together into an orderly federation, granted a charter to the people clearly defining their rights and obligations. This charter represented the framework of the first Commonwealth organised by the Prophet, and dwelt chiefly on freedom of conscience. It started thus: "In the name of the Most Merciful and Compassionate God, this charter is given by Mohammad, the Apostle of God, to all believers, whether of Koreish or Medina, and all individuals of whatever origin who have made common cause with them, who shall all constitute one nation." The following are some extracts from the Charter: "The state of peace and war shall be common to all Moslems, no one among them shall have the right of concluding peace with, or declaring war against, the enemies of his co-religionists. The Jews who attach themselves to our Commonwealth, shall be protected from all insults and vexations, they shall have an equal right



had been rejected, they decided, that he should be killed. They agreed that one man should be chosen out of every tribe for the execution of this design, and that each man should strike a blow at him with his sword, so that the responsibility of the guilt might rest equally on all tribes, to whose united power the Hashimites, Mohammad's own tribe, were much inferior, and therefore would not be able to revenge their kinsman's death. A number of noble youths were selected for the sanguinary deed. As the night advanced, the assassins posted themselves round the Prophet's dwelling. They watched all night long, waiting to murder 'Mohammad' when he should leave his house at the early dawn. By some means (1) the Prophet had been warned of the danger. In order to keep the attention of the assassins fixed upon the bed which they had been watching through a hole in the door, the Prophet directed Ali to lie down in his place and wrap himself up in his green cloak, which he did whereas the Prophet miraculously escaped through the window. He repaired to the house of Abu Bakr, unperceived by the conspirators who had already assembled at the Prophet's door. These, in the meantime, looking through the crevice, and seeing Ali whom they mistook for 'Mohammad' himself, asleep, continued watching there till morning, when Ali arose, and they found themselves deceived. The fury of the Koreishites was now unbounded. The news that the would-be assassins had returned unsuccessful, and that 'Mohammad' had escaped, aroused their whole energy. A price of a hundred camels was set upon Mohommad's head.

From Abu Bakr's house the Prophet and he went to a cave in Mount Thor, to the south east of Mecca, accompanied only by Abu Bakr's servant, and an idolater whom they had hired for a guide in this cave they lay hid for three days to avoid the search of their enemies whom they very narrowly escaped. It is related that after the Prophet and his companions entered two pigeons laid their eggs at the entrance, and a spider covered the mouth of the cave with its web which made the enemies look no further.(2) Abu Bakr, seeing the Prophet in such imminent danger, became very sorrowful, whereupon the Prophet comforted him with these words, recorded in the Koran "Be not grieved, for God is with us." Their persecutors having retired, they left the cave and set out for Yathrib by a bye-road. Having miraculously escaped some horsemen who were sent to pursue them, the fugitives continued their journey, without molestation, after three days' journey they reached the territories of Yathrib. Here they were joined by Ali who had been severely maltreated by the idolaters after their disappointment at Mohammad's escape. The prophet and his companions then proceeded

---

(1) It is believed that it was by inspiration that Mohammad was so warned, vide Ibn Hisham, Al Wakidi, etc.

(2) Al Wakidi, Ibn Hisham, etc.

reasonable, and we will be faithful to him in weal and sorrow." When they had solemnly engaged to do all this, the Prophet sent one of his disciples, Massaab Ibn Omair, home with them, to teach them the fundamental doctrines and ceremonies of the religion, Massaab, having arrived at Yathrib, by the assistance of those who had been formerly converted, gained several proselytes, particularly Osaid Ibn Hodeira, a chief man of the city, and Saad Ibn Moaz, prince of the tribe of Aws, Islam spreading so fast, that there was scarce a house wherein there were not some who had embraced it.

The next year, being the thirteenth of the mission (622 A. D.), Massaab returned from Yathrib, accompanied by seventy three men and two women of that city, who had adopted Islam, besides others who were as yet unbelievers. On their arrival these Yathribites immediately sent to the Prophet and invited him to their city. The Prophet was now in great need of such an assistance, for his opponents had by this time grown so powerful in Mecca, that he could not stay there much longer without imminent danger. He, therefore accepted their proposal, and met them one night by appointment at Al Akaba, mentioned before, attended by his uncle Al Abbas, who, though he was not then a convert, wished his nephew well. Al Abbas made a speech to those of Yathrib wherein he told them that, as the Prophet Mohammad was obliged to quit his native city and seek shelter elsewhere, and they had offered him their protection, they would do well not to deceive him; and that if they were not firmly resolved to defend and not to betray him, they had better declare their minds, and let him provide for his safety in some other manner. Upon their professing their sincerity, the Prophet swore to be faithful to them, on condition that they should worship none but God, observe the precepts of Islam, obey the Prophet in all that was right and protect him against all insults as heartily as they would their wives and families. They then asked him what would be their return, if they should happen to be killed in the cause of God, he answered. "Paradise". Whereupon they pledged their faith to him and his cause. The Prophet then selected twelve men out of their number to act as his delegates. Thus was concluded the second covenant of Al Akaba. The Yathribites returned home, leaving the Prophet to arrange for his journey to their city. The Prophet directed his followers to seek immediate safety at Yathrib, which they accordingly did. About one hundred families silently disappeared from Mecca and proceeded to Yathrib, where they were received with enthusiasm and much hospitality. All the disciples had gone to Yathrib. The Prophet alone remained at Mecca, keeping with him only his young cousin Ali, and his devoted friend, old Abu Bakr.

The Meccans, fearing the consequence of this new alliance, began to think seriously of preventing Mohammad from escaping to Yathrib. They met in all haste at the town-hall. After several milder expedients

some other field, and he chose Tayef, a town about sixty miles east of Mecca, whither he went accompanied by his faithful servant Zaid. The tribe of Thakif, who were the inhabitants of Tayef, received Mohammad very coldly. However, he stayed there for one month. Though the more considerate and better sort of men treated him with a little respect, the slaves and common people refused to listen to his teachings, they were outrageously indignant at his invitation to abandon the gods they worshipped with such freedom of morals and lightness of heart, at length they rose against him, and bringing him to the wall of the city, obliged him to depart and return to Mecca.

This repulse greatly discouraged his followers: however, the Prophet was not wanting to himself, but boldly continued to preach to the public assemblies at the pilgrimage<sup>(1)</sup>, and gained several new proselytes, among whom were six of the city of Yathrib, of the Jewish tribe of Khazraj. When these Yathribites returned home, they spread the news among their people, that a prophet had arisen among the Arabs who was to call them to God, and put an end to their iniquities.

It was in the twelfth year of his mission, that the prophet gave out that he had made his night journey from Mecca to Jerusalem, and thence to Heaven. All, that Moslems must believe respecting this journey is that the Prophet saw himself, in a vision, transported from Mecca to Jerusalem, and that in such vision he really beheld some of the greatest signs of his Lord. However, some trustworthy traditionists maintain that this journey, known in history as *Miraj* (ascension), was a real bodily one and not only a vision<sup>(2)</sup>.

(An eminent writer, commenting on the ascension remarks "It may, I think, be fairly asked, why Christians who believe in the bodily resurrection and bodily ascension of Jesus and of Elijah, should look upon those Moslems who believe in the bodily ascension of Mohammad as less rational than themselves?").

In this year twelve men of Yathrib, of whom ten were of the Jewish tribe of Khazraj and the other two of Aws, came to Mecca, and took an oath of fidelity to the Prophet at Akaba, a hill on the north of that city. This oath was called the women's oath, not that any women were present at this time, but because a man was not thereby obliged to take up arms in defence of the Prophet or his religion, it being the same oath that was afterwards exacted of the women. This oath was as follows. "We will not associate anything with God, we will not steal nor commit adultery or fornication, nor kill our children (as the pagan Arabs used to do when they apprehended that they would not be able to maintain them), nor forge calumnies, we will obey the Prophet in everything that is

---

(1) Sir W. Muir.

(2) Ibn Hisham; Al Tabari; Ibn Athir etc.

Hitherto he had been a violent opposer of the Prophet and a bitter enemy of Islam. His conversion is said to have been worked by the magic effect on his mind of a chapter of the Koran which his sister was reading in her house, where he had gone with the intention of killing her on account of her adoption of Islam.<sup>(1)</sup> Thus the party of the Prophet had been strengthened by the conversion of his uncle, Hamza, a man of great valour and merit, and of Abu Bakr and Omar, both men of great energy and reputation. The Moslems now ventured to perform their devotions in public.

Alarmed at the bold part which the Prophet and his followers were now able to assume, and roused by the return of the deputies from Abyssinia and the announcement of their unsuccessful mission, the Koreishites determined to check by a decisive blow any further progress of Islam. Towards this end, in the seventh year of the mission, they made a solemn league or covenant against the descendants of Hashim and Muttalib, engaging themselves to contract no marriage with any of them, and to have no communication with them. Upon this, the Koreishites became divided into two factions, and the two families of Hashim and Muttalib, all repaired to Abu Talib as their chief, except only Abu Lahab, the Prophet's uncle, who, out of his inveterate hatred against his nephew and his doctrine, went over to the opposite party whose chief was Abu Sofian Ibn Harb, of the family of Omayya. The persecuted party, Moslems as well as idolaters, betook themselves to a defile on the eastern skirts of Mecca. They lived in this defensive position for three years. The provisions which they had carried with them, were soon exhausted. Probably they would have entirely perished, but for the sympathy and occasional help they received from less bigotted compatriots.

Towards the beginning of the tenth year of the mission a reconciliation was concluded between the Koreishites and the two families of Hashim and Abdul Muttalib through the intermediation of Hisham, son of Amr, and Zobeir, son of Abu Omayya. Thus, the alliance against the two families was abolished, and they were able to return to Mecca.

During the period the Prophet and his kinspeople passed in their defensive position, Islam made no progress outside, but in the sacred months, when violence was considered sacrilege, the Prophet used to come out of his temporary prison to preach Islam to the pilgrims. In the following year, both Abu Talib and Khadija died. Thus, the Prophet lost in Abu Talib the kind guardian of his youth who had hitherto protected him against his enemies, and in Khadija his most encouraging companion. She was ever his angel of hope and consolation. The prophet weighed down by the loss of his amiable protector and his beloved wife without hope of turning the Koreishites from idolatry, with a saddened heart, yet full, of trust, resolved to exercise his ministry in

(2) Ibn Hisham, Sir W. Muir.

الطبعة الأولى: ١٩٤٨  
مطبعة الأزهر

# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية  
تصدرها مكتبة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء العاشر	شوال سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر
--------------	---------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد رفعة الأحمدي

الاشتراكات عليه منه	الإدارة
داخل القطر ... ٢٠٠	ميدان الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠	تليفون : ٨٤٣٣٢
خارج القطر ... ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

تتميز المجلة الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارجة

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٨ )

الجزء العاشر - المجلد الحادي عشر

٥٧٧	...	...	...	...	السيرة المحمدية — وقعة الأحزاب ...
٥٨٣	...	...	...	...	تفسير سورة الشمس ...
٥٨٦	...	...	...	...	السنة ...
٥٩٢	...	...	...	...	تاريخ الفقه الإسلامي في مصر ...
٥٩٦	...	...	...	...	تاريخ علم التفسير ...
٥٩٩	...	...	...	...	الكلام والمتكلمون ...
٦٠٣	...	...	...	...	التعديد والمجددون ...
٦٠٦	...	...	...	...	عبد الله بن عمرو ...
٦١٠	...	...	...	...	عمر بن عبد العزيز ...
٦١٣	...	...	...	...	نظرات في الأدب العربي ...
٦١٨	...	...	...	...	سفور المرأة ...
٦٢٠	...	...	...	...	العبد ...
٦٢٢	...	...	...	...	إخوان الصفاء ...
٦٢٥	...	...	...	...	إنسان الروح الإنسانية حيا ...
٦٣٧	...	...	...	...	الشهور القمرية ...
٦٣٤	...	...	...	...	من أخلاق الشريعة وآدابها ...
٦٣٩	...	...	...	...	تقارظ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# السِّيَرَةُ الْمَحْمُودَةُ

تحت ضوء العلم والفلسفة

مناوشات غير خطيرة قبل المعركة الفاصلة ، وقعة الأحزاب

## سرية أبي سلمة :

أهلت السنة الرابعة قبيل النبي صلى الله عليه وسلم أن طلبه وسلمة ابني حويلد الأسديين ، يؤلبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وأمره أن يسير حتى يطأ أرض بني أسد بن خزيمه ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار في المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قطن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من يديهم ، واستأنق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

## سرية حاصم بن ثابت :

في صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من بني عصل والقارة ، وهما قبيلتان من بني الهون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم في الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة حاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين في دعواهم ، بل مأجورين لبني لحيان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزعوا المسلمين بقتل رجال منهم أحدا بالنار .

فلما بلغت السرية الرجيع ، وهي ماء بين مكة والمدينة ، أحسوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بني هذيل في طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء إلى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فأغتر بعضهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا في أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شمر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يشار يقتلاه من أهل مكة ، وهالك قتلا

## سرية بئر معونة :

في صفر من السنة الرابعة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطولته ملاعب الاسنة ، فدماه رسول الله للاسلام ، فلم يذعن ولا كفه لم يبعد وقال للبي : إني أرى أمرك هذا حسنا ، فلو بعثت معي رجالا الى أهل نجد فاني أتوقع أن يستجيبوا لهم

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إني أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الاسنة : أنا لهم جار .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه اشتبهوا بالاكتار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القراء ، فساروا جميعا حتى نزلوا أثر معوية ، ومنها بعثوا أحدهم ، حرام بن ملحان ، بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت الى الكتاب ، ولكنه ناز على مقدمه وقتله ، ثم استنار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يتخفروا ذمة ملاعب الاسنة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رعل ودكوان وعصية ، وهي قبائل من بني سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجاه ، وعمر بن أمية وكان على سرح للقوم ، أي مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه الجزرة الشنيعة حزن حزنا شديدا .

#### غزوة بني النضير :

بنو النضير يهود كبنى قينقاع الذين قتلوا ظهر المجن للمسلمين فاضطروهم للعلاء من حصونهم والهجرة الى الشام . وهؤلاء حروا على ستة سابقينهم فحدثهم أنفسهم أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته في ديار بني النضير ، تأمر رجال منهم على إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رماهما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رحع الى المدينة وأرسل عبد بن مسleme يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب الى حيث يشاءون .

فنهيا القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين ، فأرسل اليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون في الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه في قوله تعالى : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتكم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليؤكس الأديار ثم لا ينصرون . لا تتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى معصنة أو من وراء



جُدُر ، باسمهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كُتِل الذين من قبلهم فرييا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كُتِل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكانت عاقبتكما أنهما في النار خالدتين فيها ، وذلك جزاء الظالمين .

ولكن بنى الضير اطمأنوا الى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبينة ، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى الضير خبر حروجه دخلوا الى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة رعيهم عبد الله بن أبي ، فلم يمدوا اليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قيسقاع من قبلهم . فطلبوا الى رسول الله أن يقوموا بما تعدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آله الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فثم من نزلوا بخير ، ومنهم من هاجروا الى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

#### غزوة ذات الرقاع :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو محارب وبنو ثعلبة ، تهيآن لحربه . فجرد من صحابته سبعائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقرن الجبال ، ثم أشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعترام الرعب وولوا الأدبار .

#### غزوة بدر التي أوعدها أبو سفيان :

قلنا عسدا ما انتهى من إيراد تفصيلات وقعة أحد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء في بدر من العام المقبل ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالكول فعمد الى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نعيم بن مسعود الأشجعي ليأتي المدينة ويرحف عما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، ويتال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما زالوا يسرون حتى ثوابدرا فلم يجدوا بها أحدا . لآب أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه الى بدر وأرسل الرجل الذي استأجره للإرجاف ، على أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجذب ، ولا يصلح للقتال غير عام معشب ، هلموا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه البية ليرى الناس أن قريشا وقت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم . أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون في سوقها الذي كان يشهد مرة في شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسحلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة في الكتاب الكريم فقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم منها ( في وقعة أحد ) ، قلتم : أئني هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا فالحوا في سبيل الله أو ادعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعوا ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . ولا تحسن الدين قتلوا في سبيل الله أموالا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالدين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رسول الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يصروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسن الدين كفروا إنما نكحهم حير لأنفسهم ، إنما نكحهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مبين . ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الطيب من الطيب ، وما كان الله ليطعنكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسوله ، وإن تؤمنوا وتنقوا فلكم أجر عظيم . »

#### غزوة دومة الجندل :

كانت هذه الغزوة في ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن الأعراب احتمموا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من سربهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفض جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاحتاق المسلمون ما شيتهم ووطأهم . وبث النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

#### غزوة بني المصطلق :

بنو المصطلق بطن من خزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المريسيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق يحشد الجنود لمحاربته ، فاستمد للقاءه ونذب الناس للقتال ، فلما عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للفتنة . فلما نعى خبر قدوم النبي بجيشه الى ديار بني المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين اليه تراه الفريقان بالنبل ، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأمسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ما شئتهم وكانت ألفي بئر وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بني المصطلق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أصحابه أن بني المصطلق صاروا أصحابا لرسول الله ردوا ما أخذوه من أموالهم من الفنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يعت الى نعيم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها . وقيل إن جويرية هي التي طلبت الى النبي ليلة زفافها إليه أن يطلق سراخ الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما في بني المصطلق الى حد أن حملهم على الاسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شئت حتى خدمت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبي وبين أهل المدينة ، فلولوا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان في قلوب المسلمين ، لأدت الى انقسام وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أبي زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا في غنائمها . واتفق أن أجيرا لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولها الثاني وأسأل دمه . فصاح الحليف ( يا للخزرج ) وصاح الآخر ( يا لهما حري ) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالامر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنها منقنة ، ثم حقق القضية فلم يجد لمضروب حقا ، فوقف الامر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فحكم بني الخزرج قائلا . « ما رأيت كاليوم مثله ، أو قد فعلوها ، فافرونا في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمعن كليك يا كلك . أما والله لن نرجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الادل . ثم التفت الى من معه وقال . هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكنهم عنهم أيديكم ، لتحولوا الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للنابا دون مجد ، فأينتم أولادكم ، وقتلتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده . »

فلما بلغ هذا الكلام النبي صلى الله عليه وسلم غضب وتغير وجهه ، فقال عمر مرنى أو مرنى غيرى يقتله يا رسول الله ، فلم يقل منه هذا الرأى ، وأمر حيشه بالعود الى المدينة ، وبنهاهم بعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم فصدوا عن حبل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك أنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع قلوبهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تأملوا يستغفروا لكم رسول الله لو أرادهم وهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لئن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفقوا ، والله حزانى السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ، ليخرجننا الاعز منها الأدل ، والله العزة والرسولة للمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون . يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقول رب لولا آخرتى الى أجل قريب فأنفق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئ الى العدو الخلقى ، والسمو المكبرى الذين طهر عليهما النبي صلى الله عليه وسلم حيال إرحاب شيخ المنافقين عبد الله بن أبى . فقد كان فى استطاعته قتله وقتل كل من يلف له من منافق المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق فى المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أبى المدكور لإظهار الإسلام نقابا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبی قتل رعيه المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة العاشمة فى بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لا نخلت وبطل أمرها من قريب . فكان فى تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، وبثبت دليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والمنهجين ، وقد انتشر انتشارا لم يعمد له مثيل فى تاريخ العقيدة الانسانية لهذا السبب نفسه .

محمد فريد وهبى

# التفسير

## سورة الشمس وضحاها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تláها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها » :

فندم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات الى الله تعالى ، والاعتراف بقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والمقدمات على النتيجة . وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى يفاع عالم الربوبية ، وببداة كبرياء الصمدية .

وفي قوله : « وما بناها » إشارة الى حدوث السماء وكل ما فيها ، ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر وتدير مدير .

هذا ، وعبر « بما » للإشارة الى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم يفعلون ذلك إذا كان الوصف محييا يرهون لفت النظر اليه . وكأنه قبل : وانقاد العظم الشان الذى ساها ودل على وجوده وكال قدرته بناؤها . والمراد بنائها إيجادها . وكذا الكلام فى قوله : « والأرض وما طحاها » أى بسطها .

هذا وفى السماء آيات بينات ، ومعجائب مدهشات . ويكفيك منها أنها واقفة فى الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفها من تحتها . ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بجزء مخصوص وممسك مخصوص ، لا بد لتلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فإن قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبيعتها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون ، قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه : من الذى طمعا على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لا شك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شئ ثم هداة وهدى اليه . أفلا يجوز فى العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن الى نحو الثمانين ؟ فن الذى أوصلها الى ذلك الحد ومتمها بتلك الخصائص ؟

ولنعمد الى الكلام في السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت في الجو العالي بقدره الله تعالى وعظيم تديره . وإياك أن تصفى لحديث الحاذية الذي ينشدق به كثير من المصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه الاختصاصيون ، وعلى فرض تسليمها خلقتها في الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شيء من نفسه كما هو مقرر في محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيراً الى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب الأسباب ، إليه يرجع الأمر كله . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام في ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بد له من فاعل مختار ، فضلاً عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها الى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بمد ذلك أن قطعها القل في مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذي لا يمكن تعليله بسبب . وليت شعري ما الذي أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية ، وبعضها الى الشمال وبعضها الى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطيء !

وإجمال القول أنك إذا نظرت في اختصاص كل شيء من هذه العوالم الفاتنة المحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ولونه ، وخصائصه ومقتضياته ، وحدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلبقون » .

ثم انظر بعد ذلك في الأرض فتعلم أن زيادتها ونقصها مما هي عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التي فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التي تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإثباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العظيم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بنورها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جداً عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جداً من الشمس لم يمس عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر الى الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض ، وفيها من المنافع ما لا يأتي عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التي تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة . وانتفاعنا بالجبال في نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال في كثير من الآيات كقوله : « رواسبى شامخات ، وأستقيناكم ماء قراتا » .

وإن شئت بعد ذلك فانظر الى ما تبنته الأرض من النباتات التي لا تحصى عدا ، وفيها من المنافع والأسرار ما يدهش العقول ويملاّ النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد إنعامه .

وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتمضل بعضها على بعض في الأكل » ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون ثورا ، وبعضها ثمرا ، وبعضها ورقا ، وبعضها خشبا ، الى آخر ما يرشدك اليه الوجدان والبرهان . أليس ذلك كله يرهانا ساطعا ودليلا قاطعا على تقدير العزيز العليم ؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة ، والثاني في غاية السواد ، مع كون نسبته الى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة .

ولنشهد في هذا المقام قول الله تعالى :

يقولون أين الله أين عجايبه	وذا الكون سفر واضح وهو كائنه
يفسكون والايمان مله فلوهم	ويبدون ما تلك القلوب تحككه
فأى امرئ في الجوى يرسل طرفه	إذا ما بدت أقاربه وكواكبه
وليس يقول الله في عرش مجده	وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبى الله مرة	إذا راقب الأزهار وهى ترافيه
عجايب ربي في الآفام كثيرة	ولكن جهل المرء لاشك غالبة

أو نقول ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمتع من حديث له ، حيث يقول :

هاج لقلب من هواه اذكار	وليل خلاط من نهار
وجبال شواخ راسيات	وعيون مياهن فزار
ونجوم تلوح في جنح ليل	مشرقات في كل يوم تدار
وشمس مضيئة لرايا	في نهار وفي النهار
ورياح تهب من كل فج	ويروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير	جل ربا وجلت الآثار
والله قد ذكرت دل على الله	« نفوسا لها هدى واعتبار »

يوسف الرموى  
من جماعة كبار العلماء



## ليلة النصف من شعبان

روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « دخل على رسول الله موضع عنه تولى فيه ثم لم يستقم أن قام فلبسهما ، فأخذتني غيرة شديدة ، ظننت أنه يأتي بعض صوحيباتي ، ففرجت أثميه ، فأدركته بالبقيع ، يبيع القرء قد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبي وأمي ، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ! فانصرفت فدخلت حجري ولئى نفس عال ، ولحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا السعس يا عائشة ؟ فقلت : بأبي وأمي أثبتنى فوضعت منك ثوبيك ثم لم تستقم أن قت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صوحيباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ، فقال : يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ أنا فى جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان وفيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم نى كلب ، لا ينظر الله فيهم الى مشرك ، ولا الى مشاحن ، ولا الى قاطع رحم ، ولا الى مُستبيل ، ولا الى قاتل لوالديه ، ولا الى مُدبر من حجر . قال : ثم وضع عنه ثوبيه فقال لى : يا عائشة تأذين لى فى قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم بأبي وأمي ، فقام فصعد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قد قضى ، فقامت أثميه ووضعت يدي على باطن قدميه ، فتحرك ، ففرحت ، وصمته يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أئمت على نفسك . فلما أصبح ذكرته لى له ، فقال : يا عائشة تعلمين ، فقلت : نعم . فقال : تعلمين وعلمين ، فإن جبريل عليه السلام علمين وأمرنى أن أردذهن فى السجود . رواه البيهقى من طريق الملا بن الحارث ، وقال هذا مرسل جيد ، لأن الملا لم يسمع من عائشة . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان حكم إحياء ليلة النصف من شعبان وما ورد من ذلك . (٣) بيان حكم الدعاء الخاص المشهور بين الناس ليلة النصف من شعبان .



(١) أما معنى الحديث إجمالا فظاهر ؛ ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شرف السيدة عائشة رضي الله عنها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرصها على أن يكون قريبا منها قربا تزاد به شرفا ورسوخا من الله عز وجل ، فلما رأته خرج من حجرتها أدركها ما يدرك النفوس البشرية من الغيرة على من تحب ؛ وكيف لا تغار على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ترى وتلمس كل يوم من آيات النبوة ودلائلها ما قد لا ينيسر لغيرها من الصحب الكرام ؟ حملتها هذه الغيرة الممدوحة على أن تخرج من حجرتها وتلمسه ، فوجدته ذاهبا الى الله ، وفي طاعة الله ؛ وجدته مهتما بالدماء للشهداء والأموات الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ؛ فلما رأته على هذه الحالة وقارت بين حواطر نفسها وبين عمله صلى الله عليه وسلم ، خجلت من نفسها وقالت : « يا بئى أنت وأنتى ، أنت فى حاجة ربك وأما فى حاجة الدنيا ! » ورجعت متغيرة فادمة على ما حدثتها به نفسها ، الى آخر ما ذكر فى الحديث .

ولازيب أن الحافظ المندرى ثقة فى الرواية ، فلا يترك حديثا مطموحا فيه بدون أن يلبه على ذلك الطعن ، وبين موقعه من القوة والضعف ؛ وهو لم يطن فى رواية هذا الحديث ، كما لم يطن فى رواية أحاديث أخرى وردت بمعناه . فسا نقل عن أبى بكر بن العربى من أن الأحاديث التى وردت فى ليلة الصف من شعبان كلها موضوعة ، غير شديد ، ولا وحده له من جهة العقل ولا من جهة النقل .

أما الأول . فلأن الشريعة الإسلامية وإن كانت لا تقدر الأيام لذاتها كما لا تقدر الأمكنة كذلك ؛ ولكن قد يقع فى بعض الأيام والامكنة ما يفضلها على غيرها ، فإذا أمرنا الله بأن نعظم مكانا خاصا كالسكبة ، أو أياما مخصوصة كأيام الأعياد والمواسم ، فانه يلزمنا أن نتمثل أمر الله ، ويكون تعظيم المسكان أو اليوم هو تعظيم الله عز وجل بامتثال أمره .

نعم قد يقال : إن فى بعض ألفاظ الحديث مبالغة لم يقع مثلها فى الأحاديث الصحيحة التى يروها البخارى ومسلم مثلا ، وهذه المبالغة هى أن الله يمتق من النار بعدد شرفتم بنى كلب ، وهى قبيلة لها غنم كثيرة ، فإذا فرض وعق من الدار كل عام بعدد شعور غنم هذه القبيلة على التحقيق ، استغرق ذلك جميع المواليد فلم يبق أحد مستحقا للنار . ولكن الواقع أن العرب كانوا يعرفون عن الكثرة بمثل هذه العبارة فيقولون : عدد النجم ، أو عدد المال ، أو عدد الحصى ، ويريدون بذلك المبالغة فى الكثرة ؛ فالغرض من هذه العبارة ظاهر جلى .

وهناك إشكال آخر ، وهو أن الدين الإسلامى قد حكم فى هذه المسائل حكما واتحما ، وهو أن حقوق العباد لا تمنح إلا بردها الى أربابها ، أو بالفسوخ عنها ؛ وحقوق الله تعالى تمنح بالانزلة والإفلاق عن تركها ؛ فمن يتصرف خطيئة أو إثم مع الله أو مع عباد الله فليستحل وليتب من ذنبه ؛ وقد استثنى الحديث المذكور بعض الكسائر المتعلقة بحقوق العباد ، كقاطع الرحم ،

والعاق لو الديه ، ومسبل الإرار خيلاء وتكبيرا على عباد الله ، والمشاحن الذي لا ينفك عن إيذاء الناس في معاملاته أيام ؛ وذكر من الكبائر المتعلقة بحقوق الله الإدمان على شرب الخمر ، ولم يذكر قاتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والقتل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، وكذلك لم يذكر الرافى بحيلة الفسير ، ولا السارق ، وهما من الكبائر المجمع عليها ، الى غير ذلك من الكبائر والمواقف التي تقدم ذكرها في مقام آخر .

والجواب عن ذلك أن الأحاديث الواردة في الهى عن موثقة من المواقف لا يلزم أن نذكرها جميعها ، فإذا كان الله سبحانه لا ينظر الى هؤلاء العصاة في هذه الليلة فلا ينظر لغيرهم من باب أول ، وتكون النتيجة أن الذين يعتقدون من النار في هذه الليلة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فله سبحانه زيد لهم العمل الصالح ، وييسره لهم ويحبب اليهم التوبة ، وبذلك يعتقدهم من النار ، وإن كانوا من الأموات الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وماتوا ولم يتوبوا ، فإن الله سبحانه قد يعفو عنهم إلا إذا كانوا متصقين بهذه الأوصاف التي نهى عنها الحديث . وبالجلة فإن الفرض من هذا الحديث هو الترغيب في الأعمال الصالحة ، والثبوت عن المواقف في هذه الليلة التي يغفر الله فيها للمؤمنين خطيئاتهم . هذا هو مجمل معناه ، وليس فيه شيء يستلزم إنكاره عقلا ، لأنه ترغيب في الأعمال الصالحة الهامة ، وزجر عن المواقف . وأما من جهة النقل فلان الحافظ المنذرى مشهور بدقة الرواية ، ولم يترك حديثا فيه جهة من جهات الضعف إلا أنه عليها ، وكفى به حجة .

(٧) أما ما ورد فيه من إحياء ليلة النصف من شعبان بعبادة الله تعالى وطاعته في جوف الليل ، فهو أمر مشروع في ذاته لا نزاع في مدحه ، وليس من البس في الدين أن يقوم المرء الليل ويقطعه بعبادة ربه والدعاء للأحياء والأموات من المؤمنين ، إنما الذي لا يجوز هو أن يحكم الإنسان حكما شرعيا لا أصل له في الدين ، فيقول مثلا : إن إحياء ليلة كذا بالعبادة فرض أو سنة مؤكدة ، أو صيام يوم كذا سنة أو واجب بدون أن يرتكز في ذلك على سند صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو تقليد مجتهد من المجتهدين المعروفين ، وهكذا .

نعم ورد أن الأئمة الأربعة كرهوا الاحتفال في المساجد بهذه الليلة ، ولكن هذا شيء وما فعله النبي صلى الله عليه وسلم شيء آخر . قال في إحياء العلوم : « وما صلاة شعبان فليلا الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بمد فاتحة الكتاب قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بمد الفاتحة قل هو الله أحد مائة مرة ؛ كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ، ويستمعون فيها ، وربما صلوها جماعة ... الخ » . وقد قال شارحه الوبيدي . لم يصح شيء في هذا الباب ،

وقد كره الحجازيون الاحتفال والاجتماع لإحياء هذه الليلة ، وأجاز ذلك لبعض أئمة أهل الشام . فالأئمة الأربعة يكرهون مثل هذا الاحتفال كما يكرهون الدماء الخاص اهـ .

ولا يخفى أن هذا كله غير ما نحن فيه ، وغير ما يدل عليه هذا الحديث ، لأن الحديث إنما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قام هذه الليلة بعبد الله ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا لا شك في كونه مشروعاً نافعاً يقره العقل والدين . فالأحاديث الواردة في هذا المقام صحيحة السند لا يصح إنكارها بدون دليل من العقل أو النقل ، ومن أنكرها كان مجارفاً

(٣) أما الدماء المعروف بين الناس فلم يرد ذكره في الأحاديث التي يعمل عليها مطلقاً ، ثم ذكره الألويسي في تفسير قوله تعالى : « يدعو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » بصيغة قريبة من الصيغة المشهورة بين الناس ، ونسبه إلى سيدنا عمر ، كما نسب صيغة أخرى لبعض الرواة . ولكن لم يبين لنا صحة السند وعدمها كما هو شأن المفسرين في الغالب .

والحق الذي لا مرية فيه أن مثل هذه الاحتفالات في المساجد ، وهذه الادعية التي لم يرد لها أصل عند الأئمة الأربعة ولا عند أئمة المحدثين ، ينبغي اجتنابها ، لأن الله تعالى يكتفي من عباده المؤمنين بأى دعاء يدعون به ما دامت قلوبهم متجهة إلى الله عز وجل ، مخلصه في مناجاته ، وقد ورد في السنة الصحيحة أن الدماء لا يستجاب إذا كان صاحبه مثلباً بالحرام ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « يطيل الرجل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وقد غدى بالحرام ، فأى استجاب لذلك » . فينبغي للداعين أن يلاحظوا ذلك عند دعائهم حتى يستجاب لهم .

وبالجملة فن أراد أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحياء هذه الليلة فليحيها بالمبادء وحده بدون اجتماع كما ورد في الحديث الذي معنا .

وها هنا مبحث دقيق يذكر لمناسبة قوله تعالى : « يدعو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » في هذا الدعاء : فإن بعض المفسرين يظن أنها متعلقة بالقضاء والقدر ، وأنه في هذه الليلة تكتب الآجال والأرزاق ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون العباد ، وأنه تعالى يدعو ما أراد أولاً ويثبت غيره . ولكن يرد على هذا سؤال واضح ، وهو أن قضاء الله تعالى الذي انتهى إليه علمه لا يمكن أن يغير مطلقاً ، وإلا انقلب العلم جهلاً ، فانه إذا كان يعلم أن فلاناً سيموت في يوم كذا لا محالة ثم بدا له بعد ذلك أن يغير هذا الموعد ، لم التغير في علم الله ، وهو ما يسمونه بالبداء ، بمعنى أنه قد بدا له أمر صرفه عن إرادته الأولى ، وهذا ممنوع . نعم أجازوه بعضهم مستدلاً بأن أصحاب النبي المبشرين بالجنة وعلى رأسهم سيدنا عمر كانوا يخافون عذاب الله تعالى أشد من غيرهم ، حتى قال عمر : « لو نادى مناد : كل الناس

يدخلون الجنة إلا واحدا ، فثبت أن ذلك الواحد . فهذا يدل على أن القضاء يمكن تغييره . ولكن ليس في هذا وأمثاله شيء من الدلالة ، لأن سيدنا عمر وأمثاله من كبار الصحابة قدوة للناس ، فهم إنما يقولون ويفعلون ما فيه مصلحة المجتمع تصرف النظر عن شخصيتهم .

والحق الذي لا شبهة فيه أن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بهذا الموضوع رأسا ، بدليل ما قبلها ، لأن الله تعالى قال : « وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله » لكل أجل كتاب ، يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل إلى الأمم كما أرسل سيدنا محمداً بشريعة تناسب كل زمان ومكان ، فلكل أجل كتاب معناه : لكل وقت حكم يكتب على العباد بحسب ما يلزم حالهم ، فإذا جاء رسول إلى أمة من الأمم بشرع ، لا بد أن يراعى حالها وصلاحتها لقبول هذا التشريع ، فيتدرج معها حسبها تطبيق ، وذلك كان شأن الإسلام مع العرب في كثير من الآيات والأحكام المنعقدة بالزواج والطلاق والميراث ، بل والعادات والأدات وهكذا ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذاً إلى اليمن أمره بأن يطالبهم بالتوحيد فقط ، ثم بعد ذلك بالصوم والصلاة ، ثم بالصيام ، لأنه أشق ، ولا يطالبهم بالزكاة إلا بعد أن يستقر الإسلام في أنفسهم ، فلكذلك شأن العادات التي كانوا يقدسونها . وما قصة تحريم الخمر بخافية على أحد ، لأن العرب كانوا مولعين بشراؤه فلم يجرمه الله عليهم من أول الأمر ، بل أخذ يرشدهم إلى المصار التي تنف عنه ، وبلغتهم إلى أن يقارنوا بين مصاره وبين ما يجدون فيه من لذة حتى يعلموا أنهم غاسرون بشراؤه ، وبعد ذلك حرّمه عليهم . فقوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » معناه يتدرج من الأحكام المؤقتة ما لا يناسب تطور الأمة ، ويثبت ما يناسب ذلك التطور ، « وهذه أم الكتاب » : الأصل الذي يريد أن تستقر عليه حال الأمة .

وهذا التفسير هو الذي اختاره الإمام علي كرم الله وجهه ، وهو الصواب فيما اعتقد . وذلك لأن مسائل القضاء والقدر لا ينبغي أن تكون مرتبطة بأعمال الناس وشؤونهم العامة والخاصة ، لأن الله تعالى خلق الأسباب والمسببات ، وربطها ببعضها وربطاً محكماً ، وكلف الناس بأن يعملوا لدينهم ودينهم على منهج خاص أتيهم به الشريعة وبيفته لهم أحسن بيان . فالمرضى الذي ينفعه دواء خاص لا يحمل له أن يتركه اعتياداً على القضاء والقدر ، والقادر على السعي على الرزق يحرم عليه أن يكون عالة على الناس اعتياداً على القضاء والقدر ، والذي يترك الأرض بدون حرث وغرث وسقى اعتياداً على القضاء والقدر ، يكون آثمًا جاهلاً بلا كلام . وهكذا كل الأسباب المشروعة النافعة ، يجب على الناس أن يستمسكوا بها ، ويحرم عليهم أن يستمسكوا بالقضاء والقدر في شأنها ، لأن القضاء والقدر محبوب لا علم لأحد به ، ولم يكلفنا الله تعالى بالبحث عنه وعن معرفته ، بل بالعكس قال لنا : لا ينفعكم الاحتجاج به لا في الدنيا

ولا في الآخرة . فإذا كان الاستمسك بالقضاء والقدر يدفع المرء الى العمل بهمة ونشاط وهو يقول أما لا أبالي بافتحام المخاطر في سبيل الله لأنه لا يصيبني إلا ما هو مكتوب ، فذلك حسن . أما إذا كان الاستمسك بالقضاء والقدر يحمل الناس على الزواكل وترك العمل ، فذلك قد نهى عنه الله ورسوله نهيا شديدا . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عليّ وزوجه فاطمة فسألهما : هل يقومان الليل ؟ فقال عليّ : رواحنا بيد الله إن شاء ففعلنا وإن شاء لا ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخرج وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » هذان الله الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

## فضيلة الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل دين حلق وحلق الاسلام الحياء » . وليس معنى الحياء أن يزوي لرجل عن الناس خجلا من الاتصال بهم ، وأن يصمت في المجلس نهيا منهم ، كل هذا يعتبر ضعفا لا حياء ، إنما الحياء أن لا يتأخر عما يتقدم في مثله الرجال ( حياء منه ) أن يقال من نفسه في حالة حاجة المجتمع إليه ، وأن لا يضعف من الإدلاء بمحبته في المجامع ( حياء منه ) أن يظن به عيبا أو حصرا ، وأن لا يأتي ما يخالف الكرامة والمروءة وشرف الرجولة ( حياء منه ) أن يتهم بالخسة والدناءة وسقوط الهممة . فالحياء هو هذا لا أن يظهر الرجل كأنه امرأة خيفة تشيح بوجهها عن كل من يقابلها ، وتحيد عن طريقها حتى لا يصادفها من اعتاد أن يسلك هذا الطريق من أهل الوجاهة .

وأحسن ما وقفنا عليه مما قاله الحكماء في الحياء قول أرسطو . « من استحي من الناس ولم يستحي من نفسه فلا قدر لنفسه عنده » .

لا جرم أن هذه من أبلغ الحكم ، فإن النفس الشريفة تمحل من نفسها أن تنصف ببعض صفات السوء ، ولولم يؤانس أحد منها ما بذل عليها . فهذه النفس واحدة من تقوس عالية كتب لها الشرف في الوجود ، والسمو في الحياة ، وإن كانت من الفقر بحيث لا يأتيها أحد فهي ليست في حاجة لأن يأتيها أحد ، ما دامت تشعر بأنها سامية ، وبأن تناسب الملاء الأعلى خلافة نفس ، وكرم قصد ، وبعد غاية .

## تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

- ٨ -

### المدرسة الثالثة :

تحدثنا فيما مضى عن أساطين المدرسة الثانية ، وأشبعنا القول ، بقدر ما تنسع له صفحات من مجلة سيارة ، في الليث بن سعد الفهمي ، أحد الأئمة المجتهدين ، وكبير الفقهاء المصريين . واليوم نتحدث عن المدرسة الثالثة ، ونعني بها مدرسة التابعين للأئمة المجتهدين ، والعهد بها يبدأ بعد فترة من منتصف القرن الثاني للهجرة ، وينتهي باستيلاء الفاطميين على مصر في أوائل القرن الرابع .

ظهر كثير من أساطين هذه المدرسة في عصر الأئمة المجتهدين أنفسهم ، وتلمذ بعضهم لهؤلاء الأئمة فعلا ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وكانوا يتفاوتون ، وتختلف حظوظهم من الفقه والنظر باختلاف ملكاتهم ، ودرجات استعدادهم ، وطرق دراستهم . فمنهم من كان عمله ينحصر في جمع أقوال إمامه ، وتمحيص الرواية عنه ، وحكاية مذهبه ، فإن راد على ذلك شيئا فلا تعدو زيادته أن تكون تخريجا ، أو ردأ لأصل ، أو تبينا لجمل ، أو تقريرا لمسألة من المسائل الكلية ؛ ومنهم من كان ينظر في أقوال إمامه فيرجح منها ويختار ، ويقوى بعضها ، ويضعف بعضها ؛ ومنهم من كان يطلق لنفسه العنان ، ويمنح عقله قسطا كبيرا من حرية الرأي والنظر ، فربما رفض قول إمامه ، وعارض مذهبه ، واحتقل برأى يراه .

ومعها يكن من شيء ، فقد استطاع الفقه الاسلامي أن يظهر على أيدي رجال هذه المدرسة ونظرائهم من رجال الامصار الأخرى بنحو قريب من الزمان استوى في مداها علما ناضجا له كل حصائص العلوم في صمود رقيها ونهضتها ، من دراسة يقطع لها نواحي العلماء ، وتحقيق يعكف عليه ذوو العقول المنازاة ، والافهام الجبارة ، وتأليف يتوفر له أرباب الأقلام السائلة ، فلو أن امرأ زعم أن هذا العصر هو العصر الذهبي في تاريخ الفقه الاسلامي لما كان في ذلك مبعدا عن الصواب . وناهيك بعصر يُزعم على العصور بأمنال ابن القاسم ، وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وابن وهب من فقهاء المالكية ، وأمنال الكسدي ، وابن أبي الليث ، والبيوطي ، والمزني ، والربيع المرادي من فقهاء الحنفية والشافعية !

ولقد كان المسجد الجامع يومئذ ، وهو مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أشبه بمنع صافي فياص يزدهم حواليه الزراد ، بل أشبه بجامعة علمية كأرق ما نعلم من الجامعات الحديثة ، تلتقي فيها الدراسات ، وتدور المحاورات ، ولتقصد الماخرات ، وتعرض الكتب والتأليف والرسائل ، وتنقد المذاهب ، وتناقش الآراء ، وتمحص المسائل ، في كنف من حرية الرأي ،

واستقلال الفكر ، وأدب البحث ، وعفة المقال ؛ فإذا أمضى الأمر في شيء من ذلك إلى خصومة فهي خصومة شريفة فإنها الوصول إلى الحق ، قد تشتد أحيانا وتعمق حتى ليخيل إليك أنها حرب عوان وهي حرب أي حرب ، ولكن جندها العلماء ، وقادتها الأئمة الأعلام ، وسهمها الحجة والبرهان !

كل أولئك قد عاد على الفقه الاسلامي بأوفر المنافع ، وتحتل التاريخ منه كموزا لو أنفق منها أهل الزمان مدى الزمان لأربت على الاتفاق !  
كيف وردت إلى مصر المذاهب الفقهية ؟

لقد عرفت مصر في ذلك العهد المذاهب الفقهية الثلاثة المشهورة ، أما مذهب ابن حنبل فلم تعرفه مصر إلا فيما بعد ؛ وقد ذكر السيوطي أنه لم يظهر ولم يسمع خبره بمصر إلا في القرن السابع . فأول من نقل مذهب الحنفية إلى مصر إسماعيل بن اليسع الكوفي ، وهو قاض ولاء المهدي قضاء مصر سنة ١٦٤ هـ وكان يرى رأي أبي حنيفة في إنطال الأحباس « الأوقاف » ، وكان الميث بن سعد يومئذ حيا ، وهو يرى صحة الأوقاف ، وأهل مصر جميعا على هذا الرأي لا يحبون جدالا فيه أو مرءا ، فثقل عليهم هذا القاضي ، الذي يريد أن يحدث لهم أحكاما لا يعرفونها ، فدبروا لعزله ، واستعانوا على ذلك بالليث بن سعد الذي كان يخالفه في رأيه ، والذي كان له من النفوذ والسلطان ما قد ذكرنا ، فكتب الليث إلى المهدي فعرله .

ولكن المذهب الحنفي لم يبطل بذلك من مصر ، فقد ترك هذا القاضي الحنفي في نقوس كثير من أهل العلم أثرا من فقهه ورأيه ، ثم حدث ظرف سياسي بعد ذلك في مصلحة هذا المذهب ، ذلك أن الرشيد أولع بأبي يوسف الفقيه صاحب أبي حنيفة ، وقربه إليه ، وولاه قضاءه ، وكان يستشير في أمر تولية القضاة بالأمصار ، فلا يشير إلا بقاض حنفي ، فكان لا يول يبلاد العراق وخراسان ومصر والشام إلا من كان حنفيا ، وانتشر بذلك مذهب أبي حنيفة في مصر كما انتشر في أمصار غيرها .

وإذا كان هذا الحظ قد صادف المذهب الحنفي فزوج له في مصر ، وحض عليه العامة والخاصة ، فقد نال المذهب المالكي حظوة من نوع آخر لدى المصريين ، ذلك أن طائفة من أبناء مصر النبغاء قد درسوا هذا المذهب وأجادوه ، وتعرف كثير منهم إلى صاحبه مالك بن أنس رضي الله عنه ، فرحلوا إليه ، وأخذوا عنه ، وبهرم علمه ، وملكتم مهابته ، فكانوا أداة لنشر مذهبه بين المصريين لا تقل عن الأداة الرسمية التي كان لها بعض الشأن في الترويج لمذهب الحنفية . فن هؤلاء عثمان بن الحكم الجذامي أول من أدخل علم مالك إلى مصر ، والذي قيل إنه لم تنبت مصر أفضل منه ، وهو فقيه محدث من أصحاب مالك ، روى عنه وعن موسى بن عقبة ، وروى عنه الليث ، وابن وهب ، ورشيد بن سعد ، وتوفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ .

ومنهم بطل المالكية ومحدثهم عبد الرحمن بن القاسم ، الفقيه المصري البارز ، الذي صاحب مالكا عشرين سنة ، وقال فيه مالك : « لم أر مثله ، هو جراب مملوء مسكا » ١ وحسبك أن المالكية لا يصفون قولا من أقوال أئمتهم بأنه المعتمد في المذهب إلا قول ابن القاسم ٢ والناس يختلفون في ابن القاسم ، فمنهم من يعده مقلدا لمالك ، متبعا في الفقه أصول مذهبه ؛ ومنهم من يرفعه إلى درجة الاجتهاد المطلق ؛ وقد غالى بعضهم في ذلك حتى قال : إن المالكية في الحقيقة قاصميون ٣ والحق أن ابن القاسم مجتهد ولكن في حدود مذهب الإمام مالك وعلى طريقته ، وإن رجلا يصاحب إمامه عشرين عاما كاملة لا بد أن يكون قد تأثر به إلى أبعد حدود التأثر مع ماء قوة النظر فيه ، ولذلك يعد بعض المالكية الخلاف بينهما سيرا متقاربا ، بل يابون أن يعدوا بينهما خلافا حقيقيا إلا في أربع مسائل ذكرها ابن ناجي في كتاب الزكاة من شرح المدونة . وتوفي ابن القاسم سنة ١٩٩ هـ .

وقد نبغ في المصريين إمام آخر يعد ثاني اثنين أولهما ابن القاسم : وهو أشهب بن عبدالعزيز ابن داود القيسي ، فقه مالك والمدني والمصري ، واتته إلى الرياسة بمصر بعد ابن القاسم ، وهما بالنسبة لمالك كمحمد بن الحسن ، وأبي يوسف بالنسبة لأبي حنيفة . توفي أشهب سنة ٢٠٤ هـ ومن كبار المالكية في مصر لذلك العهد : عبد الله بن وهب ، ولعل القراء يذكرون أننا عندناه من قبل في رجال المدرسة الثانية وترجنا له بينهم ، لأنه كان من أوائل المشتغلين بجمع الحديث وتدوينه ، فهو ذو شخصيتين إحداهما شخصية المحدث ، والأخرى شخصية الفقيه ، ويظهر أن أولاهما قد طغت على الأخرى حتى إنك لتراه في فقهه راوية أكثر منه فقيها ، وإذا كان مالك يكتب إليه . « إلى فقيه مصر » أو « إلى أبي محمد الملقب » فإنه كان يلجأ إلى هذا الذي أثبتناه فيقول فيه : إنه عالم ، وإنه إمام ، وإنه ديوان العلم ، على حين كان يقول في ابن القاسم : إنه فقيه ٤

هؤلاء بعض الذين نشروا فقه مالك بين المصريين ؛ وقد اشتد الخلاف بين الحنفية والمالكية ، ووجد كل مذهب أنصارا له من المصريين يؤيدونه ويشئون فقهه بين العامة ، ويمقدون له الخلق في المسجد الجامع .

وفي تلك الأثناء لمع في بلاد الحجاز وبلاد العراق نجم ثاقب ، شرق ذكره في الآفاق وغرب ، ذلك هو الإمام الشافعي الأديب : محمد بن إدريس الشافعي .

كان رضى الله عنه تلميذا لمالك ، وكان يعرف مقامه بين أهل المدينة ، ومقدار انتشار مذهبه في أهل الحجاز ، فلم يطمع في نشر مذهبه بينهم .

وكان إذا رحل إلى العراق وجد كل شيء فيها إلى جانب المذهب الحنفي ، فأبو حنيفة



مراقى بين عراقيين ، والعراقيون يومئذ مصدر القوة والجاه والسلطان ، فأنى له أن يزاحم  
بمنكبيه في هذا المزدحم ؟

ولكنه كان إذا نظر الى مصر وجد كل شيء فيها يدعو إليها ، فصر بله تكريم الوافدين  
وتحتفل بالواردين ، وأخبار الخلاف بين فقهاء تدرى إليه ، وتلاميذه من المصريين يزبون له  
الرحيل إليها ، فلتكن مصر إداً مثابته ومقصد آماله ، وليرحل إليها كما أشار عليه تلاميذه  
لعل الله أن يجمع به بين المتخالفين ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويفتح له بذلك فتحاً ميبناً .

قال الزعفراني : سأل الشافعي الربيع عن أهل مصر قبل أن يرحل إليهم ، فقال له الربيع :  
ها فرقنان : فرقة مالت الى قول مالك وناضلت عنه ، وفرقة مالت الى قول أبي حنيفة  
وناضلت عنه ! فقال الشافعي : أرجو أن أقدم الى مصر إن شاء الله فأتيهم بشيء أشغلهم به  
عن القولين جميعاً . فلما أراد الخروج الى مصر أشد لنفسه :

أخى أرى نفسي تنشق الى مصر ومن دونها أرض المهامير والفقير  
فوالله ما أدري ألتفوز والخنى أساق إليها ؟ أم أساق الى قبري ؟

محمد محمد المرنى

قال الزعفراني : فوالله لقد سبق إليهما جميعاً ! !

المدرس بكلية الشريعة

« يتبع »

## توفية الدين

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله » .  
وقال حكيم الدين : يجمع كل نؤس : م باليل وذل بالنهار ، وهو ساجور الله في أرضه ،  
فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً في عنقه .

وعن عمرو بن دينار قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريت إن قتلت شهيداً  
فأين أنا ؟ قال رسول الله : في الجنة . ثم قال : قال لي حبريل : إن لم يكن عليه دين .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه : شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة رجل  
من الأنصار ، فقال : عليه دين ؟ قالوا نعم ، فرجع ، فقال على رضى الله عنه : أنا ضامن يا رسول  
الله . فقال له النبي : يا على فك الله رقبته كما فككت عن أخيك المسلم ، ما من رجل يفك  
عن رجل دينه إلا فك الله رهبته يوم القيامة !

نقول : إن هذا التشديد في الأمور المالية من مظنة التسامح فيها ، يدل العالم الاجتماعي  
أن هذا الدين أسس على علم عال ، وحكمة سامية . فإن الترابط الاجتماعي لا يقوم إلا على التعاون ،  
فإن لم يتم هذا التعاون على الوفاء بالحقوق ، تراخت أواخيه ، وضعف الاجتماع .

## تاريخ علم التفسير

نماذج من التفسير في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

أشرنا في المقالين السابقين إلى أن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ليس على النمط الذي نعلمه من تفسير العلماء على اختلاف طبقاتهم ؛ فهو بين الناسخ والمنسوخ ، ويخصص العام ، ويقيد المطلق . . . الخ . ومن النماذج التي نوردتها يتبين ذلك جليا .

انظر إلى المثال رقم (١) الآتي تجد الآية الكريمة أنزلت أول ما أنزلت ، عامة ، فلما شك ابن أم مكتوم ضرارته نزل الاستثناء يخصص العام ، على إحدى الروايات في ذلك ؛ أو نزلت آية فيها النص على التخصيص مكان الآية العامة ، على إحدى الروايات . ومعلوم أن تخصيص العام في آية قرآنية بآية ، أو زول آية مكان آية ، لا يكون إلا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ هذا من شأن الوحي وهو مختص به صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض الأصوليين أن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، ويرى أكثرهم أن السنة ، ولو كانت غير متواترة ، تخصصه ، إلى آخر ما دونوه في كتبهم ، واستدلوا عليه .

وإنما الذي نريد أن ننبه عليه هنا أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وبيانه ، ليس كتفسير علماء الطبقات ، لأجل أن يتضح لنا عند المقارنة مقدار الفروق بين التفسير ، والعوامل التي أدت إلى ذلك .

وإذا نظرت إلى المثال رقم (٢) رأيت فيه كذلك تخصيص العام ، أو بيان الجمل . وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم في تنفيذ القصص حيث تمسك به أصحاب الحق ، انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس : كتاب الله القصص » ثم أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول الأرض حين رضى به أصحاب الحق .

وهكذا إذا أمعنت النظر فيما نوردته من النماذج حصلت عندك صورة صحيحة لتفريع الأحكام وبيانها وتقريرها ، خصوصا إذا كنت على علم مما قرره علماء الأصول .

واليك النماذج :

١ — قول الله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله » :

لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوا فلانا (١) — لأحد كتاب الوحي —

(١) هو سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه كما في بعض الروايات .

لجأه ومعه الدواة والكتف ، فقال : اكتب « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » . فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله أنا ضرير ، فأنزلت مكانها . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » .

ويروي ابن جريج قال : أخبرني عبد الكريم أن مقصدا مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس رضي الله عنهما أخبره : لا يستوى القاعدون من المؤمنين : عن بدر ، والحارثون إلى بدر .

فأنت ترى أن الآية أول ما أنزلت كان نصها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » ، وقد أملاها النبي صلى الله عليه وسلم على سيدنا زيد بن ثابت بهذا النص ، فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته استثنى الله من أصيب بالعص من حكم العام ، رحمة منه بالعباد ، ونزلت آية أخرى مكان هذه الآية تنص على الاستثناء على ما يفهم من قول الراوي : « فأنزلت مكانها » . وبمض الروايات الأخرى تنص على أن الذي نزل بعد الشكوى إنما هو الاستثناء فقط ، كرواية البخاري بسنده عن ابن شهاب ، قال ابن شهاب : حدثني مهبل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتى حلت إلى جنبه ، فأخبره أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » لجأه ابن أم مكتوم وهو يعلها على فقال : يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخذله على تخذي فتقلت على حتى خفت بأن ترض تغدي ، ثم سرى عنه : « غير أولى الضرر » . فهذه الرواية صريحة في أن الذي نزل بعد الشكوى هو الاستثناء فقط .

#### ٢ — قول الله تعالى : « والجروح قصاص » :

لما كسرت الربيع ، وهي عمه أنس بن مالك رضي الله عنه ، ثلجية حارية من الأنصار ، طلب القوم القصاص ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص ، فقال أنس بن المضر ، وهو عم أنس بن مالك : لا والله لا تكسر سننها يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس : كتاب الله القصاص ، فرضي القوم ، وقبلوا الأرض . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

#### ٣ — قول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وهدوا الصالحات حناح فيما طعموا » الآية :

عن أبي النعمان قال : كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة فأنزلت الخمر ، فأمر مناديا فنادى ، فقال أبو طلحة : أخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لي : اذهب فهرقها . قال : فجرت في سلك المدينة . قال : وكان

حرم يومئذ التضييع . فقال بعض القوم : قتل قوم وهم في بطونهم ؟ قال : فأنزل الله :  
« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح » الآية .

٤ — قول الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فقتل على ابن أخيه  
الحُر بن قيس ، وكان من المفردين يذنبهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته  
كهمولا كانوا أو شبابا . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي  
عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل  
عليه قال هي يا ابن الخطأب ! فوالله ما تعطينا الحرل ، ولا تحمك بيننا بالعدل . فغضب عمر  
حتى لم أن يوقع به . فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم :  
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها  
عمر حين تلاها عليه ، وكان وثاقا عند كتاب الله . وعن ابن الزبير في معنى الآية قال : أمر الله  
نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

٥ — قول الله تعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة » :

روى البخاري بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاءه فقال : يا أبا عبد الرحمن  
ألا تسمع ما ذكره الله في كتابه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » الآية ، فما يجمعك  
بأن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي أغير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن  
أغير بهذه الآية التي يقول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا » إلى آخر الآية . قال : فأن  
الله يقول : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة » . قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى  
الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن في دينه ، إما يقتلونه وإما يوثقونه ،  
حتى كثر الإسلام فلم تكس فتنة . فلما رأى أنه لا يوافق فيه يريد ، قال : فاقولك في علي وعثمان ؟  
قال ابن عمر : ما قولك في علي وعثمان ؟ أما عثمان فكان الله قد عنا عنه فكرهتم أن يعفو عنه ،  
وأما علي فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختمته ، وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون .

وروى البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال : خرج علينا أو إلينا ابن عمر ، فقال  
رجل : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ قال : وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم  
يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك ؟

## الكلام والمتكلمون

- ١٠ -

نضر الدين الرازي :

نسبه وحياته : هو الامام أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الكري المعروف بابن الخطيب الملقب بنضر الدين الرازي ، وهو ينتمي الى أسرة عربية هريقة .

ولد هذا الامام في مدينة الري بفارس سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٩ م . نشأ في بيت علم وأدب ، فولده الامام ضياء الدين عمر - خطيب الري - كان على جانب عظيم من العلم ، برع في علم الأصول والمذهب ، وأخذ عنه الكثيرون . ويذكر ابن أبي أصيبعة أن له تصانيف عدة في الأصول والوعظ وغير ذلك . درس الرازي من العلوم والفنون ما عرف في عصره وكتب فيها .

اشتغل في مبادئ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ، ثم تنقل بين الحيرة وخوارزم وغيرها من المدن والأماكن ، ودرس العلوم الإسلامية دراسة عميقة متبصرة ، حتى لقبه معاصروه بشيخ الإسلام لعلمه الواسع وتقواه . وكان شافعي المذهب . ثم قصد الكمال السمعاني واختلف إليه مدة ، ثم عاد الى الري ، فألم بالطب ، وتبحر في الأدب ، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما ، وكان من أهل الدين والتصوف . كان يعظ في بلدة الري وغيرها من المدن فيلقى للناس أذنين الحكمة وأزاهيرها ، فيبكي كثيرا ، ويبكي الناس كثيرا .

غير أنه لم يكتف بهذه العلوم الدائمة في عصره ، واشتاق الى الاشتغال بالعلوم العقلية ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، فتردد على محمد الدين الجبلي أحد أصحاب محمد بن يحيى . ولما رحل الجبلي الى صراغة ليدرس بها ، صحبه نضر الدين وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة . ويقال : إنه حفظ «الشامل» للإمام الحرمين ، ثم ارتحل الى خراسان ، وفيها وقف على مؤلفات الفارابي وابن سينا وعلم منها علما كثيرا (١) . وظل طاكفا على دراسة الحكمة حتى فاق فيها أهل عصره .

ولما اكتمل علمه ، ترك الري وعبر الى خوارزم ، وهناك جادل المعتزلة فأخرج من البلدة ، فقصدها وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له في خوارزم ، فعاد الى الري . . . في هراة لقب الرازي بشيخ الإسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكان بينه وبين الكرامية أحاديث جدلية عنيفة ، يتهمهم بالإلحاد ويتهمونهم ، واستمرت العداوة

(١) انظر صفحة ١٩٠ من النظمي .

بينه وبينهم حتى قيل : إنهم مسموم ، وبلغ من أسرار الحشوية أن كتبوا له رقعا فيها أنواع السيئات يضعونها على منبره .

وفي أواخر أيامه ، وقد بلغ أوج كماله العلمي ، حدث له ما حدث لأبي حامد الغزالي من قتل ، فقلت ثقته بالعقل الانساني وأحس لمجزه ، وأدرك تماما أنه لا يستطيع الاحاطة بالوجود في ذاته ، فأدركته حالة صوفية كانت تقتابه منها في بعض مجالس وعظه نوبات فيصرخ مستغيثا . وعط يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري وحصلت له حال ، فاستغاث : « يا سلطان العالم ، لا سلطانك يبق ، ولا تلبس الرازي ببق » . قال ابن الصلاح : أخبرني القطب الطوفاني مرتين أنه سمع نحر الدين الرازي يقول : « يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى » . وقال في كتابه الذي صفه في أقسام الذات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عبلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن . أقرأ في التنزيه : « وآله الغنى وأنتم المقراء » ، وقوله تعالى : « ليس كنهه شيء » ، و « قل هو الله أحد » ، وأقرأ في الإناس : « الرحمن على العرش استوى » ، « يخافون ربهم من فوقهم » ، و « إليه يصعد الكلم الطيب » ، وأقرأ في أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » ، ثم أقول وأقول من صميم القلب ، من داخل الروح : إني مقر بأن كل ما هو الأكل والأفضل الأعظم الأجل فهو لك ، وكل ما هو هيب ونقص فانت متزه عنه » .

مرض الرازي وأيقن أنه لا محالة مائت ، ففي الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٦ هـ مت وستائة — ١٢٠٦ م أمل على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الأصفهاني وصية تعتبر غاية مثلى للأتقياء ، جاء فيها :

« اعلما أنى كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء شيئا ، لا أنف على كنية ولا كيفية ، سواء كان حقا أو باطلا ، أو غنا أو محينا ، إلا أن الذى نظرت في الكتب المتبعة لى أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير متزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة . ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسمي في تسليم المظنة والجلال بالسكينة لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمتناقضات ، وما ذلك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المصايق العميقة والمناهج الخفية . ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرية من وجوب وجوده ووحدته وبرائه عن الشركاء في القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذلك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به . وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المنطق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو . والذى لم يكن كذلك ، أقول : يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . فكل ما أسره قلبى أو خطر ببالى

فأستشهد وأقول : إن علمت مني أنني ما سميت إلا في تقديس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصديق ، فلتكن رحمتك مع قصدي ، لا مع حاصل ، فذلك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تصابق الضعيف الواقع في زلة . فأغني وارحمني ، واستر زلتي ، وأمح حوتتي ، يا من لا يزيد ملكه عرفان المارفين ، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين . وأقول ديني متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتاني القرآن العظيم ، ونعويلى في طلب الدين عليهما .

مؤلفاته :

للمرازي مؤلفات لو حاولنا أن نحللها هنا لخرجنا عن خطة الإيجاز التي وممهاها لا تقسنا في البحور المتعلقة بالمتكلمين من هذه الفصول . ولذا نحن بكتبت فيها بهذه الإشارة الوحيدة ، فنقرر أنها كانت بمثابة موسوعة ضخمة لمعلوم عصره ، إذ اشتملت على الفلسفة والتوحيد وتفسير القرآن والفقه والأدب والشعر والهندسة والطب . وقد نالت كنبه من النجاح والتأثير في أهل عصره جدا جعلها تنسبهم أكثر مؤلفات من سبقوه .

حافظ الدين النسفي — حياته ومنتجاته :

ولد حافظ الدين أبو البركات حميد الله بن أحمد بن محمود النسفي في نسف ، ولا يمصرف المؤرخون متى ولد بالضبط ، وإنما يؤكدون أنه لما شب تلقى العلم عن شمس الأئمة الكردي وعن حميد الدين الضرير ، وأنه بعد أن أتم دراسته عين أستاذا في المدرسة القطبية السلطانية بكرمان ، وأنه ارتحل إلى بغداد ثم لم يلبث أن قادرها . وفي أثناء سفره توفي ودفن في خزرستان في سنة ٧١٠ هـ — ١٣١٠ م .

أما مؤلفاته فأهم ما بقى منها ما يلي :

(١) كتاب « المنار في أصول الفقه » . وقد شرحه المؤلف نفسه في كتاب سماه : « كشف الأسرار » .

(٢) كتاب « الوافي » وقد شرحه أيضا بكتاب سماه : « الكافي » .

(٣) « كثر الحقائق » وهو بعض ما في كتاب « الوافي » . وقد تلقى عليه تلميذه ابن الساماني بعض فصوله في كرمان في سنة ٦٨٣ هـ . وهذا الكتاب لا يزال إلى الآن يدرس في دمشق وفي الجامعة الأزهرية ، وله شروح كثيرة أهمها ما يلي :

(أ) « تبين الحقائق » للزيلعي المتوفى في سنة ٧٤٣ هـ — ١٣٤٢ . أو ١٣٤٣ م .  
(ب) « رمز الحقائق » للعبسي المتوفى في سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م . (ج) « تبين الحقائق » لملا مسكين الذي كتبه في سنة ٨١١ هـ — ١٤٠٨ أو ١٤٠٩ م . (د) « توفيق الرحمن » للطائي المتوفى في سنة ١٠٩٢ هـ — ١٧٧٨ م .

( ٤ ) « العمدة في أصول الدين » وقد عرف أيضا بعنوان : « المنار في أصول الدين » . وقد نشره في أوروبا « كوريتون » في سنة ١٨٤٣ م . وقد سلك فيه مؤلفه نهج نجم الدين النسي في العقائد النفسية ، ثم شرحه في كتاب عنوانه : « الاعتماد في الاعتقاد » . وهذه المناسبة ينبغي أن نشير إلى أن النسي مؤلف العقائد ليس هو النسي المفسر كما تعتقد الكثيرة المطلقة من المتعلمين .

هذه هي أهم مؤلفاته الموضوعية . أما شروحه فأهمها ما يأتي :

( ٥ ) « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » في تفسير القرآن .

( ٦ ) شرح كتاب « النافع » لناصر الدين السمرقندي .

( ٧ ) « المستقصى » في شرح منظومة نجم الدين النسي .

هذا ، ويؤكد الأستاذ « هيفينج » في دائرة المعارف الإسلامية أن أبا البركات النسي لم يكتب شرحا للهداية كما زعم الحاج خليفة .

الدكتور محمد غنوي

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

## العمل للدنيا عبادة

قال المأثورون : أمور الدنيا أربعة . إمارة ، وتجارة ، وصناعة ، وزراعة ؛ فمن لم يكن أحد أهلها كان كلاً على الناس .

وقال حكيم : قوام الدنيا والدين العلم والكسب ؛ فمن رفضهما فقال أبتغي الزهد لا العلم ، والنوكل لا الكسب ، وقع في الجهل والطمع .

وقال غيره وهو مستند من أحاديث نبوية كثيرة : بذل الجهد في طلب الحلال ، وقلة الخواجج إلى الناس ، أفضل العبادة .

وقد قال أحد الشعراء :

ليس التصوف أن يلافيك الفتى وعليه من لبس الجوس مرقع

بطرائق سود وببيض لفتت وكأنه فيه خراب أبقع

وقال غيره في المراءاة بالتصوف :

عجبت من شيوخ ومن زهده يذكر النوار وأهواها

يكره أن يشرب في فضا ويشرب القضا إن نالها

وقال الحسن البصري : إن قوما جعلوا تواضعهم في ثيابهم ، وكبرهم في صدورهم ، حتى لصاحب المدرعة بمدرعته ، أشد فرحا من صاحب المطرقة بمطرقة . ( المطرف رداء من حرير )



## التجديد والمجددون في الاسلام

### الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات في مذهبه

أين نشأ مذهب أبي حنيفة ؟ ما هي البلاد التي انتشر بها ؟ ما هي عوامل انتشاره ؟  
نشأ مذهب أبي حنيفة بالكوفة موطن الامام ، ثم شاع في بلاد بعيدة ، وإذا قدرنا  
عدد المسلمين على ظهر الكرة الأرضية بأربعمائة مليون نسمة ، فأكثر من نصف هذا العدد  
يقتدى بالامام أبي حنيفة .

من عوامل انتشار هذا المذهب أنه لما قام الرشيد في الخلافة ، وولى القضاء الامام  
أبا يوسف صاحب أبي حنيفة ، أصبحت تولية القضاة بيده ، فلم يكن يولى ببلاد العراق  
وخراسان والشام ومصر الى أقصى إفريقية إلا من أشار به ، وكان لا يولى إلا أصحابه  
والمنتسبين الى مذهبه ، فشاع المذهب الحنفي في هذه البلاد شيوعاً عظيماً ، كما شاع المذهب  
المالكي بالأندلس بسبب تمكن يحيى بن يحيى بن كثير من الحكم ، ولذلك يقول ابن حزم :  
مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : الحنفي بالشرق ، والمالكي بالأندلس .  
ويقول المقرئ : لم يزل المذهب الحنفي غالباً على هذه البلاد لا يثار الخلفاء العباسيين  
الحنفية بالقضاء ، ولقد طلع من تمسكهم به في القضاء أن القادر بالله امتنعت مرة أبا العباس  
أحمد بن محمد البارزي الشافعي عن أبي محمد الأكفاني الحنفي قاضي بغداد بأشارة أبي حامد  
الاسفراييني ، من غير رضا الأكفاني ، وكتب أبو حامد المذكور الى السلطان محمود بن سبكتكين  
أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية ، فاشتهر ذلك وصار أهل بغداد بهذا حزبين  
نارت بينهما الفتن ، فاضطر الخليفة الى صرف البارزي ، وأعاد الأمر الى حقه ، وأجراه على قديم  
وصيه ، وحمل الحنفية على ما كانوا عليه من العناية والكرامة ، وخلع على الأكفاني ، وانقطع  
أبو حامد عن دار الخلافة ، وكان الغالب على إفريقية — والمراد بها ما يشمل طرابلس وتونس  
والجزائر — السنن والآثار ، الى أن قدم عبد الله بن فروخ بمذهب أبي حنيفة ، ثم غلب عليها  
لما ولي قضاءها أسد بن الفرات كما قال المقرئ ، ثم بقي غالباً عليها حتى حمل المميز بن باديس  
أهلها على مذهب مالك ، وهو الغالب الى اليوم على أهلها إلا قليلاً منهم يقلدون المذهب الحنفي  
كما قال ابن الأثير .

ويستفاد من معتبرات الكتب أن أسد بن الفرات خرج من القيروان الى الشرق سنة  
اثنتين وسبعين ومائة ، فسمع الموطأ على مالك بالمدينة ، وكان أصحاب مالك : ابن القاسم

وغيره ، يحملون أسدا على سؤال مالك عن مسائل ، وكان مالك رضى الله تعالى عنه يُلطف مع أسد ويحييه عن مسأله دوسم لكونه رجل اليه من بلد بعيد ؛ لكن لما أكثر أسد من السؤال أخذ مالك يتضيق من ذلك حتى قال له يوما : « سلسلة بنت سلسلة ، إذا كان كذا كان كذا » ، إن أردت هذا فعليك بالعراق ! » وفي رواية أخرى : أنه سأل مالكا يوما عن مسألة فأجابها عنها ، فزاد أسد في السؤال ، فأجابها ، ثم زاده . فقال له مالك : حسبك يا مغربي إن أردت هذا فعليك بالعراق ! فوجد أسد أن الأمر يطول عليه عند مالك ، ويفوته ما يرغب فيه من لقاء الرجال والرواية عنهم ، فرحل إلى العراق وجمع من أصحاب أبي حنيفة ، منهم أبو يوسف ، وأسد بن عمرو البجلي ، ومحمد بن الحسن ، وكان أكثر اختلافه إلى محمد بن الحسن ، ولما حضر عنده قال له : إني غريب قليل التفقه ، والسماع منك نزر ، والطلبة عندك كثيرون ، فما حيلتي ؟ فقال له محمد : اجمع مع العراقيين بالبحر ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتنبت عندي وأسمعك . قال أسد : وكنت أبيت عنده ، ويتزل إلى ويجعل بين يديه قدحا فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل وراى نعت ملأ يده ونصع على وجهي فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأى حتى أثبت على ما أريد من السماع عليه ؛ وكان محمد بن الحسن يتعهد أسدا بالتفقه بعد أن علم أن نفقته نفدت ، وسعى في نفقته عندما أراد الانصراف من العراق ، إلى آخر ما هو مسطر في معالم الإيمان .

ولما انصرف أسد من العراق بعد أن زقه محمد العلم زقا ، نشر مذهب أبي حنيفة ومالك بأفريقية ، ثم اقتصر على نشر مذهب أبي حنيفة ، فانتشر في ديار المغرب إلى الأندلس ، حتى أصبح الأكثرون في أفريقية على مذهب أبي حنيفة إلى عهد ابن باديس .

وأسد بن الفرات هذا هو فاضل صقلية وناسر الإسلام بها ومذهب أبي حنيفة ، وتوفي سنة ٢٩٣ هـ .

ولقد شرح المقدسى الصلة بين مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك وقال إن أهل المغرب يعتبرون هذين المذهبين بحرين ، ويعتبرون الأخاء الصادق بين الفريقين المتمذهبين بهذين المذهبين ، حتى قال بعض كبار الفقهاء من المالكية : إذا لم تكن في مسألة رواية عن مالك يؤخذ بقول أبي حنيفة فيها ، بل حصر بعضهم الخلاف بين هذين المذهبين في اثنتين وثلاثين مسألة . فالأئمة المنبوعون كآسرة واحدة ، ترى مالكا يذكر أبا حنيفة في العلم في المسجد النبوي وينتفع كل بما عند الآخر ، ويثنى مالك على أبي حنيفة ويقول : لم أر مثله . ومحمد بن الحسن يسمع الموطأ من مالك ، والشافعي يسمع الموطأ على مالك ويتفقه على محمد بن الحسن ، وأحمد ينفقه عند أبي يوسف والشافعي وينتفع بكاتب محمد بن الحسن ؛ وهذا نالوا بركة العلم ؛ وأما ما يروى من كلام بعضهم في بعض فأكاذيب لقمقها المفرضون ، وانخدع بها

من اتخذ من البسطاء ، وإذا راجعت كتب بلوغ الاماني ، وحدث المذاهب ، وكلام الباجي في شرحه على حديث الداء المعال من المستقى شرح الموطأ، وجدت ما يكتفي في هذا ويشفي .  
وكان أهل مصر لا يعرفون مذهب أبي حنيفة حتى ولي قضاءها اسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل المهدي سنة ١٦٤ هـ وهو أول قاض حنفي بمصر ؛ وأول من أدخل مذهب أبي حنيفة إليها ، وكان من خيرة القضاة ، إلا أنه كان يذهب الى إبطال الاحباس « الاوقاف » فقتل أمره على أهل مصر وقالوا : أحدث لنا أحكاماً لا نعرفها بلدنا فغزله المهدي كما قال ابن حجر وغيره .

ثم شاع بمصر المذهب الحنفي بعد ذلك مدة تمكن العباسيين ، إلا أن القضاء بها لم يكن مقصوراً على الحنفية ، بل كان يتولاه الحنفية تارة ، والمالكية أو الشافعية تارة أخرى كما قال المقرئ ، الى أن استولى عليها الفاطميون فأظهروا مذهب الشيعة الاثنا عشرية ، وولوا القضاة منهم ، فقوى مذهبهم ، إلا أنه لم يقض على المذاهب السنية في العبادات لأنهم كانوا يبيحون غالباً للرعية التمسك بما يشاءون من المذاهب . وكان مذهب مالك والشافعي وأحمد ظاهر الشعائر في مملكتهم بخلاف المذهب الحنفي فكان الفاطميون يفضون منه لأنه كان مذهب الدولة العباسية الماثلة لهم كما قال بعض المحققين .

ولما قامت الدولة الأيوبية بمصر قصت على التشيع فيها ، وأنشأت المدارس للشافعية والمالكية ، وكان نور الدين الشهيد حنفياً ، فنشر مذهب أبي حنيفة ببلاد الشام ، وسما كثرت الحنمية بمصر ، وقدم إليها عدة من بلاد المشرق فبنى لهم صلاح الدين الأيوبي المدرسة السيوفية بالقاهرة ، وما زال مذهب أبي حنيفة ينتشر ويقوى ، حتى استولت الدولة العثمانية على مصر فحصر القضاء في الحنفية ، وأصبح المذهب الحنفي هو مذهب أمراء الدولة وخاصتها ، ورغب كثيرون من أهل العلم فيه لتولي القضاء ، ولم يرل مذهب أبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة المصرية الى يومنا هذا ، وبه يعق ويقضى ؛ وقد ملا طباقي الأرض ؛ فالك تجده منتشرا الآن بين المسلمين في جميع قارات الدنيا على قلة في بعضها وكثرة في بعضها الآخر ، وقد نفع الله به الملايين من المسلمين ، فجزى الله أبا حنيفة عنهم خير الجراء .

ومن العوامل التي أدت الى سعة انتشار مذهب أبي حنيفة أيضاً زيادة رغبة الناس فيه ، لأنه أوسع المذاهب ، وأكثرها يسراً ، وأيسرها للجهل استنباطاً ، لاشتغاله على الأصول والقواعد وعلل الأحكام الشرعية التي علل الشارع بها الحكم ، وأداره عليها وجوداً وعندما ونصبها أمارات عليه ولا سيما في المعاملات التي القصد منها مصالح الخلق ، وعمارة الكون ؟

السيد عفيفي

# حَيَاتُ حَكِيمِ الْأَنْبِيَاءِ

## عبد الله بن عمرو

ذكرنا في المقال السابق أن عبد الله بن عمرو بن العاص تميز عن أقرانه من نوابغ الاسلام الأولين بفزارة علمه ، وسعة اطلاعه على السنة النبوية ، وحفظ حديث الرسول ووقائمه ؛ وعرفنا أن الذي ساعد على ذلك معرفته بالكتابة ، فكان يحفظ ويكتب ، وكان غيره يحفظ ولا يكتب ، كما أخبر بذلك أبو هريرة رضي الله عنه ؛ وعرفنا أن اطلاعه تمدى حدود القرآن والسنة الى النوراة بلغات أهلها ، فأصاب من ذلك علما تفرد به ، كان يجدر بعورحى الاسلام ورجال الحديث ، وكاتبى السيرة النبوية ، وعلماء التفسير ، أن يجملوا علم عبد الله بن عمرو وأضرابه من الثقات الأثبات ميزانا لم يعلم غيرهم من رواة أخبار التوراة ، ومقياسا لروايات الذين أكثروا من الحديث عنها من أمثال كعب الأحبار ، وتوف السكالي ، ووهب بن منبه ، فإن منزلة عبد الله بن عمرو من الصدق والإتقان والتمقه في الدين ترفعه عن منازل الارتباب ؛ ولو أن العلماء تهبوا الى مثل هذا عند القدم لأمكن تصفية التاريخ الاسلامي من هذه الأقاصيص الاسرائيلية المهالة ، التي ملأت كتب التفسير والسيرة وشروح الحديث ؛ وإذا فلت هذا فلا أقل من أن يجعل الباحثون أحاديث عبد الله وأضرابه بعد التثبت من صحة روايتها وسبيلها لا متعان هذه القصص المسطورة في الكتب .

وقد انضافت الى ميزة عبد الله بن عمرو العلمية ميزة أخرى لا تقل عنها أثرا في حياته ، تلك هي شدته على نفسه في العبادة ، فقد كان رضي الله عنه من عباده عادلة الاسلام ، أخذ نفسه بأحزم ما يأخذ به أنفسهم العابدون ، حتى ضجر له أبوه ، ورثى لحاله ، واحتال لإخراجه من موقعه ، فزوجه بأمرأة ذات جمال وحسب عليها تأخذ من نفسه مكانا يصرفه بعض الشيء عن هذا الجهد الذي سار اليه من إقامة الصيام بالنهار والقيام بالليل ، فلم تؤثر فيه شيئا ، وشكاه أبوه الى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ روى البخاري في صحيحه عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : « أنكحني أبى امرأة ذات حسب ، فكان يشهد كسسته فيسألها عن بعلي ، فتقول : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا ، ولم يفتش لنا كفتنا منذ أتيتنا ؛ فلما طال ذلك عليه ، ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إلقني به ، فلقينته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟ قال : كل يوم ، قال : وكيف تحتم ؟ قال : كل ليلة ، قال : صم في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر ، قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة ،

قال : قلت . أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطار يومين ، وصم يوما ، قال : قلت . أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم أفضل الصوم ، صوم داود : صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليال مرة ، فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وذلك أني كبرت وضعت . قال مجاهد : فكان يقرأ السبع من القرآن بالنهار على بعض أهله ، والذي يقرؤه يعمره من النهار ليكون أحف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطار أياما وأحصى ، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئا فارق النبي صلى الله عليه وسلم عليه .

هذا الأدب النبوي الكريم رفع عن الأمة الإسلامية غشاوة الرهينة التي أوشكت أن تنفشي فيما بين كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد هم بعضهم بأمر عظيم يصيب الأمة في ذريتها ولسانها ، ولكن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم أدركتهم ، وفقهوا أن الشريعة لم تنزل لتعذيبهم وإعماحت لتهديبهم ، فتواصوا بهذا الأدب الرحيم ، روى البخاري « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخى بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شألك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، وجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما ، فقال : كل ، قال : فإني صائم ، قال : ما أبا كل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، فقال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل ، قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ، فإني النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق سلمان .

عاش عبد الله بن عمرو بعيدا عن المتن السياسية ، لم يعرف له فيها انجاء خاص ، رغم ما كان لأبيه عمرو بن العاص من مكانة باعتباره من دهاة العرب وقواد المسلمين وأسرارهم ، حتى اشتد الخلاف بين علي ومعاوية ، وكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين يستدعيه ليكون من حزبه في رغائب وأطباع أعطاها له ، وظهر حينئذ عبد الله بن عمرو إلى جانب أبيه أولاً مستشاراً مأمعاً ، لا تميل به الدنيا ولا يستهويه السلطان ، ذكر المؤرخون : أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين استشار ابنه عبد الله وعجدا ، وقال : يا بني إنه كان مني في أمر عثمان فلتات فلم أسقلها بعد ، وقد كان من هربي بنفسى حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عني ، وقد قدم علي معاوية جبري بيعة علي ، وقد كتب إلى معاوية بالتقدم عليه ، فما تريان ؟ فقال عبد الله : « أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده كذلك ، وقتل عثمان وأنت غائب عنه ، فأقم في منزلك فلست بمجولاً خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قالية ، وسنهلكان فنتسويان فيها جميعا » . وقال عبد الله : أرى أنك شيخ قریش وصاحب أمرها ، فإن يصرم هذا الأمر وأنت فيه حامل يصفر أمرك ،

فالحق: بجماعة أهل الشام ، وأطلب يدم عثمان فانك به تستقيل الى بنى أمية » . فقال عمرو : « أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا عبد فقد أمرتنى بما هو خير لى فى دنياى » .

وقد أخذ عمرو يرأى عهد وانحاز الى معاوية فى حرب على ، ولم يقو عبد الله على مخالفة أبيه ، بل وقف الى جانبه فى صفوف أهل الشام ، وكانت الزاية بيده يوم صفين ، وقد ندم واعتذر لنفسه ؛ قال أبو حمزة بن عبد البر فى الاستيعاب : « واعتذر عبد الله رحمه الله من شهوده صفين ، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم ، وأنه إنما شهد بها لزمة أبيه عليه فى ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أطلع أباك 11 وكان يقول : مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين 12 والله لوددت أنى مت قبل هذا بمشر سنين ! ثم يقول : أما والله ما صربت فيها بسيف ، ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم ، ولوددت أنى لم أحضر شيئاً منها ، وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه ؛ وندم ندامة شديدة على قتاله مع معاوية ، وجعل يستغفر الله ويتوب إليه » .

والناظر فى موقف عبد الله يرى أنه أقبح على الحرب إقحاماً لم يكن له فيه كبير اختيار ، وأنه لم يكن كغيره يحارب عن عقيدة وإخلاص ، أو عن طمع فى دنيا يصيبها ، ولكنه كما يبدو من اعتذاره مغلوب لأبيه ، ولذلك فإنه رضى الله عنه كان لا يبالى أن يرمى بالكلمة يعتقد أنها الحق فى آذان القوم على مسمع من أبيه ، وعلى مشهد من معاوية متى سمحت له الفرصة ؛ روى صاحب المقدم عن حنظلة بن خويلد قال : « إني لحالئس عند معاوية إذ أتاه رجلان يختصمان فى رأس عتار ، كل واحد يقول : أما قنته ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتلك الفئة الباغية » .

وحدث البيهقى فى المحاسن أن عمرو بن العاص قال لانه عبد الله يوم صفين : تبين لى هل ترى على بن أبى طالب رضى الله عنه ؟ قال عبد الله : فنظرت فرأيتة فقلت : يا أبت هاهو ذاك على البغلة الشهباء عليه قباء أبيض وقافسوة بيضاء ، قال : فاسترح وقل : والله ما هذا بيوم ذات السلاسل ، ولا بيوم اليرموك ، ولا بيوم أجنادين ، وددت أن بينى وبين موقى بعد المشركين ! فقلت : يا أبت فما الذى يمتلك ؟ فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحد ! فقال

إف رجح الشيخ ولم يعتذر إذ نزل القوم بضنك فانظر

ثم تأمل بعد هذا أو ذر

ولعل ذلك هو السبب فى أن معاوية كان يرى عبد الله بن عمرو أقرب الى نفوس أصحاب على ، فإذا شمرت الحرب عن ساقها ، واحتوشت الشاميين بين أضرارها ، هتف معاوية رحمه الله بعبد الله ليدعو الناس الى المهادنة ؛ روى ابن قتيبة : أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو فأمره

أن يكلم أهل العراق ، فأقبل عبد الله حتى إذا كان بين الصفيين نادى « يا أهل العراق ! أنا عبد الله بن عمرو بن العاص ، إنه كانت بيننا وبينكم أمور الدين والدنيا ، فإن تك للدين فقد والله أمرقنا وأسرفتم ، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم ، وقد دعوناكم لأمروا لدعوتهمونا إليه أحببناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله ، وإلا فاعتنموا هذه الفرصة لعل الله أن ينشئ بها الحى وينسى بها القليل ، وإن بقاء الحى بعد الهالك قليل . »

وهذا كلام يخرج من قلب مخلص أشد الإخلاص ، وراغب أقوى الرغبة في حقن دماء المسلمين ، وحسم ما بينهم من فتن بائحة شهد عبد الله بن عمرو أهوالها فعبّر عنها - كما يقول صاحب المقدم - بهذه الآيات :

فإن شهدت جل مقامى ومشهدى	لصفيين يوما شاب منها القوائى
عشية جا أهل العراق كأنهم	سحاب ريسع رفعتهم الجنائب
وجئنهم تترى كأن صفوفنا	من البحر مد موجة متراكب
إذا قلت ولوا سرا ما بدت لنا	كنائب منهم فارجحن كئائب
فدارت رحاما واستدارت رحام	سراة النهار ما تولى المناكب

وكان عبد الله ملازما لأبيه في ولايته على مصر ، فكان مؤسس مدرسة الفقه والمعارف الإسلامية وصاحب التقيا فيها ، ولما حصر أمه الموت قام بأسره وأوصى إليه ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى ، فقال له ابنه عبد الله : لم تبكى ؟ أجزأ من الموت ؟ قال : لا والله ، ولكن لما بعده ا فقال له : قد كنت على خير ، جعل يذكره صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتوحه الشام . فقال له عمرو : تركت أفضل من ذلك ، شهادة أن لا إله إلا الله ، إني كنت على ثلاث طبقات ، ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه ، كنت أول شىء كافرا فكنت أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه ، فلو مت يومئذ وجبت لى النار ، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أشد الناس حياء منه ، فلما لأت عيني من رسول الله صلى الله عليه وسلم حياء منه ، فلو مت حينئذ قال الناس : هنيئا لعمرو أسلم وكان على خير ، ومات على خير أحواله فترجى له الجنة ، ثم بليت بالسلطان وأشباه فلا أدرى أعنى أم لى ؟ فإذا مت فلا تبكين على باكية ، ولا يتبعنى ماذج ولا نار ، وشدوا على إزارى فأبى عناصم ، وشنوا على التراب شيا ، فإن جنبي الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبي الأيسر ، ولا تجعلى فى قبرى خشبة ولا حجرا ، وإذا وارىتمونى فاعمدوا عندى فقدر نحر حزور وتقطيعها بينكم أستاذس بكم . »

صادق عمره

## عمر بن عبد العزيز

— ٧ —

حال عمر بعد موت ابنه عبد الملك :

كان عمر يحب ابنه عبد الملك حبا جما ، وعلى الرغم من هذا فلم يملك عليه الحزن جميع حواسه ومشاعره ، ولم يأخذ منه كل مأخذ ، ولم يشغله عن أمور المسلمين . بل لما رجع من دفنه رأى قوما يرمون ، فلما رأوه أمسكوا ، فقال : ارموا ، ووقف عليهم ، فرمى أحد الرامين فأخرج ، فقال له عمر : أخرجت فقصر ، ثم قال للآخر : ارم ، فقصر ، فقال عمر : قصرت فبلّغ ، فقال له مسلمة : يا أمير المؤمنين أنفـرغ قلبك لما تفرع له وقد تقضت يدك من تراب انك الساعة ولم تصل الى منزلك بعد ؟ فقال له عمر : يا مسلمة إنما الجزع قبل المصيبة ، فإذا وقعت المصيبة فآله مما فاتك .

تعاذى الناس له فى ابنه :

وقد عزاه محمد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ليشغلك ما أقبل من الموت عليك ، مما هو فى شغل مما يدخل عليك ، وأعد لتزوله عدة يكن لك حجابا وسترا من النار . يا أمير المؤمنين لو ترك رجل تعزية أخيه لعله وانتباهه ، لكنته ، ولكن الله قضى بأن الذكرى تنفع المؤمنين .

وقد عزاه أعرابي من بنى كلاب فقال :

تعزى أمير المؤمنين فآله      لما قد ترى يغذى الوليد ويولد  
هل ابنك إلا من سلالة آدم      لسل على حوض المنية مورد

من أولاده عبد العزيز :

ولى المدينة ومكة يزيد بن عبد الملك ، ثم ثبته مروان بن محمد عليهما ، ثم عزله .

أسند الحديث عن صالح بن كيسان ، وعن يحيى ، وعن مكحول ، وروى عن صالح ابن كيسان ، عن عثمان بن عفان . دعاه أبو جعفر وقال له : كم كانت غلة أبيك حين أفضت إليه الخلافة ؟ فقال : خمسين ألف دينار . قال : وكم كانت غلته يوم مات ؟ قال : ما زال يوردها حتى كانت مائتي دينار ، ولو بقى على قيد الحياة لوردها . وحسنه أبوه على ألا يسمى الظن فيما سمعه من الكلام بل يحمله على الخير ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فقال له : يا بني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملا من الخير .



### ومن أولاده عبد الله :

نشأ نشأة دينية ، وجمع بين العلم والآداب ، وتولى ولاية الكوفة . حضر ذات يوم يستكس أباه وهو خليفة ، فقال : يا أبت اكسني فقال اذهب الى الخيار بن رباح البصري فإني لي عنده ثيابا نخذ منها ما يدالك ، فذهب الى ابن رباح وقص عليه قصصه ، وما كان من أمر أبيه له بالذهاب إليه ، فقال الخيار : صدق أمير المؤمنين ، ثم أخرج له ثيابا سنبلابية أو قطرية ، وقال : هذا ما لأمير المؤمنين عندي ، نخذ منها ما نريد ، فقال عبد الله : ما هذا من ثيابي ولا من ثياب قومي ، ثم رجع الى أبيه وقال له : يا أبتاه استكسينك فأرسلني الى الخيار بن رباح ، فأخرج لي ثيابا ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي ، فقال عمر لابنه : هذا ما لنا عند الرجل . فانصرف عبد الله كاسف البال ، حتى إذا كاد يخرج ناداه وقال له : هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ؟ قال نعم يا أبتاه ، فأسلفه مائة درهم ، فلما خرج عطائه حوسب بها وأخذت منه .

### مرض عمر ووفاته :

لم يسلّم عمر من أذى الناس له رغم ما كان عليه من حب الخير لهم ، والتفاني في مصالحهم ، فذبرت شذوذة منهم مكيدة له ، وأوهزت الى أنهدم جفاه لعمر ، وأغلظهم قلباً ، أن يدس السم له في الطعام ، ففعل ، فما إن استقر في جسمه حتى تقلت حركته وقت في عضده . فلما جاءه الطبيب وخصه قال : قد سقى السم ، ولا آمن عليه الموت ، فرقع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت على من لم يسق السم أيضا ،  
ما كتبه الى يزيد بن عبد الملك :

وقبل أن تحضره الوفاة بأيام ، كتب الى يزيد بن عبد الملك ، وكأف قد أوصى سليمان ابن عبد الملك اليه بالخلافة بعد عمر ، فقال له : « من عبيد الله أمير المؤمنين عمر الى يزيد ابن عبد الملك ، السلام عليك ، أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وإني أكتب اليك وأما دنف من وجهي ، وقد علمت أنني مستول مما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة ، ولست أستطيع أن أحني عليه من هملي شيئا ، يقول تعالى فبما يقول : « فلنقصن طيبهم بعلم وما كنا غائبين » فان يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهوان الطويل ، وإن سخط فياويح تقسى الى ما أصير ، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يمجري من النار برحمته ، وأن يمن على يرضوانه والجنة . عليك يا يزيد بتقوى الله ، وإياك أن تدركك الصرعة عند الغرة ، فلا تقال العثرة ، ولا تمكس من الرجعة بحمدك من خلفت بما تركت ، ولا يمدرك من تقدم عليه بما اشتغلت به ، والرعية الرعية فانك لن تبتى بعدي إلا قليلا حتى تلحق باللطيف الخبير ، والسلام . »

وقيل أن يلفظ النفس الأخير من حياته سمعته زوجته فاطمة بنت عبد الملك يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار ! ووقتئذ خرجت فاطمة من عنده وحلست في مكان قريب منه فإذا هو يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » وصار يرددها حتى طادت لا تسمع له حساً ، فقالت لوصيف له يخدمه : ادخل عليه ، فلما دخل عليه وجده قد مات .

#### مدة خلافته وعمره ودفنه :

مدة خلافته سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وعمره ٣٩ سنة وأشهر ، وتوفي يوم الأربعاء بمحاصرة نخس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وصلى عليه يزيد ابن عبد الملك ، ودفن بدير سمعان .  
تأبين الناس له بعد موته :

ما قاله عبد الملك بن حمير : رحلك الله يا أمير المؤمنين إن كنت لفضيض الطرف ، أمين الفرج ، جواداً بالحق ، بخيلاً بالباطل ، تغضب في حين الغضب ، وترضى في مواطن الرضا ، وما كنت مزاحاً ولا هيباً ، ولا بهاتاً ولا مفتاهاً .

بعض ما قيل نظماً في مدحه وراثته ، قول جرير :

البك رحلت يا حمير بن لبل	على ثقة أزورك واعتاداً
تعود صالح الأعمال إلى	رأيت المرء يلزم ما استعاداً
إلى الفاروق ينتسب ابن لبل	ومروان الذي رفع العهد
فاكتب بن مامة وابن سعدى	بأكرم منك يا حمير الجواد

وقول كثير الخزامي :

هو المرء لا يبدى الأسى في مصيبة	ولا فرحاً يوماً إذا النفس مرت
فليس إلا لا يا حافظ ليمينه	وإن بدرت منه الآلية بورت

وقول الفرزدق :

كم من شريعة حق قد شرعت لهم	كانت أميقت وأخرى منك تنتظر
يا لطف تقسى ولطف اللاهقين معي	على المـسدول التي تغتالها الحفر !

تركته التي خلفها :

وحينما احتضر عمر قال لبنيه : لا تهملوا الخازن طائى لا أدع غير واحد وعشرين ديناراً ، فيها لأهل الدير أجر مساكنهم ، وعن حقلة لهم . ثم كفن منها بخمسة دنانير ، واشترى له موضع قبره بدينارين ، وقسم الباقي على بنيه فخص كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً بعد أن أخذ أهل الدير ما كان لهم من أجر مسكن وعن حقلة ما

عمر مصطفى شاذي



فِي الْمَلَأَ الْعَرَبِ

## نظرات في الادب العربي

## جاهلیہ و اسلامیہ

— A —

مواهب الشعراء

من الشعراء "من" يتدفع في شعره مع السجّية ، التي ترسله إرسالا ، وتمييزا ، كما يفرض  
الليّنسوع بالماء ، دون أن يعمل أو يُروى ؛ وهذه الطريقة هي طريقة شعراء البادية ،  
ومن تأثرهم ، وانظم بطابعهم من الشعراء .

ومنه من لا يتنفع مع السجية ، بل يصنع شعره صنعا ، فيروى في معناه ، ويلائم بين أجزائه ، ثم يتخير له ألفاظه تحميرا ، وينتخبها انتخابا ، وهي طريقة الشعراء الفنانين ، في الحاشية والإسلام . ومن زعماء هذه الطريقة زهير بن أبي سلمى في حوليياته ، وتلفظه الخطيئة ، ثم الفرزدق ، وصرم الغواني ، وأبو تمام ، والمنثني ، وأبو العلاء ، وغيرهم .

وكلتا الطريقتين لا بد من ارتكازها على الطبع ، واعتمادها على الموهبة الشعرية ، لأن الصناعة الخالصة وإن نالت الكمال ، لا تنتج شعرا بحال . وإنما الأمر في الصناعة ، على ما سنذكره في مقامه :  
أمر تمام بقوله :

من اللامى أمد" بين طبع" وهذا بين فكر" وانه نقد

يبدأ الطريقة الأولى ، أثر عند البقار ؛ لكثرة ماها ، وقوة رونقها ، وحفتها على السمع ، وملاءمتها للطبع ، على أن للأخرى محاسنها من تلاحم النسج ، وقوة الأسر ، وجرس الألفاظ ، وروعة الأسلوب ، وإنما أتيت من ناحية أن الطبيعة تأتي أن يكون الشيء ذو الأجزاء كاملاً من جميع الوجوه ؛ ومن ناحية إضمار الروح الشعرى الطبيعي بإثقاله بقيود المحسنات المعنوية واللفظية ، التي تبطن به عن الإصرار إلى النفوس ، وتوقعه - أحياناً - عن التغافل إلى مكان الأسرار . ولذلك قال سروان بن أبي حفصة ، لعدي بن الزمام : أما لو كنت مطبوعاً ، ما أملت

ولا ساندت ، فاحتجت الى التقويم والتثقيف ، لما أنشد عدى عبد الملك بن مروان ، قصيدته الرائعة :

وقال فيها :

وقصيدة قد بت أجمع شملها حتى أقومَ مئيلها وسنادها  
تطرُ المتقف في كموب فتاته حتى يقيم ثقافه مُسَادها  
وأقرب من هذا الى الطبع قول شاعر البادية : ذى الرُمة  
وشعر قد أرق له غريب أجنبهُ المُسَانِدَ والمُحَالا  
فت أقيمهُ ، وأقْدُ منه قواي لا أهدُ لها مثالا  
غرائب قد عُرفنَ بكل أفق من الآفاق ، تُفْتَعَلُ افتعلا (١)  
وقول حكيم الشعراء :

بُناةُ الشعر ، ما اكفوا رويًا ولا عرفوا الإجازة والسنادا

لا جرم أن ملاك الشعر ، ما يحمله من الروح التي يسرى في هيكله مريان الماء في العود ،  
والحياة في الجسد ، ويقوى هذا الروح ويطفى ، كلما اعتمد الشاعر على طبعه ، وجرى على سجيته ؛  
وهذا الروح لا تحده قنائد الالفاظ ، ولا تنهض به الأساليب ؛ وإنما هو كدليل « الاستحسان »  
عند الأصوليين : معنى يتقدح في ذهن المجتهد تقصر عنه عبارته ؛ ومبلغ الالفاظ والأساليب ،  
أنها تقربه ، وتعين عليه ، بمقدار قربها من أساليب الشعر القديم ، وتأثرها بها ، وحظ صاحبها  
من الملسكة التي تحصل من طول النظر ، وكثرة المحفوظ ، كما سبق في أثناء هذه النظرات .



كان المغفور له أحمد شوقي بك من شعراء الطبع ؛ وكان المغفور له حافظ إبراهيم من  
شعراء المنعة . فشوقي كان يجرى في شعره على سليقته ، فيسقى بروقه ومائه ومساوقه  
للنفوس ، عن التماس وسائل الترويح والتشويق ، وطول النظر والمرض والتغيير والتبديل ؛  
وما رأيت ولا سمعت أنه أنشد شعره نفسه في حفل ، ولا أمام عظيم . أما حافظ ، فكان  
يرى في شعره ، ويتند في نفاذه ، ويعرضه على من يلتفون حوله من الشعراء والأدباء ،  
ويقبل نقاشهم ، ويمتنح ملاحظاتهم ، ويقوم ويثقف ؛ وكان يفسد شعره بنفسه ، ولا  
يرضى أن ينشده حتى يحفظه أجود الحفظ ؛ ويختار الموقف الأخير في كل حفل ، حتى يفض  
الناس ، وقصيدته آخر ما علق بنفوسهم ، وتعلق بأذانهم ؛ على إجادته للإشاد ؛ وتمثيل المعاني  
وتصوير الأفكار ؛ وعلى الجملة : كان مستكلا لأدوات الصناعة من جميع الوجوه ؛ ولعل

(١) أي أرتجلها ارتجالا واختلها خلطا دون تقليد مثال

هذا هو علة ما يقال من أن شعر حافظ أكثر صلاحية لترجمة إلى اللغات الأجنبية ، لأن الخيال الساذج يتبع الذوق الخالص الذي يستعصى على الترجمة ، بخلاف المعاني المحدودة ، وهو تأييد لقضيتنا .

وإذا كان هذا الرأي لا يسلم لنا ، حتى نورد له مثالا يدعمه ، فإنا نعرض على القارئ الكريم قصيدتين لشاعرنا العظيمين ، قبلتا في موضوع واحد ، كان له حظره وجلاله ، وأشدنا في حقل واحد ، كان له هذا الخطر ، وذلك الجلال ، وهما مرثيتاهما ، في الزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول ، أعذق الله عليه وعليهما فيوض رحمة ورضوانه ، ولا نقصد بذلك إلى الموازنة بينهما على وجهها ، إذ ينقصها اختلافهما وزنا وقافية ، وإنما تقتصر على قدر حاجتنا إلى إثبات ما قلناه .

افتتح شوقي مرثيته بقوله :

تَبَيَّنُوا الشمس ، وما لَوَا بضُحاها وانحَى الشرقُ عليها فبكأها  
واختتمها بقوله .

ما دعاها الحقُّ إِلَّا سارَعَتْ لبته يوم « وصيف » ما دعاها !  
وافتح حافظ مرثيته بقوله :

إيه باليل ، هل شهدت المصابا . كيف ينصبُّ في النفوس الصبا ؟  
واختتمها بقوله :

خَفَّتْ فينا مقامَ ربك حيناً فننظرُ بحميتِه الثُـوبَا

وإذا كانت قدرة الشاعر تتجلى في مطلعته ومقطعه ، فأما نشير في إيجاز إلى فرق ما بين القولين ، ونُدع للقارئ الكريم — بعد ذلك — الحكم الأخير .

كُلٌّ مِنْ مطلع شوقي ومقطعه كلامان ، لا يتكل صدرٌ منهما على عجز ، ولا يقوم عجز على صدر ، وكل من مطلع حافظ ومقطعه كلام واحد ، لا يكمل صدر بلا عجز ، ولا ينهض عجز بلا صدر . وشوقي أبان عن كُنْه المصيبة وأوضحها ، تمهيدا لأن يبنى عليها ما يشاء ، أما حافظ فقد أغفل هذا الجانب ، ومضى يستشهد الليل . وشوقي جعل المصيبة مصيبة الشرق كله ، فالمشيعُ الشمس ، والباكي الشرق ، وقد تتوسع فنفهم أنه جعلها مصيبة العالم ، وإنما خمن الشرق ، لأنه مشرقها ، أما حافظ فقد جعل المصابا خاصا ، « وآل » في « النفوس » ، وإن كانت للاستغراق ، إنما هي لاستغراق المصريين ، بدليل قوله بعد :

قل لمن بات في فلسطين يكي : إِنْ زلزلنا أجُلَّ مصابا

لما نرى شوق الشمس ، استغنى عن التلخيص ، إذ غيبة الشمس لا تمنحني على أحد ، وصح له  
بعد ذلك أن يقول :

جاءل الصبح سوادا يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاءها  
انظروا ، تلقوا عليها شققا من جراحات الضحايا وذماها  
وتروا بين يديها حبرة من شهيد يقطر الوردة هذاه  
أذن الحق ضحاياها بها وبمحاه ! الحق الى الموتى نعمها

وحافظ لما أتهم في المصاب وخصمه احتاج الى أن يقول :

بلغ المشرقين قبل انبلاج المـ : بع : أن الرئيس ولد غابا  
وانع للنبوات سمعا ، فسمد كان أمضى في الأرض منها شهبا  
قد ياليل من سوادك توبا للدراري وقضحي جلبابا  
انسج الحالكات منك تقابا واحب شمس النهار ذاك النقايا  
قل لها : غاب كوكب الأرض في الأر ض ، فغيب من السماء احتجابا  
والبسني عليه ثوب حداد واجلسي همزاء فالحزن طابا

وهذه الايات أقرب الى أن تكون منشورا رسميا ، منها الى أن تكون رثاء شعريا ؛  
ولا ريب أن الشاعرين في هذا الموضع ، قد تباعدا بعد الرقعة عن الخضراء ، لأن أحدهما  
يشمر في الأرض ، والآخر يشمر في السماء .

وقد ختم شوقي قصيدته ، كما افتتحها معصيا ، مفتحا ، شاعرا ؛ أما حافظ ، فقد ختمها  
كما ابتدأها معصيا ، معصيا ، فقيها .



وقد انتهى الشاعران بعد ذلك في وصف مشهد الزعيم ؛ فقال حافظ :

خرجت أمة تفسيح نسا قد حوى أمة وبحرا مهابا  
حملوه على المدافع لما أجهز الهام حله والرقابا  
حال لون الأصيل والدمع يجسرى شققا سائلا ، وصبعا مذابا  
وسها النيل من سراه فحولوا حين ألنى الجوع نبكي انتحابا  
كلن (ياحمد) أن يرى مهرجانا فرأى مأتما وحشدا مهابا  
لم تسق منه فراعين مصر يوم كانوا لأهلها أربابا

وقال شوقي :

ما دوت مصر يدفن صبحت أم على البعث أظقت من كراها

صَرَخَتْ نَحْسِبَهَا بِنْتَ الشَّرَى تَلَبَّتْ مِنْ غِلْبِ الْمَوْتِ أَبَاهَا  
وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمَّا تَسَلُّوا شَمْبُ السَّيْلِ طَلَتْ فِي مَلْتَقَاهَا  
ومن فضول القول أن أين ما بين القولين من فروق ، لا يحق فهمها على أديب .  
والنقيا كذلك في وصف أثر المصاب في الأمم الأخرى ؛ فقال حافظ  
سأفت « التمس » العزاء إلينا وتوخت في مدحك الإسمها  
لم يشح جازع عليك كما نا حت ، ولا أظنب الحب وحابي  
واعتراف التاميز ( يا سعد ) عقيبا س ، لما نال نيلنا وأمانا  
وقال شوقي :

سألتوا « زحمة » من أعراسها هل مثنى الناعي عليها فحاهها (١)  
عطل المصطف من صمته وجلا عن ضفة الوادي كفاها  
فتح الأبواب ليل ديوها وإلى النافوس قامت يبعثها  
صدع البرق الدجى : قشره أرض صوريا ، وتطوي سماها  
يحمل الأنباء تسرى مؤهنا كموادي الشكل في حر سراها  
عرض الفك لها فاضطربت نطأ الأذان همسا والشفاه  
قلت : يا قوم اجمعوا أحلامكم كل نفس في ورديها رداها !!

ولا إغالي في حاجة إلى أن أقول : إن حافظا لم يخرج في أبياته هذه عن رسمياته ؛ أما  
شوقي ، فقد صدر في أبياته عن عاطفة جياشة ، وعن شعور دفاع ؛ ولا يحق على القارئ ،  
الكريم دقة إشارته إلى حادث الثقيفة ، واستغلاله في قوله :

عرض الفك لها فاضطربت نطأ الأذان همسا والشفاه  
قلت : يا قوم اجمعوا أحلامكم كل نفس في ورديها رداها  
ولا غرو ، فأى لماع في يردتيه — كان —

هذا ، ولا أكنم القراء ، أنه لم يعجبني في هذا الموقف ، قول شوقي :  
كفنتوها حررة عطوية كست الموت جلالا وكساها  
مصر في أكفانها إلا الهدى لحمة الأكفان حق وسداها  
فإن هذا أشبه بالحديث عن غير الرجال .

\*\*\*

رحم الله الشاعرين ، أوفى الرثبات ، وأحزل حزاها الحير على ما أسديا إلى اللغة والأدب  
والوطن من مآثر خالدة ؛ وعوض مصر خاصة والشرق عامة عن فقدهما خير العوض .  
هبر الجواد رمضان

(١) لم أفر زحمة على ضبط ق السال والقاموس

# كلمة في الأخلاق

## سفور المرأة

من الناحية الاجتماعية

حينما دارت رحى هذه الحرب ، وحلف الناس في مشارق الأرض ومغاربها ما عسى أن تنهى إليه من الخراب والدمار ، أدركوا قيمة الخلق القويم ، في مناعة سلطانهم ، ومثانة بنيانهم ، فأخذوا يقنّبون إلى انحطاطهم الخلق ، محاولين إصلاحهم جهد ما يستطيعون ، والناس لا يحبّون للمستقبل حساباً ، ولا تأخذ الحوادث من تكبيرهم ، أو تعمل الخطوب في شموهم ، إلا حين يصطدمون ، فيعلموا مقدار خطتهم ، وعاقبة تفریطهم . والمصريون كثيرهم حاولوا في المهد الأخير أن يأخذوا بنصيحهم من الإصلاح الاجتماعي ، فاهتموا بالمرأة ، وشرعوا ينظرون فيها عسى أن يكون سبباً في تأخرها المرءى ، الذي وصل بها إلى حد أن صارت لا تصلح للأئمة ولا غيرها من شئون الحياة . وقد أدرك المفكرون أن علة العلل في ذلك ترجعها ، وخروجها عن نطاق الآئمة الذي حددته لها الطبيعة . وهذا التبرج عادة أجنبية ، انحدرت إلينا من بلاد الغرب ، وأخذت تتطور وتظهر بمظاهر شتى ، ثم جاءت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ وحرفت بطوائفها الناس ، رجالاً ونساء ، شيئا وشيئاً ، وفي مثل هذه الظروف الاجتماعية المعصية قد تسقط الكلفة ، ويتسامح في التصون ، فرأينا المرأة إلى جانب الرجل ، والفتاة إلى جانب الفتى ، وذلك تحققت دعوة أنصار اختلاط الحسنيين ، ثم ظلت تأخذ في الازدياد ، حين جمعت دور التعليم العالي بين البنين والبنات .

ولقد كانت المرأة قبل هذه الثورة ، لا تعرف من الحياة إلا أنها أنثى ، ولا تفقه من العلم إلا أنه تنظيم لتلك الآئمة ، في حدود العفاف والإباء ، والدين والأخلاق ، ولكن سفورها واختلاطها أصابها بجميع ما يولدانه من تطرفات ، فسمعنا صيحات بوجوب اشتغال المرأة بأعمال لا وقت الضرورات غيب ، ولكن باعتبار أن ذلك من مقتضيات الحياة المعصرية . وهنا أخذت بكل كلها عليها جميع النظريات التي تخرج المرأة من حدودها الطبيعية وتجعلها كما قال الأستاذ (حيوم فريرو) جنساً ثالثاً . والتدهور كالترقى يشدأى بعضه إلى بعض ، حتى أصبحنا حيال حالة شاذة تتحرك لها الحكومة وتنعجز للعمل على وقف تيارها . فقد قرأنا في أهرام (١٦ أكتوبر) أن بعض الدوائر الحكومية تفكر في معالجة حالة تهتك النساء التي وصلت إلى حالة لا يحسن السكوت عليها . وهكذا بالغت المرأة في الاحتسلاط للفتنة ، وأغرق الرجل في تحملها حتى أصبحت من تهورها كالنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .



وقد آلت هذه الحال السيئة الى زهد الرجل في المرأة ، وإساءته الظن بها ، وأصبح يراها كما صرحت له به بعض الاقاصيص إبليس في ثوب إنسان ، فانصرفا مما من ساء المنزل ، وتكوين الأسرة ، ثم ألبا بعد ذلك إلا أن يتناقشا « الحساب » على رهوس الإثهاد ، تقول له أنت . . ويقول لها أنت . وحفلت قاعات المحاضرات بهذا الجدل المصاحب ، وفي هذا دليل من كليهما على أنهما في حاجة الى البيت ، مهما حاولا أن يفرأ منه ، وأنهما لا يرضيان بالزواج بديلا مهما أشاحا بوجهيهما عنه .

وبعد ، فبآيتها المرأة المسلمة : إن الدين الإسلامى حين أراد أن يؤدبك بأدب القرآن : « وقرن في بيتك ولا تخرجي تبرج الجاهلية الأولى » ، لم يرد بذلك إلا خيرا يوجه إليك ، ومنفعة تعود عليك ، فهل تعلمت الآن الى أنك رخصة في نظر الرجل ، إذ تبدلت له ، وزهد فيك حين صارت نواحى الأرض مملوءة بك !!

ابراهيم على أبو القتب

## تقدير العلماء

كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيها شاعرا ، وكان أحد السبعة من فقهاء المدينة ، قال عنه الزهرى ، ونافيك الزهرى : كنت إذا لميت عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود فكأنما أجفرت به بحرا .

وقال صمر بن عبد العزيز ، ومن هو : « وددت لو أنى لى مجلسا من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود لم يفتنى .

واقبه سعيد بن المسيب ، وهو أحد الفقهاء السبعة المعدودين بالمدينة في عصر التابعين ، فقال له : أنت الفقيه الشاعر . فقال له : لا بد للمصنوع أن ينفث .

وقد بلغ عبد الله بن عبيد الله عن صمر بن عبد العزيز شيئا يكرهه فكتب إليه :

أبا حفص آتاني عنك قول	قطعت به وضاق به جوابى
أبا حفص فلا أدري أرغى	زيد بما تحاول أم عتابى
فإن تك طائبا لعتب وإلا	فما عودى إذن يبراع غاب
وقد فارقت أعظم منك رزا	وواريت الأجابة فى التراب
وقد عزوا على وأسلموني	مما طلبت بعد هو ثيابى

وقد أثر عن كبار العلماء فى كل عصر أنهم كانوا مخصوصين بالإعزاز والتبجيل فى كل عصر من الكبراء والكافة ، فإن آمنوا غلبة الهوى على الناس فى زمان ، وخشوا أن يهان العلم فى أشخاصهم ، اعترفوا الناس ما استطاعوا ، ووسعتهم بيوتهم ، لا تكبرا منهم ، ولكن صيانة لكراماتهم .

## العبد

لا يتهم بالغلو من يقول إن الاسلام دين اجتماعي جعل سعادة الجماعة أساس ما شرع من أحكام .

فغرض الصلاة ليكون من المسلمين جماعة راقية مهذبة متحابة ، تملأ الشور وتجنب الآثام : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وفرص الزكاة لتصل بين أغنياء الجماعة وفقرائها بحبل متين من المودة ، وتزج ما في صدور هؤلاء من غل وحسد ، وتزف عليهم شدائد العيش وكرب الحياة . وشرع الحج كؤتمر للجماعة الاسلامية تستعرض فيه آلامها وآمالها ، وتقلب وحسوه الرأي في علاج الاول وتحقيق الثانية ، وتبادل الثقافة والتجارة : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من هبة الأنعام » . وتنبها الى الجهاد لتدفع عنها أذى أعدائها وأطماعهم ، وتعيش في سلام وطمأنينة ، وتستمتع بحرياتها ، وتستقل بحرياتها ، وتنهض في ظل حركاتها الدينية والعلمية والاجتماعية .

هذا ولا يخفى وجه المصلحة للجماعة في كثير مما شرع غير ذلك . وهل يخفى وجه المصلحة فيما شرعه الاسلام من نظام الأسرة ، وعلاقة الآباء بأبنائهم ، وعلاقة هؤلاء بأولئك ، وعلاقات المؤمنين بعضهم ببعض ؛ ووجه المصلحة في الجمعة والجماعة ، وتحية الاسلام ، وكف الأذى عن الطريق ، ونشيدان الصلاة ، وشهود الجنائز ، وعبادة المريض ، والرفق باليتيم ، وإحسان القيام عليه وتنمير ماله ، وحقوق الجوار ، وحقوق الصبية ، الى غير ذلك مما لا يخفى فيه وجه المصلحة ، ولا ينكره إلا كل معاند كفور ؟

ولعل من أظهر ما يبدو فيه وجه المصلحة للجماعة ، يوم العيد . ذلك أن العيد يوم يجتمع المسلمون فيه على صلاة خاصة به ، يعقبا خطبة جامعة ، ينبه المسلمون فيها الى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، فيذكرون بزكاة الفطر ومصارفها ( في خطبة عيد الفطر ) ، ويوحوب الاضيحية وكيفية الانتفاع بها ( في خطبة عيد الاضحية ) .

وهو يوم ندب المسلمون فيه الى الفضل والتجمل ، وإظهار الفرح والنشاشة ، والإكثار من الصدقات ، لتسل بذلك سخائم الفقراء وتصفو قلوبهم ، ويكونوا هم والأغنياء جماعة واحدة ويذا واحدة كما أرادهم الاسلام . ومن طريف ما شرع في ذلك اليوم الهى عن حمل السلاح حتى لا يمزج الشيطان بين المسلمين فيكفر صفوفهم ويغص يومهم . هذا الى أن اجتماع المسلمين في ذلك اليوم فرصة صالحة يستطيع أن يستغلها المصلحون والقادة في توجيه الجماعة الاسلامية واستمراس شئونها ومعالجة أدوائها ، كما كان يفعل القائد الأعظم ، نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد صح عنه أنه كان يصلى ثم يصرف للحظة فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم

فيعظمهم ويأمرهم ، فإن كان يريد أن يقطع بمنّا ( جماعة للغزو ) قطعه ، أو يأمر بشيء أمره ثم يصرفه ، وصح عنه أنه كان يحطّب ثم يقبل على النساء فيعطهن ويذكرهن بالصدقة ، فكان يتافسّن في هذا الفضل فيلقين بحلبين في ثوب بلال استجابة لدعوته عليه السلام .

وهكذا كان عليه السلام القائد الحكيم والزعيم المنصف ، لا يؤثّر الرجال بفصله ، بل كان للنساء من عدله نصيب ، ومن فصله نصيب ، فكان فضله تاماً ومطلقاً شاملاً ، « وما أرحمك إلا رحمة العالمين » .

ذلك سرّ تشريع العيد ، وتلك ثمرته . وقد سمعت الجماعة الإسلامية بهذه الثمرة ، وشمرت التشريع عامة حين أخذت أنفسها به ، ووقفت عند حدوده . فكانت المثل الأعلى للحجرات ، جماعة يسودها العدل والإنصاف ، والتعاون والتناصر ، والعز والسلام ، فضربت بسيرها الامتثال .

تلك حال المسلمين فيما سبق ، يجتمعون يوم العيد على خيرهم وصلاتهم ، يؤدون حقوق الله وحقوق إخوانهم وأنفسهم ، يصلون ويتصدقون ويتعاطفون .

فأحال على اليوم ؟ وعلام يجتمعون ؟ وكيف يستقبلون أعيادهم ؟ وماذا يفعلون ؟ يا لله للمسلمين ! ! إنهم يجتمعون على المسكرات يحوصون فيها ويكرعون منها ، لا يخشون الله ولا يخافون الناس . ينتهكون الحرامات ، ويتعاطون المسكرات ، ويقامرون ويتراهنون ، يهجرون المساجد والمساكن إلى موائد اللهو والدعارة ، ويتخذون من قسور الموتى أفدية خلاعة وجور . يقطعون أرحامهم ، ويأكلون حقوق الفقراء في الزكاة ، ويسرفون على أنفسهم في السفقات ، ثم كل فرد منهم أن يرضى نفسه وأولاده بما يباح ويحرم ، أما أقاربه وإخوانه في الدين فأولئك لا يشغله شأنهم ولا يعنيه أمرهم .

ذلك شأن المسلمين اليوم في أعيادهم ، وهو شأنهم في جميع أمرهم . جماعة مستهترّة متخاذلة متساهلة كالنوب المرفوع ، لا بهاء ولا قوة ، حقرها الأعداء وتلقفها الكفرة بالصوالجة ، واستاموها في سوق السياسة سوم الألعام ، وراضوا بها كما يراضون بالمناع ، لا يراعى لها شعور ولا كرامة ، لا تمتشأ إذا حضرت ، ولا تعنف إذا غابت . هانت على المسلمين أنفسهم فهاوا على الناس .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقمت قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » .

أسأل الله أن يهب المسلمين نعمة من رضاء تكشف كربهم وتصلح حالهم ، ونهديهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور .

أبر الوفا المرفعى

## كتاب اخوان الصفاء

دائرة معارف فلسفية في القرن الرابع الهجري

كان للحركة الدينية التي بمنا الاسلام في العالم القديم أن احتلّت أمم كثيرة، وانتقلت شعوب شتى، وعرف بعضها بعضا، وكانت بينهم بجانب الصلات السياسية التي أحدثها الفتح والدين، صلات ذهبية، فكانت الترجمة عن الفارسية والهندية والسريانية واليونانية. وتأثرت بهذا حياة المسلمين العقلية، حتى ظهرت آثارها في فلسفتهم وعلومهم وآدابهم.

وقد استطاع العقل الاسلامي أن يستفيد من هذه العلوم الجديدة الى حد بعيد، فلم ينقض القرن الثاني حتى كانت طامعة الدولة الاسلامية بفقدان مبادئ العلم والفلسفة، بما وفق اليه الخلفاء من أول عهد المصور من تنشيط حركة نقل العلوم الى العربية، حتى التي كان لا يسمع بتداولها في العالم المسيحي إذ ذاك، ولكن لم ينجح القرن الرابع حتى كانت أداة الحكم في الدولة الاسلامية قد أصيبت باختلال عظيم.

ورسائل اخوان الصفاء كتاب يمثل فساد الحياة السياسية في ذلك القرن. والذين كتبوه نفاوا في البصرة، وكانوا يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الاسلامي في ذلك الوقت، ورأوا أن يتوسلوا الى ذلك بقلب النظام العقلي المسيطر على حياة المسلمين.

ولا شك في أن الدراسات الفلسفية ذات دخل كبير في تحويل وجهات النظر، ولها أثر يعتد به في قلب النظم السياسية في الشعوب. ولا سبيل الى النهوض بالمستوى السياسي الى أقصى حدوده إلا إذا توفرت البحوث الفلسفية السهلة التي تؤثر في عقلية الدهاء، والدراسات المعقولة الدقيقة التي يمتن بها الخاصة ويتأثرون بها الى أبعد الحدود.

رسائل اخوان الصفاء أشبهت بشيء بدائرة معارف فلسفية علمية. وقد بدأ مؤلفوها هذه الرسائل بقولهم:

«إن الشريعة قد دلت بالحجج والبراهين، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه حتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال».

تتألف دائرة معارف اخوان الصفاء من إحدى وخمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة عمليا وعلميا. وهي تلخص في مبادئ الموجودات وأصول الكائنات، ثم الهيولي والصورة، فما هي الطبيعة، فالارض والسماء، ثم الكون والفساد، ثم شرح لملم الجيوم، ثم تكوين

المعادن ، ثم علم النبات ، ثم أوصاف الحيوان ، ثم مسقط السطة وكيفية اتصال النفس بها ، ثم تركيب الجسد ، ثم الحواس والمحسوس ، ثم العقل والمعقول ، ثم الصنائع العملية ، ثم الصنائع العلمية ، ثم العدد وخواصه ، ثم الموسيقى ، ثم علم النسب العددية والهندسية ، ثم المنطقيات ، ثم الكلام على البعث والنشور ، ثم الكلام عن أجسام الحركات والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم .

فهذه الدائرة الفنية بالعلم القديم ، تبدأ بالنظر في الرياضيات والاعداد والحروف ، وبعد ذلك تنتقل الى المطلق والطبيعيات ، فتد كل شيء الى النفس وما لها من قسوى على الجسم البشرى ، وتنتهى أخيراً الى الاقتراب من معرفة الله عن طريق التصوف الإلهي .

جاء في كتاب عبود الأبناء في طبقات الأماة نقلاً عن القاضي صاعد في ترجمة الطبيب « أبي الحكم السكرمانى القرطبي » : أن هذا الرجل رحل الى ديار المشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة ، ثم رجع الى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة من نهرها ، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفاء .

ومن الطبيعي أنه لولا ما امتازت به هذه الرسائل من الخصوصية العلمية ، والمكانة الفلسفية ، وما أفادت به البشرية من تخيل النفس بصورة وضاعة حلقة بالإعجاب ، ما استطاعت أن تنفذ الى بلاد الأندلس على يد القرطبي بهذه السهولة ، وخاصة في هذا الوقت المضطرب الذي ظهرت فيه .

وعن هذه الرسائل كتب المستشرق الفرنسي « سلفستر دى ساسي » ملخصاً عنها باللغة الفرنسية عام ١٨٣٧ . ولما وضع العالم ديتريصر المستشرق الألماني كتابه « العلوم الفلسفية عند العرب في القرن العاشر الميلادي » ( الرابع المجلد ) اعتمد في كتابه على رسائل إخوان الصفاء ، ( تراجع مذكرة المرحوم أحمد ركي باشا في مقدمة إخوان الصفاء ) . ويقول المؤرخ الفرنسي إميل برهيه في كتابه عن تاريخ الفلسفة في القرون الوسطى : إن رسائل إخوان الصفاء كان لها أثر عميق في توجيه الحركة الفلسفية إذ ذاك ، وفي توثيق الصلة بين الشرق والغرب . وإن كتاب هذه الرسائل ينقسم الى أجزاء أربعة : أولها فيثاغوري وأفلاطوني ، وثانيها أرسطائي الصبغة ، وثالثها خليط في الفلسفات اليونانية الثلاثة الفيثاغورية والأفلاطونية والأرسطونية ، ورابعها يتناول الإلهيات وما يتصل بالديانات والشرائع والتصوف ، وهو المزاج الذي التأم في العناصر المؤثرة في الفلسفة الإسلامية .

وقال إن الكتاب كله يدور حول الجهاد الذي قام به العقل البشرى ليجد قاعدة وطيدة للتفاهم مع الدين . وحتم بحثه في الرسائل بقوله : « إن الحضارة الإسلامية قامت على العلم والدين ، وإن الحضارة الحديثة إذا أرادت أن تستقر فلا يمكن أن تستقر على العلم وحده ، أو العقل وحده ، وإنما لابد من ارتكازها على عنصرى الدين والعلم كما استقرت الحضارة

الإسلامية من قبل ، وكما شيدت بهذا القول رسائل إخوان الصفاء في دائرة معارفها الجليلة التي لا تزال محترمة بين العلماء الى اليوم .

يخيل للمطلع على هذه الرسائل أن واضعها من أفدر رجال القرن الرابع الهجري إلهاما وإثارة للتفكير الحر ، وأقرهم الى روح العصر ، وأشدّهم عناية بمشاكل الإنسانية الحقيقية ، وأحرصهم على أن يكون فكرهم حيا يقبض بماء الحياة خصبا ، يقدر على النمو من عدم جريشا ، يهاجم المشكلات ويبدد ما قدس من الأوهام . وبهذا استطاعت هذه المجموعة من الرسائل أن تلمح على المجتمع الإسلامي شعورا حيا بالزوع الى تطور عقلي جديد لما امتازت به من إشراق الفكر ، واستقامة الملاحظة ، وسعة الأفق .

ولما كانت قيمة العمل العلمي تقاس بقيمة الأثر الذي يمدنه فلا مشاحة في أنه كان رسائل إخوان الصفاء أثر كبير في عقلية المسلمين . فكان الجانب الصوفي في هذه الرسائل قويا على روح الجماعات الإسلامية في القرن الرابع ، وما تماقّب وراءه من القرون ، لأن هذا الجانب كان يحارب نزغات النفس ، ويحبب الى القلوب التقوى والصالح بما يشبه الكلمات التالية :

النفس البشرية قائمة مكفورة ، تمصف بها الفرائز ، وتعبث بها الميول ، وتتماقّب عليها الدوافع ، وتمتزع بها ظواهر العقل الواعي والعقل الباطن ، وتميش في جو خائق من الضباب الكثيف ، ولهذا لا يمكن علاج النفس إلا بتطهيرها من شهواتها ، وذلك باتساع ما أسره به الدين لتكامل للنفس السمادة ، ويكون لها النصيب الاوفى يوم الجزاء .

عبد الحميد سامي يبرمي

## مجالس العلماء

قال الفضيل بن عياض : اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مسجد بالبصرة ، فقال مالك بن دينار : ما هو إلا طاعة الله أو النار . فقال محمد بن واسع لمن كان عنده : كنا نقول ما هو إلا عفو الله أو النار .

وقال مالك بن دينار في ذلك المجلس أيضا : إنه لمعجبني أن تكون للإنسان معيشة قدر ما يقوته . فقال محمد بن واسع : ما هو إلا كما تقول . وليس لمعجبني أن يصبح الرجل وليس له غذاء ، ويمسى له عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله عز وجل .

فالتفت إليه مالك بن دينار وقال : ما أحوجني الى أن يعطيني مثلك !

انظر بما قابل مالك بن دينار ملاحظات صاحبه محمد بن واسع من التقدير والإعجاب والشكر . فتخيل أن يحدث هذا بين صديقين طامنين في عهد الانحطاط . وانظر ما تسمع من ضروب المحاولات والتأويلات لإثبات الملائكة عليه تنزهه عن الخطأ ، وقد ينتهي الحوار بمخضومة .

## اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة قائمة على مقتضى المستور العلمى

يقبّاد لذهن القارئ أننا تحت هذا العنوان سنورد ما يقوله جبهة من علماء أوروبا منذ أكثر من تسعين سنة ، بإمكان الاتصال بما وراء الطبيعة وأرواح الموتى ، وأنا سنأتى على تجاربهم فى هذا الباب . ولكننا رأينا أن نسلّك لإثبات الروح سبيلا مباشرا ، أى وهى لا تزال فى الجسم الانسانى فى حالة الحياة . فإذا كان الطريق الأول غير المباشر يمكن التمازى فى نتائجه ، بمزج الكائنات التى تتصل بالمجربين الى عالم الجن أو عالم آخر مجرد عن المادة ، فهذا الطريق المباشر لا يستطيع التردد فيه .

إن الباحثين فى المسائل النفسية فى أوروبا وأمريكا من رجال العلم والفلسفة ، لم يقصروا منذ أن اكتشف الدكتور ( مسمير ) الألمانى فى سنة ( ١٧٧٠ ) التنويم المغناطيسى ، فى البحث عن الطواهر النفسية المختلفة ، والحياة الباطنية ، بقصد التوسع فى معرفة خصائص الروح وضبط علائقها . وقد وصلوا بواسطة هذا التنويم الصناعى الى مدى بعيد من قواها الكامنة فيها التى تخفى حياتها المادية ، ويكشفها ما يقع الانسان فيه من ذهول أو إغماء أو غيبوبة مرضية ، أو تحت تأثير الكلوروفورم فى الأعمال الجراحية . ضبط هؤلاء العلماء الباحثون كل هذه الحالات ، فثبت لهم بالدلائل القاطعة ثلاثة أمور :

( أولا ) أن فى الجسم الانسانى روحا من طبيعة علوية .

( ثانيا ) أن هذه الروح مستقلة عنه ، تحمل فيه سادة ميلاده ، وتغادره عند موته لتعيش فى العالم الروحانى مع أمثالها من الأرواح المجردة .

( ثالثا ) أن الروح وإن كانت أسرا إلهيا لا يدرك لها كنه ، إلا أن لها جسدا أتيريا على صورة صاحبها ، غاية فى اللطافة ، لا يمتريه البملى ولا التحلل ، فى قدرتها أن تستمير له مادة من الخارج ، وأن تظهر بصورة صاحبها فى أحوال خاصة ، ويكون صاحبها إذا ذاك واقعا فى غيبوبة .

هذه الأمور الثلاثة من المخطورة بمكان . وقد أثبت بها الأدیان قاطبة منذ أقدم الأزمان ، وخطورتها ناتى من أن ثبوتها بعد أن دحضها العلم الطبيعى ، وأثار عليها حملات متكررة ، يُحدث انقلابا أدبيا فى جميع نواحي الشخصية الانسانية لا تقف آثاره عند حد . فان الدعوة الى السمو الأدبى لا تصادف هوى من العقول والقلوب إلا إذا كان المدعوون يستقدون ببقائهم بعد الموت ، وبترتيب حالتهم فى الحياة الآخرة على حالتهم الأدبية فى هذه الحياة ، فإن زالت هذه العقيدة

فلا يمكن أن يكون للأوامر والنواهي الأدبية ، أقل تأثير في العقول ، وتصبح الدعوة إلى السمو الأدبي فضولا إلا إذا قصد منها ما يعود من فوائدها على هذه الحياة .

إذا وضعنا السمو الأدبي جانبا باعتبار أنه مقصور على أفراد معدودين من كل أمة ، وقصدنا الأخلاق الأولية الضرورية لحياة كل مجتمع ، والتي قررت كل فلسفة في الأرض حتى الاتحادية منها أنها المسالك المعنوية لكل جماعة تود أن تأخذ نصيبها من الحياة العالمية ، رأينا أنها لا تستقر في أمة لا نصيب لأحدها من هذه العقيدة .

أجل ، إن الأمانة التي لا تحرم السرقة والفسخ والنظيف والمخداع والتزوير واليمين الغموس الخ لا يمكن أن تأمن على وجودها من التحلل ، وماذا تأخذ من جماعة مؤلفة من أفراد متناهبين متضادين كاديين قدامين حاشين الخ ، غير مجموعة من أشلاء غير مترابطة لا يمكن أن تسمى أمة إلا تسامحا ، فإذا جد الجدل لم تجد رأيا موحدًا ، ولا شعورا مؤتلفا ، ولا تسكافلا موطنًا .

قد يقولون إن التربية المنزلية إذا كانت قوية ، وتلتها تربية مدرسية قوية ، نشأت النابذة قوية الأخلاق ، كاملة الانسانية ، لا تتعلق بسفاسف الأمور ، ولا تشغل بها يوهن قوتها الاجتماعية ، ويوهي رابطتها القومية ، ويضربون لنا الأمثال على صحة هذه الأقوال بالأمم القائمة ، مدعين أنها أمة لا دينية . وهم يعتمدون في تقريرهم لا دينيتها على أفراد من كل منها نالوا حظا من تربية فلسفية عالية ، ونظروا في أديانهم نظرات انتقادية ، ومهم من أعلوا عداؤهم للعقائد كافة ، وجبروا بنكرانهم لكل وجود غير مادي .

والحقيقة أن هؤلاء الأفراد يمدون على الأصابع ، ومن دونهم عدة مئات أو عدة آلاف يحومون حول مذاهبهم ويتأثرون بها ، ولكن السواد الأعظم من الأمة لا يطلع على كتاباتهم ولا يأنه لها ، وهم جارون من عقائدهم على سجيبتهم التي ورثوها منذ قرون كثيرة . وبهذه البقية من العقيدة يعيشون تحت ضوء تمثّل أعلى من الأخلاق والآداب . فإذا تحجّت المادية في نشر الاتحاد بينهم انقلب هؤلاء إلى وحوش صارية لا يرد عادية بعضها عن بعضها الآخر شيء .

إذا أراد المعترض أن يدرك بدليل محسوس مكان العقائد من روابط الاجتماع ، وعملها من قواها المعنوية ، فليذكر أن أية جماعة من الجماعات التي قامت على الأرض من أول تآلف الجماعات إلى يومنا هذا ، لم تخل من دين قط . فإذا نظرت إلى هذا المظهر من مظاهر الاجتماع ، ولو من وجهة مادية باحتة ، قلت لا بد من أن يكون الدين حاجة من حاجات الاجتماع ، وإلا لما كانت هناك حاجة إلى أن يكون دائما على هذا النحو ، وثانًا - على شدة تخالف الأديان والمذاهب - على أصول عامة مشتركة بينها ، هي أن للوجود ظالقا ، وأن للإنسان روحا مستمدة منه ، وأن لهذه الروح بقاء بعد الموت نحاسب فيه على ما اكتسبت ونجبراء جزاء وفقا .



إذا فكر الناظر في هذا الأمر على هذا النحو انكشف له سر اجتماعي عظيم الشأن ، وسر فلسفي لا يقل عنه خطورة .

أما الأول فهو أن الاجتماع بحاجة الى قوة أدبية ترفع نفسية الجماعة على وجه الاستمرار الى مُثُل عليا ، تتفق وكرامة الانسانية ، على سنة التدرج ، حتى تصل بها الى مكانة عليا . وذلك خشية أن تنحصر روابط الاجتماع في الحاجات المادية ، فتقلب الجماعة الى منمر كبير لا هم له إلا سلب الآم ، وتدويج الشعوب ، وإهلاك الحرث والنسل ، وهي حال وحشية لا تلائم الوجود الانساني ، وتبدو عدم ملاءمته له في أن كل جماعة كبيرة انقلبت بحكم فساد قلوب أفرادها الى منمر ، ليس لديه ما يقتبس منه من القوى الأدبية ، هلك في سنين معدودة . والامثلة في التاريخ لا تحصى . والفضل في بقاء الفتوحات الاسلامية وشيوع آثارها ، أن المسلمين آثروا البلاد التي افتتحوها مثلا عليا ، وخصروا أدبيا قما لا يزال يؤتى بشمراته فيها الى اليوم .

وأما السر الفلسفي فهو : أن الحياة الانسانية لا تكفيها الأغذية المادية مهما بلغت من الدسومة والتنوع ، فلا بد معها من الأغذية الروحية . فهي ليست مجردة من التفكير كالسحل والنمل وغيرها فتسطع على الاجتماع طبعا ، ولكنها في حاجة الى ما يقيم أودها النفس من الأصول الأدبية ، وأين هي إذا لم تستمد من دين تستقيم عليه ، ويتطور معها حافظا لسموه الروحاني ، كلما خطت خطوة في طريق التطور العلمي

إن أخص ما تحتاج إليه الطبيعة الانسانية من المدد الروحاني ، عقيدة راسخة في البقاء بعد الموت ، لأن البقاء أحب شيء الى الانسان ، والفناء أكره شيء إليه ، فإذا لم يجد دليلا له على صحة هذه العقيدة زادت همومه الدنيوية ، وشغله من المحافظة على نفسه من الموت شاغل يسرع به الى الهاوية لقلعة ما يدفعه الملح إليه من الاضطرابات المعصيبة .

كانت العقيدة في الحياة الآخرة تكاد تكون عامة بين جميع البشر ، لذلك لازمت الدين في جميع أدوارها ، ولكن بعد أن قامت دولة العلم ، وحرص أشياعه على اجتثاث جذور الأديان من قلوب البشر ، بحجة أنها تحول بينهم وبين الترقى ، صنف سلطان الدين على العقول ولم يعد لدعوته التأثير الذي كان له في القلوب ، بل عاداه الناس جهارا ، وصرخوا بأنه لا بقاء له إلا ببقاء الأمية والعمامية ، واعتبروا دعائه والقائمين عليه مالة على المجتمع يتناولون حصتهم من ثمرات كده بفصل تلك البقية من الجبل في الطمقة السفلى من آحاده .

هنا قد تشور فائرة أشياخ الفلسفة المادية ، ويوحون الى أن تترى شديدا على قولي بأن الدعوة الى السمو الأدبي لا تثمر في الجماعات إلا بوجود عقيدة الخلود ، ويقولون بأن الشخصية الخالصة من الأوهام ، المستنيرة بمقررات العلم ، تنساق من ذاتها وراء المثل العليا للأخلاق ، وتصبح فاصلة باسم أداء الواجب ، لا ملما في فواب ، ولا هريا من عقاب .

نقول : إذا سمعنا بحدوث السمو الخلقى لبعض الآحاد من غير طريق العقيدة فى الخلود ، فلا نستطيع ، كما قدمنا ، أن نسلّم بأن هذا السمو قد يمّ مئآت الملايين فى جميع المجتمعات ، لأنه لا يعقل أن شخصياتهم جميعا تخلص من الأوهام ، وتستنير بمقررات العلم .

وأما أسوقه تدعيّا لما أذهب إليه ، أن الجانات الإنسانية الأولى كانت لا تفرق عن الحيوانات فى وحشيتها ، لا قليلا ، وما كانت تعرف للتقيد بالواجبات ، ولا للحضوع لحكم المواطن معنى ، فما زالت فطرتها الدينية تلتطف من تعجرفها ، ويهذب من تشمرها ، حتى قبلت التقيد بالقيود الأدبية ، وخضعت لأحكام المواطن القلبية ، وما انفكت تجرى على هذه السنة حتى بلغت درجات عالية من الحضارة .

فإذا هُدم هذا الأساس الذى قام عليه هذا الترقى الأدبى ، وسرى إلى الجانات التى لا تزال فى حاجة إليه ، فعلى أى أساس يقوم هذا الترقى بعده ؟ ألا يخشى عليها أن تتدهور فيما حصلت من آثاره ، وأن تنتهى إلى حالة من الانحلال الخلقى لا يمكن البقاء عليها ، وقد ظهرت بوادر هذا التدهور فيها ، وشكا منه حتى الذين يقولون بذهب المادة الباحثة ؟

لنسلّم بأن الحياة الاجتماعية يمكن أن تقوم ، وأن الأخلاق يمكن أن تنقوم بدون الاعتقاد ببقاء النفس بعد الموت ، فهل تبسم الحياة لشخصية تعتقد أنها صائرة إلى الانحلال ، وأنها لا تدرى متى تدعى إلى الفناء ، والمسايا كما قال الشاعر الجاهل زهير تحبب خطب عشوا ، من نصب ثمنه فى مبة العبا ، ومن تحبب يعمر فيهم ؟ فإذا ذكر هذا المهرم الموت قال كما قال الفيلسوف ( رافيسون ) ( ١ ) القرنى - « لقد بلغت الثمانين وكلما ذكرت الموت اعترائى زعر شديد » ، فلو كان غير فيلسوف قالها لقليل هذه شخصية غير خالصة من الأوهام ، ولا مستنيرة بمقررات العلم !

إن إثبات وجود الروح الإنسانية بوسائل العلم الحديث ، وعلى موجب دستور القيم ، من الضرورات التى أصبحت واجبة التقديم على غيرها .

( أولا ) لأنها أساس كل دعوة خلقية وأدبية توجه للأحاد ، فإن من لا يرى لنفسه بقاء بعد الموت ، لا يرى أن يتقيد بقيد أدبى يصده عن شهواته ، ويرده عن غوياته .

( ثانيا ) لأن الواجب يقضى علينا أن نذبح ما هدى إليه العلم من الأدلة الحسية على وجودها ، فإن فى كتابها تبعه ، لا سيما ونحن فى زمان الناس أحوج ما يكونون فيه إلى الشكائم الأدبية ، ولا يصلح من الشكائم إلا ما قام على أساس عقيدة ثابتة فى المسئولية الشخصية ، والنبذة الأدبية .

( ١ ) رافيسون فيلسوف فرنسى وأثرى مشهور ولد سنة ١٨١٣ وتوفى سنة ١٩٠٠ .

لقد وصل العلم الأوروبي من هذه الناحية الى مناطق لا يتخيلها الناس تخيلاً ، أصبحت معها مسألة إثبات الروح والخلود مسألة مادية يحتمل لقيامها على الحس والملاحظة .

وقد رأينا أن أحسن كتاب جمع هذه التجارب العملية ، والملاحظات الحسية في صعيد واحد ، هو ما وضعه الأستاذ السيكولوجي ( إرنست بورنو ) في كتابه المدعو ( La Bilocation ) ومعناها خروج النفس من الجسد ثم عودتها اليه ، ولذلك قد عولنا على ترجمته لقراء العربية . وإني أرجو أن يكون أثره على المطلعين عليه هنا مثل أثره على المطلعين عليه هناك ، وأن يُعنى به المرشدون والمواعظ ليستطيعوا أن يحلوا شهادت المحادلين بأدلة قاطعة ، بدل تلك المحاورات التي تقابل بمنظورها .

وإننا نبدأ اليوم بإيراد مقدمته ، ثم والى ترجمة مصوله حتى نصل الى نهايته ، إن شاء الله ، ويكون في هذا مقدمة قيمة منا لقرائنا في السنة المقبلة من حياة مجلة الأزهر .

محمد فريد ومجدي

قال الأستاذ إرنست بورنو في مقدمته :

« إن ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه ، ذات قيمة حاسمة في إثبات وجودها وبقائها بعد الموت ، إثباتاً مبنياً على التجربة . ذلك لأنه يدل دلالة قاطعة على أنه يوجد في الجسم المادى جسم آخر أثيرى يمكنه أن يخرج حين يقع الجسم في حالات نادرة من المصوطة الجبوى (١) ، كالنوم المادى ، والتسويم الصناعى ، وحالة الوساطة الروحية ، والذهول ، والاضغاث ، والتخدير والتشمى فشكل هذه الحالات تسمح له بالاعتماد وقتاً ما عن الجسم المادى في أثناء الحياة الأرضية .

« إن هذا الجسم الأثيرى أو (البيرسبرى) إذا انفصل من الجسم المادى حمل معه الوعى الشخصى ، والذاكرة كاملة ، وجميع الخواص الحسية . وعلى هذا يتحتم الاعتراف بأن هذا الجسم الأثيرى متى انفصل عن الجسد نهائياً بواسطة الموت ، فإن الشخصية الانسانية تستمر

(١) أدت التجارب والملاحظات في المباحث الروحية الى ثبوت أن للروح حسباً أثيرياً على شكل الجسد الحال هوبه ، وهذا الجسد الأثيرى غير قابل للتخلل ولا للتفناء . وهذا يشبه ما ورد في مذهب مالان بن أنس من أن الروح صورة كالجسد . وقد أجمع أهل الأديان القديمة حتى الجماعات الساذجة منهم على ذلك . وقد عني العلماء الأوروبيون والأمر يكون بتحقيق هذه المسألة ، فثبتت ثبوتاً قاطعاً ، وأصبحت من الأدلة المحسوسة على استقلال الروح عن الجسد ، وعلى بقائها مستقلة بعد الموت . والكتاب الذى نحن بصدده يورد بعض الحوادث والتجارب التي جعلت في إثباتها .

على البقاء في الأحوال المحيطة بها والمناسبة لها . ومتى سُلم بهذا فقد سُلم بأن وجود جسم أثيري داخل الجسم المادي ، يثبت أن موطن الوعي والادراك هو هذا الجسم الأثيري ، الذي هو الغلاف العلوي غير المادي للروح التي تختل عن جثائها .

« من لدن عشرين سنة اشتغل بهذه المسألة من مشهورى القاعين والمباحث النفسية جماعة بعناية خاصة ، وأوردوها بالتأليف في رسائل وكتب . أذكر منها ثلاثة مؤلفات وضعت في فرنسا ، أحدها لجبريل دولان ، والثاني لهرى دورفيل ، والثالث لـ كولوئيل دوروشا . أما في إيطاليا فقد خصها الأستاذ لومبروزو بفصل من كتابه . وفي ألمانيا الدكتور ١ . ماتيزن وقف عليها رسالة كبيرة بحثها فيها بحثاً مدققاً بطريقة جديدة باستاذيته

« أما من ناحيتي أنا ، فقد نشرت فيها رسالة في سنة ١٩١٠ عنوانها : (اعتبارات وافتراسات على ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودها إليه في أثناء الحياة) ، ولكن المشاهدات قد استمرت من ذلك الحين على الاحتشاد ، ووصلت من الكثرة إلى حد بعيد ، حتى أراى أم لك منها الآن مراد تصلح للحكم عليها من ناحية عامة محكمة ومؤكدة بسبب تراكم موادها ومستنداتها . فإذا كنت قد صرحت في رسالتي الأولى عن تبصر بأن الأدلة الناجمة من الحوادث التي سردها لا تكفى لأن ندمج هذه المسألة قيمة علمية ، فإني الآن حيال هذا القدر العظيم من الحوادث المجتمعة والمترتبة ، أعتبر أن الوقت قد آن لأن أصدر حكمي فيها بصراحة وتأكيد .

« أما والحالة ما رأيت ، فأناس حاول في هذا الكتاب زيادة مادة الموضوع الذي نحن بسبيله ، متصرفين في رسالتنا الأولى تصرفاً تاماً ، ومضاعفين حجمها ، وساعين بأن لا أورد من المصادر التي ذكرتها شيئاً من الحوادث ، لأن المستندات التي جمعتها الآن من الكثرة بحيث أراى مضطراً أن لا أستغل منها إلا مقداراً قليلاً . وأرى من الحكمة أن آبي استخدام حوادث سبق أن اطلع عليها جمهور الناس ، مهما كانت مفيدة وذات دلالة في النظرية التي أؤيدها . وزيادة على هذا قد أخذت على نفسي أن أتخذ أسلوباً خاصاً لتجنب خطر الوقوع في تسلسل الآراء الذي يمنعني من تدوين بحوثي الشخصية بوضوح تام .

« فأحاول نظر الذين يودون التعمق في هذه المسألة بعد قراءة كتابي أن يطلعموا على مؤلفات دولان ودورفيل ودوروشا ولومبروزو ودوماتيزن .

« والذي ألاحظه ، قياماً على أسلوبى الخاص في الترتيب الذي أنا تصدده ، أن ظواهر خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه يمكن أن تنقسم إلى أربعة أنواع لكل نوع منها قيمة نظرية مختلفة ، فإليك :

« ١ . النوع الأول سنأتى على أحوال الشهور بكمال الجنان لدى الذين يترت بعض أعضائهم أو المصابين بالشلل النصفي ، وهذه حالة فيجتها النظرية أكبر كثيراً مما يظنه الناظرون .

« وتدخل في النوع الثاني الأحوال التي فيها الشخص يرى جسمه الأثيرى منفصلا عنه وهو حاصل على وعيه في جسمه المادى .

« وتأتى في النوع الثالث الحالات التي فيها الوعى كله ينتقل الى الجسم الأثيرى المنفصل من الجسم المادى .

« وتبقى في النوع الرابع الحالات التي فيها الجسم الأثيرى لى أو لميت يكون مرئيا من الناس جبهة .

« أما من الناحية الفيزيولوجية فيحسن التنبيه بأن لظواهر خروج الجسم الأثيرى للروح من الجثمان ، صفة مميزة ذات دلالة عالية ، هي أنها كلها متشابهة ولها سبب عام رغمًا عن الأشكال المختلفة المدهدة التي تظهر بها ، وهو تشابه دائم لم يطره تغير في أى زمان ومكان ، ولدى كل شعب من شعوب الأرض ( ومنها الجماعات المتوحشة ) ، بحيث أصبحت نقطة تلاقى جميع الأدلة التي يمكن أن تقام لإثبات وجود مستقل للروح الانسانية . ويحسن أن يلاحظ أيضا أن هذه الحوادث من الكثرة بحيث إن ما جمعتة أنا منها لا يكفى سفر ضخ لا استيعابه . هذه الكثرة بعضها ناشئ من أن مجالها متسع الى حد شموله لكل ظواهر الوساطة ذات النتائج المادية ، حتى المشاهدات التجسدية التي توجب على خصوم النظرية الروحية الاعتراف بصحة حوادثها . وبعض هذه الكثرة أيضا أتى من تسرب عدد عظيم إليها من الأحوال التي كانت تعتبر الى الآن من الظواهر التلباتية .

« وأما بعد إتباعى ترتيب هذه الظواهر سأكتفى بمرض عدد كاف من الحالات النموذجية مع تحليلها وشرحها بإيجاز ، محتفظا لنفسى بحق إبداء اعتبارات عامة عليها في خاتمة هذا الكتاب .

## الجرأة في الحق

عن سفيان بن عيينة قال . قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق ، فنظر الى شاب منهم يتجوس للكلام . فقال : أكبروا أكبروا . فقال الشاب : يا أمير المؤمنين : إنه ليس بالنس ولو كان الأمر كله بالنس لكان في المسلمين من هو أسن منك .

فقال عمر بن عبد العزيز : صدقت وحمدك الله ، تكلم .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا ، وأما رهبة فقد أمنتنا الله بعد ذلك من جورك .

قال عمر : فما أنتم ؟ قال الشاب : وقد اشكر . فطر محمد بن كعب القرظي الى وجه عمر يتهلل . فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يفلن جيل القوم بك ، معرفتك بنفسك ، فإن ناسا خدعهم النساء ، وغرم شكر الناس ، فهلكوا ، وأنا أعينك بالله أن تكون منهم .

فأتى عمر رأسه على صدره .

## اختلاف الناس في أيام الشهور القمرية

نشر تحت هذا العنوان بالجزء السابع من هذا المجلد مقال لحضرة الاستاذ المحترم « محمد حفطى » حاول فيه بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « شهرا عيد لا ينقصان : رمضان وذو الحجة » . فجعل ذلك إشارة الى تنبئه صلى الله عليه وسلم بما قرء عليه قرار الارصاد الفلكية من أنه لا يمكن أن يكون كل من رمضان وذى الحجة ٢٩ يوما في عام واحد .

وإني مع تقديري لمجهود حضرة ، أستطيعه عذرا في أن أخطئه في هذا الرأي ، وأقرر أن الأصح ما ذهب إليه الامام النووي وغيره من أن الحديث يشير الى عدم نقصان أجزائها ولا شأن له بعددها ، فإنهما قد ينقصان معا — حقيقة وشرا — في عام واحد ، كما منا هذا ( ١٣٥٩ ) ومام ( ١٣٤٥ ) وغيرها ، مما يعلم بمراعاة التقاويم الموثوق بها

والحساب الذى أطال حصرته في بيانه وأوضحه غاية الايضاح ، إنما هو حساب وسطى لا يطابق الحقيقة شهرا شهرا وإن طابقها باعتبار مجموع من الأشهر مثل ٢٢٣ شهرا ، وذلك أن الشمس والقمر قد يصرمان في السير وقد يبطآن فلا تستوى مقادير الأشهر ولا السنين إلا إذا نظرنا الى مجموع من كل منهما ، وإنما اعتبروا هذا الحساب وإن لم يطابق الحقيقة لأنه يسهل العمل به في المسائل التى يكتفى فيها بالتقريب ، ولا يصح محال أن يكون الحديث مشيرا إليه ؛ لأنه فرضى تقريبي كما عرفت ، ولأنه يقضى أن تكون الأشهر الفردية كالحرم وربيع الأول كواهل دائما ، والزوجية كصفر وربيع الآخر واقص دائما ، إلا ذا الحجة ، فإنه يكون كاملا في الكبائس واقصا في البساط ، فيكون رمضان على هذا ٣٠ يوما دائما لأنه فردى ، وهذا يخالف القانون الشرعى المجمع عليه ، وهو أن الشهر هكذا وهكذا « أى تارة ٣٠ وتارة ٢٩ » . كما يخالف القانون الفلكى المتفق عليه ؛ وهو أنه يجوز أن تتوالى أربعة أشهر كل منها ٣٠ يوما ، وأن تتوالى ثلاثة أشهر كل منها ٢٩ يوما ؛ وتحقيق هذا يحتاج الى مقال خاص .

على أننا لو جاريينا حضرة الاستاذ الباحث وفرصنا أن هذا الحساب حقيقى ، فإننا لا نحصل على النتيجة التى جزم بها وكتب المقال لبيانها ، وقد كفانا حضرة مؤنة البحث معه في ذلك ؛ حيث قرر في الجدول الذى وضعه أن التاسع والعشرين من شعبان يتم بتمامه ٢٣٦ يوما من السنة ، فإذا لم نر الهلال فى الليلة التالية فإنها مع يومها تلحق بشعبان ، صلا بالحديث الصحيح « فإن غم عليكم فأكلوا عدة شعبان ثلاثين يوما » ، فبإكمال شعبان يتم من السنة ٢٣٧ يوما ، ومن الممكن بلا شك أن يكون رمضان بعد ذلك ٢٩ يوما لأنه نقص من أوله فيجوز أن يرى هلال شوال ليلة الثلاثين منه بلا تعسر ، وبعض رمضان مع نقصه يتم من السنة ٢٦٦ يوما ، فيكون ذو الحجة ٢٩ يوما كما قرره هو فى جدولته .

والذى أوقفه في هذا اليوم أنه أوجب عند نقص رمضان أن يتم به من السنة ٢٦٥ يوما فقط ، وقاته أن اليوم الذى نقص من رمضان بحسب الرؤية قد ألحق لشعبان .

على أننا لو فرضنا أنه تم بـرمضان ٢٦٥ يوما فقط وكان النقص لاحقابه من آخره لرؤية هلال شوال قبل ميماده الحسابي ، فمن المعقول أن يلحق هذا اليوم بشوال ، فيكون ٣٠ يوما ويبقى ذو الحجة ٢٩ يوما ، فينقصان معا هو ورمضان .

وبعد - ففي المقال ما يوم أن تسمية الشهرين من تفسير الراوى « خالد » لا من متن الحديث ، لأنه زادها عن الراوى الآخر « إسحاق » ، وهذا لا يصح ، لأنهم : أحدها أنه لم يتفرد بها بل شاركه فيها غيره كما يصلح بمراجعة الكتب الحديثية ، وثانيهما أن زيادة الراوى الثقة في متن الحديث لا يصح الحكم بكونها من عنده إلا بدليل من الأدلة المقررة في كتب « مصطلح الحديث » ، وليس من الأدلة نقص الراوى الآخر ؛ وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد والطبرانى والبيهقى ، ولم يصح أحد منهم بأن هذه الزيادة من تفسير الراوى ، ولذا ذكرت في الكتب التى ليس فيها ذكر لراوى خالد ولا غيره كالتحريد الصريح وتيسير الوصول والجامع الصغير ، مضمومة الى أول الحديث مع نصبتة كله الى النبي صلى الله عليه وسلم .

بقي في المقال أخطاء في الأرقام منشؤها الخطأ في التحويل أو الجمع ، وأنا أذكرها الأرقام الصحيحة إتماما لمائدة القارئ الكريم :

ثانية	ق	س	يوم	
٢٩	٤٤	١٢	٢٩	أى ٢٩,٥٣٠٦ ، ورقم ٦ فى أول
الكسر أكبر من الحقيقة بقليل لأن أصل الكسر هكذا ٠,٥٣٠٥٨٩ ، وعليه تكون				
السنة القمرية الوسطية ٣٩٧٠,٣٦٧٠ يوما . وللإختصار يحذف الرقمان الأولان من الكسر ،				
ومجموع ٢٢٣ شهرا يساوى ١٨ سنة شمسية و ١٠,٩٦ من الأيام تقريبا .				

هذا ولخبرة الأستاذ الباحث فضل السبق بالبحث ، وما قصدى إلا إعانتة على الوصول الى الحق الذى هو غاية آمال الباحثين .

على حسن البرهان  
المدرس بمعهد الزقازيق

## من أخلاق الشريعة الإسلامية وآدابها

لم تكن الشريعة الإسلامية قانوناً تحكم عليه ملابساته وبواعثه ، ونخضعه لعصر من العصور معين ، أو جيل من الأجيال يتأثر ويسير على هدايته ، بل هي شريعة أبدية البقاء ، ربطت بين أجزاء الماضي والحاضر والمستقبل بأوثق العرى ، فأخضعت الراميس السكونية ، والعوامل السفلية والمالية لأحزائها ودلالاتها ، وتطورت الحياة تطوراً مطرداً ، فأتت دوراً من أدوار التاريخ الانساني إلا صبغته الشريعة بآدابها وأخلاقها وماداتها وشئ شئونها المختلفة ، وخلعت عليه طائفاً من طوابعها ، فأمرت ظلمته ، وأحيت ميتته ، وحركت جامده ، وبعثت فيه الحياة والقوة والحماء بأذن الله : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ، ونحن له مابدون .

هذه شعوب تظاً بأخصها تلك الرقعة السوداء فلانها علوماً آتية ، ونظريات كونية ، ومكنونات تمخضت عنها العقول المشرقة ، والعزمات الوثابة ، فأضحت على الوجود حياة مشرقة ، وسعادة جلى ، ولكنها صدقت من دينها ، ديز الفطرة والملة الحنيفية البيضاء ، فهوت وذوت ويسر عودها ، وأصبح داؤها عياء ، وعلمها هباء ، ذلك لأنها حادت عن طريقها السوى ، وناموسها الجلى .

وهذه دول فى الأرض اليوم تتناحر فى سبيل الفناء ، ويحاول بعضها تفتيت البعض الآخر ، وما من أمة أخذت بقسط من دينها وسهم من شريعتها إلا كتب لها الله المنعة والقوة والسؤدد ، وبوأها فى المالمين مكاناً علياً .

وهذه أمم الاسلام فى صدر الاسلام كانت تدانى الشمس فى هليائها ، والكواكب فى بعد منالها ، لأنها أخذت بالدين فى أمرى معاشها ومعادها .

وبلا فأن نظم الشرائع الوضعية على تقادم العهد بها ، واعتناق آلاف ملايين البشر لأحكامها ، من تلك الشريعة الخالدة الباقية على الزمن ، تلك الشريعة التى رسمت فى لوح المجتمع حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وحياة الأمة ، ودعت العقل الى التفكير والتعمل ، والنظر فى ملكوت الله الذى برأ السموات والأرض ، وكيف أنه صخرما فى الأرض جميعاً للإنسان ، وكيف أنه سبحانه أخضع لتلك الجرم الصغير أجرام الكائنات ، فبصر الإنسان بالعوالم كلها فإذا هى بين يديه مسفرة ، وإذا الأقدار القاهرة من حوله مدبرة ، وإذا العقل يتلاقى مع الدين ، وإذا الدين يثمر حسن اليقين . فتبارك الله أحسن الخالقين .

لقد أحاطت الشريعة هذا المجتمع بسياج صفيق ، فدبرت للجماعة وللأمة حياة سعيدة



وعيشا رغدا ، فوضعت لملاقة الزوجية حدودا ، وجعلت بين الرجل وزوجته مودة ورحمة ، وأحالت ما بينهما من تنكر وشتات ، الى محبة وتعارف واتسلاف ، ثم وصلت بين الإنسان وخالفه ، وصاحب الرسالة التي جاءت على يديه ، ومقام الرسل في البشر ، فأبانت أمرار الوحي السماوي ، وحكمة إرسال الرسل عليهم السلام ، وعن حكمة بعثة الرسول الأعظم على فترة من الرسل ، وكيف ثبتت تلك الرسالة بشئ وسائليا ، ثم عن معجزات الرسول الدالة على رسالته ، وعن إعجاز القرآن ، وكيف تحدت به بطون العرب وأقحاصهم ، ثم عن المعاملات في أوسع حدودها ومختلف شئونها ، فقد بسطت الشريعة السعة سائر التصرفات التي تقع من المكلف كالبيع والسلم والإجارة والقراض والوقف والهبة والعارية ، وعن الربا والحسكة في تحريمه وجزاء تركه دحضا لنظرية فاسدة تقول بحل الربا لأنه من قبيل ما عمت به البلوى ، وهو قول لا يرتكز إلا في رهوس خلت من كل شيء إلا من الجنون ، وامتلأت بكل شيء إلا بالمقل والحجا ، وهكذا مما يطول تعداد ، ويتمنر حصره من آياته الباهرة ، وحكمه الظاهرة .

ولا شك أن الشريعة التي تشع على الوجود فبس النور واليقين ، وتفتح أعين الناس على عظمات بالغات ، وحكم سائغات ، هي تلك الشريعة التي سمت بالمجتمع الى خير طريق وأبلغ محجة . ويقيننا أن الله لو أتاح في المستقبل إن قريبا وإن بعيدا للشريعة المطهرة رجالا يكشفون عن جلالها ومبلغ خطرها في المجتمع ، وبصرون الناس بحسن آثارها وعظيم جدواها لا انصرف الناس عما هم فيه من زخرف حائل ومتاع زائل .

« يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا مناع ، وإن الآخرة هي دار القرار » على الضد القريب

مجلس طه

## الكمال في الاعتدال

قيل للأحنف بن قيس عى نعلت الحلم ، قال من قيس بن عاصم المنقري ، رأيت قاعدا بفناء داره ، محتبيا بمحائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتى رجل مكتوف ورحل مقتول . فقيل له هذا ابن أخيك قتل ابنك . فوالله ما حل حبوته ، ولا قطع كلامه . ثم التفت الى ابن أخيه وقال له : يا ابن أخى أتمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك . ثم قال لا بن له آخر : قم يا بني فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق الى أمه مائة فاقة دية ابنها فأبها قرية .

نقول : قد يبدو هذا الضرب من الحلم ، إن صح وجوده ، مثلا أعلى لبعض الناس ، وهو لا يستحق أن يسمى حلما ، فإن الذى يعرض عليه قاتل ومقتول ، فلا يقطع كلامه ، ولا يحل حبوته ، حتى ولو لم يكن ابنه ، لا يعقل أن يكون مستكلا لفراخ الانسانية .

## كتاب لدولة رئيس مجلس الوزراء

آس حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المحترم الشيخ محمود أبي العيون ، شيخ علماء الاسكندرية ، تأخيراً في اتخاذ الوسائل التي كانت الغرض منها صيانة الاخلاق وتحميد السهر وحماية شهر رمضان ، قرأى أن يستنجز حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ما وعد ، فأرسل فضيلته إليه هذا الكتاب . وقد وصلنا بعد ظهور المجلة في الشهر الماضي ، فنتبئه اليوم

حضرة صاحب الدولة الوزير الأكبر حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى كتب لك السلامة والفوز بما أعدّ لك من الأقدار والالطاف في كل ما يتعه اليه قلبك الطيب . وتعالج رغبتك الصادقة من الأعمال الجسام ، وفي ذلك كرامة لك من الله سبحانه وتعالى حذيرة منك بالشكر له والثناء عليه .

وشكر الله عز وجل من موجبات الاستزادة من الأعمال الصالحة لهذا البلد المسكين « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج ألا نكذب » وأن أخشى ما نخشاه أن ما يجرمه الجارمون في هذا البلد . وما يمنونه عليه من التمرس به والاستطالة عليه بسوء التدبير في هذه الظروف القاسية لما يطيح به الى مصائر التدمير والانحلال .

وها أنا نبذنا أخلاق الدين ، واستهنا بتعاليمه الصالحة ، فأصبعنا في مفترق الطريق لماورنا عوامل الفناء من كل مكان . وها هي نوادينا ومجتمعاتنا غاصة بكل طاجر وفاجرة . وفيها تقام أسواق الخنا والمتاجر الآثمة في استهتار وقعة ، هذه حانات الخمر مفتحة الأبواب مبكرة محمية ، وهذه ملاعب الهوى ليس لها مواعيد مؤقتة ، وهذه أندية القمار بمختلف أنواعها ، من مراهنات الخيل وسباقها ، وصيد الحمام وغير الحمام ، وهذه بيوت الفسق أعلنتها وأسراراً يبع في مسارحها أعلام الفسق عجيبة . ويحب أشباه الرجال في آثامها عباً . فإذا هبنا بقوله الحق فيهم سرهوا ورمونا بالجود والحبل بحركة العالم ونطور الدنيا .

يا دولة الوزير الطيب : ألا نجد منكم تقوم المعوج وتردع الفاجر وتصلح الفاسد . ألا صولة صاعدة تحميها من خلقها صرامة الحق وتاديب الشارع الحكيم . فيبقي النائم . ويهرب الآثم . ألا غضبة للدين والأخلاق تجلب هذا الظلام الخالك وتتر الطريق للسالك . ونحول هذا الحال الى أحسن الحال ؟

أنتا في حاجة الى حكومة قوية عبيدة . تسوقنا الى الخير سوفا ، وآمالنا فيك أن تكون رأس هذه الحكومة القوية في الحق ، العبيدة في الباطل .

ضاق معاوية بأهل البصرة ذوما لخروج أهلها عن جادة الحق . بانفاسهم جبهة في العسق . فرماها بداهية العرب زياد بن أبيه ، فخطب فيهم خطبته البتراء المعروفة ، وما أعوزة الامر بأكثر من الترهيب والتوعيد . فاستقام أهل البصرة ما بين عشية وضحاها .

نحن لا نعجرك في الطلب ، نطلب منك هينا يسيرا طلبا من قبل فوعدت بأنجازها وأعجز حر ما وعد . نطلب منك أن تحمد من هذه المشايين والمناقص بأمر عسكري . ونصيق الخناق على الجارمين باسم المدنية والحرية الشخصية .

وأن الأمم الكبيرة ، والدول الصغيرة فعلت ذلك في شعوبها فنحنعت نحاحا كبيرا . يا دولة الوزير الطيب : تمب رجال الدين في الدعوة الى الله لأن الدعوة في حاجة الى التأمين والحماية . والله شرع لحماية دينه والدعوة إليه الحدود والعقوبات لأخافة أهل الباطل وردع الفجار المستهترين .

ونعد . فهذا زائر مبارك هو شهر رمضان المعظم ، واحترام هذا الضيف وتقديسه أنما يكون بتطهير البلاد من المعاصي ومن انتهاك شعائر هذا الشهر الكريم ، ولهذا ننتظر من دولتكم أن تأمروا بتشديد الرقابة على المستهترين بحرمة الدين والآداب العامة وأخذهم بالشدة والصرامة ففي ذلك حفاظ على قدسية هذا الشهر وحرمة .

وفقل الله وأمانك ويسر لك في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول حفظه الله

شيعب علماء الاسكندرية

## كتاب لسعادة محافظ الاسكندرية

وجه حضرة صاحب الفصيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ معهد الاسكندرية ، خطابا الى حضرة صاحب السعادة محافظ الاسكندرية ، يرجوه فيه أن يجدد لرجال البوليس ما أسدره سعاده اليهم من الأوامر المشددة في العام الماضي بمراقبة الآداب العامة حفظا لكرامة شهر رمضان ، ويكرر لسعاده الشكر على ما أسلف من جهد محمود في ذلك . وهذا نص الكتاب :

حضرة صاحب السعادة الجليل عبد باشا حسين محافظ الاسكندرية .  
سلام الله عليك ورحمته وتحيته .

ونعد . فان شهر رمضان الكريم قرب حلوله ، وهو شهر مبارك يحتفل به المسلمون في أقطار الأرض ، وتقده ملائكة الرحمن في السموات السبع ، وتحمل فيه البركات على المؤمنين . تخليق بالبلاد الاسلامية أن تستعد للقائه ، سفوس طاهرة ، وقلوب عامرة بالايمان ، ولهذا كان جديرا بأولى الأمر في أن يراقبوا المستهترين بحرمه هذا الشهر ، في المقاهي والطرق العامة ، بالضرب على أيديهم ، وزجرهم بالنوعس والترهيب ، وفي العام الماضي كان لسعادتكم الانزاحم في ذلك الموقف ، ولهذا نرجو الى سعادتكم إعادة الكرة بالتنبيه على رجال الشرطة بالمحافظة على تلك التعليمات التي صدرت اليهم في العام الماضي ، وإنا نسان الدين والأخلاق نكرر إليكم الشكر ، وندعو لسعادتكم بالتوفيق وحسن المثوبة .

والسلام عليكم ورحمة الله  
شيخ علماء الاسكندرية

دروس الفلسفة :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الكريم الزنجاني شيخ علماء الجف الاشرف  
بايران قدم راسحة في مجال الفلسفة على وجه عام ، والفلسفة الاسلامية على وجه خاص ، وقد  
زار مصر في سنة ( ١٩٣٨ ) فكشف عن عيلم علم ودين ، ونال إعجاب العلماء المصريين ،  
وتقديرهم العظيم .

أهدانا فضيلته بكتاب له جديد اسمه دروس الفلسفة ، كان سبق له تدريسه ، وكان السبب  
في نشره ، أنه لاحظ أن الكتب الفلسفية التي ألفها الغربيون والشرقيون في المصور الأخيرة  
صورت الفلسفة الاسلامية في صورة تقدر الأهداف من قباحتها ، ولا يعرفها أهلها إذا  
عرضت عليهم ؛ وسجلوا عليها أنها لا تزيد على أنها نظرات يونانية ، ولا يوجد فيها شيء من  
الابداع والابتكار ، مما يثبت جليا أن الغربيين لم يفهموا الفلسفة العربية لمفوض أساليبها  
فأسقطوها . والفلسفة الاسلامية وإن كانت زاخرة بالمفاهيم والمنتكرات ، وكانت من أكبر  
وسائل النهضة الفلسفية الحديثة ، إلا أنه لا يجشمها أن تبلغ الكمال فتسجل المكتشفات  
قبل حدوثها بألف عام .

قال فضيلته بعد أن بسط القول فيما تقدم « وليس المقصد من ذلك نبذ الفلسفة الحديثة ،  
كلا ! فإن كلا من الفلسفتين قوة عقلية ناجزة ، وعدة فكرية ماهرة يجب استغلالها ، ولا  
يجوز الإستهانة عن كل منهما » .

لنا كلمة بعد هذا وهي : أن هذا الكتاب يكشف من سمو الفلسفة العربية مالا يكشفه  
كتاب غيره ، ومحاكم الفلسفة المصرية محاكمة دقيقة تبين منها حاجتها الى التكامل مع الفلسفة  
الاسلامية . وهذا امرى بعيد المدى جدير باطالة النظر ، وإجالة الروية ، ولا أظن أن الفلسفة  
الاسلامية وجدت مدافعا عنها أكثرغيرة عليها ، وأدق نظرا فيها ، من فضيلة الأستاذ الزنجاني  
أنابه الحق على عمله الطيب .

روح الإسلام :

وضع هذه الرسالة حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الغفار الهاشمي الحسبي الأفغاني من  
طلبة العلم الأجانب بالأزهر ، وهي كما يدل عليه اسمها تعريف بالإسلام من ناحية أصوله الروحية  
والمجسدية . وهذا جهد منه حسن ، ومحاولة للنأليف بالعربية الصحيحة تقابلها بالتنشيط .  
ولكن الأمر الذي لم نقره عليه هو ما أفاض فيه من المقابلات بين الدين الاسلامي وغيره ،  
فهذا مالا يحسن أن يكتب على الصورة التي أوردها .

نحن النسخة عمرة قروش تطلب من مؤلفها برواق الآثار بالجامع الأزهر . فبحث  
الخبرين على اقتناء هذه الرسالة مساعدة لهذا الطالب في غربته وانقطاع المدد المالي عنه .

### التربية الاجتماعية :

وهذا كتاب حافل بأصول التربية الاجتماعية لم نجد فيها طبع بمصر أجمع منه لها ، فقد ألم فيه مؤلفه المعصالي الأستاذ على فكرى أفندى الأمين الأول بدار الكتب المصرية ، بضروب الواجبات الخاصة من أول واجبات التلخيص الى واجبات الوزراء والنواب والأمراء ، ثم بصنوف الواجبات العامة ، من أول واجبات الانسان نحو نفسه الى واجباته نحو خلقه . ثم انتقل الى ذكر الحقوق وآتى فيها بجميع أنواعها وأنواع الحريات . ثم ختم الكتاب بالإمام بالآداب الاجتماعية من أول آداب المعاشرة الى آداب الاحتفالات العامة .

فهذا الكتاب حاجة من حاجات هذه الآونة التي أصبح العقلاء فيها يشكون من صياح الآداب الاجتماعية ، فكان وضعه من حظ الأستاذ على فكرى أفندى ، وهو خير من يكتب في هذه الشؤون ، فنهنته بهذا التوفيق .

### جامعة السيدات المسلمات :

في القاهرة جماعة للسيدات المسلمات تأسست سنة ١٣٥٦ ( ١٩٣٧ ) مركزها العام بشارع نور الظلام بالحلمية ، وهن ثلثة من كرائم السيدات تحت رئاسة حضرة الآسة النابهة زينب هاشم الغزالى الجبيلى ، ولها مجلس إدارة ومجلس استشارى .

مهمة هذه الجمعية رفع المستوى العلمى والفكرى للسيدات المصريات ، وتدريب بعضهن على إلقاء المحاضرات فى الوعظ والارشاد ، وقد بلغ إيرادها نحو ٨٨ جنيها ، ولكنها أنفقت ١٥٤ جنيها . وقد قام بسد هذا المجرز حضرة الرئيسة المحترمة فأقرضت الجماعة ٦٥ جنيها ، وإياها لأريحية يجب أن تقابل بالأكابر والاجلال .

### ختام السنة الحادية عشرة :

بهذا العدد نختتم السنة الحادية عشرة لهذه المحلة ، وسفداً إن شاء الله سنتها الثانية عشرة فى أول المحرم لسنة ١٣٦٠ المقبلة . وإنا نعد حضرات القراء ببذل الوسع لجعل هذه الخدمة الشريفة أغرم ما تكون إنتاجاً ، وأنفع ما تكون إنجازاً . مستصدر حالية الصدر بالدروس الدينية لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، وهى الدروس التى جلى فيها فضيلته من كرائم المعانى القرآنية ما جلى ، وبين من مدلولاته العلوية ما بين .

وفى هذه المناسبة نذكر حضرات قرائنا بأن يصوا بإرسال طلباتهم الجديدة إلينا مشفوعة بقيم اشتراكهم بأذون بريدية يدون فيها أمام عبارة المكتتب المكلف بالدفع كلمة ( الأزهر ) لحسب دون ذكر كلمة مصر .

Now great multitudes came to adopt Islam and take the oath of allegiance to the Prophet. For this purpose an assembly was held at Mount el Safa. Omar, acting as the Prophet's deputy administered the oath, whereby the people bound themselves not to adore any deity but God, to obey the Prophet, to abstain from theft, adultery, infanticide, lying and backbiting. Thus was fulfilled the prophecy embodied in the chapter of Victory in the Koran. (1)

During his stay at Mecca, the Prophet despatched his principal disciples in every direction to preach Islam among the wild tribes of the desert and call them to the true religion of God. He sent small detachments of his troops into the suburbs who destroyed the temples of Al Uzza, Suwaa and Manat, the three famous idols in the temples of the neighbouring tribes. The Prophet gave strict orders that these expeditions should be carried out in a peaceable manner(2). These injunctions were obeyed in all cases, with one exception. The troops under Khalid Ibn el Walid, the fierce newly-converted warrior, killed a few of the Banu Jazima. When the news of this wanton bloodshed reached the Prophet he was deeply grieved, and exclaimed, 'Oh, my Lord, I am innocent of what Khalid has done,' and he despatched a large sum of money for the widows and orphans of the slain, and severely rebuked Khalid (3). At this time the tribes of Hawazin and Thakif showed unwillingness to render obedience to the Moslems without resistance. They formed a league with the intention of attacking the Prophet. But he was vigilant enough to frustrate their plan. A big battle was fought with this new enemy of Islam near Murem, a deep and narrow defile nine miles to the north-east of Mecca. The idolaters were utterly defeated. One body of the enemy consisting chiefly of the Thakif tribe, took refuge in their fortified city of Tayef, which, as the reader may remember, eight or nine years before had dismissed the Prophet from within its walls with injuries and insults. The remainder of the defeated force, consisting principally of the Hawazin, sought refuge at a camp in the valley of Autas. This camp was raided by the Moslem troops. The families of the Hawazin, their flocks and herds with all their other effects were captured by the troops of the Prophet. Tayef was then besieged for a few days only, after which the Prophet raised the siege well knowing that the people of Tayef would soon be forced by circumstances to submit without bloodshed. Returning to his camp where the prisoners of Hawazin were left for safety, the prophet found a deputation from this hostile tribe who begged

---

(1) "When victory and triumph are come from God and thou sees hosts of people embrace the religion of God, you will then praise the glory of your Lord and implore His pardon, as He is ever ready to welcome penitence."

(2) & (3) F.P. Hughes — Dictionary of Islam.



Hudeibiya by attacking the Banu Khuzaah who were in alliance with the Moslems. The Banu Khuzaah of whom a number of men were massacred appealed to the Prophet for help and protection. The Prophet determined to make a stop to the reign of injustice and oppression which had lasted long at Mecca. He immediately gathered ten thousand men to march against the idolaters. On January 1st 630, the Prophet began his march. After eight days the Moslem Army halted and alighted at Marwat el Zahran a day's journey from Mecca. On the night of his arrival, Abu Sofian, who was delegated by the Koreishites to ask the Prophet to abandon his project, presented himself and besought an interview. On the morrow it was granted. "Has the time not come, O Abu Sofian", said the Prophet, "for thee to acknowledge that there is no deity save God, and that I am His apostle?" Abu Sofian, after hesitating for a while, pronounced the prescribed formula of belief, and adopted Islam. He was then sent back to prepare the city for the Prophet's approach. With the exception of a slight resistance by certain clans headed by Ikrima and Safwan, in which many Moslems were killed, the Prophet entered Mecca almost unopposed. The city which had treated him so cruelly, driven him and his faithful band for refuge amongst strangers, the city which had sworn his life and the lives of his devoted adherents, now lay at his mercy. His old persecutors were now completely at his feet. The Prophet entered Mecca on his favourite camel 'Al Kaswa' having Abu Bakr on his right hand, Usaid on his left, and Usama walking behind him. On his way he recited a chapter of the Koran, known as the chapter of the victory (1). The Moslem army entered the city unostentatiously and peacefully. No house was robbed, no man or woman was insulted. The Prophet granted a general amnesty to the entire population of Mecca. Only four criminals whom justice condemned, were proscribed. He, however, ordered the destruction of all idols and pagan images of worship, upon which the 360 idols which the Holy temple of Kaaba contained were thrown down. The Prophet himself destroyed a wooden pigeon from the roof and regarded as one of the deities of the Koreishites. During the downfall of the images and idols he was heard to cry aloud. "God is great. God is great. Truth has come and falsehood has vanished, verily falsehood is evanescent." The old idolaters observed thoughtfully the destruction of their gods which were utterly powerless. After the Prophet had abolished these pagan idols and every pagan rite, he delivered a sermon to the assembled people. He dwelt upon the natural brotherhood of man in the words of the Koran as contained in chapter XLIX, verse 13. (2)

(1) Koran, chap. IX

(2) "Verily the true believers are brethren, wherefore make peace among your brethren; and fear God, that ye may obtain mercy"



Muir in his *Life of Mohammed* Vol. III comments on this incident as follows "It was surely a strange sight which at this time presented itself at the vale of Mecca, a sight unique in the history of the world. The ancient city is for three days evacuated by all its inhabitants, high and low, every house deserted, and, as they retire, the exiled converts, many years banished from their birth-place, approach in a great body accompanied by their allies, revisit the empty homes of their childhood, and within the short allotted space, fulfil the rites of pilgrimage. The outside inhabitants, climbing the heights around, take refuge under tents or other shelter among the hills and glens, and clustering on the overhanging peak of Abu Qubeis, thence watch the movements of the visitors beneath, as with the Prophet at their head, they make the circuit of the Kaaba and the rapid procession between Es-safa and Marwah, and anxiously scan every figure, if perchance they may recognise among the worshippers some long-lost friend or relative. It was a scene rendered possible only by the throes which gave birth to Islam."

In accordance with the terms of the treaty, the Moslems left Mecca at the end of three days' visit. This peaceful visit was followed by important conversions among the Koreishites. Khalid Ibn el Walid, known as the Sword of God, who, before this, had been a bitter enemy of Islam and who commanded the Koreishites Cavalry at Ohod; and Amr Ibn el Aas, another important character and warrior adopted the new faith.

When the Prophet and his followers returned to Medina, they arranged an expedition to exact retribution from the Ghassanite Prince who killed the Moslem envoy. A force of 3000 men, under the Prophet's adopted son Zaid, was sent to take reparation from the offending tribe. Khalid Ibn el Walid was one of the generals chosen for the expedition. When they reached the neighbourhood of Muta, a village to the south-east of the Dead Sea, they met with an overwhelming force of Arabs and Romans who were assembled to oppose them. The Moslems, however, resolved resolutely to push forward. Their courage was of no avail and they suffered great losses. In this battle Zaid and Jaafar, a cousin of the Prophet and several other notables were killed. Khalid Ibn el Walid, by a series of manoeuvres, succeeded in drawing off the army, and conducting it without further losses to Medina. A month later, however, Amr Ibn el Aas marched unopposed through the lands of the hostile tribes, received their submission and restored the prestige of Islam on the Syrian frontier. (1)

## VII

### THE CONQUEST OF MECCA

About the end of the seventh year of the Hijra, the Koreishites and their allies, the Banu Bakr violated the terms of the peace concluded at

(1) Ch. Hughes' Dictionary of Islam.

Persia, Chosroes Parvis, was received with disdain and contumely. He was haughtily amazed at the boldness of the Meccan fugitive in addressing him on terms of equality. He was so enraged that he tore into pieces the Prophet's letter of invitation to Islam, and dismissed the envoy from his presence with great contempt. When the Prophet received information of this treatment, he calmly observed: "Thus will the Empire of Chosroes be torn to pieces"(1)

The embassy to Heraclius, the Emperor of the Romans was received much more politely and reverentially. He treated the ambassador with great respect and sent the Prophet a gracious reply to his message.

Another envoy was sent to an Arab prince of the Ghassanite tribe, a Christian feudatory of Heraclius. This prince instead of receiving the envoy with any respect cruelly murdered him. This act caused great consternation among the Moslems who considered it as an outrage of international obligations.

In the same year the Jews of Khaibar, a strongly fortified territory at a distance of four days journey from Medina, showed implacable hatred towards the Moslems. Several branches of the "Nadweer" and "Qurayza" took refuge at Khaibar, which contributed to increase the feeling of animosity on the part of their brethren towards the Prophet and his followers. United by alliance with the tribe of "Ghatfan" as well as with other cognate tribes, the Jews of Khaibar made serious attempts to form a coalition against the Moslems. The Prophet and his adherents were apprised of this movement. Immediate measures had to be taken in order to repress any new attack upon Medina. An expedition of 1400 men was soon prepared to march against Khaibar. The allies of the Jews left them to face the war with the Moslems all alone. The Jews firmly resisted the attacks of the Moslems, but eventually all their fortresses had to be surrendered, one after the other to their enemies. They prayed for forgiveness which was accorded them on certain conditions. Their lands and immovable property were secured to them, together with the free practice of their religion.(2)

After subduing Khaibar, the Moslems returned to Medina in safety.

Before the end of the year, it being the seventh year of the Hijra, the Prophet and his adherents availed themselves of their armistice with the Koreishites to accomplish their desire of visiting the holy Kaaba. The Prophet accompanied by 2000 Moslems went on his journey to Mecca to perform the rites of pilgrimage. On this occasion the Koreishites evacuated the city during the three days on which the ceremonies lasted.

---

(1) Ibn Hisham, Vol. VII

(2) Ibn Athir, Ibn Hisham, Caussin de Perceval, etc.

of any kind. If the Christians should stand in need of assistance for the repair of their churches or monasteries, or any other matter pertaining to their religion, the Moslems were to assist them. This was not to be considered as supporting their religion, but as simply rendering them assistance in special circumstances. Should the Moslems be engaged in hostilities, with outside Christians, no Christian resident among the Moslems should be treated with contempt on account of his creed. The Prophet declared that any Moslem violating any clause of the Charter would be regarded as a transgressor of God's Commandments, a violator of His Testament and neglectful of His faith<sup>(1)</sup>.

## VI

### THE PEACE OF HUDEIBIYA

Six years had already elapsed since the Prophet and his Meccan followers fled from their birth-place. Their hearts began to yearn for their homes and for their temple of the Kaaba. The season of the pilgrimage approached. The Prophet announced his intention to visit the holy centre. Numerous voices of his disciples responded to the call. Preparations were soon made for the journey to Mecca. The Prophet accompanied by seven or eight hundred Moslems, Refugees and Helpers, all totally unarmed set out on the pilgrimage. The Koreishites who were still full of animosity towards the Moslems gathered a large army to prevent the true believers from entering Mecca. They maltreated the envoy whom the Prophet had sent to ask their permission to visit the holy places. After much difficulty a treaty was concluded by which it was agreed that all hostilities should cease for ten years; that any one coming from the Koreishites to the Prophet without the permission of the guardian or chief, should be given back to the idolators; that any Moslem person going over to the Meccans should not be surrendered; that any tribe desirous of entering into alliance, either with the Koreishites or with the Moslems should be at liberty to do so without disputes, that the Moslems should go back to Medina on the present occasion and stop advancing further; that they should be permitted in the following year to visit Mecca, and to remain there for three days with the arms they used on journeys, namely, their scimitars in sheaths.

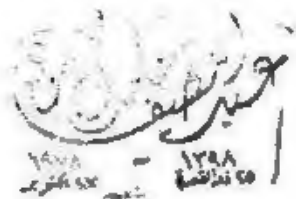
The treaty thus ended, the Prophet returned with his people to Medina<sup>(2)</sup>.

About this time it was revealed to the Prophet that his mission should be universal<sup>(3)</sup>. He despatched several envoys to invite the neighbouring sovereigns to Islam. The embassy to the king of

(1) Abul Feda; Ibn Athir; Al Wakidi etc.

(2) That is without fulfilling their proposed pilgrimage.

(3) Koran Chap. VII



for twenty days. The enemy made great efforts to cross the trench, but every attempt was fiercely repulsed by the small Moslem force. Disunion was now rife in the midst of the besieging army. Their horses were perishing fast, and provisions were becoming less every day. During the night-time a storm of wind and rain caused their tents to be overthrown and their lights extinguished. Abu Sofian and the majority of his army fled away and the rest took refuge with the Qoraiza. (1) The Moslems, though they were satisfied with the failure of their enemies, could not help thinking that the victory was unsatisfactory so long as the Qoraiza, who had violated their sworn pledge, remained so near. The Jews might at any time surprise Medina from their side. The Moslems felt it their duty to demand an explanation of the violation of the pledge. This was utterly refused. Consequently the Jews were besieged, and compelled to surrender at discretion. They only asked that their punishment should be left to the judgment of Saad Ibn Moaz, the prince of the tribe of Aws. This chief who was a fierce soldier, had been wounded in the attack and indeed died of his wounds the following day. Infuriated by the treacherous conduct of the Bani Qoraiza, he gave judgement that the fighting men should be put to death, and that the women and children should become the slaves of the Moslems. The sentence was carried into execution.

Commenting on the harshness of the sentence, Mr. Stanley Lane Poole in the introduction of his 'Selections from the Koran' writes as follows: "It was a harsh, bloody sentence, worthy of the episcopal generals of the army against the Albigenses, or of the deeds of the Augustan age of Puritanism; but it must be remembered that the crime of these men was high treason against the State during time of siege; and those who have read how Wellington's march could be traced by the bodies of the deserters and pillagers hanging from the trees, need not be surprised at the summary execution of a traitorous clan." (2)

It was about this time that the Prophet granted to the monks of the monastery of St. Catherine, near mount Sinai his liberal Charter, by which they secured for the Christians noble and generous privileges and immunities. He undertook himself, and enjoined his followers, to protect the Christians, to defend their churches and the residence of their priests and to guard them from all injuries. They were not to be unfairly taxed; no bishop was to be driven out of his diocese; no Christian was to be forced to reject his religion; no monk was to be expelled from his monastery; no pilgrim was to be stopped from his pilgrimage, nor were the Christian churches to be pulled down for the sake of building mosques or houses for the Moslems. Christian women married to Moslems were to enjoy their own religion, and not to be subjected to compulsion or annoyance

(1) Ibn el Athir; Ibn Hisham, etc.

(2) Vide Stanley Lane Poole, Selections from the Koran

with them, were distributed by the Prophet, with the consent of the Helpers, among the Refugees. A principle was henceforth adopted that any acquisition, not made in actual warfare, should belong to the state, and that its disposal should be left to the discretion of the ruling authorities<sup>(1)</sup>.

Certain prejudiced Western historians wrongly accuse the Moslems of having treated these Jews of Nadeer with the utmost cruelty. For instance Dr. Prideaux in his "Life of Mahomet", falsely charged them with overtaking the Jews who fled to Syria, and putting them all to death.

G. Sale has already saved us the trouble of refuting such erroneous statements.

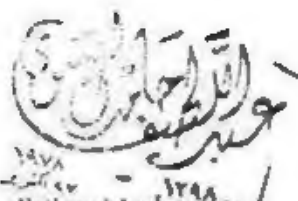
The expulsion of the Nadeers took place in the fourth year of the "Hijra". The remaining portion of this year, and the early part of the next were passed in repressing the hostile attempts of the nomadic tribes against the Moslems, and inflicting punishment for various murderous forays on the Medinite territories. Of this nature was the expedition against the Christian Arabs of Dumat el Gandal, (a place about seven days' journey to the south of Damascus) who had stopped the Medinite traffic with Syria, and even threatened a raid upon Medina; these marauders, however, fled on the approach of the Moslems, and the Prophet returned to Medina, after concluding a treaty with a neighbouring chief, to whom he granted permission of pasturage in the Medinite territories<sup>(2)</sup>.

In the same year, the enemies of Islam made every possible attempt to stir up the tribes against the Moslems. The Jews also took an active, if hidden, part in those intrigues. An army of ten thousand men, well equipped, marched towards Medina, under the command of Abu Sofian. They encamped near Mount Ohod, a few miles from the city. The Moslems could gather only a much smaller army of three thousand men. Seeing their inferiority in numbers on the one hand, and the turbulence of the Hypocrites within the town on the other, they preferred to remain on the defensive. They dug a deep moat round the unprotected quarters of Medina and encamped outside the city with a trench in front of them. They relied for safety of the other side upon their allies, the Koraiza, who possessed several fortresses at a short distance towards the south and were bound by the compact to assist the Moslems against any raiders. These Jews, however, were induced by the idolaters to violate their pledge and to join the Koreishites. As these Jews were acquainted with the locality and could materially assist the raiders, and as, on the other hand the Hypocrites within the walls of the city were waiting for an opportunity to play their part, the situation of the Moslems was most dangerous. The siege had already lasted

---

(1) Vide "Droit Musulman" by M. Querry, p. 337.

(2) C. de Perceval, Vol. III; Tabari, Vol. III.



to sow sedition among the Moslems. One of their distinguished-poets, called Kaab, of the tribe of Nadeer, spared no efforts in publicly deploring the ill-success of the idolaters, after their defeat at Badr. By his satires against the Prophet and his disciples, and his elegies on the Meccans who had fallen at Badr, he succeeded in exciting the Koreishites to that frenzy of vengeance which broke out at Ohod. He then returned to Medina, where he continued to attack the Prophet and the Moslems, men and women, in terms of the most obscene character. Though he belonged to the tribe of Nadeer which had entered into the compact with the Moslems and pledged itself both for the internal and external safety of the State, he openly directed his acts against the Commonwealth, of which he was a member. Another Jew, Sallam by name, of the same tribe, behaved equally fiercely and bitterly against the Moslems, as did Kaab. He lived with a party of his tribe at Khaibar, a village five days' journey north-west of Medina. He made every effort to excite the neighbouring Arab tribes against the Moslems. The Moslem Commonwealth with the object of securing safety among the community, passed a sentence of outlawry upon Kaab and Sallam. The members of another Jewish tribe, namely Bani Quaynouqa, were sentenced to expulsion from the Medinite territory, for having openly and knowingly infringed the terms of the compact. It was necessary to put an end to their hostile actions, for the sake of maintaining peace and security. The Prophet had to go to their head-quarters, where he required them to enter definitively into the Moslem Commonwealth by embracing Islam, or to leave Medina. To this they replied in the most offensive terms; "Thou hast had a quarrel with men, ignorant of the art of war. If thou art desirous of having any dealings with us, we shall show thee that we are men (1)". They then shut themselves up in their fortress and set the Prophet and his authority at defiance. The Moslems decided to reduce them, and siege was accordingly laid to their fortress without loss of time. After fifteen days they surrendered. Though the Moslems at first intended to inflict some severe punishment on them, they contented themselves by banishing the Bani Quaynouqa. The tribe of Nadeer had now behaved in the same way as Quaynouqa. They had likewise, knowingly and publicly, disregarded the terms of the Charter. The Prophet sent them a message similar to that which was sent to their brethren, the Quaynouqa. They, relying on the assistance of the Hypocrites' party, returned a defiant reply. After a siege of fifteen days, they sued for terms. The Moslems renewed their previous offer, and the Jews of Nadeer chose to evacuate Medina. They were allowed to take with them all their movable property, with the exception of their arms. Before leaving Medina, they destroyed all their dwellings, in order to prevent the Moslems from occupying them (2). Their immovable property, warlike material, etc., which they could not carry away

(1) and (2) Ibn Hisham; Ibn Athir.